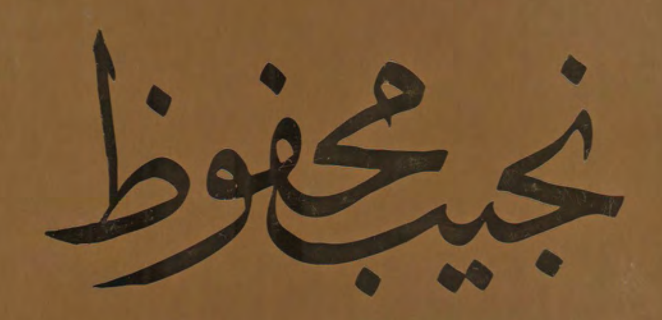
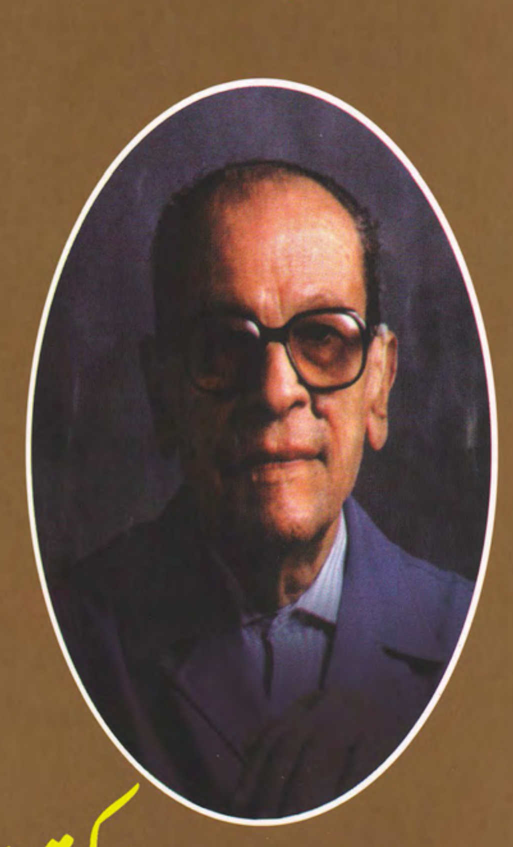


الأعمال الكاملة

١



دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

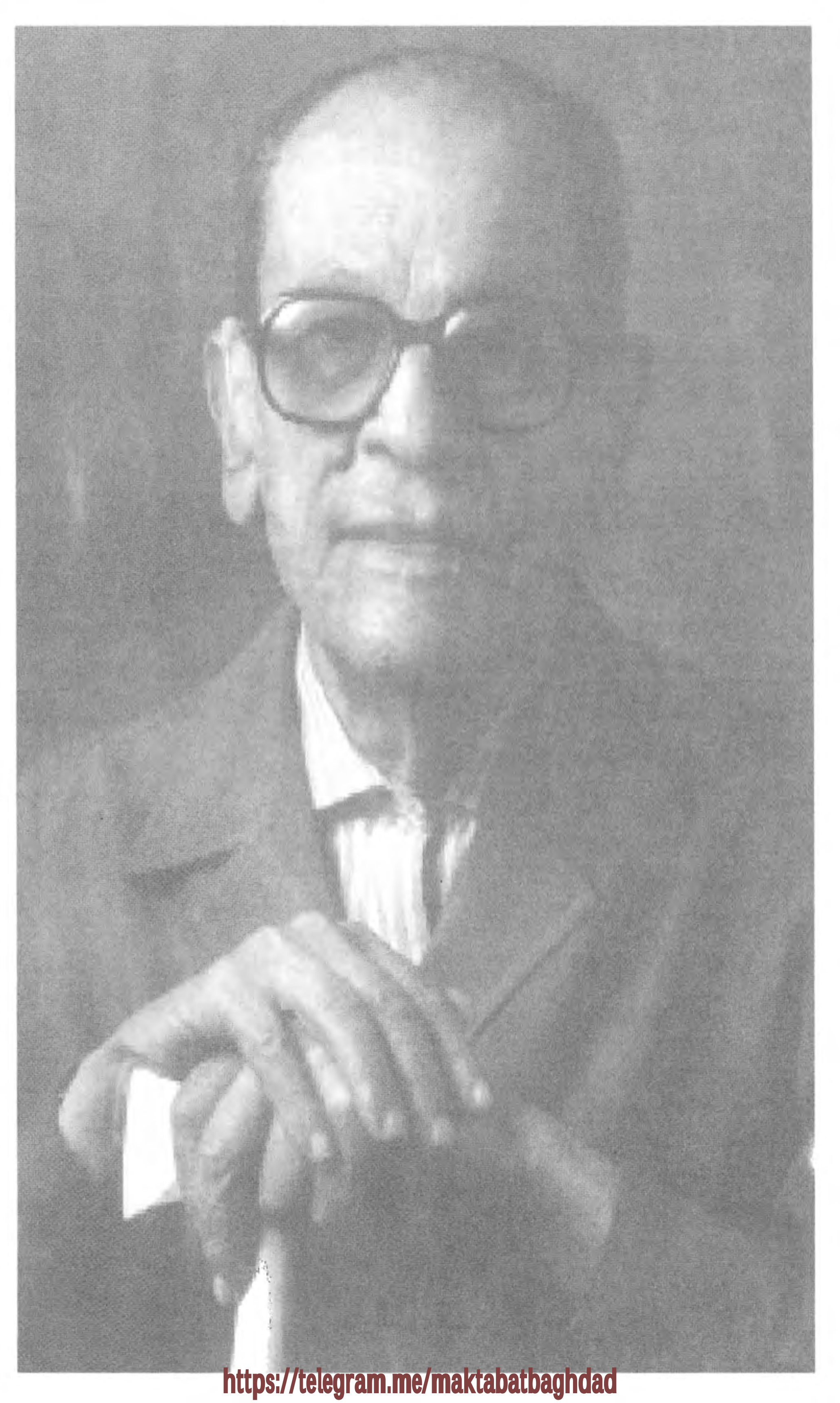
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

١

دار الشروق



الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

١


https://telegram.me/maktabatbaghdad

همس الجنون

مجموعة قصصية

المحتويات

همس الجنون

ما الجنون؟!

إنه فيما يبدو حالة غامضة كالحياة وكالموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج. أما الباطن، أما الجوهر، فسر مغلق. وصاحبنا يعرف الآن أنه نزل ضيفا بعض الوقت بالخانكة، ويذكر ـ الآن أيضا ـ ماضى حياته كما يذكره العقلاء جميعا، وكما يعرف حاضره. أما تلك الفترة القصيرة ـ قصيرة كانت والحمد لله ـ فيقف وعيه حيال ذكرياتها ذاهلا حائرا لا يدرى من أمرها شيئا تطمئن إليه

النفس. كانت رحلة إلى عالم أثيرى عجيب، ملىء بالضباب، تتخايل لعينيه منه وجوه لا تتضح ملامحها، كلما حاول أن يسلط عليها بصيصا من نور الذاكرة ولت هاربة فابتلعتها الظلمة. ويجىء أذنيه منه أحيانا ما يشبه الهمهمة وما إن يرهف السمع ليميز مواقعها حتى تفر متراجعة تاركة صمتا وحيرة. ضاعت تلك الفترة السحرية بما حفلت من لذة وألم، حتى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستارا كثيفا من الصمت والتجاهل لحكمة لا تخفى، فاندثرت دون أن يتاح لها مؤرخ أمين يحدث بأعاجيبها. ترى كيف حدثت؟! متى وقعت؟ كيف أدرك الناس أن هذا العقل غدا شيئا غير العقل؟ وأن صاحبه أمسى فردا شاذا يجب عزله بعيدا عن الناس كأنه الحيوان المفترس؟!

كان إنسانا هادئا أخص ما يوصف به الهدوء المطلق. ولعل ذاك ما حبب إليه الجمود والكسل، وزهده فى الناس والنشاط. ولذلك عدل عن مرحلة التعليم فى وقت باكر، وأبى أن يعمل مكتفيا بدخل لا بأس به. وكانت لذته الكبرى أن يطمئن إلى مجلس منعزل على طوار القهوة فيشبك راحتيه على ركبته، ويلبث ساعات متتابعات جامدا صامتا، يشاهد الرائحين والغادين بطرف ناعس وجفنين ثقيلين، لا يمل ولا يتعب ولا يجزع، فعلى كرسيه من الطوار كانت حياته ولذته. ولكن وراء ذلك المظهر البليد الساكن حرارة أو حركة فى قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم والعقل، الحواس والخيال، كان تمثالا من لحم ودم يلوح كأنما يشاهد الناس، وهو بمعزل عن الحياة جميعا.

ثم ماذا؟!

حدث فى الماء الآسن حركة غريبة فجائية كأنما ألقى فيه بحجر.

كيف؟!

رأى يوما ـ إذ هو مطمئن إلى كرسيه على الطوار ـ عمالا يملئون الطريق، يرشون رملا أصفر فاقعا يسر الناظرين، بين يدى موكب خطير. ولأول مرة فى حياته يستثير دهشته شىء فيتساءل: لماذا يرشون الرمل؟ ثم قال لنفسه: إنه يثور فيملأ الخياشيم ويؤذى الناس، وهم أنفسهم يرجعون سراعا فيكنسونه ويلمونه، فلماذا يرشونه إذن؟! وربما كان الأمر أتفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولكن تساؤله بدا له كأخطر حقيقة فى حياته وقتذاك، فخال أنه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى، ووجد فى عملية الرش أولا والكنس أخيرا والأذى فيما بين هذا وذاك حيرة أى حيرة، بل أحس ميلا إلى الضحك، ونادرا ما كان يفعل، فضحك ضحكا متواصلا حتى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هذا محض انفعال طارئ، فالواقع أنه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى

حال جديدة، ومضى يومه حائرا أو ضاحكا، يحدث نفسه فيقول كالذاهل: يرشون فيؤذون ثم يكنسون. . . ها ها ها!

وفى صباح اليوم الثانى لم يكن أفاق من حيرته بعد. ووقف أمام المرآة يهيئ من شأنه، فوقعت عيناه على ربطة رقبته وسرعان ما أدركته حيرة جديدة. فتساءل: لماذا يربط رقبته على هذا النحو؟ ما فائدة هذه الربطة؟ لماذا نشق على أنفسنا فى اختيار لونها وانتقاء مادتها؟ وما يدرى إلا وهو يضحك كما ضحك بالأمس، وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحيرة ودهشة، ومضى يقلب عينيه فى أجزاء من ملابسه جميعا بإنكار وغرابة. ما حكمة تكفين أنفسنا على هذا الحال المضحك؟ لماذا لا نخلع هذه الثياب ونطرحها أرضا؟ لماذا لا نبدو كما سوانا الله؟ بيد أنه لم يتوقف عن ارتداء ملابسه حتى انتهى منها، وغادر البيت كعادته.

ولم يعد يذوق هدوءه الكثيف الذى عاش فى إهابه دهرا طويلا قانعا مطمئنا. كيف له بالهدوء وهذه الثياب الثقيلة تأخذ بخناقه على رغمه؟! أجل على رغمه. وقد اجتاحته موجة غضب وهو يحث خطاه، وكبر عليه أن يرضى بقيد على رغمه. أليس الإنسان حرا؟ وتفكر مليا ثم أجاب بحماس: بلى أنا حر. وملأه بغتة الشعور بالحرية، وأضاء نور الحرية جوانب روحه حتى استخفه الطرب. أجل هو حر. نزلت عليه الحرية كالوحى فملأه يقينا لا سبيل إلى الشك فيه، إنه حر يفعل ما يشاء كيف شاء حين يشاء، غير مذعن لقوة أو خاضع لعلة لسبب خارجى أو باعث باطنى. حل مسألة الإرادة فى ثانية واحدة، وأنقذها بحماس فائق من وطأة العلل، وداخله شعور بالسعادة والتفوق عجيب، فألقى نظرة ازدراء على الخلق الذين يضربون فى جوانب السبل مسيرين مصفدين لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، إذا ساروا لم يملكوا أن يقفوا، وإذا وقفوا لم يملكوا أن يسيروا، أما هو فيسير إذا أراد ويقف حين يريد، مزدريا كل قوة أو قانون أو غريزة. وأهاب به شعوره الباهر أن يجرب قوته الخارقة فلم يستطع أن يعرض عن نداء الحرية. توقف عن مسيره بغتة وهو يقول لنفسه: «هأنذا أقف لغير ما سبب». ونظر فيما حوله فى ثوان ثم تساءل: أيستطيع أن يرفع يديه إلى رأسه؟ أجل يستطيع، وها هو ذا يرفع يديه غير مكترث لأحد من الناس. ثم تساءل مرة أخرى: هل تؤاتيه الشجاعة على أن يقف على قدم واحدة؟ وقال لنفسه: فلم لا أستطيع وما عسى أن يعتاق حريتى؟! وراح يرفع يسراه كأنه يقوم بحركة رياضية فى أناة وعدم مبالاة كأنه وحده فى الطريق بلا رقيب. وغمرت فؤاده طمأنينة سعيدة وملأته ثقة بالنفس لا حد لها، فمضى يتأسف على ما فاته ـ طوال عمره ـ من فرص كانت حرية بأن تمتعه بحريته وتسعده، واستأنف مسيره وكأنه يستقبل الحياة من جديد.

ومر فى طريقه إلى القهوة بمطعم كان يتناول به عشاءه فى بعض الأحايين، فرأى على

طواره مائدة ملأى بما لذ وطاب. يجلس إليها رجل وامرأة متقابلين يأكلان مريئا ويشربان هنيئا، وعلى بعد يسير جلس جماعة من غلمان السبل، عرايا إلا من أسمال بالية، تغشى وجوههم وبشرتهم طبقة غليظة من غبار وقذارة، فلم يرتح لما بين المنظرين من تنافر، وشاركته حريته عدم ارتياحه فأبت عليه أن يمر بالمطعم مر الكرام. ولكن ما عسى أن يصنع؟ قال له فؤاده بعزم ويقين: «ينبغى أن يأكل الغلمان مع الآخرين». ولكن الآكلين لا يتنازلان عن شىء من هذه الدجاجة أمامهما بسلام، هذا حق لا ريب فيه، أما إذا رمى بها إلى الأرض فتلوثت بالتراب فما من قوة تستطيع أن تحرم الغلمان إياها، فهل ثمة مانع يمنعه من تحقيق رغبته؟.. هيهات، وربما كان التردد ممكنا فى زمن مضى، أما الآن.. واقترب من المائدة بهدوء، ومد يده إلى الطبق فتناول الدجاجة، ثم رمى بها عند أقدام العرايا، وتحول عن المائدة وسار إلى حال سبيله كأنما لم يأت أمرا نكرا، غير عابىء بالزئير الذى يلاحقه مفعما بأقذع السباب والشتائم، بل غلبه الضحك على أمره، فاسترسل ضاحكا حتى دمعت عيناه. وتنهد بارتياح من الأعماق، وعاوده شعوره العميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

وبلغ القهوة فمضى إلى كرسيه واطمأن إليه كعادته، بيد أنه لم يستطع هذه المرة أن يشبك راحتيه حول ركبته ويستسلم لسكوته المعهود، لم تطاوعه نفسه، فقد فقدت قدرتها على الجمود، أو برئت من عجزها عن الحركة فنبا به مجلسه، حتى همَّ بالنهوض، إلا أنه رأى - فى تلك اللحظة - شخصا غير غريب عن ناظريه وإن لم تصله به أسباب التعارف. كان من رواد المقهى مثله. وكان جسما ضخما وأوداجا منتفخة، يسير مرفوع الرأس فى خيلاء، ملقيا على ما حوله نظرة ترفع وازدراء، تنطق كل حركة من حركاته وكل سكنة من سكناته بالزهو كأنما يثير الخلق فى نفسه ما تثيره الديدان فى نفس رقيقة مرهفة الحس، وكأنه يراه لأول مرة. بدا له قبحه وشذوذه عاريا، فغالبته هذه الضحكة الغريبة التى ما انفكت هذين اليومين تعابثه، ولم تفارقه عيناه، وثبتت خاصة على قفاه يبرز من البنيقة عريضا ممتلئا مغريا. وتساءل: أيتركه يمر بسلام؟! معاذ الله، لقد ألف داعى الحرية، وعاهده ألا يخالف له أمرا، وهز منكبيه استهانة واقترب من الرجل فكاد يلاصقه، ورفع يده، وهوى بكفه على القفا بكل ما أوتى من قوة، فرنت الصفعة رنينا عاليا، ولم يتمالك نفسه فأغرب ضاحكا، ولكن لم تنته هذه التجربة بسلام كأختها السابقة، فالتفت الرجل نحوه فى غضب جنونى، وأمسك بتلابيبه وانهال عليه ضربا وركلاً حتى خلّص بينهما بعض الجلوس. وفارق القهوة لاهثا، ومن عجب أنه لم يستشعر الغضب ولا الندم، وعلى العكس من ذلك ألمت بحواسه لذة عجيبة لا عهد له بها من قبل، وافتر ثغره عن ابتسامة لا تزايله، وفاضت نفسه بحيوية وسرور يغشيان أى ألم، ولم يعد يكترث لشىء غير حريته التى فاز بها فى لحظة من الزمان وأبى أن يغيب

عنها ثانية واحدة من حياته، ومن ثم ألقى بنفسه فى تيار زاخر من التجارب الخطيرة بإرادة لا تنثنى وقوة لا تقهر. صفع أقفية وبصق على وجوه وركل بطونا وظهورا، ولم ينج فى كل حال من اللكمات والسباب، فحطمت نظارته ومزق زر طربوشه وتهتك قميصه ونغضت ثنيتاه، ولكنه لا ارتدع ولا ازدجر ولا انثنى عن سبيله المحفوف بالمخاطر، ولا فارق الابتسام شفتيه، ولا خمدت نشوة فؤاده الثمل، ولو اعترض الموت طريقه لاقتحمه غير هياب.

ولما آذنت الشمس بالمغيب عثرت عيناه المتجولتان بحسناء مقبلة متأبطة ذراع رجل أنيق المنظر، ترفل فى ثوب رقيق شفاف، تكاد حلمة ثديها تثقب أعلى فستانها الحريرى، وجذب صدرها الناهد عينيه فزادتا اتساعا ودهشة، وهاله المنظر، وكانت تقترب خطوة فخطوة حتى باتت على قيد ذراع.

وكان عقله ـ أو جنونه ـ يفكر بسرعة خيالية، فخطر له أن يغمز هذه الحلمة الشاردة! إن رجلا ما يفعل ذلك على أية حال، فليكن هذا الرجل، واعترض سبيلهما، ومد يده بسرعة البرق، وقرص! آه لقد انهالت عليه اللطمات واللكمات، وأحاط به كثيرون. ولكنهم فى النهاية تركوه! لعل ضحكته الجنونية أخافتهم، ولعل نظرة عينيه المحملقتين أفزعتهم. تركوه على أية حال. ونجا ولم تكد تزداد حالته سوءا! وكان لا يزال به طموح إلى مزيد من المغامرات، ولكن لاحت منه نظرة إلى ملابسه فهاله ما يرى من تمزقها وتهتكها. وبدلا من أن يأسى على نفسه راح يذكر ما دار بخلده صباح اليوم أمام المرآة، فلاحت فى عينيه نظرة غائبة، وعاد يتساءل: لماذا يدع نفسه سجينا فى هذه اللفائف تشد على صدره وبطنه وساقيه؟! وناء بثقلها، وشعر لوطأتها باختناق، فغليت مراجله، ولم يستطع معها صبرا، وأخذت يداه تنزعانها قطعة قطعة، بلا تمهل ولا إبطاء، حتى تخلص منها جميعا، فبدا عاريا كما خلقه الله، وعابثته ضحكته الغريبة، فقهقه ضاحكا، واندفع فى سبيله..

المزيف

كان التياترو مكتظا بالنظارة، حيث كانت تمثل رواية البخيل لموليير، وكان جمهوره كالمعتاد خليطا من طلاب التسلية ومحبى الظهور ومدعى الفن وعشاق الخيال، وكان على أفندى جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين فى الصفوف الأمامية، وكان يتتبع التمثيل بين اليقظة والنوم، واضعا خده على يده، ومسندا مرفقه إلى مسند المقعد، وكان قد طالع فى بعض المجلات عن الرواية ما جعله يظنها آية من آيات الكوميدى فجاء

التياترو بنفس تواقة إلى الضحك والسرور، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسته وكاد يستسلم للنعاس، ولكن الأقدار أرادت أن تتبرع بتعويضه عن خيبته؛ ففى أثناء الاستراحة دنا منه النادل وانحنى على أذنه وقال باحترام وتأدب:

ـ هل للبك أن يتفضل بالذهاب إلى البنوار رقم واحد؟

ثم ذهب إلى حال سبيله. ونظر على أفندى إلى البنوار رقم واحد فرأى الستار الأبيض مسدلا عليه فأدرك أن به «حريما»، وقام من توه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماسا فى أسداس، وطرق الباب مستأذنا فسمع صوتا رخيما لا يعرفه يقول:

ـ تفضل.

فتردد لحظة سريعة لأنه أدرك ـ لدى سماعه الصوت الغريب ـ أن فى الأمر خطأ، ولكنه كان من الرجال الذين تغلبهم على نفوسهم فى محضر النساء جسارة غير محدودة وحب للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة، فاقتحم الباب غير هياب وصار وجها لوجه أمام السيدة الجالسة. وكانت فى الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة الأنوثة، يزين وجهها العاجى حسن تركى ممصر، ويدل على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة وحليها الثمينة. وقد بهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول فى إشفاق: «واأسفاه ستعلم السيدة بالخطأ وسرعان ما تنتهى المقابلة!». ولكن خاب ظنه لأن السيدة ابتسمت إليه تحييه كأنه هو المعنى، وقالت برقة تعرفه بنفسها:

ـ أرجوك ألا يسوءك إقلاقى لراحتك.. أنا أرملة المغفور له على باشا عاصم!

يسوءه؟! ينبغى أن يعد نفسه من المحظوظين فى هذه الدنيا؛ لأن سيدة كتلك السيدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة! ترى لماذا دعته لبنوارها؟ فهو لا يذكر أنه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنه قرأ اسمها فى بعض الأخبار الخاصة بالجمعيات النسائية، وخيّل إليه غروره أنها ربما رأته من حيث لم يرها وأنها ربما وقع فى نفسها منه ـ كما حدث لغيرها وإن كن لسن من نوعها ـ ما علقها به، فإذا صدق حدسه ـ والدلائل تجمع على صدقه ـ فهى تدعوه كما دعت قديما امرأة العزيز فتاها!!

وأحس بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكل رقة وهو ينظر إليها كما ينظر الإنسان إلى شىء ثمين يملكه:

ـ العفو يا صاحبة السعادة.. خادمك...

وهمّ أن يقدم لها شخصه العزيز، واستدلت السيدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت بسرعة وهى تبسم عن در نضيد:

ـ وهل أنت فى حاجة إلى تعريف يا أستاذ... تفضل.

وجلس كما أرادت. ولكن عبارتها الأخيرة قلبت ما بنفسه رأسا على عقب، فعلاه الوجوم، وأطفأ الكدر نور السرور فى عينيه؛ لأنه من المحتمل أن يكون فاتنا محبوبا من النساء، وأن تقع فى غرامه حرم عاصم باشا، ولكن مما لا ريب فيه أنه فى حاجة إلى تعريف ككل إنسان وأنه لم يكن قط فى غنى عن التعريف، فماذا تعنى السيدة الجميلة بقولها هذا؟ إنه يكاد يهتدى إلى وجه الحق، وقد ساعده على ذلك قولها له: «يا أستاذ» فهل تظن السيدة أنه شاعر مصر الأكبر بل شاعر الشرق العربى جميعا الأستاذ محمد نور الدين؟

والحق أن المشابهة التى بينه وبين سيد الشعراء معروفة مشهورة، يعلم بها جميع أصحابه، وطالما جعلوا منها موضوعا للتنكيت والقفش، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل الذى يحد من أعلى بجبهة عالية ومن أسفل بذقن عريضة، وكلاهما له هذا الأنف الرومانى العظيم والشارب الشركسى الغزير ولا اختلاف بينهما إلا أنه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء، وهذا يدل على أن السيدة - فيما لو صدق ظنه - لم تر الشاعر إلا فى إحدى صوره التى تظهر أحيانا فى المجلات والصحف.

واأسفاه، ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة فى لحظة واحدة، فهل يتراجع ويرضى بالغنيمة بالإياب؟ ولكن مثل هذا التردد لم يكن ليخالجه إلا لحظات قصيرة العمر؛ لأنه - كما قلنا - يفقد رشاده فى حضرة النساء، ولا يفكر إلا فى انتهاب اللذة واقتناص الفرصة، فجلس مبتسما على ما به من خيبة مريرة مطمئنا كما ينبغى لشاعر مصر العظيم.

وقالت السيدة:

- سيدى الأستاذ، إن معرفتى بك قديمة جدّا لا كما تظن، وإن أفضالك على روحى لا تقدر بثمن ولا يحصيها عد، وطالما منيت نفسى بالتحدث إليك، وكم كان فرحى عظيما حين عثر بصرى بك فلم أتردد عن دعوتك، وإنى أرجو يا سيدى أن تغفر لى تطفلى..

فقال على أفندى وقلبه يلعن الشاعر:

- ما أسعدنى بعطفك يا سيدتى! إننا معشر الشعراء لنحرق أرواحنا فى سبيل الخلود والشهرة، ومثل إعجابك يا سيدتى أثمن لدى من الخلود والشهرة!

فتوردت وجنتا المرأة ورنت إليه بعينين ناعستين، وقرأت فى عينيه ما حملها على تجنب حديث العواطف وإن كانت تضمر الرجوع إليه فى المستقبل! فقالت:

- هل أعجبتك الرواية؟

الرواية التى صدعت رأسه وفر منها إلى النعاس!!

إنه كان حكيما فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه، ولم تنتظر السيدة جوابه فقالت بثقة:

ـ لا شك فى أنك تعجب بها أيما إعجاب؛ لأنها من تلك الفكاهة العالية التى كتبت عنها فصلا رائعا فى كتابك الخالد «فلسفة الجمال» وقد كان هذا الفصل سبيلى إلى تذوق« موليير وتوين وشو».

فحمد الله أنه لم يذكر رأيه الحقيقى، وهز رأسه باسما وقال باطمئنان عجيب:

ـ البخيل آية فنية رائعة، وهى من الآيات التى لا تمنح كنوزها مرة واحدة، ولقد قرأتها مرة وأخرى، وهأنذا أشاهدها للمرة الثالثة، وفى كل مرة أفوز بحسن جديد!

فابتسمت السيدة وقالت:

ـ إذن أصاب ظنى!

فقال على أفندى:

ـ إنك يا سيدتى آية فى الذكاء.

ولم يأذن الوقت بالاسترسال فى الأحاديث إذ دق الجرس معلنا انتهاء الاستراحة، فاضطر على أفندى أن يستأذن فى طلب الانصراف، وقالت السيدة وهى تودعه:

ـ أرجو أن تشرف قصرى بزيارتك.

فقال وهو ينحنى على يدها:

ـ لى عظيم الشرف يا سيدتى.

ـ يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء.. شارع خمارويه رقم ١٠ بالزمالك..

وتنهدت المرأة ارتياحا وظنت أنها نالت أمنية من أعز أمانيها، وكانت مخلوقة سعيدة الحظ كأن الأقدار تتوخى راحتها. تزوجت برجل من رجال مصر القانونيين المعدودين، فتمتعت برجولته وكفاها الموت شر شيخوخته، وترك لها مالا وجاها واسما عظيما، ولكن ضايقها ظهور منافسة خطيرة لها هى أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدى، يجرى ذكر جمالها ـ مثلها ـ على الألسن، وتتحدث بثرائها المجتمعات، وقد وضعتهما المصادفات فى حى واحد وأغرت بينهما العداوة والبغضاء، فكلتاهما تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة، وتملك قصرا فخما يتيه على قصور الأمراء، وكانت كل منهما تعتز بنفسها وتود لو يغلب نورها نور الأخرى فتنافستا فى اقتناء السيارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة، وتسابقتا فى ميدان الظهور تعرضان حسنهما وتنثران حديثهما، واتخذت كل منهما بطانة من كرائم الأسر والآنسات المثقفات. وقد علمت حرم عاصم باشا يوما أن منافستها دعت إلى تأليف جمعية المرأة الحديثة فلم يرتح لها جانب حتى كونت جمعية تعليم الأميات، وسمعت يوما بأن الأخرى تبرعت بمبلغ

كبير من المال مساهمة فى إنشاء مدرسة كبيرة وأن الصحف أثنت عليها جميل الثناء، فأمرت بتشييد جامع كبير فى عزبتها ودعت لالتقاط صوره مصور أكبر مجلة فى مصر، وطلبت إليه أن يثنى على ورعها وتقواها . . !

وكان آخر ما نمى إلى مسامعها من أخبار منافستها ما لاكته الألسن من أن الموسيقار المعروف الأستاذ الشربينى قد شغف بها حبا، وأنه لا يفتأ يتردد على قصرها، وأن الدور الذائع الصيت «حبيت يا قلبى» الذى يتغنى به المصريون جميعا وتهفو إليه نفوسهم لحن بوحى جمالها! وما علمت بهذه الأخبار حتى التهبت نفسها التهابا واحترق قلبها احتراقا: وتلفتت يمنة ويسرة تبحث عن عاشق «شهير» تصير بحبه حديثا ممتعا وتغدو له وحيا ملهما، فذكرت شاعر مصر محمد نور الدين، فهو المصرى الوحيد الذى له ما للشربينى من الشهرة والمكانة، وهو أجدر الناس بتخليدها فى قصيدة كما خلد الشربينى منافستها فى أسطوانة، وفى تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة فى التياترو وكانت تفكر فى وسيلة تصل بها إليه، فهل كنا مغالين إذ قلنا إنها نالت أمنية من أعز أمانيها؟

* * *

أما على أفندى جبر فقد رجع إلى مقعده وهو يلقى على الحاضرين نظرة فاحصة خشية أن يكون الشاعر الأصلى بين النظارة! وقد ساءل نفسه: «ألا يجدر بى أن أفر؟» ولكنه لم يكن جادا فى سؤاله؛ لأنه لم يعتد الفرار من ميدان النساء.

ولم يأل جهدا فى التأهب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيته الجديدة، فطبع بطاقات باسم محمد نور الدين، ورأى عن حكمة أن يلقى نظرة سطحية على مؤلفات الشاعر فذهب إلى مكتبة وطلب مؤلفاته، فسأله الكتبى:

ـ كلها؟

فقال:

ـ نعم.

فقال الرجل:

ـ الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأن بعضها نفد والبعض غير موجود فى المكتبة. فإذا انتظرت إلى الغد . . .

ولكنه قاطعه متسائلا:

ـ ما الحاضر بين يديك؟

فقال الرجل:

ـ دواوينه الأربعة: النور والظلام، والجحيم، والرحلة الروحية، والسماء السابعة، وكتاب فلسفة الجمال، والرحلة الشرقية، والجزء الثانى من كتاب الغد!

وهاله الأمر وأسقط فى يده، ولم ير بدا من ابتياعها جميعا، وكانت المرة الأولى فى حياته التى يشترى فيها ديوان شعر؛ لأنه بطبعه لا يحب الشعر ولا يهضمه، ولا يجد مسوغا مطلقا للقوافى التى يضمنها معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيته؟ وإنه لينفث فى آذان النساء غزلا يعتقد أنه أرق الكلام وأمتعه، ومع هذا لم يشعر بالحاجة إلى تنسيقه فى بيت من الشعر، ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسية وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشترى ديوانا من الشعر فضلا عن أربعة دواوين كاملة، ولكن قدر فكان!

وقال لنفسه متبرما وهو يحملها إلى بيته: «أعقل أن يكلفنى الحب مالا أو مطاردة خطرة أو صبرا طويلا أو شجارا عنيفا، أما الذى لا أعقله أن يتقاضانى قراءة هذه الكتب؛ فهل أنا عاشق أم تلميذ؟».

وأخذ يقلب صفحات الكتب فغص بالشعر كما توقع ولم يفقه له معنى؛ ولو كان يسيرا مثل: «إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر» لهان الأمر، ولكنه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعانى!! وهذا غزل نور الدين فما بالك لو تطاول إلى الأغراض الأخرى التى يجفل قلبه من مجرد تلاوة عناوينها! والأدهى من ذلك وذاك أن نثره ليس بخير من شعره، فقد قرأ صفحات من كتاب فلسفة الجمال ما كان يظن أن إنسانا عاقلا ينشرها على الملإ، وضاق صدره بنور الدين وشعره ونثره فرمى بالكتب جميعا، ولكنه قال بإصرار وعناد: «سأذهب يوم الأربعاء».

وفى الموعد المسمى ذهب إلى قصر السيدة الجليلة بشارع خمارويه، وكان بادى الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقة إلى ربة القصر، فقاده الخادم إلى صالون رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشى من الصالونات الفخمة، ولكنه لم يدهش لأن منظر الحديقة والقصر الخارجى سلبه كل دهشة، وكان يكره الانتظار لأن أمثاله من المغامرين تؤاتيهم النجدة بداهة وارتجالا، وتشحذ أسلحتهم فى أثناء المعمعة، مثله فى ذلك مثل الخطيب المطبوع الذى يلهمه الجمهور المعانى فيتدفق، ولذلك أحس بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون فى فستان أبيض غير كتوم، يعلن عن جمال كل ثنية من ثنيات جسمها اللدن، ويبين خاصة عن الخصر الدقيق الذى يتعلق به كفلاها الثقيلان، فطرد بقوة إرادته بقية قلق كانت عالقة بنفسه وانحنى باحترام، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو، ثم قال وهما يجلسان:

ـ لقد حسبت الأيام ساعة فساعة!

فابتسمت السيدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

ـ هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعرية الخالدة .

فاحتدم الغيظ فى قلبه ولعن الشعر والشاعر، وتذكر قراءته لبعض المعانى «الخالدة» التى لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التى طالما نصبت الشراك وغزت الحصون، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعانى «الخالدة» عذرا فلسفيا فقال :

ـ معذرة يا سيدتى، إنى إذا غشينى لألاء الحسن السامى تركت نفسى على فطرتها، وهجرت إلي حين المعانى التى يبدعها التفكير والتكلف!

فاتسعت عينا السيدة الجميلتان وقالت بإنكار :

ـ يا عجبا! ألست القائل يا أستاذ فى مقدمة ديوانك إن شعرك شعر الفطرة والطبع؟ أو لست الآخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم؟!

فأسقط فى يده ووجد أن الحذر لم ينفعه، وخشى أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذى يعنى ما يقول :

ـ إن الشعر يا سيدتى مزيج من الفطرة والتفكير، والتفكير غير التكلف، وما أردت قوله هو أن الشاعر فى حضرة الحسن يستبد به الشعور الخالص .

وأشفق من أن تسأله مثلا عن الفرق بين التفكير والتكلف أو معنى الشعور الخالص، ولكن السيدة قالت بإعجاب :

ـ صدقت يا أستاذ، ولعل هذا يفسر قولك إن الشعر لا يعبر عن عاطفة إلا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها .

فهز رأسه مبتسما وهو يتنهد ارتياحا :

ـ وهو الحق المبين يا سيدتى، أرى أن رأسك متوج بتاجى الحسن والأدب!

فتورد خداها وقالت بحماس :

ـ إنى واحدة من قرائك المعجبين . . . وقد قرأت مؤلفاتك بإمعان وشغف .

فقال :

ـ أين لى قراء مثلك يا سيدتى العزيزة؟ . . إن البلد لا يقدر الكاتبين .

ـ هذا حق وأأسفاه على وجه العموم، ولكن يقال إن لك جمهورا تحسد عليه يا سيدى الأستاذ .

فأشار بيده إشارة تدل على الأسف وقال :

ـ لو أتيح لى أن أكتب باللغة الإنجليزية مثلا .

فسألته السيدة بقلق :

ـ أو ليس لك الجمهور الذى تحسد عليه؟

فقال باطمئنان :

ـ جمهور قرائى يربو على ضعفى جمهور أى كاتب آخر فى الشرق الإسلامى !

ـ يا لها من مكانة سامية !

فهز رأسه آسفا وقال :

ـ لقد دفعت شبابى وقوتى ثمنا لها !

ـ أآسف أنت على هذا؟

ـ لا أدرى .

ـ لقد خلدت شبابك فى آثارك الباقية .

ـ أيهما أفضل أن يخلد شبابى كى يتمتع به غيرى أم يفنى وأتمتع به وحدى؟

ـ لا تناقض بين الاثنين ، فإنك تستطيع أن تستهلكه فى متعتك ثم تخلده فى شعرك ، أتسألنى وأنت أستاذى؟ !

ـ هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين .

ـ وإنك لمن المجدودين !

فنظر إليها نظرة لو تحولت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات ، وكان يجيد هذه اللغة ثم قال بخبث :

ـ إنك يا سيدتى تتحدثين عن حظى كما لو كان مصيره بين يديك .

فتخضب خداها باحمرار طبيعى غلب أحمرهما الصناعى الخفيف ، وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها ، ولكنها ادخرت هذا الحديث إلى وقت آخر فغيّرت مجراه وقالت فجأة :

ـ ينبغى أن أنتهز فرصة وجودك معى لأسألك عن معنى بعض الأبيات الشعرية التى استغلقت علىّ .

فخفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة الغرام ، وذعر ذعرا شديدا ، إذ كيف له بشرح معانى شعر نور الدين المغلقة وهو الذى لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه؟ وخشى إن تردد أن يخسر كل شيء بعد أن أوفى على الفوز ، فقال بقوة :

ـ اعفنى يا سيدتى !

فسألته دهشة :

ـ ولم؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحيانا؟

ـ ليس الأمر كذلك، ولكن قد يسمو الشاعر حينا على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم المادى! وإنى الآن فى نشوة روحية من تلك النشوات التى تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير؟

فغمرتها موجة فرح وسعادة وسألت نفسها: «ترى هل أكون غدا بطلة قصيدة رائعة خالدة؟». سألته فى لهفة:

ـ أحقّا ما تقول يا سيدى؟

ـ كيف يداخلك شك فى هذا؟ تالله إذا لم تخلق هذه الساعة شعرا فلا خلق الشعر أبدا!

فامتلأ قلب المرأة فرحا ومنت نفسها بأسعد الأمانى.

وفى تلك اللحظة دخلت خادم تعلن عن قدوم زائرات، ولم تفاجأ السيدة ـ كما فوجئ الأستاذ ـ بقدومهن كأنها كانت على موعد معهن، وأمرت الخادمة بإدخالهن، وبعد لحظة قصيرة دخلت ثلاث آنسات حسان يحتار ماء الشباب فى وجوههن وتلقتهن بترحاب وقدمت إليهن الشاعر بلهجة فخار قائلة:

ـ الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!

وقدمتهن إليه واحدة واحدة قائلة إنهن من عضوات جمعية تعليم الأميات التى تتشرف برئاستها، ثم قالت:

ـ إنهن أديبات مثقفات، ولكن واأسفاه فإن ثقافتهن قاصرة على الأدب الفرنسى الذى يتعشقنه إلى درجة أن جعلن الفرنسية لغة حوارهن، وإنى أرجو أن يكون تعرفك بهن يا سيدى سببا لتوجيههن إلى الثقافة العصرية.

فعجب على أفندى وتساءل دهشا: ترى هل يعلمن الفلاحات الأميات مبادئ اللغة الفرنسية؟!

استطردت السيدة تقول للآنسات:

ـ ستجدن فى صديقى الشاعر محدثا جليلا، ولكنى ما لهذا دعوتكن الليلة، فقد حجزت البنوار الأول فى تياترو رمسيس لنشاهد معا رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكراما لى!

والحقيقة أن السيدة ما قصدت بدعوتهن إلا أن تذيع بينهن نبأ صداقتها للشاعر لكى يذعنها بدورهن فى الصالونات الراقية فيتصل خبرها حتما بعلم منافستها الخطيرة، وما ذهابها بهن إلى تياترو رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه.

وقد تضايق على أفندى من حضور الزائرات، وتضايق أكثر من دعوته إلى التياترو، وكان يرجو أن تطول خلوته بها، ولكنه كان يبالغ فى التشاؤم ولا يدرى بالسعادة التى

تخبئها له الأقدار، ففى الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروج الآنسات من البنوار وقالت له فى خفر:

ـ ستعود معى إلى القصر.

ولم يكن للدعوة إلا معنى واحد، فتساءل على أفندى: ترى كيف يتخلص من الآنسات؟ ولكن السيدة لم تعمل لذلك حسابا، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعا، وودعتهما الفتيات عند مبتدإ شارع خمارويه ثم سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء وأنه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح!

وكانت ليلة..

* * *

وبعد يومين ذهب على أفندى جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة. لم يكن من الهواة، ولكنه كان من محبى الظهور والادعاء وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التى يحتمل وجودهن بها، فمضى يسير فى الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات، حتى استرعت انتباهه من بينها صورة فلاحة عارية تستحم فى النيل، وقد أجادت الريشة تصوير قدها النحيف وثدييها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحرا شهويا عجيبا، فوقف أمامها طويلا لغير وجه الفن، وذكر ـ لرؤيتها ـ ذلك الجسد البض المكتنز والردفين المكورين كأنهما إسفنجة هائلة مشبعة بالماء والساقين المكورين والبشرة العجيبة ذات الرائحة الزكية، ذكر ذاك الحسن الذى رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرا. أى ليلة جميلة كأنها حلم لذيذ، لايجود بمثلها عالم الحقائق، وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذى كتبته بيدها الرخصة..!

وكأنما المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فإنه لفى تأمله وتذكره إذ أحس بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبته الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الأرستقراطيات، واستولت عليه الدهشة وعلاه الارتباك. أما السيدة فقد التفتت إلى صواحبها وقالت بتيه:

ـ ائذن لى أن أقدم إليكن صديقى الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!

فابتسمن إليه بترحيب إلا واحدة رددت النظر بينه وبين الأرملة، وقالت ضاحكة:

ـ يا لها من نكتة بارعة يا سيدتى!

فسألتها السيدة:

ـ أى نكتة تعنين يا سيدتى؟

فلم تحفل السيدة بإنكار الأرملة الجميلة، وقالت وهى تحدج على أفندى بنظرة استغراب:

ـ رحماك يا ربى . . الآن صدقت قول القائل: يخلق من الشبه أربعين!

فاحتدمت الأرملة غيظا وقالت:

ـ إنى لا أفقه لما تقولين معنى.

ـ بل تفقهين كل المعنى وتريدين أن تضاحكينا، والحق أن الشبه الذى بين شاعرنا المجيد وحضرة البك شبه عجيب . .

فاشتد الغيظ بالأرملة والتفتت إلى على أفندى وقالت:

ـ تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أنى لا أهزل!

وكان على أفندى فى حالة يرثى لها، وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التى لا شك فى أنها تعرف الشاعر الأصلى تمام المعرفة، فلم يجد مناصا من الهرب، فتظاهر بالدهشة، وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال:

ـ معذرة يا سيدتى . . يخلق من الشبه أربعين!

وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثرا للشك فى نفس السامع. فجحظت عينا السيدة دهشة وانزعاجا. وعلا ضحك صاحباتها، وتأملنه بإمعان وهى تكاد تجن من الدهشة، وسألته:

ـ ألست أنت الشاعر؟

فأجاب بهدوء:

ـ كلا يا سيدتى . . أنا موظف بوزارة الزراعة.

ـ ألم تقابلنى قبل الآن؟

ـ نعم، لم يحصل لى هذا الشرف يا سيدتى.

قال على أفندى ذلك وأحنى رأسه تحية وذهب تاركا السيدة لصديقاتها الضاحكات، وقالت السيدة الأخرى:

ـ إنى أعجب كيف يخدعك بصرك إلى هذا الحد، ألا ترين أنى فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى!

فقالت الأرملة الذاهلة تدارى خجلها:

ـ ما أعجب الشبه بينهما!!

فقالت الأخرى:

ـ ولكن شتان ما بين قامتيهما.

وقالت أخرى ساخرة :

ـ سيغضب «صديقك» الشاعر حين يعلم بهذا الخطأ الغريب .

وغادر على أفندى المعرض مضطربا : ولما تنسم الهواء الطلق انفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه، على أن الموقف لم يكن يخلو من دواعى الأسف ما دام قد خسر الموعد المنتظر وكان يمنى نفسه بأكثر من ليلة واحدة .

الشــــريـــــدة

الغالب على أحاديث الشبان فى هذه الأيام أن تتجه نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هذين الموضعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان من حظى المشاركة فيه محدثا ومنصتا . وقد بدأ الحديث فاترا مبتذلا فلم يستطع أن يجذب إلا بعض انتباهى ، حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات على لسانه الذرب فألقيت إليه بانتباهى كله ؛ لأن حديثه كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعرى استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح ، وإليك ما قصه صاحبى . قال :

لا يكاد تاريخ شاب يخلو من امرأة ، ولكنه قد يخلو من المرأة المؤثرة التى تترك وراءها شاهدا عميقا لا ينال منه طمس السنين كالوشم فى اليد أو الصدر . وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن إلا أثرا ذاهبا من اللذة أو الألم ، أو أطيافا فى الظلام والنسيان ، إلا امرأة ، بدت فى فترة من حياتى كالكوكب الدرى ينير أبدا ويضىء ما حوله فلا أنساها ولا يغمر النسيان حياتى التى غمرتها بروحها الرقيق . . لماذا؟ ألأنها كانت أجمل ما عرفت؟ أو أحبهن إلى قلبى؟ لا أعتقد هذا ، ولكن ربما لأنها كانت أتعسهن جميعا ، ولأن تعاستها هذه كانت السبب الخفى فى سعادتى بها زمنا طيبا لن يعود أبدا .

ويرجع عهد معرفتى بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠ وكنت آنئذ طالبا فى السنة الأولى بمدرسة الزراعة العليا ، استيقظت ذلك اليوم فى الصباح المبكر كعادتى ، فجاءتنى والدتى وقالت لى :

ـ حسونة . . أرى أن أخبرك أن ضيفة نزلت ببيتنا ، وأنها ربما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمى . .

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها :

ـ من هى؟

ـ زينب هانم زوج اليوزباشى محمد راضى جارنا .

فاستولت علىّ الدهشة وقلت :

ـ لكنها ما زالت عروسا فى شهر العسل . . أليس كذلك؟

ـ هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تعسة الحظ لأنها اضطرت إلى هجر بيتها والالتجاء إلىّ فى الصباح الباكر ، وزوجها ولا شك رجل غليظ فظ لا تسهل معاشرته ، وإلا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم أن لا أقارب لها فى القاهرة .

وكانت والدتى شديدة التأثر فقلت :

ـ مسكينة . .

فقالت بانفعال :

ـ كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وإنى أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة . .

ثم أردفت بلهجة ذات مغزى :

ـ وأن تكون لها يا حسونة أخا كريما . .

وبادرت قائلا :

ـ طبعا . . طبعا . . يا أماه .

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتى الأخيرة واللهجة التى قالتها بها ، وأحسست بمزيج من الخجل والغضب . ترى هل تشفق والدتى من سلوكى على ضيفتنا؟ ثم خطر لى أن أتساءل : «هل هى جميلة إلى حد تبرير مخاوف والدتى؟» . . حامت أفكارى حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة . والحق أن كلمة والدتى البريئة أوجدت فى نفسى منذ البداية الاستعداد الذى كانت تشفق منه أيما إشفاق .

كان جو بيتنا غاية فى الهدوء ، فوالدى كان حينذاك قاضيا بمحكمة طنطا الأهلية ، وكان يقيم نصف الأسبوع فى القاهرة ونصفه الثانى فى محل عمله ، وكان أخى على فى المدرسة الحربية ، وأخى عادل فى بعثة مدرسة الطب بالنمسا . وفى ذلك الجو المغمور بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم العروس التعسة . . وقد خيل إلىّ وأنا ألقى عليها النظرة الأولى أنى أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضة ممتلئة بادية الأنوثة ، ولكنى قرأت فى عينيها العسليتين نظرة براءة وسذاجة ، بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذى لا تعرفه الطفولة الحقة . .

وكان الشباب فى ذلك العهد غيرهم الآن ، كانوا أعظم استقامة وأدنى إلى العفة والطهر ، وأرعى عهدا للتقاليد ، وكانت المرأة المصونة تبدو دائما وكأنها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة ، وكان الحب بعيدا نسبيا عن التهتك والابتذال اللذين صرعاه أخيرا

وأورداه الإباحية والجنون، فكانت العواطف تزدهر فى القلب وتنبت الآمال والأمانى، وتنصهر فى العقل وتخلق الأخيلة والأحلام، وتكتسى بحلى نادرة من صنع الأوهام والأطياف . .

فكان يقنعنى من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البض، لتكون زادى فى النهار والليل وفى اليقظة والنوم، وأصبحت وأمسيت فى عالم أثيرى جميل بث فى وجدانى حياة ناضرة كالحياة التى ينشرها الربيع فى الحقول والبساتين. على أن الأمر لم يقتصر على ذلك فجرى الحديث بيننا مرات، ولعبنا الورق مرة والنرد أخرى. وغالبتنى عواطفى فوسوست إلى نفسى أن أتشجع وتساءلت بخبث: لماذا لا أجرب حظى؟ لماذا لا ألمس أناملها فى أثناء اللعب مثلا؟ أو أهدى إليها مجدولين فتكون فاتحة حديث لا يعلم ختامه إلا الله. . ولكنى لقيت من التردد الشيء الكثير، ولم تسعفنى الجرأة التى تعلمتها فيما بعد، وضاع الوقت هباء حتى رجعت يوما إلى البيت، فوجدت والدتى وحدها. . وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها، وأحسست بوحشة وضيق، وكتمت رغبة تلح علىّ بالسؤال لأن تلوث نفسى أفقدنى صراحة الأبرياء، وظننت السؤال فاضحى، ولم تدعنى والدتى فريسة العذاب فقالت لى:

ـ شكرا لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر لزوجه وعاد بها لأنه نقل إلى أسيوط، وقد كلفتنى أن أهدى إليك تحياتها.

وأحسست فى الحال إحساس الطالب الذى يمنى بالسقوط فى الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة اللائقة به. وضاق صدرى ذلك اليوم بالبيت ففررت إلى الخارج لأخلو إلى نفسى بعيدا عن عينى والدتى. على أن الصبا دائما قادر على جرف الأحزان والهموم فاستطعت أن أبرأ فى مدة وجيزة ونسيت فى غمرة الحياة والآمال تلك الحسرة التى عصرت قلبى أياما فكانت مثل «الزكام» الذى يفقد الإنسان طعم الحياة حينما يزول سريعا فكأنه لم يكن . .

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم ووظفت فى وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ . ثم انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات. و فى الأيام الأولى لهبوطى إلى الإسكندرية آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعثاء السفر وأبحث فى هدوء عن مسكن مناسب، ووقع اختيارى على فندق «ريش» لحسن موقعه من البحر لأننا كنا فى سبتمبر، وهو من الشهور المحبوبة فى الإسكندرية يطيب فيه الجو ويهدأ البحر ويصفو؛ فحملت حقيبتى ونزلت فى حجرة من حجرات الطابق الثانى، وأذكر أنه لم يكد الخادم يتركنى ويغلق وراءه الباب حتى سمعت طرقا فدلفت إلى الباب وفتحته، ورأيت لدهشتى صديقنا الدكتور أحمد شلبى واستقبلته بشوق وأجلسته إلى جانبى وكان يقول لى:

ـ أحقًا هو أنت؟

ثم أردف :

ـ كنت تاركا باب حجرتى مفتوحا فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك فى الحال . .

ـ هذه فرصة سعيدة .

ـ يا حظك!

ـ أى حظ تعنى؟! . . أنت تعلم أن موظفى الزراعة لا حظ لهم يحسدون عليه .

فقال ضاحكا :

ـ أنا لا أتكلم عن الكادر . . ولكن عن فوزك بهذه الحجرة . . فيا حظك!

ـ وما الداعى إلى هذا الحسد؟ . . هى حجرة دون حجرات الصف المقابل التى تطل نوافذها على البحر . .

ـ هذا حق ، ولكن شرفتها تمس شرفة الحجرة رقم ٢٤ التى إلى يمينك ، وحسبك هذا . .

ـ وما شأن الحجرة رقم ٢٤ . . ؟

فقال وهو يتنهد :

ـ تقيم بها امرأة حسناء وحيدة . .

ـ وحيدة . . ؟!

ـ نعم . . وإلى هذا يعود السبب فى أن حجرات هذا الطابق مأهولة كلها .

ـ لعلها ممثلة أو راقصة .

ـ هو ما يظنه الرقم ٢٧ .

فقلت مستفهما :

ـ الرقم ٢٧ . . ؟

ـ أعنى زميلى الدكتور الصواف المقيم فى الحجرة رقم ٢٧ ، ولكنى لم أوافقه على ظنه ، لأنى خبير بالصالات والمراقص جميعا ، والأعجب من هذا أنها تبدو محترمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من المصونات حقّا .

فابتسمت وقلت :

ـ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

ـ أوه . . كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة .

ـ ألم يفز أى رقم بطائل . . ؟

ـ فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر .

وجالسنى صديقى ربع ساعة، تحدث فيها ما شاء له الحديث، ثم ودعنى وانصرف إلى حجرته، وكنت تعبا منهوك القوى فنمت ساعة نوما عميقا واستيقظت عند العصر، وفتحت شرفتى وجلست فيها أستروح هواء البحر المنعش، ولاحت منى نظرة إلى الشرفة التى إلى يمينى، فتذكرت ما قال صديقى الدكتور، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف؛ ولكنى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صرير بابها وهو يفتح، ونظرت أمامى، ولحظت بروز شخص، وخيل إلىّ أنه امرأة، وتأكد ظنى عندما عطست، وحافظت على جمودى وتظاهرت بعدم الاكتراث.. وغالبا ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعزى عن الخيبة..

ولكنى لم أثبت طويلا، ونازعنى شغف إلى النظر فألقيت ببصرى إلى جارتى. ورأيت امرأة أول ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول إلى يقين بأنى رأيتها من قبل، وأنا أتمتع بذاكرة لا تخيب أبدا فى حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت.. ذكرت جارتنا القديمة.. التى عاشت معى فى بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجدانى.. وتملكتنى الدهشة والاهتمام.

ولاحت منها نظرة إلىّ فالتقت عينانا وتوقعت بقلب خافق أن أطالع فى وجهها آية التذكر، وتحفزت للسلام ولكن خاب رجائى، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها، ولم تلبث أن ولتنى ظهرها وعادت من حيث أتت. واأسفاه نسيتنى بغير شك.. وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة وهى لا تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها، ولكن ما لها تعيش وحدها فى هذا الفندق؟.. وما الذى يحملها على هذه الوحدة الغريبة؟ وأين زوجها يا ترى؟

وطال تفكيرى فى شأنها حتى قمت لارتداء ثيابى وغادرت حجرتى، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجى مباشرة، فتباطأت فى خطاى حتى حاذتنى وهبطنا الأدراج معا، ووجدت فى نفسى رغبة شديدة فى محادثتها، ولم أكن أحجم فى مثل ذاك الموقف فقلت لها بهدوء غريب:

ـ سعيدة يا هانم.. لعلك تذكريننى..

فحدجتنى بنظرة إنكار، ولعلها ظنت أنى أتذرع بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتى، وأسرعت الخطى فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها:

ـ أهكذا تنسين جيرانك بسرعة؟ ألا تذكرين حرم حسن بك همام القاضى؟

فألقت علىّ نظرة غريبة ولاحت فى عينيها الأحلام وسمعتها تتمتم:

ـ عدلات هانم.. شارع الزقازيق..

فقلت بفرح:

ـ نعم، هذه هى والدتى . . وهذا شارعنا . .

فهشت لى وسارت إلى جانبى وهى تقول :

ـ أأنت ابنها؟ تذكرت . . كيف حال عدلات هانم؟

فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها :

ـ والدتى بخير . . كيف حالك أنت يا هانم؟

ـ عال، ولكن أين عدلات هانم؟هل أنت وحدك؟

ـ نعم، الأسرة فى رأس البر لأن والدى يحبها ويفضلها على الإسكندرية، وأنا هنا بحكم عملى .

ـ نسيت اسمك .

ـ حسونة . .

وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى من سؤالها عنه، فمشيت إلى جانبها صامتا . وكان وجدانى فى يقظة قوية وأصارحكم القول بأنى من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيا كان جمالها، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف التخصص، وقد كنت قبل نحو عشرين عاما ذا استعداد للحب، ولكنى فقدت بمرور الزمن واطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيرا من الحيوانات الراقية، وكنت فى ذلك الوقت خاطبا، وكنت اخترت خطيبتى من بين عشرات الفتيات، ولكن ذلك لم يمنع قلبى ـ ذلك اليوم ـ من التعلق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع، قلت لها :

ـ أأنت وحدك هنا؟

فقالت بلا اكتراث :

ـ نعم!

ـ وزوجك . . ؟

ـ فى السلوم .

ـ ولماذا تعيشين وحدك . . ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ـ لا ينقصك إلا أن تفتح محضرا للتحقيق وتطالبنى بالشهود .

فخجلت من فضولى، وضحكت أدارى خجلى، ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت :

ـ ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس . .

فهزت رأسها وقالت بعناد ظريف :

ـ كلا أنا أفضل المشى لأنى أريد أن أنحف .

فنظرت إلى جسمها البض الممتلئ نظرة معذب ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبغى أن تفلت منى ، فقلت بإعجاب :

ـ وما جدوى هذا التعب . . إن جسمك كامل الفتنة . . ؟

فألقت علىّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهى تشير إلى جسمها :

ـ هذه موضة قديمة .

فقلت بحماس :

ـ هذا جميل وكفى . . وما عدا ذلك فلا وزن له عندى .

ـ وعند الناس . . ؟

ـ نعم وعند الناس . .

كدت أنسى هذا ، إذ خُيِّل إلىّ الوهم الساحر أنى صاحب الشأن الأوحد ، وعلى أنها قالت ما قالت وهى تبتسم إلىّ بإغراء . فاستخفنى الوهم مرة أخرى واشتد بى الطمع فقلت :

ـ أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطويلة وكأن التى أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بغتة فى بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام ، وغربت بغتة كذلك فتركتنى أحلم بها أياما وشهورا .

فنظرت إلىّ بخبث وقالت :

ـ يا لك من ماكر !

فقلت ضاحكا :

ـ ما وجه الغرابة فى ذلك؟ من يرى هذا الحسن ولا يتمناه؟

ـ الظاهر أنى سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو من أمانيك . .

ـ حاشى أن تفعلى . . بل حاشاى أن أتركك تفعلين . إن فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشرير الكفر بها . . .

ـ إنك تحدثنى كما لو كنا عاشقين افترقا ثم تلاقيا . . .

ـ هذا شعورك . .

ـ هو أدنى إلى الوهم .

ـ أما من ناحيتى فلا . .

ـ وأما من ناحيتى فنعم . . .

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة، وهى تبتسم ابتسامة عذبة تسيل إغراء، ولم أدهش لما تبدى من استسلام لأن حالتها فى الواقع كانت تدعو إلى الريبة، وتذكرت ما قال صديقى الدكتور شلبى فقلت:

- إنى أعجب لماذا تقيمين وحدك فى هذا الفندق؟

- أراك تعود إلى التحقيق. . .

- كلا، لا داعى للتحقيق. . . ولكنى علمت أن المقيمين بالطابق الثانى يضايقونك. . .

- أبدا لعلهم يضايقونك أنت. .

فتنهدت وتعمدت أن أسمعها تنهدى ثم قلت:

- فليكن . . . ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق ريش. . . ؟

- نترك؟!

- نعم. . . أنا أعنى ما أقول، وأعرف فندقا هادئا فى لوران، فما رأيك؟

ولم تجبنى، ولازمت الصمت حينا، وبدا على وجهها الاهتمام والتفكير فخفق قلبى وساورنى الخوف والقلق؛ ولكنى أحسست فجأة بذراعها تلتف بذراعى وسرنا مشتبكين كالعشاق أو الأزواج، فأثلج صدرى وغمرنى الفرح والفوز، وقنعت بذلك جوابا. . .

وفى مساء ذلك اليوم افتتحنا معا مأدبة الحب، فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران ونزلنا فى فندق إكس لاشابل، وهو فندق هادئ منعزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولى ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام.

وعشت أياما أذكرها دائما كما يذكر السقيم عهد الصحة والعافية؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر المستبد الطاغى الذى لا يترك لشىء مكانا من عقولنا أو نفوسنا، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار، وإن صفت فإلى انتهاء سريع؛ فأقبلت عليها بنهم وجشع أملأ من حسنها قلبى وحواسى؛ كيلا أدع زيادة لمستزيد، غير مؤجل متعة إلى غد أو مبق على لذة إلى حين، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام. . . وكانت شريكتى سعيدة راضية يسكرها الحب وتستخفها آيات العطف، فتستزيد منها كما يستزيد منها الثمل من الطرب.

وتبين لى بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة، فكنت لا أفكر إلا فى حاضرى، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة فى رشفة واحدة. . . أما هى فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة فى أن تطمئن إلى دوام السعادة والحب. وقد عجبت لذلك وعلمت أنى لم أفهم بعد تلك المرأة؛ وقد ظننتها حينا امرأة مستهترة متقلبة الأهواء، تجوب البلاد بعيدا عن زوجها طلبا للحب الآثم وانتهابا للذات. . . ولكنى وجدتها هادئة

الطبع، عظيمة المودة، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التى تورد أصحابها مهالك الفتن . . .

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص، فلم يكدر صفوى مكدر، إلا أن إفراطى الشديد ردنى إلى شيء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكرى أن يتناول أمورا غير الحب . . .

فكرت فى أنى أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية، ولم يكن سبق لى أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزتنى شكة الألم وأحسست بخوف غامض، وزاد من ألمى أنى كنت على عتبة الحياة الزوجية. وساءلت نفسى فى رعب: ألا يجوز أن يقتص الله منى ويصيبنى يوما فى المقتل الذى طعنت فيه الآخرين؟!

وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلا:

ـ وهل صدقت مخاوفك فيما بعد. . ؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزرا ثم استأنف حديثه قائلا:

ـ ثم فكرت فى أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة. فكرت فى أمر الزوج الغريب الذى يترك لزوجته الحبل على الغارب. ما الذى عساه يفرق بينهما؟. . وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة؟. . وألا يمكن أن يظهر بغتة فى أفقنا الهادئ فتكون الطامة التى لا تدفع؟

وكانت هذه الأفكار تساورنى خارج الفندق بعيدا عن ظلها الخفيف، ولكنى وجدت نفسى مسوقا إلى مفاتحتها بهذا الحديث وقد فعلت، فسألتها يوما:

ـ أما من أخبار عن زوجك. . . ؟

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت:

ـ دع هذا الحديث جانبا. . .

فاضطررت ساعتئذ إلى السكوت، وفى نيتى أن أعيد الكرة مهما كلفنى ذلك. وكانت تتحاشى هذا الحديث وتتهرب منه، ولكنى قلت لها يوما بإخلاص وحزم:

ـ ينبغى أن تعلمى أنه ليس الفضول الذى يدفعنى إلى معاودة السؤال، ولكنه اهتمام بشخص أعزه وأحبه وأرجو دائما أن يفتح لى صدره وقلبه. . .

كم فرحت لكلامى هذا. . . لقد التصقت بى بوجد وحنان وتنهدت بسعادة وقالت:

ـ يا للسعادة! طالما ضرعت إلى الله أن يهبنى قلبا حنونا محبا. . .

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدى وقلت:

ـ إذن هيا وصارحينى بكل شيء.

ـ ولكنه حديث مؤلم كريه.

فقلت:

ـ أنا لا أدرى شيئا، لأنك لم تريدى أن تطلعينى على شيء. ولكنى كنت أرجح دائما أن حياتك الزوجية غير سليمة، ومهما يكن من أمر فينبغى أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا...

فهزت منكبيها باستهانة وقالت:

ـ إنه لا يعرف مقرى على وجه التحقيق...

ـ ما أعجب هذا! أستطيع أن أفهم أنكما غير متحابين، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن تبقيا زوجين بعد ذلك.

ـ إنه لا يطلقنى لأنه لا يستطيع الاستغناء عن مالى... وسوى ذلك فلم يكن زوجا قط وهو لا يطيق أن يكون زوجا فى يوم من الأيام... على أنى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق.

فحدقت فى وجهها دهشا وقلت:

ـ هذا أعجب!

ـ لا تعجب لشيء. ألا ترى أنى هكذا مالكة لحريتى؟ ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب إلى حيث أشاء. ولو كان لى من يهمه أمرى ويحنو علىّ بصدق لتغير مصيرى من بادئ الأمر، ولكنى وحيدة، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة. أنت لا تدرى ما الوحدة... أما أنا فقد تجرعت مذاقها طوال هذه السنين.. مات أبواى والتحق أخى الأوحد بوظيفة فى قنصلية اليونان، ونبذنى زوجى. فليس لى مكان آوى إليه أو قلب يعطف علىّ. أنا منبوذة فى هذه الدنيا...

فوجمت صامتا وغلبنى التأثر الشديد، ورأيت وجهها الجميل محتقنا كقطعة من الجمر ولمحت دمعة حبيسة فى عينيها فقلت:

ـ إنك جميلة وغنية، فماذا كان يريد هذا الأحمق؟

ـ إنه وحش ضار وقاس وجحود، لم أستطع أن أعاشره كزوجة إلا أياما معدودات ثم اضطرنى إلى حياة التشرد والهيمان... ولو وهبنى الله طفلا لاستعنت به على الصبر والرضا، ولكنى حرمت حتى من هذا العزاء.

وكانت تتكلم بتأثر شديد فخيل إلىّ أنى سأتبعها إلى البكاء، وثرت فى نفسى على الحظ التعس الذى ضيق عليها الخناق، وخطرت لى فكرة فقلت لها:

ـ ألم يكن فى وسعك إصلاح ما أفسد الحظ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت :

ـ الحظ التعس لا يصلحه شيء وأنا ما قصرت قط ، وأصارحك القول بأني كنت أحبه وما وافقت على الزواج به إلا لأني أحببته يوما ، ولكنه مضى بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضي الليل خارج البيت ولا يعود إلا قبيل الفجر ، وكنت إذا انبريت لإصلاحه ومدافعة الشقاء الذي يهددني به سخر مني وهزأ بمحاولاتي ، ولما ضاق بي ترك السخرية والهزء وعمد إلى الخشونة والفظاظة . . .

وسكتت عن الحديث دقائق وهي مستسلمة إلى الشعور الأليم الذي أحدثته الذكريات . ثم أردفت بصوت أعمق ووجه أشد اكفهرارا :

ـ وأدركني اليأس منه ، ولما أتم شهرا كاملا في بيتي الجديد ، وكان ذلك لحادثة همجية لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي أيأستني من الخير ودمرت كل فضيلة في نفسي . ففي ليلة من ليالي شهر العسل كنت مستغرقة في النوم بعد سهاد حزين ، وإذا بهزة عنيفة توقظني من نومي ، فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيته جالسا إلى حافة الفراش ، وهممت بتعنيفه ، ولكن لساني لم يتحرك في فمي لأنه كان في حالة سكر شديد كما تبينت ذلك من نظرته الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التي تنبعث من فمه ، وكان هناك ما هو أدهى من ذلك ، كانت تقف قريبة منه امرأة غريبة في مثل حالته من السكر الشديد ، كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكاني من فراش العرس ، ولم يمهلني حتى أفيق من فزعي ودهشتي ، فقال لي بلسانه الثقيل الملتوي : «تفضلي خارجا» ولم تنتظر صاحبته ، فدنت من الفراش وارتمت إلى جانبي ، ولم أتمالك نفسي ففزعت من مكاني إلى أرض الغرفة وفقدت رشدي . فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سبا ولعنا ؛ ولكنه هز كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها فغادرت الحجرة في حالة جنونية ، وأحسست برغبة لا تقاوم في هجر البيت ، وكانت ثيابي في الدولاب داخل الحجرة ، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلفعت به وفتحت الباب ووليت خارجا ، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر ، وهرولت في الطريق الموحش لا ألوي على شيء حتى انتهت قدماي إلى البيت الوحيد الذي تعودنا الذهاب إليه . . بيت والدتك . . ولعلك تذكر الأيام القلائل التي قضيتها عندكم . . إني لا أنسى تلك الليلة أبدا . . . ولا تزال قائمة في نفسي بجميع تفاصيلها . . . وقد كانت فاصلة في حياتي بين عهدين . . .

إني أذكر تلك الأيام بلا ريب . . . ولكن كم كنت أجهل ما تخفي من التعاسة والبؤس . . .

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذلك ثم سألتها :

ـ كيف عدت إليه بعد ذلك؟

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت:

ـ فى تلك الليلة انتهت حياتى الزوجية فى الواقع، ولكنى كنت بلا مأوى وبلا معين، فماذا أصنع؟ . . . عرض علىّ اتفاقية فقبلتها، وهى أن أعطيه من مالى على أن يعطينى حريتى. وقد كان. . . وغدوت حرة أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل . . .

وهالنى الأمر فقلت:

ـ وهل عشت سعيدة؟

فتنهدت وقالت:

ـ ليت ذلك كان ممكنا. . . ما تمنيت على الله من شيء مثلما تمنيت أن يسلبنى حريتى هذه فى لقاء أن أحظى بالسعادة التى أحلم بها والعطف الذى أتحرق إليه، وأنا مستعدة دائما أن أتنازل عن حريتى بائنة لمن يهبنى قلبه وإخلاصه. . كم تعبت وكم بحثت. . وكم ضقت بحريتى. .

الآن علمت كل شيء. . . لقد صرفت هذه المرأة التعسة عشرة أعوام فى البحث عن العبودية السعيدة، فهل يا ترى وفّقت إلى ما تريد؟ . . كلا. هى لم توفق ولا ريب ولو أنها وفقت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت بين أحضانى أنا بهذه السهولة. لقد انصرمت السنوات العشر فى خيبة مريرة وخدع أليمة. وما من شك فى أن الكثيرين تلقفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن، ثم ردوها قهرا بعد شبع إلى حريتها البغيضة. وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحيانا وتعيى فى طلب المستبد الغاصب.

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت إلىّ بطمأنينة واستسلام، ثم ألصقت جبهتها بجبهتى وسمعتها تهمس فى أذنى قائلة:

ـ وأخيرا. . .

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنى ألعب فى روايتها البائسة دور الأمل الأخير، فإما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها وإما أن أشفى بها على اليأس القاتل. وأحسست بثقل تبعتى وران على صدرى هم عظيم وتساءلت حيران: ترى ما هى أحلامها؟ . . أن تدوم هذه العشرة. . وكيف لى بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج؟ . . ومضى تأثرى الشديد لتعاستها يهدأ نوعا، وأخذت أفكر فى نفسى وأنظر إلى علاقتى بها بعين متشائمة، وأتساءل فى قسوة وأسف عن طريقة للخلاص. . وكانت تأتى علىّ أوقات أعجب فيها من أنانيتى وأتساءل فى اشمئزاز ـ إذن كيف كان شأن من لم يشعر نحوه بغير

الشهوة والطمع؟ الحق أن عالمنا الإنسانى عالم شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التى تعب أصحابها فى الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهى فى الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى باذليه بالضن به!

على أن الذى أزعجنى هو أن زينب فطنت لمشاعرى الخفية من غير أن أصارحها بها. وبدا لى ذلك فى وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش فإنى من الذين لايدرون كيف يخفون ما بنفوسهم، وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم. ولم أكن بَيَّتُّ قط نية مصارحتها بعاطفة مما يعتلج فى صدرى أو بفكر مما يحترق فى رأسى، وقد كنت أفكر فى حالتها بعطف ومودة، ولكن العطف شىء والحب شىء.

وكنت أتوقع فى خوف وإشفاق أن تفاتحنى بما يقوم فى نفسها من الوساوس، وكان ذلك يضاعف آلامى النفسية، ورجوت أن تنقشع تلك السحابة من سماء حياتى دون أن تترك وراءها أثرا لحزن أو ألم أو تأنيب ضمير. وانقلبت حياتنا تمثيلا ثقيلا، وكان كل منا يعلم بما يشعر به صاحبه نحوه، ولكنا كنا نتجاهل كل شىء.. لماذا لم تصارحنى بشعورها؟.. ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة؟ لم يحدث شىء من هذا.

وقد عدت ظهر يوم من عملى بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية، وبحثت عيناى عن آثارها اللطيفة التى تعوّدت رؤيتها كالفساتين التى كانت تعلقها على المشجب أوالحقيبة التى كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثرا، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابى، وناديت الخادم وسألته عنها؟ فأخبرنى أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحا وأنه أحضر لها بنفسه التاكسى.

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنى كنت أتوقع أن تترك لى كلمة، ولكنى لم أعثر على شىء.

لقد تركتنى دون كلمة، وانتهى كل شىء!

وجلست صامتا واجما تتنازعنى العواطف، ولم أشعر براحة للخلاص الذى جاءنى بدون مشقة وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة فى الطعام فقمت من فورى أبحث عن مسكن جديد، لأنه كان يتعذر علىّ أن أبيت ليلتى فى تلك الحجرة المهجورة.

وسكت الراوى لحظة ثم أردف:

- ومضت سنوات لم أرها فيها، ثم رأيتها منذ عهد قريب تساير شابا أنيقا فى ميدان المحطة؛ ولكنى لا أدرى إن كانت لا تزال تبحث عن الحب والعطف أم أنها استسلمت إلى القنوط؟!

خيانة فى رسائل

ـ هذه أول أزمة تصيب حبنا! نعم طالما آلمنى الفراق الهين، وأجهدنى الشوق إلى اللقاء: وعذبنى الدلال. أما الوداع، أما الرحيل إلى قنا فذا أمر جديد، يدفع إلى نفسى شعورا بالحزن لا عهد لها به فهلا عدلت عن السفر..؟

ـ لو كان الأمر إلىّ ما رغبت نفسى أدنى رغبة فى السفر، فما أحفل بقضاء الشتاء فى أعالى الصعيد بعض احتفالى بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء السعيد! ولكن ما حيلتى وهذا ما يريده أبى ويفعله منذ أحيل إلى المعاش. ولقد اعتاد أن يمضى شهرا أو شهرين من الشتاء فى قنا عند عمى الدكتور..

ـ يستطيع عقلى أن يتصور المعجزات، ولكن لا أستطيع أن أتصور ما عسى أن تكون عليه حياتى فى هذين الشهرين، فهذا الحب غدا حياة لشعورى، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسى، أجد فيهما راحة بعد تعب، وعزاء عن شوق دائم، فما عسى أن أصنع؟ بل ما يكون زادى وسلوتى؟

فوضعت يدا خمرية ناعمة على كتفه، وداعبت بأطراف أناملها خده، وهمست فى أذنه:

ـ هذا شعورى وهذا حزنى، ولولا كراهيتى للعزاء لنصحت لك بالتعزى والتلهى فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتى ينطوى دهر الفراق ويتصل حبل اللقاء.. ومع هذا فما أسعدك وما أبأسنى..!

ـ كيف..؟

ـ لن أسعد بقراءة كلمة طوال مدة غيابى، لأنك لا تستطيع أن تكتب إلىّ، أما أنت فتستطيع أن تطلع على همسات روحى كلما مكنتنى الفرص من اختلاس الكتابة إليك.. فأينا أسعد حظا؟

ـ من تؤاتيه فرص التعبير فيخفف من مراجل عاطفته.

وهنا ظللت وجهه سحابة كدر، وسألها بعد تردد:

ـ هل لك أبناء عم؟

فابتسمت ابتسامة دلت على أنها سرت للقلق الذى بعثه هذا السؤال وأجابته:

ـ نعم لى.. ولكنهم لم يجاوزوا عهد الطفولة، ولو كان الأمر كما تتوهم ما أوجب

أدنى خوف أيها الرعديد الغيور . . والآن هات فمك أودعك . . وهيا نقول معا هذه الكلمة المروعة التى تفزع لها القلوب :

« أستودعك الله . . » .

من الغد يصبح لنا فى قنا حبيبان عزيزان : حبيبة القلب عائدة ، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرس بمدرسة قنا ، ولكنه بينما يتصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتصال الروحى بحبيبته ، لأن حبهما لا يزال سرا خفيا لما يدر بأمره الأهل . .

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة ، ثم وصله منها كتاب جاء فيه :

- حبيبى حسنى :

« أعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدرى وأنت معى . . نعم أنت معى لم تفارقنى لحظة سواء فى ضجيج النهار أو فى سكون الليل ؛ معى وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة ؛ معى وأنا بين أهل عمى أتلقى الأحاديث وأرد عليها ، وأضاحك هذا وأسمع لذلك ؛ معى فى كل مكان وكل حين ، فلا عجب لنفسى بعد ذلك أن هزها الحنين إليك أو استشعرت وحشة وضيقا فى البعد عنك ، أو ألهبها الشوق عذابا وجوى .

وأرجو ألا تتهمنى بالتكاسل عن الكتابة إليك ، فبيت عمى عامر بالأطفال وهم لا يتركوننى لحظة أخلو إلى نفسى ؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعورى وامتلأ بها عقلى وتمثلت فى حواسى وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتينى الفرص فأسطرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتى والعيون قد أغمضها عنى المنام . . فاعذرنى إن تأخرت عنك رسائلى وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادى أنه يملى عليك عن لسانى ما أحب أن أقوله لك دائما .

أما عن قنا ؛ فجوها دافئ جميل ، وخلا ذلك فنحن فى منفى ، ولولا ما يربحه أبى فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن إليها لحظة من الزمان» .

فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من العزاء و السلوة و السعادة . و كان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدة ، فهى التحيات المحفوظة وبث الأشواق والتلهف على إدبار العام الدراسى وإقبال العطلة الصيفية إلا أنه أضاف إلى هذه المحفوظات فى آخر خطاب ما نصه :

«طالما قلت لك إنى أعيش فى قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء . لا يقع بصرى على وجه امرأة قط ، وإن كنت أرى أحيانا بعض الأصدقاء يشيرون إلى

كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون : انظر إلى هذه المرأة . .

ولكن وقع بالأمس ما يعد حدثا تاريخيا فى حياة قنا ؛ إذ حضر الدكتور سامى حسنى مفتش الصحة إلى البستان العمومى وفى صحبته غادة جميلة سافرة الوجه فهز البلد وزلزل كيانه . إنه رجل جسور لا يعبأ بآراء المتزمتين ، وتجده دائما على استعداد للرد على تطفل المتطفلين بما يجعله مثلا وعبرة ، ولم يلبث أن شاع الخبر وملأ الأسماع فهرع الموظفون من مدرسين ومهندسين وكتبة إلى البستان وهم يسوون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رءوسهم ، فلو رأيت البستان حينذاك لحسبته حديقة غناء فى مصر الجديدة أو قصر النيل .

إنها شابة جميلة تحمل فى طياتها عطر القاهرة المعبق ، فليهنأ قفر قنا بهذا العطر العذب . . » .

فخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك فى معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التى أثارت لوعة الشباب فى قنا .

يا له من كلام يحمل فرحا وألما ، والألم فيه أكثر ! أيجوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيبته ويبقى هو فى القاهرة تسيل نفسه حسرات عليها؟

وهمَّ أن يكتب لصديقه كتابا يعلنه فيه بأن الفتاة التى هز مقدمها قنا هى حبيبته اليوم ، ثم خطيبته غدا ، ولكنه جفل من هذا الإعلان ووجد رغبة خفية أن يكتمه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التى تستحق الرواية والحديث .

لقد تردد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال : ألا يعد هذا تجسسا منه على حبيبته؟

وهل يجوز هذا فى شرع المحبين؟ أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبته موضع الاتهام والظنة !

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب إلى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر .

وبعد حين وصله كتاب ثان من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلى :

«تغير كل شىء فى قنا وكل شىء فى حياتى . ولم تعد قنا قبرا موحشا فاغرا فاه مكشرا عن أنيابه ، ولم تعد حياتى سأما ثقيلا متصلا . كيف لا يكون هذا وأنا مطمئن إلى أنى سأحظى أصيل كل يوم برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذى يحيى موات النفوس ، ويبعث مصفر الأمل . . ما أجملها ! وما أعذبها !

علمت الآن أنها ابنة أخى مفتش الصحة ، أو هذا ما علمته قنا عامة وعلمه شبابها خاصة . إن جميع العيون تلتهمها التهام الجوع ، فلعل هذه الضجة تثير الغيرة فى نفوس

الآباء الموظفين، فتشجعهم على الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه، وإبراز بناتهم للعيان، ومهما يكن من الأمر فنحن الرابحون.

لا تخش على أخيك من قهر، فهو بطل صنديد، وشخصية لا يشق لها غبار، وإن عينى لتنفذان من بين العيون جميعا وتجذبان عينيها إلىّ، فصبرا ولتعلمن بعد حين فى أى مخبأ من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت!».

ما هذا الذى يقوله مرزوق من أن عينيه تجذبان إليه عينيها؟ إن لعينى مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان؟ أما عينا صاحبته فما بالهما تنجذبان وتستجيبان؟ هلا يكون ذلك مجرد نظر برىء فسره صديقه على ما يهوى غروره ويحب؟ إنه لا يشك أبدا فى إخلاص عائدة، ولكن ينبغى ألا ينسى أن لصاحبه عينين جميلتين يحس الناظر إليهما سخونة فى أعصابه ولذعة فى قلبه، وهو ـ إلى ذلك ـ مدرس محترم من حملة الدبلومات العالية، ومن ذوى المستقبل السعيد. أما هو فلم يزد على أن يكون موظفا صغيرا، كل مؤهلاته شهادة البكالوريا، ومستقبله مظلم محدود، أفلا يكون لكل هذه الفوارق أثر فى الحب؟

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجعلها من الكآبة كنفس هرم متشائم، ويحس بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه.. أواه.. إن أحلامه وآماله تتأرجح على كف رجيم..

وفى ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة، فانكب عليه بلهفة، وتلاه مرة بعد أخرى، ولم يكن يخرج فى معناه عن رسالتها الأولى، فتزعزعت شكوكه، وعاودته الثقة، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء، وحمل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعذاب، ولكنه تسلم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع، جاء فيها:

«كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد، فعينا الفتاة ـ واسمها عائدة ـ تقتحمان الحاضرين من الشبان وتستقران علىّ أنا. إنى أطالع فى وجهها عند حضورى سيما الشوق والتطلع تحاول أن تخفيهما بعدم اكتراث مفتعل، وأقرأ فى عينيها استجابات خفية لرسائلى الصامتة الملتهبة، وأستشف أحيانا على فمها ابتسامة خفيفة، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهى تعنينى. لا تدهش لأقوالى فإنى أطاردها فى إصرار، وأتتبعها فى عناء، وأخاطبها بصوت مكتوم تنبئ به عنى شفتاى المتحركتان، وأبعث إليها بإشارات الشكوى والرجاء، وقد اقتربت منى مرة وهى تلاعب طفلا من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لى إن شئت: «دائما فى أعقابى، فماذا تصنع لو رجعت إلى مصر؟...». فقلت لها بصوت مسموع: «لعلك لا تعودين...». إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلى. وقد كان لها الأثر الجميل. والآن أفتنى فإنك خبير طبيب عالم بأحوالى، هل أقدم أم حسبى

ما ذقت من لذة بريئة و أولى ظهرى ودا لن ينتهى بالتئام؟ . . . إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها. ما رأيك؟ . . . » .

يا للظلام! يا للألم الساخر! عبثا يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب، فعائدة بلا ريب هى التى لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل، وهى التى تحادث الغير وتعنى المجدود من الرجال، هى التى تجيب عيناها الإجابات الخفية . . . وهى تسكرها سير الزواج . . .

فيا للظلام! ويا للخيبة القاتلة! والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشارا فى مأساة قلبه . . . لعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط العنكبوت الذى يمسك بكفه أحلامه وسعادته . . . فيا للسخرية! من المستطاع أن يحاول إنقاذ سعادته فيعلن صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدى شهامته وما يعهد فيه من الإخلاص والمروءة، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون فى حبه من المسترحمين السائلين، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما يستطيب النار الموقدة؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقسى امتحان. فإما إلى نعيم الطمأنينة، وإما إلى أهوال العذاب، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه :

«إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد، فإن حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حب ناضجة يزهد فيها الإنسان، أقدم ولا تبال بالنتائج البعيدة، وتمتع بالحب فى منفى قنا ولا تحملن نفسك هموم التفكير فى الغد، ولا تغفل عن تزويدى بكل جديد فإنى أصبحت من تتبع حبك على حب شديد» .

وانتظر رد صاحبه بصبر نافد وجزع لحوح، حتى وافاه منه كتاب جاء فيه ما يلى :

«بوركت من حكيم سديد الرأى! لقد اتبعت نصحك أيها الأخ، وضربت لها موعدا همسا، ووافيت إليه صباح اليوم الثانى وأنا حائر بين الشك واليقين، بين اليأس والأمل؛ ولكن لشد ما كان فرحى عندما رأيتها قادمة. والحقيقة أنها كانت مترددة مذعورة على رغم خلو المكان الذى يوحى بالطمأنينة فى خفية عن أعين الرقباء، وبلغ بها الذعر أنها مرت بى غير ملتفتة إلى يدى الممتدة كأنها جاءت لغير موعدى. فتتبعتها وحييتها وطمأنتها حتى قالت لى مضطربة :

ـ لا أدرى كيف جئت؟ كيف أطعتك؟ إننى مضطربة . . .

فهدأت من خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتى أفرخ روعها واطمأنت .

لقد تحدثنا طويلا، بل طويلا جدًا، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتنى الأسطر؛ فحسبك أن تعلم أنها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر، مهذبة الطباع، وإن كانت تغلب عليها حدة الإحساس وتوقد العاطفة والذهاب مع الخيال. وقد حامت

بمهارة حول موضوع الزواج فجاريتها بخفة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عهد الميثاق. وعند الافتراق تناولت منها قبلة خلت لحلاوة جدتها أنها أول قبلة تنالها شفتاى . . . ».

انتهى الأمر، وتبددت الأحلام وخابت الآمال وقضت على قلبه الذى انتهى طويلا بأفراح الحب أن يتجرع آلام اليأس والخيبة.

وانقطعت عنه رسائلها، ولكنه كان على علم متصل بأحوالها من رسائل صديقه التى جاءته تترى.

وقد كتب إليه فى إحداها:

«أنا ـ باختصار ـ سعيد جدًا، فحياتى مليئة بالبهجة والمسرة، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة فى هذا المنفى السحيق، وإنى كلما أذكر أنى سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعرى من الهول، وأضمها إلى صدرى بشغف، وألتهم منها قبلات ملتهبة كأنى أختزن منها ما أعود إليه عند الفراق. أما هى فتعتقد أنها لن تعود إلى القاهرة أو أنها تعود لكى ترجع إلى الأبد، فمن يدريها أن لى خطيبة تنتظرنى فى القاهرة من سنوات طويلة . . .

وبهذه المناسبة أقول لك إن عائدة من اللاتى وهبهن الله دلالا وفتنة، ولكنها على قدر غير هين من الاستهتار والنزق؛ أما خطيبتى فشابة حيية هادئة الطبع وعلى خلق عظيم، وإنى أدخرها للزواج وأنا سعيد».

وكتب إليه فى رسالة أخرى:

«معذرة أيها الصديق عن تأخير غير مقصود؛ والحق ماذا أقول لك؟ فالحياة الجميلة هى هى . . . لقاء فأحاديث، فمداعبات فتقبيل وعناق فوداع ولقاء. إنها غدت مجنونة بى، وكلما مرت ساعة اشتد بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها: أن اذهب إلى والدى وخاطبه فى حبنا لأكون لك طول العمر.

إنها أمنية طبيعية ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . ».

ثم كتب إليه بين حين:

«قاومت الألفة تلعثم الحياء وصيرت التلميح تصريحا، وأمست عائدة تلح علىّ أن أكلم أباها لتتخذ علاقتنا الصيغة الشرعية المقدسة، وكانت حياتى تكون السعادة نفسها لولا هذه المنغصات.

والحق أنى أجد بين يديها سعادة صافية جعلتنى شديد العطف عليها، وبعثت فى الضمير ألما مبرحا. وإنه ليسوءنى ما أبيت لها من نية الغدر والهجر لأنى فى الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها فى هذا المنفى القصى. وما أشبه غرامى هذا بغرام الرحالة الجواب تتعدد وعوده تعدد ما يجوبه من البلدان. وما يثير النفس يا صديقى أنى

أول أمس ـ على أثر عودتى من لقائها ـ جلست إلى مكتبى شاردا أقلب بعض الكتب فما راعنى إلا ديوان شوقى تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها، هى صورة خطيبتى بوجهها الصبيح الجميل وقد سطر على ظهرها بخط جميل «تذكار الوفاء»، فكأنه سوط عذاب ألهبنى نارا. ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبى وما تأخر أيتها الحبيبة! والحق لقد اضطرب فؤادى وألقيت على الصورة نظرة ذعر سريعة ثم أخفيتها عن عينى أو أخفيت عينى عنها لأنه وقع فى نفسى أنها تعلم بخبيئتى وأنها تصوب نحوى نظرة لا تعيش أمامها الخيانة».

وكتب إليه فى رسالة أخرى يقول:

«لست فتى عصريا كما كنت أعتقد، ولو أنى كنت كذلك لما هالنى الغدر ولأكبرت على نفسى الخيانة ولسهل علىّ اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء، ولهذا تجدنى معذبا موزع القلب فلا أنا بالراضى على نفسى لأنى نكثت ميثاق خطيبتى ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة الذى رمانى تفانيها فى هاوية من الندم.

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسى وأنى بت منه فى سقام وقد كان ذلك مقدورا، ولكن ما الذى عجل به؟!.. لعله ذكرى خطيبتى أو لعله أنى أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصصت حلاوتها أو ربما كان ذلك لأن جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال».

ثم كتب:

«أمسى اللقاء غير ذى متعة، لأنى من ناحية بت أعانى من السأم وإرهاق الضمير، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبتى فى شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع، فرمت بى فى الحرج والحيرة. وينتهى موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين».

وأخيرا كتب إليه يقول:

«لأول مرة أخلف الميعاد، وإنى لأعذر نفسى وأغبطها، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا منى إعلان بالقطيعة، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا فى علاقتنا موضوعا ينبغى أن يتقرر فيه المصير، فإما إلى يمين وإما إلى شمال، وما كان ينبغى لى أن أختار من جديد، وما أحببت ذلك قط فإن خطيبتى تنتظر أوبتى بفارغ الصبر وهى أكرم على نفسى من هذه الفتاة التافهة الثرثارة التى لم يميزها الله إلا بمظاهر الجمال المبتذل لا يلبث أن يتبخر أثره فى الهواء. ومهما يكن من أمر فلن ينقضى أسبوع حتى تكون الآنسة عائدة فى طريقها إلى حيث ألقت».

* * *

قرأ جميع هذه الرسائل ـ رسائل صديقه وقاتله ـ بإمعان شديد.

وكانت تتسلط على نفسه فى ذلك الوقت عاطفتان: عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيبة والغيرة وانهيار الأمل جعلته لا يذوق لذة فى اليقظة ولا راحة فى السهاد، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهى بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهيار صرح سعادة. . .

ولم يفرط فى واحدة من هذه الرسائل التى سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجمعها فى رزمة وحفظها فى حق عاجى جميل ووضعها فى مكان أمين وانتظر. . .

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدومها، وترجو أن يذهب للقائها فى موعدهما المعهود عند العصر. . .

وفكر فى أمره طويلا، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير، فذهب إلى الموعد فى الساعة المعهودة، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها فى انتظاره. واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة، فضمها بين ذراعيه ولثم شفتيها وهو يبتسم ابتسامة كلفته غاليا من الجهد وضبط النفس.

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى السعيدة، وسمعها تقول بفرح فائض:

ـ وأخيرا.

فردد قولها: «وأخيرا». ثم نظر إليها بعينين مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه: يا عجبا! ما أقدركن أيها النساء على إخفاء مشاعركن وتكلف ما ليس بكن!

وانطلقت هى تقول:

ـ أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عنى طوال هذه المدة الثقيلة لا أرجعها الله.

ـ الذى يبدو لى أن استغراقك فى حساب الزمن شغلك عن الكتابة إلىّ.

ـ أتسخر منى؟. . آه لو تعلم كم كانت الرسالة التى أكتبها إليك تكلفنى! كنت أتسلل إلى مكان قصى بالبيت كى أخفى نفسى عن أعين أبناء عمى. . فيجدون فى أثرى ويبددون عزلتى ويفزعون أخيلتى المنسجمة وعواطفى الحارة، فإذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد.

ـ ألم يكن الخروج هينا عليك؟

ـ أحيانا مع عمى.

ـ لم لم تخرجى فى الصباح وعمك فى عمله والجو خال؟!

ـ لو فعلت لكان أمرا مثيرا . . . والشبان هناك جائعون أرذال عديمو الشرف .

ـ يا سلام . . . !

ـ نعم يا عزيزى . .

ـ أرى عذرهم بينا . . فمن يطالع هذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحب قلبه؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسى؟

فصمتت لحظة ثم قالت :

ـ إنها صغائر مألوفة لا ينى عنها الشبان . . ولكنها ليست بذات بال . . فلندع هذا الآن . . . فاعتقادى أنه لدينا ما يلذ لنا حديثه أكثر من هذا . .

ـ طبعا . . . طبعا . . ولكن واأسفاه قد قدر علىّ أن أحرم هذه اللذة الليلة . . . لأن أمى مريضة وينبغى أن أكون إلى جانبها سريعا ، فلنؤجل هذا الحديث الممتع إلى المرة القادمة .

فنظرت إليه قلقة وسألت :

ـ ما لك ؟ لست كعهدى بك! تقول إن أمك مريضة؟ لا بأس عليها . . . أمضطر إلى الذهاب إليها حالا؟

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه إلى الانفجار لينفس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقده المدفون ، ويود لو يجيبه هذا الرياء بما يمزق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته ، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة ، فمن حقه أن يصب جام غضبه ويثأر لآلام قلبه ويمحق الخيانة والمكر السيئ .

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه ، وكان بطبعه هادئا رزينا كتوما يبذ فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة ، فغالب دواعى الغضب فى نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب :

ـ إنى تعب مهموم مكدود الذهن ، ولولا شدة شوقى لرؤيتك ، ما هان علىّ أن أغادر أمى ، وهى طريحة الفراش . . فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض . . والآن اسمحى لى أن أقدم إليك هدية جميلة . هذا الحق العاجى . . . ورجائى ألا تمسيه إلا حين خلوتك إلى نفسك فى غرفتك لتحظى بالمفاجأة السعيدة فى غيبة عن أعين الرقباء . . . وإلى اللقاء أيتها الحبيبة . .

من مذكرات شاب

٢ يونيو:

هذا يوم طيب، حصلت على البكالوريوس وتوج كفاحى الأول بالنجاح فتنفست الصعداء، لأنه من الحق أن أقول إن حياتى المدرسية كانت شاقة غير مأمونة العثار، وإنى تحملتها على مضض متعوذا بالصبر وقليل من أقرانى من يصدق أن رئيس فرقة كرة القدم بالخديوية وبطل السباحة والغلام الشاطر نال البكالوريا فضلا عن البكالوريوس.

٥ يوليو:

عدنا اليوم ـ أنا ووالدتى ـ من الإسكندرية بعد قضاء شهر فى ضيافة عمتى، وانتقل بى الفكر إلى قريبى سعادة ش. ع. بك ففى جاهه وفى منصبه سحر يفتح لى أبواب الحكومة.

٦ يوليو:

زرت قريبى فى قصره..

هنأنى وتحدث معى مليا ثم بغتنى بهذا السؤال: «وما هو بكالوريوس اللغة الإنجليزية هذا؟». وأجبته عما يسأل عنه متذكرا قول القائل: إن أصعب التعريفات ما خص المسائل البسيطة. على أنه هز رأسه استهانة وقال لى: «كان أولى بك أن تدرس علما من العلوم فعصرنا عصر علم وعمل، إنى لأتساءل: كيف يمكننى مساعدتك؟!».

وقلت وأنا لا أدرى: «أى وظيفة يا سعادة البك». فضحك الرجل وقال: «لو كنت مهندسا مثلا ما وجدت مشقة فى وضعك فى المكان اللائق بك. ولكن ماذا تفعل الحكومة بالأدب والتاريخ؟».

٢١ يوليو:

هل يصبح هذا اليوم من الأيام التى أؤرخ بها.

ذهبت إلى حديقة صولت لمقابلة صديق من السعداء (أى الموظفين) فجلسنا نتحدث فى السياسة والرياضة والزواج ـ وصديقى من المتزوجين أيضا ـ ثم لفت ناظرى إلى مائدة غير بعيدة جلس إليها كهل وفتاة فى مقتبل العمر ثم قال لى: إن الرجل هو ح. و. بك من كبار موظفى المعارف وإن الفتاة كريمته، ثم قال لى مبتسما: «هذه الفتاة تعد بحق

جسرا ممهدا لوظيفة محترمة» . واتجه بصرى مرة أخرى إلى البك وإلى الفتاة خاصة . لم تكن ممن حبتهن الطبيعة بنعمة الجمال ، ولكنها رشيقة ، معتدلة القوام . . لم أشعر بنفور منها ولا ميل إليها . . ليست جميلة ولكنها ليست قبيحة . . وهنالك الروح والعقل والتربية والأصل الطيب . . وهنالك الوظيفة . .

وعدت إلى منزلى وأنا أفكر . .

٢٥ يوليو:

جذبتنى حديقة صولت فاتخذت منها مجلسا مختارا كل مساء ، وغالبا ما أقضى سهرة طويلة منفردا . من التجاوز أن أقول منفردا فعن يمينى أو يسارى أو أمامى يجلس البك وكريمته ، والحق أنى لم أخترع هذا المجلس مدفوعا برأى رأيته ولكن بمشاعر غامضة ، لم تتمخض بعد عن فكرة واضحة ، تاركا توضيحها لمعترك التجربة نفسه ، فلم يخف أمرى عن عينى الفتاة وإن بدا والدها كأنه لم يبصرنى قط ، والتقت أعيننا مرارا ، وللأعين لغة معجمها الغرائز والأحاسيس ، فباتت هذه المغازلة الصامتة عادة جميلة ، وإخالها أمست مشغولة بى ، أما أنا فأحس نشوة ظفر واهتماما مشوبا بحب الاستطلاع . . ترى هل يمكن أن أحب هذه الفتاة؟ . . لا أجد جوابا ، فالحب كما يعرف أحيانا من أول نظرة قد لا يعرف ولا يكتسب إلا بطول العشرة . .

٢٨ يوليو:

بتنا صديقين صامتين . وقد حرثت الأرض وسمدتها . فما إن تلقى المودة حتى تنبت شجرة الحب المورقة . وامتلأت نفسى ثقة فصحت عزيمتى على السير فى الطريق حتى نهايته ، أى حتى أخطبها إلى والدها . . ولكن ينبغى أن أظفر بقلبها حتى إذا لم أرق فى عينى البك وجدت فى عاطفتها عونا لا ينبذ له إرادة . . ولكن هل يعد عملى هذا نذالة؟ . . هل . . من الخسة أن أخطب فتاة لأجد وظيفة؟ . . ما وجه الاختلاف بين هذا وبين أن أخطبها لأقضى وطرا أو أنجب ذرية؟ . . فهذه الغايات جميعها وسائل فى ذاتها لإرضاء غرائز ثابتة ، تشبع الوظيفة واحدة منها ليست بأحطها على الإطلاق . . ترى هل يقوم تفكيرى على أساس صحيح من الحق ، أم أن عاطفتى تستخدم العقل والمنطق فى تبرير هناتها؟

٦ أغسطس:

ذهبت اليوم لمقابلة حضرة صاحب العزة ح . و . بك فأدخلنى خادم نوبى إلى فراندا تشرف على حديقة الفيللا الغناء .

وجاء البك بعد دقائق فى ثوب حريرى فاخر فسلم علىّ سلاما حارا أذهب عنى الارتباك ورد إلىّ جنانى . وقدم لى سيجارة ، ثم تفحصنى بنظرة ثاقبة : وأخذنا فى

الحديث، فسألنى عن مؤهلاتى وعما أنتويه لمستقبلى؟ فقلت له: إنى أروم الاشتغال بالتدريس، فسألنى عما إذا كنت حاصلا على دبلوم التربية؟ فأجبته بالنفى.. ولكنى أكدت له أن كثيرين من أقرانى اشتغلوا بالتدريس بغير هذا الدبلوم ولكن بالوصايات التى لا ترد، فهز رأسه هزة لها معناها وقال: «إنى أرجو لك كل خير». ثم أرسل فى طلب ابنته، فلم أتمالك أن خفق قلبى وشعرت بحرارة الاضطراب تلفح وجهى. وجاءت الشابة، مرتدية ثوبا أبيض يكشف عن ذراعيها ناشرة فى الجو رائحة طيبة مخدرة فراعنى جمال جسمها وحيويته. وقدمها إلىّ قائلا: «آنسة سعاد.. ابنتى». وقدمنى إليها وأخبرنى أنها متخرجة من الجامعة الأمريكية وأنها أستاذة فى الأدب الإنجليزى مثلى، وأن أمها متوفاة، ثم اقترح ضاحكا أن يكون حديثنا بالإنجليزية ـ وهو من خريجى جامعة إكسترا ـ فتحدثنا طويلا، حديثا قريب التناول ولكنه لذيذ ممتع. والواقع أن سحر النساء يتجلى فيما ينفثن فى الحديث التافه من لذة.. وقد طبت نفسا.

١٠ أغسطس:

عدت إلى مقابلة البك مرة أخرى فقال لى بلهجة دلت على الأسف: «لا توجد وظائف خالية لتدريس اللغة الإنجليزية». وتريث قليلا ثم استدرك: «ولكن توجد وظيفة مدرس لغة فرنسية.. هل تجيد الفرنسية؟». والواقع أن معلوماتى فى الفرنسية تعادل معلومات طالب البكالوريا أو هى كانت كذلك قبل أربع سنوات. ولكنى وجدت نفسى حيال وظيفة محترمة درجة سادسة وربما بعثة أيضا، فأجبته بجسارتى الطبيعية: «إنى أجيد الفرنسية يا سيدى». فقال الرجل بسرور: «انتهينا يا بطل».

١٤ أغسطس:

يوم جميل اصطحبت «سعاد» للنزهة فتمشينا فى جزيرة الروضة جنبا إلى جنب. وهذه أول مرة آخذ فيها حذرى فى محادثة فتاة، فلا يخفى أنها مثقفة ذكية ذات تجارب، كثيرة الاختلاط بأفاضل الرجال من أصدقاء والدها. فقلت لنفسى: إنه يحسن ألا أتملقها تملقا رخيصا مبتذلا. وجرى الحديث بيننا فقلت لها: إنى سعيد بمعرفتك معجب بثقافتك وذكائك. ثم شعرت بأنى لم أقل كل ما ينبغى أن يقال، وألح علىّ شعورى فقلت: إن لك حسنا يروقنى. ولكنها حدجتنى بنظرة ذات معنى وقالت لى مبتسمة: «كلا لست جميلة ألبتة». فقلت لها مستعينا بالجدل على مداراة عواطفى: «سنظل نختلف فى الجمال كما اختلف الذين من قبلنا.. ولكن حسبى ما تقول النظرية الذاتية، فجمال امرأة هو ما يطيب لى منها.. وأهم الأشياء جميعا أن تلقى حياتنا المشتركة قناعة وسعادة». فضحكت ضحكة رقيقة وسألتنى كالمتهكمة: «أقصيدة غزل أم رثاء؟!». فقلت بلهجة دلت على الإخلاص والصدق: «لا استحققت الرثاء أبدا». ثم صارحتها بما زعمت أنه

رأيى فى الحب والزواج وأسهبت فى ذلك إسهابا وتعمدت أن تدل لهجتى على البساطة والإخلاص. . وأصغت إلىّ بكل جوارحها، ولم تواصل الصمت فاشتركت فى الحديث، وكأنما تعبنا بعد ذلك فسرنا صامتين وكلانا مغرق فى أفكاره. وعلى حين غرة ضغطت على يدها وقلت لها همسا بالإنجليزية: «أحبك» فتورد وجهها واضطرب جفناها.

والآن ـ وأنا منفرد فى حجرتى ـ أذكر حذرى بسخرية واستهزاء.

١٥ أكتوبر:

نزلت الميدان ولا سلاح لى إلا جرأتى والثقة المكتسبة من نفوذ صهرى وقد داخلنى شىء من الطمأنينة حين أيقنت أنى سأدرس مبادئ بسيطة سهلة. أما العقبة الحقيقية ففى النطق والكتابة ولا أدرى شيئا عما يخبئه المستقبل لى من الصعوبات. . بدأت الدرس بتوجيهات عملية كما هو مقرر فى برنامج الدراسة فجعلت أقول لهم بعض العبارات التى حفظتها عن ظهر قلب مستعينا بتفهيمها بالإشارة مثل: قوموا، اجلسوا، افتحوا الشباك، أغلقوا الشباك، وقد لاحظت أن تلميذا ـ من الجالسين فى الصف الأول ـ يحسن الفهم، فأثنيت عليه فما راعنى إلا أن وقف وقال لى جملة بالفرنسية فى وضوح وسرعة، فلم أفهم شيئا وبهت، ولكن لا أظن أنه بدا على وجهى شىء مما يقوم فى نفسى، وتطوع تلميذ ساءه ما نال قرينه من الظفر بإخبارى بأن أمه فرنسية، وساءنى الخبر، وأسفت له فى نفسى وأردت أن أتقى شره فنهرته قائلا: إنه لا يجوز أن يتكلم قبل أن يؤذن له.

هذا رقيب لم أكن أتوقعه يذكرنى وجوده بالمثل القائل: «فى كل خرابة لنا عفريت».

٢٧ أكتوبر:

الحياة شاقة لا لذة فيها. إنى أدرس وأنا قلق، وأصحح مئات الكراسات، ثم أذاكر كأننى تلميذ من التلاميذ، فمن يصدق بعد هذا أنى أوشك أن أختم شهر العسل. وكيف أطمع فى أن تطيب لى الحياة. . وما يخفى شىء عن عينى زوجى فهى تعلم بمتاعبى جميعا. وقد أقنعتها بضرورة سفرى فى بعثة فاقتنعت ووعدت بدورها بإقناع والدها فكلانا لا يمكن أن يتذوق طعم الحياة الحلو إذا استغرقنى ذاك التيار العنيف من العمل والقلق وعدم الثقة بالنفس. . ومع هذا فلشد ما يحسدنى أناس على زيجتى وعلى الدرجة السادسة!

٧ نوفمبر:

حضر درسى اليوم مسيو روبير مفتش اللغة الفرنسية. .

وكنت أتوقع حضوره بين يوم وآخر أستفز حنانه القلق، لقد أمكننى أن ألزم التلميذ طاهر ـ ابن الفرنسية ـ حد الصمت ولكن كيف أنجو من مخالب هذا المفتش. . وجاء

الرجل واختار موقفه فى نهاية الفصل وجعلت أشرح الدرس بعناية فائقة مختلسا ـ بين حين وآخر ـ النظرات من وجهه المعتصم بلحيته السوداء المجللة بالمشيب، فلم أستطع أن أنفذ من عينيه الجامدتين إلى حقيقة مشاعره، ورأيته يتحرك متمهلا ويفحص بعض الكراسات فمضى قلبى يروح معه ويجىء ثم نظر نحوى وقال بصوت مرتفع «مسيو» فأمسكت واتجه نظرى نحوه وقد تملكنى الارتباك، فطلب إلىّ أن أوجه إلى التلاميذ أسئلة عن الموضوع فصدعت بالأمر حامدا الله على أنه لم يدعنى إلى محادثته علانية، ثم وجهت عدة أسئلة فى لهجة مضطربة، خصصت التلميذ طاهر بأكثرها.

وفى نهاية الدرس خلا الرجل بى، وحدجنى بنظرة ثاقبة ثم سألنى عن مؤهلاتى. فأهاج سؤاله دمى وأجبته بالحقيقة، فلم يخف دهشته، واعتذرت عن الواقع بأنى لا ينقصنى إلا التمرين على الكلام فقال لى بلهجة باردة: «ولكن يا سيدى ليس المدرس إلا معلم كلام». فغصصت بقوله وسكت.

وفى هذه الساعة التى أكتب فيها تجلس زوجى إلى أبيها تلح عليه فى وجوب سفرى بالبعثة.

١٥ يونيو:

أما هذا فيوم عصيب سأذكره ما حييت، ففى صباحه كان امتحان الإملاء للغة الفرنسية وفى مسائه كان الامتحان الشفوى وكان علىّ أن أقف على منصة أنا ونفر من المدرسين الفرنسيين لنملى على الممتحنين، فاتخذت مكانى مضطرب النفس خافق القلب لا أدرى كيف يعلو صوتى بنطق كلمات لا أحسن نطقها على مسمع من المدرسين الفرنسيين والمراقبين ورئيس اللجنة. وشعرت بحرارة تلفح وجهى ورأسى وأوشكت جسارتى أن تخوننى، وكان ترتيبى فى الإلقاء الثانى، بعد مسيو بواييه مباشرة، فقست المسافة التى تفصل بيننا بعينى وأرهفت سمعى وألقيت به إليه لألتقط حركاته الصوتية التقاطا دقيقا. وبدأت الإملاء فاستجمعت انتباهى فى أذنى اليمنى متناسيا ما حولى، وأملى الرجل عبارته الأولى فحاكيته مخرجا مخرجا، ولكن الظاهر أن صوتى لم يرتفع للدرجة المطلوبة ولم يتضح كما ينبغى لأنى سمعت ضجة من حولى وأصواتا تهتف بى: «مرة ثانية من فضلك» فتميزت من الغيظ والحنق لأنه لم يبق فى رأسى من النطق الصحيح إلا أصداء واضطررت إلى الإعادة مخاطرا.

وتكرر الإملاء فالإصغاء فالترديد فالعذاب. وما لبثت أن أدركت أن أنظار بعض المراقبين متجهة صوبى فتضاعف اضطرابى وحرجى، ولمحت واحدا منهم يتبسم ابتسامة تدل على الهزء والسخرية، فغلا دمى، وتركت المنصة أخيرا فى حالة إعياء وألم شديدين.

ولم يمض على عذابى هذا بضع ساعات حتى عدت مرة أخرى إلى المدرسة لأمتحن الشفوى، وكان الممتحنون مقسمين إلى لجان، تتكون كل لجنة من مدرسين. وعرفت أنى فى لجنة (جـ) ووجدت زميلى ينتظرنى بها وهو شاب فرنسى فى مقتبل العمر، فحييته بلطف وابتسمت إليه ما وسعنى اللطف والتودد، ولم يداخلنى شك فى عجزى عن لعب هذا الدور الجديد فرأيت أن أظفر بوسائل أخرى.. جالست الشاب وقدمت له سيجارة فاخرة، وطالعته بنظرة منكسرة حزينة، فسألنى عما بى فأخبرته بأنى متعب مريض. وهكذا فعلت كما يفعل التلاميذ الكسالى استدرارا لرحمة الممتحنين وتساهلهم. ولما بدأ الامتحان قدمت له سيجارة أخرى وطلبت إليه أن يعفينى من امتحان المناقشات رحمة برأسى مكتفيا بأن أمتحن التلاميذ فى المطالعة، وقبل الشاب بسرور، وأخرجت علبة السجائر الفاخرة، ووضعتها على حافة القمطر مفتوحة ثم دعوت فراشا وطلبت القهوة.

ولا أدرى كيف انتهى هذا اليوم العصيب، وبه أختم أشق عام فى حياتى..

١٥ يوليو:

علمت أنى اخترت بين أعضاء البعثة وعما قليل تعلن أسماؤنا فى الصحف فالشكر والحمد لله وسأعود من فرنسا بعد عامين مستردا ثقتى بنفسى فلا يضطرب قلبى للقاء مفتش أو امتحان شفوى، وحسبت أول وهلة أنى مسافر وحدى، ولكن صهرى أخبرنى بأن زوجى ستسافر معى.

فليكن، لست على أية حال شقيا، وهبنى تزوجت بأجمل فتاة فى مصر فهل كان جمالها بقادر على أن يحتفظ بسحره وأسراره أبد الدهر؟ إن للعادة سلطانا لا يقاوم فهى تجعل من الغريب الذى ينفرنا شذوذه شيئا مألوفا وربما محبوبا، كما تهبط بالجمال من عرشه وتفقده جدته وفتوته، السعيد من راض نفسه على الواقع والتمس أسباب الرضا والقناعة حيثما كان!

الهذيان

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيذانا بطلائع النور، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود. كانت امرأة شابة ترقد على الفراش يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعانى وبال مرض يهتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شاب فى مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد، ويأبى القلق أن تلتقى أهدابهما، يطالع وجه المريضة فى

حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجرى الحنان فى عينيه الذابلتين ويتمتم فى رجاء صادق : «اللهم صن حياة الأم المسكينة . . . وطفلتنا البريئة» .

وكان الشاب من ذوى القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف . وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه «رجل البيت» ، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية ، والاشتراك فى المظاهرات التى تستهوى أقرانه ، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب : فكان يقضى نهاره فى الحديقة يسقى أشجار البرتقال والليمون ، أو فى السطح بين الدجاج والحمام ؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معا إلى السينما . ولذلك أخذ يفكر فى الزواج تفكيرا جديا منذ اليوم الذى عين فيه مهندسا بمصلحة الأشغال العسكرية . وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح ، كما كان يفعل شباب الجيل الماضى . فلم يكد يمضى عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج . ولم يدهش أحد أن تنعطف هكذا سريعا إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا ، ولكنه كان سيئ الحظ ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة . وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع ، واندفع إلى استدعاء أعظم الإخصائيين من الأطباء من حملة الباشوية والبكوية غير مبق على مال أو ضان بثمين ، حتى اضطر إلى بيع الراديو وساعته الذهبية ، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداه إلى آخر قطرة . . وبالغ فى ذلك ، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة . وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم ، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ويسأل العرافين ، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام ، ملتمسا الطمأنينة فى مظانها جميعا .

وهل ينسى الليالى التى قضاها مسهدا قلقا لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟ . . . وكانت هى مسكينة تستحق الرثاء ، تضطرب بين النوم والقلق واليقظة الحائرة ، وبين النزاع والهذيان ، وما هذا الهذيان؟ ! . . . إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين . كان يصغى إليها وهى تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة ، وكان شاركها شهود بعضها ، فجرى الابتسام على فيه ، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان . وفى ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة : «صابر» فهرع إليها متسائلا : «نعيمة . . هل تحتاجين إلى شىء؟» ، ولكنه أدرك أنه خدع ؛ لأنها كانت مغمضة العينين ، يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة ، فعلم أنها ماضية فى هذيانها الذى لا ينتهى ، فعاد إلى سريره ، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه : «صابر . . . أنا متألمة خجلة» . فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه : «أنت

متألمة بغير شك، أعانك الله على ما أنت فيه، ولكن مم تخجلين؟ إن هذا الابتلاء لا يخجل أحدا وإن كان يحزننا جميعا»، وظن أنها متألمة لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آى اليقظة والشفاء، واستدركت المرأة تقول:

«زوجى أحسن الأزواج؛ أما أنا فشقية. . لست أهلا لوفائه».

فتنهد الشاب حزنا وتمتم قائلا بصوت غير مسموع: «أنت أهل لكل خير». وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: «راشد. . كفى وابتعد عنى. . ابتعد ودعنى. . .» وكان يهم بمناداتها فاحتبس الكلام فى فيه. وحملقت عيناه المسهدتان، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس فى فراشه وهو يتساءل:

«راشد! من راشد هذا؟» وكان يشعر شعورا باطنيا بأنه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة، وكأنما سبق أن آذى مشاعره. وأسند جبينه إلى كفه وأغمض عينيه، وكأن صاحب هذا الاسم يعيش فى الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحس لذلك رجفة تسرى فى مفاصله. . . راشد أمين أو أمين راشد ـ لا يذكر ـ شاب نافسه فى طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أن والدها فضله هو واختاره لكان قد تزوج بها. وقد تذكر أنه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أى أثر؛ ورفع رأسه مرة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدقان؛ ورغب رغبة حارة فى أن يستزيدها ويستوضحها. ولكنه لم يدر كيف يحثها على الكلام، ورأى شفتيها تتحركان فى ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعانى جزعا مجنونا فسمع صوتها يقول فيما يشبه الأنين:

«من يقول هذا؟! . . أف . . والخيانة . . راشد . . صابر . . الخيانة شىء قذر . .» فشبك كفيه وشدهما على صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شىء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه فى وهمه حتى ملأ الفراغ الذى أمامه فثقل عليه وسمج، ودوى صدى صوتها فى أذنيه، فصار كطنين لا ينقطع، وثقل تنفسه ويبس حلقه. . . ما هذا الذى تتكلم عنه؟! وما هذه الخيانة التى أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان؟! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجه عشر ما بذل من الرقة والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله من الصفاء والإخلاص! فكيف انطوى هذا على أقذر ما تبتلى به الضمائر والنفوس؟ رباه. . . إنها تقول إن الخيانة شىء قذر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع فى هذيانه من قذارتها إلا من انغمس فى بؤرتها. رباه. . . لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض

زوجه أقصى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هين عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره. وأحس اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر، دمث الأخلاق، لين الجانب، رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولكنه يشل حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه. فيجعله كسيارة يدفعها محركها، وتقيد الفرملة عجلاتها، ولكنه على الرغم من هذا، تحول رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه فى سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسمات وأدام إليه النظر، والشك والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحول عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر فى نومه حتى التصق به وكانت مغمضة العينين، بادية الاصفرار والخور تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق فى السحاب الداكن وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولكن قلبه تحجر هذه المرة، فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها: «نعيمة.. نعيمة.. ماذا فعل راشد؟» فلم تنتبه إليه ولم تصح، فرفع صوته وناداها وهو لا يدرى: «نعيمة». فبلغ صوته مسمعى أمها فى الحجرة القريبة وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهى تظن الظنون وهرعت إليه متسائلة: ما لها؟.. هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن أعطاها شيئا وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التى تعانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها فى استهانة وقسوة: «نعم هى بخير والحمد لله». وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلص منها، ولبثت حماته قليلا: وفى أثناء ذلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت فى نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوق إلى إيقاظها، ولكنه خشى التى فى الخارج فمضى بقية الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانية وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنها لا تحس شيئا حتى اهتدت عيناها إليه، فدبت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير: «ما الذى أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هكذا؟». فرد عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشد هزالا وشحوبا، ولاحت فى عينيها نظرة الوداع المخيفة، وكان يشغل باله شىء واحد أسهده الليل ولم يجهل أن إثارته خطر يهدد بالقضاء عليها، ولكنه لم يحس سواه ولم يبال غيره. وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة فى الانتقام، فقال بلهجة جافة: «تكلمت الليلة الماضية كثيرا، فشرقت وغربت، وأجرى الهذيان على لسانك كلاما يحتاج إلى إيضاح». فلم تفهم شيئا ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شىء سوى الذهول المطلق. وأراد أن يسترسل، ولكن منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبثت أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضبا وهو يقول لنفسه:

«الطفلة الملعونة تدارى فضيحة أمها وأبيها!» وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه: «كان ينبغى أن أعلم كل شىء وقد أتيحت لى فرص، لماذا أفر من صراخ الطفلة؟ أو من ظهور جدتها؟ الحقيقة أنى ضعيف . . دائما يندى قلبى بالحنان والعطف، فما كان أجدر بى أن أكون ممرضة . . أما رجلا فلا . . لست رجلا ولست زوجا . . . فأمثالى نساء كاملات، أو رجال مغفلون . . ومع هذا هل أنا فى حاجة إلى دليل جديد؟ دمرت حياتى وانتهى كل شىء».

وقضى النهار ضالا لا يقر، يتردد الألم فى صدره مع أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالا وأشد هزالا . وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان، وتقص عليه ما قاله الطبيب، فلم ينفذ شىء من قولها إلى صدره وعاف الرد عليها بتاتا، بل لذ له أن تقول إن الحالة سيئة، فلتتألم كما يتألم. ولكن كيف يفهمها أنه يعلم كل شىء؟ كيف يحادثها فى هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارقتها فى مثل تلك الحال الخطيرة؟ واشتد به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعا فيسمع منه ما امتنع من سماعه فى اليقظة؟ وملأ الفنجان ماء خالصا ووضعه على فم المريضة فازدردته بامتعاض . . وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة، ولكن زوجه لم تنم فى تلك الليلة ولم تهذ واشتد عليها الألم فباتت تئن وتشكو وتضطرب . واستدعى الطبيب عند الليل فعاينها ولكنه لم ينصح بشىء، وهمس فى أذنه بأن الحالة جد خطيرة . . وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها .

وخلا إلى نفسه، وكان الذهول مطبقا على حواسه جميعا؛ لأن الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معا فى ساعة واحدة دون عهد سابق بهما . وماتت نعيمة ولم يحزن لموتها، ولكن حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أن الحقيقة لم تغب عنه فقال: لم تمت كما يظنون . . أنا قتلتها . . قتلتها لأنى منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشد ليالى المرض . . «فأنا قتلتها . . ». وجعل يردد: «أنا قتلتها». فكان يشعر لها بوقع غريب فى نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح .

ثم قال مرة أخرى: «وقتلتنى هى حيا، وألصقت اسمى قسرا بطفلة إنسان سواى . . ولكنى قاتل فلست إذن مغفلا».

وأسند رأسه إلى يده وراح فى تأمل طويل وقد سرى فى جسده قشعريرة البرد والخوف .

* * *

كيف انقضت تلك الأيام التى أعقبت الوفاة؟ . . انقضت فى ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل إنسان، ثم أعلن عن رغبته فجأة فى السفر إلى لبنان انتجاعا للصحة

والراحة، وكان فى الحق يفر من أفكاره وطفلته. ومضى إلى الإسكندرية واستقل سفينة، والظاهر أن نفسه الرقيقة تعرضت فى البحر لأزمة عنيفة هدت كيانه وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس من الدنيا جميعا وألقى بنفسه فى اليم خلاصا من عذابه وآلامه، محتفظا بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك.

وكان المترحمون يترحمون عليه فيقولون: «ما رأينا إنسانا يحب زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها، فقضى على نفسه بعد موتها بأيام.. رحمهما الله».

يقظـــة المـــوميـــاء

أجد حرجا كبيرا فى رواية هذه القصة؛ لأن بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعا؛ ولو كان مردها إلى الخيال ما تحرجت، ولكنها وقعت فى عالم الحقيقة وكان ضحيتها رجل من رجال مصر الأفذاذ المعروفين فى الأوساط السياسية والأرستقراطية. وراويتها الذى أنقل عنه أستاذ كبير بالجامعة، لا يجوز أن يرتقى الشك إلى عقله وخلقه، ولم يعرف عنه قط ميل إلى الأوهام والخرافات، ولكنى - والحق يقال - لا أدرى كيف أصدقها فضلا عن أن أحمل الآخرين على تصديقها؛ وليس ذلك لندرة المعجزات فى عصرنا، فمما لاجدال فيه أن عصرنا عصر المعجزات والخوارق، ولكن العقلاء فى أيامنا هذه لا يقبلون أمرا بغير تعليل، كما أنه لا يستعصى شىء على إيمانهم مع التعليل المعقول. وإنى حيال قصة عجيبة لها من دواعى التصديق رواية حكيم وشواهد ملموسة، ولكن التعليل العلمى لا يزال يتأبى عليها، فهلا أعذر على شعورى بالحرج فى تقديمها؟

ومهما يكن من أمر فإليك ما رواه جناب البروفسير دريان (أستاذ الآثار المصرية القديمة) بجامعة فؤاد الأول، قال: فى ذلك اليوم الأسيف الذى خفق فيه قلب مصر خفقة الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور له محمود باشا الأرنؤوطى فى قصره العظيم بصعيد مصر، وأذكر أننى وجدت عنده جماعة من الأصدقاء الذين كانوا يترددون عليه كلما أسعدتهم الظروف، منهم المسيو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا. والدكتور بيير طبيب الأمراض العقلية. واحتوانا جميعا «صالونه» الأنيق البديع الحافل بآيات الفن الجميل من لوحات وتماثيل كأنها احتشدت فى تلك البقعة لتؤدى تحية العبقرية الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة تحت أطلال الوادى، ويتوهج نورها خلل ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألقة فى السماء، السارى فى تضاعيف الليل البهيم..

وكان المغفور له من أغنى أغنياء المصريين وأوسعهم ثقافة وأسماهم خلقا . وقد قال عنه مرة صديقنا الأستاذ لامبير : إنه ثلاث شخصيات تقمصت رجلا ، فهو تركى الجنس، مصرى الوطن ، فرنسى القلب والعقل ، فأدى تعريفه أتم أداء . والحق أنه كان أكبر صديق لفرنسا فى الشرق ، وكان يعدها وطنه الثانى ، وكانت أسعد أيامه تلك التى قضاها تحت سمائها ، واتخذ أصدقاءه جميعا من أبنائها سواء منهم من يعيش على ضفاف النيل أو فى جنات السين . وكنت إخال نفسى وأنا فى «صالونه» أنى انتقلت فجأة إلى باريس ؛ فالأثاث فرنسى والجالسون فرنسيون ولغة الكلام فرنسية والطعام فرنسى . وإن كثيرا من الفرنسيين المثقفين لا يعرفونه إلا كهاو فذ من هواة الفنون الجميلة ، أو كشاعر يقرض الشعر الوجدانى الجميل بالفرنسية ، أما أنا فقد عرفته ـ إلى هذا ـ محبا لفرنسا ، متعصبا لثقافتها ، وداعية لسياستها . .

أخذت مجلسى فى ذلك اليوم إلى جانب الباشا وكان المسيو سارو يقول وهو يتأمل بعينيه الواسعتين الجاحظتين تمثالا نصفيا برنزيا لأنشتين :

ـ إن قصرك يا صاحب السعادة يحتاج إلى تغيير طفيف لكى يصير متحفا كاملا .

وقال الدكتور مؤمنا على كلامه وهو يتخلل لحيته بأنامله :

ـ صدقت فهو معرض دائم لجميع العبقريات والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنانين الفرنسيين .

فقال الباشا :

ـ الفضل فى ذلك يرجع إلى ذوقى المعتدل الذى يساوى بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء المدارس ، ويهوى تذوق الجمال سواء أكان بديعه براكستليس أو رفائيل أو سيزان . مع استثناء البدع الحديثة المتطرفة .

فقلت ناظرا بطرف خفى إلى المسيو سارو وكان يحلو لى دائما أن أداعبه :

ـ لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا . .

فضحك المسيو سارو وقال موجها الخطاب إلىّ :

ـ بل لعلها تستغنى عن ناظر المدرسة الفرنسى أيضا . .

ولكن الباشا قال جادا :

ـ اطمئن يا عزيزى سارو ، فإنه إذا قدر على هذا المتحف أن يترك الصعيد فسيتخذ طريقه رأسا إلى باريس .

فنظرنا إليه نظرة استفهام ودهشة ، وكأننا لا نصدق آذاننا .

فالواقع أن مجموعة الباشا الفنية كانت تقدر بمئات الألوف من الجنيهات ، وقد

تسربت جميعها إلى جيوب الفرنسيين ، فكان غريبا أن يفكر فى إهدائها إلى فرنسا ، وكان يحق لنا أن نفرح ونبتهج ولكنى لم أتمالك أن أسأله متعجبا :

ـ أحقًّا ما تقول يا إكسلنس؟

فقال الباشا بهدوء :

ـ نعم يا صديقى دوريان . . ولِم لا . . ؟

فقال المسيو سارو :

ـ يا له من حظ سعيد حقيق باغتباطنا نحن الفرنسيين! ولكنى أقول لسعادتك مخلصا إنى أخشى أن يسبب لك متاعب كثيرة . .

وأمنت على رأى المسيو سارو .

وردد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيهما نظرة ساخرة وسألنا متجاهلا :

ـ ولمه . . . ؟

فقلت بلا تردد :

ـ ستجد الصحافة فى ذلك موضوعا أى موضوع!

وقال الدكتور بيير :

ـ وما من شك فى أن الصحافة الوطنية عدو لك قديم . . . وهل نسيت يا صاحب المعالى حملاتها المغرضة عليك واتهاماتها إياك بأنك تبعثر أموال الفلاح فى فرنسا بلا حساب؟!

فصاح الباشا بإنكار :

ـ أموال الفلاح؟!

فبادر الدكتور يقول معتذرا :

ـ معذرة يا باشا . . . هذا قولهم!

فهز سعادته منكبيه استهانة وزم شفتيه احتقارا ، وقال وهو يثبت نظارته الذهبية على عينيه :

ـ أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة . وما دام ضميرى الفنى لا يرتاح لبقاء مثل هذه الآيات وسط هذا الشعب الحيوانى ، فلن تقبر هنا أبدا .

وكنت أعرف رأى صديقى الباشا عن المصريين واحتقاره لهم . ومما يحكى فى هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصرى نابغة حاصل على رتبة البكوية طالبا يد ابنته ، فطرده شر طردة؛ لأنه فلاح ابن فلاح . على أنى ـ مع موافقتى على كثير من التهم التى يكيلها الباشا لبنى وطنه ـ لم أكن أتبعه فى رأيه إلى النهاية ، ولما قلت له :

ـ سعادتك شديد النقد.

فقهقه الباشا ضاحكا وقال:

ـ أنت يا عزيزى دريان رجل وهبت حياتك الثمينة للماضى البعيد، وربما لاحت لك فى غياهبه لمع عبقرية خلفها القدماء لا تفتأ توقظ عطفك وحنينك على أحفادهم. ولكن شتان بين الفراعين والفلاحين، لا يجوز أن تنسى يا صديقى أن المصريين شعب فول...

فضحكت وقلت له:

ـ عفوا يا صاحب السعادة، ألا تعلم أن السير ماكنزى أستاذ آداب اللغة الإنجليزية بكلية الآداب صرح أخيرا بأنه أصبح يفضل الفول على البودنج؟

فضحك الباشا، وضحك الحاضرون جميعا وقال سعادته:

ـ أنت تفهم ما أعنى، ولكنك تحب المزاح. المصريون حيوانات أليفة طبعها الذل، وخلقها التذلل، وقد عاشوا عبيدا على فتات موائد الحاكمين منذ آلاف السنين، ومثل هؤلاء لا يحق لهم أن يأسفوا على إهداء هذا المتحف إلى باريس...

فقال المسيو سارو:

ـ نحن لا نتكلم عما يحق أو لا يحق، ولكن عن الواقع. والواقع أنهم سيأسفون (ثم قال بلهجة ذات مغزى) وستأسف معهم صحافتهم...

ولكن لم يبد على الباشا أدنى اكتراث، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتعلة، وربما كان لأصله التركى دخل كبير فى تشبثه بآرائه وعناده واحتقاره للمصريين. ولم يرد أن نسترسل فى ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة بابه، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة الفرنسية اللذيذة التى لم أذق مثلها فى مصر، ثم نظر الباشا إلىّ باهتمام وقال:

ـ ألم تعلم يا مسيو دريان أنى بدأت أنافسك فى اكتشاف الكنوز؟

فنظرت إليه مستفهما وسألته:

ـ ماذا تعنى يا إكسلنس؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون:

ـ على بعد أذرع منا تجرى عملية حفر جليلة الشأن فى حديقة قصرى.

فبدا علينا الاهتمام جميعا، وتوقعت سماع خبر مثير، وكان لكلمة حفر تأثير خاص فى نفسى؛ لأنى قضيت شطرا كبيرا من عمرى ـ قبل أن أشتغل فى الجامعة ـ أحفر وأنقب فى أرض مصر الغنية الساحرة.

وقال الباشا وهو لا يزال يبتسم :

ـ أرجو ألا تسخروا منى يا سادة فقد فعلت ما كان يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والمشعوذين ولا أدرى كيف رضخت وأذعنت؛ ولكن لا داعى للأسف فقليل من الخرافة يريح العقل الكلف بالحقائق والعلوم. ومجمل الحكاية أنه جاء قصرى منذ يومين رجل معروف فى هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله، يحترمه العامة ويقدسونه، وكم ذا بمصر من المقدسين، وألح فى طلبى وأذنت له وأنا أعجب لشأنه، وحيانى الرجل على طريقته، وبشرنى بأنه استدل بعلمه الروحانى وبكتبه القديمة عن وجود كنز ثمين فى باطن حديقتى، وطلب إلىّ بتوسل أن آذن له فى الكشف عنه تحت إشرافى، ومنانى بالذهب واللآلئ فى مقابل أن أعده بالحلوان. وضقت به وهممت بطرده، ولكنه ضرع إلىّ وتوسل حتى استعبر وقال لى: لا تهزأ بعلم الله ولا تستهن بعباده المقربين. فضحكت طويلا، ثم خطر لى خاطر سريع فقلت لنفسى: لماذا لا أجارى الرجل فى وهمه وأسايره على اعتقاده؟! لن أخسر شيئا وسأفوز حتما بنوع من التسلية. وقد فعلت يا أصدقائى، وأذنت للرجل، وأنا أتظاهر بالجد، وها هو ذا يحفر فى حديقتى ويعاونه فى عمله الشاق اثنان من خدمى المؤمنين، فما رأيكم؟

قال الباشا ذلك وضحك عاليا، فضحك الجميع، أما أنا فكرت بى الذاكرة إلى الماضى إلى حادثة مشابهة فقلت :

ـ طبيعى أنكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله، ولا أنا أستطيع أن أومن به واأسفاه، ولكنى لا أستطيع كذلك أن أنسى أنى اكتشفت قبر الكاهن« قمنا »بفضل خرافة كهذه!

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألنى الباشا :

ـ أحقّا ما تقول يا سيدى الأستاذ؟

فقلت :

ـ نعم يا باشا، لقد دلنى يوما شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض فى وادى الملوك وقال لى: إنه استدل بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها، فضربنا فيها بمعاولنا ولم نلبث أياما حتى اكتشفنا مقبرة «قمنا» . . . وهذا بلا شك من عبقريات المصادفات.

فضحك الدكتور بيير وقال متهكما :

ـ ولماذا تعلل ذلك بالمصادفات فتجحد العلم القديم؟ . . . ألا يجوز أن الفراعنة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفية كما يورثونهم سحنتهم وكثيرا من تقاليدهم؟

ومضينا نتفكه بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ومضى الوقت لذيذا ممتعا، وعند الأصيل استأذن الضيوف فى الانصراف، وأما أنا فأعلنت عن رغبتى فى مشاهدة عملية الحفر التى يجريها الشيخ جاد الله، وغادرنا جميعا الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجى لتوديع الأصدقاء، ولم نكد نقطع خطوات حتى وصلت إلى مسامعنا ضجة عظيمة واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يمسكون بتلابيب صعيدى ويوسعونه ضربا ولكما، ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم:

ـ يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللص وهو يسرق طعام «بيميش».

وكنت أعرف« بيميش» حق المعرفة، فهو كلب الباشا العزيز وآثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده، وهو يعيش فى قصر الباشا منعما مكرما، يقوم على خدمته خدم وحشم، ويكشف عليه طبيب بيطرى مرة كل شهر، ويقدَّم له كل يوم لحم وعظام ولبن وثريد، ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصعايدة على غذاء« بيميش». . . وكان السارق صعيديا قحا، يتميز بالسحنة المصرية العتيقة، ويبدو على هيئته البؤس والفقر. وقد حدجه الباشا بنظرة قاسية وقال له بعنف:

ـ كيف سولت لك نفسك انتهاك حرمة بيتى؟

فقال الرجل بتوسل وهو يلهث من أثر الجهد الذى بذله فى مقاومة الخدم:

ـ كنت جائعا يا صاحب السعادة، ورأيت اللحم المسلوق مبعثرا على الحشائش فخانتنى قوتى ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى!

فالتفت الباشا إلىّ وقال هازئا:

ـ أرأيت الفرق بين بائسنا وبائسكم؟ . . إن بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف، أما بائسنا فالرغيف ليس عسيرا عليه، ولكنه لا يرضى إلا باللحم المسلوق. .

ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدة، وشده وصاح بالخدم:

ـ خذوه إلى الخفير. .

وضحك الدكتور بيير وهو يسلم وقال للباشا:

ـ ماذا تفعل غدا إذا شم الصعايدة رائحة الذهب المكدس فى كنز الشيخ جاد الله؟

فقال الباشا فورا:

ـ سأحيطه بسياج من الخفراء كخط ماجينو.

وعدنا ـ أنا والباشا ـ وتبعته صامتا إلى حيث يشتغل الشيخ جاد الله الذى يوشك أن يصير أثريا عظيما، وكان الرجل منهمكا فى عمله هو ومعاوناه. يضربون الأرض بفئوسهم ويرفعون الأتربة فى المقاطف ويلقونها جانبا، وكان الشيخ جاد الله، تلمع عيناه

ببريق حاد يدل على العزم والأمل، وتنبعث فى ساعديه النحيلتين قوة غير طبيعية. كان يدنو حقّا من هدفه الذى هداه إلى سبيله عمله الإلهى، فتمثل لى فى شخصه العجيب الإنسان بنشاطه، وإيمانه وأوهامه. والحق أننا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهاما ولكننا نؤمن بها إيمانا عجيبا، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية فى البداعة والجمال. ألم يخلق أجداد الشيخ جاد الله ـ الذى يذكرنى وجهه بتمثال الكاتب المعروف ـ الحضارة الأولى للإنسان؟.. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفى بطنها على السواء؟.. أو لم يستوحوا فى عملهم وتفكيرهم أوزوريس وآمون؟ وما أوزوريس وآمون؟ لا شىء فى الغالب.. أما حضارتهم فكانت شيئا أى شىء... بل هى حضارتنا الراهنة...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن، أما الباشا فيبتسم ابتسامة ساخرة، وأما أنا فأستغرق فى أحلامى، وكلانا لا يدرى بما يخبئه له القدر تحت آكام ذلك التراب. وكان العمل يبدو عقيما فتململ الباشا واقترح علىّ أن نجلس فى الفراندا فاتبعته صامتا، ولكننا لم نكد نصعد السلالم الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله عدوا وصاح بفمه المثرم:

ـ مولاى.. مولاى.. تعال انظر..

فالتفتنا إليه بحركة أتوماتيكية، وكان قلبى يخفق خفقانا غريبا على أثر نداء الشيخ وذكرنى بشبيه له قديم كان يفصل فى حياتى بين الفشل والنجاح واليأس والأمل. وهبطنا السلم دون إبطاء؛ لأن الرجل كان قد عاد أدراجه، وتبعناه وكلانا يغالب رغبة فى العدو...

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزحون صخرة كبيرة، مساحتها متر مربع على وجه التقريب؛ فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة فى مثل اتساعها، فنظرت إلى الباشا، ونظر إلىّ بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، ثم نظرنا إلى داخل الفوهة فرأينا سلما صغيرا ينتهى إلى دهليز يتجه إلى الداخل موازيا لسطح الأرض، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب فقلت للباشا «إلينا بمصباح» فأرسل الباشا أحد الخادمين لإحضار مصباح، وعاد الرجل بالمصباح فأمرته أن يتقدمنا، ولكنه تردد وانكمش فهممت بأخذه منه، ولكن كان الشيخ جاد الله أسرع منى إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من القرآن وتعاويذ غريبة ثم نزل بقدمين ثابتتين فتبعته وتبعنى الخادمان المضطربان...

ووجدنا أنفسنا فى دهليز مستطيل لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، ويعلو سقفه عن هامتنا بعدة أشبار، وكانت أرضه متربة أما جدرانه فمن الجرانيت. وتقدمنا جميعا فى خطوات بطيئة حتى اعترض سبيلنا باب حجرى يأخذ على المقتحمين طريقهم، ولم يكن منظره غريبا علىّ ولا الرموز المحفورة فى وسطه، فجرى بصرى عليها، ثم التفت إلى الباشا وقلت بصوت متهدج:

ـ لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة أثرية . . فها هنا يرقد القائد حور من عظام الأسرة الثامنة عشرة .

ولكن الشيخ جاد قال بعنف وغضب :

ـ بل وراء هذا الباب كنز . . . هكذا يقول الكتاب الذى لا يكذب .

فهززت كتفى قائلا :

ـ سمه كيف شئت ، المهم أن نفتحه . .

فعاد الشيخ يقول :

ـ فتح الكنز عمل يسير ، فهذا الباب لا يطيع ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق حتى مطلع الفجر . . . هل أنتم مطهرون؟

وتأثر بأقواله الخادمان ونظرا إلى مولاهما بارتباك ؛ لأنهما اعتقدا أنهما على وشك المثول فى حضرة القوة الخفية ، ولم يكن فى الوقت متسع للتطهر والقراءة فقلت للشيخ بحزم :

ـ إننا لم نبلغ هذا الباب بقراءة ، فينبغى أن نقتحمه بمثل ما اقتحمنا الذى قبله .

وهمّ الشيخ أن يعترض ، ولكن لم يجده اعتراضه وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقنى شزرا ، واستأنفوا العمل من جديد ، وتيقظت غريزتى فعملت معهم ، حتى أزحت العقبة الكئود ، ووجدنا أمامنا منفذا إلى مثوى حور الأبدى . . .

وكنت خبيرا بتلك الأعمال ، فأمرتهم أن يتريثوا فى أماكنهم وقتا قصيرا ريثما يتجدد الهواء ، وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعا . وكان الباشا صامتا ذاهلا كمن هو فى حلم عجيب ، وكان الخادمان ينظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذى يؤمنان به ، وكان الشيخ يحملنى تبعة ما قد يحدث لاستهانتى برأيه ، أما أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه بصرى . وساءلت نفسى : ترى هل من المستطاع أن أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد فى باريس . . . ؟

ثم دخلت ، ودخل خلفى الأرناؤوطى باشا ثم الشيخ جاد الله وآثر الخادمان أن يلبثا فى الدهليز الخارجى . فلما اختفى عنهما نور المصباح وأظلم المكان اندفعا إلى الداخل وانكمشا فى ركن ، وكانت حجرة تابوت كما يدل مظهرها ، وقد شاهدت أمثالها مرات عديدة . وكان التابوت موضوعا فى مكانه وعلى غطائه صورة ذهبية لصاحبه ، وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعى أحدها لرجل ـ من المرجح أنه حور نفسه ـ والآخر امرأة يستدل من وضعها إلى جانبه أنها زوجه ، وأمامها تمثال صغير لغلام ، وفى الناحية المقابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملونة ومقاعد ومناضد وعدد حربية ، وكانت الجدران ملأى بالرسوم والنقوش والرموز .

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم المبعوث، ولكن الباشا لم يدعنى لتأملاتى فقال لى ولم أكن أعلم أنها آخر أقواله فى هذه الدنيا :

ـ الأوفق يا أستاذ دريان أن نبلغ الأمر إلى الحكومة فى الحال . .

فأحسست بخيبة أمل وقلت :

ـ انتظر قليلا يا باشا ريثما ألقى نظرة عجلى . . .

ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا إلى يمينى ومضيت أفحصها بعين خبيرة مشوقة، ونفسى تحدثنى بفتحها ومشاهدة ما بداخلها، وكنت أؤمن بأنها تحوى طعاما وثيابا وحليا . ولكن أنى لمثلى أن يملك إرادته حيال تلك المخلفات الجليلة التى تستحوذ على منبض التأثر من قلبى ووجدانى . . ثم لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء . . . يا لها من مفاتن . . !

وقطع علىّ تأملاتى أن سمعت صوت الشيخ جاد القبيح وهو يهتف «هش» فالتفت إليه منزعجا مغضبا ؛ لأن أية همسة آنئذ تثير أعصابى، ولكن الشيخ قال ببلاهة : «عصفور !» .

فانتهرته قائلا :

ـ أى عصفور هذا يا شيخ؟ أهذا وقت هزل؟

فقال الرجل :

ـ رأيت عصفورا يرف بجناحيه فوق التابوت .

فالتفتنا إلى التابوت ولكنا لم نر شيئا، وكان من العبث أن نسأل الخادمين، فقلت للشيخ :

ـ دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله .

ثم ضحكت وقلت للباشا بالفرنسية :

ـ عسى أن يكون العصفور روح الميت «كا» جاء لزيارته معنا . . .

ثم عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التى تحادث قلبى بلغة صامتة لا يعيها سواى . ولكنى لم أستطع التأمل بتاتا لأنا سمعنا الخادمين يصيحان بذعر :

ـ يا سعادة الباشا !

فالتفتنا إليهما بسرعة وقد امتلأت غيظا وحنقا، ولكنى شاهدتهما فى حالة غريبة من الرعب، التصق كل منهما بصاحبه، واتسعت عيناهما وجحظتا، وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت . وتصلب الشيخ جاد الله فى وقفته ويده قابضة على المصباح وعيناه لا تتحولان عن نفس الهدف . فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبى . فرأيت غطاءه مرفوعا والمومياء ممددة أمامنا فى لفائفها .

ما هذا؟! كيف فتح التابوت؟. . هل أثرت فى إقامتى الطويلة فى الشرق فغدت عينى تتأثر إلى هذا الحد المضحك بأوهامه وسحره؟

ولكن أى سحر هناك؟! إنى أرى المومياء أمامى، ولست الوحيد الذى يراها، فها هو ذا الباشا قد تحول إلى تمثال، وها هم أولاء الرجال الثلاثة يكادون يموتون من فرط الهلع والذعر. . فأى وهم هذا؟!

والحق أننى أحس بالخجل كلما اضطرتنى الظروف إلى سرد ما حدث بعد ذلك؛ لأنى أحدث فى العادة أناسا عقلاء مثقفين درسوا تيلور وليفى برول ودركيم، ولكن ما حيلتى؟. . إن ديكارت نفسه لو كان فى مكانى تلك الساعة ما أتته الشجاعة على الهزء بحواسه. .

ماذا رأيت؟

رأيت المومياء تتحرك وتقعد فى التابوت فى حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم فضلا عن المبعوث من عالم الأموات، ثم قفزت قفزة غاية فى الرشاقة انتصبت قبالتنا أمام التابوت. .

وكنت موليا ظهرى نحو الخادمين والشيخ جاد الله فلم أر ما حل بهم ولكن ارتعاش النور الذى يضىء الحجرة دل على كهربة اليد التى تمسك به، وكنت فى حالة يتعذر وصفها. وأعترف أن مفاصلى تفككت من الرعب الذى لا يوصف، وذعرت ذعرا لم أحس بمثله فى حياتى على الإطلاق ولا تكاد تذكر إلى جانبه أهوال الأيام الشديدة التى قضيتها فى الجبهة الشرقية ومعركة المارن. .

يا للعجب!. . ألم نكن كن حيال مومياء؟. . أو حيال جثة ردت إليها الحياة بطريقة خفية؟. . أو أمام قائد مصرى كان يرتجف هولا وخشوعا إذا اجتاز عتبة القصر الفرعونى؟. . ولكن هل كان من الممكن أن يخالج نفسى فى تلك الساعة فكر من هذه الأفكار؟ بل هب أنه خالجها فهل كان يستطيع أن يهدئ من رعبها شيئا؟ فزعت فزعا قاتلا. . على أن عينى استطاعتا أن تريا كما استطاعت ذاكرتى أن تحفظ ما رأت عيناى. .

ولم أجد أمامى مومياء بل رجلا حيا كامل الرجولة والحياة، وكانت هيئته تذكر بتلك الصور التى ترى بكثرة على جدران المعابد، فكان يرتدى ثوبا أبيض ووزرة قصيرة ويغطى رأسه الكبير بقلنسوة أنيقة، ويحلى صدره العريض بنياشين كثيرة زاهية، وكان مهيبا رهيبا متعاليا، ولكنى على الرغم من جلاله خيل إلىّ أنى رأيته من قبل، وذكرت بالفعل الصعيدى الذى ساقه الخدم إلى الباشا واتهموه بسرقة غذاء الكلب بيميش، كان شبها غريبا، ولكنه اقتصر على الطول واللون والقسمات دون الروح والحياة، ولولا ما كان الماثل أمامى يبديه من النبل والتعالى لربما خالجتنى شكوك. .

وكان يحدج الباشا بنظرة قاسية لا يحولها عنه كأنه لا يرى سواه . .

ماذا أقول يا سادة؟ . . لقد سمعته يتكلم . . إى والله لقد تكلم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف من السنين ، وتكلم بتلك اللغة القديمة التى طواها الموت منذ آلاف السنين . وسوف أنسى كل شيء فى دنياى قبل أن أنسى كلمة واحدة مما نطق به لسانه . .

قال لصديقى الباشا السيئ الحظ بصوت لم أسمع مثله جلالا ؛ لأنى لم أتشرف بعد بمخاطبة الملوك :

ـ ألا تعرفنى أيها العبد . . ؟ لماذا لا تجثو ساجدا بين يدى . . ؟

ولم أسمع للباشا صوتا ولا استطاع بصرى أن يتحول إليه ، ولكنى سمعت العظيم ذا الصوت العظيم يقول مرة أخرى :

ـ لم أشعر بقهر أسر الموت إلا حين شاهدت روحى هذه العجائب التى تحدث فى الدنيا وأنا مقيد بأصفاد الأبدية لا أستطيع حراكا ، ولم أقدر أن أذهب إليك لأن حياتى انتهت كما قضى أوزوريس . . ولكنك سعيت إلىّ بقدميك . . وإنى لأعجب كيف سولت لك نفسك هذا الفعل الأحمق . . أبلغ بك البطر الجنون . . ؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بينى وبينك بالموت؟ ماذا جئت تفعل أيها العبد؟ ألم يقنعك أن تنهب أبنائى فأتيت تنهب قبرى . . ؟ تكلم أيها العبد . .

ولكن أنى للمسكين أن يتكلم؟ إنه لايفقه شيئًا . . ولا يبدى حراكا . . لقد دبت الحياة فى المومياء . . وفارقت الباشا الحى .

أما المومياء فعادت تقول :

ـ مالك لا تتكلم؟ . . ألست حور؟ . . ألست عبدى شنق؟ . . ألا تذكر أنى جئت بك من الشمال فى إحدى الغزوات الظافرة؟ . . أتتجاهلنى أيها العبد؟ . . إن جلدك الأبيض الذى يرمز إلى العبودية يفضحك مهما تنكرت . . ما هذه الملابس المضحكة التى ترتديها؟ . . وما هذه الأبهة الكاذبة التى تختفى وراءها؟

وظن حور أن الباشا لا يريد أن يتكلم فانتفخت أوداجه وتقطب جبينه وصاح غاضبا :

ـ ما الذى دهاك؟ ما الذى دهى الأرض فجعل أعزتها أذلة وأذلتها أعزة ، وخفض السادة عبيدا ورفع العبيد سادة؟ كيف تملك أيها العبد هذا القصر ويعمل أبنائى فيه خدما؟ أين التقاليد المتوارثة؟ والقوانين المقدسة؟ ما هذا العبث؟

واشتد الغضب بحور فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر وصاح بصوت كالرعد :

ـ كيف تتجاسر على ابنى أيها العبد؟ لقد سمته الذل بقساوة دلت على العبودية التى تنضح بها نفسك ، ضربته بعصاك لأنه جائع ودفعت إخوته إلى ضربه ، أيجوع فى مصر أبناؤها؟ الويل لك أيها العبد . .

ولم يكد يتم كلامه حتى تقدم نحو الباشا مزمجرا كأسد هصور يهم بفريسته.

ولكن الباشا التعس لم ينتظره؛ لأنه كأن قد فقد قوة الاحتمال، فسقط على الأرض لا حراك به، وكان تهديد حور قد أشاع فى الحجرة رعبا جديدا أتى على البقية الباقية من التماسك فى النفوس، فما لبث الشيخ جاد الله أن سقط على وجهه وسقط معه المصباح فانطفأ نوره وساد الظلام. وانكمشت بغتة كأنى أتقى ضربة قاتلة لا أدرى من أين تقع على رأسى، وحملقت فى الظلام وأنا أنتفض فرقا وذعرا، ثم خارت قواى، وشاء حظى الحسن أن أفقد شعورى وأغيب عن العالمين..

* * *

سادتى.. إنه لتأتى علىّ أوقات يصيبنى فيها ذهول وتخامرنى شكوك فأسائل نفسى مرتابا: هل كان حقّا ما رأيت أم كان وهما؟.. وربما ملت أحيانا إلى تكذيب نفسى، ولكن كلما أميل إلى الشك تصدمنى حقائق لا قبل لى بها... فما قولكم مثلا فى شهادة الشيخ جاد الله وهو حى يرزق ويستطيع أن يعيد لكم ما حكيت؟.. وما قولكم فى جنون الخادمين التعيسين؟.. ومقبرة حور.. والقصر المهجور؟... بل ما قولكم فى حادثة موت المغفور له محمود باشا الأرناؤوطى التى لا يزال يذكرها جميع قراء الصحف ويعجبون لها أشد العجب..؟

كيدهن

هل يتمنى الإنسان على الله أكثر من أن يهبه زوجة حسناء وثروة طائلة، ويمتعه بصحة سابغة وبنين، ويبوئه مركزا اجتماعيا فذا؟ وقد فاز حضرة صاحب العزة جمال بك ذهنى بأولئك جميعا. كانت له زوجة شابة حسناء يعزى وجهها الحسن عن أحزان الدنيا جميعا، ووهبه الله أربعة من الأبناء كالورد صحة وجمالا، وترقى فى مراتب الدولة حتى ولى كرسى الاستشارة فى أكبر هيئة قضائية، وورث عن والديه ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع، ومع ذلك فمن كان يطلع على وجهه ذلك اليوم - إذ هو جالس فى شرفة قصره المطلة على شارع السرايات - يأخذه العجب لهذا الاكفهرار الذى يظله وتلك النظرة القلقة التى تحار فى عينيه منذرة بالشقاء!

ولا سبيل إلى إبطال هذا العجب ما لم نلم بماضيه؛ لأن حاضر الإنسان يقع غالبا من ماضيه موقع النتيجة من المقدمات، وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما فى الحياة بما تدعم به

فى المنطق من الضرورة والأحكام، ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضى صاحب العزة حافلا بالشباب المرح السعيد والعقل النزيه والذكاء الوقاد والمغامرات التى تجعل من الشباب ديوان شعر غنيا بالذكريات العذبة، لأنه كان من الرجال القليلين الذين يصادفهم أجمل التوفيق وأسعده فى دنيا النساء، فعشق عددا وافرا من الممثلات والراقصات وربات القصور المصونات غير متردد ولا حرج. ورشف من كئوس الهوى خمرا صافية، أعمته نشوتها عن طى الأعوام، فما يدرى يوما إلا وهو يصحو على عاذل يقول: «أتبلغ الخامسة والأربعين ولما تتزوج؟» الخامسة والأربعون؟! أحقّا ذهب الشباب الناضر وولى؟ أحقّا تسنم ذروة الكهولة؟

ووجد نفسه يفكر فى مسألة الزواج تفكير شاب يهدف للثلاثين، ويكاد الزواج أن يكون كالموت نهاية كل رجل، وإلا فلمن يترك هذه الثروة الطائلة التى يمتلكها؟ ومن يؤنس وحشته إذا احتجزه البيت يوما؟ ومن يعينه على متاعب الشيخوخة وأهوال الكبر إذا تألبت عليه عوامل الفناء؟

ولكنه لم يغفل عن أنه مغامر عشاق، ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب المفتوح، ويعرف طبيعتها معرفته لبديهيات الحساب، لذلك رأى أن الحكمة تملى عليه ألا يختار زوجة شابة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام، وصحت عزيمته على الزواج بأرملة أو مطلقة فى الثلاثين على أدنى تقدير، حذرا من أن يقضى عليه بما قضى على ضحاياه الكثيرين . .

ولكنه شاء غير ما شاءت الأقدار، وما حيلته فى ذلك؟ لم يكن هو الذى يبرم الأقدار حين دعا يوما إلى حفل زفاف فراح مالكا لفؤاده وعاد مسلوب الفؤاد والإرادة، ولم يكن هو الذى يخلق الأعمار إذ كانت التى سلبته فؤاده فى العشرين من عمرها. ربما قلت إنه ينبغى له أن يغلب الحكمة والعقل على الهوى، ولكن واأسفاه فإن هذا القول وأمثاله لا يجدى فيمن تسيطر عليهم الشهوات، فجميعهم ـ أيّا كانت الشهوة التى تتحكم فيهم ـ لا يرون فى العقل سوى وسيلة لتحقيق شهواتهم، ويستوى فى ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء، فلم يتردد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الآنسة حياة إلى والدها الأستاذ محمد عويس الخبير بالمجلس الحسبى، وتمت الزيجة وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكبرهم فى المدرسة الثانوية وأصغرهم فى الروضة. . .

ولكن للزمن حكمه الصارم كذلك، فقد أحيل المستشار فى هذا الأسبوع إلى المعاش وأذن النذير بمجىء الخامسة والستين بكوارثها المعهودة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنكر معالم الدنيا وتألب أمراضها. وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملا من متاعها الغرور، ولكن دب بقلبه دبيب القلق الذى تعود بواعثه إلى تلك الزوجة الحسناء التى يعطيها الزمن ـ الآخذ منه ـ نضجا

وكمالا ويزيدها كل يوم حسنا على حسن. وما كانت مخاوفه أوهاما ولا محض حذر تمليه مغامراته الماضية، ولكنه شاهد هذا الصباح فى شرفة الفيللا التى تواجه قصره ضابط بوليس شابا، يتألق جماله فى بدلته الرسمية المزدانة بالنجوم الذهبية، وتنفخ صدره قوة الشباب وغروره، وتعبث أنامله بشاربه الأنيق الصغير، فانقبض صدره لمرآه وتوجس منه خيفة لغير سبب بيّن. عجب كيف أنه لم يره قبل اليوم، وهل يقيم فى هذه الفيللا يا ترى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوج أو أعزب؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجه عما يحيره، ولكنه نفر من هذا نفورا عجيبا وآثر عليه الجهل والحيرة.

وكان قلقه غريبا لدرجة أنه ود لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المطلة على شارع القشلاق وإحلال المكتبة محلها، ولكنه لم يدر كيف يعلل طلبه وأبت كبرياؤه عليه أن يفاتحها بشأنه.

ووجد فى حياة الفراغ الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» فى صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول الشاى كل صباح فى شرفته، وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك، وفى تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشاب النظر إليها، وخيل إليه أن بصرها يتجه أحيانا إلى شرفته، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أى معنى سوء. ولكن يتعذر عليه أن يتصور أنه من الممكن أن ينظر شاب إلى مثل زوجه الحسناء نظرة بريئة لا يشوبها طمع.

وضاق بصمته المرهق فأشار يوما إلى شرفة الضابط وسألها:

ـ من يقيم فى الفيللا؟

فقالت:

ـ جار جديد، أظنه مفتش فى الداخلية.

فسألها بلا اكتراث فى الظاهر:

ـ ومن الضابط الذى يظهر أحيانا كثيرة فى هذه الشرفة؟

ـ أى ضابط؟.. لا أدرى لعله ابن المفتش.

فوقع تجاهلها من نفسه موقعا أليما؛ واشتد غضبه اشتدادا لا يستند إلى أسباب معقولة فقال:

ـ لا أشك فى أنه ضابط أحمق وقح.

فبدت الدهشة على وجهها وسألته:

ـ ما الذى يغضبك عليه؟

فقال بحدة:

ـ رأيته مرارا ينظر إليك نظرات وقحة سافلة، جعلتنى أفكر جديا فى نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى.

قالت بلهجة استياء:

ـ ولكنه تعب لا مبرر له، وأرى أنه يتضمن إهانة قاسية لى يا بك.

ـ كلا يا هانم، ما أردت هذا قط ولكنى أحب أن تتمتعى بحريتك بعيدا عن تطفل العيون.

فهزت منكبيها استهانة وقالت:

ـ افعل ما بدا لك.

وتحققت مشيئته، ولكن آلمته استهانتها واعتقد أنه تسرع تسرعا معيبا ورطه فيه الغضب، وأحس من تصرفه بخزى أليم وكبر عليه أن يمتلئ رعبا من نظرة يرسلها هذا الشاب المغرور، وما عسى أن يفيده نقل حجرة من مكان إلى مكان؟ وهل يعنى هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشب أظافره فى لحم قلبها الطرى؟ . . هيهات . .

ولم تهادنه شكوكه ومخاوفه. وقد ثقلت عليه وطأتها يوما وكان يجلس فى قهوة لونابارك مع محام كبير فاستأذن بغتة وقام إلى سيارته التى انطلقت به إلى قصره، وبلغت شارع السرايات وكان الوقت أصيلا ونظر خلال زجاج النافذة فرأى زوجته فى شرفة المكتبة ونظر الناحية الأخرى فرأى الشيطان . .

وكان يعهد فى زوجه البرود والرزانة والسيطرة على الأعصاب وكانت كعهده بها فلم تفاجأ بحضوره وسألته بإنكار:

ـ خير . . ما الذى أتى بك قبل ميعادك؟

فانفجر غاضبا وسألها بغيظ وحنق:

ـ قولى لى أنت ما الذى أتى بك إلى هذه الشرفة؟

فقالت بغضب وإباء:

ـ إنك تهيننى يا بك إهانة لا تحتمل.

فاشتد به الغيظ وقال بعنف:

ـ أنت تحاولين تضليلى باصطناع هذا الإباء الكاذب.

ـ عهدى بك أعظم أدبا من هذا.

ـ ما شاء الله وددت لو يستمع إليك أبناؤنا إذ تعلّمين أباهم الأدب.

ـ أما أنا فلا أود أن يستمعوا إلى أبيهم وهو يكيل التهم لشرف أمهم.

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن يطلعه على خبيئة نفسها وجعل يتساءل

في حيرة: ترى هل هي صادقة في غضبها؟ هل هي حقّا بريئة مما رماها به؟ وتنهد حزينا شقيا، وقال وكأنه يحادث نفسه:

ـ حقّا إن الشك مس من الجنون.

فقالت باستياء:

ـ ألا ترى أنك تعترف بأنك شككت فيّ؟

فعاوده الغضب وقال لها بمرارة:

ـ لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة؟ وفي هذه الساعة المعهودة؟ أصغي إليّ يا هانم، أنا لا أسمح لامرأة بأن تتغفلني أبدا.

ـ هذا كلام لا يليق برجل له مكانتك وأخلاقك، ويجدر بك أن تنادي عقلك الذي غرب به الغضب، فماذا ينفعك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا أنا بيّتّ الغدر؟ . . وما يضيرك ظهوري بكل مكان إذا انطوى قلبي على الإخلاص والأمانة؟

فقال بذهول:

ـ الإخلاص . . الأمانة . . ما عدت أفقه معنى لهذه الكلمات؛ لأن عقلي تسمم فينبغي أن تفهمي ذلك جيدا، قد يكون المرض لعلة وقد يكون لغير العلة إلا الوهم، فاعملي على إعادة الطمأنينة إلى نفسي، ودعي الوعيد جانبا . فأنا رجل لا يمكن أن تتغفله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء.

ـ أهكذا تتغير بعد العشرة الطويلة وتنقلب إنسانا غير الإنسان لأنك رأيت شابا ينظر إليّ من بعيد؟

وأي امرأة لا تلتهمها العيون كلما بدت للناظرين؟نظرة من بعيد. كلا ليس الأمر كذلك، إنها تكذب وتجد في الكذب وهي تعلم بما يعذبه ويشقيه، إنها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلا معنى واحد، إنها تتغفله ولكنها لن تفوز بطائل . .

ـ أصغي إليّ يا هانم لا بد من وضع حد لكل هذا.

فنظرت إليه بارتياع وقالت:

ـ يا له من قول خطير!

فقال:

ـ لا خطورة هنالك. إني أقر بأني أخطأت فيما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا، وأقر بأنه ليس لي الحق في الحجر عليك لأنه ينبغي أن أكون أرفع من العوام، فاذهبي إلى حيث تشاءين وتنقلي كما تشتهين ولكني لن أفارقك وأظن أن هذا من حقي أيضا.

فلم تتمالك نفسها من الضحك وسألته:

ـ أبـــدا؟

فقال بهدوء :

ـ سألازمك كظلك .

ـ يا له من أسر مرهق!

ـ لك؟

ـ كلا . . فإنه يسعدنى ولا شك أن يظل زوجى إلى جانبى ، ولكن كيف لك أنت بالصبر على هجر لونابارك وسنت جيمس؟

ـ هذا شأن يعنينى وحدى .

فلم تزد على أن قالت :

ـ افعل ما فيه راحتك .

ومضى البك يحقق وعيده دون إمهال ، فخلع ثيابه وارتدى البيجاما والروب دى شامبر وجلس إلى جانبها . وتسلسلت الأيام على منوال واحد ، فكانا يقطعان النهار معا يتحادثان حينا ويطالعان حينا آخر ، فإذا سئمت من جلستها وقامت إلى الشرفة أخذ مقعدا إلى جانبها ، أو نزلت إلى حديقة القصر تتريض فى مماشيها رافقها حتى إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أويا معا إلى مخدعهما فنام ملء جفنيه . . .

وكانا يخرجان كثيرا لزيارة الأصدقاء والأقارب ويغشيان الملاعب والملاهى والسينمات فلا يفترقان دقيقة : وثابر على حياته الجديدة مثابرة الصابرين ولازمها حقّا كظلها ، وحافظ على كلمته أن يتركها تفعل ما تشاء على أن تتركه يفعل ما يشاء كذلك ، ولم تظهر السيدة أى تذمر وقضت أيامها مرحة ضاحكة كأنها أسعد الأزواج حقّا . وفى يوم من الأيام اقترحت عليه أن يذهبا إلى شيكوريل لشراء حاجاتها وحاجات الأولاد ، فذهبا معا ودخلا المحل الشهير ، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد البضائع وتسأل البائعين . وصعدا إلى الطابق الثانى وجالا هنا وهناك ، وهو يتبعها صامتا يقف حيث تقف ويسير حيث تسير ، فمر على تجوالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتى لهث من شدة التعب وعلا صدره وانخفض ، وسال عرقه باردا ، واشترت ذلك اليوم شريطا من الدانتلا!

ثم عادا إلى السيارة فارتمى الرجل على مقعده منهوك القوى وقال لها :

ـ لم تشترى شيئا ذا بال .

فقالت :

ـ ينبغى التريث فى الشراء ، سنعود غدا .

وعادا فى الغد ودارت به كما فعلت بالأمس، ولكنه لم يحتمل المشى والوقوف ولحقه الإعياء فقال لها:

ـ سأنتظرك فى السيارة.

وانتظرها ساعة أو يزيد، ثم حضرت يتبعها غلام يحمل المشتريات، فسألها البك:

ـ هل انتهيت والحمد لله؟

فقالت بهدوء:

ـ هذه كسوة حسنى.

فقال الرجل دهشا:

ـ حسنى فقط؟.. وإخوته؟.. وأنت؟

فقالت:

ـ لسه يا بك.. لسه.. أرجو ألا تنكر علىّ تباطئى فهذه طريقتى فى الشراء وإن كنت تطلع عليها لأول مرة.

وجاءا معا فى اليوم التالى ودخلت الزوجة إلى المحل وانتظر البك فى السيارة وفات على دخولها ساعة ثم ساعة أخرى فتململ البك فى جلسته وأحس برغبته فى الحركة فغادر السيارة ودخل إلى المحل، وبحث عن زوجته بعينيه، ومضى يسير هنا وهناك، ولكن الظاهر أنها كانت بالطابق العلوى فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهابا وإيابا، ولكنه لم يعثر لها على أثر، فعاد أدراجه وهمّ بالبحث مرة أخرى فى الطابق الأول، ولكنه رآها مقبلة من أقصى المحل والغلام يتبعها يحمل المشتريات، فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى السيارة.. وتساءل فى صمته: كيف لم يعثر بها مع أن المحل لم يكن مزدحما؟ هل لأنه لم يحسن البحث يا ترى؟.. ولذعه الشك.. هل من الممكن..؟ ولكن هذا بعيد عن التصور.

وجاءت معه فى غداة اليوم التالى ودخلت المحل ولبث هو فى السيارة كما فعل بالأمس، ولكنه لم يمهلها إلا دقيقة واحدة ثم تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطى منعطفة إلى يمين الداخل فظن أنها قاصدة إلى المصعد، ولكنها واصلت السير إلى باب المحل الجانبى وخرجت منه، فخفق قلبه بشدة وتبعها بخطى سريعة، وبلغ الباب، ثم نظر إلى الطريق فرآها تدخل «لاكلير» المواجهة لباب المحل وشاهدها تدخل إلى المصعد ثم صعد بها، فاجتاز الطريق ودخل العمارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البواب عن الطابق الذى صعد إليه فرفع الرجل بصره وقال: «الطابق الرابع» فدخل المصعد وضغط الزر رقم ٤ وخرج منه فوجد نفسه فى ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول: ترى فى أيها دخلت، واقترب من أولها فقرأ عليه المسيو فالديمير كراوس المحامى

بالمحكمة المختلطة، وقرأ على الباب الثانى اسم هـ. ليفى متعهد راديو تلفنكن، وكتب على الثالث «مدموازيل فلورا خياطة للسيدات»، ووقف أمام الباب الأخير لا يريم، وقد انحصر فيه ارتيابه، وضغط على الجرس ففتح الباب، ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول فتراجعت أمامه التى فتحت الباب دهشة مستاءة، وألفى نفسه فى ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع، منها ثلاث مغلقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيدات والأوانس منهن من تطمئن إلى مقعدها، ومنهن من تقف أمام المرآة لتلقى النظرة الأولى على فستانها الجديد. وانتبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها الإنكار وسمعها تسأله:

ـ هل المدام مع البك؟

فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده، لأنه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعا لم يتدبر أمره، وألقى على الأبواب المغلقة نظرة ارتياب وقهر، وود لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها. ولكنه لم يفعل شيئا؛ لأنه لم يكن فقد عقله، ولأنه هو رجل القانون ـ لم تكن تخفى عليه مغبة عمله فيما لو أخطأ تقديره وحسبانه: وكأنه أراد أن يقامر بما تبقى لديه فسألها:

ـ أليست هذه شقة مدموازيل فلورا؟

فقالت الخبيثة:

ـ بلى، ألم تقرأ اللافتة يا مسيو؟

فقال:

ـ إن زوجتى سبقتنى إلى هنا.

فسألته:

ـ ما اسمك يا سيدى؟

فقال:

ـ جمال ذهنى.

صاحت بصوت عال لدرجة مزعجة:

ـ مدام جمال ذهنى.

ولكن سيدة من الموجودات لم تلب النداء، فقالت:

ـ المدام غير موجودة بلا شك.

قالت ذلك بلهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هذا الحد، فلم ير بدًا من الخروج، وأغلق الباب خلفه، ولكنه لم يتحرك من مكانه ولبث يرمق الباب بعين متقدة، ترى هل

أخطأ البواب حسبانه؟ أم أن الشيطانة موجودة بداخل شقة الخياطة؟ ولماذا صرخت الفتاة الملعونة بهذا الصوت المزعج وهى تنادى مدام جمال ذهنى؟! ألا يجوز أنها فعلت ذلك لتحذر الغافلين ؟ وهل يجوز أن يبقى فى مكانه لا يحرك ساكنا وزوجه فى داخل الشقة فى خلوة غرامية؟ فما عسى أن يفعل وكيف يضبط الآثمة متلبسة بجريمتها؟

وعند ذاك فتح الباب، فتقهقر خطوتين، وخرجت سيدة، وأوصلتها الفتاة الإفرنجية وقد رأته ولكنها لم تباله، وأغلقت الباب مرة أخرى.

فمضى يروح ويجىء فى حيرة شديدة. من المؤكد أنها فى هذه العمارة فقد رآها وهى تدخل و رآها وهى تندس فى المصعد، وأكد البواب أنها صعدت إلى الطابق الرابع وها هو ذا الطابق الرابع، ولا مكان يصح افتراض دخولها إليه إلا شقة الخياطة، فالشيطانة لا شك فى الداخل، ولكن ما عسى أن يفعل؟ هل يظل يروح ويجىء؟ أم ينتظر إلى ما شاء الله؟ ومما يزيد ارتباكه أن وقوفه هكذا قد يريب الصاعدين والهابطين وتيارهم لا ينقطع. ومرت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته جميعا. ونال منه التعب والقهر كل منال، فاضطر إلى مغادرة مكانه وفى نيته أن ينتظرها لدى الباب الخارجى ، ولكن خطر له خاطر أزعجه فسأل البواب:

ـ هل للعمارة مدخل آخر؟

فأجابه الرجل بلهجته البربرية بأن للعمارة ثلاثة أبواب، فأحس باليأس وذاق مرارة الخيبة و عض شفتيه من الحنق والغيظ، وكبر عليه أن تتغفله الشيطانة وتمثل به هذا التمثيل المزرى، وكان ما عاناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ فى سنه، فعاد خائر القوى إلى سيارته، وكم كانت دهشته عظيمة حين همّ بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت إليه بإنكار وسألته:

ـ أين كنت يا بك؟

فأنعم فى وجهها النظر فرآها تبتسم ابتسامتها المألوفة، ولكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب لونها ونظرتها الدالة على الإثم بقدر دلالتها على الطهارة المصطنعة، فهى شيطانة بلا ريب ولكنها لم تتعود الإجرام بعد.

وجلس إلى جانبها صامتا وانطلقت بهما السيارة.

وكان مقهورا مغلوبا على أمره، يعانى مرارة الهزيمة ويحس كأن يدا تخنق كبرياءه خنقا. وكان يسوءه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التى تغفلته وهزأت بكرامته ولوثت عرضه. ولم يرتب قط أنها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها. ومن يعلم؟ فلعلها تضحك فى سرها الآن من خيبته وهزيمته. يا له من تصور لا يحتمل!

لقد أنذرها بأنه لن يتركها لحظة، ثم اضطر إلى تركها أو هى اضطرته إلى ذلك، ولكن لم يخطر له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سبيلا إلى مقابلة عشيقها.

واستسلم للتفكير الحزين، وذكر طريقة عامة الشعب فى الانتقام من الخائنات فوجد نفسه ـ فى محنته ـ يقرها، وهل تستحق الأفعى إلا تهشيم رأسها... أما هو البك الوجيه المثقف فيجلس إلى جانب معذبته يعانى آلامه فى صبر، ويشيع كبرياءه إلى القبر وهو كظيم. وكيف يفعل غير ذلك وهو القاضى الذى قضى حياته فى خدمة القانون؟

ولاحت منه التفاتة إلى الطريق فرأى بعض المارة يحدجون السيارة بنظراتهم المتطفلة، فسأل نفسه: ترى هل ينفسون عليه السيارة الفخمة والزوجة الحسناء؟

حقًّا إنه يستحق الرثاء، وسيكون أحق بالرثاء فى مستقبله حين يخلى يده منها ـ وهو ما صدقت نيته عليه ـ فكيف تكون حياته بلا زوجة؟ وكيف تكون حياة أبنائه بلا أم؟

وهل تزوج يوم تزوج إلا إشفاقا من أن يلحقه الكبر وهو وحيد فيعانى مرارة الشيخوخة ووحشة الوحدة؟

روض الفـــــرج

اعتدل الأسطى شلبى فى جلسته وجعل يفتل شاربه الغزير ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشاب الجالس إلى يمينه على الكنبة:

ـ وما الداعى إلى التعجيل بالسفر؟

فقال له صاحبه وهو شاب فى الخامسة عشرة من عمره تدل قوة بنيته وسذاجة نظراته على ريفيته القحة:

ـ وما الداعى إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحانى؟

فقال الأسطى شلبى بتفلسف:

ـ وهل الغاية من الدنيا تنتهى بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية؟ ينبغى أن تروح عن نفسك قليلا فما العيشة التى أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح..

فقال الشاب:

ـ أخشى أن يقلق والدى لتأخرى.

ـ وماذا يضيره لو تأخرت يوما آخر وقد غبت عنه عاما مدرسيا كاملا؟ تعال نذهب معا هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة رواية «اشمعنى» وهى كوميديا فى غاية الإضحاك والبهجة . . ما رأيك؟

وضحك الأسطى شلبى وهو ينظر إلى عبد المعز بإغراء، فابتسم الشاب وقال بتسليم :

ـ فليكن . . سأؤجل السفر إلى غد .

فابتسم الأسطى مسرورا وقال له بخيلاء :

ـ نعم الرأى ، وسترى بعد قليل عشيقتى تقوم بتمثيل الدور الأول فى رواية «اشمعنى» .

وارتدى عبد المعز ثيابه وكانت تبدو على هيئة الطلبة الريفيين الذين يندر أن تنسجم «البدلة» مع قامتهم ويبدو الطربوش غريبا على رءوسهم . أما الأسطى فقد وقف أمام المرآة فى دل وتيه وارتدى قفطانه الزاهى وجبته البنى الأنيقة ، وأمال الطربوش حتى مس حاجبه الأيمن ، وأمسك بعصاه المذهبة اليد ، وتقدم قريبه يختال فى مشيته كالطاووس .

والأسطى شلبى هذا بدأ حياته كصبى حلاق بسيط ثم استقل بصالون جميل أتاه منه رزقه رغدا ، ثم اشتغل بالسمسرة وصادفه فيها توفيق كبير فنمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديدات من نجوم روض الفرج .

أما عبد المعز فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبى المدعو الشيخ طه ، شيخ كُتّاب وواعظ بالعريش ؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائية متأخرا مما دعا ولاة الأمور إلى التجاوز عن شروط سن القبول فالتحق بها عبد المعز وهو ابن ثلاثة عشر عاما . وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائى أرسله أبوه إلى قريبه شلبى ليتم تعليمه الثانوى ، مؤثرا بعد القاهرة مع الاطمئنان عليه فى بيت قريبه على قرب الزقازيق مع إقامته وحده .

على أن الأسطى شلبى لم يكن عند حسن ظن الشيخ طه فكان يدعو أحيانا عبد المعز إلى المقهى ، واقترح عليه مرة أن يعلمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ . وكان الشاب حكيما مجتهدا فلم يستسلم لإغراء قريبه . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يسلمه فيها زمامه معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية «اشمعنى» . وبدا الشاب بطيئا فى فهم النكت و«القفشات» وأخذ يقلب عينيه بين الضاحكين فى استغراب وحيرة ، ولكن جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل ، وكانت امرأة فارعة طولا وعرضا ، مزججة الحاجبين ، مكحلة العينين ، محمرة الخدين والشفتين ، تنوء بحمل ردفين ثقيلين ولا ريب يرهقانها ثقلا ، بل ما أحراهما أن يميدا بها لولا أن وازنتهما العناية بثديين كبطيختين وإن كانا ـ بقدرة قادر ـ ناهضين ، وكانت تتثنى وتتمايل وتتخنث فى كلامها وتتكسر وكأنها تتأوه وتتوجع

والنظارة لا يكفون عن إبداء الإعجاب ويرقونها من أعين الحساد. وفتل الأسطى شلبى شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلا:

ـ هذه عشيقتى نور الحياة.. انظر!

وكان عبد المعز ينظر بعينين جشعتين، فزاد ذلك مسرة الرجل فعاد يقول:

ـ إن بعض الظرفاء ممن يعرفون أنى المالك لقلب هذه المرأة يقولون لى: «حقًّا إنك لمن كبار ذوى الأملاك»!

وقهقه الرجل ضاحكا تياها فخورا.

وفى أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المعز الممثلة الحسناء آتية صوب الركن المنعزل الذى يجلسان فيه، تتبختر كأنها ترقص، وتوزع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة، ثم رآها تسلم على الأسطى شلبى وتقول له ضاحكة:

ـ كيف حالك يا رجل؟

وسمع قريبه يحييها قائلا:

ـ وما جدوى سؤالك عن حالى ما دمت تلتهمين مالى وصحتى بلا رأفة؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأسا من الويسكى، وكبر على عبد المعز أنها لم تباله. ورأت المرأة ارتباكه، فمدت يدها المكتنزة وقرصته فى خده وهى تقول:

ـ وكيف حالك يا نونو؟

فاحمرّ وجه عبد المعز استحياء، وأحس باستياء، وشغل بشعوره عما حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلئ فأحس نحوها بانجذاب عجيب. والظاهر أن المرأة لم تهمله لأنها عادت تداعبه فسألته:

ـ كم عشقت من النساء يا غلام؟

وكان عبد المعز يشعر بميل إلى التحدث إليها فأغضى من سخريتها وسألها بدوره:

ـ وهل يهمك أن تعرفى ذلك؟

ـ كيف لا؟

ـ ولمه؟

ـ لأسباب كثيرة أقلها أن أعرف عمرك.

ـ وما علاقة العمر بالعشق؟

فغمزت بعينيها وقالت:

ـ نحن معشر أهل الهوى نقدر الأعمار بحساب الحب، مثلنا مثل العرافة التى تهتدى إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم.

فضحك الأسطى شلبى وقال:

ـ إذن فعبد المعز لم يولد بعد على تقديرك.

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بإنكار:

ـ رباه.. ولم تحرم نفسك من الحب يا بنى؟.. ألا ترى الأسطى شلبى لا يفيق من الهوى وإن رد إلى أرذل العمر؟

فتغاضب شلبى وقال محتجا:

ـ أيقال عنى أنا مثل هذا الكلام؟ (وفتل شاربه واستمر قائلا) أهذا شارب رجل رد إلى أرذل العمر؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحناء بشاربه وقالت:

ـ أقسم أنك سرقت هذا الشارب من زبون شارد الفكر!

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل فى مداعباتها، فشربت كأسها وحيت الأسطى وقرصت عبد المعز مرة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة.

واختتم التمثيل عند منتصف الليل، وانتظر الأسطى شلبى السيدة نور الحياة حتى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه، وركب ثلاثتهم تاكسى انطلق بهم صوب المدينة. وفى أثناء الطريق كان عبد المعز يختلس من الوجه الممتلئ الجميل نظرات جائعة، وكانت المرأة بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافية، وقد وجدت لذة غريبة فى مشاهدة قلقه وتحيره، وأرادت أن تغضى عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها، وأخيرا أحست نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسى ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقف ريثما يودعهما عبد المعز الذى قدر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة، وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت:

ـ يا عينى.. أتعود إلى البيت وحدك؟.. خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك.

ومالت نحوه بسرعة وقبّلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب.

ووقف الشاب ينظر إلى التاكسى الذى ابتعد بهما فى جوف الليل إلى حيث لا يعلم، وكان ذاهلا محموما يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق إلى الترمومتر، ويحس بالقبلة على شفتيه، ويدوى رنينها فى أذنيه ويشم رائحة الفم المعطر بالقرنفل. واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة فى حياته، فجعلت تخلق له الأحلام وتدنى إليه الأمانى، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروى اشتهاءه بفنون الحب جميعا.

ولدى ضحى اليوم الثانى رجع الأسطى شلبى إلى بيته، وقد أدهشه أن يرى عبد المعز لا يزال قابعا به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين، فقال له:

ـ ظننت أنك سافرت إلى العريش.

فسأله الشاب بقلق:

ـ أيضايقك أن أبقى مدة أخرى؟

ـ كلا وألف مرة كلا.. على الرحب والسعة دائما.. ولكن قل لى بالله ما الذى حملك على تغيير رأيك؟

فقال الشاب مبتسما مرتبكا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض:

ـ روض الفرج دون غيره! ليتنى أستطيع أن أشبع من ملاهيه!

وقال الأسطى شلبى لنفسه: ترى هو روض الفرج حقّا أم نور الحياة؟ على أنه لم يبال هيامه واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية؟ فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلق الغلام بنور الحياة بينا لا يحتاج إلى دليل، أما الذى لم يدر بخلد إنسان قط ولا كان محل احتمال قط فهو أن تتعلق المرأة بالغلام، ولو أنه من المسلم به دائما أن عالم الحب حافل بالمفاجآت غنى بالغرائب والعجائب.

وكانت الظواهر تجمع على حب تلك المرأة الهائلة لذاك الغلام الغرير فكانت تأنس به وتخف إلى محضره وتعاطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارة فى الانفراد به، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبى ليتناجيا بغمزة عين أو ينفسا عن صدريهما بلمسة يد. وفى أثناء ذلك لا تكف ركبته عن تحسس فخذها المكتنز.

وحاول الأسطى شلبى أن يهزأ به فى حضرتها أكثر من مرة، فكانت تغضب وتنهره حتى ضاق صدره وجعل يفتل شاربه بعنف ويقول لنفسه بغيظ: «أيغلب هذا الشارب الذى يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات»!

وفى أثناء ذلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطابا يحثه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب بإطاعة والده، ولكنه أجاب ـ أو قلبه أجاب «لا أستطيع». وانفجر حقد الأسطى شلبى فى كتاب حرره للشيخ كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الحضيض والفساد وصارحه بهيامه بإحدى غانيات روض الفرج، وأهاب به أن يدركه أو يتردى فى الهاوية إلى الأبد.

وجن جنون الشيخ الواعظ فشد رحاله إلى القاهرة فبلغها عصرا، واستقبله الأسطى شلبى استقبالا يدل على الإخلاص والمحبة، ولم يتردد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس فى صدره بما يزيد مخاوفه ويهيج بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الستار مرفوعا فسار إلى مكان يطلعان منه على الركن الأيمن الذى يجلس به عبد المعز

يشاهد التمثيل فى الظاهر وينتظر نور الحياة فى الحقيقة، ومال الأسطى على أذن الشيخ وقال هامسا:

ـ ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل.

فضرب الرجل حجره بيده فى حالة عصبية، وقال بتأثر:

ـ ألا يكفيه أن يغشى هذه البؤرة الفاسدة؟

فقال الأسطى شلبى بلهجة دلت على الحزن والأسف:

ـ إن ما ينفطر له القلب حقّا أن عبد المعز كان شابا طاهر الخلق.

فتنهد الرجل بحسرة وقال كالداهش:

ـ ولكن من أين له المال الذى ينفقه على ممثلة؟

ـ أظن أن العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى، ولهذا أهبت بك أن تدركه ولما يهو.

فقال الشيخ بلوم وحزن:

ـ لقد سكت عنه يا شيخ شلبى أكثر مما ينبغى، كان يجب أن تحذرنى من بادئ الأمر...

فقال الأسطى بيقين:

ـ أقسم بالله أنى ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك.

وعند ذلك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب الذى يوليهما ظهره. وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه فى مشية الإوزة العصرية وتجلس قبالته، ونظر الأسطى شلبى إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة، وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف:

ـ يا رحمة الله!

ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة التهور وقال له بتوسل:

ـ هدئ من روعك يا شيخ طه.

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهدئ روعه، وسار كالمترنح حتى وقف خلف ابنه الذى لا يحس به وألقى على الممثلة نظرات وحش مفترس، وألقت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التى تدخرها للمتطفلين، ولكنها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبثا حاولت أن تحول عينيها عنه كالمستهوى، وعجب الأسطى شلبى لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التى تلبست الشيخ طه حين وقع نظره عليها، فحار لأمرهما وقال لنفسه بقلق: ـ«ليست هذه مسألة عبد المعز».

وفى تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الوراء فوقعت عيناه على أبيه فجمد فى مكانه كالصنم ، ولكن أباه لم يباله كما توقع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها فى يد شلبى ، وقال بشدة لا تحتمل المراجعة :

ـ اسبقانى إلى البيت .

فمضى الأسطى شلبى مع الشاب المرتعب وهو يتمتم :

«خلصنا من الابن طلع لنا الأب» .

ولما خلا الشيخ والممثلة قال الرجل باحتقار :

ـ السلام عليك أيتها الفاجرة التى ما كنت أظن أن الله سيبتلينى برؤيتها مرة أخرى .

ولم ترد عليه المرأة الهائلة ، بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق ، وتعلق عقلها بالشاب الذى ذهب فعاد الرجل يقول بنفس اللهجة :

ـ حقّا هذه البؤرة التى أعدت لأمثالك ، لقد كنت يوما ريفية بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرأ منها نفوس الريفيات جميعا . كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتم أن ينتهى بك المطاف إلى روض الفرج إلى هاوية أشد وعورة ، أيتها الفاجرة .

وكانت نور الحياة تفكر فى أمور أخرى ألهتها عن الإصغاء إليه ، فسألته بخوف وإشفاق وهى تشير إلى الناحية التى ذهب إليها الأسطى شلبى وعبد المعز :

ـ هل هو . . . ؟!

ولم تقو على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية :

ـ نعم . . نعم . . هو ابنى . . بل هو الطفل الذى تركته فى القماط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية . . . هو ابنك أيتها الفاجرة فقولى ماذا صنعت به؟! . . .

وابيضّ وجه المرأة وعلاه الكركم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة :

ـ هل وقعت الجريمة النكراء؟! هل حدث الإثم الأكبر؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب؟ والله ما كنت أحب أن يشارك ابنى فى هذه الجريمة الشنعاء ، ولكنه الانتقام الإلهى الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك المذلة والهوان إلى أبد الآبدين .

وكانت المرأة فى حالة ذهول شديد حجب من حواسها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه ، فغلبت هواجس ضميرها صوت الرجل المرغى المزبد وجعلت تحدث نفسها .

ـ ابنى؟! . . رباه! . . أهذا إذن سر حبى له وعطفى عليه؟! . . ابنى! . . لكأنه حلم بعيد التحقيق .

فقال الرجل الغاضب :

ـ فلتموتى كمدا جزاء إثمك الشنيع .

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار ، وقالت :

ـ كفى هذيانا ، فإنه لم يقع بينى وبين ابنى ما يخجل منه أحدنا أو كلانا .

فاشتد غضب الرجل للهجتها وصاح بصوت انفجارى :

ـ إياك وأن تقولى ابنك . لقد ماتت أمه حين ولادته . أفاهمة أنت؟

ودوى صوته فالتفت النظارة إلى ناحيتهما من كل صوب ، وكادت الممثلة تفقد صوابها ، ولم تر بدّا من الانسحاب السريع ، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت الأسطى شلبى ، ولم يطمئن به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطة مصر ، وفى أثناء الطريق قال له :

ـ لن ترى القاهرة مرة أخرى إن شاء الله . . . وسأحولك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان .

وصمت عبد المعز فلم تنفرج شفتاه عن كلمة ، وظل جامدا كالتمثال حتى آوى إلى حجرته وكان فى قرارة نفسه غاضبا على أبيه ، ولعله لو رأى الشيخ وهو يختم صلاته ذاك المساء فيبسط يديه ويدعو ويتوسل ويذرف الدموع الساخنة لربما سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ، ولكنه كان لا يرى من الدنيا جميعا سوى وجه ممتلئ مستدير حلو الابتسامة ، جم المحبة والحنان يراه فى النور والظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح مخيلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان ، ولم يفكر قط فى النسيان أو التعزى ، ولكنه كان يبتغى الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلفه الأمر .

ولاحت الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطر أبوه إلى سفر يقتضيه التغيب بضعة أيام ، ولم يدع الفرصة تفلت لأنه كان عازما عزما أكيدا أمات ضميره وهزم نوازع الخير فى نفسه ، ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر ـ كما قدر ـ على خمسة جنيهات دسها فى جيبه وفرّ من البيت .

وبلغ القاهرة ظهرا ، وكان مضطربا متعبا فاستراح فى مقهى حتى العصر ، ثم ركب إلى روض الفرج فإلى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود ، ولكنه لمح عن بعد الأسطى شلبى جالسا إلى المائدة فى اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة ، فغلى الدم فى عروقه ، وود لو يخسف به الأرض ، وحار لحظة قصيرة ثم لم يتردد ، فقصد رأسا إلى حجرات الممثلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتى يؤذن له فاقتحم بابها .

وكانت مفاجأة غير متوقعة ، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها ، ويبدو على أسارير وجهها فرح قهرى وكادت تفتح له ذراعيها وتضمه

إلى صدرها الخفاق وتعاطيه قبل الحنان والأمومة . ولكنها تنبهت إلى نفسها فتصلبت فى وقفتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول ، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير ، ولكنها أحست بأن الطريق التى تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذى ينبغى لها سلوكه .

ولم ترد عيناه أن ترى فى وجهها سوى الفرح الذى كساه لأول وهلة ، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ، ولكنها أغضت عنه وسألته بلهجة غريبة :

ـ عبد المعز ؟ ! . . . ما الذى أتى بك إلى هنا؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيرها إشفاقا :

ـ أنت تعلمين بما أتى بى ؛ فكيف تتجاهلينه؟ !

ونفذت لهجته التوسلية إلى سويداء قلبها فخفق بشدة وكاد يطير من بين يديها ، ولكنها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها فى نفسها من قبل ، وسكتت هنيهة لتضبط عواطفها كى لا يظهر اضطراب وجدانها فى نبرات صوتها ، ثم قالت :

ـ لا أفقه لما تقول معنى .

فتنهد الشاب بحرقة وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبه وقال :

ـ أتيت لأنى لا أحتمل البعد عنك ، وليس بى من قوة أستطيع بها التصبر أو التعزى ، فعبثا حاولت أن أقيم لرجاء والدى وزنا ، وعبثا حاولت أن أصرف نفسى عن التفكير فيك ، وانتهزت فرصة سفر والدى لألوذ بالفرار ، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفى فى غاية القسوة فأخذت نقود أبى .

وأسكته عن إتمام حديثه صرخة فرت من فم المرأة الخائفة المشفقة ، وسمعها تسأله بألم :

ـ هل سرقت ؟ !

فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها ، وقال بتأثر شديد :

ـ نعم سرقت ولست آسفا على ما فعلت ؛ لأنه كان سبيلى الوحيد إليك ، ولن أتردد عن أى تضحية فى سبيل أن أحظى بقربك ؛ وها هى ذى نقودى فافعلى بها ما تشائين .

ولكنها أشارت إليه بيدها فأسكتته ، وسألته بجفاء يعلم الله كم كلفها من جهد وعذاب :

ـ هل يعود أبوك من سفره سريعا؟

ـ بعد يومين أو ثلاثة .

فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

ـ ينبغى أن ترجع فى الحال إلى بلدك لترد النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك .

ولكنه قال بجزع وخوف :

ـ هذا مستحيل . أنا لا أستطيع مفارقتك أبدا .

ـ هذا كلام فارغ وعبث طائش والحب سريع الزوال، أما أثر الجريمة فلا يزول .

فقال بإصرار :

ـ لن أفارقك أبدا .

وخشيت إن هى لانت له وطاوعت قلبها أن تقضى عليه فقالت بصرامة :

ـ ينبغى يا هذا أن تذهب سريعا وإلا وجهت إلىّ تهمة تحريضك على السرقة .

فبغت الشاب وأحس بخيبة مريرة وسألها :

ـ أهذا كل ما يهمك من أمر عودتى؟

ـ طبعا . . .

ـ أتجدين فى القول؟

ـ وهل هذا وقت هزل؟!

ـ وفيم كانت مودتك لى؟

ـ وأى مودة هذه التى تهون على النفس ما تهددنى به جريمتك؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

ـ ولكنى ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت!

ـ لقد جئت أمرا نكرا، وإن عشاقى الكثيرين ليتوددون إلىّ بغير ارتكاب الجرائم .

فتنهد عبد المعز تنهد اليائس المغيظ وقال :

ـ وإذا كنت تكذبين؟

فقالت وكانت فى حالة من الإعياء شديدة :

ـ أنت الذى أخطأت فهمى . . . نعم . إنى لا أنكر أنى ذكرت فى حديثى معك الحب، ولكنه كان حبا بريئا كحب أمك مثلا .

وكان دم عبد المعز يغلى فى عروقه غليانا، وكان الغضب يفور فى قلبه وينفث أمام عينيه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات :

ـ لا تشبهى نفسك الآثمة بأمى الطاهرة فتقلقى رقدتها الآمنة أيتها العاهرة . . .

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها ـ فى غيبوبة الغضب ـ وبصق عليها . . .

ثم ولى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم الذى قلص أساريرها ولا الحزن الذى طفر بالشيخوخة على وجهها، ولا رآها تمسح بصقته بيدها ودمعها ينهمل . . .

ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء، هائجا، ثائرا كالزوبعة، وركب الترام ونزل منه واستقل القطار وهو يحدث نفسه ويتهدد ويتوعد ويتجرع غصص الندم والأسف.

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شر عظيم. .

وقد ظن أن الدرس القاسى الذى تعلمه كفيل بأن يجتث من نفسه كل ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعا، ولكنه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج. وقد غالط نفسه! وقاوم نزوعه، ولكنه وجد عقله مجبرا على التفكير والتذكر. فساءل نفسه: ماذا فعلت نور الحياة مما استحق من غضبى؟ ألأنها توددت إلىّ؟ فهذه صناعتها وفنها، أم لأنها أشفقت على نفسها من عواقب جريمتى؟! فهذا ما ينتظر من أى إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه. وربما كان من الطبيعى أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتى هباء، ولكن لم يكن طبيعيا قط أن أصب عليها جام غضبى، وماذا فعلت هى تلقاء ذلك؟ لا شىء، لقد لطمتها وبصقت عليها، فماذا فعلت وهى القادرة على «البهدلة»؟

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يمحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد فى أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها، ولكن ربما غلبته على أمره أحيانا فيتنهد حزنا ويقول لنفسه آسفا محسورا: «ليتنى لم أمدد لها يدى بسوء»!

هـــذا القـــــرن

انتصف الليل، وخيم السكون، وشمل الصمت الدور والطرقات، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة كأنها تؤنس وحشة الأشجار المغروسة فى الأفاريز.

وقد مزق السكون الآمن بوق سيارة أتت مسرعة من مبتدأ شارع العباس، ثم وقفت أمام الباب الحديدى المغلق لفيللا آية فى الأناقة والجمال. ونفخ السائق فى البوق مرات، فخرج البواب من كوخه الخشبى وفتح الباب، واندفعت السيارة إلى داخل الحديقة التى لايبدو منها إلا أشباح الأشجار، ودارت دورة غير كاملة، وصعدت منحدرا ثم وقفت أمام الباب الداخلى للقصر، ونزل السائق مسرعا وضغط على مفتاح كهربائى على كثب

من الباب فأضاء مصباح وأرسل نورا أزرق هادئا، ثم فتح باب السيارة ووقف كالتمثال . .

وانتظر لحظات وثوانى ودقائق، ثم أخذه العجب فأرسل ناظريه إلى داخل السيارة، فرأى الباشا وزوجه مستغرقين فى نوم ثقيل، وكانت السيدة ملقية برأسها إلى الركن، وجسمها الضخم الهائل ممدودا، يبدو فى الفستان اللامع الملتصق به، كفرس البحر، وكان الباشا مسندا رأسه إلى كتفها يحسبه من رآه لضآلة جسمه ونحافته وقصر قامته ـ غلاما صغيرا. لولا شاربه الغليظ الطويل الذى يرسم مع جسمه الدقيق صورة صليب متساوى الأطراف على وجه التقريب . .

ولم ير السائق بدّا من إيقاظ سيده، فقال بصوت خافت :

ـ سعادة الباشا . . سعادة الباشا . .

فلم يبعث نداؤه فيهما أى أثر للحياة، فرفع الرجل صوته قائلا :

ـ سعادة الباشا . .

واستطاع نداؤه فى هذه المرة أن يوقظه فتحرك رأسه، واضطرب شاربه كأنه جناحا نسر يخفقان . قال بلسان ثقيل متلعثم :

ـ من . . ؟

ـ وصلنا يا صاحب السعادة . .

ـ وماذا تريد؟

ـ عفوا يا صاحب السعادة . . تفضل بالنزول لتصعد إلى مخدعك .

ففتح الباشا عينيه المحمرتين وكأن النور اللطيف الذى ينير المكان آذاهما، فأغمضهما بسرعة وتحسس بيده ذراع زوجه العارى كأنه قربة مملوءة بالمياه وقال بصوته الثقيل :

ـ يا هانم . . زينب هانم . .

فشهقت المرأة شهقة قوية لو أصاب تيارها الباشا لابتلعته، وقالت بتبرم وسخط :

ـ من؟

ـ وصلنا . .

ـ وماذا تريد يا باشا؟

ـ تفضلى لنصعد إلى مخدعنا .

ـ أصعد؟! . . أنا لا أستطيع أن أتحرك، فكيف لى بالصعود؟!

ـ ما العمل؟ هل نقضى الليل فى السيارة؟

ـ ولم لا؟ . . المقعد وثير لين كالفراش، وهاك ضجعة مريحة فما معنى التعب؟

فقال الباشا للسائق وهو لا يزال مغمض الجفنين :

ـ يا حسن . . اذهب أنت . . سننام ها هنا .

فارتبك السائق وقال بتحرج :

ـ العفو يا صاحب السعادة . . هذا غير طبيعى . وسيرى البواب فى الصباح ويرى الخدم . .

فانثنى إلى زوجه قائلا :

ـ يا هانم هذا غير طبيعى وسيرى البواب فى الصباح ويرى الخدم!

ـ ومن الذى يكلمك؟

ـ السائق .

ـ أف . . لا تضايقنى . . ماذا يهمنا من البواب أو الخدم أو السائق؟

فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة :

ـ أف . . لا تضايقنى . . ماذا يهمنا من البواب أو الخدم أو السائق؟

فسكت الرجل ، ولكن لم تطاوعه نفسه على الذهاب فوقف ينتظر ، أما الباشا فأخرج منديله وجفف عرقه ، وقال وهو يفك ربطة عنقه :

ـ الدنيا شديدة الحرارة . .

فاعتدلت المرأة فى جلستها ، ولم تلبث أن صاحت :

ـ يا لطيف!

ـ ما لك . . . ؟

ـ المقعد يميد بى كأنى فى أرجوحة!

وأرادت أن تمسك بشىء ، فوقعت يدها المتخبطة على شارب الباشا فتألم الرجل ونزع شاربه من كفها وهو يقول ضاحكا :

ـ دعى شاربى . . وهل تحسبينه حبل الأرجوحة؟

ـ أنا فى غاية التعب .

ـ شربت كثيرا يا زينب هانم . . شربت أكثر مما ينبغى لك!

ـ وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك؟ الكل كان يشرب رجالا ونساء . . أنت نفسك شربت كثيرا يا باشا .

ـ أنا متعود على الشرب يا هانم . . أنا أستطيع أن أشرب حانة كاملة فى ليلة واحدة!

ـ ومع ذلك لم تتمالك أعصابك الليلة . . وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك ، بل وضحكت منى أنا يا ناقص!

ـ كيف ذلك؟ . . . هذا مستحيل .

ـ مستحيل؟! ألا تذكر ساعة خروجنا من البوفيه؟ . . كنت تسير ورائى فنظرت إلينا عديلة هانم تلك المرأة الوقحة وقالت : «كان الله فى عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروض» . وضحك جميع المدعوين وضحكت أنت أيضا!

ـ أنا لا أذكر هذا .

ـ طبعا لأنك لم تكن فى وعيك، ومع ذلك فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب حانة فى ليلة واحدة . . . أليس كذلك؟ ولكنى انتقمت منك فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة .

ـ وكيف كان ذلك؟

ـ كان جماعة من الحاضرين يتعجبون لنحافة قدك فاعتذر الأميرالاى فتحى بك عن صغر حجمك بقوله : «إن شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو» . فضحكت مع الضاحكات والضاحكين . . وواحدة بواحدة .

ـ يا له من ضابط وقح!

ـ أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة فى كل مكان . . لماذا لا تقص شاربك؟

ـ أقص شاربى؟! هل جننت يا هانم؟!

ـ وما وجه الجنون فى هذا؟! . . إنه حمل ثقيل على جسمك الرقيق .

ـ أيكون الرجل رجلا بجسمه؟!

ـ أيكون رجلا بشاربه؟

ـ معلوم، انظرى إلى مثلك، فأنت امرأة ولك جسم فيل . . ولكن هل توجد امرأة بشارب؟

ـ الحق أقول لك إنى هممت مرة بقص شاربك فى أثناء نومك . . لولا الخوف!

ـ وما الذى أخافك؟

ـ أشفقت من أن يصبح زواجنا لاغيا .

ـ ولمه؟ هل أنت زوجى أم زوج شاربى؟

ـ الحقيقة أنك بغير هذا الشارب، تغدو غلاما لم يبلغ السن القانونية للزواج!

ـ هذا هذر سكارى، والأولى بك أن تنحفى جسمك الهائل، فضخامته الشاذة هى المدعاة الحقيقية إلى السخرية . . ألم ترى صديقاتك الليلة؟ . . كلهن نحيفات اللهم إلا راضية هانم وهى على كل حال لا تزن نصف وزنك .

ـ أنت المسئول عن وزنى .

ـ أنـــا؟!

ـ نعم. . لأنك كنت دائما تؤكد لى أنك تحب اللحم العجالى والبقرى. . . وأنك تحتقر الوزن «الهايف»! . . . وها أنت ذا تتملص من تبعاتك كما تفعل وأنت وزير!

ـ ما شاء الله! . . هذا قول أعدائى السياسيين، وأرى أنى أجحد فى بيتى كما جحدت من قبل فى ميدان السياسة الملعون وأنى خسرت الدنيا جميعا.

ـ بل ربحت شيئا مؤكدا. . .

ـ وهو؟!

ـ إنك صاحب مقام رفيع!

ـ يا هانم أنت فى سكرك كالحشاشين، والحق أنك تستأهلين رتبة. . ولكن لا أدرى أى رتبة تناسبك. . فلأفكر قليلا. . ما رأيك فى لقب الصدر الأعظم؟!

. . وهنا قطع حديث الزوجين طرق عنيف على باب القصر الخارجى، وشق الصمت المخيم صوت منكر يصيح:

ـ يا بواب. . . يا عم محمد. . .

فسكت الزوجان دهشة واعتدلا قليلا فى جلستهما وأرهفا السمع، وخف السائق مسرعا إلى الباب ليرى ما هناك. .

* * *

كان الشرطى المكلف بالحراسة الليلية يسير الهوينى فى شارع العباس، ولما بلغ قصر الباشا سار بحذائه وعرج ملازما للسور إلى شارع الإلهامى وانتبه من سهوه إلى حركة فى أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى رجلا يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه، وقد تولاه الذعر لظهور الشرطى المفاجئ فتسمرت قدماه بالأرض. . وأسرع الحارس إليه وقبض على ذراعه بقسوة وهو يصيح به:

ـ يا بن الملعون! أتحسب البلد بلا حكومة؟

وكان المقبوض عليه أفنديا، أنيق الملبس، كشف نور المصباح الخافت فى وجهه عن ملامح وديعة ونظرة أدنى إلى الرقة والجبن منها إلى الشر أو التحدى. ففحصه الشرطى بنظرة شديدة وهو يتحسس جيوبه وقال له متهكما:

ـ إخالك لم تسرق سوى هذه البدلة!

فقال الشاب وهو يلهث من الاضطراب والخوف:

ـ اتركنى يا حضرة الشاويش، أنا لست لصا كما تتوهم.

ـ عفارم عليك. . . فمن تكون يا مولانا؟

ـ أقسم بالله العظيم إنى لست لصا . . . ولم أسرق فى حياتى قط وهاك جيوبى فتشها كما تشاء .

ـ آه . . . هل كنت فى القصر زائرا إذن؟!

ـ أنا . . . من أهل القصر؟

ـ فهمت يا سيدى فهمت . . . أنت ابن الباشا بلا شك ، وما قفزك من السور إلا رياضة بدنية كنت تقوم بها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل!

ـ بل أردت أن أخرج بسرعة .

ـ وما الذى يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل؟

ـ سفر لا يقبل التأجيل .

ـ أو ليس للقصر باب؟

ـ لم أجد وقتا لإيقاظ البواب .

ـ يا مغيث . . هذا حقّا عصر السرعة . . وليس ببعيد أن أرى غدا من يقفز من نافذة الطابق الثالث أو الرابع لأنه ليس لديه متسع من الوقت يهبط فيه السلم . . . عوفيت يا سيدى عوفيت . .

ـ أراك لا تصدقنى يا حضرة الشاويش . . . أؤكد لك أنى من أهل القصر . . غير أنى استسهلت أن أقفز على هذا السور الصغير .

ـ معلوم . . معلوم . . وليس الذنب ذنبك . . ولكن ذنب من يحتم تعليم الألعاب الرياضية والتدريب العسكرى . . على أنى أجد نفسى مضطرا إلى تأخيرك يوما أو عدة أيام وربما عدة أشهر .

قال ذلك ودفعه أمامه . . ولكن الشاب ألصق قدميه بالأرض وقال بتوسل :

ـ لست لصا . . لست لصا والله . . أنا من أهل القصر .

ـ إذا كان ما تقوله حقّا فما عليك إلا أن تدخل القصر مرة ثانية فأصدقك .

ـ حسن اترك ذراعى وسترى . .

ـ ادخل البيت من بابه . . تعال .

وساقه إلى باب القصر وطرقه . وهو ينادى البواب . .

وأتى السائق على صوته مسرعا وأيقظ البواب فقام الرجل ساخطا وفتح الباب ، وأحدث ظهور الشرطى والمقبوض عليه دهشتهما ، ونظرا إليهما متسائلين ، فقال الشرطى :

ـ قبضت على هذا الشاب وهو يقفز من سور القصر، فادعى أنه من أهل الدار فهل تعرفانه؟

فأضاء البواب المصباح الكهربائى، ونظر السائق إلى وجه الشاب الشاحب وقال مسرعا:

ـ هذه هى المرة الأولى التى تقع عليه عيناى.

وسأل البواب الشرطى:

ـ هل وجدت معه شيئا؟

ـ سيفتش فى القسم.

وفى تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح فى سكون الليل:

ـ يا حسن. من عندك؟

فهرع السائق إلى الباشا، وطمع الشرطى فى سماع كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشاب أمامه وتبع السائق، وقال حسن لسيده:

ـ قبضوا يا صاحب السعادة على لص يقفز من سور القصر.

فقام الباشا واقفا وغادر السيارة، وهو يقول:

ـ كيف؟ دى لولو كانت فى البيت وحدها.

وهرع نحو الباب الداخلى وتبعته زوجته فى تعثر ظاهر وكان الباشا يصيح:

ـ لولو.. لولو!

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة فى لباس النوم الأبيض الشفاف، أشرقت فى الظلماء كالشمس ناشرة فى الجو عطرا يفعل فى الأعصاب فعل الموسيقى العذبة، فصاح الوالدان:

ـ الحمد لله.. هل أنت بخير يا لولو؟

فأجابت بصوت له فى الأذن وقع العطر فى الأنف:

ـ نعم يا ماما، ماذا حدث؟

فقال الباشا:

ـ قبضوا على لص يقفز من سور القصر.

فخفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدج:

ـ لص؟!

ـ ألم تسمعى حركة؟

ـ نعـــم . .

ـ الحمد لله . .

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللص والشرطى والسائق والبواب وتبعته زوجته ولولو، ورأت الفتاة وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهادئ فاشتد خفقان قلبها، وزاغت عيناها، وخفضت بصرها ذاهلة مضطربة.

وقال الشرطى :

ـ يدعى هذا المجرم أنه من أهل البيت يا صاحب السعادة.

فأنعمت زينب هانم النظر فى وجه الشاب بعينين أطفأت الخمر نورهما وقالت :

ـ كذب . . هذا لص جرىء.

ولكن ساورها الشك فى صحة بصرها فمالت إلى زوجها وسألته بصوت خافت :

ـ أليس كذلك يا باشا؟

فنظر الباشا إلى الشاب بعينين ذاهلتين كعينى زوجه وقال :

ـ بلى . . بلى . . هذا لص ولا شك.

ثم مال على أذن لولو وسألها :

ـ أليس كذلك يا لولو؟

ولم تجب الفتاة أو على الأصح لم تسمع السؤال. فسأل الباشا السائق :

ـ هل تعرف هذا الشاب يا حسن . . هل هو من أهلنا؟!

وكان السائق يختلس من لولو نظرات ملتهبة ويراقبها بارتياب، فقال بانفعال :

ـ هذا لص مجرم يا صاحب السعادة.

فقال الباشا للشاب بلسان متلعثم ثقيل :

ـ كيف تسول لك نفسك ادعاء قرابتى؟!

ـ لست لصا يا صاحب السعادة.

ـ فما كنت تفعل هنا؟

ـ لا أدرى يا صاحب السعادة.

ـ ما شاء الله . . هل سقطت من الطائرة فى حديقتى؟

ـ كلا يا سعادة الباشا . ولكنى وجدت نفسى بغتة فى الحديقة . . لا أدرى كيف ساقتنى قدماى إلى هنا!!

فقال الشرطى :

ـ ستجد نفسك فى السجن إن شاء الله .

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطى وقال له بعنف :

ـ يا عسكرى . . لا تقطع علىّ التحقيق . .

فقال الشرطى بسرعة :

ـ حاضر يا أفندم .

وسأل الباشا الشاب :

ـ ما الذى جاء بك إلى هنا؟

ـ أنا آسف يا صاحب السعادة ، كنت سكران وقادتنى قدماى إلى هنا من غير أن يرانى أحد ، ونمت على الحشائش بضع ساعات ، ثم استيقظت فى حالة أدنى إلى الوعى والانتباه ، فأدركت خطئى ، وحاولت إصلاحه بالهروب فوقعت فى يدى الشرطى . . لست لصا . . فتشونى فلن تعثروا على شىء .

ـ وماذا شربت؟

وكان السائق فى حالة سيئة من الغيظ والحنق فقال :

ـ هذا لص كذاب يا صاحب السعادة وينبغى أن نسوقه إلى القسم .

ولكن الباشا انتهره قائلا :

ـ لا تقاطع التحقيق .

وسأل الباشا وهو يهز رأسه بدهاء :

ـ ماذا شربت؟

ـ ويسكى يا صاحب السعادة .

فسألته زينب هانم :

ـ بالصودا؟

ـ نعم .

فمالت المرأة على زوجها وهمست :

ـ انظر إلى فعل الويسكى بالصودا .

فرد عليها بصوت خافت :

ـ نعم . . الويسكى بالصودا شراب ملعون .

ثم دنا من الشاب وهو يقول :

ـ دعنا نفتشك أولا . .

فاستسلم الشاب إليه، ودس الباشا يديه فى جيوبه ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها، ولكن الشاب لم يمكنه منها، وأثارت مقاومته شكوك الحاضرين، فقبض الشرطى على يديه بقسوة وأخذ الباشا الحافظة، وكانت زوجته وابنته قد لحقتا به، وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة من ذات الجنيه، وعدة بطاقات وصور صغيرة، ولاحت منه نظرة عارضة إلى الصور، فأيقظت انتباهه وشحذت بصره فنظر إليها بإمعان فرأى صورة لولو، ولولو بذاتها، هل يصدق عينيه؟ . . أم إنها الخمر؟ . . ونظر إلى زوجته يستعين بعينيها فرأى بهما دهشة وإنكارا، والتفت إلى لولو فرآها تنسحب بخفة وتعود إلى القصر تسير بخطوات متئدة غير مبالية بشيء . .

وسمع الشرطى يسأل بصوته الغليظ :

ـ هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة؟

فرد محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم :

ـ كل ما بها يخصه دون غيره . .

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت عيناه الحادتان أن تريا، فارتد إلى حالة جنونية من الغضب والغيظ وقال لسيده بصوت متهدج :

ـ إن عدم العثور على شيء معه لا يبرئه بحال ، وهو ولا شك قد حاول السرقة فلم يفلح .

فقال الباشا :

ـ سأتحقق مما إذا كان سكران . .

ومال على فم الشاب يشمه ثم قال :

ـ الآن حصحص الحق . . هذا الشاب سكران بغير شك . .

فكاد السائق يجن وقال بغضب :

ـ العفو يا صاحب السعادة، العادة أن الإنسان إذا كان شاربا لا يشم الخمر فى أفواه الآخرين!

فانتفخ الباشا غضبا، وفتل شاربه بغطرسة وصاح بالسائق :

ـ أنا شارب يا كلب؟!

ـ العفو يا صاحب السعادة . . أنا أعنى . . .

ـ لا أقبل منك كلاما يا سفيه، لقد قضت سفاهتك على أسباب رزقك فى هذا البيت . يا عسكرى دع هذا الشاب لى الآن وخذ هذا الوقح خارجا . .

وصدع الشرطى بما أمر، وخلا المكان إلا من الباشا وزوجته والشاب .

قال الباشا للشاب بلهجة تنم عن التهديد والوعيد :

ـ ألا تعرف من أنا؟

ـ أعرف طبعا يا صاحب السعادة . .

ـ فكيف إذن تسول لك نفسك انتهاك حرمة بيتى؟

ـ أنا غايتى شريفة يا صاحب السعادة . .

ـ وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل؟

وسألته السيدة :

ـ ما صناعتك؟

ـ موظف . .

ـ هذا يعنى أنك صعلوك .

ـ صعلوك؟!

ـ نعم . . إن الكاتب الحقير الذى لا يجد له وظيفة تشرفه يطبع على بطاقته كلمة موظف، وهى لا تعنى فى الواقع إلا أنه كاتب حقير . . أليس كذلك؟!

ـ . . . . ؟

ـ فى أى وزارة؟

ـ المساحة . .

ـ ما شاء الله؟ . . وما هى مؤهلاتك؟!

ـ . . . . !

ـ ما هى مؤهلاتك؟! أجبنى؟!

ـ البكالوريا . .

ـ بس يا خبر أسود . . وماهيتك؟

ـ . . . . !

ـ وماهيتك . . أتوسل إليك أن تجيبنى؟

ـ ستة جنيهات!

ـ عال . . ولماذا تحب ابنة الباشا؟

ـ سيدتى . .

ـ لماذا لم تحب ابنة كلب من طبقتك؟

وتنهد الباشا من قلب مكلوم وقال للشاب :

ـ تفضل مع السلامة .

وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب منهما كل منال فارتمى الباشا على «الشيزلنج» واستلقت السيدة على الفراش وكان واجمين حزينين . .

وتنهد الباشا وقال لها :

ـ أيعجبك هذا؟

ـ أنت دائما تلقى علىّ تبعة كل شىء . .

ـ أنا رجل ينوء بعبء ثقيل سواء فى الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات، فأنت وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك!

ـ لا تتكلم يا سيدى عن بناتى بهذه اللهجة التى لا أقبلها بحال . . إنى أعلم أنهن أشرف النساء جميعا!

ـ إذن أنت ترضين عن هذه الأفعال الشائنة؟

ألا ترين أن مأساة الأخت الكبرى تتكرر؟ تلك الفتاة البائسة التى أردت أن أزوجها بطبيب كبير فوقعت فى غرام صعلوك متشرد ممن يسمونهم بالموسيقيين؟

ـ لا تتكلم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ، فليس هو الآن بالصعلوك ولا المتشرد، ولكنه مفتش موسيقى محترم بوزارة المعارف!

ـ أنا الذى عينته فى هذه الوظيفة التى هو غير أهل لها بحال . . أنا الذى خلقته.

ـ اخلق هذا أيضا من أجل لولو . .

ـ ولكنه غير قابل للخلق . . لقد كان الأول مغنيا فاستطعت أن أصنع منه مفتشا للموسيقى وإن كان لا يفقه شيئا فى الموسيقى، ولكن ما عسى أن أصنع بهذا وكل مؤهلاته البكالوريا؟ الأوفق أن نطرده!

ـ ليت ذلك ممكنا! . . ولكنك تعلم أن لولو عنيدة صلبة الإرادة، فلنوار سوءتنا ونصنع منه شيئا . .

ـ مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب .

ـ حنانيك يا باشا، هل شح الزمان حتى تتزوج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (ووزير لاحق إن شاء الله) بكاتب؟!

ـ وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة مثل لولو؟

ـ دع أحاديث الغضب جانبا، وقل لى ألا يمكن إلحاقه بأى وظيفة فى مفوضية أو قنصلية؟

ـ مفوضية أو قنصلية؟! . . أهذا كلام يقال على واحد كل مؤهلاته البكالوريا؟

ـ أف . . أنا أعلم جيدا أنك متعب، ومهما يكن من أمر فينبغى ألا تكون درجته أقل

من السادسة وألا تقل ماهيته عن خمسة عشر جنيها . . وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أى واحد منهم سكرتيرا له .

ـ ليس الأمر سهلا يا هانم كما يبدو لك ، فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيات والاستثناءات .

ـ وهل يرضى الصحف أن تتزوج ابنة واحد باشا بكاتب بستة جنيهات؟

ـ إن للصحافة هموما لا تدع لها وقتا للتفكير فى مسألة زواج لولو !

ـ و إن مستقبل لولو لفوق الصحافة وهمومها ، فينبغى أن تخلق هذا الشاب من جديد .

ـ هل كتب علىّ أن أخلق كل يوم شابا من جديد؟

ـ أرجو أن تذكر أنك كنت موظفا بائسا حين تزوجتك وأنه لولا المغفور له والدى . .

ـ إن أباك لم يخلقنى ، ولكنه أتاح الظروف المناسبة لعظمتى الكامنة !

ـ صه . . لولا أبى لكنت الآن موظفا بالدرجة السابعة على أكثر تقدير ؟ !

ـ أبهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القذر ؟

ـ معلهش يا باشا ، إنهن ورثن عنى ذلك الذوق الذى حملنى فيما مضى على الزواج بك .

* * *

وكان السائق هائجا غاضبا ، يلعن ويتوعد ، والشرطى يهدئ روعه ويعزيه عن «قطع عيشه» بكلمات لا تغنى ، وقد قال له :

ـ أنت مخطئ يا حسن . . لماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟

فقال محتدا :

ـ أهذا رجل؟

ـ وما الذى يغضبك أنت؟ . . إنها ابنته لا ابنتك !

ثم غمز بعينه وتساءل :

ـ أم هناك سبب آخر لهذا الغضب؟ . . أهو غضب أم غيرة يا شيطان؟ !

فلما لم يرد عليه الجواب قال له وهو يودعه :

ـ معلهش يا حسن . فالحق أن الباشا لم يعرف يربى غير شنبه .

الجـــــوع

انتصف الليل ولما يصادف حظ الوجيه محمد عبد القوى غير العبوس، وما انفكت خسارته تنمو وتتضاعف حتى بلغت نيفا وأربعين جنيها فى أقل من ثلاث ساعات، وكان هذا دأبه فى أكثر لياليه، فلم تعد الخسارة تهز أعصابه أو تكرب نفسه. كان يتعاطاها بغير مبالاة بين رشف الكئوس وقذف الدعابات. ثم ينساها بمجرد الانفصال عن المائدة الخضراء. ولكنه كف تلك الليلة عن اللعب بغير إرادته لخمار دار برأسه، فرغب فى تنسم هواء الخريف الرطيب فى الخارج ومراودة نشاطه بالمشى والحركة، فنهض معتذرا، وغادر النادى، وكان الطريق كالمقفر والجو لطيفا منعشا، فسرت منه إلى رأسه الساخن الدائر قوة وسكينة، فجدّ فى السير مصفرا صفيرا خافتا وأحيانا مترنما، لغير غاية، وانحرف إلى الطريق المؤدى إلى قنطرة قصر النيل، وبصر بها فى نهايته فانشرح صدره وحث خطاه، فلما بلغها مضى يسير الهوينى التماسا لمزيد من الراحة والانتعاش، ولم يكن يقطعها فى تلك الساعة إلا السيارات المنطلقة فى فترات متقطعة، إلا أنه حين بلغ ثلثها الأخير لاحت منه التفاتة إلى الجانب الأيسر منها فرأى رجلا رث الهيئة فى جلباب قذر ينحنى متقوسا على سور القنطرة ملقيا برأسه إلى النهر فلم يلق إليه بالا، ومضى إلى نهاية القنطرة، ولم يجد رغبة للتوغل فيما وراءها فتحول إلى الجانب الأيسر ليعود من حيث أتى، وكان الرجل ما زال فى تقوسه واستغراقه إن لم تكن أسكرته نسائم الهواء الرطيب فتسلل النوم إلى جفنيه. . . ولما صار منه على بعد قريب رآه يقفز بحركة مباغتة إلى أعلى السور ثم توثب كأنما ليلقى بنفسه إلى النيل، فاندفع نحوه بسرعة جنونية وأدركه فى اللحظة الفاصلة، فأمسك بيسراه وجذبه إلى الخلف بشدة فسقط على الإفريز عوضا عن أن يسقط فى النهر، وبلغ منه الانفعال وتدافعت أنفاسه وتفرس فى وجه الرجل الذى هانت عليه الحياة فرآه يحدجه بنظرة جامدة ووجه مكفهر، وقد لاح لعينيه هزاله ورثاثته وشدة اصفرار وجهه، فصاح به:

ـ ماذا كنت فاعلا بنفسك؟

فلم ينبس بكلمة وظل على جموده واكفهراره، وتمالك الوجيه عواطفه فعجب لما يدفع مثل ذلك الرجل إلى الانتحار وهو لا يعلو على الحيوان ـ والحيوان فى العادة لا ينتحر ـ فسأله:

ـ هل كنت حقّا تروم الانتحار؟ لماذا؟ . . دعنى أشم فمك ، هل أنت ثمل أم مجنون؟ . . تكلم يا حيوان .

فقال الرجل بصوت مبحوح دل على الحقد والاستهانة :

ـ أنا جائع .

فنظر إليه كالمرتاب وقال :

ـ كذبت . . . إن الكلاب الضالة تجد قوتها . . . ولن أصدق أن إنسانا يموت جوعا فى هذا البلد . . ولكن هل تدمن الحشيش أو المنزول؟

فقال بنفس اللهجة :

ـ لك عذرك . . فإنك لم تعرف الجوع . . هل ذقت الجوع؟ . . هل بت ليلة بعد ليلة تتلوى من عض أنيابه؟ هل ثقب أذنيك عويل أطفالك من نهشة أمعدتهم؟ . . هل رأيت صغارك يوما يمضغون عيدان الحصيرة ويأكلون طين الأرض؟! . . تكلم يا إنسان . . . وإذا لم يكن لديك ما تقوله فلماذا تحول بينهم وبين الخلاص من غائلة الجوع؟

فامتعضت نفسه وسأله بلهجة لم تخل من شك :

ـ أتعنى حقّا أن لك زوجا وأطفالا؟

ففطن الرجل إلى بواعث شكه وعبس وجهه امتعاضا وقال :

ـ كنت يوما قادرا على الزواج والإنفاق . . كنت عاملا بمصانع عبد القوى شاكر .

وأحدث الاسم فى نفس الوجيه هزة عنيفة ؛ لأنه اسم والده ، وكان يوشك أن يسأم ويضجر فاسترجع اهتمامه وسأل الرجل :

ـ هل حقّا كنت عاملا مرتزقا؟!

ـ نعم . . وبلغت يوميتى ستة قروش . . وكنت محترما ومحبوبا . وكفلت الحياة لزوجى وأمى وأطفالى الستة . بل كنت أعظم جلدا من البك صاحب المصانع العظيمة لأنى تعودت الرضا والقناعة حيث جعل يتذمر ويشكو سوء الحال ويعتل بالعلل لقطع رزق البعض والتقتير على البعض الآخر . . لم تكن الحياة رغدا ولا يسرا . . ولكنها كانت مشقة مفعمة بالرجاء والأمل .

وأمسك الرجل عن الكلام كأن استرجاع الذكريات الحلوة استنفد البقية الباقية من حيويته وقواه فجزع الوجيه وقال له :

ـ هيه . . وكيف انقلب بك الحال إلى هذا المصير؟

فرفع يمناه إلى أعلى فتدلى كم الجلباب الممزق كأنه لا يوجد فيه ما يمسك به ، وبرز من

أحد خروقه بقية عضده كأنه رجل أريكة تداعت وأكلها التقادم، وأشار إليها بيسراه وقال:

ـ أرأيت إلى هذا . . لقد هوت الآلة الجبارة على ذراعى وأنا منشغل عنها بما بين يدى فلم تبق منه إلا على ما ترى وأطاحت بالجزء النافع الذى أكسب به قوتى فجعلتنى فى ثانية شيئا تافها زائدا عن الحاجة . . ولما تماثلت للشفاء مضيت إلى البك صاحب المصنع منكسر الفؤاد، مفعم النفس بالقنوط فتلقانى آسفا وأعلن أنى قطعت ذراعى من جراء إهمالى. فقلت له: إنه القضاء الذى لا يرد فهز رأسه آسفا وتصدق علىّ بمبلغ يسير. فقلت له: إن هذا المبلغ لابد نافد عاجلا أو آجلا، وإنى وأسرتى سنموت جوعا إذا لم تدركنا رحمته . . فوعدنى أن يتصدق علىّ بثلاثين قرشا كل شهر . . وكان هذا أقصى ما ظفرت به منه. وأدركت أن حياتى دمرت تدميرا، وأنى وأمى وزوجى وأطفالى الستة قد ألقى بنا إلى الفقر والجوع . . ولشد ما وجدت الحياة قاسية لا رحمة فيها . . فتجرعت مرارتها قطرة فقطرة وهمت على وجهى فى الطرقات أسأل السابلة مستدرا رحمتهم بعرض بقية عضدى على أنظارهم، متلهفا على الملاليم وكسر الخبز. وعلم الله أنى كنت ذا حياء وأنفة وأن إماتة هذه العاطفة النبيلة كلفتنى ما لا أطيق من الألم والخجل، واشتدت وطأة العيش فبعت الضرورى من أثاث حجرتنا بثمن بخس. وتمزقت ثيابنا وتعرى الأطفال . . وتهالكنا من الجوع . . وكان أقسى ما فى حياتنا صراخ الأطفال وعويلهم وشكواهم، فجوع دهر طويل أخف على نفسى من قول طفلى وهو يتطلع إلىّ كالمستغيث ودموعه منهمرة: «أبتى . . أنا جائع». ولاحقتنى هذه الآلام فجعلت صدرى جحيما وبغضت لى الدنيا وولدت فى قلبى شعور المقت والحقد، وتضاعف إحساسى بعجزى وهوانى حتى قال صاحب ممن جمعنا الجوع فى ميدان واحد: «ما لك تكلف نفسك ما لا تطيق من الهم كأنك امرأة مترفة تأكل كل يوم رطل لحمة . . سيتحجر قلبك ويصبح الجوع مستملحا فتجيب ابنك إذا شكا إليك الجوع كما أجيب ابنى . . بلطمة تنسيه الجوع».

وسكت الرجل وقد بلغ منه الإعياء والتأثر، وبدأ الوجيه يضجر مرة أخرى ويفكر فى حل للعقبة التى اعترضت سبيله ليتخلص منها على وجه مُرضٍ، فسأل الرجل:

ـ أهذا ما دفعك إلى محاولة الانتحار؟

فقال الرجل وهو يهز رأسه كأنه يقول له بل أكثر وأكثر:

ـ فى مساء هذا اليوم رجعت إلى الفناء الذى نأوى إليه صفر اليدين عجزا وإعياء. فلقيت الأطفال نائمين هادئين فاستولت علىّ الدهشة كيف نزلت عليهم السكينة؟

هل تعودوا الجوع فما عاد يقرصهم؟! . . وكانت زوجي وأمي نائمتين أيضا . فأيقظت أكبر الأطفال . . وأدنيته مني ، وما إن أفاق من ذهول النوم حتى اندفع يقول لي فرحا : «أكلنا عيشا ساخنا» ، فسألته : «من أتى به»؟ فقال : «عم سليمان الفران» فنفذ الاسم إلى صدري المتهالك كالرصاصة . وشددت قبضة يدي على ساعده وسألته وقد طالعت في وجهه أثر ما لاح في وجهي من التغيير : «وهل الرجل دعا أمك إلى الفرن أم أتى بنفسه إلى هنا؟» . فقال : «أرسلها مع غلامه» فلم أرتح إلى جوابه على الرغم من أنه لم يحقق شكوكي ودفعته ساخطا غاضبا ، واستقر بصري على وجه زوجي وقد تملكني الحنق وتخايلت لعيني أشباح مخيفة . لقد امتلأت عيناها بالنوم بعد أن امتلأ بطنها . . بعد أن ملأها الوغد الذي خطب ودها فيما مضى وراجعه هواه فسعى بحذق إلى استغلال ما تعاني من الشقاء والجوع . إني أدرك كل شيء . وأدركه بمشاعري التي نشأت عليها ولم يظفر الجوع بإماتتها بعد . . إنها لا تزال حية في صدري تبعث في نفسي الغيرة وفي قلبي الغضب . . وتشبعت أفكاري بروح الجريمة والعدوان . . هل أنقض على المرأة النائمة فأكتم أنفاسها؟ كانت رغبتي في الفتك عظيمة جبارة . ولكن لاحت مني التفاتة إلى الأطفال فترددت . من لهم بعد أمهم وأبيهم؟ وتخاذلت وتداعت إرادتي . . ونفست عن غضبي فركلتها بعنف وغادرت الفناء وصراخها الفزع يلاحقني . ثم همت على وجهي في الطرق التي أتسول فيها . . وجعلت أتخبط على غير هدى . . وعاودتني أفكار العدوان . . هل أرجع إلى الفرن وأثب على عم سليمان وثبة الهلاك؟ أم أرصد عبد القوي بك وأطعنه طعنة قاتلة؟ . .

ولكن ما أعجزني . . فقدت يمناي ودب الإعياء في جسمي وأطرافي وتضعضعت حواسي . ثم بلغت بي قدماي هذا المكان ورأيت النهر الجاري في وحشة الليل فانجابت عني الوساوس ؛ وأدركت للحال كيف ينبغي أن أنهي الحياة ، وخلت أن النيل ضالتي المنشودة . وكأن قضاء إلهيا هداني إليه ليدلني على سبيل الخلاص والراحة . واستولت عليّ فكرة الموت واستبدت بي . وتفكرت في عجزي وضعفي وجوعي ، وفي عذاب أطفالي وشقائهم . فحمدت الله على أني لم أطع غضبي وأقتل زوجي . وقلت لنفسي : إنني إذا اختفيت من حياتها فلن يعييها إطعام الأطفال . ليكن عم سليمان أو غيره أما أنا فلا . وما عليّ إلا أن أوجه غضبي إلى نفسي فتكون الضحية . . وألقيت بناظري إلى النهر طويلا واستسلمت لليأس . ثم توثبت لألقي بنفسي . ولكنك حلت بيني وبين ما أريد . هذا كل ما هنالك . فهل أدركت الآن أي شر فعلت؟

وكان الوجيه يصغي إلى الرجل مصطبرا ويعمل فكره فسأله :

ـ هل إذا تركتك الآن تعود؟

فقال الرجل بهدوء وتصميم :

ـ إن شاء الله .

فضحك الوجيه وكان قد بت فى المسألة برأى قاطع ، وبحث فى جيوبه عن نقود فضية فعثر بقطعة ذات عشرة قروش فدسها فى يد الرجل وقال :

ـ استعن بهذه على إصلاح أمرك ، وإذا طلع عليك صباح الغد فتوجه من فورك إلى المصنع الذى كنت تعمل فيه وستجدنى هنالك فى انتظارك ، وهاك بطاقة تقدمها لمن يعترض سبيلك .

وأعطاه البطاقة ودفعه عن السور وهو يقول :

ـ أجل عزمتك فلا يزال لديك متسع من الأمل وسأجد لك عملا كبواب أو خادم أو ما شاكل ذلك . . تقدم وعد إلى رشدك . . ولكن خبرنى قبل أن أنسى ما اسمك؟

وجعل الرجل ينظر إليه بعينين ذاهلتين كأنه لا يصدق أذنيه ، ولما سأله عن اسمه قال بصوت غريب : «إبراهيم حنفى» فدفعه الشاب مرة أخرى :

ـ افعل ما أمرتك به يا إبراهيم . . سلام عليك .

وتحول عنه ومضى فى طريقه متفكرا . . يعجب كيف أنه أتى فى الوقت المناسب ليعفى أباه من وزر ثقيل : وكان ينطوى فى قرارة نفسه على سذاجة فأيقن أن ما ساقه إلى الرجل فى الوقت المناسب شىء أكبر من المصادفة ، فأثلج صدره وشعر بارتياح وطمأنينة .

ولكن فكرة خطرت له بباله فقطب جبينه وتساءل كالحالم وهو يجد فى السير :

«ترى كم أسرة من الأسر التى يشقى بها أمثال إبراهيم حنفى يمكن أن تسعدها النقود التى أخسرها كل ليلة فى النادى؟!» .

بذلة الأسير

كان «جحشة» بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار . وكان يعد المحطة بحق سوقه النافقة ، فيمضى على الإفريز فى نشاط منقطع النظير يتصيد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين . ولعل «جحشة» لو سئل عن مهنته للعنها شر لعنة ؛ لأنه كغالبية الناس برم بحياته ، ساخط على حظه . ولعله لو ملك حرية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأغنياء فيرتدى لباس الأفندية ويأكل من طعام

البك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة فى الصيف والشتاء مؤثرا من أعمال الكفاح فى سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة. على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى «الغر» ـ سائق أحد الأعيان ـ يتعرض للفتاة نبوية خادم المأمور فى الطريق ويغازلها بجسارة وثقة. بل سمعه مرة يقول لها وهو يفرك يديه حبورا: «سآتى قريبا ومعى الخاتم». ورأى الفتاة تبتسم فى دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسويها، والحقيقة أنها أرادت أن تبدى عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت..

رأى ذلك فالتهب قلبه وأحس الغيرة تنهشه نهشا موجعا. وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل فى الذهاب والإياب، حتى إذا خلا بها فى عطفة أعاد على أذنيها ما قال لها الغر: «سآتى قريبا ومعى الخاتم»، ولكنها لوت عنه رأسها وقطبت جبينها وقالت باحتقار: «هات لك قبقاب أحسن». فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنهما بطنا بخفى جمل، وجلبابه القذر، وطاقيته المغفرة وقال: «هذا سبب شقائى وأفول نجمى». ونفس على «الغر» عمله وتمناه.. على أن آماله لم تقطعه عن مهنته، فثابر على كده قانعا من آلامه بالأحلام. وقصد فى ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينظر القادم. ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادما من بعد كأنه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقترب وتتميز أجزاؤه ويتصاعد ضجيجه حتى وقف على إفريز المحطة. وهرع «جحشة» إلى العربات المتراصة، فرأى ـ لدهشته ـ على الأبواب حراسا مسلحين ووجوها غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأن هؤلاء الأسرى الإيطاليين تساقطوا بين أيدى عدوهم بغير حساب، وأنهم يساقون الآن إلى المعتقلات.

فوقف «جحشة» متحيرا يقلب عينيه فى الوجوه المغبرة؛ ثم أدركته الكآبة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة فى البؤس والفقر لن يكون فى وسعها إشباع نهمها من سجائره.. ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع؛ فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار، وهمّ أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى. ولكنه سمع صوتا يصيح به بالعربية بلهجة إفرنجية قائلا:

ـ سجائر.

فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبابته بإبهامه: أى نقود. ففهم الجندى وأومأ برأسه، فاقترب محاذرا ووقف على بُعد لا تبلغه يد الجندى. فخلع الجندى جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوح بها:

ـ هذه نقودى.

فتعجب «جحشة» وتفرس فى الجاكتة الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة

والطمع. ووجب قلبه، ولكنه لم يكن ساذجا أو مغفلا فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالى، وأبرز فى هدوء ظاهرى علبة سجائر، ومد يديه ليأخذ الجاكتة. فقطب الجندى جبينه وصاح به:

ـ علبة واحدة بجاكتة؟ هات عشرا.

فذعر «جحشة» وتراجع إلى الوراء وقد غاض طمعه، وأوشك أن يأخذ فى غير السبيل. فصاح به الجندى:

ـ أعطنى عددا مناسبا.. تسعا.. أو ثمانيا.

فهز الشاب رأسه بعناد. فقال الجندى:

ـ إذن سبعا.

ولكنه هز رأسه كما فعل فى الأولى، وتظاهر بأنه يعتزم المسير فقنع الجندى بست ثم هبط إلى خمس؛ فلوح «جحشة» بيده متظاهرا باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس فصاح به الجندى المجنون:

ـ تعال. رضيت بأربع.

فلم يلق إليه بالا؛ وليدله على عدم اكتراثه أشعل سيجارة ومضى يدخن فى تلذذ وهدوء. فثارت ثائرة الجندى وأهاجه الغضب، وبدا وكأنه ليس له غاية فى الوجود سوى الاستيلاء على سجائر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين ولبث «جحشة» جالسا يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه. ولما نزل الجندى إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجندى فقال له وهو يمد يده بالجاكتة:

ـ هات.

فلم ير بدّا من النهوض ودنا من القطار حتى أخذ الجاكتة وأعطى الجندى العلبتين. وتفرس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة، وزررها، فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجبا وسرورا واسترد صندوقه، وأخذ يقطع الإفريز فخورا طروبا. وارتسمت لعينيه صورة نبوية فى ملاءتها اللف، فقال متمتما: لو ترانى الآن! نعم لن تتجافانى بعد اليوم ولن تلوى وجهها عنى احتقارا، ولن يجد «الغر» ما يفخر به علىّ. ولكنه ذكر أن الغر يرتدى بدلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البنطلون؟ وفكر مليا. وألقى على رءوس الأسرى المطلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر. ودلف إلى القطار ونادى بجرأة:

ـ سجائر. سجائر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود.. العلبة بمنطلون.

وأعاد نداءه مثنى وثلاثا، وخشى أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يومئ إلى

الجاكتة التى يرتديها ويلوح بعلبة سجائر . وأحدثت إيماءته الأثر المرجو ، فلم يتردد جندى أن يهم بخلع جاكتته ولكنه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهل ، ثم أشار إلى بنطلونه يعنى أن ذلك بغيته ، وهز الجندى منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتم التبادل . وقبضت يد «جحشة» على البنطلون بقوة يكاد يطير من الفرح ، وتقهقر إلى مكانه الأول وأخذ يرتدى البنطلون . وانتهى فى أقل من دقيقة فصار جنديا إيطاليا كاملا . . . ترى هل ينقصه شىء؟ . . المؤسف حقّا أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رءوسهم بالطرابيش . . ولكنهم يضعون أقدامهم فى أحذية . ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغر الذى يكرب حياته . وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ :

ـ سجائر . . العلبة بحذاء . . العلبة بحذاء .

واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل فى المرة الأولى . ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفارة القطار بالمسير فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعا . وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطة ، وطائر الليل يحلق فى الفضاء ، فتوقف جحشة وفى نفسه لوعة . وفى عينيه حسرة وغيظ . ولما أخذ القطار يتحرك لمحه حارس فى عربة أمامية فبدا على وجهه الغضب وصاح بالإنجليزية ثم بالإيطالية :

ـ اصعد بسرعة . اصعد أيها الأسير .

فلم يفهم «جحشة »ما يقول وأراد أن ينفس عن صدره فجعل يقلده فى حركاته مستهزئا مطمئنا إلى بعده عن متناول يده . فصاح به الحارس مرة أخرى والقطار يبتعد رويدا رويدا :

ـ اصعد . . إنى أحذرك . . اصعد .

فزم «جحشة» شفتيه احتقارا وولاه ظهره وهمّ بالمسير فكور الحارس قبضة يسراه مهددا وصوب بندقيته نحو الشاب الغافل . . . وأطلق النار . ودوى عزيف الرصاصة يصم الآذان وأعقبتها صرخة ألم وفزع . وتصلب جسم «جحشة »فى مكانه فسقط الصندوق من يده ، وتناثرت علب السجائر والكبريت . ثم انقلب على وجهه جثة هامدة .

نحـــــن رجـــــال

كانت عطفة شنكل من زينتها فى حلة باهرة ، فسماؤها أعلام خضراء وثريات حمراء وبيضاء ، وأرضها رمال صفراء وعلى مدخلها أقيم قوس من سعف النخل والورد والرياحين ، وقد راحت جماعات الغلمان الحفاة تعدو لاهية عابثة بين قوس الاستقبال

وباب آخر بيت فى العطفة . أسبغت الزينات على جدرانه الباهتة المتداعية بهاء وجدة، فدل الحال على أن القوم يحتفلون بعرس أو ختان أو عودة حاج . وقبيل الغروب بدت عند منعطف الطريق طلائع موكب مكون من عربات ثلاث عقدت على مقدم أولاها هالات الورد والأزهار وطوقت أعناق جيادها بأهلة من الرياحين، واقترب الموكب يتهادى حاملة عرباته الرجال الأشداء ذوى العمائم البيض والجلابيب الفضفاضة والعصى الغليظة حتى وقف أمام العطفة، وكان يتوسط القعود فى العربة الأولى شاب فى مقتبل العمر غزير الشارب يرتدى جلابية حريرية بيضاء ويعصب رأسه بلاثة وقطائم، فنهض فى خيلاء وغادر العربة معتمدا على عصا عجراء فأقبل نحوه المنتظرون محتفين يسلمون عليه ويقولون بلسان واحد :

ـ مبارك يا معلم جعدة . . . ربنا يزيد و يبارك يا معلم .

وانطلق الغلمان يهتفون منشدين : «يا بن عطفتنا يا جعدة . . » . وقد تعالت الزغاريد من أبواب البيوت المتداعية ومن وراء خصاص النوافذ وتلقى القادم التحيات بابتسام وزهو وسار فى شبه دائرة من الصحاب متبخترا مرحا لا تسعه الدنيا من السرور والغبطة .

لم يكن المعلم جعدة عريسا ولا مختونا ولا حاجا، كان فى الحقيقة عائدا من السجن، وليس عليه فى ذلك من بأس فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلا وقد زار السجن مرة أو أكثر ولكن جعدة وحده هو الذى شق سبيله إلى الجاه والثروة، فإذا كانت شنكل قد أنجبت شطارا وفتوات عديدين فلم تنجب فى الواقع إلا غنيا واحدا هو جعدة .

كان قبل الحرب بائع بطاطة يسوق عربته الصغيرة حاسرا جلابيته الزرقاء إلى ما فوق ركبته، ولم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا حتى عربته كان يكتريها بقرش فى اليوم . فلما كانت الحرب وجد له عملا فى المعسكر البريطانى بالعباسية، وسرعان ما خلع جلابيته وارتدى قميصا وبنطلونا كاكيين وحذاء أسود أنيقا واستطاع فى مدة وجيزة أن يتقن السباب باللغة الإنجليزية وباللهجة الإسكتلندية . . وتنقل فى عمله بين معسكرات عديدة حتى رمت به النوى إلى التل الكبير، وهناك ابتسم له الحظ فترامت الأخبار بأنه يتاجر فى المهمات والأغذية . بل قيل إنه تعهد بالغسل فى المعسكر جميعه . وتناثرت عنه حكايات كالأساطير مؤداها أنه أثرى ثراء فاحشا، وأنه أمسى يلعب بالجنيه لعب عابث مقتدر . . ثم قال الرواة يوما إنه ضبط متلبسا بالاتجار فى أغذية الجيش، وقضى عليه بالسجن عاما ، ولكنه على أية حال دخل السجن من المثرين وكذلك فارقه . وقد زف شقيقه إلى الأهل والأحباب خبر الإفراج عنه وأقام الزينات وأتى بالزمار والمنشدين وأقسم ليجعلن من يوم أخيه يوما مشهودا . وهكذا عاد جعدة إلى عطفته كالعرسان واستقبل بالزغاريد والدفوف والمزامير، ومضوا به إلى منظرة بالفناء حيث كان يبيت وعربة البطاطا قبل أربعة أعوام

فرشت بالحصر ورصت إلى جوانبها أرائك، فجلس فى الصدر يحيط به الإخوان الأقربون، ومدت المقاعد فى الفناء وتصدر المكان الزمار وأعوانه، وزمرت المزامير وأنشد المنشدون واستبق الفتيان إلى الرقص.

ودارت أكواب الشربات والجوزة والبورى، وشمل الفرح البيت والناس جميعا. أما فى المنظرة فقد جىء بزجاجات الكونياك حيث جمع الصفاء بين الأحباب فأترعت الأكواب ودارت على الأفواه النهمة المشتاقة، وجرى اسم جعدة على الألسنة وتعالى له الدعاء، ومال الشاب على أذن شقيقه وقد ألحت عليه شهوة الظهور والإعلان عن النعمة وقال له: «ابسط يديك حتى تروى العطاش وتشبع الجياع وتسر القلوب: هذا يوم أخيك».

ومضى يشارب الجالسين ويضاحكهم ممتلئ النفس ثقة وطمأنينة وسعادة، وكان بين ساعة وأخرى يبرز حافظته الكبيرة ويستخرج منها ورقة ويرمى بها إلى حجر أخيه قائلا: «هات الشىء الفلانى.. هات الشىء الفلانى.. أنا خادم الإخوان.. لا بد أن ينبسط الإخوان».

ومضت ساعات الليل الأولى فى رقص وزمر وأكل وشرب، وقد شرب جعدة حتى سكر وانبعثت النشوة فى دمه فاهتز طربا وقهقه ضاحكا وداخلته رقة فملأت نسائم الأريحية فؤاده، ولم يلبث أن نازعه شوقه القديم إلى الرقص وكان فى زمانه الأول يهوى الرقص ويحبه وربما تقدم الزفة شارعا بعد شارع بشغف لا يعرف التعب والملل. فلم يعص شوقه ونهض بجسمه الفارع ودعا الزمار فجاءه الرجل وتبعه رفاقه وأقاموا على عتبة المنظرة متأهبين. ووقف جعدة وسط الحجرة قابضا على عصاه بيمناه ومد يسراه إلى شقيقه فأعطاه كوبا ممتلئا إلى نصفه ولكنه صاح به فى خيلاء وقد سرت بأطرافه حمية الخمر. «املأه حتى آخره».. وأخذ الكوب المترع وهو يكفى أربعة أشخاص ثم ردد عينيه فى الجمع المحيط به وأنشأ يقول:

ـ نحن رجال، نحن إخوان، نذل من يتنكر لإخوانه، نذل من ينسى أصله، يعيش الوفاء.

ورفع الكوب إلى فمه فأفرغه دفعة واحدة، والتفت إلى الزمار وأومأ له برأسه فنفخ الرجل فى مزماره ونقروا على الدفوف، وبقدرة عجيبة انتقل الإيقاع من المزمار والدف إلى وسط جعدة ورقبته وسيقانه وعصاه، فحال إلى موجة مترنحة تذهب وتجىء وتذهب، والإخوان يرجعون النقر بأكفهم هاتفين مع الإيقاع «يعيش الوفاء.. يعيش الوفاء». وشعر جعدة وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بأنه ينبعث من جوفه لسان لهب ثم ينطلق فى عروقه نافخا نارا وطربا وجنونا وما زال فى رقص وخيلاء حتى

اكتفى، فلوح بعصاه للزمار فأمسك. ووقف جعدة لاهثا حتى تمالك أنفاسه ثم مد يده إلى شقيقه فأعطاه كوبا آخر، وقلب وجهه فى القعود، كما فعل أول مرة، ثم استدرك قائلا:

ـ نحن رجال، والبيوت للنسوان، القابع خاسر والجسور فائز. انطلق يا جعدة، إلى العباسية يا جعدة، إلى الأهرام يا جعدة، إلى حلوان يا جعدة، إلى التل الكبير يا جعدة، اشتغل يا جعدة، الحذق والشطارة يا جعدة، عاد القرش يا جعدة... يعيش القرش يا جعدة.

وأفرغ الكوب فى فيه كسائل الجحيم وغمز للزمار بعينيه فدقت الطبول وأسلم نفسه لشيطان الرقص يذرع به الدائرة فى رشاقة القيان، والإخوان يهتفون مع الدفوف «يعيش القرش.. يعيش القرش». وقد تصاعدت أبخرة الخمر إلى رأسه فخال فى رقصه أنه يسبح فى عباب مصطفق أو يطير على جناحى ريح مجنونة، وما زال يرقص ويرقص حتى أعياه الرقص فتوقف وقد احمرّت عيناه وتشعث شاربه، ولبث برهة يستريح ثم مد يده ناحية شقيقه وتناول الكوب الثالث بعنف وشره وصاح بإخوانه:

ـ نحن رجال... هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناتى سلم؟ هل عنتر سلم؟ زلت بنا القدم وما يقع إلا الشاطر، ودفعونا إلى السجن. السجن للرجال... ما عيب إلا العيب، يعيش السجن للرجال.

وصب الكوب فى جوفه وقد فقد إحساس الذوق وانقلب وحشا لو أفرغوا فيه حانة لابتلعها، وزمر الزمار، وصفقت الأيدى وتعالى الإنشاد: «يعيش السجن للرجال». واندفع يرقص بغير وعى وكأن نبض قلبه يرسل موجات كهربائية إلى أطرافه، وتركزت فى رأسه أوهام غريبة بثت فى نفسه خيلاء الخالقين، وطال به المطال حتى أمسك الزمار رحمة به فكف مترنحا ثملا، وجعل يبتسم ابتسامة بلهاء وينظر ببصر زائغ. وعلى حين غرة طالعت عينيه من عالم الذاكرة صورة ذات حسن وبهاء فأهاجت قلبه كوحش رأى فريسة شهية، وخال أنه يسمع فرقعة قبقابها وتمطقها باللبان فدغدغت قلبه لسعات الهيام، ومد يده نحو أخيه فى ثورة فائرة، ولكن الرجل اقترب منه مشفقا ومال على أذنه وهمس له: «أسرفت يا معلم». فتولاه الغضب وصاح به: «نحن رجال هات». وأخذ الكوب المترع وقال بلسان ملتو وقد عاودته الصورة الجميلة:

ـ نحن رجال.. الرجل بغير زواج ناقص.. الزواج فرض وسنة، شلبية المصونة بنت عم طلبة جارنا وعمنا.. يا عم طلبة اقرأ الفاتحة...

وأنشد الرجال: «يعيش الحب.. يعيش الحب». واشترك معهم عم طلبة نفسه وقد لعبت به الخمر، وشرب جعدة الكوب فاستولى عليه السكر والذهول وما عاد يدرى

أقائما أم قاعدا، راقصا أم واقفا، فى البيت أم فى الخلاء. وصار رقصه أشبه بالترنح وثقلت جفونه واحتقن الدم فى وجهه. و أمر أخوه الزمار أن يكف فجمد «جعدة» فى مكانه معتمدا على عصاه، وتحول نحو أخيه ومد إليه يسراه كعادته ولكنه لم يستطع أن يحمل ذراعه هذه المرة فردت إلى جنبه، وقال له شقيقه:

ـ أسرفت على نفسك يا معلم.. هلم معى إلى الخارج تنشق الهواء الرطيب.

ولكنه هز رأسه غاضبا، وسار مترنحا إلى المائدة وملأ الكوب حتى فاض منه الكحول وسال، ورفعه إلى فيه بيد مرتعشة وهو يتمتم بلسان ثقيل:

ـ نحن رجال...

وأفرغه حتى الثمالة ورمى به إلى الأرض فتحطم عند قدميه، ونظر فى وجوه السكارى بعينين لا تريان شيئا، وقال بلسان ثقيل ملتو لا يكاد يبين:

ـ نحن.. رجال.. افرحوا ابتسمت لكم الدنيا.. مالى وما أملك لكم.. حظى حظكم.. لن أنسى الإخوان.. يعيش الحظ.

ونقروا على الدفوف وأنشدوا مهللين: «يعيش الحظ.. يعيش الحظ». وأراد أن يرقص، أن يخطو إلى الأمام، ولكنه كان قد فقد كل قوة يمسك بها نفسه فاندفع مترنحا وسقط على وجهه فاصطدم رأسه بالأرض فى عنف وشدة.. وأمسك المنشدون ونهض القوم فزعين ورفعوه بأيديهم وحملوه إلى الأريكة التى كان يجلس عليها، ومال عنقه على مسند الأريكة وانحلت مفاصله جميعا، وجاء قوم ونضحوه على وجهه، فرفع جفنيه الثقيلين لحظات ولما رأى الأعين المحدقة به همس بصوت ثقيل متعثر:

ـ دعونى.. نحن رجال.. افرحوا. الحظ!

ثم شعر فى رأسه بدوى هائل وكأن مائة مطرقة تدق مخه، وفقد الحركة والإرادة والكلام.

وكان المعلم بيومى فى الحاضرين. كان إذا سكر حمله أصحابه إلى بيته وطرحوه على لحافه فيروح فى نوم عميق لا يفيق منه إلا ضحى اليوم الثانى. فقال للقوم ناصحا:

ـ دعوه ينم، فالنوم دواؤه وسوف يصحو غدا صحيحا معافى، وبادروا إلى حمله وأرقدوه على فراش أخيه وتركوه فى سلام.. وعاد القوم إلى لهوهم يشربون ويسمرون.

وراح جعدة فى نوم عميق كما قدر المعلم بيومى، ولكن حدث ما لم يقدر أحد من السكارى ولا دار لهم بخلد، انفجر شريانه ونزف دمه وتسللت الحياة من جسمه نقطة فنقطة حتى تركته جثة هامدة، فنام نوما عميقا لا يقظة بعده ولا إفاقة، وكان ذلك قبيل

انبثاق الفجر وقد تصايحت الديكة، فاختلط صياحها بهتاف الهاتفين وإنشاد المنشدين . . .

الشر المعبود

قبل أن يستولى أول ملك على عرش مصر، كان الوادى مقاطعات مستقلة لكل واحدة إله ودين وحاكم، وقد اشتهرت من بينها مقاطعة «خنوم» لما توفر لها من خصوبة الأرض واعتدال الجو وكثرة السكان، ولكنها كانت تدفع نصيبها كاملا من ضريبة الشقاء والأحزان، ففسق بها المترفون وتضور الفلاحون جوعا وعاث الأشرار فى الأرض فسادا، وفتكت الأمراض والأوبئة بالضعاف والبائسين، وشمر للإصلاح رجال المقاطعة المسئولون وعلى رأسهم القاضى «سومر» وحارس الأمن «رام» والطبيب «حتب» وكافحوا الجريمة والعيوب مكافحة شديدة صارت مضرب الأمثال على الجهاد والصدق والعزم.

وفى أحد الأجيال التى مرت على تلك المقاطعة ظهر بها رجل غريب، كان شيخا طاعنا فى السن حليق الرأس والذقن كعادة الكهنة المصريين، وطويل القامة نحيل الجسم، تلوح فى عينيه نظرة حادة تهزأ من فعل السنين يشع منها نور الفطنة والحكمة. وكان رجلا غريبا حقّا، فما لمست قدماه بلدا حتى تساءل أهله عجبا: من الرجل؟ . . وأى بلد قذفه؟ وما الذى يريد؟ وكيف يضرب فى الأرض حين ينبغى أن يخلد إلى السكينة والراحة فى انتظار الانتقال إلى عالم أوزوريس؟

ولم يقف به شذوذه عند حد. كان يثير وراءه عواصف الضجيج وزوابع الفتنة أينما حل وحيثما يتجه. فكان يغشى الأسواق ويزور المعابد ويدعو نفسه إلى الحفلات على غير معرفة بأصحابها، ويضع نفسه فيما لا يعنيه. فكان يحادث الأزواج عن زوجاتهم والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم ويجادل السادة والنبلاء، ويكلم الخدم والعبيد، ويترك خلفه أثرا عميقا قويا يهيج فى النفوس ثورة جامحة يشتد من حولها الجدل والخصام.

وأثارت حياة الغريب مخاوف «رام» حارس الأمن فاتّبعه كالظل وراقبه عن كثب وارتاب فى أمره فقبض عليه وقدمه إلى القاضى لينظر فى شأنه العجيب. وكان القاضى سومر رجلا طاعنا فى السن عظيم التجارب؛ قضى أربعين عاما من حياته الجليلة يجاهد جهاد الأبطال تحت راية العدل والحقيقة. فأنفذ القضاء فى حيوات المئين من المتمردين،

وملأ السجون بالآلاف من الأشرار والمجرمين، وكان يعمل صادقا مخلصا على تطهير المقاطعة من أعداء السلام والطمأنينة . .

ولما مثل بين يديه الرجل الغريب أخذه العجب واستولت عليه الحيرة، وساءل نفسه عما يرتكبه هذا الشيخ الفانى، ثم سأله بصوته المتزن وهو يلقى عليه نظرة فاحصة :

ـ ما اسمك أيها الشيخ؟

فصمت الرجل ولم يجب، وهز رأسه كأنه لا يريد أن يتكلم أو لا يدرى ما يقول .

واستاء القاضى من لياذه بالصمت بغير سبب معقول، وسأله بلهجة خشنة :

ـ لماذا لا تجيب؟ . . قل ما اسمك؟

فقال الرجل بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة خفيفة غامضة :

ـ لا أدرى يا سيدى .

فتضاعف استياء القاضى وقال منتهرا :

ـ ألا تدرى ما اسمك حقّا؟

ـ بلى يا سيدى . . نسيته .

ـ أتقول إنك نسيت اسمك . . بم يدعوك الناس؟

ـ لا أحد يدعونى، لقد مات أهلى وذوى، ولبثت فى الدنيا دهرا طويلا لا يدعونى أحد، ولا ينادينى إنسان، وكان رأسى مفعما بالأفكار والأحلام فنسيت اسمى .

واتهم القاضى الشيخ بالبله والخرف، وتحول عنه يائسا إلى حارس الأمن وسأله :

ـ ما الذى حملك على سوق هذا الرجل إلى المحكمة؟

فقال «رام» :

ـ إنه يا سيدى رجل لا يستريح ولا يريح، يتطفل على الناس ويجادلهم فى الخير والشر، ولا يدعهم إلا وقد فرقت بينهم الفتنة والشقاق .

فالتفت إليه القاضى وسأله :

ـ ما الذى تريده من وراء ذلك؟

فحدجه الشيخ بنظرة حادة، وقال بصوت قوى النبرات يهزأ بالسنين التى عاشها فى هذه الدنيا :

ـ أريد أن أصلح هذه الدنيا البشعة يا سيدى .

فابتسم القاضى وسأله :

ـ أليس يوجد من يهب حياته لهذا العمل النبيل وهو قادر عليه؟ ماذا يفعل القاضى

وحارس الأمن والطبيب؟ اطمئن أيها الشيخ وأرح نفسك ولا تحمل شيخوختك ما لا طاقة لها به من بلوغ هذا المطلب العسير، وغيرك عليه أقدر.

فهز الرجل رأسه بعناد وقال:

- جميع من ذكرت قد وجدوا منذ الأزل. ولكنهم لم يقدروا بعد على تغيير هذه البشاعة التى تشوه وجه الدنيا. ولا نزال نرى فى كل بقعة من الأرض نذر الشر وآثار الجريمة.

- وهل تنجح أنت إذ أخفقت جميع هذه القوى المؤتلفة؟

- نعم يا سيدى.. أمهلنى وسوف ترى..

فابتسم القاضى فى استخفاف وسأله:

- وماذا تدخر من الوسائل مما ليس لديهم؟

- إنهم يا سيدى يطاردون الأشرار ويعالجون الأمراض ويضمدون الجراح. أما أنا فسبيلى أن أقضى على الداء. إن الداء كمين فى مخبئه آمنا؛ وهم لا يكترثون إلا لآثاره. وقد أنعمت النظر فوجدت أن المعدة أصلا بلاء هذه المقاطعة. وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملأوا منها فراغا فيعيوا جوعا، وآخرين لا يتركون بها فراغا فيهلكون نهما، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل. فالداء بيّن والدواء بيّن.

فقال القاضى:

- على العكس مما ترى هذا داء لا دواء له!

- هذا قولهم يا سيدى. وما يقولونه إلا لأنه ينقصهم شىء متعنى الرب به: هو الإيمان به: هو الإيمان بالخير. إنهم لا يؤمنون بالخير حق الإيمان، ويجاهدون فى سبيله جهاد الآلات الصماء التى لا تحس، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد.. فإذا خلوا إلى أنفسهم تهالكوا على ما يجاهرون بمقته من الإثم. هذا شأنهم يا سيدى، أما أنا فمؤمن حقّا بالخير، فدعنى أعمل على طريقتى وأمهلنى رويدا..!

وأهاج كلام الرجل الغضب فى نفس حارس الأمن، إذ حسبه يلمزه من قريب، ولكن القاضى كان أوسع صدرا وألين قلبا، فأغضى عن قول الرجل. ولما لم يجد فى عمله ما يستحق عقوبة أطلق سراحه بعد أن أسدى إليه النصح..

وغادر الرجل المحكمة وهو يحس بنشوة الظفر، وكان على وجه اليقين مؤيدا بروح سام لأنه كان يسير فى الأرض بقوة مارد، ويتدفق فى الحديث بحماسة شاب، ويفيض عليه قلبه بتفاؤل نبى، وكان لسانه ينفث سحرا حلالا وحجة تلزم المتكبرين، فاستطاع فى مدة وجيزة أن يستأثر بآذان القوم ويسحر قلوبهم ويهيج عاطفة الخير فى نفوسهم

ويوجههم إلى حيث يريد، فاتبعه الفقير وخضع له الغنى وذل له المتمرد العاصى. وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذين يعيش فى ظلهما الفقير بالقناعة والغنى بما فيه الكفاية. ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيبا صادقا بارعا فتعلق بمثله واعتنق مبادئه. وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم الشر وأدبرت الأمراض، وأظلت السعادة بجناحيها المقاطعة، فهلل الحكام وكبروا وآمنوا بالرجل الذى كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعا لبلوغ الغاية النبيلة التى أنفقوا أعمارهم عبثا فى سبيل بلوغها.

وتقدم الزمان بخطى هادئة فى جو صاف وطريق معبد وتحولت الأمور إلى غير ما عهد الناس.

وكان الحكام أول من أحس بالعهد الجديد. والحق أنهم وجدوا أنفسهم عاطلين، والراحة لذة لا يذوقها إلا العاملون، فثقل الفراغ على ظهورهم، وشاهدوا بأعين جزعة مجدهم ينهار وريحهم تذهب ونورهم ينقلب ظلاما.

كان حارس الأمن قوة ترهب أينما يحل، فرد إلى شىء تقتحمه العيون وتستهين به القلوب، وأضحى تمر به العامة وكأنها تمر بصنم محطم.

وكان القاضى قوة قدسية ومهابة إلهية، فأصبح يقلب كفيه آسفا حزينا لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يهابه. فأحس بعزلة ووحشة، وبات كمعبد مهجورفى الصحراء. وأنَّ الطبيب بشكوى مكتومة، وحبس نفسه فى داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنسانا، وكان يكنز المال فى القدور فأصبح ينفق مما جمع وقلبه واجف.

اطمأن الإقليم جميعا إلى الخير إلا أولئك الذين وهبوا أنفسهم «صناعة الخير». كانوا حيارى يائسين يتلفتون يمينا وشمالا فلا يجدون لأنفسهم مخرجا مما هم فيه. وكان حارس الأمن أشدهم عذابا؛ لأنه كان أعظمهم جراءة، ولكنه كان يخشى أن يقدم على التصريح بمخاوفه فيجد آذانا صماء وقلوبا مطمئنة إلى الخير. ولما نفد صبره انتهز فرصة اجتماعه بإخوانه وأقرانه وقال بشىء من التهيب متسائلا:

ـ ماذا نفعل لو استغنى الحاكم عن خدماتنا غدا؟

فاصفرّت الوجوه وسأله سائل بلسان ملعثم:

ـ أمن المحتمل أن يستغنى عنا حقّا؟

فقال رام وهو يهز كتفيه استهانة:

ـ وماذا نفعل حتى نستحق البقاء؟

وكأنه بقوله هذا رفع صماما عن مرجل يغلى ففاض كل بما فى قلبه، فقال واحد منهم:

ـ هذه حال لا يمكن السكوت عليها .

وقال آخر وهو يهز قبضة يده :

ـ لقد أفسد الشيخ الخرف المقاطعة .

وقال ثالث :

ـ إنه يحطم القوى الإنسانية العالية بهذه الدعوة الفاسدة التى تعوق التقدم وتقتل الهمم .

وسرت النجوى من لسان إلى لسان ، وأبان كل عما بنفسه إلا القاضى فإنه لزم الصمت ، وسها إلى الأفق البعيد كأنه لا يسمع مما يدور حوله شيئا ، وكاد مظهره يجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين من أعوانه إلا أن رام همس لهم خارجا :

ـ لا تخشوا القاضى فقلبه معنا ، ولكن لسانه الذى مرن على الكلام عن العدالة لا يطاوعه على ما نحن بسبيله . .

واتفقت كلمتهم . .

وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى ، وبحث عنه مريدوه فى كل مكان وفتشوا عنه فى كل بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر .

وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجا ، وأثار أقاويل متباينة ، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأن إلى ثبات عقيدته ؛ ومن قائل إنه صعد إلى السماء بعد أن أدى رسالته . وشمل الحزن المقاطعة كلها ووجفت القلوب جميعا . .

وتنفس السادة الصعداء وانتظروا على أمل سعيد وكلهم يحلم بالمجد الآفل والنعيم الذاهب ويمنى نفسه ويستنظرها . .

ولكن النفس يلحقها الجزع كلما دنت من الأمل المرتقب ، فباتت أعصاب القوم ثائرة وقلوبهم حائرة ، وكان يقض مضاجعهم أن يروا عامة الناس لا تزال متمسكة بالدعوة ، مخلصة لذكرى الشيخ الغريب .

واهتاج الغضب حارس الأمن فصاح :

ـ ينبغى ألا تدوم هذه الحال .

ونظرت إليه أعين أحياها الطمع ، وأضناها الأمل ، فاستدرك قائلا همسا :

ـ أعرف فى مقاطعة «بتاح» راقصة فاتنة أولتها الآلهة حسنا لا يقاوم . فلماذا لا نستعيرها أشهرا؟ وإنى أعلم أن حاكم الإقليم راغب فى نفيها لما يهيج جمالها من الفتنة والملاحاة . فليكن إقليم خنوم منفاها إلى حين ؛ وهى بغير شك حقيقة بأن تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه ، وبأن تغرى الأغنياء بالانقضاض على السلاسل التى وضعوها فى أعناقهم طائعين . . انتظروا خيرا قريبا . .

وحقق ذلك العبقرى فكرته الخطيرة.

وشاهدوا جميعا بأعين مشرقة بنور الفرح ذلك النظام يتقوض بنيانه ويتهاوى حجرا على حجر، وردت المعدة إلى عرشها تتحكم فى الرقاب والعقول، وعادت الحياة الشيطانية تملأ جو «خنوم» الهادئ، وتعصف بالسلام المخيم على ربوعه. واستأنفت عصبة الحكم جهادها، ووجدت نفسها مرة أخرى تكافح وتناضل عن الخير والعدالة والسلام..

الورقـــة المهلكـــة

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربى، وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولى عنها تيه الفتوة وزهو الشباب، ومضى شعاعها الشاحب يوغل شرقا مودعا رمال الصحراء المتاخمة للعباسية موسعا وراءه للسمرة الزاحفة.

ولم يكن فى الطريق الذى يخترق الصحراء ـ فى تلك الساعة ـ سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على مهل، كأنه لا غاية لها سوى المسير؛ ويسوقها شاب تدل نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث.

وتقدمت السيارة فى الطريق حتى حاذت أبنية المصانع الجديدة التى تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء، ثم وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة فى أعلى واجهته «مطعم وقهوة الزملاء». وكان البناء مكونا من قسمين: واحد مسقف رصت به موائد الطعام الخشبية التى يتناول عليها الطعام عمال المصانع القريبة، والآخر مكشوف معشوشب الأرض، وضعت به الكراسى حول نافورة من ماء آسن، أقيمت حولها عمد خشبية علقت برءوسها الكلبهات.

ألقى الشاب نظرة على البناء وقد لاحت فى عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه الممتلئتين، وغادر السيارة فبدت قامته الرشيقة وبدلته الأنيقة، ودخل إلى القهوة واختار ركنا قصيا، وكان المكان خاليا ساكنا، لأنه لا تدب فيه الحياة عادة إلا بعد انصراف العمال فى المساء فجلس يحتسى فنجانا من القهوة والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة.

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه القهوة التائهة فى الصحراء، فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن فى الحسبان منذ أمد قريب. وما دفعه إليها تلك المرة إلا الملل الراكد على نفسه التى شبعت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مر العناء، وتركته يتخبط حائرا

ما بين الميادين والأزقة لا يهتدى إلى مستقر . وما عاد به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله من أطياف الذكريات الحلوة .

وجلس يلقى على المكان نظرة تذكر وحنين ، ولم يكن يرى منظرا غريبا ، فإنه يذكر ولا شك تلك الأبنية العالية التى يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوى قرع الآلات فى داخلها ، الصحراء المترامية التى تنتهى شطئانها البعيدة إلى مآذن القاهرة المعزية ، ولكن ما له يلتفت يمنة ويسرة ، هل يفقد منظرا يذكره ولا يجده؟

نعم إن الصورة التى انتزعها رأسه من المكان فى تلك الليلة القمراء ناقصة . . ولا تنقص شيئا تافها ، بل تنقص مدينة كاملة . . مدينة الصفائح الغريبة . . كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها ، وكانت مبانيها أكواخا من الصفائح التى علاها الصدأ ، تأوى رجالا ونساء وأطفالا ، وترعى فى عرصاتها المعز والكلاب . . أين يا ترى هذه المدينة ، أم تراه اشتبه عليه الأمر؟

ولكى يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذى أحدث ارتيابه :

ـ ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح؟

فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال :

ـ بلى ، يا بك .

ـ فأين ذهبت؟

ـ هدمتها الحكومة .

قطب الشاب جبينه وسأله :

ـ متى . . ولأى سبب؟

ـ منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن تأكد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة .

لم يكن فى الخبر ما يثير الدهشة ، ولكنه ذكر شخصية عزيزة فقال :

ـ كان هنا رجل مغن يدعى أبو لبة . . أو أبو رنة لا أذكر . . ألا تعلم أين هو؟

فتفكر الغلام دقيقة ، ثم قال :

ـ لعله أبو سنة يا بك .

ـ أظنه هو ، كان يغنى غناء جميلا وينشد إنشادا ساحرا . .

ـ نعم هو يا بك . ولكنه شنق واأسفاه!

وانزعج الشاب وسأله :

ـ أتقول إنه شنق؟

ـ نعم شنق بغير شك .

ـ ولماذا شنق؟

ـ لسبب تافه جدًا .

فاستولت الدهشة على الشاب وسأله :

ـ كيف يشنق لسبب تافه . . ماذا فعل؟

فقال الغلام بهدوء :

ـ قتل . .

فابتسم الشاب على الرغم من انزعاجه وقال :

ـ ولكن ليس هذا بالسبب التافه .

ـ قتل بغيا . .

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه ؛ لأنه قطعه عليه دخول جماعة من العمال ونداء المعلم له فحيا الشاب وانصرف إلى عمله . .

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه القهوة . .

دمرت مدينة ، وتشتت أهلها ، وشنق رجل كانت حنجرته تنفث سحرا وبهجة ، فما أتعس مجيئه هذه الليلة! جاء يطلب لهوا ومسرة فوجد خرابا وموتا!

ولبث كئيبا ، وراح يفكر في زيارته الأولى تلك الليلة القمراء السعيدة . . .

كان في مساء تلك الليلة جالسا في سانت جيمس يشارب جماعة من صحبه كما هي عادته كل مساء ، وقد تركوا الحانة في الساعة العاشرة ، ورأى بعضهم أن يمضوا الليل في صالة رقص أو غناء أو نساء ، ولكنه لم يجد من حواسه ميلا إلى تلك المتع .

كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل والفراغ ، وكان يعاني شبعا ثقيلا صرف هواه عن الدنيا جميعا ، فأمسى الرقص والغناء والنساء ألفاظا لا معنى لها ؛ وانقلب جسد الأهواء الفاتن في عينيه جثة هامدة ، فودع صحبه وتركهم يذهبون .

وتلفت يمنة ويسرة في حيرة . . إلى أين يذهب؟ ولم ينقذه من حيرته إغراء . . فترك لملله ووحدته وسكره . .

ثم استقل سيارته الصغيرة وانطلق بها على غير هدى ، وساقه التخبط إلى العباسية ، ودفعته العباسية إلى صحرائها الشرقية ، ولفتت ناظريه ـ في الطريق الصحراوي الملتوي ـ أنوار خافتة تنبعث من القهوة المنعزلة ، فهدأ من سرعة السيارة ونظر صوبها فسره منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق ، وحمل الهواء إلى أنفه رائحة «التمباك المعسل» فتسربت إلى مخه وأطربت أعصاب رأسه ، فانقشع عنه كابوس السقم ، وأدار

السيارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف، وحسب أن جلسة فى هذه القهوة ونفسا من هذه «الجوزة» يساويان نعم الدنيا الذى أنهك قواه وأضنى قلبه.

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين، ولكنه لم يجد حرجا ولم يستشعر خجلا، إذ أخفت الخمر عن عينيه نظرات الآخرين، وقصد إلى ركن خال واطمأن إلى كرسى، وطلب جوزة. . وكان القمر بدرا والسماء صافية، كأنها تعرت تستحم فى نوره البهى، فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القائمة وكأنه يرى القمر لأول مرة، بل لعله كان يراه لأول مرة حقّا؛ لأنه كان فى العادة يمر على محاسن الكون ومفاتنه بعينى أعمى وأذنى أصم. أما تلك الليلة ـ والخمر فى رأسه و«الجوزة» فى فمه ـ فقد نظر، وقلّب وجهه الذاهل فى أقطار السماء والفضاء. وخال الأنوار الهادئة ترقص طربا والقمر الساطع ينشد نشيدا ترتله السموات والأرض. وأحس كأنه متعلق بأطراف النور الفضى كمن يتقلب على بركة من الزئبق. أى حسن؟ . . وأى شعور؟ . .

فى تلك الساعة السعيدة نسى مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره، وذهب عنه شبعه المزمن، وأحس بجدة وبعث ومتعة وحب. فأنشد الصامت فى أذنيه، وابتسم العابس لعينيه، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغنى وينشد طربا وفرحا. وبالغ صاحب القهوة فى إكرامه والترحيب به، وأحضر له «الجوزة» بنفسه وهو يقول بتودد:

ـ آنست وشرفت.

وكان شيخا فى الستين، قصير القامة، بطينا، ضخم الوجه والرقبة، فلم يسع دانش ـ اسم الشاب ـ إلا أن يشكره.

وأراد الرجل أن يبالغ فى إكرامه فقال:

ـ أتحب يا بك أن تسمع غناء بلديا؟

فسر دانش وقال لنفسه: ليلة قمراء وخمر وجوزة وغناء بلدى! يا لها من ليلة سعيدة حقّا! وقال بحماس للرجل:

ـ نعم. . نعم. . أين المغنى؟

فنادى الرجل:

ـ أبا سنة. . تعال.

وتقدم من بين صفوف الجالسين شاب طويل القامة، عريض المنكبين، لم يجل نور القمر الشاحب قسمات وجهه، وأسدل ظلا على أسماله البالية.

دنا من صاحب القهوة وقال:

ـ نعم؟

فقال له الرجل:

ـ اقعد يا عم . . يريد البك أن يسمع غناءك .

وقال دانش :

ـ نعم . . أسمعنا . . أسمعنا .

ثم التفت إلى صاحب القهوة وقال :

ـ يا معلم . . هات «للأستاذ» جوزة .

وانبسطت أسارير الشاب فرفع يده إلى رأسه تحية : وتربع جالسا على الأرض أمام البك ، وسعل مرات متوالية يسلك حنجرته ، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى يغنى «ليالى» فى صوت جميل ظن دانش فى نشوته أنه أجمل من أصوات الحور فى الجنان ، ثم أنشد :

بكره وبعده وبعد اللى وراه بعده

وإن غاب حبيبك ما لكش فى البلد بعده

وكان رأسه يهتز وجسمه يتمايل ، وكان جميعه فى حركة وجدانية تمثيلية غريبة . وكان صوته يتهدج ويتوجع ، يعلو تارة حتى يملأ الفضاء ، ويخفت أخرى حتى ينفذ إلى أعماق القلب ، وما إن انتهى من إنشاده حتى صعدت آهات الإعجاب من كل فم . وكان الشاب أول المعجبين ، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكل واحد من الجالسين «جوزة» وصاح بالمغنى :

ـ لا أسكت الله لك صوتا . . أسمعنا موالا آخر . .

فهز الرجل رأسه مختالا فخورا ووضع يسراه على أذنه ، ويمناه على الجوزة ، وأنشد :

بينى وبين الحبايب جبل عال وتل حشيش

وبحر خمرة ونفسى فى النبيذ ولا فيش

ولما انتهى المغنى من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانش مبلغا ظن أنه لن يذوق الملل بعده أبدا . وأحس بالرضا والغبطة ، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير . فود لو يستطيع أن يغمر كل محزون بفيض من سعادته ، ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذى مس روحه بنفثة من سحر صوته ، فدس يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات عشرة الجنيهات ، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة ، ثم نظر إلى المغنى مليا ووضع الورقة فى يده وهو يقول :

ـ هذه لك . .

لم يداخله التردد مطلقا ، وما كانت ثمة قوة فى الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك الساعة . أما الرجل فسهم ووجم وأدنى الورقة من نور المصباح وتأملها بإنكار ، ولمح الورقة فى يده أحد الجالسين فاقترب منه ونظر إليها لحظة ، ثم قال بلهجة خبير :

ـ ورقة قديمة من ذات عشرة القروش ، كانت متداولة أيام السلطان .

فتضاحك دانش وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون ممن حوله :

ـ جزاك الله على ما أسعدتنى خيرا . . هذه ورقة من ذات عشرة الجنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئا تافها إلى ما أحسست به من سعادة . . السلام عليكم يا سادة . .

على أنه رأى منظرا عجيبا ـ زاد من مسرته ـ قبل أن يغادر القهوة : رأى أبا سنة يهب واقفا فزعا، وسمع همسا تناقلته الشفاه، ثم علا ضجيج، ثم ساد صمت ثقيل، وقد كفت كل يد عن اللعب وكل فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعا عند المغنى السعيد .

ولبس طربوشه وسار إلى سيارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفض عنه راكد السقم والملل، وعاد إلى المدينة، ثم ألهته الحياة عن الصحراء وقهوة الصحراء وأبى سنة حتى وجد نفسه فيها هذا المساء .

فما أشد ما نزل بالدنيا من تغير! اندثرت مدينة الصفائح العامرة . . وفتك الحبل بعنق أبى سنة الجميل وحنجرته الذهبية . . يا للعجب! كان أبو سنة مطربا فكيف صار قاتلا؟ ووجد رغبة صادقة فى السؤال والتحرى عنه، وكان صاحب القهوة جالسا بمكانه المعهود عند مدخل المطعم . فأشار إليه وناداه قائلا : «يا معلم» . وحدق الرجل فى مصدر الصوت وهو يضيق عينيه، ثم سار إليه، فلما دنا من صاحبه ورأى هيئته المميزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام . ولكن لم يبد عليه أنه عرفه أو تذكره، وطلب إليه دانش أن يجلس ثم قال له :

ـ أراك لا تذكرنى يا معلم .

فحدجه الرجل بنظرة إمعان وارتباك وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة :

ـ أهلا وسهلا . .

فأردف دانش :

ـ ألا تذكر تلك الليلة القمراء؟! . . والمغنى أبا سنة؟ . . وموال بكرة وبعده؟! كم مضى على تلك الليلة؟ . . ثمانية أشهر أو يزيد ألا تذكر؟

ونظر الرجل إليه نظرة غريبة، كان الشاب يتوقع أن يقرأ فيها الدهشة والترحاب، ولكنه وجدها جامدة ثقيلة . .

ـ ألا تذكر يا معلم؟

فهزّ الرجل رأسه وقال :

ـ بل أذكر يا بك

ـ سمعت خبرا عجيبا مزعجا . . هل حقّا شنق أبو سنة؟

ـ نعم شنق الرجل التعس .

ـ وكيف شنق؟

ـ أتحب أن تعرف يا بك؟

ـ طبعا يا معلم.

فقال الرجل بصوت غليظ:

ـ ألا تذكر الثروة التي رميته بها في تلك الليلة؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للهجة الرجل. أما المعلم فاستطرد قائلا:

ـ في تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظرا عجبا، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكانا خاليا وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة، ولم تكن عادته أن يجلس صامتا، فهو إما أن يضاحك القوم و إما يغنيهم وينشدهم. أما في تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطربا وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق، ويمعن في الورقة نظرا يتنازعه الشك واليقين والذعر والأمل، ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعني على الورقة، فأطلعني عليها وهو قابض على طرفها، فعرفتها، وأمنت على قولك له دهشا متعجبا. وقلت له: لقد أتتك ثروة واسعة. وكان محط الأنظار ومثار الاهتمام والهمس، وكنت أتوقع أن يغادر المكان سريعا، ولكنه ظل ذاهلا يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتماع ذعر مريب؛ ولعله كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب، فهو آمن وسط الجميع ولكن أنى له الأمان إذا انفرد في الطريق أو آوى إلى كوخه في مدينة الصفائح؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلوها من العملة سوى الملاليم ولا يغمض لها جفن إذا علمت أن بين حدودها ورقة من ذات عشرة الجنيهات، فما العمل؟ بات خائفا مذعورا وأمسى الجميع أعداءه.

وسكت الرجل دقيقة، ثم رمق الشاب بعينين أحرق الاحمرار أشفارهما واستطرد:

ـ وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرضه على الاستهتار، فما كان منه إلا أن قام بغتة، وقال بصوت مبحوح: «السلام عليكم يا إخوان». وغادر القهوة على عجل، ولكنه بدلا من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجه وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتى ابتلعته الظلمة. وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمنا يسيرا ثم كر راجعا وهو يصيح ضاحكا: «ألا تعلمون.. أن الرجل المعتوه يعدو بقوة كأنما يطارده مطارد عنيف؟». وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسخر واللعن، وهكذا غادرنا أبو سنة..

وذاع الخبر حتى بلغ مدينة الصفائح، فجاءت أسرة المغني على عجل، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلما أن

صح بينهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة، وظنوا أن المغنى ذهب ليدفن كنزه فى مكان أمين فقعدوا ينتظرون. وطال بهم الانتظار على غير جدوى، فجزع الأكثرون وتفرقوا ولم يبق إلا أفراد أسرته، ولبثوا طويلا يترقبون ولكن أبا سنة لم يعد.

وهنا غلب السعال على «المعلم» فمنعه عن إتمام حديثه، وانتظر دانش حتى رد إليه النفس واستحثه بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل:

ـ كلا لم يعد أبو سنة... وما كان ليعود... لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد. باعهم جميعا بتلك الورقة السحرية. ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته، فخرج فى طلبه والبحث عنه. ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة. فقيل إن المغنى التائه قادته قدماه إلى الأزبكية، وإن بغيا وقعت فى هواه وأوقعته فى شراكها، ثم قيل إنه اشتغل بالغناء فى قهوة بلدية بالأحياء الموبوءة. وأخذ الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات، فقالوا: إن الدنيا تبسم له، وإنها فى إقبال عليه يتزايد يوما بعد يوم، فالأموال تتقاطر عليه من كل يد والنساء يتهافتن عليه من كل باب، وإنه بطر وطغى وفرض السطوة وجبى الإتاوة ونشر الرعب..

كانت أخبارا غريبة يعز تصديقها، ولكنها فتنت شباب مدينة الصفائح وأثارت الطمع فى قلوبهم، فلحق به نفر منهم إلى مهاوى الفجور، ومدوا إليه يد الأخوة، وقاسموه الخير والشر، فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب.

ولبثت تلك الحياة ما لبثت، ثم انقطعت على أسوأ حال، وقيل فى ذلك أن الرجل رجع يوما إلى مخدع عشيقة له على غير موعد، فوجدها بين يدى أحد أتباعه، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستل خنجره وقتل به الاثنين. وقبض عليه وعلى عصابته، وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذاك الشر، وانتهى الأمر فشنق أبو سنة، وسجن أتباعه، وهدمت المدينة المظلومة.. وسبحان من له الدوام يا بك..!

كان دانش يصغى إلى محدثه فى ذهول، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريرة ساخطة، فسرت فى جسمه هزة عنيفة، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجا، وغادر القهوة دون أن يلقى عليها نظرة وداع..

كان كئيبا منقبض الصدر.

وكان يتذكر تلك الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب، ويتعجب! كان ليلتها سعيدا فرحا ينشد السعادة للجميع، فكيف انقلب غرضه عليه؟.. كيف خانه الهدف فدمر مدينة وشرد أهلها؟

واأسفاه!

ثمـــن الســـعادة

دخل الأستاذ الحجرة التى قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير فى انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيه يقلب عينيه فى الصور المعلقة على حيطان الحجرة، وكانت المرة الأولى التى ينتظر فيها تلميذه منذ جىء به له لعشرة أيام خلت، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة، ورأى الغلام مقبلا عليه يتأبط كتبه وكراسته، فحدجه بنظرة تعنيف ولكن راعه أن يرى عينيه محمرتين من البكاء وذقنه الصغير يرتعش من التأثر، فسأله باهتمام:

ـ مالك؟

وكأن السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه. قال وهو ينتحب:

ـ تيزة.. ضربتنى. وتشاجرت مع بابا وما زالا يتشاجران.

فسأله باقتضاب:

ـ من تيزة هذه؟

ـ امرأة بابا.

فدلته هاتان الكلمتان على معان كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال. على أن الغلام تطوع من نفسه فسرد قصته الصغيرة الحزينة على مدرسه، قال: إن والدته ماتت لعهد ولادته، وإن أباه تزوج بتيزة بعد ذلك بعام أو عامين، وإنه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوج أخواته الأربع فى الأعوام الثمانية التى أعقبت وفاة الأم، وإن أسباب الخلاف لا تنتهى بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران، وأقسم أن الحق دائما مع أبيه، وأنه لا يشتبك معها حتى يضطر إلى ذلك اضطرارا، ثم لا يلبث أن يكف عنها يائسا قانطا، فلا تسكت هى عن الغضب والحنق والسباب.

وأصغى المدرس إلى تلميذه بغير اهتمام، وواساه بكلمة تافهة، ثم تناول الكراسة وبدأ عمله، ولم يطرقا الحديث مرة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذلك من الأيام، حتى كانت ساعة درس فاقتحمت عليهما الغرفة بغير استئذان شابة حسناء فى ريعان الشباب، فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفا فى تأدب واحترام. وألقى على الزائرة نظرة حييّة، فراعه ما رأى ـ لا من حسنها وشبابها فحسب ـ ولكن من انطلاقها على سجيتها وعدم تكلفها، الأمر الذى أخرجها ـ بغير قصد طبعا، عن الاحتشام، فكانت

ترتدى «روب دى شامبر» من نسج حرير رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفى ساقيها وأعلى الصدر. وكان الأستاذ يظن أنه لا يجوز لشابة أن تبدو هكذا لعينى رجل غريب ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحدس أنها إحدى أخوات تلميذه المتزوجات، وتأكد حدسه حين رآها تمد يدها فى رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثم جلست باطمئنان تجاه المدرس وهى تخاطبه قائلة:

ـ تفضل بالجلوس... هل يعجبك عمل توتو؟

فجلس أنيس وهو يقول:

ـ توتو مجتهد، وقد تقدم فى هذين الأسبوعين فى الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلا المثابرة على حفظ الكلمات.

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمر فى عمله، فعلم أنها ترغب فى أن تشهد درسه، فلم ير بدّا من متابعة الدرس متلعثما برما. واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنها تتابع كلامه. فوجه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحا عذبا. ومرة أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتد فى اضطراب وذعر.

ولم تمكث الشابة طويلا فحيته وانصرفت، فشيعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهما:

ـ أهى أختك؟؟

فهز الغلام رأسه سلبا وقال بجفاء:

ـ تيزة.

فتملكت الشاب الدهشة وتساءل متعجبا:

ـ تيزة؟!

فنظر الغلام إليه بإنكار وقال:

ـ نعم.

فتمالك أعصابه ولم ينبس بكلمة، ولكنه لبث مشغولا دائم التفكير، وفى أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو ـ كما رآه يوم قدم إليه ـ ببدنه المترهل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجدور. ثم تمتم قائلا: «الآن فهمت كل شىء.. فرضوان بك حكمدار فى المعاش جاوز الستين وزوجته لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفية.. ولكن لماذا تلطفت بالغلام

أمامى؟!». ولم يعتور أفكاره سوء، لأن أنيس كان طالبا ـ وإن كان أستاذا لتوتو ـ طاهر النفس، على أنه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثر.

وفى الدرس التالى لم يكد يطمئن إلى مقعده أمام تلميذه حتى كانت «تيزة» ثالثهما، وكانت كما رآها أول مرة، جميلة خليعة مبتذلة فى ثوبها ولم تلازم مكانها طول الوقت، فكانت تخرج لبعض الشئون ثم تعود إلى جلستها. وفى مرة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنها تعمدت ذلك، فخال أنيس أن ساقها ـ لدنوها ـ تلامس ساقه. وعند انصرافه سلمت عليه باليد، فراح يضوع من كفه أريج معطر، ومضى مبلبل الفكر تضطرم فى وجدانه يقظة عاطفية حارة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهم محاضراته عبثا حتى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعا مكروبا: «لا أحسبنى إلا مجنونا أو مسحورا».

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفا بها قبل كل شىء. وأحس أن تفضلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقية التى تبذلها له الدنيا جميعا، فاستلذها واستطابها وجن بها جنونا. وجعلت الشابة الفاتنة تتودد إليه، وتعرض لعينيه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينيها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها قاتلة فاتكة.. والشاب يذهل عما حوله بسرعة جنونية. وذهب يوما إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة فى الحجرة دون الغلام، فسأل عنه لا يحفل به فى باطنه. فقالت له المرأة: «ذهب مع والده إلى شقيقته فى الزمالك لأنها مريضة». فأحس خيبة وحنقا لأنه سيضطر إلى مغادرة البيت وقام واقفا كئيبا فسألته: «إلى أين؟» فأشار إلى الباب وقال: «سأعود من حيث أتيت». فصوبت إلى عينيه نظرة ملتهبة وتمتمت بجرأة وهى تهز رأسها الصغير: «كلا..». فخفق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالمسحور المذهول، ثم تبعها على الأثر لا يلوى على شىء.

وتخلفت بعد ذلك عن حضور دروسه، ولكنها سمت له الأيام التى يستطيع أن يلقاها فيها فى أمن من الرقباء. فاندفع فى سبيله كمياه الشلال الجارفة فى فورة عاطفة مشبوبة تصم الآذان وتعمى البصر وتغرق هواجس النفس، مستكينا لنوازع شهوته وجنونه. وإنه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحب إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلة على الطريق، فرأى مشهدا تجمد له الدم فى عروقه، وتصلب شعر رأسه من الهول، فتعثر وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنما يدارى نفسه؛ وتقدم فى خطى مضطربة لاهثا حتى بلغ منعطف الطريق وأراد أن يستوثق مما رأى فصوب بصره فى خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئنا إلى كرسيه فى جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهش

الذباب عن وجهه بمذبة . . فأيس من تكذيب عينيه، ولهث قائلا بفزع لا يوصف: «رباه إنه هو هو . . نعم فى جلباب البيت فكيف كان ذلك . . ؟

هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجه؟ فكيف لم يشعرا به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدل ثيابه؟ أم إنه كان فى البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ وكيف لا تعلم بوجود زوجها فى البيت؟ بل كيف لم يشعر به رب البيت مع أنه غادر المخدع فى خطى مطمئنة غير محاذر؟ . . رباه . . ! لقد نجا من شر فادح . . وداخله إحساس الذى يستيقظ بغتة فيجد أنه قد اجتاز سورا شاهق العلو فى نومه . . وتخايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متعظا بالهاوية التى أوشك أن يتردى فيها. ولكنه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعانى آلام قلبه وجموح عواطفه.

ولكن المرأة لم تمهله حتى يتناسى ويتعزى، فعادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينيها فى عتاب وكدر . . وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجى وسألته بحدة: «لماذا لا تأتى؟» فقص عليها همسا ما رأته عيناه آخر مرة، ونظر فى وجهها ليمتحن أثر كلامه، فهاله ألا يرى الانزعاج الذى كان يتوقع. وسمعها تقول بلهجتها الغاضبة: «كذبتك عيناك . . ». فأكد لها أن ما رآه حق بغير ريب، فاستهانت بتأكيده وقالت له: إنها ستنتظره وترى ما هو فاعل . . فأبدى لها مخاوفه . . فقالت وقد نفد صبرها: «أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة . . تعال ولا تخف» فوعدها بالعودة لكى يتخلص من إلحاحها، ثم انطلق على نية ألا يعاود ذلك البيت إلى الأبد . .

ولبث على ذلك أسبوعا كاملا. وفى مساء يوم الجمعة، وكان فى الشقة ـ التى كان يشاركه فيها بعض الأقران ـ بمفرده، سمع طرقا على الباب، فمضى إليه وفتحه، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكئا على عصاه ذات المقبض العاجى. فسرت فى جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزالا عنيفا، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع: إن المرأة ربما وشت به كذبا عند زوجها لتكيد له، وإنه جاء للتأديب والانتقام . . فاستولى عليه اليأس والقنوط وصعد فى وجه الرجل نظرة ارتياع ليقرأ ما تدل عليه أمارات وجهه وما ينذر به حضوره، فرآه هادئا مبتسما كأنه جاء لسلام لا لقتال. ومد يده بالسلام، فمد الشاب يده، ولما يفق من دهشته . . ثم تنحى عن الباب وهو يقول مزدردا ريقه: تفضل بالدخول يا سيدى . . فدخل البك وهو يتحدث قائلا: إنه لا داعى للجلوس لأنه على عجل، وأنه جاء ليسأل عن صحته وعما اعتاقه عن متابعة دروسه . . واعتذر أنيس بأن موعد امتحانه اقترب وأنه فى حاجة إلى كل دقيقة من وقته . . ولكن البك لم يقتنع بحجته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقة ألا يحرم توتو من دروسه. فعاود الشاب الاعتذار، وكرّ الرجل إلى الإلحاح، ثم أدنى رأسه من أنيس وقال له: لا بد من حضورك، فهذا ضرورى

جدًّا لتوتو . . تعال حينما تشاء وكيفما تشاء . . لا بد من حضورك ، فهذا ضرورى جدًّا . . وكان لا يحوّل بصره عن الشاب ، فوجد فى نظرته ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته . . أما الشيخ ، فصمت لحظة مترددا ، ثم استدرك قائلا : هذا ضرورى لتوتو ولسعادتى ولسعادة الأسرة . . . بل لسعادتنا جميعا . . فأصغ إلىَّ ، لا بد من حضورك . . » .

واحتقن وجهه بالدم ، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم بالبكاء ، ثم تحول عنه . . ومضى دون أن ينتظر موافقة الشاب ، ولبث فى مكانه متفكرا مذهولا تتجاذبه شتى العواطف . .

وكان الأسبوع الذى أعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عنيفة أخذت بتلابيب أنيس فتقاذفته الغرائز والشهوات ، وتجاذبته نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة ، وكان ذا عزيمة وسريرة طاهرة وقلب نقى ، فآثر السلامة . فلما استدار الأسبوع أحس قواه تتماسك وتشتد ، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بيت رضوان بك السيئ الحظ وزوجته الحسناء القلقة الغضوب ، ويودع ذاك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسية . .

. . وانتصف مايو ، فقصد أنيس يوما إلى الكلية ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان ، ولما بلغت قدماه باب مقهى المثلث شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب ، فرفع رأسه إليه ، فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيارة تنتظر عن كثب ، فارتبك ورفع يده بالتحية ، وابتسم البك ثم سأله عن حاله ، وتحدث معه قليلا دون أن يعرج إلى الذكريات القديمة . وحين همّ بمفارقته غيّر لهجته وقال بصوت دل على الضراعة والمضض :

ـ أيها الشاب . . إياك والسخرية من الناس أو الهزء بالبؤساء ، فأنت تجهل الدور الذى تعده لك الأقدار غدا . واذكر أن أغرب تصرفات الإنسان لا تعوزها أسباب تبررها : فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر ـ كتب الله لك حظا سعيدا . .

ورفع يده بالسلام وسار فى طريقه منتصب القامة يدل مظهره على أنه رجل عسكرى بغير جدال .

حلم ساعة

من عجيب الأمور أننا قد نحيا حياة سعيدة نخالها طويلة فى حلم قصير الأجل ، وما تعتم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدرة إلى دنيا

حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلا على هواء. على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته. كان يوما أو بضع يوم ولكن قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة وحلق فى آفاق بعيدة من أحلام المنى وخفق خفقة فرح سماوى جاوز به عالم الزمان والمكان، ثم أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد على نحو بالغ فى القسوة والوحشة.. كيف كان ذلك؟

كان اليوم السعيد الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علما عائدا من سماع محاضرة علمية فى الجمعية الجغرافية الملكية عن الغدد الصماء، وكان يسير فى ميدان الإسماعيلية متفكرا فى تلك الأدوات الإنسانية العجيبة، المسيطرة على الفرد أيما سيطرة، وكيف يزعم العلماء أنهم بالتحكم فى إفرازاتها يستطيعون أن يحولوا الطيب إلى شرير والشرير إلى طيب. والشاعر إلى رياضى والرياضى إلى شاعر. وكيف يفسرون أخيلة جيته وأحلام شيلى بعصاراتها المتدفقة فى الدم!.. وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار فهى مادة عمله ومادة حياته معا، وفى الواقع يندر أن نجد بين شباب المعيدين بكلية العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين فى حبه العلم وحرصه على تحصيله.

وكأنما أرهقه القعود والسكون - فى أثناء إلقاء المحاضرة - فأحس بارتياح إلى المشى، واعتزم السير على الأقدام إلى شارع فؤاد الأول، واتجه إلى شارع قصر النيل فى خطى وئيدة يدخن لفافة من التبغ ويجتر أفكاره وتأملاته فى لذة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيما يشبه العدو، فتوقف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل وتوقفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرآها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار، ثم مضت فى سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة، وكأنها تحاول تذكره ولا تدرى كيف. ثم أدركت بأن نظرها إليه هكذا من الغرابة فأدارت رأسها عنه وما روت غلة، وقصدت إلى سيارة تنتظر إلى جانب الإفريز، فأدرك من وهلة أن صورته اشتبهت عليها، وعلت لذلك فمه ابتسامة. وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظره إلى السيارة - وكان جاوزها بأمتار - فرآها تتابعه بنظرة تعلو وجهها آى الحيرة والغرابة، فغمرته موجة انفعال مضطرب لذيذ، وتعثر بأذيال الارتباك والحيرة، ثم تحركت السيارة مندفعة فى الاتجاه الذى يسير فيه ولا تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحير بماذا يصفها.. ودية؟.. حنونة؟.. حتى باعدت بينهما المسافة..

وعجب الأستاذ أيما عجب، على أن عجبه كان شيئا يسيرا إلى ما أحس به ساعتئذ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابة حسناء مدمجة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسمات، يزين وجهها عينان زرقاوان لنظرتهما وقع السحر فى الحواس والقلب والأعصاب. فانبعث فى قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة. ثم لسعته حسرة

أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان. وكانت حياته فى الواقع خالية من الحب مثل كهف رطب لا تزوره الشمس لأن تفانيه فى طلب العلم لم يدع له وقتا لشىء سواه، ولعيبين طبيعيين كبرا فى وهمه واشتدا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنه «ثقيل الدم»، وكان إلى هذا عيبا حصورا لا يكاد يبين، فلم يكن فى وسعه قط أن يحسن خطاب فتاة فضلا عن أن يغازلها، ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منهن، وحز لذلك الألم فى نفسه، وسكب فى قلبه امتعاضا ومرارة، فتبدى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهدا طويلا بائسا بين الرغبة فى الحب والخوف من المرأة، والتشوق إلى النساء والحقد عليهن، فكانت تلك النظرة الحلوة أول نسمة تهب عليه من دنيا الوجدان فترتوى بها نفسه الظمآنة ويندى بها قلبه الجاف، ولكنه ارتواء كالظمأ وندى أشد حرقة من الجفاف، فتحير وتعجب وتساءل وهو يقلب كفيه: ترى ما خطب هذه الفتاة؟ . . وما معنى هذه النظرة الفاتنة التى أذابت الوجد والهيام والحنو المتجمد فى قرارة نفسه؟ . . إنه لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنه رآها من قبل، وهى بغير ريب لا تعرفه أيضا، فلا هى قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلية العلوم. لعله التبس عليها شبهه، ولكن كيف طال بها الشك تلك المدة السعيدة التى أدامت فيها النظر إليه؟! . . ومضى يتفكر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعا.

وكان فى عزمه أول الأمر أن يعود إلى بيته، فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع قبل النوم، ولكن عافت نفسه ذلك. ومضى يضرب فى الأرض على غير هدى تاركا محرك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدرة حتى أعياه التعب وتعناه المشى، وكان سرى عنه بعض الشىء وأخذ يفيق من أثر النظر فاتجه إلى قهوة روجينا. وجالس بعض صحبه حتى شارفت الساعة التاسعة، ثم خطر له أن يقضى سهرة المساء فى سينما رويال ـ وكان قليلا ما يجذبه مزاجه إلى ذلك ـ فسار بلا تردد إلى السينما وقطع التذكرة، وكان يكره الانتظار جالسا فدلف إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية وقلب فيها عينيه، ثم أدارها ظهره ملالا وأرسل بناظريه إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين، فرأى سيارة فخمة تقف أمام مدخل السينما، وفتح بابها ونزلت منها سيدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه فى صدره، وأحس بفرح عجيب تمازجه دهشة فلم تتحول عنها عيناه، وفاته فى ذهوله أن يرى ضابط بوليس شابا يبرز من الباب الثانى للسيارة ويدور بسرعة ويلحق بالسيدة والفتاة، وانعطف رأس الفتاة إليه، وكانت فتاته دون سواها كأنما جذبتهما قوة بصره المشوق، والتقت عيناهما، ولاح على محياها الجميل الاهتمام والدهشة، ورقت نظرتها بالحنان الذى حيره وفتنه منذ حين، فتبعهم فى خطى مضطربة ملبيا نداء قوة عاتية، وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثانى، فوقف فى الردهة يتابعها بعينيه، ورآها قبل أن يغيبها عن

ناظريه منعطف السلم تلقى عليه نظرة أخرى . . يا لها من نظرة! . . فاستخفه طرب جنونى عذب لا يتأتى لغير الموسيقى وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوى على شيء، فلما اطمأن به مقعده مضى يصعد نظره فى الألواج والبناوير باحثا عن الوجه الحبيب ذى النظرة الفاتنة الحنون، حتى وجد ضالته فى البنوار رقم ٣، وكانت تتقدم السيدة بقامتها الهيفاء، والتقت نظرتها بوجهه هذه المرة أيضا، وكأنها تتوقع أن تجده مجدا فى العثور عليها فارتسمت على شفتيها القرمزيتين شبه ابتسامة أضاء لها وجهها بنور بهى، وجلست وهى ترنو إليه بعينيها فبدت وهى تنحنى قليلا وكأنها تحنو عليه، وأنقذه من سعادته التى لا تحتمل انطفاء الأنوار وانهماك الشاشة عن عرض أخبار الدنيا!

كان قلقا مجنونا إلى غير حد، فرحا سعيدا بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدرى ما كنهها إلى القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندت أهدابه بدمعة أحس بتفجرها من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقا بتلقى قلبه لأول مرة أمواج الحب الكهربائية الغامضة غموض الأثير، وأغمض عينيه فى الظلام وهو يتنهد فى ارتياح وغبطة مستسلما للذة الأحلام. وتساءل فى استسلامه السعيد: ترى ما الذى ساقه هذا المساء إلى السينما ولم يكن أعد نفسه لذاك؟! . . إن كل شيء يبدو وكأنه يؤكد أن القدر يرسم خطة رائعة بدأها فى شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها فى سينما رويال، نعم إنه لم يرها عبثا، ولم تلتق عيناهما مصادفة، كلا ولم يأت إلى السينما اتفاقا، ولكن الحب يخلق الحوادث والظروف، وإلا فما معنى هذه الحلقة المتقنة؟ وما معنى هذه النظرة الحنونة العذبة الذى دل تكرارها على أنها مغرضة. أليس هذا الذى يسمونه الحب من أول نظرة؟! . . بلى هو هو . . ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفاتنة النافذة التى لن ينمحى أثرها من نفسه. كيف حدث هذا؟ . . هل كان القدر فى قسوته عليه وازوراره عنه يدخر له هذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدرى؟! . . وهل وجدت أخيرا من لا تستثقل دمه كما يستثقله كثير من الناس؟! . . ومن تتعرف نفسه بالنظرة الملهمة لا بتغرير الألفاظ وسحر البيان؟ . . كم سخط على الدنيا ظلما! وكم أدان القدر جهلا! . . والساعة ينتهى الجفاء وتتبدد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب حلقه اليابس، وفكر الأستاذ بهاء الدين إلى هذا فى أمور غاية فى الأهمية والجد. تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرف والخطبة، ولا فاته ـ فى تلك الساعة ـ أن يقدر المهر ويحدد تاريخا للزواج السعيد؟!

ولم يحس بالوقت كالسعداء. وجعل يتأمل بعين مخيلته الوجه النضير والنظرة المضلة للقلوب، مستسلما للأحلام استسلام الحران إلى برد النسيم، حتى ظن أن أشهى الأمانى دان لا يكلفه جهدا إلا أن يمد يده فيقطفها فى يسر واطمئنان.

وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنه

يصحو من نوم سعيد، وصعد رأسه إلى البنوار رقم ٣ فرأى فتاة فى أجمل صورة ترشقه بنظراتها الفاتنة كأنما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، ورآها تميل برأسها نحو السيدة البدينة ـ التى تدل الظواهر على أنها أمها ـ وتهمس فى أذنها، ثم شاهد السيدة تنظر إلى أسفل باحثة بعينيها عن ضالة حتى استقرتا عليه! . . فارتبك وتعجب وتساءل: ترى لماذا تدل أمها عليه؟! . . على أن عجبه ازداد إلى غير حد لأنه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحادث شخصا لا يرى سوى أعلى طربوشه. ومال هذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس.

فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام، ولكنه تذكر هذا الضابط وذكر أنه كان من زملاء فرقته فى الخديوية وأنه يدعى على سالم وأنه كان مبرزا فى الألعاب الرياضية. وظن أنه أخو الفتاة ولكنه تحير فى فهم الدواعى التى بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكل جسارة وفيما عسى أن حدثتهما به عنه! . . وغلبه الشوق وحب الاستطلاع فرفع بصره إلى البنوار مرة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدقة فيه. وخيل إليه أن زميله القديم يحييه فلم يصدق بصره وظل جامدا لا يتحرك، فأعاد الضابط تحيته برفع يده إلى رأسه ورد عليه الأستاذ التحية مرتبكا، وشاهده يدعوه أن يصعد إليه فخفق قلبه خفقة عنيفة، وقام واقفا وقد لفته الدهشة والارتباك وغادر المكان فى ذهول شديد. وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل البنوار واستقبله هذا استقبالا وديا وشد على يده بحرارة ـ ولعله فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك ـ ثم أوسع له وهو يقول هامسا:

ـ تعال أقدمك إلى أهلى.

ووجد نفسه فى البنوار أمام السيدة والفتاة الجميلة، وقال وهو يقدمهما له وهو يشير بيده:

ـ حرم الأميرالاى محمد بك جبر، الآنسة زينب كريمتها وخطيبتى!

ثم التفت إليه وقدمه لهما مكتفيا بذكر اسمه وزمالته القديمة لأنه كان يجهل حاضره. ودوت كلمة «خطيبتى» فى أذنيه دويا مزعجا أطفأ نشوة الفرح فى حواسه جميعا وسكب مكانها خيبة مرة، فجلس كما طلب إليه ذاهلا مرتبكا قانطا عاجزا العجز كله عن حصر انتباهه فيما حوله، وكانت السيدة ترحب به وتشارك الضابط فى التودد إليه ومجاملته، ولكنه لم يدر مما قالا شيئا، واكتفى قهرا بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفتيه يرد بها عليهما ردا صامتا كئيبا، وكان يتخبط فى حيرة عمياء لا يدرى لماذا دلت الفتاة عليه، ولا كيف دعاه زميله، ولا لأى سبب عرفه بهما وعرفهما به. . ولاحت منه نظرة إلى الفتاة فوجدها تبسم إليه ابتسامة حزينة فشعر بامتعاض. ووجه عينيه إلى أمها كأنما يفر منها

فرارا فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورقتين بالدموع، فازدادت دهشته وبدا عليه الانزعاج والتفت إلى صاحبه متسائلا متحيرا، ودق الجرس فى تلك اللحظة منذرا بإطفاء الأنوار فقام الشاب واقفا وأحنى رأسه تحية، ودعته السيدة إلى زيارة البيت فوعدها قائلا:

ـ إن شاء الله.

وهو لا يعنى ما يقول. وغادر البنوار، ولحق به صاحبه وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج فقال له وهو يشد على يده مودعا:

ـ أنا آسف جدّا على ما أحدثته دعوتى لك من الارتباك والإزعاج. وحقيقة المسألة أنك تشبه شبها عجيبا ابنا شابا كان، فقدته الأسرة منذ عامين، ولعل هذا يفسر لك كل شىء أيها الصديق...

وهبط السلم فى خطى بطيئة جدّا، وكان يتوقف كل درجتين ويتأمل فيما أمامه بعينين لا تريان شيئا، وعلت شفتيه الشاحبتين ابتسامة هازئة مريرة، وقد بدا له كل شىء كريها كئيبا تعافه النفس..

الثمـــــن

أخذت زينتها وسارت على غير هدى، كيفما ساقتها قدماها. وغيرها من النساء لايتصدين للمرآة حتى يفرغن من المهام والواجبات، وغيرها من البشر لا يسير على غير هدى عادة إلا إذا ركن إلى اللهو والعبث واستقبل الراحة والفراغ.

هى بخلاف هؤلاء وأولئك، إذا توثبت للعمل وانبرت للواجب أخذت زينتها وسارت على غير هدى!.. وقريبا من الطوار الذى تسير عليه رأت بمؤخر عينها سيارة تدنو ثم تقف على بعد أذرع إلى الأمام، سيارة كبيرة بحجم الحجرة التى تنام فيها إذا رقدت بمفردها، وقد غادرها سائق زنجى مارد وفتح الباب ووقف جانبا كالتمثال، فبرزت حسناء هى الجمال وهى الجلال، فما يمنع من الاندفاع نحوها إلا أن نورها يغشى العيون، كلسان من لهب بهى المفاتن ساحر الألوان، ولكن هيهات أن يجرؤ إنسان على لمسه، فخطفت بصرها، وسرعان ما دبت اليقظة فى عينيها الساهمتين ولاحت فيهما نظرة تفحص واهتمام.

وفى لمح البصر أقرت لها قهرا بالتفوق المطلق وغلبها الإعجاب على أمرها، ثم تحفزت للنقد بغل فما عتمت أن باءت بمرارة الخيبة والسخط، وتهادت الحسناء إلى المحل

الذى وقفت تجاهه السيارة فخطر لها أن تتبعها، ولم تر فى ذلك من بأس، فسيان أن تمضى إلى الأمام أو أن تعرج إلى اليسار، فوجدت نفسها فى محل رائع أنيق تطالعها من جوانبه وأركانه زجاجات الروائح العطرية مختلفة ألوانها وأشكالها، فسارت على مهل فى جراءة وثبات. فمنذ أمد بعيد تناست أن فى الدنيا شيئا يخاف غير الشرطى، وتظاهرت بأنها تتفحص المعروضات النفيسة فى أقسام المحل، وتبعت فى الحقيقة الفاتنة الحسناء. سارت رأسا إلى صدارة المتجر الأنيق، وأقبل نحوها البائع بترحيب، فطلبت إليه حاجتها، وساعدها البض يشير إلى الرف البلورى رصت عليه الزجاجات الفاخرة، فأدركتها ووقفت إلى جانبها ومضت تقلب عينيها فى الرفوف اللألاءة، وأتى البائع بزجاجة زرقاء بديعة الصورة فتناولتها الحسناء ورنت إليه بعينين متسائلتين، فقال الرجل بأدب وإجلال: «عشرون جنيها يا هانم». فأومأت برأسها دلالة على الارتياح والموافقة، فاسترد الرجل الزجاجة، وكتب لها قائمة بثمنها وقدمها لها، فأخذتها ومضت بها إلى صندوق الدفع. وخفق قلب الأخرى بعنف لسماع الرقم، فكانت كمن يسمع اسما قديما رهيبا يثير فى النفس كوامن الشجن ويستدعى ذكرى قائمة موجعة الصدى..

رباه!.. أى دور لعبه فى حياتها هذا الرقم المشئوم الذى لا تعرف الحسناء عنه إلا أنه ثمن زجاجة رائحة عطرية فريدة!.. لو وجد يوما فى يدها لكان الحال غير الحال والحياة غير الحياة ولكفاها شرا فظيعا، وهو ليس بالطلب العزيز يشترى بالمهج، ألم تر كيف يبذل عن طيب خاطر ثمنا لرائحة زكية يتبخر معها من ثنايا المناديل ومفارق الشعور؟! ومع ذلك فآه لو وجدته قبل عشرة أعوام؟.. ولكنه لم يوجد وخاب مسعاها وردت راحتها الممدودة، سدت فى وجهها السبل وضيق عليها الخناق، فتجرعت غصص القنوط ثم هوت وقذف بها إلى دنيا أخرى منكرة. وهكذا الدنيا قاسية لا قلب لها، والناس لا يرحمون، والحياة أشد وحشية من البحر الهائج والنار المضرمة، فقد لا يعدم الإنسان إذا أشرف على الغرق أن يسبح وراءه السابحون، أو إذا اشتعلت النار فى أطرافه أن يهرع إليه ذوو النجدة، أما فى معترك الحياة فالضحايا لا عداد لهم، تعركهم الرحى وإخوانهم سكارى بأطماعهم ومشاغلهم. فلكم استصرخت بغير طائل، بل كانت ملهاة للنظارة، ثم بعد ذلك متعة للمتمتعين، والدنيا تضيق بمن ينشدون صيدهم بين الضحايا البائسة شردها الجوع والحرمان والأمراض. فوجدت نفسها فى دنيا الشذوذ والعناد حيث تقتتل الضحايا من كل نوع، ضحايا الطموح الكاذب والشهوات البهيمية والفقر المذل للأعناق، عالم البؤس حيث لا عودة لمن مضى إليه ولا إفاقة لمن نهل من سمه، قذارته لا تمحى فليس على القذر إلا المزيد من القذارة والتمرغ فى التراب. وكيف صارت بعد ذلك؟! وا رحمتا!.. فؤادا قاسيا وقلبا كافرا ولسانا دنسا ونفسا تنضح

بالخبث واللؤم والكراهية. على وجهها الطلاء وفى جسمها المرض وملء روحها الشر ومن مراتعها السجون . .

مرت صور الذكريات بمخيلتها مرا سريعا مضطربا. لم يستغرق زمنا يذكر، فاختلط فى وعيها أشتات من ذكريات متناثرة ومشاعر مهوشة أسبغت على خيالها لونا أسود، فشعرت بامتعاض وانكسار. وكانت عيناها لا تزالان عالقتين بالحسناء فاتجهت نحوها فى خطى متثاقلة غير ملقية بالا إلى البائع وقد وقف قبالتها ينتظر أوامرها! . . اندفعت نحوها برغبة قوية وجعلت تحدث نفسها كالهاذية «عشرون جنيها؟!» . . كم كان مقدارا جسيما . . وكم علمت فيما بعد أنه شىء زهيد فى متناول يدى، وها أنا ذا أراه ولا قيمة له. أما هى فامرأة حسناء . . ولكن لا يجوز أن توردها نفسها المهالك كما أوردتنى نفسى أنا وقطيع البائسات . . هذا جائز . . ولكن ما هو سم لأناس قد يكون غذاء لآخرين، وما يوجب علينا الشقاء قد يتيح ألوانا من اللذات والسعادة . . وأوشكت أن تلاصقها، وتحولت الحسناء إلى شباك التسليم فتأثرتها، وأعطاها الرجل الزجاجة ملفوفة، ورأت الأخرى اللفة فثارت ثائرتها وخطر لها أن ترمى بها إلى الأرض مهشمة.

جاءها الخاطر مباغتا بغير إصرار سابق ولا نية مبيتة، فسرعان ما تملكها بقوة شيطانية واستولى على عقلها وإرادتها، فكأنها ما تبعت المرأة إلا لتحققه مهما كلفها ذلك من ثمن. ولم تدر لذلك سببا واضحا ولا هدفت إلى غاية ظاهرة، ولكنها كانت كثيرا ما تأتى بأفعال صبيانية وأحيانا جنونية بغير مقاومة ولا فطنة لبواعثها، وكان الاستهتار من سجاياها الراسخة التى اكتسبتها فى أعوامها العشرة الأخيرة، فلم يكن شىء يوقفها عند حد أو يعطف بها عن شهوة، فاندفعت إلى جانب السيدة المتجهة نحو الباب كأنما تريد أن تسبقها إليه واحتكت بها وهى تلوح بذراعها فصدمت يد الأخرى فأفلتت اللفة الثمينة وسقطت على الأرض. ولم تلتفت الحسناء إليها ولكنها انحنت على عجل نحو الزجاجة، والأخرى تنظر إليها متسائلة هل نالت المرام؟! . .

وجاءها الجواب سريعا، أو جاء أنفها على الأصح، قبل أن تلمس أنامل الحسناء حملها النفيس، فتصاعد شذا طيب، جماله لا يوصف، عطر الجو، ونفذ إلى الحواس والروح، فانتشت ثملة، كأنه بث فيها غراما ووفاء وسحر هوى!

واعتدلت السيدة وقد تضرج وجهها بالاحمرار وصوبت نحو الأخرى نظرة ثاقبة، ولبثت هذه فى مكانها جامدة الملامح ولكنها راضية النفس مستسلمة كأنها تقول بأفصح لسان: «افعلوا بى ما شئتم»، وانتظرت السيدة أن ترتبك الأخرى أو تعتذر، ولكنها ثابرت على جمودها وصمتها ورنت إليها بعينين هادئتين مستسلمتين، ومرت لحظة دقيقة فتساءلت: ترى هل تساق إلى القسم؟ . . هل تشتبك فى شجار مع السيدة أو سائق

سيارتها أو باعة المتجر؟! . . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، فقد تغير وجه الحسناء، فانبسطت أساريرها، ثم أغرقت فى الضحك . . إن أفدح المواقف أدعاها للضحك، فقد أضحكها أن تخسر الزجاجة النفيسة فى غمضة عين، وأن ترى تلك المرأة البلهاء وقد أذهلتها جريمتها ورباطة جأشها، وكان صاحب المتجر يهرول نحوها يلوح فى وجهه الاهتمام. فهزت منكبيها استهانة وتحولت عن البلهاء وعادت القهقرى إلى صدارة المحل دون أن تنبس بكلمة. واندفعت المرأة نحو الباب كأنما تفر من المكان، ولما بلغت الطريق نظرت وراءها فرأت الأخرى بمكانها الذى أدركتها فيه حين تبعتها أول مرة، فتساءلت ذاهلة: «رباه هل تبتاع زجاجة أخرى؟!» ولكنها لم تقف بل أسلمت قيادها لقدميها، وكانت فريسة انفعال طاغ تولاها بغتة، فمضت مقطبة الجبين زائغة البصر، إلا أنها لم تدم على ذلك طويلا فما لبثت أن عادت إلى رشدها. خافت أن تبدو فى هيئة قبيحة تنفر الأعين، فطاردت همومها الطارئة، وألقت نظرة على ما حولها، ثم أخذت تسير الهوينى متثنية الأعطاف وقد ابتسمت أساريرها . . .

نكث الأمومة

عندما دخل قطار الصعيد يهدئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخى النوم، ثم اعتدلت فى جلستها فى الصالون وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين فى أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذى كان يغط فى نوم عميق، فلاحت فيهما نظرة حب وحنان، وكان من الضرورى إيقاظه لدنو القطار من محطة مصر إلا أنها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجا ممنون، فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة. وتنبه النائم على لمس أناملها ذات الأظافر الأهرامية الحمراء . . وكان أول ما مس إحساسه فى عالم اليقظة رائحة أنفاسها الذكية وهى تطبع على شفتيه قبلة شهية . . وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبى كأنها شمس تشرق من الأرض فرأت بناء المحطة يدنو من بُعد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهى تتنهد:

ـ واأسفاه انتهت سفرتنا!

فقال لها وهو يتمطى:

ـ هذه نهاية كل رحلة. أما الحب فلا نهاية له.

فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة :

ـ أين أسوان؟ أين؟ . . أين خلوة الصحراء تحتوينا معا؟ أين جدران المعابد تستر علينا؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفترق ونشهد معا وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء؟واها . .

فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتنهدتها الحارة وقال :

ـ سنعود إلى أسوان فى الشتاء القادم . أما الغد فإلى عش غرامنا المعهود فى شارع سليمان باشا .

ـ هيهات أن تعوضنا هذه الساعات التى ننتهبها انتهابا من ذلك الشهر السعيد الذى كنا فيه جسما واحدا وروحا واحدة .

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة الملولة فقنع بقوله :

ـ صدقت يا عزيزتى .

ثم قام إلى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوى فى جوفها العظيم ، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال . وكان مزدحما بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :

ـ ها هم أولاء . . زوجك وحياة ومدحت .

فقلقت عيناها بين الرءوس المشرئبة حتى اطمأنتا إلى رأس حياة الذهبى فرقّ قلبها حنانا وتحوّلت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ فى أثرها ، وعلى الإفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما» فتعانقوا عناقا حارا . ولما تخلصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو فى عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدى عن شعره الخفيف ، فجمدت عيناها وتقدمت إليه ومدت يدها فسلّم عليها واجما ووضع يده أيضا فى يد الأستاذ عاصم . . وساروا جميعا إلى الخارج ، الزوج فى المقدمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ . . . واستقلوا السيارة التى انطلقت بهم فى طريق الزمالك . .

وجلس الزوج وزوجه وحياة فى ناحية وجلس فى الناحية الأخرى المقابلة الأستاذ ومدحت ، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرة ، إذ إنها تقابله فى زياراته المتكررة لوالديها ، يا للعجب للشبه العظيم الذى بين الأم وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة فى الغصن ، وأما الأم فكالوردة الناضرة فى الزهرية . . .

وظلوا جميعا صامتين حتى قال الزوج :

ـ كيف كانت الرحلة؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت : «الحمد لله» . وقال الأستاذ :

ـ قل أن تغيب الشمس فى أسوان ، وهى أنجع دواء للهائم .

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال :

ـ يسرنى أن أسمع هذا ، وعسى أن تسرا بدوركما لأنبائنا ، فتهنئا حياة بخطوبتها القريبة .

واحمرّ وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ، ورددت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

ـ وهل تمت الخطوبة؟

فقال الرجل :

ـ لا يجوز أن تتم خطوبة فتاة فى غياب أمها . . . ولكنها ستتم قريبا بإذن الله . . .

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسما : «مبروك» . . . أما الأم فسألت :

ـ من هو ؟

وأجابها الرجل :

ـ طلعت ، ابن شريكى .

وسأل المحامى :

ـ هل هو موظف؟

فقال الرجل بزهو :

ـ نعم وكيل نيابة!

وأطبقت روحية هانم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى ، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة إلى الفيللا ودخلوا جميعا ومعهم الأستاذ عاصم .

ولكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب .

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاى المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات ؛ وكان فى أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين فى حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ؛ وعلى الرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات ، وعلى الرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح ، فإنه لايزال يعد زواجه أخطر حادث فى حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به ؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عاما ـ وهو فى الخامسة والأربعين ـ إذ كان بإحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه وتعرف إلى والديها ،

وكان الأب سوريا والأم أمريكية . ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع فى حبها وجنّ جنونا وتحركت فى أعماقه غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها ، ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه بها . وعاد إلى مصر «بأعظم ربح وأجمل امرأة فى الوجود» كما قال لنفسه حينذاك .

وبدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به . وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشّر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة . . . ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفى من الحب بتذكر أحلامه المنطوية . . وأما المرأة فألفت نفسها فى مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب ، فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام ، إذ كان شبابها عنيدا جبارا دائب الثورة على الزمن . . فتصدع ائتلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكمشت أمام سيلها العارم ، وخلت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم .

واتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامى ـ صديق الزوج وجاره ـ السبب المباشر فى انفجار هذه الثورة الحيوية العنيفة . وقد تحيرت «صالونات» الزمالك فى تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة إن هذا المحامى الجميل ليس إلا صديقا للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة أنه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو ـ على الأقل ـ تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التى قيل فى تعليلها إن الأطباء نصحوا للهانم بانتجاع الصحة فى مصر العليا ، وإن الزوج ـ الذى تمنعه أعماله فى مثل هذا الوقت من السفر ـ عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامى الذى يسافر عادة فى يناير كل عام إلى أسوان . . هنالك قطع الشك باليقين وارتفعت الآراء . .

وكانت روحية هانم لا تهتم بشىء اهتمامها بشبابها ، فكانت لا تنى عن العناية به والتفكر فيه حتى غدا ذلك وسواسا ومرضا ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوما تزايدت مخاوفها ، ذلك أنها كانت تحس فى أعماقها ببلوغ قمة الشباب التى لايعقبها إلا الانحدار ، وكانت تعلم أن شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذى تحبه والذى تعلم ـ مع الألم الشديد ـ أنها تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام . .

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة ـ تعلن لها الود وتكتم العداوة ـ فى مجلس لأخرى وهى تعنيها بالذات من أن النساء اللاتى يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج . . . واها . . . كم سخرت من رأى هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد الذى تحمله لها . ولكن لا سخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفادا شيئا فى مغالبة الذعر

الذى استولى عليها والرجفة التى استحوذت على أعصابها . . فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعا وإشفاقا كلما طرقت أذنيها دقات الساعة .

وجعلها ذلك فى حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التى تخفق فى صدرها ولكنهما آيتان على كذب شبابها . أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهى تخطو إلى النضوج بخطى سريعة تدل عليها معانى العينين ونهوض الثديين ، وأما مدحت فتعذيبه لها أشد إذ إن هذا الشاب ـ الذى لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نموا خطيرا ، فهو فارع الطول ، جاهر الفتوة ، عريض المنكبين والأدهى من هذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه للشباب واستزادتها منه . . وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : «ما أحرى الذى يراكما بأن يقول ما أسعدهما زوجين!» . ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثنى على شبابها أو تغمزه ، وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبدا . .

على أنه لاح فى أفقها الآن ما يستخف بجميع همومها السابقة . إذ ما مدحت؟ وما شاربه؟ إلى زواج حياة المنتظر؟!

لقد بغتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبير ولا التفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هما بالسيارة . . فلما ذهبوا إلى الفيللا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر ، وفى عزلتها عاودت التفكير فى هدوء وإمعان ، فتوالت عليها الفروض والتصورات . فهى لا تشك فى أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحا وسرورا ، وأى فتاة لا تفرح للزواج؟ وخاصة إذا كان الشاب فى عنفوان شبابه ، وجيها فى بحبوحة من الغنى والجاه ، سيدا فى وظيفة تتيه على جميع الوظائف ، فلعلها باتت تغرد فى قلبها أطيار الحب وتحلق فى جوها الطاهر أحلامه العذبة ، فهى جد سعيدة بحاضرها ، جد آملة فى مستقبلها ، ولا شك فى أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدها الوردى قبلة التهنئة فتعلن رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكمل السعادة .

ولكنها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسى أما فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : «جدتى ، جدتى!» . لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوت فى أذنيها دوى التصويت والنواح فارتج لها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق . . وأحست ببرودة الخوف تسرى فى أعصابها سريان الجفاف فى الغصن الرطيب . . وخَيّل إليها الوهم أنها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام كأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : «يا جدتى» ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورقّ خدها وابيضّ شعرها فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها

بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة، حتى إذا عاودها اطمئنانها صاحت: «أبدا . . أبدا . . لن يكون هذا». ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها فى نفس ابنتها العزيزة، حتى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث، ولما لم يدع له إصرارها أملا قال:

ـ أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك.

وأغضبها قوله. وظننت أنه يتهكم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر فى نفسها أنه هو الذى سعى إلى هذه الخطوبة وأنه سعى إليها تأديبا لها وانتقاما منها، فهو أعرف الناس بها وأعرفهم على وجه الخصوص ـ بما يسرها وما يسوءها، واشتد بها ـ عند ذاك ـ الغضب، فعضت على شفتها السفلى، وأهملت الرد عليه، فقال كالداهش:

ـ ما لك؟ لست كعادتك . . والأعجب من هذا أنك لم تفرحى لما بشرتك به؟

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة:

ـ لن تتم هذه الخطوبة . .

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال:

ـ ما تقولين يا هانم؟!

وأجابته بصوت صارم:

ـ أقول إنه لن تتم هذه الخطوبة . .

ـ كيف؟ . . ولمه؟ . .

ـ إن «حياة» ما زالت صغيرة السن.

ـ ولكنها بلغت سن الزواج القانونية.

ـ ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكر يؤذى صحتها؟

ـ لقد تزوجت يا هانم فى مثل سنها، ومع هذا فإن كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة . . .

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة مغيظة:

ـ أنا دائما أشكو من أعصابى . . .

فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال فى تهكم:

ـ ربما كان ذلك لعلة غير الزواج . .

فغلبها الغضب واشتد بها الانفعال وقالت بصوت متهدج:

ـ باختصار، لن تتم هذه الخطوبة . . .

ولكن الزوج صرّ على أسنانه الصناعية وقال :

ـ لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منذ عامين : «أنت وشأنك!» . . ولكنى لم أتنازل عن حقوقى كوالد ولا أفكر فى التنازل عنها، وإنى لأشفق من أن تضيع على ابنتى مثل هذه الفرصة الذهبية، ولذا فإنى أعلمك ـ وإنى أعنى ما أقول ـ بأنى سأعقد هذه الخطوبة . . .

فقامت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت :

ـ وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم . . .

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول :

ـ سنرى .

وصبرت الهانم حتى عاودها شيء من هدوئها ثم دعت إليها ابنتها، وحدثتها حديثا طويلا عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها وإشفاقها مما يضرها، ثم خلصت إلى ما دعتها ـ فى الحقيقة ـ من أجله، فأعلنتها بأنها لا توافق على زواجها وأنها ترغب فى تأجيله بضع سنين خوفا على صحتها، ورجتها رجاء حارا أن ترفض يد ذلك الشاب ولا تذعن لإرادة والدها . . .

وصمتت الفتاة صمتا بليغا، ولاذت به من الرفض أو القبول، وعبثا حاولت المرأة أن تخرجها من صمتها ولكنها فهمت منه، ومما طالعت فى وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط . . .

ولبثت الفتاة فى حضرتها ما لبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها من غير التحيتين . . . تحية اللقاء التى نطقت بها فى مسرة وفرح، وتحية الوداع التى قالتها فى صوت خافت بارد . .

وجن جنون الأم وازدادت تشبثا وعنادا، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدى . . فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد . واضطر البك إلى انتحال الأعذار الكاذبة لها، وبذل الرجل ما فى وسعه لإقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل إليها باسم ابنتها، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغى إليه حتى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الإفضاء بالحقيقة إلى شريكه ـ والد الخطيب ـ وشكا إليه قسوة امرأته التى تضحى بسعادة ابنتها فى سبيل شبابها الكاذب . . وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج ـ رغم إرادة الأم ـ إنقاذا للفتاة من أنانية أمها المتوحشة . .

وذاعت هذه الكلمة التى قيلت سرا فى جميع الأوساط الراقية . وتحدثت بها «الصالونات» حتى بلغت أذنى الأستاذ عاصم المحامى الذى بلغها بدوره إلى روحية هانم

نفسها . ولكن لم يكن هذا ـ ولا ما أصبح بيديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور ـ إلا ليزيدها عنادا وإصرارا . . . ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلا فى عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج ، وكانت ترى فى نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها ، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت ـ فى قنوطها ـ إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبدا ، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب . فقصدت يوما إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها :

ـ وما أنا ولهذا؟ . . . ثم إننى لم تسبق لى معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدرى والحالة هذه كيف يجوز لى أن أحادثها فيما هو من صميم حياتها الخاصة؟

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت :

ـ حقيقة إنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ، ولكنها تعلم أنك صديق والديها ، وقد سمعت فى بعض المجالس ثناء كثيرا على نبوغك فى المحاماة ، فهى ـ لا شك ـ تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية .

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذى سعد برؤيته ساعة فى السيارة صباح العودة من أسوان ، فلم يستطع أن يرفض ، ولكنه قال متسائلا :

ـ فكيف لى بمقابلتها على انفراد لأحادثها فى هذا الشأن الخطير؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به؟

فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

ـ لقد دبرت كل شىء ، سأصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا ـ مصادفة طبعا ـ فى شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلا على جسر قصر النيل فأتركها معك وأعدك بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظرانى ساعة على الأكثر فإن لم أعد تأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانى ، وفى أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامى وتفضى إليها برأيك فى الزواج المبكر . . ما رأيك الآن؟

وقبل الشاب بسرور خفى ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيللا على عجل وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلما وكتبت ما يلى بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

«سيدى الأستاذ . .

أنت شارع فى الزواج بكريمة محمد بك طلبة ، ولكن ينبغى قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل يوم إلى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساء وخصوصا أيام الآحاد» .

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادما وأمرته بوضع الخطاب فى صندوق البريد. .

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ، وتم لها ما أرادت من تركها معه، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة:

ـ أوه. . لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما تريان. لا بأس، أظن أنه ينبغى أن نذهب الآن، نستودعك الله يا أستاذ. .

وفى الطريق لازمت المرأة الصمت، وقد انتظرت طويلا أن تفاتحها الفتاة بالكلام، ولكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التى تتكلمها أمها. واختلست المرأة منها نظرة فألفتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت ـ آسفة حزينة ـ كيف كانت فى حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الكلام:

ـ كيف كان التنزه. . ؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة:

ـ تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الإعادة.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ هو جنتلمان.

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذى تركه حديث الأستاذ فى نفسها، ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئا. .

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت: (إن «حياة» لا تحاول إخفاء نفورها منى».

نفورها؟! وما النفور إلى جانب ما صنعت هى؟ أى فعلة شنعاء! أى منكر! إنها تعرف نفسها أكثر مما يعرف الناس، وهى تعلم أنها سيئة التصرف، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء، ولكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكرا كهذا الخطأ، وما لها تسميه خطأ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيقى فتقول: إثم وجريمة؟ فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها فى سبيل شهواتها هى، يا للفظاعة! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سرا مكتوما، ولكنه لن يبقى كذلك لأنها فى الحقيقة وإن كانت فكرت تفكير شيطان إلا أنها دبرت تدبير أطفال؛ فالرسالة التى كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها؟ ومن يضمن لها ألا يسأل

الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ ! وإذا صارحت الفتاة أباها بأنها هى ـ أى أمها ـ التى تركتها مع المحامى ذلك اليوم، فما عسى أن يحدس الرجل؟

أواه! قد لا تكترث لغضب زوجها، ولكنها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد، بل ابنها وابنتها معا لأنه لا مدحت ولا أى ابن فى الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة المتوحشة. وأحست عند ذاك بقشعريرة تسرى فى جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف . .

ولأول مرة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة حياة اتجه تفكيرها نحو الخير، فودت لو تستطيع أن تكفر عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية، وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج، فسألتها برقة :

ـ إلى أين؟

وأجابت الفتاة قائلة :

ـ إلى السينما .

فسألتها بتعجب :

ـ بمفردك؟

فأجابتها ببرود قائلة :

ـ مع الأستاذ عاصم!

وأصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد، وقالت دهشة :

ـ ولكنك لم تستأذنى أحدا؟

فقالت الفتاة بشىء من الجفاء :

ـ استأذنت بابا وأذن لى .

ـ وهل طلب الأستاذ إليك أن تذهبى معه إلى السينما؟

ـ نعم .

ـ متى؟ . . وأين؟

ـ على جسر قصر النيل ذلك اليوم . .

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئا . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت .

وتيقظت غريزتها مرة أخرى، فطغت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل، وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع، فذهبت توّا إلى زوجها وقالت له غاضبة :

ـ لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية :

ـ ولم لا؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها؟!

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية :

ـ إنى أعجب من تصرفك هذا، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها برجل آخر؟

فهز الرجل كتفيه وقال :

ـ فسخ الرجل الآخر خطوبته .

فخفق قلبها واصفرّ وجهها وتساءلت : ترى هل علم شيئا عن الرسالة؟

واستطرد الرجل قائلا :

ـ عليك تقع تبعة ذلك يا هانم، فرفضك ـ وما ذاع عنه ـ زهد الشاب فى الفتاة .

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب؟ ليت ذلك يكون!!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها :

ـ وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر، فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسى : لا على من هذا فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه .

عند ذلك لم تستطع صبرا . فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل . .

وتذكرت المثل القائل : «على الباغى تدور الدوائر» . فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هى ذى توشك أن تفقد ـ بمسعاها هى دون غيرها ـ الرجل وحبه .

يا له من ألم ساخر! ليتها أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن .

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة . وعند الصباح حدثت المحامى بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائما :

ـ مساء اليوم فى عشنا . . هه .

فأجابها بغير ما تعودت أن يجيبها به قال :

ـ آسف جدّا يا عزيزتى . . أنا مشغول جدّا هذه الأيام .

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها، ولم يفتها مغزى قوله «هذه الأيام»، ولكنها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة :

ـ ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما؟

ماذا يستطيع أن يقول؟ قال إنه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت، أما الآن فلا!

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول. ولم يكلف نفسه؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر.. وقد غدت عنده شيئا رخيصا أو لا شيء مطلقا. أواه! أهكذا تتقلب القلوب؟ أهكذا ينسى الإنسان؟ أمن الممكن أن يضحى حب كحبهما ذكرى وحلما فى لحظة سريعة؟ ألا من تدرج؟ ألا من رحمة؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم، وشاهدتهما معًا متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأيام يوما بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة؛ لأنه كان خبيرا بأخلاق روحية هانم، عليما بطباعها وعنادها وغرامها به، فرسم فى عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يثنيه عنها شيء: ولبثت روحية هانم فى حيرة من أمرها تعانى أشد الآلام النفسية والقلبية، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحديها لعواطفها وبتمزق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة، حتى كان مساء لا يُنسى إذ دخل عليها زوجها يهز خطابا فى يده ثم يرميه فى حجرها وهو يقول فى لهجة الغاضب :

ـ اقرئى وانظرى.. أى جرأة؟!..

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير. وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

سيدى المبجل :

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب إلى بورسعيد حيث نبحر إلى أوروبا أنا وعروسى ـ كريمتكم ـ لقضاء شهر العسل، وإنى أقر آسفا بأنه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب، ولكن الظروف الدقيقة التى لا تجهلونها لم تدع لى فرصة للاختيار، وإنى كبير الأمل أن تقدروا سلوكى تقديرا عادلا، ولست أقل أملا فى نيل عفوكم القريب.

ودمتم للمخلص

عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئا ولا تعى شيئا والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام، ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت وجوده نسيا تاما. وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفية، فلما وجدها تتهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب.

ولبثت فى غيبوبة حينا طويلا، ثم رفعت رأسها المثقل فوقع بصرها على صورتها فى المرآة فارتاعت وجفلت، لأنه خيل إليها أنها ترى جمالها يذوى وينضب وتغشاها سيما الهرم . .

حيـــــاة للغـــــير

ساعة الأصيل هى الساعة المختارة التى يهبط فيها عبد الرحمن أفندى إلى حديقة البيت الصغير، وهى عادته التى يلازمها أو التى تلازمه أغلب شهور السنة، لأنه من القلة النادرة التى لا ترتاح إلى ترك البيت إلا لعمل أو ضرورة. وقد نزل إلى الحديقة ذلك اليوم من أيام سبتمبر المعتدلة، وألقى عليها النظرة المعهودة، وتمشى بين طرقاتها الملتوية يسرح بصره بين شجرات الورد وأصص الزهور، ثم جلس على أريكة على كثب من السور المقام من الأسلاك الشائكة الذى يفصل بين حديقة بيته وحديقة البيت المجاور، وبسط جريدة من جرائد المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع.

وكان فى مشيته كما كان فى جلسته آية للرزانة، فمن كان يراه لا يشك لحظة فى أنه رب بيت وعاهل أسرة، فحركاته وإيماءاته تقرن دائما بالهدوء والاتزان، ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة والمسئولية، ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلان على أنه ابن أربعين وإن كان فى الحقيقة لم يجاوز الخامسة والثلاثين إلا بشهور قلائل. وكان مستغرقا فى مطالعته حين استيقظ فجأة على صوت رقيق يهتف به قائلا:

ـ سعيدة يا عمى . .

فأزاح الجريدة عن وجهه ونظر إلى حديقة البيت المجاور نظرة التمع فيها الابتهاج، فرأى وجها مشرقا يرنو بعينين سوداوين صافيتين يطالعانه بالبراءة، فأحس إحساس الحران هب عليه نسيم بارد معطر بالياسمين، ورد تحيتها قائلا:

ـ أهلا بالآنسة سمارا.

فابتسمت إليه ووقفت تلاعب كلبها الأبيض الصغير. كانت فى السادسة عشرة. يتجاذب وجهها الصبوح وقدها المشوق براءة الصبا وأنوثة الشباب.

وأشار إلى كلبها وسألها:

ـ كيف هو اليوم؟

ـ تم شفاؤه . . الحمد لله . .

فضحك قائلا:

ـ لعل هواء الإسكندرية لم يوافق مزاجه؟!

ـ على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا لا تسعه من الفرح . .

فنظر إلى وجهها الذى كسا الشاطئ بياضه حمرة كأنه غمسه فى الشفق وقال برقة :

ـ لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سمارا!

فاستضحكت ، وعدا الكلب فى تلك اللحظة فولته ظهرها وعدت وراءه . .

وبدا عليه تغير ظاهر ، فغاضت من عينيه نظرة الجد والرزانة وخلفتها نظرة حنان وأحلام . وطاب له أن يختلس منها نظرات طويلة سعيدة ، فشاهدها وهى تجلس على الكرسى ، وتنحنى لتلاعب كلبها الصغير . وجعلت أناملها تتخلل شعره الأبيض الطويل ، ومضى الكلب يلعق يدها مسرورا ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طربا ، وفى أثناء ذلك تدلت خصلات شعرها الحريرى وحامت حول عنقها وخديها ، وكان فى مشاهدته سعيدا مبتهجا ، ولكن صدره انقبض فجأة ، فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئا ، لأنه تذكر أن سلوكها نحوه لم يتغير منذ كانت تدرج فى الطفولة والصبا ، وأنها لا تزال تناديه بقولة «عمى» كما كانت تفعل وهى صغيرة تلعب بالعرائس ، وكان فيما مضى يفرح بهذا النداء ويعده آية على ما له فى نفسها ونفس أبيها من المودة والصداقة ، أما الآن فهو يضيق به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتى ينقبض صدره وتتولى عنه المسرة .

واتجه بصره إليها مرة أخرى وتساءل ـ ولم يكن يفعل ذلك للمرة الأولى ـ أمن المستحيل أن تصير سمارا زوجى يوما من الأيام؟

وهز رأسه فى إنكار واستغراب كأن الفرض من المستحيلات حقًا ، ولكنه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرة أخرى : ما وجه الاستحالة؟ . . العمر؟! . . . فهو ابن ستة وثلاثين وهى بنت ستة عشر ، فعشرون عاما تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرر «عمومته» لها فكيف يتأتى للعم أن يصير زوجًا وحبيبا؟! حقًا إن الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر ، ولا ينزلون عند حكمها ويذللونها بغير مبالاة ، ولكن لكل تضحية من هذا القبيل ثمن ، فما عسى أن يكون الثمن الذى يبذله لمثل هذه التضحية الغالية؟ هو فى الواقع ليس إلا موظفا منسيا فى وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيها فلا مكانة له يعتد بها ، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترا من الرواء والجلال! ومع ذلك فهو يحبها ويبدو له أن لم يكن من حبها بد ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوما بعد يوم ستة عشر عامًا؟ . . وكانت إلى ذلك الإنسانة الوحيدة من الجنس الثانى و التى رمته بها الأقدار فى عزلتها القاسية . . فتسرب الحب إلى قلبه خفية ، فى أناة وهدوء ، و بلا قصد أو حذر ، تسرب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة فى جلسة طويلة هادئة على شاطئ النيل . . .

وكان فى أول عهده بها يتمتع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذا لحنان صدره المكتوم، فلما أن انقلب عاشقا أنشبت فيه الحيرة أظافرها، وحرم القناعة السعيدة وصار يعذبه كل شيء حتى عطفها عليه وحديثها، لأنها كانت تقبل عليه ببراءة، ولم تشعر حياله شعور امرأة بإزاء رجل، وقد حدجها مرات بنظرات نفذ منها لهيب الهوى قهرا فلم تستجب له ولم تحس به وأصرت على أنه «عمها العزيز» لا أقل ولا أكثر. ما عسى أن يكون ردها لو طلب يدها؟ . . كيف يكون شعورها؟ . . . وكيف تكون دهشتها؟ . . . وماذا تقول لأبيها؟ . . وماذا تقول لنفسها؟ . . وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن فى حديقتها وأن يتمتع برؤيتها مقبلة مدبرة محدثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد؟

وهب أنه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفاتح أباها ـ صديقه العزيز ـ فى هذا الشأن الخطير؛ فما عسى أن يقول له؟ يا له من قول عسير! . . وفكر طويلا، ثم أغمض عينيه وحدث نفسه وكأنه يحدث صديقه: «صديقى العزيز، لقد جئت أحدثك فى أمر خطير لم تكن تتوقع أن أحدثك فيه أبدا، وربما لم أكن أتوقع ذلك أنا أيضا، ولست واثقا بموافقتك ولا بأهليتى للطلب الذى أتقدم به، ولكنى لم أرد أن أضيع فرصة ذهبية لمجرد توهمى الإخفاق. . سيدى. . وصديقى. . ».

ولم يتم حديثه لأن صوتا عذبا أيقظه من حلمه قائلا:

ـ أنائم أنت؟

فانتبه خافق القلب وقد تولاه ما يشبه الرعب، وقال:

ـ كلا . . .

ـ معذرة . . . رأيتك مغمض العينين . . .

ـ كنت أفكر.

ـ وفيم تفكر؟

حدق فى وجهها بعينين حائرتين وتساءل: بماذا يجيب؟ . . أيقول لها فيك أنت؟ . . . ولكنها مجازفة سابقة لأوانها، فلازم الصمت، وأحس رغم ارتباكه بلذعة سخرية لاضطرابه أمام هذه الطفلة، وكان ينعم النظر فى عينيها السوداوين، ومرت دقيقة على جموده، فشعر بسريان تخدير لذيذ، ولم يعد يرى إلا سوادا جميلا، ثم لاحظ تغيرا فجائيا يطرأ عليها، فرأى وجنتيها تتوردان وشفتيها تقلقان، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه. . . وشاهدها تفر نافرة إلى داخل البيت، ونظر خلفه دهشا فرأى أخاه نور يقف مبتسما ويمد له يده للسلام. وأحس بكآبة لم يدر ما سببها، وخفق قلبه خفقان الخوف والخيبة، ولكنه سلم عليه مبتسما وقال له:

ـ أهلا كيف حالك يا دكتور؟

فضحك الشاب وقال بصراحة :

ـ كم أنت سعيد يا أخى !

وأدرك ما يعنى من اتجاه بصره ولهجته، وآلمه ذلك غاية الألم، ولكنه تجاهل الأمر وقال بإنكار :

ـ سعيد؟ !

ـ طبعا، من يحدث سمارا ينبغى أن يكون سعيدا .

فابتسم ابتسامة صفراء، وقال لنفسه : إما أن هذا الشاب خبيث ماكر، وإما أنه غبى لا يفقه لما يقول معنى . ليس السعيد حقًّا من تحدثه سمارا، ولكنه من تخجل من محادثته ومن يتورد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلا أن تفر هاربة . . . هذا هو السعيد حقًّا . . أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم أنه يتغابى ويمكر؟ !

على أنه كان يحرص على ألا يبدو عليه شىء مما فى نفسه . فقال يغير مجرى الحديث :

ـ كيف كانت ليلتك بالأمس؟

فجلس الشاب إلى جانبه وقال :

ـ كان قصر العينى أمس حافلا بالحوادث المزعجة، ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر .

وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير . . كان ذا قلب كبير يفيض حنانه، فهو يحب شقيقه وقد أمده هذا الحب الأخوى بالعون والصبر فرباه ورعاه كما ربى أخوين له من قبل، ولكن يداخله أحيانا من ناحيته خوف وجفول وربما أكثر من ذلك . نعم هى الحقيقة فهو يكرهه أحيانا، وهو أشد ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سمارا على لسانه . فبمجرد نطقه لذاك الاسم الحبيب يؤذيه ويعذبه؛ وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة مقتا إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل . . . على أن هذا لا يعنى أن هذه الكراهية عاطفة ثابتة فهى مجرد انفعال عنيف، وغير ذلك فهو يحبه، وينظر إلى مستقبله كشىء جميل من صنع قلبه وكده، فأى حيرة؟ وأى عذاب؟ ! ترى هل يفطن الشاب إلى ما يحدثه فى نفس شقيقه الأكبر من الشقاء؟ ! كلا . . هو بلا شك لا يتصور أن مثله يمكن أن يحب هذه الصبية الجميلة .

وكان الدكتور الشاب يفكر فى تلك اللحظة من حياته السعيدة فى أمور مهمة فقال لأخيه :

ـ لدى أمور مهمة أريد أن أفضى إليك بها .

ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال :

ـ اخلع ملابسك أولا وارتح قليلا . . .

ولكن الشاب قال بإصرار :

ـ استمع لى أولا يا أخى ، فإن حياتى فى مفترق الطرق . . .

فسكت الرجل وأردف الشاب :

ـ ستنتهى بعد أشهر مدة تمرينى كطبيب امتياز فى القصر ، وقد أخبرنى أستاذى الدكتور براون بأن النية متجهة إلى اختيارى عضوا فى بعثة كلية الطب .

فأحس الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح :

ـ مبارك . مبارك . أنت أهل لذاك بغير شك .

والظاهر أنه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك لأنه قال بارتباك بصوت خافت :

ـ ولكنى . . أعنى . . أريد أن أقول . . إنى إذا سافرت فلن أسافر منفردا .

ـ لا أفهم شيئا . .

فى الواقع أنه يفهم كثيرا ، أو يفهم على الأقل ما جعل قلبه يرتد إلى الجفول ، وكان الشاب قد تغلب على ارتباكه فقال :

ـ سأسافر زوجا إن شاء الله .

ـ يا لها من مفاجأة! . . إنه لم يسبق لك التحدث إلى أحد فى هذا الموضوع . . أليس كذلك؟

ـ بلى . .

ـ هل نبت فى رأسك على حين غرة؟

ـ كلا ، ولكنى كنت أوثر الصمت حتى أخرجنى عنه السفر المنتظر !

وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثم قال :

ـ هل أفهم من ذلك أنك وفقت إلى الاختيار؟

فأحنى الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت الجار وقال :

ـ سمارا . .

وساد الصمت ، وقلق الشاب لسكوت أخيه ، فسأله بلهفة :

ـ ما رأيك يا أخى؟ . . ألا تعجبك؟

فقال الآخر بسرعة :

ـ نعم الاختيار . . نعم الاختيار . .

فابتهج الشاب وقال :

ـ أشكرك يا أخى . . وأرجو ألا تتوانى ، فعدنى أن نذهب غدا إلى مقابلة والدها ولعلى لا أصدم هناك بما يخيب أملى .

ـ حسن . . ولكن ما الداعى لهذه السرعة؟

ـ لابد من السرعة ، فليس أمامى سوى شهور قلائل ينبغى أن يتم فى أثنائها الاتفاق والاستعداد للسفر إلى إنجلترا .

ثم ضحك الشاب وقال وهو يهم بالوقوف :

ـ ألا ترى أنى سأمضى شهر العسل خارج القطر كالوجهاء؟

فابتسم الرجل ، وحياه الشاب وذهب إلى داخل البيت . .

وتبعته عيناه حتى غيبه الباب ثم عادتا تنظران إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تعى التفاصيل ، فأحس إحساسا غامضا بالسمرة التى أخذت تشوب الكون والسكون السارى فى مفاصله ، وضاق بجلسته فقام يتمشى فى الحديقة الصغيرة بائسا محزونا مختنقا ، ودار دورتين ثم رجع إلى الأريكة وارتمى عليها بشىء من العنف كأنه يسلم إليها حظه التعس لا جسمه المنهوك .

ووجد فى تلك اللحظة رغبة خفية قاهرة فى الفرار إلى الماضى . . فطار خياله فى الزمان عشرين عاما فى غمضة عين ، إلى تلك الفترة من العمر التى تبدو فيها الحياة كقطعة من العجين فى يد الخيال يعبث بها كما يشاء ويصنع منها ما يملى عليه هواه بعيدا عن قساوة الواقع . فى ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل الممتلئ رزانة وهما وحزنا صبيا مرحا مدللا يفيض قلبه بالأفراح والآمال؛ وقد ميزته الطبيعة منذ رأى النور ، فكان أول من خفق له قلب والديه بالأبوة والأمومة من الأبناء . ثم كان من بعد ذلك غلاما مجتهدا تضىء حياته المدرسية استعدادات عالية ومواهب نامية تبشر بالنبوغ والتفوق والمستقبل البسام ، ولكن الحقيقة أن ما خفى من فضائله كان أعظم ، وأنه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور فى أبهى الحلل ، وقد جاءت هذه الفرصة ولكنها لم تكن واأسفاه سوى وفاة والده . .

ترك الوالد المتوفى أسرة بائسة مكونة من أرملة وأربعة أبناء أكبرهم ـ عبد الرحمن ـ فى مستهل الشباب ، وأربعة جنيهات معاشا ، وهكذا تصدت الحياة للشاب السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس ، استأدته الواجبات ، وحتمت عليه أن يخلع رداء الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات . . وكان عليه قبل كل شىء أن يتناسى أطماعه ، ويدرج فى الأكفان آماله ، ويقدر مواهبه لكى يهيئ للأسرة حياة سعيدة ، ويوليها بعض العناية التى كان يوليها إياها الأب الراحل ، ورضى كارها بوظيفة بائسة لم يتصور قط أن تنتهى إليها آماله . .

كانت تلك الأيام فى بدئها مؤلمة شديدة المرارة تبعث فى النفس الأسى والحسرة واليأس؛ ولكنها لم تبلغ به قط حد الثورة أو الغضب الهائل. لماذا؟ كان قلبه كبيرا ينضح بالحنان والأخوة. فوهبه أمه وإخوته، وهانت لذلك تعاسته، وخففت الأيام من وقع الخيبة فى نفسه، وتحددت فى قلبه آمال أخرى لا تتعلق بمستقبله هو، ولكن بسعادة إخوته ومستقبلهم، وذاق سعادة جديدة: هى السعادة التى يحدثها بذل النفس والعمل من أجل سعادة الغير، وبذلك شغل الشاب مكان أبيه، ودخل فى طور الرجولة الحق قبل الأوان..

وذكر هنا كيف أنه كان يشعر بالفراغ الأليم رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال، ولكنه كان ينجح دائما فى إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حبا فى أسرته وإيثارا لإخوته، واستوصى بالصبر، ولكن أثبتت له الأيام أن إخوته أقل صبرا وأعنى بنفوسهم منه، وربما كان للزمن فى ذلك شأن وأى شأن، فما كاد أكبرهم يتخرج ضابطا فى مدرسة البوليس حتى تزوج وترك العبء له وحده. وتبعه بعد قليل أخوه الثانى المهندس فاضطر إلى البقاء أعزب حتى هذه السن..

ثم ذكر كيف أنه كاد يختار أخيرا ما يكمل به حياته، وكيف جاء الاختيار بعيدا عن التوفيق. وكيف أتته الطعنة النجلاء من يد طالما آثرها بالحب والعطف، وقد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذى يترنم بأنشودة السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التى لا تراها العين..

وفيما هو فى أحلامه إذ سمع صوتا ينادى قائلا:

ـ عبده لماذا تبقى فى الظلام؟

هذا صوت أمه الحبيب.. رباه.. لقد لفه الليل وهو لا يدرى.

وقام من جلسته متثاقلا، وسار ببطء إلى الداخل وبادرته أمه قائلة:

ـ هل حدثك نور؟

فقال:

ـ نعم..

ـ ما رأيك؟

ـ اختيار جميل يا أماه، سأذهب غدا لمقابلة جارنا وطلب يد ابنته الجميلة لابننا النابه!

فقالت بحنان:

ـ لم يبق إلا أنت!

ولازم الصمت هذه المرة..

من يعلم؟! . . ليس الذى يلقى الآن بأشد قساوة مما لقى فى ماضيه، وما هذه بأول كارثة يمتحن بها قلبه الكبير، وقد علمته الحياة فضيلة الصبر كما علمته حقيقة أجل: هى أنه يستطيع أن يسعد وهو يحقق السعادة للآخرين . .

مفتــرق الطــــرق

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ، فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو تر تجهم كدر. ولن تعدم قائلا إن هذا الزمان أضيق رزقا، وأنضب حياء، وأفسد خلقا، وأقل سعادة وأنسا من الزمان الماضى، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرما بقساوة الحياة وفرارا من جفاف الواقع ولياذا بظلام الماضى الذى يشبه ظلام المستقبل: بعث أمل وطب آلام.

ومهما يكن من هذا السخط فما من شك فى أن جلال أفندى رغيب كان على حق فى شكواه التى يرددها بغير انقطاع. كان مراجع حسابات فى وزارة المعارف وفى السادسة والأربعين من عمره، وقد وسع الله فى إحدى زينتى الحياة الدنيا وقتر عليه فى الأخرى. فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية. وأما مرتبه فسبعة عشر جنيها، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة. وقصمت ظهره المصاريف المدرسية. وكان كثيرا ما يقول متبرما حانقا كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم: «رجل مثلى ـ أب لستة ذكور، اثنين فى المدرسة الثانوية، واثنين فى المدرسة الابتدائية، وواحد فى المدرسة الأولية، وواحد فى البيت، غير زوجة وأم، ولا تراه الوزارة حقيقا بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف، فمتى إذن تجوز المجانية؟! . . ولمن تجوز؟». وكان كغالبية أهل هذا البلد يائسا من العدالة قانطا من الخير، يعتقد اعتقادا كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوى القربى والأصهار والأصدقاء، فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاق، ومعاناة الشدة عاما بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة.

ولبث على حاله لا يطمع فى رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالى حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة فى الصحف، فومض فى أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: «ينبغى أن أقابله . . وأن أشكو إليه . . هل يرفض رجائى؟ . . لا أظن». وقصد يوما إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على ورقة ليوصلها إليه، فمضى الشاب بها وتركه فى حالة من القلق والإشفاق لا توصف. وعاد مسرعا يقول لجلال أفندى:

ـ معالى الباشا مشغول جدّا اليوم فلتتفضل بالمجىء ضحى الغد .

فعاد إلى حجرته مسرعا واجدا متألما ، وكان ألف طول مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهاز المديرين ، ولكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أى شىء ، وجعل يتساءل : ترى هل يذكرنى؟ . . ولم يكن شىء ليصده عن هذا الباب ، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلا حتى قال له الشاب :

ـ تفضل .

فقام مسرعا خافق الفؤاد ، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف و نظر إلى صدر المكان فرأى معالى الباشا كما يدعونه يطالع فى شىء بين يديه ، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال :

ـ أهو أنت؟ ! . . لقد اشتبه علىّ الاسم . . أو لا تزال حيا؟

فسرّ جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال :

ـ نعم يا صاحب المعالى لا أزال أكابد حظى فى الدنيا .

فنظر إليه نظرة استفهام ، ومال إلى الوراء قليلا وهو يتمتم :

ـ أفندم .

فقال جلال :

ـ يا معالى الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام . لى أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبى صغير ، ولست طامعا فى علاوة أو درجة ، ولكنى أضرع إلى معاليكم أن تعفى ابنين لى فى مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات .

ـ الاثنين معا؟ !

ـ نعم يا معالى الوزير إن آمالى مشرقة بمعاليكم ، لقد جاورت معاليكم عهدا طويلا من سنى الدراسة ، وينبغى لمن حظى بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعا ، خاصة إذا علمتم أن لى غيرهما أربعة آخرين .

فقال الوزير باقتضاب :

ـ قدم لى مذكرة .

وكان الرجل محتاطا لذلك ، فأخرج من جيبه التماسا أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير ، فجرت عليه عيناه بسرعة ، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة ، وقال للرجل :

ـ اطمئن . .

فانحنى جلال أفندى تحية، فتكرم الآخر بمد يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطا مثلج الصدر. ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجبا: لم يتغير «حامد شامل» ألبتة، ولا تقدم به العمر، وكأنه فى ريعان الشباب. . . هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين؟. . . تالله إنى لأبدو لعين الناظر فى سن والده؟. . . وقضى وقته يفكر فى الوزير، فى حاضره وماضيه، وفى صلته القديمة به. . ثم اضطجع بعد غدائه فى بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات. . . فألوت به إلى عهود الماضى المنطوى. . إلى الوقت الذى كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ «حامد شامل» على مقعد واحد، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهرى. . وكان التلميذ «حامد شامل» يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار وجهه. ويلازمه عبد متهدم طويل يرتدى بدلة سوداء فى الطريق إلى المدرسة وفى طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى. ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذى العربة إذا ركب. ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه «حامد أغا»، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتدم بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد. .

والأعجب من هذا أنهما جريا معا وراء تلك العاطفة ـ التى تهيج الجد والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم ـ منذ أول عهد تجاورهما؟ وكانا فى كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين فى فصل واحد، فكانت الغاية التى يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين، وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسى المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالا، وكانت كفة جلال الراجحة. . وكانا فى ملعب كرة القدم مثلهما فى الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع، فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة. .

يا لله!. . كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معا، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستمرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع فى الحثالة؟. . كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيرا والآخر مراجعا للحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل؟!

ثم تمتم قائلا وهو يطفئ سيجارته ويرمى بالعقب إلى المنفضة: تالله ما يستحق أن يكون وزيرا ولا وكيل وزارة ولا شيئا من هذا! وخشى أن يكون متجنيا عليه أو مائلا مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له: كيف اعتلى كرسى الوزارة؟. . لقد انفصلا فى نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة فى فمه إلى الانقطاع عن الدراسة، والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثم حصل على الليسانس، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيرا للحقانية فعينه سكرتيرا له فى الدرجة

الخامسة فكانت القفزة الموفقة الأولى . وقرأ بعد ذلك فى الصحف أنه أُختير لبعثة فى فرنسا لا يعلم كم أمضى بها وما حصل عليه فيها من الإجازات ، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات بكريمة المرحوم حامد باشا حامد الذى تولى الوزارة مرات فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديرا لإدارة التشريع . وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان ، ثم بترقيته محافظا للقنال بعد ذلك بقليل ، ثم باختياره وزيرا للمعارف ، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته الإدارية ومشروعاته عن إصلاح التعليم .

وكاد جلال أفندى أن يصدق ما يقال لولا أنه قرأ مقالا عن تفوق الوزير فى عهد الدراسة ـ فى العلم والرياضة البدنية معا ـ وكيف أن مفتشا من مفتشى الوزارة تنبأ على أثر مناقشته بأنه سيكون يوما وزيرا ، فأغرق الرجل فى الضحك وقال ساخرا : «الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية !» .

وتنهد جلال أفندى رغيب وتمتم قائلا : «دنيا !» . وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة ، والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة ، ما إن بصر بها حتى صاح فى دهشة وغرابة : «رباه هذه صورة فصلنا القديم !» .

وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف فى الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور فى ابتسام وثقة ؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة ، فضحك جلال طويلا وذكر قصة الذبابة ، وكانت فى الأصل من نصيبه هو وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه ؛ وقد أحس أسفا لذبه الذبابة فلعلها كانت ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر .

ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه فى آفاق الماضى حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى ، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود ، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين ، ونظرة عينيه تصفو وترق ، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال . . أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة ، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل : ترى كيف صار هؤلاء جميعا؟ . . وعاين أول صورة فى الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب ، وذكر اسمه «عبد الملك حنا» ، وذكر كيف كانت تنتابه نوبات الصرع فى الفصل حتى انقطع عن المدرسة . . أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصائرهم ، وعرف فى الصف الثانى وجها كأنما تركه بالأمس . كان ابنا لأحد كبار المستشارين ، فكان يتمتع لذلك بنفوذ وصولة فيحييه الناظر إذا بصر به ، ويلاطفه المدرسون ، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلا للنيابة وترقى قاضيا ، ولعله يتأثر الآن خطى

أبيه الكبير . أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه فى المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة . وأما آخر هذا الصف ـ الذى ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك ذراعيه على صدره ـ فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم ، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين . ومن العجيب أنه احترف فيما بعد «البلطجة» . وطاف بالسجن مرات .

وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئا إلا الدكتور المعروف «حنا عبد السيد» ، وإلا هذا الذى يتوسط الصف الأول ، كان من أنبغ التلاميذ جميعا ، وكان أول الابتدائية ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخى المواهب ، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء الصدر فاضطر إلى ترك المدرسة والكف عن التحصيل ، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتبا فى الصحة . فلا يقل حظه شذوذا عن حظ الوزير نفسه .

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه . كانت تجمع بينهم جدران واحدة ، لا يكاد يتميز وراءها إنسان إلا بجده وخلقه ، ففرقت بينهم الحياة ، فرفعت وخفضت ، وأحيت وأماتت ، وأذاقت الفقر ، ومتعت بكرسى الوزارة ، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع .

ونظر جلال أفندى عند ذاك فى الساعة فوجدها تدور فى الرابعة ، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب ، وأنهم عما قليل يملأون البيت حياة وقلبه نورا ، فرمى المجلة بعيدا وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال ، وقال لنفسه متعزيا :

ـ من الخطأ أن يفكر الإنسان فى شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلا الضيق ، وحسبى أن معاليه قال لى : «اطمئن» .

إصـــلاح القبـــور

قضى من بيده القضاء أن يكون ليل ١٦ أغسطس تاريخا فاصلا تهتز له جوانحها ويتصدع به فؤادها ، فلم يعد مجرد وحدة من الزمان الذى لا ينتهى ، ولكن شيئا من ذكريات سود يجمع بينها غشاء من الحزن واللوعة ، وشاهد ذاك الليل صدرا ضعيفا يعلو وينخفض ورأس صاحبه مسندا إلى صدرها ، وسمع حشرجة لا يزال صداها يمزق مسمعيها ، وفى لحظة رهيبة كأنما جفت فيها ينابيع الرحمة فى السماوات والأرض صارت أرملة فى نضارة الصبا وشرخ الشباب ، فأغمضت عينان ألفت أن تطالع فى نظرتهما الحنان والمودة ، وسكت لسان جعل يناغيها عاما وبضع عام المناغاة الحلوة

السعيدة، ويدللها فيناديها نعومة مرة ونعمات أخرى، وجمد الساعدان اللذان كانا يضمانها إلى مرتع الوداد والهوى.

انتهى تاريخ وبدأ تاريخ على عجز منها ورغم؛ لأنه كان قد قدر لها أن تلقى نصيبها الكثيف من الحزن والبكاء والحسرة، وأن تجلل شبابها النضير بسواد الحداد أو سواد اليأس. ثم هجرت البيت الذى كانت سيدته وربته فأخليت لها حجرة وعاشت عيشة لا تجد فيها أسباب الترحيب إلا ما تقضى به تقاليد المجاملة الظاهرية...

استوحشت دنيا الأحياء ولاحت لها معالمها غارقة فى ظلال الكآبة والقنوط، فأغلقت دونها نفسها، وولت عنها بقلب يأبى حبه أن يستسلم للموت. ورمت بناظريها بعيدا إلى حيث ترقد القبور فى سكون الأبدية ووحشة الفناء، فعند ذاك القبر سحت عيناها دمعا غزيرا ساخنا فروت جفاف قلبها ورطبت حرارته. ولكن أى قبر كان ذلك القبر؟

كان قبرا قديما انتبذ ركنا من فناء واسع موحش خال، وعلاه البلى فتهدم «شاهده» وتشقق بنيانه... واأسفاه كان المرحوم فى نضرة الشباب فلم يعن يوما بهذا القبر الذى لم تمد له يد بإصلاح ما يقرب من نصف قرن من الزمان، حتى توارى بين ركامه شبيبة ناضرة فى حفرة شائخة.. فكانت إذا رأت الفناء المعفر و«الشاهد» المهدم راحت زائغة البصر مكلومة الفؤاد، وأفحمت فى البكاء. ووجدها التربى يوما تندب القبر المهدم وتبكى بكاء مرا فانتظر حتى رآها تهم بالانصراف فدنا منها وقال لها برقة ولباقة:

ـ ألا ترين يا سيدتى أن هذا الفناء مترامى الأطراف! فهلا بعت نصفه أو بعته كله وجددت بماله القبر وأصلحت حجرته؟

واستهواها قوله فأصغت إليه برغبة ولهفة وقد تفتحت لها سبل الأمل، ولكنها ذكرت أن مكافأة زوجها لم تصرف بعد فما الداعى إلى التفريط فى الفناء؟.. كلا لتبق المقبرة على ما هى عليه، وحين تأخذ المكافأة ـ ولو بعد ستة أشهر كما قيل لها ـ تجدد القبر وتصلح الفناء وتغرس فى أرضه شجيرات يانعة تستدر الرحمة وتطرد الوحشة، وعادت يومئذ وقد تخايل لعينيها فى الأفق حلم من أحلام العزاء. فغدا عندما يجدد القبر وتطلى الجدران ويفوح المكان بشذا الريحان يتنسم قلبها المحزون نسائم العزاء البارد وتجد فى الأنس بالوفاء سلوى عن وحشة الوجود.

ومضى يوم ويوم وأسبوع فأسبوع وشهر ثم شهر والقبر غايتها وسلوتها وأجمل موعد يتيحه لها الزمان، إلا أنها كانت تتغير ـ بطبيعة الحال ـ ككل شىء فى الحياة فى بادئ الأمر. كانت تبكى ليلا ونهارا، ثم مضت تبكى سحابة النهار وتهدأ بالليل، ثم صارت تبكى كلما خطرت ذكراه على فؤادها الحزين، ثم انشغلت بالحياة طوال الأسبوع واستأثر بها الحزن كل صباح جمعة. وكانت أول عهدها تمضى إلى المقبرة لا تلوى على شىء فلا ترى من الدنيا شيئا.

أما بعد الأشهر الأولى فلم يمنعها الحزن من أن تسير كبقية الخلق بعينين مفتوحتين، وفى ذاك الهدوء النسبى استطاعت أن ترى ـ فى ذهابها إلى المقبرة وعودتها منها ـ رجلا يجلس عادة كل صباح جمعة أمام الفيللا التى تشرف على مبدأ الطريق الصاعد إلى المقابر يرتدى جلبابا ومعطفا، ويقطع الوقت بقراءة الجريدة وتدخين غليونه، وكانت تراه دائما بمجلسه هذا، فإذا مرت به صعد إليها عينين ثاقبتين وحدجها بنظرة يلوح فيها الاهتمام الشديد. هكذا يستقبلها وهكذا يودعها، ولعله كان يطاردها بنظراته منذ أول عهدها بهذا الطريق الموحش، وعلى أية حال لم يغير من عادته ولا وهنت مثابرته، وبرمت بعينيه، وكرهت تفحصه لها.. لماذا ينظر إليها هكذا؟!.. وهل هو يتابع كل زائرة لهذا الطريق بهذا النظر العنيد؟!.. أيتسلى الرجل بهذا النظر الوقح إلى الثاكلات والأرامل؟!..

إلا أنها وجدت نفسها ـ بمضى الأيام ـ كلما شارفت مبدأ الطريق مضطرة إلى تذكره وتمثل نظراته العابرة التى سيلقاها بها.. بل جعلت تتذكره بعد ذلك صباح كل جمعة وهى تتلفع بسوادها وتأخذ أهبتها لمغادرة البيت فقد صار هذا الرجل العنيد وكأنه جزء لا يتجزأ من طريق القبر، ولم ينفعها الغضب ولا أغنى عنها السخط ولا وجدت عن سبيله حولا، ويوما رأته مرتديا بدلته فحسبت أنه مزمع المسير إلى بعض شأنه، وأملت ألا تجده عند إيابها، ولكنه كان بمجلسه حين عودتها كأنه ينتظر فى صبر وأناة. وما كادت تجاوزه بخطوات حتى نهض قائما وتبعها متمهلا!.. وحسبت أنها أخطأت الظن ولكنه انعطف وراءها إلى شارع البراد.. ثم إلى شارع الجميل.. ودخلت البيت مضطربة لاهثة فمر به فى خطاه الوئيدة وألقى عليه نظرة جامعة!.. تبّا له.. ماذا يبغى من وقاحته هذه؟!.. أما يحترم السواد الحزين الذى يجلل وجهها. وفى الزيارة التالية لم تجده بمكانه المعهود! وكانت توعدت وجوده بما شاءت من السخط المكتوم.. فلما لم تجده لم تر بدّا من الارتياح والسرور.. لكنها تساءلت: ترى هل اختفى لأن شاغلا قطعه عن رؤيتها أم أنه عدل عن سيرته الأولى؟!

وجاءها شقيقها وزوجه يوما، وكان مضى على تاريخ الوفاة ـ ١٦ أغسطس ـ خمسة أشهر، وقال لها الرجل برقة:

ـ أرى أنه ينبغى أن ينتهى هذا الحزن بمشيئة الله!

فنظرت إليه بعينيها الصافيتين متسائلة حيرى، فقال لها الرجل باقتضاب مفيد:

ـ جاءك رجل يطلب يدك!

وذكرت لتوها رجل الفيللا، ودق قلبها بعنف ولاحت فى عينيها نظرة ارتياع فهتفت به منكرة:

ـ يا خبر؟!.. كيف تفاتحنى بهذا يا أخى؟!

فقال الرجل بهدوء ووقار وحزم :

ـ ولم لا؟ . . أصغى إلىّ . . أين أبونا ؟وأين أمنا؟ الحزن إذا زاد عن حده صار معصية لإرَادة الله ، فلينظر الأحياء إلى حياتهم ، أما الأموات فلهم رحمة الله عوض عن الدنيا وما فيها . فليس هو فى حاجة إلى حزنك . كلا ولن يغنى عنه وفاؤك فتدبرى أمرك بعين الحكمة .

وضمت زوج شقيقها صوتها إلى صوته وتكلمت بمثل حماسته وأكثر ، فقالت نعيمة لنفسها : لقد تحالفا معا ، ولعلهما يرحبان بالرجل كى يريحهما منها ، فما من شك فى أنها عالة ثقيلة عليهما وأنها ضيقت عليهما البيت ، فاستمسكت بهذا الخاطر وأدارته فى نفسها حتى ملأها ، وكانت فى الحقيقة اقتنعت بكل ما قاله أخوها من أنها لن تقيم على الحزن إلى الأبد ، وأن حياتها أولى بالرعاية من موت الآخرين ، ولكنها أبت أن تفكر فى غير هذا الخاطر الذى توهمته توهما أو فرضته فرضا وآمنت به بعناد ، بل جعلت ـ فيما بينها وبين نفسها ـ تلوم أخاها على برمه بها ، الأمر الذى ربما أجبرها على اختيار ما لا تود . أما شقيقها فاستدرك يقول :

ـ ولا تخشى لومة لائم ، فالرجل على استعداد تام لتأجيل الزواج حتى ينتهى العام .

وتركها بلباقة إلى أفكارها ثم كر عليها مرة أخرى صباح اليوم الثانى ، وسألها عما ترى؟ . . ورأت نعيمة أن تلوذ بالصمت فطاب أخوها نفسا وأدرك أنها وافقت ، وسارت الأمور فى مجراها الطبيعى . ولما جاء يوم جمعة بعد الخطوبة ذكرت القبر والزيارة المعتادة وتساءلت حيرى : هل يجوز أن يراها فى الطريق الذى تعود أن يراها فيه؟ ! . . أليس الوفاء للقبر خيانة له؟ . . لشد ما يشق على الإنسان قطع عادة عزيزة ، ولكن ما جدوى الزيارة الآن؟ . . لقد رضيت باستقبال حياة جديدة فأولى لها أن تأخذ نفسها بالرضاء والقبول . نعم حسبت يوما أن ذاك القبر سيكون قبلتها إلى الأبد ، ولكنها لم تعمل حسابا للزمن . الزمن الذى يذيب الصخور ويفتت الصروح ويغير وجه البسيطة ، أليس بقادر أن يمسح عن قلبها شجونه؟ وقرأت هذه المرة الفاتحة على البعد ، وقالت لنفسها : إن البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوى فى قبره . ومضت الحياة فى يسر فانتصف العام وتوجه قلبها وجهة جديدة فاطَّرح الحزن وأشرق بنور أمل جديد وتطلع للغد بعين ملؤها الرجاء والحب .

وجاءتها المكافأة وهى على تلك الحال ، فلم تفكر فى تجديد القبر المهدم ولا فى غرس الفناء المعفر ولا عاتبتها نفسها على إهمالها . والحق أنها كانت عن ذلك فى شغل من أمر جهازها الجديد وإعداد ثياب الحياة الزوجية الجديدة . وزاد من انشغالها عجز أخيها عن مساعدتها المساعدة الجدية التى تريدها فناءت بحمل ثقيل . رفعت المكافأة عن كاهلها

بعضه لا كله. حتى ذكرت يوما فناء المقبرة الذى اقترح الدافن عليها مرة أن تبيعه أو تبيع نصفه. . . وغلبها الوجوم للذكرى العابسة إلا أن الوجوم ذهب لحال سبيله. ولبثت تفكر فى ذاك الاقتراح القديم، وتمنت لو تستطيع أن تسرق خطاها إلى الدافن وتحدثه بأمره!. . ولكنه كان تفكيرا عقيما لأن المدفن لم يعد ملكا لها فلا تستطيع التصرف فى قرش من ثمنه. . ولعل هذا ما ملأ نفسها أسفا إلا أنها التمست أسبابا أخرى لهذا الأسف فجعلت تلوم نفسها على قسوة أفكارها وتلعن الحياة التى تقضى سنتها بأن يكون موت الوفاء عين الحكمة أحيانا!

وقبل أن ينتهى العام بأربعة أشهر قال لها الرجل الصبور وقد اطمأن إلى ظفره بقلبها:

- ما جدوى الانتظار هذه الأشهر الأربعة؟! ألا ترين أننا فى أواسط الصيف وأنه يحسن بنا أن نمضى شهر العسل فى رأس البر؟

فخفضت عينيها كى لا يقرأ فيهما ما أرادت كتمانه، وصمتت لحظات كأنها مغرقة فى تفكير عميق ثم تمتمت بصوت خافت:

- ليكن ما تشاء!

المــرض المتبـــادل

فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس فى صباح ذلك اليوم، ولبث ينتظر المريض السادس، فدخلت سيدة مقنعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غاب جماله البهى خلف تجعدات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين، وقد بادرته هاتفة:

- الغوث أيها الطبيب!

فدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها:

- ما بك يا سيدتى؟

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروى له قصة ذلك المرض الوبيل الذى فاجأها لدى الصباح فاضطرها إلى أن تقصد إليه دون أن تتريث لحين أوبة زوجها من الوزارة. واستمع الطبيب إليها فى دهشة وحيرة وهو يحاول عبثا أن يوفق بين ما يروى له، وبين هيئة السيدة المتزوجة التى تنطق بالحشمة والصون.

ثم أدى واجبه الدقيق بعناية فثبت لديه ما كان منه فى ريب واكفهر وجهه وهو يقول:

- سيدتى. . إنه لأمر مؤثر. لقد أصبت بمرض خبيث. . بمرض سرى. .

فانقبضت المرأة قائمة وجحظت عيناها من الهلع والذعر، وقد ضاع ألمها المبرح فى تيار الخوف الجديد وصاحت به :

ـ مرض؟!

ـ نعم يا سيدتى . . إنى أعنى ما أقول، ولكن هدئى من روعك واملكى زمام نفسك حتى لا تجر هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشد إيلاما . أقلت إنك متزوجة؟

فأحنت رأسها أن نعم وهى لا تدرى، فاستطرد الطبيب قائلا :

ـ واأسفاه، إن الشهوات تعمى الرجال حتى المتزوجين منهم، ومهما يكن من شىء فالواجب يحتم عليك أن تجابهى زوجك بالحقيقة وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته . أما وقد وقع المحظور فلا محيد من تنبيهه واصطحابه إلىّ ، وإلا ذهبت محاولة علاجك سدى .

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبحوحة وقالت بسرعة وهى تلهث :

ـ كلا . . كلا . . لا يمكن أن يكون ذلك . . بادر إلى علاجى ودع أمر زوجى .

ـ ولكن . . .

ـ بالله لا تجادلنى . . لا ينبغى أن يعلم زوجى من الأمر شيئا . . أد واجبك وسينتهى الأمر إلى خير إن شاء الله . .

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر فى الوجه القلق الذى طغت آلام نفسه على آلام جوارحه . فطالع فيه الألم والرعب والإثم . . يا للهول! أيمكن أن يكون ما لم يقع له فى حسبان أبدا؟! . . أيمكن أن تكون هى الجانية على نفسها، وربما على زوجها أيضا . . ؟!

وما من شك فى أن الزوج مهدد بخطر عظيم، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه، وربما وقع فى متناول الأذى أطفال أبرياء يحيون . . فما العمل؟وكيف يتأتى له أن ينقذ هذه النفوس مما يوشك أن يحيق بها من غير أن يهتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألمة . . ؟

وأحاط به همّ التبلبل والحيرة حتى ضاق صدره فحدّث نفسه : لماذا أزج بنفسى فى شئون الناس وآلامهم . . ؟ إنى طبيب وما ينبغى لى أن أجاوز حدود مهنتى . . و بين يدى امرأة ملوثة فلأشرع فى معالجتها والأمر من بعد ذلك لله .

واطمأنت نفسه إلى هذا الرأى وهمّ بمباشرة عمله، ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرته نفسه على مراجعة التفكير فى أمر هذه الأسرة المهددة ، فرأى أن يتخذ طريقا وسطا فقال :

ـ سيدتى . ينبغى أن تعلمى أن زوجك فى خطر عظيم . . وأن إخفاءك الأمر حينا لن يمنع الحقيقة من الظهور .

فاختلجت عيناها كالزئبق المترجرج وقالت :

ـ كم يقتضى العلاج من الزمن . . ؟

ـ أسبوعين على أقل تقدير ومع أكبر عناية .

ـ أواه . . إنه الدمار .

ـ فإصابة زوجك محتومة . .

ـ من الميسور أن أدعى توعك المزاج هذه الفترة وأن أباعد ما بينى وبينه حتى أبرأ .

ـ فإن كان قد سبق السيف العذل . . . ؟

ـ أواه يا سيدى . . لا يمكن أن أنتحر مختارة . ثم إن زوجى رجل مستقيم يصعب علىّ صكه بالحقيقة المروعة . . فدع الأمور تجرى على مشيئة الله فلعل الله حفظه من الأذى ، وعسى أن يجعل من بعد عسر يسرا .

وساد سكون عميق مؤلم . . وكأن المرأة تذكرت شيئا فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته :

ـ سيدى . هل يبقى هذا سرا مكتوما . . ؟

ـ طبعا . . طبعا . . اطمئنى إلىّ كل الاطمئنان ، فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبدا .

فتنهدت من قلب مقروح وقالت :

ـ إذن فلنبدأ من الساعة . . وسأوالى الحضور إلى هنا كل صباح إلا يوم الجمعة . . ولأنتظر ما قدر لى .

ولما انتهى من عمله وهمت بالخروج استمهلها لحظة وجلس إلى مكتبه وسألها :

ـ ما اسم السيدة . . ؟!

فبدا على وجهها الرعب وسألت :

ـ ولم هذا . . ؟

فقال يطمئنها :

ـ لا تخافى ولا تحزنى . . إنها تقاليد متبعة . . انظرى إلى هذا الدفتر تجديه مزدحما بأسماء المرضى وعناوينهم . . لا تخشى شيئا واذكرى أنى طبيب لا أكثر ولا أقل . .

فقالت وهى تتنهد :

ـ حرم محمد عباس أفندى موظف بوزارة الأشغال .

وفى صباح اليوم الثانى جاءت السيدة وقد قالت للطبيب إن ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء والصحة ينعش الأمل المحتضر فى صدرها .

فلما أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد فى الثلاثين ، مليح القسمات طويل القامة ، تسم وجهه آيات الذكاء والجسارة ، فحيّا الطبيب قائلا :

ـ مساء الخير .

ـ مساء الخير .

فضحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحة طبيعية ، ولكنها لم تستطع أن تخفى القلق المساور لنفسه وقال :

ـ أصبت يا دكتور .

ـ بمه . . ؟

ـ بالذى يصاب به من يقصدونك .

ـ واأسفاه .

ـ أتأسف حقّا يا دكتور؟ . . أيريضيك أن يزدجر الناس عن الهوى وأن تخسر جمهور المترددين عليك . . ؟

ـ لا أظنك قد جئت إلى هنا لتتفلسف . . اتبعنى إلى هذه الحجرة . . ولكن انتظر لحظة ، أرجو أن تملى علىّ الاسم الكريم .

ـ محمد عباس . . أنا جارك يا دكتور . وإن شئت أن تعرف صناعتى فأنا مهندس بوزارة الأشغال .

يا للمفاجأة! كادت تفلت من بين شفتيه آهة دهشة وانزعاج ، وهمّ أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبية تنم عما يضطرب فى صدره ، ولكنه ذكر تحرج الموقف واشتماله على ما يهدد بالويل ، فصر بأسنانه وأحنى رأسه حتى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفى معالم وجهه عن القاعد تجاهه .

إذن هذا هو الزوج المنكوب ، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجه عليه وعليها منه . . ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما؟ كيف اكتشف المرض؟ وكيف تحسس مصدره . . ؟ وماذا جر ذلك على حياتهما الزوجية؟ وأين يا ترى المرأة الآن . . ؟ وكيف قرعتها الفضيحة؟ وكيف تتجوع عواقبها؟ ليته يعرف كل شىء . .

أما الآن فما عليه إلا أن يؤدى واجبه . وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخلية ، ولكنه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة :

ـ إنى أخشى يا دكتور أن تعقب هذا المرض مأساة أليمة .

فسأله وهو لا يزال شارد اللب :

ـ ولمه؟

ـ لأنى زوج . . ورب أسرة .

فقطب الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة ، وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال :

ـ هكذا ترى أنه ليس العزاب فقط هم الذين يأثمون . . .

ـ أتعنى أن زوجك مهددة؟

ـ طبيعى يا دكتور . . . إن موقفى غاية فى الحرج . . والذى يضاعف لى الآلام أنها سيدة طيبة لا تستحق أن تجزى هذا الجزاء السيئ . . فما العمل؟!

ياعجبا! . . لقد وضح وبرح الخفاء : كلا الزوجين آثم ، وكل منهما ينحى باللائمة على نفسه . وكاد يستسلم لتيار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلح عليه فى السؤال ويكرر قائلا :

ـ ما العمل يا سيدى الطبيب؟

فقال له :

ـ بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقدة إلى خير العواقب . فحاول أن تصحبها إلىّ من غير أن تثير شكوكها .

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه :

ـ أحاول .

وحدّث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظريه : إن الله يريد الخير بهذه المرأة . . وكأن الأمور تسير وفق مشيئتها ، فسيأتى بها إلىّ ، وأكشف عليها وأعلنه بإصابتها . فيوقن فى نفسه أنها ضحيته دون سواه ، ويبرآن على يدى ويعود الرجل بزوجه رافعا يديه حمدا لله وطلبا لغفرانه . وهو يجهل أن زوجه فرطت فى حقه أضعاف ما فرط فى حقها . . فيا لرحمة الله!

ولكن أليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيئة هذه المرأة الآثمة؟

فيا لحكمة الله!

* * *

وحان موعد مجىء المرأة ولم تحضر ، ، فترجح لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء ، ولكن المهندس أتى وحده وكان بادى التغير ، منكفئ الوجه ، مصفر اللون ، منطفئ البصر كأنه تقدم فى الكبر أعواما ، فتوقع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله :

ـ ما بك . . ؟

فهز رأسه بحزن وقال :

ـ ماذا تحدس . . ؟

ـ لعلك راودتها على المجىء فأبت وعصت . . .

ـ كان يهون . .

ـ آه . . إذن قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك . . . ونلت جزاءك على يديها .

فسها الرجل لحظة ، ثم قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس :

ـ يا بؤس هذه الدنيا . . .

فهز الطبيب كتفيه استهانة وقال :

ـ كثيرا ما أسمع هجاء مريرا يصب على رأس الدنيا ، ولكنى أعتقد أن الإنسان هو الخالق الأول لهذه الآلام التى يتملص من تبعتها ويلقيها على عاتق الدنيا . . .

ـ كما تشاء . . اعلم يا سيدى الطبيب أنى فى الفترة القصيرة التى تغيبتها عنك أحدثت فى حياتى حدثا هائلا ، فقد فصل الطلاق بينى وبين زوجى ، وحرمنى نور أطفالى حينا سأخاله دهرا مديدا . . .

يا للهول . . . ترى ما الذى حدث؟ . . وكيف حدث؟ . . فإن قلبه يهمس له بفحواه ، ولكنه لا يدرى تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطق الحوادث وجعل عاليها سافلها .

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحان بالسؤال بأفصح مما يبين اللسان . . فقال المهندس :

ـ إليك قصتى بكل إيجاز : غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيتى على دعوة زوجى إلى زيارتك كى يطمئن قلبى ، ولكنى كنت مضطربا لا أدرى كيف أبدأ باقتراح الأمر عليها ولا علم لى إن أنا اقترحته بما أبرره به ، فاتخذت مكانى على مقربة منها بادى الهم والفكر . وللحال لاحظت طوارئ الهم والاضطراب تزحف عليها زحفا ، فظننته صدى لاضطرابى وهمى واستجابة لهما . وتلبثت أنتظر أن تبدأ بسؤالى عما يساورنى فلم تفعل ، فضقت بالأمر ضيقا استفزنى إلى طرح هذا السؤال : «ألا تشكين من شىء؟ . . ألا تحسين بألم ما . . ؟» . فحملقت فى وجهى بعينين هالعتين وقالت باضطراب : «كلا . . كلا . . والحمد لله» . فتمالكت نفسى وقلت كاذبا : «ألاحظ عليك هذه الأيام بعض الاصفرار والتغيير ، وقد رأيت أن أقترح عليك زيارة طبيب . . فما رأيك . . ؟» . فردت بحدة وبلهجة من يتحمس لدفع خطر

مروع: «كلا.. كلا.. أنت واهم ولا لزوم لذلك ألبتة.. إنى أكره الأطباء ويهيج وساوسى الاستماع لنصائحهم».

فطال طلابى وطال رفضها، فألححت عليها فأصرت، فرجوت وتوسلت فعندت وازدادت تشبثا، وعبثا حاولت أن أثنيها عن رأيها حتى دهشت لإصرارها وضقت صدرا بها، وبنفسى، فاهتاجنى المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلنى أستهتر بكل شيء: «يجب أن تصغى إلىّ.. تعالى معى إلى الطبيب لأنى مصاب وأريد أن أعرف..». ولم أتم كلامى لأنها انتفضت قائمة متصلبة كالأفعى المتوثبة للافتراس، وجحظت عيناها ولم تتمالك نفسها فسرت فى جسدها رعشة شديدة فأدهشنى ذلك وسألت نفسى: ما لها..؟ وهممت أن أعاود الكلام فى ملاطفة مصطنعة، ولكنها قطعت علىّ الطريق بهزة عصبية ما زالت تكررها بعنف جنونى حتى تلبست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل، فازدادت بى الحيرة وسألتها: «ما الذى يرعبك؟ لم تخشين الطبيب؟» . فصاحت بصوت ملتو لا تكاد تميز نبراته: «الرحمة!.. الرحمةَ!». ولكن عاودنى الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوى إلى مستقرها فى قلبى: فخطوت نحوها أهدر غاضبا ساخطا فصرخت: «محمد.. الرحمة!.. الرحمة!.. لقد كشف الله خبيئتى.. أنا الجانية على نفسى وعليك.. أنا أعرف أنك تعلم ذلك، ولكنى أستحلفك الله بألا تمسنى.. طلقنى ولا تمسنى» . ثم ارتمت بين قدمى مغمى عليها.

ما معنى هذا..؟ لقد تسابقت الظنون إلى قلبى.

وانصبت الشكوك فى عقلى، واكتظ بها رأسى فانصهر من الحرارة والالتهاب، وخلت أن شعر رأسى يقف ويتصلب كشعر القنفذ.

إن المرأة لتبهظ الرجل وتثقل كاهله وهى تؤمن بأنها لم تجاوز بعض حقوقها، أما إذا اعترفت بأنها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشيا عليها فلن يكون ذلك إلا لأمر واحد.

يا عجبا!.. فقد ذهبت جانيا آثما فإذا بى مجنى عليه. رحت أكفر عن ذنبى فإذا بى ضحية تعسة! ماذا يمكن أن يفعل رجل فى مكانى؟!

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت، وسقطت فى الهاوية التى ابتلعتها، فهل من المستطاع أن أسدل ستارا كثيفا على تاريخ الإثم كله؟ وأن أتحمل عقاب الله الصارم فى صبر، وأروض نفسى على العفو والصفاء؟!

إنه حل روائى قد يستحسنه غيرى ويعطف عليه نفر قليل من الناس، أما أنا فقد انسقت مع طبيعتى وأصخت إلى صوت الغضب فى قلبى، فهويت بالطلاق على رابطة الزوجية: فخرب بيتى وانتزعت الحضانة منى أطفالا أعزة، كانوا نور حياتى المشرق، فسبحان الله أحكم الحاكمين.

حيـــاة مهـــــرج

توفى بالأمس السيد حسن شلضم بمنزله الكائن فى حارة جعيصة بالخرنفش وانتقل من مقره الدنيوى إلى مثواه الأبدى فى جناز متواضع اقتصر على أبنائه الثلاثة وشرذمة من الأصحاب عدا عربة كارو حملت بناته الثلاث وأمهن وامرأتين أو ثلاث أخريات .

ولم يكن السيد المتوفى إلا مهرجا . أو كان أشهر المهرجين الذين جمعت حياتهم بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . . ومن حسن الحظ أن الفن لا يأخذ بمقاييس المجتمع فى تاريخ الرجال وإلا ما كان للمتوفى حظ من الذكر . وما أجمل الفن فى شموله هذا ، فقد كانت حياة السيد حسن ينبوعا دافقا من ينابيع اللذات والشهوات . كان قطب حياة كاملة من الأفراح والمسرات ، ومعينا فياضا للضحك والبهجة والحبور ، وعزاء لنفوس لاعداد لها .

وُلد فى عام ١٨٧٩ واستقبل الشعاع الأول فى الحياة فى حارة جعيصة ثم فى فناء بيت آل شلضم وأخيرا فى كتاب الشيخ هريدى .

كان منذ صغره ميالا إلى المزاح نزاعا إلى العبث ، ولكن توجد حادثة فى تاريخه يصح أن نعتبرها مبدأ لحياته التى عرف بها فيما بعد : إذ كان يمر فى طريقه إلى الكتّاب بقهوة خضراء الباب والنوافذ فراقه لونها وجذبه إليه ، وما يدرى إلا وهو يمسك بحاشية جلبابه ويبلها بقليل من الماء ويمسح بها رقعة من باب القهوة حتى امتصت لونها . ثم لطخ به وجهه ورقبته وقفاه . ويداه الصغيرتان ترتجفان من الفرح . ثم هرع إلى رفاقه الصغار لا يلوى على شىء وصاح بهم : «إلىّ . . إلىّ . . انظروا» . والتفوا حوله دهشين وأغرقوا فى الضحك حتى دمعت أعينهم . ولم يقنع بهذا الفوز فتقدمهم فى الحارة وتبعوه وهم يصفقون تصفيقا توقيعيا وهو يرقص ويقفز ثملا بخمر الفوز والفرح .

كان يستلهم ألاعبيه غريزة حية توحى إليه . وكان قلبه الصغير لا يذوق السعادة إلا حين يضحك ويهيج ضحك الآخرين ولو من نفسه ، بل إن نفسه ليجود بها فى سبيل الضحك .

هكذا تفتقت موهبته الخارقة فى حارة جعيصة . ثم لم تقف من بعد ذلك عند حد . فمن آياته فى ذلك العهد البعيد أيضا أنه كان يحاكى بمهارة فائقة أصوات الكلاب والقطط والبقر والحمير والبوم والغربان ، وأنه حفظ على حداثة سنه أغلب القفشات والنكات

البلدية التى تلقى جزافا فى القهاوى و«الغرز»؛ بل كان إذا أعوزه سبب لإثارة الضحك يمد قفاه للرفاق فيصفعونه ويضحكون.

وكان يندفع فى سبيله بقوة غريزة مستحكمة قهارة كأنه فنان صادق أمين. ولم يقصد قط أن يتقاضى عن فنه أجرا. ولكن المجد أتاه طوعا يجر أذياله. وإذا به يشغل مكانا عاليا بين الرفاق الصغار. وإذا به قطب يهدفون إليه و يطوفون به ويبذلون فى سبيل مرضاته الدوم وأبو النوم وغزل البنات.

ولكن للطفولة نهاية ككل شىء فى هذه الدنيا. وقد ودع عهدها الجميل واستقبل عهد الشباب واشتغل فى حانوت والده فى أول شارع الخرنفش يبيع الخردوات.

وأراد أبوه أن يزوجه فتزوج وكانت زيجة سعيدة وصلت ما بين آل شلضم الكرام وآل الأعمش معلم العربات الكارو الشهير وسيد موقف النحاسين. وعمرت بيت شلضم الفتاة المهذبة حميدة ربيبة الحجرات المغلقة، التى لم تقع على وجهها عين غريب أو لم تر نور الدنيا إلا خلل خمار كثيف ألقى على وجهها ساعة انتقالها فى الزفة من العطوف إلى حارة جعيصة. وقد وجد فيها حسن أول شخص يحترمه ويهابه على ظهر البسيطة. كانت تدعوه «سيدى» ولا تقعد فى حضرته إلا إذا أذن لها، فإذا أذن جلست عند قدميه على شلتة واستلقى هو على الكنبة فى كبرياء. ولكن مع الأيام بعد أن صارت أما لحسونة ومتولى وأبو سريع وزينب وخديجة ونبوية طمعت فى مجالسته فى طمأنينة وثقة.

وصار السيد حسن شابا عاملا وزوجا. ولكنه لم يقلع عن لهوه وعبثه. كان يقضى نهاره فى الحانوت، أما ليله فكان يلاحق أصحابه فى قهاوى الخرنفش ومرجوش والغورية ويساهرهم الليل يشربون الزنجبيل والقرفة ويدخنون الجوزة ويتسامرون ويتضاحكون. كان يجلس على أريكة متربعا ويضع إلى جانبه مركوبه وعلى المركوب عمته ويقذف بنكاته وقفشاته ذات اليمين وذات الشمال غير مبق على إنسان، والجمع من حوله يضحك ويقهقه ويسعل. وشهدت تلك الفترة من شبابه أبدع وأكبر مجموعة من النكات البلدية التى سارت مع الزمن سير الأمثال وصارت من محفوظات أهل البلد وآدابهم التقليدية يلوذون بها فى مناظراتهم اللطيفة ويستعيرون منها فى معاركهم الهزلية ويستشهدون بها كلما لج بهم الشوق إلى الفكاهة والمرح. فكان فنانا إلى درجة ما. وكان من الفنانين المغمورين. ولكن من حسن الحظ أنه لم يكن يفهم من معانى الخمول ما يمكن أن تذهب نفسه معه حسرات على خموله النسبى. و الحق أن آيات السيد حسن شلضم التى ألفها فى تلك الفترة البعيدة لا تزال جارية على الألسن وستظل محتفظة بفكاهتها إلى أن تتغير العقلية البلدية أو أن يضعها مكتب الآداب فى قائمة المحرمات.

ولبث الشاب يحيى السهرات الساذجة فى ذاك الحى بضع سنين، ثم ولى وجهه وجهة أخرى. كان كثير من رفاقه لا يفتأ يذكره بأن مرجوش والخرنفش ليسا بالميدانين الصالحين لعبقريته الفذة، وأنه ينبغى أن يهاجر إلى شارع الأنس والطرب ومجمع العشاق وأهل الهوى. وأصاخ الشاب إلى إغراء الهمس وأسلم قياده لمن دله على الطريق وهنالك اطلع لأول مرة على ذلك العالم الفائر الذى تتجاوب فيه الأنوار ما بين المصابيح والكئوس وتمتزج به آهات الدلال وآهات المواويل وتتصل حركات البطون بقفزات السكارى وتلويح العصى. ولم يعدم فى تلك الدنيا العامرة صديقا لأنها كانت مبيت عدد عديد من أثرياء الجمالية، فتلقوه بترحاب وأوسعوا له حول موائدهم.

وإلى هنا اختتم الشاب حياة واستقبل حياة. اختتم حياة ساذجة طاهرة قوامها الفن واستقبل حياة ترف وعربدة أساسها الاحتراف. وقد أكرمه أهل الهوى فنزعوا عنه الجلباب والعمامة والمركوب وخلعوا عليه جبة وقفطانا وحذاء أصفر لامعا وطربوشا أنيقا. وأكل مما يأكلون لحما مشويا وعصافير محمرة ونقلا لذيذا، وشرب مما يشربون خمرا معتقة ونبيذا أحمر وأبيض. وفى مقابل ذلك كان يقطع لياليهم الهانئة بالنكات الممتعة والملح النادرة والقفشات البارعة. وتنقل من حانة إلى حانة ومن ملهى إلى ملهى وهو يكتسب فى كل مكان أصدقاء ومعجبين ومريدين. وامتدت شهرته من ذاك الشارع المنير إلى جميع حلقات الغناء والسمر والطرب فى القاهرة الخالدة الحالمة. وعلا نجمه وشع نورا بهيجا، وطغت عبقريته واستحكم ظرفه حتى أصبح حبيبا إلى كل نفس، عزيزا على كل قلب. تشتهيه الأنفس، وتتلهف عليه المهج، كان لكل داء دواء طاردا للهم. كاشفا للكرب، أو كان روح كل مجلس أنيس، ينقلب إذا غاب عنه كئيبا واجما.

كانت غاية حياته أن يضحك ويضحك الآخرين ولو من نفسه. ولم تكن هذه الغاية فلسفة حياة، ولكنها طبع وغريزة يندفع فى سبيلها كالأعمى وكأنها صادرة من أعماقه لا يمكن أن يوقفها شيء. وكان ظاهر حياته يدل على أنه يربح من وراء هذه الموهبة جاها عريضا وسعادة متصلة وطعاما وشرابا. ولكنه كان فى الحق يدفع الثمن غاليا ويبذله من كرامته وكبريائه، لأن همه الأول كان فى التحبب إلى الناس وإدخال السرور على قلوبهم، وقد علم بغريزته أنه ينبغى لذلك أن يكون خفيفا لطيفا فلا يجوز أن يعارض رأيا ولو خالفه بقلبه، ولا أن يغضب ولو مست كرامته، ولا أن يقاوم وإن هوجم وضيق الخناق عليه، فنال ما يشتهى من الحب وفق ما يشتهى ولكنه خسر الاحترام إلى الأبد.

ومهما يكن من أمر، فقد تسنم السيد حسن شلضم ذروة المجد للحب. ويسلط سوط الإرهاب على رءوس آله جميعا ولا يتكلم إلا آمرا أو منتهرا أو سابا، وكانت حميدة

ترتجف رعبا فى محضره، وكان أبناؤه إذا سمعوا صوته فروا إلى ركن قصى وانكمشوا فيه.

ومهما يكن من أمر، فقد نال من الشهرة قسطا لم ينله أحد ممن سبقوه ولن يتأتى لمحدث أو مهرج بعده أن يناله، ومضت لياليه سعيدة هانئة راضية، يحياها آكلا شاربا ضاحكا.

واصطدم وجه الأرض بأحداث مروعة فوقعت الحرب وتوالت النكبات على الدنيا ثم قامت الثورة فى مصر. وطفت بين من طفت بهم إلى السطح بالزنفلى أفندى الذى ظهر فى أفق السيد حسن وإخوانه بعد عهد الانقلاب فأضافه السيد حسن إلى أعاجيب الثورة كيدا وحقدا، وقد أتى به ذات مساء أحمد بك فائق وقدمه إلى جماعة السيد حسن قائلا: إنه شاب مثقف ومن أظرف الظرفاء. وما كان يسوء السيد حسن أن تزيد جماعته واحدا، فما كاد يطمئن به المجلس حتى جرت النكت على لسانه كالسيل، ومضى يعلق على آراء القوم وأحاديثهم بما تخترعه نفسه الذكية من الصور الساخرة والنوادر الأخاذة فتبعث تعليقاته وراءها عواصف من الضحك والقهقهة. ولبث السيد حسن صامتا لا يتكلم يرمق صاحبه بعين فاحصة ويقول لنفسه: ترى هل هو زائر عابر أم قضى علىّ أن ينافسنى طفل على آخر الزمن.

والظاهر أنه قضى عليه حقّا أن ينافسه الأطفال فى النهاية؛ لأن الزنفلى لم يكن زائرا عابرا، لكنه أصبح بسرعة عجيبة عضوا لا يبتر من الجماعة، وكان يمتهن المزاح كالسيد حسن ولكن على طريقته الخاصة الجديدة، فما كان يفحش فى القول ولا يقذف بالسباب والهجر، ولا يحاكى الأصوات والأشكال، ولكنه كان يفتن ويتفوق فى إرسال النكتة الخاصة الأدبية والملاحظة الساخرة والتهكم اللاذع.

وكان يصف نكاته فيقول إنها ملح أدبية وفكاهة عالية، ويغمز السيد حسن فيقول عن الفكاهة القديمة إنها سباب وفحش، ويحمل على «قافية أهل البلد» فيقول إنها أقوال مكررة مبتذلة ونوادر محفوظة وجناس سخيف لا روح فيه.. وكان السيد حسن يصغى إلى هذه الأقوال فى عدم اكتراث وهزء وربما نال من قائلها على طريقته باستهانة، ثم لم يلبث أن حقد عليه وكرهه لأنه كان إذا قال نكتة ظريفة بادر الشاب إلى تعكير الصفو بسعال أو حمحمة أو بطرحه فجأة سؤالا جديا عسى أن يهيج اهتمام القوم ويلهيهم عن أثر النكتة. ورأى فيه عدوا حقيقيا فشمر للكفاح والمنافسة فى ميدان المزاح واللهو. وانقض على الزنفلى وانقض الزنفلى عليه واشتبكا فى معارك حامية واستعمل كل ما وهبه الله من الذكاء والبداهة والفكاهة وصنع المستحيل ليربح الأنصار والمعجبين والمصفقين.

فإذا صاحت الديكة مذكرة اللاهين بأن الفجر انبثق انفض القوم فرحين وعاد العدوان مهمومين مفكرين يحصى كل منهما ما أثاره من ضحك وما أهاج من مسرة وما ابتدع من فكاهة ويذكر أسيفا حزينا ما ظفر به عدوه من آى النصر والتفوق ومن ضحك له من الرفاق . وظل كبار التجار وأهل البلد على ولائهم القديم للسيد حسن شلضم ، أما الزنفلى فقد اكتسب الكثيرين من الأفندية والبكوات . وكان لذلك وقع شديد فى نفس السيد حسن فقد كانت الدنيا جميعا له يمرح فيها كيف شاء فقنع مضطرا مقهورا بنصفها .

ولكن علام الأسف والحزن؟ إن هذا العالم الجديد لا يستحق أسفا ولا حزنا . أين السادة الكرام الأجلاء؟ مات أكثرهم وانزوى من بقى منهم على قيد الحياة، إما لمرض و إما فقر . . أين السيد جلال الشابورى ـ رحمه الله ـ الذى كان ينقده جنيها ذهبيا للنكتة الحلوة؟ أين الشيخ طلعت الإسلامبولى الذى كان يهديه كل ثلاثة أشهر جبة وقفطانا لا يقدران بثمن؟ هذا إلى الفواكه المختلفة فى إبان نضوجها؟ ذهب الجميع ، ذهبت دنياهم الحلوة وبقيت هذه الدنيا العجيبة التى يخطب فيها النساء فى المحافل العامة ويهدد التلاميذ معلميهم بالإهانة والضرب . ويغنيها عبد الوهاب بعد عبده الحامولى ومحمد عثمان، ويباع فيها قنطار القطن بريالين . فهل هذه دنيا يأسف السيد حسن شلضم على أنه ليس فارس ميدانها؟

وكان بعض معارفه يداعبه أحيانا فيقولون له : «راحت عليك يا سيد شلضم» ! فكانت تقع من نفسه موقع السم الزعاف وكان يصر على أسنانه المثرمة ويتصنع الاستهانة ويقول :

ـ سامحك الله يا غلام، أتحسب أن شلضم من الهوان بحيث يرضى أن يهرج فى هذا الزمان البائس المأزوم؟ أو أن يمازح هذا الجيل الذى لا يتذوق النكتة ! فشر وألف فشر ! إن مثلى ومثل الزنفلى فكالحامولى فى الزمن القديم ، وهؤلاء المغنين النائحين الذين يتسترون على عيوب حناجرهم بالإكثار من الآلات والموسيقيين .

والحقيقة أن ظله أخذ يتقلص بسرعة ومضى الموت يقتنص رفاقه أو المعجبين به واحدا بعد واحد، وتزايد على الأيام شعوره بالوحشة والغربة .

تغير كل شىء . حتى موطن اللهو القديم الذى كان ملهى الكبراء والأثرياء أصبح مباءة السوء وسوق الأوباش واللصوص والبلطجية ، ولم يعد للمهرج مكانة خاصة فى جماعات الهوى فقد ابتذلت صناعته وبات كل يهرج لحسابه الخاص .

وفى ذات مساء ، وكان السيد حسن يحتسى كأسا من الكونياك فى حانة بسوق الخضار سقط بغتة فاقد النطق .

ورقد أخيرا على الفراش ، مسلما جسمه الهائل إلى قبضة المرض الجبار ، وقد تمردت

أعضاؤه جميعا على إرادته وبات عاجزا عن تحريكها إلا عينيه يقلبهما ذاهلا فى سقف الحجرة ذى العمد الخشبية العتيقة يبرز من شقوقها ذيل البرص أو رأسه ويغشى ما بينها نسيج العنكبوت .

إن تلك الحياة العامرة بألوان اللذات والسرور والأفراح قد اختتمت بهذا الرقاد الأليم . وإن النور والغبطة والرفقاء قد تفانوا فى هذه الظلمة الموحشة . وانتهى كل شىء كما ينتهى الحلم الحلو وانتهى فى لحظة قصيرة كأنه لم يدم سنين وسنين ، وجاءت الساعة الرهيبة التى يتساءل فيها الإنسان فى حسرة مريرة . . أحقّا كان هذا الجسم سليما؟ . . أحقّا كان هذا القلب حيا؟ . . أحقّا كانت الدنيا حلوة سعيدة لذيذة الطعم؟ . . أحقّا ذهب كل هذا إلى غير رجعة؟

وقاوم جسمه المرض بضعة أشهر . قضاها فى وحدة ووحشة وقنوط . لم يزره فيها سوى أبنائه وبناته ، ذلك الرجل الذى كان يوما قلب القاهرة السعيد وثغرها الضاحك ، حتى وافاه الأجل بالأمس القريب فى ذلك البيت العتيق بحارة جعيصة الذى شاهد مولده وعرسه ومجده وأخيرا . . مماته .

عبث أرستقراطى

فى ذلك المساء من شهر مارس ازين قصر الوجيه حامد بك عرفان بحلة لألاءة من الأنوار المتموجة ذات الألوان . مدت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج . وتعانقت بأفرع الأشجار والنخيل ، وتوجت بها شجيرات الورد المنتشرة على هيئة أهلة ونجوم . وكان أعجب ما فى القصر هو ذاك البهو المتسع الأنيق الذى فُرش بفاخر الأثاث وحليت جدرانه وأركانه برائع الفن من صور وتحف ، وترك فى وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين ، أما فى صدر المكان فقد امتدت ردهة إلى منتصف مقصف حافل ، وإلى يمينها فيما يلى الشرفة المطلة على الحديقة احتلت فرقة الموسيقى الإيطالية مكانا جميلا . . وانتشرت فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوات والمدعوون الذين لبوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجيه عرفان بك وزوجه إنجى هانم عرفان . . . وكانوا يجلسون أزواجا وجماعات يتجاذبون أطراف الأحاديث حينا بالعربية وأحيانا بالفرنسية ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة . وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق . وقد شاع فى الجو عطر وأنس وحرارة كأنها أنفاس المودة نفثتها الأعين والشفاه والصدور والأمانى الهامسة .

وكانت الأحاديث متنوعة، ولكنها تدور فى الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يستثنى من ذلك الجماعة التى كان محدثها الأول الأستاذ على الجميل الصحافى المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة. أما الوجيه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروى فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية فى العواصم العالمية ذوات الشهرة فى الحب والجمال. وفى ركن منعزل امتاز بوفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوات. واتجهت أبصار المحكمات والمحكمين إلى امرأة اتخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها «لفيجيه لوبرين» وكانت عجوزا إلا أنها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال ما تظن أنه يغنى عما استرده الدهر من حياة شبابها. فبدت تحت طلاء الأصباغ فى هيئة مضحكة، وكانت تتجنب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتى تعود إلى مجالستها ربة الدار إنجى هانم كلما تاقت نفسها إلى الراحة. أما اسمها فدولت هانم، وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفقة، وكادت تيأس من الرجال والحب، وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس، فصارت معجما لتواريخ السوء. وكانت فى تلك اللحظة التى اختيرت فيها سرا ملكة للقبح. . تجالس إنجى هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسرا بعد أن لم تبق على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتى أتيحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجيه الأستاذ محمد جلال المحامى وزوجه الحسناء صفية هانم جلال. وكانا يلفتان الأنظار إليهما حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدان فى الصعيد، وجمال الزوجة ورشاقتها، وقد استقبلتهما إنجى هانم بمودة ظاهرة وباطنة، ولما عادت إلى جوار دولت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

ـ يا لهما من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيدة بحماس:

ـ الأستاذ جلال شاب يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثرى. . ألا تعلمين أنه مرشح لكرسى النيابة؟ . . وأما صفية فهى آية للجمال والصفاء.

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

ـ نعم، نعم. . لا شىء يعيبه إلا أنه يقال إنه قد يتبارز من أجل راقصة، أما إذا استثيرت غيرته الزوجية فقد يغضى.

وضاقت إنجى هانم ذرعا بحديث صاحبتها، فلم تسألها إيضاحا وتشاغلت عنها بمشاهدة بعض الراقصين، ثم استأذنت لاستقبال بعض صواحبها.

وسلم الأستاذ محمد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات، ثم اختارا أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلهما هما: الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسناء هدى هانم العارف. وكان الأستاذ جلال يبدى إعجابا خاصا نحو السيدة هدى. فلما عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه، وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك . .

وطرب الجميع طويلا وشربوا كثيرا، فدارت رءوس وثرثرت ألسنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتلأ الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتقت أعين وتماست أنامل وارتعشت شفاه. حتى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسطت المدعوين السيدة إنجى هانم، وقالت بصوتها الرخيم:

ـ اسمحوا لى سيداتى سادتى أن أقدم إليكم مفاجأة العيد السعيد.

تطلعت الوجوه إليها من كل صوب، وتجمع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثم أضيئت الأنوار مرة أخرى فرأى القوم منظرا بديعا: مهدا على قوائم أربع طويلة، مسقفا بستار من حرير على هيئة هرمية، وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين فى قميص أبيض كأنها وردة بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصفق الجميع تصفيقا رقيقا وهتفوا باسمها، وقبّل الآنسات يدها الصغيرة، ثم قدمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشد نزوعا للصبا والمسرة.

على أن فترة الظلام القصيرة لم تمر بسلام كما توهم الجميع. فقبيلها بدقائق كان الأستاذ محمد جلال يجالس هدى هانم فى المقصف وقد دل عبثهما المرح على أنهما ثملان، فلما أطفئت الأنوار لم يتردد الشاب فدنا برأسه منها حتى كادت تمس شفتاه أذنها وهمس قائلا: «هدى» وارتجفت المرأة كالمذعورة ولم ترد عليه، فقال لها همسا وهى تحس بلمس شفتيه لأذنيها: «هذه فرصة طيبة. قومى واتبعينى».

وكان بودها لو تتباله كما يقضى الدلال، ولكنها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همسا:

ـ إلى أين؟

ـ إلى حجرة التدخين فى الطابق العلوى.

ـ قد يفتقدوننا.

ـ وماذا يهم؟ . . سيظنون أننا فى الشرفة أو فى الحديقة أو فى المقصف أو هنا أو هناك وسنعود من طريقين متباعدين . .

وأمسك بكفها وقام واقفا فقامت بدورها، واتجه نحو السلم وهى تتبعه وارتقياه بسرعة، فوجدا نفسيهما فى ردهة مضاءة بنور بنفسجى هادئ تطل عليها أبواب متباعدة، فسارا إلى هدفهما ودخلا معا، ثم ردا الباب فى سكون، وكان الجو مظلما شديد الظلمة، ولكنه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين وتقدما خطوات حتى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة، فجلس وجلست، وتنهد من أعماق صدره وقبض على كفها فوجدها ترتعش كالمقرورة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزا لم يبرأ منه حتى ضمها إلى صدره بعنف وانهال على وجهها يقبله بشغف وجنون. كم لبثا منفردين؟! إنه لا يدرى، ولكن المحقق أن تلك الخلوة السعيدة لم تخل مما ينغصها، فقد خيل إليهما أن أقداما خفيفة كالمحاذرة تدنو من باب الحجرة، فتباعدا واقفين وأرهفا السمع واتجهت أعينهما فى الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هذا بأن يدا تعالج الباب بلطف.. ترى أحق هو أم وهم؟!

ولكن الباب تحرك ونفذ إلى الحجرة شعاع هادئ كروح محتضرة فاشتد بهما الرعب وودا لو تبتلعهما الأرض. وما لبث أن تسلل شبح فى حذر وتبعه آخر، ثم رد الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرة أخرى، وكان الداخلان شديدى الحذر فلم يبديا حركة ولم يصدرا أصواتا وكأنهما ذابا فى الظلمة الجاثمة.. فسكن ذعر الآخرين وأحسا بشىء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معا هى أن الضيفين الجديدين مثلهما وأن لا خطر عليهما منهما، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزة تصيب الكنبة فعلما أن صاحبيهما اختارا كنبتهما مقعدا لهما أيضا. وتريثا فى قلق صار بعد حين ضيقا وكدرا، لأنهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن يتنبه الآخران فيفزعا وربما يحدث ما لا تحمد عقباه!

أما الجديدان فكانا يظنان نفسيهما فى أمان وخلوة فلم يحاذرا إلا بمقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همسا وهمهمة وأن يسمعا الرجل يهانغ صاحبته وهى تهانغه، ولم يكتفيا بذلك بل قال بصوت استطاع الآخران أن يميزاه:

ـ حبيبتى.. صفية.

وارتجف محمد بك جلال كأنما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره؛ وأحس بارتجاف يد صاحبته فى يده.. كان الصوت صوت طه بك العارف. ومن هدى؟ أليست زوجه هو؟.. أى كارثة تجمعت فى هذه الحجرة المظلمة؟! ودق قلبه بعنف وغلى دمه غليانا كاد يفجر الشرايين فى دماغه، ولكنه لبث ساكنا صامتا وزوجه على قيد ذراع منه فى أحضان خليلها! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل ـ فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرية بالقضاء على مستقبله السياسى ومعركة الانتخابات على الأبواب ـ ولكنه كان مغيظا محنقا لأن غريمه لا يدرك فى تلك اللحظة أن زوجه بين يديه هو أيضا.

وانتظر دقائق كالأجيال؛ وشعر أخيرا بحركة استدل بها على قيام الرجل وسمعه يقبّل زوجه بحرية ويقول لها:

ـ لو تعدل الدنيا . . زوجك الغبى ليس أهلا لك وزوجتى ليست أهلا لى، ولكن، ولكن، ما العمل؟! ثم تسللا خارجين كما أتيا . .

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجا، وبحث عن سترته حتى عثر عليها وأخذ بيد صاحبته وخرجا فى حذر ثم افترقا فى الردهة.

ولبث ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة، يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهترة. ولم تكن هذه أولى خياناتها، ولكنها وقعت على كثب منه بحال بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة . . فسحقا لهما! . . وقام يتمشى فى الحديقة فاراً بوجهه المتقع من الأعين جميعا. ولفحه هواء الليل البارد فرطب جبينه الساخن وأنعش فؤاده المضطرم، وصح عزمه فى تلك اللحظة على أن يسلم قياده لمغامرات الغرام الجنونية غير مبق على شىء، ولو أدى الجنون إلى الظهور مع هدى فى المجتمعات العامة وميادين السباق. وتملكته هذه الخواطر فأحس بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبه إلى نفسه. فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغير غريب. فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، وبحث عن أسباب هذا التغير فوجد يديه تجسان السترة كأنها أوسع مما كانت . . ماذا حدث لها؟! يا للعجب . . إنها أوسع مما يتصور. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكى يتحقق من وساوسه وضع يده فى جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوبا عليها «طه بك العارف».

ووضح الأمر، وعاوده القلق والحنق، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة فسترات بدل السهرة متشابهة، لكنه يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: «كيف يمكن أن تتبادل السترتان»؟!

مرض طبيب

قبل عامين تفشى وباء التيفود فى مديرية الغربية تفشيا مخيفا فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكى أنيس طبيبا بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصة، وكان فى تلك الأيام يلاقى الشدائد المقضى على كل مبتدئ فى فنه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية؛ فكان ينتظر طويلا وعبثا توارد الزوار والمرضى مستوصيا بالصبر والتجلد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشى ذاك الوباء الخبيث تضاعف

عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه و مضى يراقب حركة السيارات التى تطوف بالبيوت وتعود محملة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثبة، وأحس على الرغم من كل شىء بسرور خفى وأحيا قلبه الأمل فى أن يدعى يوما لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت.

وصدق أمله، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوما يقلّب صفحات كتاب وتجرى عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدل منظره الوجيه وزيه الريفى الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصده بعد أن يئس من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنم عن القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ربع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعد العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب فى صدره من الفرح والظفر فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض، وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب بسيارة فخمة فخفق قلبه مرة أخرى، وتريث حتى فتح الرجل الباب وقال له:

ـ تفضل.

وجلسا جنبا إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزانته وصر بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعتلى شفتيه؛ وكأنه أراد أن يدارى عواطفه فسأل الرجل عن مريضه وتكلم الرجل فى إسهاب، فقال: إن المريض ابنه وإنه لم يجاوز العشرين من عمره، وإنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد؛ فسأله:

ـ هل حقن بالمصل الواقى؟

فأجاب بالنفى، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب مليا يفكر فى هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة فى أثناء ذلك تخترق الطريق الزراعى بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معا واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تعرض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية فى قصر العينى منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصا دقيقا فترجح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه فى تحفظ وقال: إنه ينبغى أن يفحص المريض فى اليوم التالى ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظن أنه ضمن لنفسه أن

يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله . ثم أخذ حقيبته واتجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنه يريد شيئا ، فلحق به والد المريض وهمس فى أذنه قائلا :

ـ تفضل .

فخفق قلبه لثالث مرة ذاك اليوم ومد يده وهو يقول :

ـ شكرا .

فأحس بثلاث قطع من ذات عشرة القروش توضع بها ، ثم جلس فى السيارة منفردا هذه المرة ، وانطلقت به فى طريق العودة ، وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض فى بيته ، فاغتبط ورضى وأشعل غليونه ، وراح يدخن بحالة من السرور ولم تخل من اضطراب عصبى فأخذ «أنفاسا» سريعة فتوهج التبغ وسخن الغليون ، ولم يستمر فى التدخين طويلا فوضعه فى جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة فى الأفق البعيد ، وكانت تنتهى عند الطريق الزراعى بجدول من الماء ينساب صافيا تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتغشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار ؛ فاستسلم لسحر الرؤية ، وشعر بتخدير لذيذ حتى انتبه إلى تغير غريب يسرى فى صدره وجسمه فتحوّلت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحس بسخونة تنتشر فى أعضائه جميعا كأن حرارته ارتفعت بغتة ، فتململ فى جلسته وحرك رقبته بعنف ، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكتة وأخرج منديلا يروح به على وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلا لطيفا . واشتدت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة ، فجس خديه وجبينه وشعر بثقل فى جفنيه ورأسه وضيق فى التنفس ، وتساءل فى حيرة عما أصابه ، وخطر له خاطر مخيف : هل يكون مريضا؟! . . وذكر لتوه الحمى الشيطانية التى تفتك بأهل المديرية فتكا جهنميا .

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقى ، فكيف انتقلت إليه العدوى؟! . . هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟! ولفه الذعر ، وكان فى الحقيقة جبانا رعديدا شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف ، فعاد يجس خديه وجبينه فوجدها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلتهب التهابا فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول : «يا للويل . . . لقد أصبت وانتهيت . . » .

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب ـ وكانت عيادته ومنامه فى شقة واحدة ـ فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجى وقال له : «ناد الدكتور سامى بهجت بسرعة وقل له إنى أصبت بالتيفود» . فجرى الرجل مرتعبا وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش فى حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خُيّل إليه أن شرايينه ستنفجر من الحرارة وكان يستحضر فى

ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمة شك فى أنه مريض؛ وثبت فى وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته، وكان شديد الجبن متهافت الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط فى النجاة وبات فى يأس عظيم، وظل يعد الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضبا: «هيهات أن يجد الدكتور فى عيادته. وسأجن هنا وحدى. . .».

وفى أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه. وفكر فعلا فى أن يبعث إليها ببرقية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربما عرضها للخطر أيضا ـ وكان هذا أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا ـ فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى. وربما تمكن من رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها فى تلك الساعة حنينا موجعا. . وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن يدعه فى راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه؛ ولم يكن دار له بخلد أن الطبيب بمأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر فى أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجمل أن يجزى غير هذا الجزاء؟!. . .

وقر فى نفسه أن العدوى انتقلت إليه فى أثناء قيامه بواجبه فى المستشفى على الرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التى لم يتح له التمتع بها، وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعا عنيفا! ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية. . . وحدثه قلبه الرعديد بأن نهايته حمت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه. فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان لايزال محتفظا بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة فى الانحلال، فألقى عليه نظرة أسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به. .

ثم أدار رأسه قانطا، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه: علام الخوف والذعر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغدا. . . هو النهاية المحتومة على أية حال لمهزلة الحياة. . . وماذا يضيره أن يقصر دوره فى هذه المهزلة؟ فلعل فى قصره اختزالا لآلام مروعة. على أن تعزيه لم يدم طويلا. . وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى. . . فذكر آماله وأطماعه فى المجد والثروة وارتسمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة. . . وشعر بامتعاض يفوق الوصف. . . وذكر الثلاثين قرشا التى طرب لها فرحا قبل حين قصير: فازداد امتعاضه، ولعن رزقه الذى يناله من أيد شحيحة، لا تفرط فيه حتى يهزلها المرض، فتتراخى عن الضن به ولعله النظام الذى يجعل سعادة القوم منوطة ببؤساء

آخرين . . . يا لها من مهنة مخيفة ، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء! . . .

وسخر فى ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة ، تلك الألفاظ الصماء التى حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له فى شعور قط . . . فهو لم يشمر قط لغير المجد والثروة ، ولم يتصور ساعة أنه يبلغهما بغير معونة المرض . . . فعبده وهو لا يدرى ، ونصبه إلها يقدم له القرابين البشرية كبعل القديم ، حتى سقط هو أخيرا قربانا له . فأى حياة هذه؟ . .

وذكر أيضا فى هذيانه وتشاؤمه قرويا بسيطا عرض له فى العيادة الخارجية بالقصر العينى ، وكان يريد أن يكشف على حلقه ، فأمره أن يفتح فمه . . . وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه ، وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الضيق ، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل ، فضرب جبين القروى بالمجهر ، فشجه وأسال دمه . . . وقد أسف لذلك حقّا ، ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئا . . . وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العينى من أعمال القسوة التى تفزع من هولها النفوس البشرية ، فذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض ؛ لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح ، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد ، واسودّت الدنيا فى عينيه ، وعافت نفسه كل شىء فى تلك الساعة الخبيثة .

ثم سمع وقع أقدام فى الردهة وصوت التمرجى يحادث الدكتور ، فتمشت فى أعصابه موجة نشاط ونسى وساوسه ، وفزع إلى القادم بأمل جديد ، ودعا ربه بصوت متهدج قائلا :

«آه يارب . خذ بيدى! هبنى حياتى مرة ثانية ، أهب الناس أشرف ما فى نفسى حتى الموت» .

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع :

ـ مساء الخير يا دكتور . ما لك؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان فى الحق يستغيث :

ـ أصبت .

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة ، ثم قال :

ـ لعلها الإنفلونزا .

فقال بيأس :

ـ كلا . . لا أشكو زكاما ولا صداعا . . .

ـ ولكنك لم تشك تعبا أو فقدان شهية فى هذه الأيام ، أليس كذلك؟!

وتفكر الشاب قليلا متحيرا ثم تمتم قائلا :

ـ حرارتى فظيعة . . . إنى أشعر بالمرض شعورا مخيفا . . .

ـ هل قست الحرارة؟!

فعجب كيف فاته ذلك، وهز رأسه نفيا ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر فى يده. ثم وضعه فى فمه وانتظر هنيهة، أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشاب رافعا حاجبيه وقال ببساطة :

ـ حرارتك طبيعية . . انظر!

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عينيه، وجس خده ثم قال :

ـ هذا عجيب! خدى ما زال ملتهبا. كيف هبطت الحرارة؟

وأتى الدكتور بسماعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكتة ففعل.

ووقع بصر الرجل على الفانلة فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها :

ـ انظر!

فأحنى الشاب رأسه ناظرا إلى الفانلة فرأى فوق القلب دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف، فاستولت عليه الدهشة وجلس فى فراشه وهو يتساءل :

ـ ما الذى صنع بى هذا؟!

فضحك الدكتور بصوت عال وقال :

ـ ها أنت ذا تكشف حمى جديدة يا دكتور!

وخطر للشاب فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من الفراش واتجه نحوها ووضع يده فى جيب الجاكتة الأعلى متناولا غليونه، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذى أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير فى الفانلة، ووقف مرتبكا ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح، وقد أحس بحرارة جديدة هى حرارة الخجل والارتباك.

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيدا مرة أخرى، وكانت ابتسامة الارتباك والخجل لا تزال تعلو شفتيه، ولكنه كان يحس بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر الله الذى وهبه حياته مرة أخرى.

وبر الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنسانا قبل كل شيء. وعاد إلى عمله تنبض فى قلبه أشرف العواطف وأنبلها، وكان يظن أنه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتد به الزمن، ولكن وا أسفاه! إن انقضاء الليل والنهار ينسى، ومن ينغمر فى الدنيا يذهل على نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير. فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه

ووعده حتى نسى ولم يعد يذكر إلا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه، ثم ارتد إلى ما كان عليه. وكانت تلك الأيام القلائل فى حياته كهدوء البحر الذى يصفو ويرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغى ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعله لا يذكر هذه الحادثة الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صحبه إذا دعى داعى الحديث أو السمر!

فلفـــــل

فى قهوة السعادة أشياء كثيرة تستثير الاهتمام. منها فلفل وهو غلام فى الثانية عشرة أو جاوزها بقليل اسمه الحقيقى طه سنقر ولكنه اشتهر بفلفل، وهو يسعى بجمرات النار إلى مدخنى النارجيلة والجوزة من طلوع الصباح حتى انتصاف الليل. على أن الاصطلاحات لا تخلق اعتباطا فللغلام من اسمه الجديد نصيب. كان خفيف الحركة متحفز النشاط فما إن يُدْعَ حتى يندفع نحو داعيه كالنحلة ويقطع النهار كله ونصف الليل لا يقر له قرار أو يسكت له صوت وقد اشتغل فى القهوة منذ عام نظير قرش فى اليوم غير جوزة وفنجان شاى يقدمان له فى الصباح ومثلهما بعد الغداء وكان بذلك جد سعيد، يتيه فخارا كلما ذكر أنه صار قواما على نفسه وصاحب قرش وأخا «كيف ومزاج». وفوق ذلك لم تكن حياته منحصرة فى الحاضر، كان يرمق بعين الطموح ذلك اليوم حين يأذن له «المعلم» بتقديم النارجيلة والجوزة أسوة بالنار والماء فينتقل من درجة غلام إلى درجة صبى ومن يعلم بعد ذلك أين يقف به الترقى؟! وهو فى سبيل طموحه لا يكف عن تمرين حنجرته بالهتاف والنداء على الطلبات لأن أهمية الحنجرة فى القهوة البلدى تضاهى أهميتها فى نادى الموسيقى...

ومن أعجب ما رأى فلفل فى قهوة السعادة جماعة من طلاب العلم، تجتذبهم القهوة فى أماسى العطل والإجازات فيأوون إلى ركن منها يسمرون ويلعبون النرد ويحتسون الشاى والزنجبيل، وكانوا كبقية رواد القهوة من جمهور الشعب الفقير، ولكن المدرسة سمت بهم إلى طبقة معنوية عالية، فانتبذت الكبرياء بهم ركنا منعزلا وإن كانوا يرتدون عادة الجلابيب بل وينتعل بعضهم القباقيب. فإذا اجتمع شملهم وفرغوا من احتساء الشاى والزنجبيل قرأ أحدهم جريدة من جرائد المساء وأنصت له الآخرون ثم يندفعون إلى المناقشة والتعليق فيحتدم الجدل وتستمر المناقشة.

وجاء مساء فاستطاع أن يفهم ما يقولون لأول مرة، بل سرّ به سرورا لامزيد عليه، فى

ذلك المساء قرأ قارئهم ـ فيما يقرأ ـ خبر قضية رشوة موظف كبير ثم أخذ الصحاب كعادتهم فى النقاش والتعليق فقال واحد منهم متحمسا :

ـ هذا واحد أمكن يد العدالة أن تصل إليه مصادفة ، ويوجد غيره كثيرون لا ينأى بهم عن غيابات السجون ، إلا أن العدالة لا تزال ضالة عنهم .

وقال آخر أشد تطرفا وأبعد عن وزن كلامه :

ـ ليس الداء قاصرا على الموظفين ، فغيرهم ـ وأنتم تعلمون من أعنى ـ أفظع وأضل سبيلا . هذا بلد لو أقيم به ميزان العدالة كما ينبغى لامتلأت السجون وخلت القصور !

واستبق الناقدون وتناولوا أسماء كثيرة فمزقوها إربا ولوثوها بكل منكر بأصوات مرتفعة لا تبالى شيئا فقال بعضهم :

ـ أضرب لكم مثلا بفلان . . . أتدرون كيف جمع ثروته الطائلة ؟ !

ثم جعل يعدد وسائل الإجرام التى ابتز بها أموال الناس كأنه كان كاتم سره أو مرجع رأيه ، ثم تتابع النقاد والمشرحون واختار كل شخصية من الشخصيات الكبيرة يروى تاريخها كما يشاء ويكشف عن مثالبها مفتتحا كلامه بهذه العبارة المثيرة : «وفلان هل تدرون كيف جمع ثروته الطائلة ؟ !» وما زالوا فى حملتهم حتى صاح أحدهم غاضبا :

ـ هذا بلد السرقة فيه حلال !

فهم فلفل هذا الحديث فلم يعقه عن فهمه لفظ غريب أو تعبير معقد ، وكان بما يتقن من أنواع القذف والسباب أشبه ؛ فطرب أيما طرب ووافق منه هوى دفينا ؛ فما أجمل أن يقال إن هذا بلد لصوص ! ما أجمل أن يقال إن السرقة فى هذا البلد حلال . فهو لص بحكم نشأته تربى بين أحضان السرقة فعرفها فى المهد : فأمه ـ وهى بائعة دوم ـ تنفق أوقات الفراغ فى اصطياد الدجاج الضال ، أما أبوه عم سنقر بائع الفول السودانى فمولع باختلاس القمصان والسراويل من أسطح البيوت وله فى ذلك حيل يخطئها الحصر ، ولكن ماذا أفادت أسرته من جهادها ؟

وانتهت تلك الليلة بغير ما يحب فلفل ، فحين عودته إلى بيته ، أو إلى الحجرة التى يبيت بها أبواه وأخواته ، وجد أمه لا تزال مستيقظة يعلوها الوجوم والانكسار ، وأخواته من حولها باكيات ، فانزعج الغلام وتولاه الخوف ورأته أمه فقالت له قبل أن يسألها : «أخذ الشرطى أباك» . فأدرك الغلام ما هنالك وتحول إلى أخته الكبرى فقالت له : إنهم اتهموه بسرقة بعض الثياب وساقوه إلى القسم . ثم استدركت بعد لحظة سكوت قائلة : إنهم لن يردوه قبل أشهر أو أعوام ؛ وكان فلفل فى العادة لا يلتقى بأبيه إلا نادرا ؛ لأنه كان

ينام قبل أن يرجع من تجواله، ويخرج إلى القهوة صباحا قبل أن يصحو. ولكنه على رغم ذلك تأثر بالجو الحزين فداخله الحزن وبكى، ثم ذكر ما سمعه فى المساء فجعل يقول لأمه: إن البلد كله لصوص وإن السرقة فيه حلال. وقص عليها نحوا مما بلغ مسمعيه. فلم ترتح المرأة إلى ثرثرته وأعرضت عنه ونهرته أن يسكت. . ثم لطمته على وجهه. .

فى صباح اليوم الثانى استيقظ فلفل وقد نسى أمس كله، وكأنه ولد من جديد فانطلق إلى القهوة بخطاه الواسعة لا يحمل بين جنبيه همّا. والواقع أنها لم تكن أول مرة يساق فيها أبوه إلى السجن. .

صوت من العالم الآخر

١

يا إلهى ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة الفانية؟! إنه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذ وطاب. لقد حليت جدرانه بصور الجوارى والخدم، وفرش بأفخر الأثاث، وأجمل الرياش. وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلى؛ وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفاكهة، وها هى ذى مكتبتى حملت إليه بمجلداتها الحكمية، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام. هى الدنيا كما عهدتها. ولكن هل ثمة طعم للدنيا فى حواسى الآن؟! أبى حاجة إلى متعة من متعها؟! جهد ضائع ذلك الذى بذله الذين هيأوا هذه المقبرة. بيد أنى لا أستطيع أن أنكر أمرا غريبا هو أنه ما فتئت نفسى تنازعنى إلى القلم. يا عجبا؟! ما لهذه الأوراق تنادينى بسحرها المحبوب؟! ألا يزال بى موضع لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى؟ أقضى علينا - معشر الكتاب - أن تشقى بضاعتنا فى الحياتين؟! على أية حال لا يزال أمامى فترة انتظار أبدا بعدها رحلتى الأبدية. فلأشغل هذا الفراغ بالقلم. فلطالما زان القلم الفراغ الجميل.

رباه! أما زلت أذكر ذلك اليوم الذى فصل بين الحياة والموت من عمرى؟! بلى. فى ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبل الغروب، بعد عمل شاق، تعنانى فيه الجهد، حتى قال لى الأمير: «توتى . . . كف عن العمل. ولا تشق على نفسك» . . وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربى فى سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام، ولآلئ من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت فى طريقى المعهود متسمتا شجرة الجميز فى طرف القرية الجنوبى حيث يقوم بيتى الجميل.

يا آمون المعبود. ما هذا الألم فى العظام والمفاصل؟ ليس ما بى أثر من جهد العمل، فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع، ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الإعياء بالقوة والعزم. أما هذا الألم المضنى، أما هذه الرعشة المزلزلة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعبا. أيكون ذاك الخبيث الذى لا ينزل بجسم حتى يورده التهلكة؟ انطو يا طريق القرية بحسنك فما فى جوارحى قوة تقبس من جمالك. واغرب يا طير السماء فما فى صدر توتى المسكين حنان يناديك. وأخذت أمشى فى الطريق قلقا متأوها. وعند عتبة البيت طالعنى وجه زوجى رفيقة شبابى وأم أبنائى. فهتفت بى: «توتى أيها المسكين. ما لك تنتفض. ما لعينيك مظلمتان..؟!» فقلت لها محزونا مكتئبا: «يا أختاه.. وقع المحظور.. وحل الخبيث بجسم زوجك. هيئى الفراش ودثرينى. ونادى الحكيم والأبناء والأحباب. قولى لهم إن توتى على فراشه يضرع إلى ربه. فاضرعوا معه. واسألوا له الشفاء!».

وحملتنى التى تهوانى على صدرها، وجاء الحكيم يجرعنى الدواء وأشار بأصبعه إلى السماء وقال لى: «توتى.. أيها الكاتب الكبير! يا خادم الأمير الجليل! أنت فى حاجة لرحمة الرب، فادعه من أعماق قلبك». ورقدت لاحول لى ولا قوة. يا آمون المعبود جلت حكمتك! ألم أصحب سيدى الأمير إلى الشمال فى جيوش فرعون؟ ألم أشهد القتال فى صحارى زاهى؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل؟ بلى أيها الرب ونجوت من الرماة والعجلات والمعارك. فكيف يتهددنى الموت فى قريتى المحبوبة الآمنة بين أحضان زوجى وأمى وأبنائى؟!

وغرقت فى أبخرة الحمى، واشتد الدوار برأسى، وسال بلسانى الهذيان، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبى. وما أقساك أيها الموت! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخرى، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم، لا تهزك الدموع، ولا تستعطفك الآمال. تدوس حبات القلوب، وتتخطى الأمانى والأحلام. ثم لا تبدل سنتك ولو كان الفريسة فى ربيع العمر الزاهر. توتى فى السادسة والعشرين ذو بنين وبنات، ألا تسمع؟ ماذا يضيرك لو تركت أنفاسى تتردد فى صدرى؟ دعنى ريثما أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة. إنها لم تسؤنى قط ولم أزهد فيها قط. أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد. كانت الصحة طيبة والمال موفورا والآمال كبارا. ألم تحط بكل أولئك خبرا؟ ومن حولى قلوب محبة ونفوس وآلهة، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة؟

كأنى لم أعش ساعة واحدة فى هذه الحياة الجميلة المحبوبة. ماذا رأيت من مشاهدها؟ ماذا سمعت من أصواتها؟ ماذا أدركت من معارفها؟ ماذا ذقت من فنونها؟ ماذا جربت من ألوانها؟ أى فرص ستضيع غدا؟ أى نشوات ستخمد؟ أى عواطف ستهمد؟ أى المسرات ستبيد؟! ذكرت ذلك جميعه. ودارت بخلدى أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد، ما بين مفاتن الماضى وسحر الحاضر وأمانى المستقبل. وجرت أمام حواسى الورد

والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشارب والألحان والأفكار والحب والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه. وتساءلت: أيمضى كل هذا إلى الفناء؟ وانقبض صدرى أيما انقباض، وامتلأت حزنا وكمدا وهتفت كل جارحة بى: «لا أريد أن أموت».

وتتابعت جحافل الليل. فغلب النوم الصغار. ولبثت زوجى عند رأسى وأمى عند قدمى، وانتصف الليل ونحن على حالنا، ثم استدار وأوغل فى الرحيل، ثم بهتت ذوائبه بزرقة الفجر. هنالك داخلنى شعور غريب بالرهبة وتولانى إحساس بالخوف. وأطبق السكون وأنذر بشىء خطير، ثم شعرت بيد أمى تدلك قدمى وتقول بصوت متهدج: «بنى.. بنى!». وهتفت زوجى المحبوب: «توتى.. ماذا تجد؟» ولكنى لم أستطع جوابا. لا شك فى أن أمرا استثار جزعهما. ترى ماذا يكون؟ هل لاح فى وجهى النذير؟ وتحولت عيناى على غير إرادة منى نحو مدخل الحجرة. كان الباب مغلقا بيد أن الرسول دخل. دخل دون حاجة إلى فتح الباب. فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه. واقترب منى فى خطى غير مسموعة. كان مهيبا صامتا مبتسما ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى، ولم أعد أرى من شىء سواه. وأردت أن أضرع إليه ولكن لم يطاوعنى اللسان. وكأنى به قد أدرك نيتى الخفية. فازدادت ابتسامته اتساعا. فآنست منه رفقا. ولم أعد أبالى شيئا. انجابت عنى وساوس الليل وأحزانه وحسراته. وغفلت عن دموع من حولى، ووجدت نفسى فى حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهدها من قبل. سلمت فى محبة لا نهائية وتركت جسمى فى المعركة وحيدا! رأيت ـ دون مبالاة ألبتة ـ دمى يقاوم فى عروقى. وقلبى يدق ما وسعه الجهد، وعضلاتى تنقبض وتنبسط وأنفاسى تتردد من الأعماق، وصدرى يعلو وينخفض. وشعرت بالأيدى الحنون تسند ظهرى وتحيط بى. رأيت ظاهرى وباطنى رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث. وقد تحول الرسول عنى إلى جسمى وأخذ فى مباشرة مهمته فى ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجميلتين. وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تذعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت، حتى غادرت الفم المفغور فى زفرة عميقة. سكن جسمى وصمت إلى الأبد وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد.

٢

غمرنى شعور عجيب بأنى فارقت الحياة، وأنى لم أعد من أهل الدنيا. ماذا حدث؟! وما الذى تغير فى؟! مازلت فى الحجرة، والحجرة كما كانت؛ فأمى وزوجى تحنوان على

جسمى ، ولكن حدث شىء بلا ريب ، بل أخطر الأشياء جميعا ، لم أوخذ على غرة . ولو كان بى قدرة على الكلام لأجبت زوجى ـ حين سألتنى : «توتى ماذا تجد؟» بأنى أموت . ولكنى فقدت قدرتى على الكلام وغيره فلم أوخذ على غرة كما قلت ، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع بدبيب الكرى وتخدير النعاس ثم رأيته جهرة . والذى لا شك فيه أن الموت ليس مؤلما ولا مفزعا كما يتوهم البشر ، ولو عرف حقيقته الحى لنشده كما ينشد الخمر المعتقة ، وفضلا عن هذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئا تافها حقيرا إذا ما تخايل فى الأفق ذاك النور الإلهى البهيج . كنت مكبلا بأغلال فانفكت أغلالى . كنت حبيسا فى قمقم فانطلق سراحى . كنت ثقيلا مشدودا إلى الأرض فخلصت من ثقلى وأرسلت وثاقى . كنت محدودا فصرت بغير حدود . كنت حواس قصيرة المدى فانقلبت حسا شاملا كله بصر وكله سمع وكله عقل ، فاستطعت أن أدرك فى وقت واحد ما فوقى وما تحتى وما يحيط بى ، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامى لأتخذ من الكون جميعا جسما جديدا .

حدث هذا التغيير الشامل الذى يجل عن الوصف فى لحظة من الزمان ، بيد أنى ما برحت أشعر بأنى لم أغادر الحجرة التى شهدت أسعد أيام حياتى السابقة . كأن العناية وكلتنى بجسمى القديم حتى ينتهى إلى مستقره الأخير ، فجعلت أتأمل ما حولى فى سكون وعدم اكتراث . وقد غشى جو الحجرة حزن وكآبة ، وأخذت أمى وزوجى تتعاونان على إنامة جسمى ـ صاحبى القديم ـ بملامحه المعهودة راقدا لا حراك به ، وقد ابيضّ لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه ، وناداه أبنائى والخدم . . وراحوا جميعا يعولون وينتحبون . ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمدا وحزنا وغما . ومضيت أنظر إليهم بعدم اكتراث غريب كأنه لم تربطنى بهم يوما آصرة قربى ! ما هذا الجسم الميت؟ لماذا تصرخ هذه المخلوقات؟ ما هذا الأسى الذى جعل من سحنهم دمامة شوهاء ! كلا لم أعد من أهل هذه الدنيا ، ولم يردنى إليها صراخ أو بكاء ، ووددت لو تنقطع أسبابى بها لأحلق فى عالمى الجديد . ولكن واأسفاه ، إن بقية من حريتى لم تزل عزيزة علىّ ، أسيرة إلى حين فلآخذ نفسى بالصبر و إن شق علىّ .

وجاءت أمى بملاءة وسجت الجثة ثم أخرجت العيال والخدم . وأخذت زوجى من يدها ، وغادرتا الحجرة وأغلقتا الباب . لم يغيبا عن ناظرى لأن الجدران لم تعد حائلا يحجب شيئا عن بصرى ، فرأيتهما وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد ، ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان ضفائرهما وتحثوان التراب على رأسيهما ، وخلعتا النعال وهرعتا إلى باب الدار ، وانطلقتا تصوتان وتلدمان ، ومضت أمى تصرخ : «وا ابناه» فتصرخ زوجى : «وا زوجاه» ثم تهتفان معا : «يا رحمتا لك يا توتى المسكين ! خطفك الموت ولم يرحم شبابك» . وتركتا الدار على تلك الحال من العويل والنواح ، وأخذتا فى

طريقهما، حتى إذا مرتا بأول دار تليهما برزت لهما ربة الدار فى ارتياع وصاحت بهما: «ما لكما يا أختى؟!». فأجابت المرأتان: «خربت الدار، تيتم الصغار، وثكلت الأم، وترملت الزوج، يا رحمة لك يا توتى..». فصوتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت: «وا حر قلباه.. يا خسارة الشباب.. يا ضيعة الآمال..». وتبعت المرأتين وهى تحثو التراب على رأسها وتلطم خديها، وكلما مررن بدار برزت ربتها وانضمت إليهن، حتى انتظم الحشد نساء القرية جميعا، وتقدمتهن امرأة دربة بالنياحة، فجعلت تردد اسمى وتعدد فضائلى، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى فى كل مكان. هذا اسمى تردده النائحات، ما له لا يحركنى؟!

أجل، لقد صار الاسم غريبا غرابة هذه الجثة المسجاة، وبت أتساءل: متى ينتهى هذا كله؟ متى ينتهى هذا كله؟! وعندما أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدسة. وكانت الحجرة مستطيلة ذات اتساع كبير، وليس بها من نافذة إلا كوة تتوسط السقف، وفى الصدر قام السرير وعلى الجانبين رفعت رفوف رصت عليها أدوات الكيمياء، وفى الوسط ـ تحت الكوة ـ حوض كبير ملىء بالسائل العجيب، وخرج الرجال فلم يبق إلا رجلان، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما فى فنهما فأخذا فى عملهما دون إبطاء، وقد جاء أحدهما بطست، ووضعه على كثب من السرير، وتعاونا معا على تجريد الجثة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شىء. فعلا ذلك فى هدوء وعدم اكتراث، ثم قال الذى جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدرى وذراعى: «كان رجلا قويا.. انظر!»، فقال الآخر: «كان توتى من رجال الأمير، يؤاكله ويشاربه، وفضلا عن ذلك، فقد خاض غمار الحروب!». فقال الذى جاء بالطست متحسرا: «لو أن الأجسام تعار!؟»، فأجابه الآخر ضاحكا: «أيها العجوز، ما جدوى جسد ميت؟!» فقال وهو يهز رأسه: «وكان قويا حقّا».

فقال الآخر ضاحكا وهو يتناول خنجرا طويلا حادا من أحد الرفوف: «فلنختبر قوته!». وطعن الجانب الأيسر فيما يلى الصدر بخنجره. حتى غاب نصله، وشقه حتى أعلى الفخذ، وأعمل فى الداخل يده بمهارة ودربة، ثم استخرج الأمعاء والمعدة، وأودعهما الطست، وقفاهما بالكبد والقلب، فسرعان ما رأيت باطنى جميعا. ولم يستغرق ذلك إلا دقائق معدودة، فالرجال من مهرة المحنطين الذين أتقنوا عملهم أيما إتقان، ورحت أنظر إلى باطنى بعناية، وبخاصة إلى معدتى التى عرفت بقوتها ونشاطها، ولم يحل غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوة السحرية التى اكتسبها بصرى، فرأيت فيها مضغ الإوزة والتين وبقايا النبيذ التى تناولتها على مائدة الأمير مساء

الأمس، وذكرت قوله حين عزم عليّ بالطعام: «كل يا توتى واشرب، وتمتع بالحياة أيها الرجل الأمين!» . .

رأيت وذكرت دون أن يعرونى أى أثر أو انفعال، ودون أن يزايلنى عدم الاكتراث العجيب، ثم حولت بصرى إلى قلبى فرأيت عالما حافلا بالعجائب، رأيت بشغافه آثار الحب والحزن والسرور والغضب، وصور الأحبة والرفاق والأعداء، وقد ترك الهيام بالمجد به فجوة عمقها ما خضت من معارك فى بلاد زاهى والنوبة، ولاحت على رقعته مشاهد مروعة لميادين القتال، وأجزاء ملتهبة دامية من أثر ذلك الطمع العنيف الذى بعثنى للكفاح بلا رحمة حتى ضممت إلى أرض أسرتى قطعة أرض تجاورها نازعنى عليها جار بضع سنين. رأيت فيه جل حياتى وما عانيت من الأهواء. أما الرجل فمضى فى عمله يحدوه الهدوء، والمران، فأتى بكلاب دقيق وأولجه فى أنفى باحتراس حتى تمكن من هدفه، ثم وجهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة، فسال مخى الكبير من منخرى مادة رخوة تذرو فى الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولآلئ الآمال ودخان الأحلام. هذه أفكارى منقوشة أمام عينى، فإذا قارنتها بنور الحق الذى يتخايل لروحى بدت تافهة مشوهة، لقد قاتلها المثوى الذى أوت إليه. رأسى ومخى. هأنذا أقرأ القصيدة التى صغتها فى وصف قادش! وها هى ذى الخطب التى ألقيتها بين يدى الأمير فى المناسبات المختلفة، وهذه آرائى فى آداب السلوك، وهذه الحكم التى حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت فى كتب قاقمنا! كل أولئك أزاحه الرجل مع فتات المخ فاستقر بين الأمعاء والمعدة فى الطست الدامى، غير ما تناثر على الأرض فداسته الأقدام.

قال الحكيم وهو يعيد الكلاب إلى موضعه: «الآن صارت الجثة نظيفة!» فقال صاحبه ضاحكا: «ليتك تجد بعد موتك يدا ماهرة كيدك!» وحمل الحكيمان ما تبقى من جسمى إلى الحوض الكبير، وأناماه فيه، فامتلأ بالسائل الساحر وغرق فيه، ثم غسلا أيديهما وغادرا المكان، وقد أدركت أن الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يوما ـ مدة التحنيط ـ فمسنى الجزع. وقع فى نفسى خاطر أن أنطلق بروحى إلى العالم لألقى عليه نظرة الوداع . .

٣

استرق إلى نفسى خاطر أن أنطلق بروحى إلى العالم فانطلقت، لم تحدث حركة فى الواقع. وإنما كان يكفى أن يتجه فكرى إلى شىء حتى أجده ماثلا أمامى، بل الواقع أعظم من ذلك؛ فقد صار بصرى شيئا عجيبا، لا يعصى أمره شىء، صار قوة خارقة

تشق الحجب وتتخطى السدود، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق. بيد أنى ـ وقد حم الوداع ـ نازعنى الفكر إلى أهلى فوجدت نفسى فى دارى. أما الصغار فقد راحوا فى نوم عميق لا يزعجه مكدر. وأما زوجى وأمى فقد افترشتا الأرض، ولاح فى وجهيهما الهم والغم. لشد ما أعياهما الحزن والبكاء! وغدا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مثواه الأبدى. وقد تغلغل روحى فى فؤاديهما فتحرك رأساهما وتمثلت لهما فى الأحلام، ورأيت القلبين المحزونين يخفقان فى كمد وألم. فيم كان كل هذا الكدر؟!

بيد أن شيئا استرعى بصرى! رأيت فى سويداء القلبين نقطة بيضاء. فعرفتها ـ فما عاد يخفى على علم شيء ـ فهى بذرة النسيان! آه.. ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله. أجل أدركت هذا حق الإدراك، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشىء، وتساءلت مسوقا بلذة المعرفة: متى يمكن أن يحدث هذا؟! فأرتنى عيناى العجيبتان صورة من المستقبل: رأيت أمى تمسك غلاما بيمناها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوحة بزهرة اللوتس. فعلمت أنها خرجت ـ أو أنها ستخرج ـ للمشاركة فى أسعد أعياد قريتنا، عيد الإلهة إيزيس، كان وجهها متهللا وكان ابنى يهتف ضاحكا. ورأيت زوجى تهيئ مائدة ـ والطعام خير ما تصنع فى دنياها ـ وتدعو إليها رجلا أعرفه، فهو ابن خالها ساو. ونعم الزوج هو. ولو أن ميتا يسر لسررت لها، لأن ساو رجل فاضل، وهو خير من يسعد زوجى ويرعى أبنائى. وانصرفت روحى عن دارى، فمرت فى سبيلها بقصر أميرى المحبوب، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسفا لفقدى وهو الذى قدرنى أجمل التقدير وجازانى خير الجزاء. ووجدته مشغولا باختيار خلف لى، فقرأت فى ذاكرته اسم المرشح الجديد «آب رع»، وكان من مرءوسى النابهين وإن لم تتصل بيننا أسباب المودة.

كل هذا جميل. ولكن إلام أبقى فى قريتى واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام. رأيت منف ـ فى لمح البصر ـ تعج بجمهورها الحاشد، والقصر فى أروع منظر. وقد اجتمع فى بهو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد. هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد. وهذا فرعون المظفر يحدث رسول الحيثيين الجبابرة فى جو بالمودة عامر. أما صدر الملك فقد امتلأ احتقارا، وترددت بأعماقه هذه العبارة: «لابد مما ليس منه بد». وأما صدر الرسول فقد بض كراهية، وتحيرت به هذه الفكرة: «صبرا حتى يموت هذا الملك القوى».

ونشطت عيناى، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون. رأيت عالمى الظاهر والباطن بغير حجاب. وتسليت زمنا بتفحص ما فى البطون من طعام فاخر وشراب معتق، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم! وهما محرمان على الكهنة. وتساءلت: ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودس هذا الطعام فى جوفه؟!

ولمحت فى ناحية من معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذى أودى بحياتى، وكان الرجل يحاور قائدا فى سرور وانشراح فقلت له فى نفسى: «على الرحب والسعة!».

ثم وقع بصرى على الحاكم تيتى الذى اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالى فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه، فنظرت إليه بإمعان وسرعان ما تكشف لى عن جسم مهزول، مريض الأعضاء، لا يفتأ يشكو مر الشكوى أسنانه ومفاصله. وكلما ألح عليه الألم تمنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه. ولذلك تملكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردد عن بتر المعوج من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة.

وإلى جانب تيتى شاهدت الوزير مينا، ذلك الرجل العنيد الذى حارب فكرة الصلح بكل قواه، وطالما حرض على القتال، وتساءلت: ترى ما سر عناد هذا الوزير الخطير؟! رأيت عقله نيرا، ولكن أمعاءه ضعيفة فستبقى فضلات الطعام طويلا فتلوث دمه فى دورته فيذهب إلى عقله فاسدا ويغشى نور أفكاره، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحا مستقيما كما أرى مخه مسودا ملوثا!

ثم دار بصرى بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء بسمات الثغور. هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس صاحبه: «متى العودة إلى القصر حيث السماع والقيان؟». وهذا صدر يتوجع قائلا: «لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائدا على فرقة الرماح!». وذاك صدر يقول فى جزع متسائلا: «متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشية فأهرع إلى زوجه الحسناء المحبوبة؟!.. آه..». وقال صدر لصاحبه من الأعماق: «لا يدرى إنسان متى يحين الأجل». فلا يجوز بعد اليوم أن أؤخر بناء مقبرتى. «أو فما فائدة المال إذن؟!» وتولت الحيرة صدرا كبيرا فجعل يقول لصاحبه: «قال إخناتون: إن الرب هو آتون. وقال حور محب: إنه آمون. وهناك قوم يعبدون رع فلماذا يتركنا الرب فى شقاق؟» ولم أواصل الاستطلاع طويلا فى هذا الحفل الفرعونى الجليل إذ سرعان ما أدركنى الملل. فتحولت عنه ووجدت نفسى مرة أخرى فى الدنيا الواسعة.

ومرت أمام ناظرى مشاهد كثيرة من الأرض والسماء، لمست حقائقها جهرة، ونفذت إلى صميمها. حتى وقع البصر على جنين يتكون فى رحم، فرأيته يكتسى لحما وعظما. وشهدت مولده. وجرى البصر معه فى المستقبل فرآه طفلا وصبيا وغلاما وشابا وكهلا وشيخا وميتا. وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحة ومرض وحب وملل. رأيت ذلك جميعه فى دقيقة من الزمان. حتى يختلط فى أذنى بكاء الميلاد وشهقة الموت!

وغلبتنى على أمرى رغبة جامحة فى اللعب فسايرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى الممات. واستلذذت كثيرا وقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن!

فهذا وجه يضحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات فى جزء من الثانية! وهذه امرأة تتيه حسنا وتعشق وتتزوج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمج فى لحظة من الزمان! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن. هذا وغيره مما لايحيط به حصر جعل الحياة مهزلة. فلو أن ميتا يضحك لأغرقت فى الضحك، وبدا لى كأنه لا حقيقة فى العالم إلا التغير! رغبت نفسى عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصرى. ورنوت إليهم من بعيد جمعا غفيرا لا يحده شىء. تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت الفوارق. فصاروا كتلة واحدة. ساكنة صامتة. لا حياة فيها ولا حركة. رحت ألقى البصر فى دهشة وحيرة حتى ألفت المنظر. فتكشف لى عن جانب جديد كان من قبل خافيا.

رأيت ذاك الظلام الساكن يشع نورا شاملا؛ فإن الأنوار الخافتة المتهافتة التى تخفق فى كل مخ - على حدة - ضعيفة خابية، اتصلت فى المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نورا قويا باهرا. رأيت فى لمعتها حقّا باهرا وخيرا صافيا وجمالا متألقا فازددت دهشة وحيرة. رباه لشد ما تعانى الروح وتتعذب ولكنها تبدع وتخلق على رغم كل شىء. رباه لقد رأى توتى أمورا جليلة وليرين أمورا أجل وأخطر. وأيقنت أن ذلك النور الذى بهرنى إن هو إلا نقطة من السماء التى سأعرج إليها. وغضضت البصر ووليت الدنيا ظهرى فوجدت نفسى فى حجرة التحنيط المقدسة، وقد ملأ روحى سرور إلهى لا يوصف..

وانتهت أيام التحنيط السبعون. فجاء الرجال مرة أخرى، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها فى الأكفان، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتى الشاب ووضعوا فيه الجثة، ثم رفعوه إلى أعناقهم وساروا به إلى الخارج فتلقاه المشيعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم، وعاد النواح كأفظع مما كان يوم النعى، وذهبوا إلى شاطئ النيل وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربى، والتفوا بالتابوت يصوتون وينوحون: قالت أمى: «لا جف لى دمع، ولا اطمأن لى قلب من بعدك يا توتى!». وصاحت زوجى: «لماذا قضى علىّ بأن أعيش بعدك يا زوجى؟!».

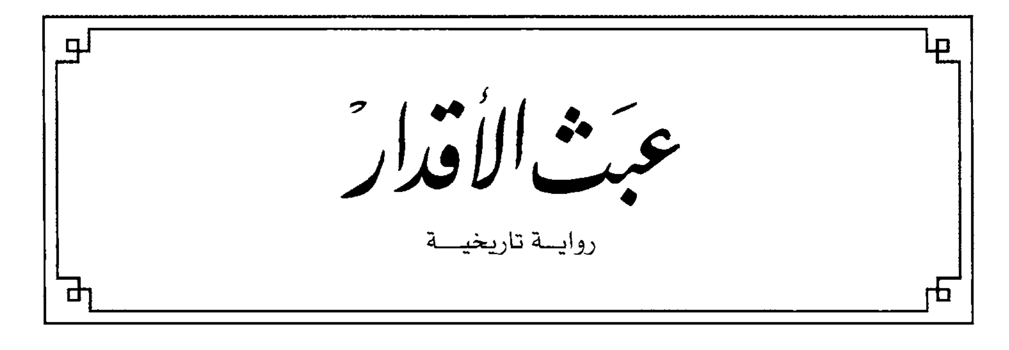
وقال حاجب الأمير: «توتى أيها الكاتب المجيد. لقد تركت مكانك شاغرا!».

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكرتا لماضيهما، وكأن سببا لم يصلنى بهذه الدنيا، ولا بهؤلاء الناس، ورست السفينة إلى الشاطئ فرفعوا التابوت مرة أخرى، ومضوا به إلى المقبرة التى أنفقت فى تشييدها جل ثروتى، وأحلوه موضعه من الحجرة. وفى أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى يلقنوننى التعاليم الهادية

من أقوم سبيل . ثم جعلوا ينسحبون تباعا حتى خلا القبر ، ولم يعد يسمع من شىء إلا العويل الآتى من بعيد . وأغلقت الأبواب وهيلت عليها الرمال ، فانقطعت كل صلة بين العالم الذى ودعت ، والدنيا التى أستقبل . .

* * *

ملاحظة : هنا انقطعت الكتابة فى المخطوط الهيروغليفى ، ولعل فترة الانتظار التى أشار إليها الكاتب فى أول كتابته كانت قد انتهت . ولعل رحلته الأبدية كانت قد بدأت ، فشغل بها عن قلمه المحبوب وعن كل شىء .



١

جلس صاحب العظمة الإلهية والهيبة الربانية «خوفو بن خنوم» على أريكته الذهبية، بشرفة مخدعه التى تطل على حديقة قصره المترامية الغناء ـ جنة منف الخالدة ذات الأسوار البيضاء ـ بين رهط من أبنائه وخاصته المقربين، وكانت عباءته الحريرية تلمع حاشيتها الذهبية تحت أشعة الشمس التى بدأت مرحلتها نحو الغرب، وكانت جلسته هادئة وديعة، فكان يسلم ظهره إلى وسادة محشوة بريش النعام، ويتكئ بمرفقه على نمرقة ذات غطاء من الحرير المنمنم بالذهب، وقد تجلت آى عظمته فى جبهته العالية ونظرته الرفيعة، وتبدت قوته الخارقة فى صدره الواسع وساعديه المفتولين وأنفه الأشم، فأحاطت به مهابة من سن الأربعين، وهالة من مجد الفراعنة.

وكان يقلب عينيه الثاقبتين بين أبنائه وصحابته، ويرسل بناظريه إلى الأمام حيث يغيب الأفق خلف رءوس النخيل والأشجار، أو ينحرف بها ذات اليمين فيشهد عن بعد تلك الهضبة الخالدة التى يرقب مشرقها أبو الهول العظيم، ويسكن جوفها رفات الآباء والأجداد، ويملأ سطحها مئات الألوف من الخلق يزيلون كثبانها ويشقون صخورها، ويحفرون الأساس الهائل لهرم فرعون، الذى أراد أن يجعله آية للناس على كر الأيام وتوالى الأزمان.

وكان فرعون يحب تلك الجلسات العائلية التى تعفيه من أثقال الرسميات، وترفع عن كاهله أعباء التقاليد، فيغدو فيها أبا رفيقا وصديقا ودودا، ويخلص وصحبه إلى النجوى والحديث، ويطرقون تافه المواضيع وهامها، فتلوك ألسنتهم الفكاهات وتبرم الأمور وتقرر المصائر. . فى ذلك اليوم المدرج فى طوايا الزمان ـ الذى أرادت الآلهة أن تجعله مبدأ لقصتنا ـ بدأ الحديث بالهرم الذى شاء خوفو أن يقيمه مثوى لخلده ومستقراً لجثمانه. وكان ميرابو، المعمار النابغة الذى تسنمت به مصر ذروة المجد الفنى، يتولى شرح عمله المجيد لمولاه الملك فأسهب فى تبيان دلائل العظمة المرجوة لذياك العمل الخالد

الذى يشرف على بنائه وابتكار خططه. ومضى الملك يستمع إلى صديقه الفنان. ثم ذكر السنوات العشر التى تقضت على البدء فى العمل فلم يخف تململه، وقال للفنان:

- أى ميرابو العزيز، إنى مؤمن بنبوغك، ولكن حتام تستنظرنى؟ إنك لا تفتأ تحدثنى عن عظمة الهرم الذى لم أر من بنيانه مدرجا واحدا، وقد مضت على بدء العمل عشرة أعوام طوال حشدت لك فيها الملايين من الرجال الأشداء وعبأت لك خير الكفايات الفنية من شعبى العظيم، ومع ذلك فلا أرى لذاك الهرم الموعود أثرا على ظهر الأرض، وكأنى بهاتيك المصاطب التى تحفظ أجساد أصحابها، ولم تكلفهم عشر معشار ما نكلف أنفسنا، تسخر من جهدنا الضائع وعملنا العابث.

فبدا الجزع على وجه ميرابو الأسمر الأقتم، وارتسمت تجاعيد الارتباك على جبهته العريضة. وقال بصوته الرفيع الناعم:

- مولاى! حاش أن أصرف الوقت عبثا أو أضيع الجهد لعبا، فإنى لمقدر التبعة التى تحملتها حين أخذت على نفسى موثقا أن أشيد لفرعون مثوى خلده، وأن أجعله آية للناس تنسيهم ما تقدم من آيات مصر وعجائبها. ونحن لم نضع الأعوام العشرة عبثا بل صنعنا فيها ما تعجز عن صنعه الجبابرة والشياطين، فشققنا فى الصخر الجلمود مجرى ماء يصل ما بين النيل وهضبة الهرم، وقطعنا من الجبل صخورا شاهقة كالتلال وسويناها فكانت فى أيدينا أطوع من العجين.. ونقلناها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، فانظر يا مولاى إلى السفن كيف تمخر النهر حاملة أكوام الصخور كأنها جبال عالية تسيرها تعاويذ ساحر جبار.. وانظر إلى العمال المنهمكين كيف يكبون على أرض الهضبة كأن ظاهرها انشق عمن يحتويهم منذ آلاف السنين!

فابتسم الملك وقال متهكما:

- يا عجبا.. أمرناك أن تشيد لنا هرما فشققت نهرا، فهل تظن مولاك ملكا على الأسماك؟

وضحك الملك وابتسم الصحابة، إلا الأمير رعخعوف ولى العهد، فقد جد فى الأمر، وكان على حداثة سنه جبارا صارما شديد القسوة ورث عن أبيه جبروته دون رقته، فقال يسأل الفنان:

- الحق أنى أعجب لتلك السنين التى ذهبت فى التمهيد والتحضير، وقد علمت أن هرم المقدسة روحه الملك سنفرو بلغ كماله فى أقل من هذا العهد الطويل..

فوضع ميرابو يده على جبهته وقال بأدب جم:

- ها هنا يا صاحب السمو الملكى يسكن عقل عجيب دائب على الثورة، نزاع إلى الكمال، خلاق للمثل العليا، وقد أبدع لى بعد جهد جهيد خيالا جبارا أنا باذل روحى لتجسيمه وتحقيقه، فصبرا يا صاحب الجلالة.. وصبرا يا صاحب السمو!

وساد الصمت لحظة لما شاع فى الجو نغم موسيقا الحرس الفرعونى، التى كانت تتقدم فريقا من الحرس إلى أماكن حراستهم وتعود بإخوانهم إلى الثكنات، وكان فرعون يفكر فى كلام ميرابو، فلما خفتت أصوات الموسيقا نظر إلى وزيره خومينى كاهن المعبود بتاح رب منف، وسأله والابتسامة الجليلة لا تفارق شفتيه:

- هل الصبر من شيم الملوك يا خومينى؟

فتخلل الرجل لحيته بأنامله وقال بصوته الهادئ:

- مولاى، يقول فيلسوفنا الخالد قاقمنا وزير الملك حوتى: إن الصبر ملاذ الإنسان من القنوط ودرعه ضد الشدائد.

فضحك فرعون وسأله:

- هذا ما يقول قاقمنا وزير الملك حوتى.. فما عسى أن يقول خومينى وزير الملك خوفو؟

فبدا التفكير على وجه الوزير الخطير وتأهب للكلام. ولكن الأمير رعخعوف لم يمهله حتى يتكلم، وقال بحماس أمير فى العشرين من عمره:

- مولاى إن الصبر فضيلة كما قال الفيلسوف قاقمنا، ولكنه فضيلة لا تليق بالملوك، لأن الصبر تحمل للأرزاء وإذعان للشدائد، وعظمة الملوك فى التغلب لا فى التصبر، وقد عوضتهم الآلهة عن الصبر فضيلة القوة.

فاعتدل فرعون فى جلسته، ولمعت عيناه لمعانا خاطفا لولا الابتسامة المرسومة على شفتيه لكان قضاء مبرما، ومضى يتذكر ماضى حياته على ضوء هذه الفضيلة مليا، ثم قال بصوت حماسى كر به من الأربعين إلى ذروة العشرين:

- ما أجمل قولك يا بنى، وما أسعدنى بك! حقا إن القوة فضيلة الملوك بل فضيلة الناس كافة لو يعلمون.. لقد كنت أمير ولاية صغيرة ثم خلقت ملكا من ملوك مصر، وما سما بى من الإمارة إلى العرش إلا القوة، وكان الطامعون والمتمردون والحاقدون لايفتأون يتربصون بى الدوائر ويتحفزون للقضاء على، فما أشل ألسنتهم وقطع أيديهم وأذهب ريحهم إلا القوة. وهم النوبيون مرة بشق عصا الطاعة وزين لهم الجهل التمرد والعصيان، فهل كسر شوكتهم وألزمهم الطاعة، إلا القوة؟ بل ما الذى رفعنى إلى مرتبة القداسة فجعل كلمتى قانونا نافذا ورأيى حكمة إلهية وطاعتى عبادة؟ أليست هى القوة؟

هنا بادر الفنان ميرابو يقول كأنه يكمل حديث الملك :

ـ والألوهية يا مولاى؟

فهز فرعون رأسه استهانة وسأله :

ـ وما الألوهية يا ميرابو؟ إن هى إلا قوة .

قال المعمار بثقة وطمأنينة :

ـ ورحمة ومحبة يا مولاى .

فقال الملك وهو يشير بسبابته إلى الفنان :

ـ هكذا أنتم أيها الفنانون! تروضون الصخور العاتيات وقلوبكم أندى من نسيم الصباح . وما أحب أن أجادلك ، ولكنى ألقى عليك سؤالا ستجد فى الجواب عليه فصل الخطاب : إنك يا ميرابو تخالط ـ منذ عشرة أعوام ـ جيوش هؤلاء العمال الأشداء ، وإنك لذلك حقيق بأن تطلع على خبايا ضلوعهم وما تختلج به نفوسهم فى السر والنجوى . . فما الذى تظن أنه يلزمهم طاعتى ويصبرهم على أهوال العمل؟ قل الحق صراحة يا ميرابو . .

فصمت المعمار ساعة يعمل فكره ويدعو الذكريات . وقد اتجهت إليه الأنظار فى اهتمام شديد ، ثم قال بتؤدة بلهجته الطبيعية المفعمة حماسة ويقينا :

ـ العمال يا مولاى طائفتان : طائفة الأسرى والمستوطنين ، وهؤلاء لايدرون ماذا يفعلون ، ويروحون ويغدون بلا شعور سام كما يدور الثور حول الساقية ، ولولا قسوة العصا ويقظة الجند ما وقفنا لهم على أثر .

أما طائفة المصريين ، وأغلبيتهم من مصر العليا ، فهم أناس ذوو عزة وكبرياء وجلد وإيمان ، تحملهم للعذاب عجيب وصبرهم على الشدائد صارم ، وهم يعلمون ماذا يفعلون ، وتؤمن قلوبهم بأن العمل الشاق الذى يهبونه حياتهم واجب دينى جليل وزلفى للرب المعبود ، وطاعة لعنوان مجدهم الجالس على العرش ، فمنحتهم عبادة ، وعذابهم لذة ، وتضحياتهم الجبارة فرض لإرادة الإنسان السامى على الزمان الخالد . . تراهم يا مولاى فى وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس المحرقة يضربون الصخر بسواعد كالصواعق وعزائم كالأقدار ، وهم ينشدون الأغانى ويترنمون بالأشعار .

فانبسطت أسارير السامعين وسرت فى دمائهم نشوة الفرح والفخار ، وتبدى الرضا على قسمات فرعون البارزة القوية ، وقام عن أريكته ـ وقد بعث قيامه الجالسين قياما ـ وسار فى الشرفة الواسعة على مهل واتزان حتى بلغ حافتها الجنوبية ، وألقى النظر بعيدا إلى تلك الهضبة الخالدة التى ترسم على رقعتها المقدسة خطوط العمال الطويلة ، وتأمل منظرها الجليل ومشهدهم الرائع . أى مجد وأى جلال! أى عذاب وأى جهاد فى سبيله

هو! هل ينبغى أن تشقى ملايين النفوس الشريفة من أجل مجده! هل ينبغى أن يولى ذلك الشعب النبيل وجهه قبلة واحدة هى سعادته هو؟

كان ذلك الوسواس هو القلق الوحيد الذى يضطرب أحيانا فى ذلك الصدر المليء بالقوة والإيمان، مثله كمثل قطعة من السحاب التائه فى سماء زرقاء صافية، وكان يعذبه ـ إذا اضطرب ـ فيضيق به صدره وينغص عليه صفوه وسعادته، وقد اشتد به العذاب فولى الهضبة ظهره وطالع صحابته بوجه غاضب دهشوا له، وطرح عليهم هذا السؤال:

ـ من الذى ينبغى أن تبذل حياته لصاحبه؟ الشعب لفرعون أم فرعون للشعب؟!

فوجموا جميعا واستولى عليهم الارتباك، وكان القائد أربو أربطهم جأشا، فقال بصوته القوى النبرات:

ـ إننا جميعا ـ شعبا وقادة وكهنة، فداء لفرعون!

وقال الأمير حرسادف أحد أبناء الملك بحماس شديد:

ـ والأمراء أيضا.

فابتسم الملك فى غموض ولبث القلق واضحا على وجهه الجليل، فقال وزيره خومينى:

ـ مولاى صاحب الجلالة الربانية! لماذا تفرقون بين ذاتكم العالية وبين شعب مصر وأنتم كالرأس من القلب والروح من الجسد؟ إنكم يا مولاى عنوان مجده وآى فخاره وحصن عزته ووحى قوته، ولئن وهبكم حياته فإنما يهبها لمجده وعزته وسعادته، وما فى هذه المحبة ذل أو عبودية، إن هى إلا وفاء جميل وحب عتيد ووطنية سامية.

فابتسم الملك ارتياحا، وعاد بخطى واسعة إلى الأريكة الذهبية وجلس فجلس القوم، ولم يكن الأمير رعخعوف ولى العهد بمرتاح إلى وساوس والده فقال له:

ـ لماذا تكدرون صفوكم يا مولاى بأمثال هذه الوساوس؟ لقد وليت الحكم بمشيئة الآلهة لا بإرادة إنسان، ولك أن تحكم الناس كيف تشاء لا تسأل عما تفعل وهم يسألون!

فقال خوفو:

ـ أيها الأمير، إن أباك إذا تفاخرت الملوك يقول: «أنا فرعون مصر».

ثم تنهد بصوت مسموع وقال وكأنه يحدث نفسه:

ـ إن كلام رعخعوف حرى بأن يوجه إلى حاكم ضعيف لا إلى خوفو الجبار.. خوفو فرعون مصر.. وما مصر إلا عمل عظيم لا تقام لبناته إلا على تضحيات الأفراد، وما

قيمة حياة الفرد؟ إنها لا تساوى دمعة جافة لمن ينظر إلى المستقبل البعيد والعمل المجيد. . لهذا أقسو دون تردد، وأضرب بيد من حديد، وأسوق مئات الألوف إلى الشدائد لا لبلادة طبع أو تحكم أثره، وكأن عينى تنفذان خلل سجف الأفق فتطلعان على مجد هذا الوطن المنتظر. لقد اتهمتنى الملكة مرة بالقسوة والظلم. كلا، ما خوفو إلا حكيم بعيد النظر، يرتدى جلد نمر مفترس ويخفق فى صدره قلب ملاك كريم.

وساد صمت طويل. وكان الصحابة يمنون أنفسهم بسمر طريف ينسيهم أثقال تبعاتهم الجسام، وكانوا جميعا يرجون أن يقترح عليهم الملك رياضة جميلة أو يدعوهم إلى مجلس شراب وغناء بعد أن شبعوا من أحاديث الأعمال والمهام، ولكن الملك كان فى تلك الأيام يشكو من ملل أوقات الفراغ على قصرها وندرتها، فلما علم أنه قد آن له أن يستريح وأن يلهو ران على قلبه السأم، ونظر إلى صحبه فى حيرة، وقد قال له خومينى:

ـ هل أملأ لمولاى كأسا من الشراب؟

فهز فرعون رأسه وقال:

ـ شربت اليوم وشربت بالأمس. .

فقال أربو:

ـ هل ندعو العازفات يا مولاى؟

فقال بملل:

ـ إنى أستمع إلى موسيقاهن صباح مساء.

فقال ميرابو:

ـ ما رأى مولاى فى الخروج إلى الصيد؟

فقال الملك بنفس اللهجة:

ـ شبعت من صيد البر والبحر.

ـ إذن فهل من سير بين الأشجار والأزهار؟

فقال:

ـ وهل فى الوادى مشهد جميل لم أره؟

وساءت شكوى الملك خلصاءه وتكدرت نفوسهم، إلا الأمير هورداديف فإنه كان يدخر لوالده مفاجأة سارة لا عهد له بها، فقال:

ـ أبى الملك، إنى أستطيع أن أقدم بين يديك لو تشاء ساحرا عجيبا يعلم الغيب ويميت ويحيى، ويقول للشيء كن فيكون.

فصمت فرعون ولم يسارع هذه المرة إلى الرفض والتململ، ونظر إلى ابنه باهتمام.

وكان الملك يسمع كثيرا عن أخبار السحرة ومعجزاتهم، ويتسلى بما يروى عن نوادرهم، فسره أن يوعد برؤية واحد منهم محضرا بين يديه، وسأل ابنه:

ـ ومن هو هذا الساحر أيها الأمير هورداديف؟

فقال الأمير:

ـ هو الساحر ديدى يا مولاى، وقد بلغ من العمر مائة عام وعشرة ولا يزال محتفظا بقوة الشباب وفتوة الصبا، وله قدرة عجيبة يتسلط بها على الإنسان والحيوان، وبصيرة نافذة تهتك حجب الغيب.

فازداد اهتمام الملك وسرى عنه الضيق والملل وقال:

ـ هل تستطيع أن تأتى به الآن؟

فقال الأمير بفرح:

ـ أمهلنى دقائق يا مولاى.

ثم قام واقفا وحيا والده بانحناءة طويلة، وذهب ليحضر الساحر العجيب..

٢

وبعد حين قليل رجع الأمير هورداديف يسير بين يدى رجل طويل القامة عريض المنكبين، حاد البصر نافذ النظرات، يكلل رأسه شعر أبيض هش وتغطى صدره لحية كثة، وقد تلفح بعباءة فضفاضة وتوكأ على عصا طويلة غليظة، وانحنى الأمير وقال:

ـ مولاى؛ أقدم بين يديك عبدك القانت الساحر ديدى.

فسجد الساحر بين يدى الملك وقبل الأرض بين قدميه، ثم قال بصوت ذى نبرات مؤثرة خفقت لوقعه القلوب:

ـ مولاى ابن خنوم، نور الشمس المشرقة ورب العالمين، دام له المجد وحلت به السعادة!

فرعاه الملك بالعطف وأجلسه على كرسى قريب منه، وقال له:

ـ كيف لم أرك من قبل وقد سبقتنى إلى نور هذه الدنيا بسبعين عاما؟

فأجابه الساحر المعمر بامتنان قائلا:

ـ وهبك الرب الحياة والصحة والقوة، إن مثلى لايحظى بالمثول بين يديك إلا إذا دعوته.

فابتسم الملك، ثم نظر إليه باهتمام وسأله:

ـ أحقا أن لك معجزات يا ديدى؟ أحقا أنك تستطيع أن تذعن لإرادتك الإنسان والحيوان، وأن تجلو عن وجه الزمان غشاوة الغيب؟

فأحنى الرجل رأسه حتى انثنت لحيته على صدره، وقال:

ـ هذا حق وصدق يا مولاى.

فقال الملك:

ـ أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات يا ديدى.

وجاءت الساعة الرهيبة، فاتسعت العيون وبدا الاهتمام على الوجوه، ولم يبادر ديدى إلى عمله ولكنه جمد مليا كأنما تحول إلى تمثال، ثم ابتسم عن أنياب حادة وألقى نظرة سريعة على الوجوه.

وقال للملك:

ـ عن يمينى يخفق قلب لا يؤمن بى.

فدهش الصحابة وتبادلوا نظرات الحيرة، وسر الملك لفراسة الساحر وسأل رجاله قائلا:

ـ هل من بينكم من ينكر على ديدى معجزاته؟

وهز القائد أربو منكبيه استهانة، وتقدم بين يدى الملك وقال:

ـ مولاى، إنى لا أومن بألاعيب السحر. وأرى أنها نوع من المهارة يحذقه المتفرغون له.

فقال الملك:

ـ ما جدوى الكلام وأمامنا الرجل؟ هاتوا له أسدا مفترسا نطلقه عليه، ولنر كيف يروضه بسحره ويذعنه لإرادته.

ولكن القائد لم يقنع وقال لمولاه:

ـ عفوا يا مولاى لا شأن لى بالأسود، وهأنذا واقف بين يديه فليجرب فى سحره وفنه، وله إن شاء ـ وشاء أن يجعلنى أومن به ـ أن يخضعنى لإرادته ويتسلط على قوتى..

وساد صمت ثقيل، واعتلى الوجوم وجوها، وتبدت الغبطة وحب الاستطلاع على وجوه أخرى. ونظر كلا الفريقين إلى الساحر ليروا ما فعل به تحدى القائد العنيد، فألفوه هادئا ساكنا لا تفارق ابتسامة الثقة شفتيه الرقيقتين الحادتين. وضحك الملك ضحكة عالية وقال لأربو بلهجة لم تخل من السخرية:

ـ أهانت عليك نفسك يا أربو؟

فقال القائد بثبات عجيب :

- إن نفسى يا مولاى عزيزة على عزة عقلى الذى يهزأ بألاعيب السحر .

وتجلى الغضب على وجه الأمير هورداديف ، فوجه كلامه للقائد قائلا بلهجة حادة :

- فليكن ما تريد . وليتفضل مولاى الملك ويأذن لديدى بالرد على هذا التحدى .

ونظر الملك لابنه الغاضب ، ثم إلى الساحر وقال :

- هيا أرنا كيف يقاوم سحرك جبروت صديقنا أربو .

ولحظ القائد أربو الساحر بعين متعالية ، وأراد أن يولى عنه وجهه باحتقار ، ولكنه أحس بقوة تجذبه من عينيه إلى الرجل . ولفحه الغضب وشد بقوة على رقبته ، وحاول أن ينتزع عينيه من القوة الهائلة التى تجذبهما فآب بالخيبة والعجز ، وثبتت عيناه على عينى ديدى الجاحظتين البراقتين اللتين كانتا تلتمعان وتلتهبان كبلورتين تعكسان أشعة الشمس . . كسف نورهما عينى أربو فأظلمتا وغاب عنهما نور الدنيا ، وخارت قوى الرجل الجبار فألقى السلم والإذعان .

ولما اطمأن ديدى إلى فعل قوته الخارقة ، قام واقفا وأشار إلى مقعده وصاح بالقائد بلهجة آمرة شديدة «اجلس» . . وصدع القائد بالأمر فى خنوع فسار يترنح كالثمل وارتمى على الكرسى فى استسلام المشفى على الهلاك . فصدرت من أفواه الناظرين آهة دهشة ، وابتسم الأمير هورداديف ابتسامة ارتياح وتشف ، أما ديدى فقد نظر إلى فرعون باحترام وقال بأدب جم :

- مولاى أستطيع أن آمره بما أشاء ولن يخالف لى أمرا ، ولكننى أشفق من أن أمثل بقائد من قواد الوطن العظام وحوارى من حواريى فرعون ، فهل يقنع مولاى بما رأى؟

وهز فرعون رأسه دلالة الموافقة .

فبادر الساحر إلى القائد المذهول وجرى على جبهته بأصابعه الخفيفة ، وقرأ بصوت خافت تعويذة غريبة ، فأخذ الرجل يفيق رويدا رويدا ، ومضت الحياة تدب فى حواسه حتى استعاد وعيه ، ولبث زمنا كالحائر ينظر فيما حوله وكأنه لا يدرك مما يرى شيئا ، ثم استقرت عيناه على وجه ديدى فتذكر والتهب جبينه وخداه بالاحمرار ، وتحاشى النظر إلى الرجل الرهيب ، وقام إلى مقعده يرسم على أرض الشرفة خطى الارتباك والقهر المتعثر .

وابتسم الملك إليه وقال برقة :

- ما صاحبك بكاذب !

فأحنى القائد رأسه وقال بصوت خافت :

- جلت قدرة الآلهة ، وتعالت معجزاتها فى السماوات والأرض !

ثم قال الملك للساحر :

ـ أحسنت أيها الرجل القادر . ولكن هل لك على الغيب سلطان كالذى لك على الخلق؟

فقال الرجل بثقة و اطمئنان :

ـ نعم يا مولاى .

وفكر الملك مليا ، وساءل نفسه عما عسى يطرح عليه من الأسئلة ، وأضاء وجهه بنور الهدى فقال للساحر :

ـ تستطيع أن تقول لى حتام يجلس على عرش مصر ملوك من ذريتى؟

وبدا على الرجل القلق والتهيب ، ففطن فرعون إلى ما يختلج فى صدره فقال :

ـ إنى أطلق لك حرية القول ، وآمنك من عاقبة ما تقول .

فألقى الرجل بنظرة عميقة على وجه مولاه ، ثم صعد رأسه إلى السماء واستغرق فى صلاة حارة ولبث ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ، فلما أن عاد بوجهه إلى الملك وصحابته كان شاحب اللون ممتقع الشفتين حائر النظرة ، فجفلت قلوب القوم وأحسوا بدنو شر مستطير ، ونفد صبر الأمير رعخعوف فقال له :

ـ مالك لا تتكلم وقد أمنك فرعون؟

فكتم الرجل أنفاسه اللاهثة وقال للملك :

ـ مولاى ، لن يجلس على عرش مصر من بعدك أحد من ذريتك!

وأحدث قوله فى النفوس اضطرابا كأنه هبة ريح مباغتة أصابت دوحا ساكنا ، فحدجوه بنظرات قاسية كأنها عيون حمئة يتطاير منها اللهب ، وقطب فرعون جبينه واربد وجهه فحاكى وجه أسد ضار أجنه الغضب ، واصفر وجه الأمير رعخعوف وأطبق شفتيه القاسيتين فأنذرت هيئته بالويل والهلاك .

وكأن الساحر أراد أن يخفف من وقع نبوءته فقال :

ـ سوف تحكم يا مولاى آمنا مطمئنا حتى نهاية عمرك الطويل السعيد .

فهز فرعون كتفيه استهانة وقال بصوت رهيب :

ـ إن من يعمل لنفسه فكأنما يعمل للفناء ، فدع عنك تعزيتى وخبرنى : هل تعرف من تدخره الآلهة ليخلفها على عرش مصر؟

فقال الساحر :

ـ نعم يا مولاى ، هو طفل حديث العهد بالوجود ، لم ير نور الدنيا إلا صباح اليوم .

ـ فمن أبواه؟

ـ أما أبوه فهو «من رع» الكاهن الأكبر لرع معبود أون، وأما أمه فالسيدة الشابة رده ديديت التى تزوجها الكاهن على كبر لتلد له هذا الطفل الذى كتب فى سجل الأقدار من الحاكمين.

فقام فرعون هائجا كالأسد المتوثب وقام لقيامه القاعدون، ودنا من الساحر خطوتين فزاغ بصر الرجل وكتمت أنفاسه، وقال له:

ـ أواثق أنت مما تقول يا ديدى؟

فرد الساحر قائلا بصوت مبحوح:

ـ لقد كاشفتك يا مولاى بما طالعتنى به صفحة الغيب!

فقال له الملك:

ـ لا تخف ولا تحزن، فلقد بلغت رسالتك وستنال ما تستحق من الجزاء الحسن.

ونودى على حاجب من حجاب القصر، وأمر أن يكرم الساحر ديدى ويعطيه خمسين قطعة من الذهب، فاصطحبه الرجل ومضيا معا..

وكان الأمير رعخعوف فى حالة من البلاء شديدة، وقد طفحت عيناه بقسوة قلبه وبدا وجهه الحديدى كرسول للموت. وأما فرعون فلم تتبدد غضبته انفعالات وزئيرا، ولكنها كتمت وصبت فى دفين إرادته فتحولت إلى وثبة عزيمة تدك الجبال دكا وتحرك الأهوال، وقد تحول إلى وزيره خومينى وسأله بصوت عظيم:

ـ ما رأيك أيها الحكيم خومينى، هل يغنى الحذر عن القدر؟

فرفع خومينى حاجبيه فى تأمل ولكن شفتيه المنطبقتين لم تنفرجا حيرة وحزنا، فقال الملك معاتبا:

ـ أرى أنك تخشى فى قولة الحق وتهم بإنكار الحكمة لترضينى، كلا يا خومينى، إن مولاك أجل من أن يضيق بقول الحق..

وما كان خومينى جبانا ولا مداهنا، ولكنه كان مخلصا للملك وولى عهده ويشفق من إيلامهما، فلما لم ير بدا من القول قال بصوت خافت:

ـ مولاى! لقد اتفقت كلمة الحكمة المصرية التى لقنتها الأرباب للسلف وأذاعها قاقمنا على الخلف، بأن الحذر لا يغنى عن القدر.

فنظر خوفو إلى ولى عهده وسأله:

ـ وأنت أيها الأمير ما رأيك فى القدر؟

فنظر الأمير إلى والده بعينين متقدتين كأسد فى شرك، فابتسم فرعون وقال:

ـ أيها السادة، لو كان القدر كما تقولون، لسخف معنى الخلق، واندثرت حكمة الحياة، وهانت كرامة الإنسان، وساوى الاجتهاد الاقتداء، والعمل الكسل،

واليقظة النوم، والقوة الضعف، والثورة الخنوع. كلا أيها السادة، إن القدر اعتقاد فاسد لا يخلق بالأقوياء التسليم به..

فاشتعل الحماس بقلب القائد أربو وصاح:

ـ تعالت حكمتك يا مولاى..

فابتسم فرعون وقال باطمئنان:

ـ أمامنا طفل رضيع على بعد منا يسير، فيا أيها القائد أربو أعد حملة من العربات الحربية سأقودها إلى أون، لأشهد بنفسى مخلوق الأقدار الصغير..

فقال خومينى دهشا:

ـ هل يذهب فرعون بذاته؟

فضحك الملك وقال:

ـ إذا لم أذهب للدفاع عن عرشى فمتى يحق لى الذهاب؟.. هيا أيها السادة.. إنى أدعوكم إلى ركابى لتشهدوا معركة هائلة بين خوفو والأقدار..

٣

وخرجت الحملة الفرعونية فى مائة عربة حربية، عليها مائتا فارس من فرسان الحرس الفرعونى الأشداء، يتقدم صفوفهم الملك وسط هالة من الأمراء والصحابة، وإلى يمينه الأمير رعخعوف وإلى يساره القائد أربو..

وقد انطلقت تعدو شمالا شرقى فرع النيل الأيمن صوب مدينة أون، تنهب الأرض نهبا وتزلزل الوادى زلزالا، وتبعث من صلصلة عجلاتها ما يشبه الرعد، وتثير من خلفها جبالا من الغبار تحجب عن عينى منف الجميلة العربات المنطلقة والجياد المطهمة والراكبين الجبابرة الذين ينتصبون كالتماثيل متقلدين سيوفهم، مدججين بقسيهم ونبالهم، مدرعين بتروسهم، يذكرون نائم الأرض بجنود مينا الذين أثاروا غبارها منذ مئتين من السنين، حاملين إلى الشمال نصرا مبينا ووحدة عزيزة وتاريخا مجيدا.

ساروا بقضهم وقضيضهم يقودهم الجبار الذى تخشع القلوب لذكر اسمه وتنكس الأبصار، لا لغزو بلد ولا لقتال جيش، ولكن لحصار طفل رضيع ما يزال طاهرا قماطه، وتجفل عيناه من رؤية نور الدنيا، وقد غدا بكلمة ساحر يهدد أكبر عروش الدنيا ويزلزل أشد قلوب الخليقة..

وكانوا يقطعون أرض الوادى بسرعة جبارة، ويمرون بالقرى والدساكر، مر السهم الخاطف، ويرسلون بأبصارهم إلى الأفق الرهيب المنطبق على الطفل الرضيع الذى اصطنعته الأقدار لتمثيل دور خطير . .

وتبدى لهم فى الأفق البعيد غبار ثائر لم تستطع أعينهم رؤية ما يظله من الخلائق، ومضت المسافة بينه وبينهم تقصر رويدا رويدا فاستطاعوا أن يروا شرذمة من الفرسان تعدو فى اتجاههم فلم يشكوا فى أنها فرقة من مقاطعة رع .

وازدادوا منهم قربا، فوضح لأعينهم أنهم فوارس يعدون خلف واحد منهم، إما أنه يتقدمهم وإما أنهم يطاردونه. فلما أن دنا من هدفهم صحصح لهم ما كانوا منه شك مريب، فإذا بالمتقدم امرأة على ظهر جواد عار، وقد انحلت ضفائرها وبعثرت وطارت خلفها مع الهواء كأنها أعلام فى رأس شراع، وقد أنهكها التعب فخارت قواها، ولحق بها العادون خلفها وأحاطوا بها من كل جانب . .

وتصادف حدوث ذاك مع وصول فرعون وجنوده، وكان الركب الفرعونى قد اضطر إلى تهدئة عدوه تفاديا للصدام، ولم يحفل فرعون ولا أحد من رجاله بالمطاردين والمطاردة، وظنوا أنهم شرطة يؤدون واجبا من واجباتهم، وكادوا يمرون بهم مر الكرم لولا أن صاحت بهم المرأة قائلة :

ـ الغوث أيها الجنود . . الغوث! إن هؤلاء يقطعون على الطريق إلى فرعون . . .

هنا توقف فرعون فتوقفت العربات من ورائه، ونظر إلى الرجال المحيطة بالمرأة وصاح بهم بصوته الآمر :

ـ دعوا هذه المرأة .

ولكنهم لم يصدعوا بالأمر الذى جهلوا آمره، وتقدم فارس منهم برتبة ضابط إليه وقال بخشونة :

ـ نحن قوة من حرس أون جئنا ننفذ أمر كاهنها الأعظم فمن أى مدينة أنتم، وماذا تريدون؟

وتبدى الغضب على الوجوه لحماقة الضابط، وهم أربو بانتهاره وتحذيره ولكن فرعون أشار إليه إشارة خفية فسكت وهو كظيم، وصرف ذكر كاهن رع فرعون عن الغضب إلى التفكير والتأمل، وأراد أن يستدرج الضابط إلى الكلام فسأله قائلا :

ـ ولماذا تطاردون هذه المرأة ؟

فقال الضابط بصلف :

ـ أنا لا أؤدى حسابا عن مهمتى إلا أمام رئيسى .

فصاح فرعون غاضبا بصوت كالرعد :

ـ أطلقوا سراح هذه المرأة .

وذعر الجنود وأيقنوا أنهم أمام رئيس خطير ، فتركوا التى هرولت إلى عربة الملك وارتمت تحتها فى خوف ووجل وهى تصيح :

ـ الغوث . . يا سيدى الغوث . .

وترجل القائد أربو عن عربته وتقدم من ضابط القوة ، فلما رأى هذا علامة النسر والشارة الفرعونية على كتفه تولاه الرعب ، ووقف وقفة نظامية وسل سيفه وأدى عليه التحيةالعسكرية ، وصاح بجنده :

ـ حيوا قائد الحرس الفرعونى .

فسل الجنود سيوفهم ووقفوا كالتماثيل .

ولما سمعت المرأة قول الضابط علمت أنها أمام رئيس حرس فرعون ، فقامت إليه وقالت له بتوسل :

ـ سيدى . . أأنت حقا رئيس حرس مولانا الملك؟ بحق الأرباب إلا قدتنى إليه ، لقد فررت يا سيدى مولية وجهى نحو القصر الفرعونى . . إلى أعتاب فرعون التى لا يعجز عطفه شفتى أى مصرى أو مصرية لثمها ـ فسألها أربو :

ـ ألك حاجة يا سيدتى تريدين قضاءها؟

فقالت المرأة وهى تلهث :

ـ نعم يا سيدى ، فى صدرى سر خطير أريد أن أبوح به لذاته المعبودة .

فأرهف فرعون السمع ، وسألها أربو :

ـ وما هذا السر الخطير يا سيدتى؟

فقالت بتوسل :

ـ سأبوح به إلى ذاته المقدسة .

ـ إنى خادمه المخلص الأمين على سره .

فترددت المرأة وقلق بصرها بين الحاضرين ، وكانت شاحبة اللون زائغة العينين مضطربة الصدر ، فرأى القائد أن يستدرجها بالتى هى أحسن فسألها :

ـ ما اسمك ؟ وأين تقيمين؟

ـ أدعى سرجا يا سيدى ، وكنت إلى صباح اليوم خادمة فى قصر كاهن رع الأكبر .

ـ ولماذا كانوا يطاردونك؟ هل وجه مولاك لك إحدى التهم؟

ـ إنى امرأة شريفة يا سيدى ، ولكن كان سيدى يسىء معاملتى . .

ـ وهل هربت فرارا من معاملته لك؟ هل تلتمسين رفع شكواك إلى فرعون؟

ـ كلا يا سيدى، إن الأمر لأعظم خطورة مما تظن، لقد وقفت على سر خطير فيه ما ينذر مولاى الملك بالخطر، فهربت لأحذر ذاته المعبودة كما يقضى الواجب على، فأرسل سيدى هؤلاء الجنود ورائى ليقبضوا على ويحولوا بينى وبين واجبى المقدس!

فارتعدت فرائص الضابط وقال بسرعة يدفع عن نفسه التهمة:

ـ لقد أمرنا صاحب القداسة بالقبض على امرأة فارة على ظهر جواد فى طريق منف، فصدعنا بما أمرنا دون أن نعلم من أمره ولا أمرها شيئا.

فقال أربو لسرجا:

ـ إنك تكادين أن تتهمى كاهن رع بالخيانة؟

فقالت المرأة:

ـ دعنى يا سيدى أصل إلى أعتاب فرعون كى أبوح له بما يضيق عنه صدرى.

ونفد صبر فرعون وأشفق من ضياع الوقت الثمين، فقال للمرأة فورا:

ـ هل رزق الكاهن بطفل هذا الصباح؟

فتحولت إليه المرأة مدهوشة ذاهلة وتمتمت:

ـ ومن أدراكم بهذا يا سيدى وقد تكتموا الخبر؟ حقا إن هذا عجيب!

وبدا الاهتمام على حاشية الملك وتبادلوا النظر فى صمت، أما الملك فسألها بصوته المهيب:

ـ هل هذا هو السر الذى تريدين إبلاغه لفرعون؟

فهزت المرأة رأسها قائلة ولم يفارقها ذهولها:

ـ نعم يا سيدى، ولكن ليس هذا جميع ما أريد قوله.

فقال لها فرعون بحدة وبلهجة آمرة شديدة الوقع لا تبقى على التردد:

ـ فما الذى ينبغى أن يقال؟ تكلمى.

فاندفعت المرأة إلى الكلام بخوف قائلة:

ـ لقد أحست مولاتى السيدة رده ديديت بدبيب آلام الوضع منذ الفجر، وكنت ضمن الوصيفات اللائى أحطن بفراشها يخففن عنها العذاب بالحديث تارة وبالعقاقير أخرى، وقبيل الوضع بزمن يسير دخل علينا الكاهن الأكبر، وبارك سيدتى وصلى للرب رع صلاة حارة، وكأنه أراد أن يشرح صدر سيدتى المعذب ويخفف عنها ويلات الساعة، فبشرها بأنها ستلد طفلا ذكرا، وأنه سوف يرث عرش مصر المكين، ويحكم وادى النيل خليفة للإله رع أتوم.

وقال لها وهو لا يملك نفسه من الفرح حتى لكأنه نسى وجودى، أنا التى لا تحظى

مثلى غيرها بثقته، إن تمثال الرب المقدس زف إليه هذه البشرى بصوته الربانى. ولما وقع بصر سيدى علىّ انقبض صدره وارتسم القلق على وجهه، ولكى يأمن شر الوساوس قبض على وحبسنى فى مخزن الحبوب، ولكنى تمكنت من الفرار، وامتطيت جوادا وانطلقت به فى الطريق إلى منف لأبلغ الملك ما سمعت. والظاهر أن سيدى أحس بفرارى، فأرسل فى طلبى هؤلاء الجنود الذين لولاكم لقادونى إلى حتفى.

وكان الملك وصحابته يستمعون إلى قصة سرجا بانتباه وإمعان ودهشة، فتحققت لديهم نبوءة الساحر ديدى العجيبة، وكان الأمير رعخعوف شديد الجزع فقال لفرعون:

ـ لن يذهب تحذيرنا سدى!

فقال فرعون:

ـ نعم يا بنى.. ولكن ينبغى ألا نضيع الوقت.

والتفت إلى المرأة وقال لها:

ـ سوف يجزيك فرعون عن إخلاصك خير الجزاء، وما عليك الآن إلا أن تقولى لنا عن الوجهة التى تولينها؟

فقالت سرجا:

ـ أرجو يا سيدى أن أذهب آمنة إلى قرية قونا حيث يقيم والدى.

فقال فرعون للضابط:

ـ أنت مسئول عن حياة هذه المرأة حتى تبلغ دارها.

فأحنى الضابط هامته طاعة، وأشار فرعون إلى القائد أربو فصعد إلى عربته ثم أمر الملك قائد عربته بالسير فانطلقت كالقضاء ومن ورائها العربات إلى أون التى بدا للعين سورها المحيط ورءوس أعمدة معبدها الكبير: معبد رع أتوم.

٤

كان كاهن رع فى تلك الأثناء يجثو إلى جانب سرير زوجته ويصلى صلاة حارة. ويقول:

ـ رع، أيها الرب الخالق الموجود منذ الأزل، والوجود بعد ماء جار فى فضاء محيط يجثم عليه ظلام ثقيل، فخلقت أيها الرب بقدرتك كونا جليلا جميلا، شملته بنظام فاتن يسرى حكمه الواحد على الأفلاك الدائرة فى السماوات، وعلى ذرات الثرى المنتشرة على

وجه البسيطة، وجعلت من الماء كل شيء حي: فالطير يحلق فى السماء، والسمك يسبح فى الماء، والإنسان يضرب فى الأرض، والنخيل ينبت فى جوف الصحراء القاحلة، وبثثت فى الظلمات نورا بهيا يتجلى فيه وجهك ذو الجلال والإكرام، يبعث الدفء وينشر الحياة. أيها الرب الخالق أبث إليك همى وحزنى، وأضرع إليك أن تكشف عنى الضر والبلوى، أنا عبدك المؤمن خادمك الأمين. اللهم إنى ضعيف فهبنى من لدنك قوة، اللهم إنى خائف فهبنى الطمأنينة والسلام، اللهم إنى مهدد بشر عظيم فاشملنى برعايتك ورحمتك. اللهم إنك وهبتنى على الكبر طفلا باركته وكتبت له فى سجل الأقدار ملكا وحكما، فادفع عنه السوء وقه شر العدا.

نطق من رع بهذا الدعاء بصوت متهدج، وقد سحت عيناه دمعا ساخنا انحدر على خديه الناحلين وبلل لحيته البيضاء، ثم رفع رأسه الكبير ونظر بعطف إلى وجه زوجه النفساء الشاحب اللون، ثم نظر إلى الطفل الصغير وكان ساكنا هادئا يرفع جفنيه عن عينين صغيرتين سوداوين، ويسبلهما جفولا من ذلك العالم الغريب.

ولما أحست زوجه ردة ديديت بفراغه من الصلاة قالت له بصوت ضعيف خافت:

ـ أما من خبر عن سرجا؟

فتنهد الرجل وقال:

ـ سيلحق بها الجنود بأمر الرب.

فقالت بقلق:

ـ أواه يا مولاى! أتعلق خيط حياة طفلنا باحتمال قد يصيب وقد يخيب؟

ـ كيف تقولين هذا يا رده ديديت؟ إنى لم أنفك ـ مذ هربت سرجا ـ أفكر فى وسيلة تقيكما السوء، وقد هدانى الرب إلى حيلة، ولكنى أخشى عليك وأنت نفساء لا تحتملين الشدة.

فمدت إليه يدا ضارعة وقالت بتوسل:

ـ افعل يا زوجى ما فيه نجاة طفلنا، و لا يهولنك ضعفى فإنى أستمد من أمومتى قوة دونها قوة الأصحاء..

فقال الكاهن المتألم:

اعلمى يا رده ديديت أنى أعددت عربة وملأتها بالحنطة، وجعلت لك فى ركن منها مكانا ترقدين فيه مع الطفل، وجهزت صوانا من الخشب ونزعت قعره، فإذا وضع عليكما أخفاكما عن الأنظار، وستسير بها وصيفتك الأمينة كاتا إلى عمك فى قرية سنكا..

ـ ناد الخادمة زايا لأن كاتا نفساء كسيدتها، و قد ولدت طفلا ضحى اليوم..

فدهش الرجل وقال :

ـ أو لدت كاتا؟ وعلى كل حال فزايا لا تقل إخلاصا عن كاتا . .

ـ وأنت يا زوجى؟ ! هب أن الحظ عثر وباء ، وأن سر طفلنا بلغ فرعون فأرسل إليك بجنده ، فبم تجيبهم لو سألوك عن الطفل وأمه؟

ولم يكن الكاهن قد أعد العدة لنفسه فيما لو وقع المحذور ، ولكنه لم يقم لذلك وزنا لأن همه كان محصورا فى إنقاذ الطفل وأمه . ولذلك كذب على زوجه قائلا :

ـ اطمئنى يارده ديديت فلن تفلت سرجا من رسلى ، وما تهريبى لك خفية إلا حذرا وحيطة ، ومهما يكن من أمر فلن تباغتنى الطوارئ ولسوف تصلك أخبارى عما قريب .

وخشى أن تزداد مخاوفها فأراد أن يصرفها عن التفكير ، فقام واقفا ونادى بصوته الجهورى على زايا ، فأتت الخادمة سريعا وانحنت له فى احترام ، فقال لها :

ـ سأعهد لك بسيدتك والطفل المولود لتسيرى بهما إلى قرية سنكا . . وعليك بالحذر فأنت تعلمين بالخطر الذى يتهددهما .

فقالت الخادمة بإخلاص :

ـ إنى فداء لمولاتى وطفلها المبارك .

وطلب منها الكاهن أن تعينه على حمل سيدتها إلى مخزن الحبوب ، ودهشت الخادمة لذلك الطلب ، ولكنها صدعت بما أمرت ، ووضع الرجل زوجه على اللحاف الوثير ، ووضع يده تحت منكبيها ورأسها ، ورفعتها زايا من تحت ظهرها وفخذيها ، وسارا بها إلى البهو الخارجى ، وهبطا الدرج إلى الفناء ودخلا إلى المخزن وأرقداها فى المكان الذى أعده لها الرجل فى العربة ، ثم صعد الكاهن وأتى بطفله وكان يعول ويصرخ ، فقبله قبلة حارة ووضعه فى حضن أمه ، وأطل عليهما هنيهة من جدار العربة ، ورأى رده ديديت تنتحب وتضطرب فقال لها وقلبه يتقطع :

ـ ثبتى قلبك من أجل طفلنا العزيز ولا تدعى للخوف إلى نفسك سبيلا .

فقالت المرأة وهى تبكى :

ـ إنك لم تسمه بعد . .

فقال وهو يبتسم :

ـ ادعيه باسم أبى الراقد إلى جوار أوزوريس . . ددف . . ددف رع . . ددف بن من رع ، اللهم اجعل اسمه مباركا وادفع عنه كيد الكائدين .

وأتى الرجل بالصوان ووضعه على العزيزين ، وأقعد زايا مقعد السائق ووضع زمام الثورين بين يديها ، وقال لها : سيرى على بركة الرب الحافظ .

وما إن تحركت العربة حركتها البطيئة حتى فاضت عيناه بالدمع الغزير، وجعل يرقبها خلال دموعه وهى تقطع أرض الفناء حتى غيبها الباب عن ناظريه، وهرول إلى السلم وصعده بقوة شاب، وذهب إلى النافذة التى تطل على الطريق وراقب العربة التى تحمل قلبه ووجدانه . .

وبغته باغت مخيف لم يكن يتوقع حدوثه بمثل السرعة التى حدث بها، فلما أن نفذ قضاؤه وملأه رعبا يعجز البيان والتعبير، فنسى حزن الفراق وجوى الوداع وحنين الأبوة، واحترق رعبا وخوفا حتى فقد الشعور والإدراك، فشبك كفيه وجعل يضرب بهما صدره وهو يقول بذهول: «أيها الرب رع. أيها الرب رع» ويكررها بلا وعى وعيناه تنظران إلى كتيبة العربات الفرعونية التى ظهرت فجأة من منعرج طريق المعبد، وتقدمت إلى قصره وهى تقوم بحركة حصار بديعة فى سرعة ونظام دقيقين، حالا بين العربة وبين التقدم خطوة أخرى.

يارب السماء، لقد جاءت جنود فرعون بأسرع مما دار له بخلد، ينبئ مجيئها عن توفيق سرجا فى مهمتها وهربها من جنوده، وإلا ما استطاعت أن ترسل رسل الموت الزؤام بمثل هذه السرعة.

وجاء جند فرعون المردة الجبابرة تصهل جيادهم وتصلصل عجلاتهم وتتوهج خوذاتهم فى شعاع الشمس المائل. ماذا جاءوا يفعلون؟ جاءوا ليقتلوا الطفل البرىء والابن الحبيب الذى شرح الرب به صدره على الكبر واليأس.

وكان من رع ما يزال يضرب صدره بكفيه المشتبكتين ويهز رأسه هزات الذهول والبله، ويقول بلهجة الثكلى التى تندب ولدها: «أيها الرب. . إن جماعة منهم تحيط بالعربة، وواحدا منهم يطرح الأسئلة الصارمة على زايا البائسة. ترى عم يسألها! وبم تجيبه؟ وما عسى أن تكون عقبى هذا التحقيق؟ وإن حياة طفلى وزوجى لرهن بكلمة واحدة تنطلق بها زايا، رباه! يا رع المعبود! . . ثبت قلبها وطمئن نفسها وأجر على لسانها كلمة الحياة لا الموت، وأنقذ طفلك الحبيب لتقضى قضاءك الذى قضيت به وبشرت . . ».

وجن جنونه من الجزع، وخيل إليه أن ساعات طويلة تمر ثقيلة متباطئة على هذا الجندى وهو لا يفتأ يسأل زايا ويسد عليها المنافذ. أواه لو يحرك واحد منهم الصوان أو يداخله شك فيما يشتمل عليه؟ بل أواه لو يعلو صوت الطفل بآهة أو صراخ.

صه يا بنى . . اللهم ألهم أمه أن تضع ثديها فى فمه . . صه يا بنى . . إن آهة تخرج من فمك كفيلة بالقضاء عليك . . رباه إن قلبى يتفتت وروحى تصعد فى السماء . .

وسكت الكاهن فجأة، واتسعت عيناه وصاح ولكن بفرح شديد فى هذه المرة:

ـ الحمد لرع . . إنهم يتقدمون والعربة تسير فى طريقها آمنة من غير سوء . . باسم رع مسيرها وحطها . . الحمد لك أيها الرب الرحيم . .

٥

تنفس الكاهن الصعداء وأحس ـ لفرحه ـ بحنين إلى البكاء لولا أن تذكر ما ينتظره من الأهوال والشدائد، فلم ينعم بالطمأنينة إلا لحظات سريعة، ودلف إلى منضدة عليها إبريق من الفضة صب منه من الماء القراح ما روى به غلته .

وما لبثت أن صكت أذنيه جلجلة القوة التى صارت بفناء قصره، والتى جاءت خصيصا للقضاء على المولود الذى كان خطر الموت منه قاب قوسين أوأدنى .

وجاءه خادم يسعى مضطربا خائفا، وأخبره بأن قوة من حرس الملك تحتل القصر وترقب منافذه، وجاء آخر يبلغه أن رئيس القوة أرسله فى طلبه سريعا، فتظاهر الكاهن بالثبات ورباطة الجأش، ووضع العباءة المقدسة على منكبيه والقلنسوة الكهنوتية على رأسه، ثم غادر حجرته فى خطوات وئيدة تحف به المهابة والجلال الحقيقان بشخصية أون الدينية الكبرى . ولم يتهاون الكاهن فى حق هيبته فوقف على عتبة بهو الاستقبال ووجهه إلى الفناء، وألقى نظرة سطحية على جنود القوة الواقفين فى أماكنهم لا يبدون حراكا كأنهم تماثيل منصوبة من العهد القديم، ثم رفع يده تحية وقال بصوته الجليل دون أن يقر نظره على وجه بذاته :

ـ يا بنى . . حللتم أهلا وسهلا . وليباركم رع المعبود بارى الكون وخالق الحياة .

فسمع صوتا مهيبا يرد عليه قائلا :

ـ الشكر لك كاهن رع المعبود .

فانتفض جسمه لدى سماعه كما ينتفض الحمل لزئير الأسد، وذهبت عيناه زائغتين تبحثان عن صاحب الصوت العظيم حتى استقرتا على قلب القوة، فتولاه العجب والرعب أن يأتى فرعون بذاته إلى بيته . ولم يتردد على أداء واجبه، فهرع إلى سدته لا يلوى على شىء، فلما بلغ عربته سجد بين يديه وقال بصوت متهدج :

ـ مولاى فرعون ابن الرب خنوم، نور الشمس المشرقةوواهب الحياة والقوة، إنى يا مولاى أضرع إلى الرب أن يوحى إلى قلبك الكبير بالإغضاء عن سهوى وجهلى، كى أفوز بعفوك ورضاك .

فقال له الملك :

ـ إنى أعفو عن هفوات الصادقين.

فخفق قلب الكاهن وقال:

ـ أما وقد تفضل مولاى بزيارة قصرى الوضيع فليتفضل ويحل أشرفه. فابتسم فرعون وترجل عن عربته، وتبعه الأمير رعخعوف وإخوته الأمراء وخومينى وأربو وميرابو، وسار الكاهن بظهره يتبعه الملك ويتبعه الأمراء والصحبة حتى حلوا بهو الاستقبال وجلس الملك فى الصدر وحوله حاشيته، واستأذن من رع فى الذهاب لإعداد ما يجب إكراما لهم، ولكن فرعون قال له:

ـ نحن نعفيك من واجب ضيافتنا لأننا جئنا فى أمر خطير لا يحتمل الأناة.

فانحنى الرجل وقال:

ـ إنى رهن إشارة مولاى.

اعتدل الملك فى جلسته وسأل الكاهن بصوته النفاذ المهيب:

ـ أنت رجل من صفوة رجال المملكة ومقدم عليهم بالعلم والحكمة، فهل تستطيع أن تقول لى لماذا تولى الآلهة الفراعنة على عرش مصر؟

فقال الرجل بثبات وإيمان:

ـ إنها تختارهم من بين أبنائها وتبعث فيهم روحها الإلهى ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد.

ـ أحسنت أيها الكاهن، فكل مصرى يسعى فى الحياة لنفسه أو لأسرته، أما فرعون فينهض بحمل أعباء الملايين ويسأل عنها جميعا أمام الرب، فهل تستطيع أن تقول لى عما ينبغى لفرعون نحو عرشه؟

وأجاب من رع بشجاعة فائقة:

ـ إن ما ينبغى لفرعون نحو عرشه هو ما ينبغى للإنسان الأمين نحو وديعة الآلهة المكرمين بين يديه، أن يقوم بواجباته ويؤدى له حقوقه ويحافظ عليه محافظته على شرفه.

فهز فرعون رأسه راضيا وقال:

أحسنت أيها الكاهن الفاضل، والآن خبرنى، ماذا ينبغى أن يفعل فرعون لو هدد عرشه مهدد؟

فخفق قلب الكاهن الشجاع وأيقن أنه يحكم على نفسه بجوابه، ولكنه ـ وهو رجل الدين والتقوى والعزة ـ أبى إلا أن يقول الحق، فقال:

ـ ينبغى لجلالته أن يبيد الطامعين.

فابتسم فرعون والتمعت عينا الأمير رعخعوف ببريق قاس، وقال الملك:

ـ أحسنت.. أحسنت.. لأنه إن لم يفعل، خان عهد الرب وفرط فى وديعته الإلهية وأضاع حقوق العباد.

ثم تصلب وجه الملك وبدا عليه عزم يميد الجبال، وقال بصوت رهيب:

ـ أيها الكاهن، لقد وجد الذى يهدد العرش.

فنكس الكاهن عينيه وغلبه الصمت، فاستطرد فرعون:

ـ وهزأت الأقدار كعادتها فجعلته طفلا.

فتساءل الكاهن بصوت خافت:

ـ طفلا يا مولاى؟

فطفر الغضب من عينى فرعون شررا وصاح:

ـ كيف تتجاهل أيها الكاهن؟ لقد حرصت على الصراحة والصدق فى حديثك فلم تترك الكذب يتسلل إلى قلبك فى حضرة مولاك؟ وإنك لتعلم علم اليقين أنك أبو الطفل ونبيه!

فتدفق الدم إلى وجه الكاهن وعصر الألم قلبه الكبير، وقال بتسليم وحزن:

ـ ابنى رضيع لم يجاوز عمره بضع ساعات.

فقال فرعون:

ـ لكنه آلة فى يد الأقدار، والأقدار إذا أرادت أن تفعل استوى لديها الطفل والرشيد..

وساد الصمت والسكون هنيهة، وتولى الجميع رهبة غريبة فكتموا الأنفاس فى انتظار الكلمة التى ستطلق سهم الموت إلى الطفل البائس. ونفد صبر الأمير رعخعوف فقطب جبينه وازدادت قساوة وجهه الطبيعية شدة وصلابة..

ثم قال فرعون:

ـ أيها الكاهن، لقد أقررت منذ لحظة بأنه ينبغى لفرعون أن يهلك من يهدد عرشه، أليس كذلك؟

فقال الكاهن بقنوط:

ـ بلى يا مولاى.

ـ ولا شك أن الآلهة قست عليك بخلقها هذا الطفل، ولكن القسوة عليك أخف من القسوة على مصر وعرشها.

فقال الكاهن:

ـ هذا حق يا مولاى .

فقال فرعون :

ـ إذن فأد واجبك أيها الكاهن !

فوجم من رع وارتج عليه القول ، أما فرعون فقد استطرد :

ـ إن لنا ـ معشر الفراعنة ـ تقاليد موروثة فى احترام الكهنوت ورعايته لا أحب أن تضطرنى إلى خرقها .

يا عجبا ! ماذا يريد فرعون بقوله هذا؟ أيريد أن يفهم الكاهن أنه يحترمه ولا يحب أن يقتل ابنه ، وأنه لذلك ينبغى أن يقوم هو بالمهمة التى يجفل منها الملك؟ وكيف يتأتى له أن يذبح طفله بيده؟ حقا إن الإخلاص الذى يكنه لفرعون يقضى عليه بتحقيق رغبته الربانية دون أدنى تردد ، وإنه ليعلم علم اليقين أن أى فرد من شعب مصر لا يتوانى عن إزهاق روحه لو أحس بأن موته يلقى رضاء فرعونيا ساميا ، فهل يلحق بطفله العزيز ويغمد خنجره فى قلبه؟

ولكن من الذى قضى أن يكون ابنه خليفة خوفو على عرش مصر؟ أليس هو الرب رع؟ أوليس يعد سعيه لقتل الابن البرىء تحديا لإرادة الرب الخالق؟ ومن إذن يجب أن يؤثر بطاعته خوفو أم رع؟ لا يحتاج الجواب إلى روية . ولكن ما عسى أن يفعل وفرعون وزملاؤه ينتظرون كلمته؟ ماذا ينبغى أن يفعل وقد بدأوا يتململون ويغضبون؟

وتراءى له خاطر سريع وسط لجة الحيرة والارتباك كما يلتمع البرق فى السحاب المظلم المكفهر ، تذكر كاتا وطفلها الذى ولدته فى الصباح ! ! وتذكر أنها نائمة فى الغرفة التى تواجه غرفة سيدتها على كثب منه ، حقا إنها فكرة جهنمية شيطانية يبرأ منها قلب كاهن مثله ، ولكن القلب لا يتيقظ إذا تسلط عليه ما يتسلط على قلبه من الانفعالات والاضطرابات ، وهيهات أن يصحو ضمير أمام رهبة فرعون ورجاله ، كلا لا يستطيع أن يتردد .

وأحنى الكاهن رأسه المثقل احتراما ، وذهب ليرتكب أشنع جريمة ، فتبعه فرعون وتبع فرعون الأمراء والكبراء ، وصعدوا خلفه إلى الطابق الأعلى ، ولكنهم حين رأوا الكاهن يهم بولوج باب الحجرة وقفوا فى الردهة وهم سكوت ، وتردد من رع لحظة ثم التفت إلى مولاه وقال :

ـ مولاى ، ليس لى سلاح أقاتل به ، فأعرنى خنجرا . .

ونظر إليه فرعون دون أن يبدى حراكا . .

وضاق صدر الأمير رعخعوف ، فاستل خنجره وأعطاه الكاهن بعنف ، فأخذه الرجل بيد مرتجفة وأخفاه فى عباءته ودخل الحجرة لاتكاد تحمله قدماه . .

وانتبهت إليه كاتا فابتسمت ابتسامة امتنان وشكران، واعتقدت أن سيدها جاءها يباركها، فكشفت عن وجه الطفل البرىء، وقالت له بصوت ضعيف:

ـ اشكر الرب بقلبك الصغير، الذى عوضك عن موت أبيك حنانا مقدما..

فجفل الكاهن مذعورا وخذلته نفسه فانقلب مدحورا، وفاضت عواطف قلبه فجرف سيلها زبد الإثم.. ولكن أين المفر؟ وكيف الخلاص؟ إن فرعون واقف بالباب وليس لديه مهلة للتفكير والروية، واشتدت به الحيرة حتى أذهلته عن وعيه، فزأر زئيراً مخيفا، ونفس عن صدره بتنهدة عميقة، واستل الخنجر يائسا قنوطا وطعن به نفسه فاستقر فى قلبه، وانتفض جسمه انتفاضة هائلة، وسقط على أرض الحجرة جثة هامدة..

ودخل الملك الحجرة غاضبا وتبعه رجاله، وجعلوا ينظرون إلى جثة الكاهن والنفساء المرتعبة بعيون من زجاج.. إلا الأمير رعخعوف فلم يلهه شىء عن هدفه، وأشفق من ضياع الفرصة السانحة فاستل سيفه من غمده ورفعه بقوة فى الهواء، وهوى به على الطفل.. إلا أن الأم أدركت بغريزتها غرضه. فألقت بسرعة البرق نفسها على طفلها.. ولكنها لم تمنع القضاء، فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة جبارة واحدة..

ونظر الأب إلى ابنه ونظر الابن إلى أبيه، وغلبهما وجوم شديد، لم ينقذهما منه إلا الوزير خومينى إذ قال:

ـ فليتفضل مولاى بمغادرة هذا المكان الدامى.

خرجوا جميعا وهم سكوت.

واقترح الوزير على مولاه أن يشدوا الرحال إلى منف ليبلغوها قبل جثوم الليل، ولكن الملك قال:

ـ إنى لا أفر كالمجرمين، ولكن سأدعو كهنة رع وأقص عليهم قصة الأقدار التى ختمت بفاجعة رئيسهم البائس، ولن أعود قبل ذلك إلى منف.

٦

سارت العربة على خطى الثورين البطيئة تقودها زايا، فقطعت طريق أون فى ساعة من الزمان، ثم اجتازت باب المدينة الشرقى وانحرفت إلى الطريق الصحراوى الذى يؤدى إلى قرية سنكا، حيث يقيم أصهار سيدها الكاهن.

وما كانت زايا تستطيع أن تنسى تلك الساعة الرهيبة التى أحاط بها الجند فيها

يسألونها و يمعنون النظر فى وجهها، و لكنها تشعر ـ فخورا ـ بأنها حافظت على رباطة جأشها رغم هول الموقف، وأنها أقنعتهم بثباتها فتركوها تسير بسلام، و آه لو أنهم علموا بما تحمل عربتها !

و إنها لتذكر أنهم جنود أشداء، و لن تنسى ما حيت عظمة ذلك الرجل الذى يتقدمهم و لا هيبته و لا جلاله، حتى لكأنه تمثال إله و دبت فيه حياة إنسانية.

و لكن يا للعجب! لقد أتى ذلك الرجل الجليل لقتال طفل لم ير نور الدنيا إلا هذا الصباح!

و هناك نظرت إلى الوراء لترى سيدتها، و لكنها وجدتها كما أنامها سيدها الكاهن تحت الصوان . . يا لها من امرأة بائسة لم يدر بخلد إنسان أن تنام هذه النومة الشنعاء وهى نفساء! و ما كان زوجها العظيم يحلم بتلك المتاعب التى ساقتها الأقدار بين يدى طفله، ولو تكشف له الغيب ما تمنى الأبوة، و لا تزوج من السيدة رده ديديت التى تصغره بعشرين عاما!

و لكنها أحست بحسرة و حزن، و تنهدت قائلة : ليت الرب يهب لى غلاما و لو يحمل إلى مولده بؤس الدنيا جميعا!

كانت زايا زوجا عاقرا تذهب نفسها حسرات على طفل تتمناه على الآلهة، كما يتمنى الأعمى رؤية النور، وكم استشارت من أطباء، وكم سألت من سحرة، وكم لجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى أو أمل، وكانت إلى ذلك تشفق من بأس زوجها كاردا، الذى يحزنه أشد الحزن أن يرى العمر يتقدم به عاما بعد عام دون أن يوهب غلاما يحبو فى داره و يدفئ صدره بالأمل والخلود، و قد ودعها آخر مرة وهو يشد الرحال إلى منف حيث يشتغل فى بناء الأهرام ـ وهو ينذرها بالزواج مرة أخرى إذا هى لم تلد. وانقضى على سفره شهر وشهران وعشرة أشهر وهى ترقب نفسها وتتحسس آيات الحمل ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم دون جدوى وبلا أدنى أمل، رباه! لماذا تحرمها الآلهة من الأمومة ؟ ما حكمة خلقها امرأة إذن ؟ إذ ما من امرأة بلا أمومة ؟ إن امرأة بلا أمومة كخمر بلا نشوة، أو وردة بلا رائحة، أو عبادة بلا إيمان فوايأساه !

وعند ذاك سمعت صوتا ضعيفا ينادى «زايا» فأسرعت إلى الصوان ورفعته ووضعته جانبا، ورأت سيدتها والطفل فى حضنها نائما، وكانت متعبة مجهدة والاصفرار يعلو وجهها الأسمر الجميل فسألتها : «كيف حالك يا سيدتى؟ فأجابتها بصوتها الضعيف :

ـ بخير بفضل الأسباب . . أما من خطر يتهددنا الآن يا زايا؟

فقالت الخادمة :

ـ اطمئنى يا مولاتى لقد بعد الخطر عنك وعن مولاى الصغير .

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا وسألتها :

ـ هل يبقى أمامنا سفر طويل؟

فقالت زايا برقة :

ـ يبقى أمامنا مسير ساعة على أقل تقدير . . والأولى لك يا سيدتى أن تنامى فى حمى الرب رع .

فتنهدت المرأة والتفتت إلى الطفل النائم وقد اكتسى وجهها الشاحب الفتان بالمحبة والحنان، ثم أغمضت عينيها طلبا للنوم . ومضت زايا تنظر إليها وإلى الطفل ، تنظر إلى صورة الأمومة الحلوة السعيدة رغم الآلام والمخاوف . . ما أجمل منظرهما ! ألا ليتها تذوق الأمومة ولو مرة واحدة ولو تدفع حياتها ثمنا لها !

رباه ! لا الرب يرحم ولا الطب ينفع ولا كاردا يعذر . . ولعله لا يفوت وقت طويل قبل أن تضحى مطلقة شريدة تعانى آلام الوحدة وعذاب العزوبة !

وحولت زايا نظرها عن الأم السعيدة إلى الثورين وتنهدت قائلة :

ـ لو كان لى مثل هذا الطفل؟ لو آخذ هذا الطفل وأصطنعه ابنا بعد أن أبت على الآلهة ابنا طبيعيا !

ولم تكن تضمر بقولها سوءا ولكنها تمنت ، والنفس تتمنى المستحيل ، وتتمنى ما تمتنع عن فعله خوفا أو رهبة أو إشفاقا .

وقد تمنت زايا وحلقت فى سماوات السعادة بجناحى الأحلام ، ورأت نفسها تسير بهذا الطفل الجميل إلى كاردا وتقول له : «لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل» ، ورأت زوجها يتهلل ويطير من الفرح ويقبل عليها وعلى دف الصغير يحتضنهما معا ! وانتشت بنشوة السعادة الخيالية فتمدت على جنبها الأيمن ، وأمسكت زمام الثورين بيد ووضعت رأسها على الأخرى واسترسلت فى عالم الأحلام ، وجرت ـ فى غفلة منها ـ أنامل النوم على عينيها بخفة ورشاقة فحجبت عنها نور اليقظة ، كما أخذ أفق الغرب يحجب نور الشمس عن الدنيا . .

ولما عادت زايا إلى عالم الشعور ظنت أنها نائمة على سريرها بقصر سيدها كاهن رع تستقبل الصباح ، ومدت يدها لتسحب اللحاف عليها لأنها أحست بتيار هواء بارد ، انغرست يدها فيما يشبه الرمل ، ففتحت عينيها دهشة فرأت كونا مظلما وسماء مزدانة بالنجوم . وأحست بجسمها يهتز اهتزاز غريبا . . فتذكرت العربة والسيدة رده ديديت وطفلها الصغير الهارب وجميع الذكريات التى انتزعها منها سلطان النوم القاهر . .

ولكن أين هى؟ وفى أية ساعة من الليل؟

ونظرت فيما حولها فرأت فضاء مظلما محيطا عليها من ثلاث نواح ، وتراءى فى

الناحية الرابعة نور خافت عن بعد سحيق لم تشك فى أنه يشع من القرى المنثورة على شاطئ النيل . . وسوى ذلك فليس بالمكان الذى ضل فيه الثوران ما يدل على حياة . .

وتسربت وحشة الكون إلى نفسها ونفذت ظلمته إلى قلبها ، فانكمشت مرتجفة مذعورة ، واصطكت أسنانها من الخوف وجعلت تنظر إلى الظلام بعينين تتوقعان المخاوف فتخلقها خلقا مزعجا .

وقد خيل إليها أنها ترى فى أفق الظلام أشباح قافلة من البدو ، وكانت تذكر أشتاتا مما يروى عن قبائل سيناء وسطوهم على القرى وخطفهم للتائهين والضالين وقطعهم الطريق على القوافل . وكانت لاتشك فى أن العربة التى تقودها على غير هدى تعد غنيمة ثمينة بما فيها من حنطة . وبالثورين اللذين تشد إليهما ، وبالمرأتين اللتين يحق للعاب رئيس القبيلة أن يسيل عليهما . فاشتد بها الخوف وجن جنونها ، فقفزت على رمل الصحراء ، واتجه نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها وكانت ترى وجهيهما على ضوء النجوم الخافت ، فمدت يديها بلا وعى ولا تدبر إلى الطفل ورفعته بخفة ، وأحكمت لف القماط حوله ، وأطلقت ساقيها للريح صوب أنوار المدينة ، وخيل إليها وهى تعدو أنها سمعت صوتا ينادى عليها بفزع ، فظنت أن البدو أحاطوا بسيدتها ، فازداد بها الرعب وضاعفت سرعة عدوها ، لا يعوقها الرمل المكدس ولا الحمل العزيز ولا التعب الشديد ، فكانت كالمتردى فى هاوية يهوى بحكم ثقله دون أن يستطيع لنفسه إمساكا . ولعلها لم تكن قد توغلت فى الصحراء توغلا بعيدا ، أو لعلها قطعت بعدوها شوطا يجاوز تقدير المقدرين وتصور المتصورين ، لأنها أحست تحت قدميها بأرض ممهدة كأرض الطريق الصحراوى ، ونظرت خلفها فلم تر إلا ظلاما ، وكانت عند ذاك قد استهلكت قوتها الجنونية فهدأت من سرعتها وثقلت خطاها ، ثم ارتمت على ركبتيها وهى تلهث بعنف وشدة مخيفين ، وكانت ماتزال مذعورة مجنونة ولكنها لم تستطع حراكا ، مثل فريسة الكابوس الذى تطارده الأخطار ولا تطيعه قدماه ، فجعلت تتلفت يمنة ويسرة لا تدرى عن أى طريق يأتى الفرج ، ولا فى أية ناحية يجثم الهلاك .

وخيل إليها أنها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل! ترى هى عجلات عربات وخيل فرسان أم نبض الدم بأذنيها ورأسها؟ ولكن الأصوات وضحت فتأكدت وبدت فى الظلمة أشباح الراكبين العادين الآتين من الشمال ، ولم تدر إن كانوا يحملون لها سلاما أم هلاكا ، ولم تستطع اختفاء لأن دف علا صوته بالصراخ والعويل ، ولم تكن تأمن فى ركعتها وسط الطريق أن تلتهمهما عجلات العربات المندفعة فرفعت عقيرتها صائحة : «أيها الراكبون» .

واندفعت تكررها بصوت المستغيث وقد أسلمت نفسها للمقادير ، وأتى الركب سريعا ووقف على بعد منها قريب ، وسمعت صوتا يسأل عن الصارخ ، خيل إليها أنه ليس

غريبا عنها. فشدت يديها على الطفل وتنبه بها الحذر، فقالت بلهجة ريفية فجة غيرت بها نبرات صوتها:

ـ أنا امرأة هلكى، قصر بى الجهد عن متابعة الطريق وغشينى الظلام، وهذا طفلى، يكاد يقتله هواء الليل الرطيب.

فسألها صاحب الصوت الأول:

ـ وإلى أين تقصدين؟

فقالت زايا وقد بدأت تطمئن إلى أنها فى حضرة جنود مصريين:

ـ أقصد يا سيدى إلى منف.

فضحك الرجل وقال متعجبا:

ـ إلى منف يا سيدة؟! ألا تعلمين أن الركب يقطع هذا الطريق فى ساعتين؟

فقالت زايا بذلة وبؤس:

ـ إنى أسير يا سيدى منذ العصر، وقد اضطرتنى أسباب انقطاع الزاد إلى الهجرة، فتوهمت أنى أستطيع أن أبلغ منف قبل جثوم الليل..

ـ ومن لك فى منف؟

ـ زوجى كاردا الذى يشتغل فى بناء هرم مولانا فرعون.

ومال الرجل إلى رجل فى العربة التى إلى يساره وأسر إليه بكلمات، فقال الرجل:

ـ الأوفق أن يعود بها جندى إلى بلدتها.

فقال الأول:

ـ كلا يا خومينى فلن تلقى فى بلدتها إلا الجوع والمهانة. فلنحملها معنا إلى منف.

وصدع خومينى بأمر مولاه، فترجل عن عربته وذهب إلى السيدة وعاونها على القيام، وسار إلى أقرب عربة وأركبها وطفلها ووصى عليهما جندى العربة.

أما فرعون فقد التفت إلى المعمار ميرابو وقال له:

ـ لقد شق على قلبك الرقيق يا ميرابو أن ترى طفلا بريئا وأمه يذبحان بلا ذنب ولا جريرة، فإياك أن تتهم مولاك بالقسوة. انظر إلى كيف أرضى أن أحمل امرأة جائعة وطفلها الرضيع لأقيهما شر البرد والجوع، وأبلغ بهما بلدا ما كانا بالغيه إلا بشق الأنفس، ففرعون رحيم بعباده. ولم أك أقل رحمة حين خرجت للقضاء على ذلك الطفل السيئ الحظ، ذلك أن فعال الملوك كفعال الآلهة قد تلبس رداء الوحشية، ولكنها فى جوهرها حكمة سامية.

وقال الأمير رعخعوف:

ـ الأولى لك أيها المعمار ميرابو أن تعجب بقوة الإرادة الهائلة التى هزمت الأقدار، وقضت على قضاء القضاء.

وعاد خومينى إلى العربة، وأمر الملك قائد عربته بالمسير، فانطلق الركب صوب منف يشق أمواج الظلماء.

٧

وصلت زايا إلى منف قبيل منتصف الليل بزمن قليل مع الركب الفرعونى، وقد نفحها الملك بقطعتين من الذهب فسجدت بين يديه شاكرة ممتنة، وقد اعتقدت أنه قائد من القواد العظام وودعته فى ظلمة الليل دون أن ترى وجهه أو يرى وجهها.

وكانت زايا فى حالة بائسة من الخور الجسمانى والفزع النفسى، فتاقت نفسها إلى حجرة تخلو فيها إلى نفسها، واستدلت بشرطى على فندق متواضع تبيت فيها بقية ليلها. ولما وجدت نفسها والطفل لا ثالث لهما تنهدت تنهدة عميقة وارتمت على السرير.

وكأنما أطلقت ـ باستلقائها ـ العنان لألم جسمها ومخاوف قلبها، ولكن مخاوف القلب طغت على آلام الجسم و استبدت بشعورها. كانت ذاهبة الفؤاد، مذعورة النفس، لا تبرح مخيلتها صورة سيدتها النفساء التى خطفت طفلها و تركتها على عربة ضالة وسط الصحراء، تغشاها الظلمات وتحيط بها الوحشة و يطبق عليها رجال سلب ونهب ولا تعرف قلوبهم الرحمة ولا الشفقة، ولعلها الآن أسيرة بين أيديهم يسومونها سوء العذاب ويفرضون عليها الرق والعبودية، وهى تبث الآلهة شجوها وذلها وتشكو إليها ما لاقت من غدر ويأس وما تلقى من عذاب.

ازدادت زايا عذابا وخوفا ومضت تتقلب على فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وأشباح فعلتها النكراء تطاردها مطاردة عنيفة وتنهال عليها بالوخز والألم والرعب، واستصرخت النوم العزيز لينقذها من ويل ليلتها الوبيل، ولكنها تقلبت كثيرا وسهدت طويلا، وذاقت مر العذاب والخوف قبل أن يرفق النوم بجفنيها وينتزعها من الجحيم الذى أصلاها نار العذاب، فنامت متعبة منهوكة القوة مقلقلة النفس.

واستيقظت على عويل الطفل، وكانت أشعة الشمس تنفذ من كوة الحجرة وتفرش أرضها بساطا من الأنوار، فحنت على الطفل وهزته بلطف وقبلت فمه بحنان، وكان النوم قد شفى أسقامها وطمأن نفسها وإن لم يخل قلبها من قلق ونفسها من عذاب.

ولكن الطفل استطاع أن يحول شعورها إليه فأنقذها من عذاب الليل وويله، وحاولت ملاطفته لكنه زاد فى العويل وواجهت مشكلة تغذيته وتحيرت من أمرها، ولكنها فطنت إلى الحل الواحد، فقامت إلى باب حجرتها وصفقت بيديها فجاءتها امرأة عجوز تسألها عما تريد، فطلبت منها نصف رطل من لبن الماعز.

وحملت ددف بين ذراعيها وذرعت به الحجرة ذهابا وجيئة، ووضعت حلمة ثديها فى فمه تلهيه وتصبره، ثم نظرت إلى وجهه الجميل وصاحت بنشوة فرح مفاجئ كأنه تسلل إلى قلبها خلسة فى غفلة عن الهجوم: تبسم يا ددف.. تبسم وقر عينا فسترى والدك بعد حين قليل.

وسرعان ما تنهدت وقالت لنفسها بخوف: ترى هل أفوز به رغم كل شيء؟ لقد انتهى أمر أمه الحقيقية وكذا أمرا أبيه!

أما أمه فقد أخذها البدو أسيرة وما كانت تستطيع هى - أى زايا - أن تفعل شيئا لإنقاذها. ولو ترددت لحظة أخرى عن الهرب لوقعت معها غنيمة باردة فى أيدى البدو المعتدين فلا يجوز أن تحمل نفسها وزر جريمة لم ترتكبها ولم تعن على ارتكابها. وأما أبوه فلا شك أن قتله جنود فرعون انتقاما منه لتهريبه زوجه وطفله.

وارتاحت إلى تفكيرها هذا فعاودته مرة أخرى لترضى نفسها وضميرها وتقضى على أشباح الخوف ونحس الآلام، فرجعت تحدث نفسها بأنها أحسنت صنعا بالهروب وخطف الطفل، ولو أنها لبثت إلى جانب سيدتها ما استطاعت أن تدفع عنها شر العدا ولهلكت معها، وما كان فى مقدورها أن تحملها وتدب بها. ولم يكن من الرحمة أن تترك الطفل بين أحضانها حتى يقتله رجال سيناء. فقد أحسنت صنعا بالهرب وأحسنت صنعا بخطف ددف ولا خوف عليها ولا ينبغى أن تحزن!

ما أعذب هذا التفكير، بل ما أجمل أن ينتهى بها إلى أنها أم ددف دون شريك! هى أمه دون شريك وكاردا أبوه، وكأنما أرادت أن تطمئن إلى هذه الحقيقة فجعلت تناديه نداء منغوما قائلة: «ددف رع بن كاردا.. ددف رع بن زايا..»..

وجاءت العجوز بلبن الماعز، وبدأت الأم الصناعية ترضع الطفل رضاعا صناعيا.. حتى ظنت أنه شبع، ولم يبق أمامها إلا أن تتأهب للخروج إلى كاردا.. فاستحمت ومشطت شعرها ووضعت خمارها على منكبيها، وحملت ددف بين يديها وغادرت الفندق.

وكانت شوارع منف مزدحمة كعادتها بالمارين، راجلين وراكبين، ذكورا وإناثا، من وطنيين ومستوطنين وأجانب. ولم تكن زايا تعرف الطريق إلى الهضبة المقدسة، فسألت شرطيا فأجابها: بأن الهضبة «جنوب شرقى سور منف يقطعها الراجل فى ساعتين أو

يزيد، والراكب فى نصف ساعة»، وكانت يداها مملوءتين بالقطع الفضية فاكترت عربة ذات جوادين، وجلست باطمئنان وسعادة.

وسرعان ما انتزعتها أحلامها من الدنيا وحلقت بها فى سماء السعادة والغبطة، فسبق خيالها العربة إلى كاردا زوجها الحبيب المفتول الذراعين الأسمر الوجه، فما أجمله فى وزرته القصيرة التى تكشف عن ساقيه الحديديتين، وما أحب وجهه المستطيل بجبهته الضيقة وأنفه الكبير وعينيه الواسعتين وصوته الخشن العريض ذى اللهجة الطيبية القحة. وكم ذا تشتاق إلى ضم ساعديه وتقبيل فمه وسماع صوته.

وكان فى أمثال هذه المقابلات التى يسبقها غياب طويل يقبل عليها بشوق ويقول لها مداعبا: «تعالى يا امرأة.. كأنى بك أرض صخرية تشرب الماء ولا تنبت شيئا». أما هذه المرة فلن يقولها وكيف يقولها وهى تلقاه و على يديها أجمل ما حملت الأمهات؟! ولا ريب أنه سينظر إليها كالذاهل فتلين عضلات وجهه الصلبة وتمتلئ عيناه البراقتان بنظرة حنان تذوب رقة وعطفا، ويهتف بها وهو لا يملك نفسه من الفرح: «وأخيرا ولدت يا زايا! أحقا هذا طفلى؟ تعالى إلىّ.. تعالى إلىّ..» فتقول له وهى ترفع رأسها بكبرياء وأنفة: «خذ طفلك يا كاردا وقبّل قدمه الصغيرة.. واسجد شكرا للرب رع.. إنه ذكر وقد سميته ددف».

وأقسمت لتحملن زوجها على العودة إلى طيبة مسقط رأسه، لأن قلبها بات يوجس خيفة ـ لا تدرى ما كنهها ـ من الشمال وأهله، وفى طيبة الجميلة وتحت رعاية الرب آمون تربى ابنها وتحب زوجها، وتعيش الحياة التى حرمتها دهرا طويلا..

وأيقظتها من أحلامها جلبة أصوات وضجيج حياة، فنظرت إلى الطريق ورأت العربة تصعد طريقا ملتويا والرجل يلهب الخيل بسوطه، ولم تستطع فى جلستها أن ترى ما على سطح الهضبة، ولكن طرقت أذنيها أصوات أحياء ودوى آلات وأناشيد العمال، وعرفت من بينها نشيدا كان كاردا يترنم به فى أوقات الصفاء وهو:

نحن رجال الجنوب نأتى مع مياه للنيل،
من تلك الأرض التى اختارتها الآلهة سكنا والفراعين.
نسوق بين أيدينا الخصب العميم والعمران.
انظر إلى المدن العامرة والمعابد ذات العمدان،
كانت ـ قبلنا ـ خرائب تأوى إليها الأوابد والغربان،
إن الصخر لنا يلين ويذعن، وكذا الماء الجبار.
سل عن بأسنا قبائل النوبة وطور سيناء.
سل عن جهادنا زوجات ينتظرن فى وحدة وعفاف.

وسمعت المئين يرددونها بقوة وحنان معا، فهفت نفسها إليهم كما يهفو الحمام إلى صفير صاحبه، وأنشد قلبها مع المنشدين.

وبلغت العربة سطح الهضبة بعد أن اجتازت الطريق المسمى وادى الموت، ونزلت منها زايا وسارت صوب الخلق المحشود المنتشر على رقعة الهضبة كأنه جيش عارم فى ميدان. ومرت فى طريقها بمعبد أوزوريس وتمثال أبى الهول ومصاطب الآباء والأجداد الذين أهلتهم أعمالهم فى الدنيا للرقاد فى بطن تلك الأرض الطاهرة، وشاهدت النهر الطويل الذى شقه العمال ليصل الهضبة بالنيل. وكانت تجتازه المراكب الضخمة تباعا محملة بالصخور الجبارة حيث ينتظرها عند المرسى جماهير العمال بالعربات الزاحفة. ورأت عن بعد أساس الهرم الذى لا يحيط بحدوده بصر والعمال على سطحه كالنجوم المنتشرة فى رقعة السماء.. وكانت تختلط أصوات الأناشيد بصياح الرؤساء وأوامر الحرس وطقطقة الآلات، فوقفت زايا حيرى وطفلها على يديها تتلفت يمنة ويسرة لا تدرى أين المستقر، وترى عبث النداء فى ذاك المحيط اللجى، وقد تعبت عيناها قلقًا وترددا بين الوجوه.

ومر بها أحد الحراس فاستغرب وقفتها، ودنا منها وسألها بصوت أجش:

- ماذا جئت تفعلين هنا يا سيدة؟

فقالت له بسذاجة:

- أبحث يا سيدى عن زوجى كاردا.

فسألها الجندى وهو يقطب جبينه متذكرا:

- كاردا؟ هل هو معمار أم حارس؟

فقالت فى استحياء:

- هو عامل يا سيدى.

فضحك الرجل ساخرا وقال لها وهو يشير إلى بناية على بعد قريب:

- اسألى عنه فى مكتب المفتش.

فسارت زايا إلى هدفها، وكانت البناية متوسطة الحجم، جميلة المشهد، ويقف على بابها حارس من الجند، وقد اعترض طريق زايا، ولكنها أخبرته بما جاءت من أجله فأوسع لها، فدخلت حجرة واسعة تصطف فى جوانبها المكاتب ويجلس خلفها الموظفون، وكانت جدرانها ملأى بالرفوف المكدسة بأوراق البردى، وفى اتجاه الداخل يرى باب موارب دلها الجندى عليه بعصاه، فاجتازته إلى حجرة أصغر حجما وأجمل منظرا وأثمن أثاثا، وكان يجلس فى ركن منها - خلف مكتب فخم - رجل ربعة القوام بدين الجسم، يميزه رأس كبير وأنف ضخم قصير فى وجه ممتلئ، عظيم الشدقين، منتفخ

الخدين كقربتين صغيرتين، وكانت عيناه جاحظتين وجفناه ثقيلين، وقد جلس فى كبرياء وعظمة، وانكب على ما بين يديه فى تيه وسلطان.

وقد أحس بالداخل ولكنه لم يرفع عينيه ولم يبد عليه اهتمام حتى فرغ مما بين يديه، فنظر إلى زايا نظرة شوس وتيه وسألها بصوت تياه فخور:

ـ ماذا تريدين يا امرأة؟

فاستولى الارتباك والخوف على زايا وقالت بصوت مضطرب ضعيف:

ـ جئت أبحث عن زوجى يا سيدى.

فسألها بنفس اللهجة:

ـ ومن زوجك؟

ـ عامل يا سيدى.

فضرب المكتب بقبضة يده وقال بلهجة حادة وبصوت كأنه يرن فى قبو:

ـ وما الداعى إلى تعطيله عن عمله وإقلاقنا؟

فذعرت زايا وتفرق منطقها شعاعا ولم تحر جوابا.. فأدام إليها النظر وشاهد وجهها الخمرى المستدير وعينيها العسليتين الساختنين وشبابها الغض، فعز عليه أن يجثم الخوف على مثل ذاك الوجه الصبوح، ولم يكن له من السلطان إلا ظاهر وزهو. أما قلبه فطيب، وأما عواطفه فرقيقة، فعطف على المرأة وقال بصوته الأجوف ولكن بلهجة رقيقة ما استطاع:

ـ لماذا تبحثين عن زوجك يا سيدة؟

فتنهدت زايا ارتياحا وزال عنها الرعب وقالت بامتنان:

ـ إنى آتية من أون بعد أن ضاقت بى سبل العيش، وأرجو يا سيدى أن يعلم بوجودى.

فنظر المفتش إلى الطفل الذى تحمله على ذراعيها وقال كالمرتاب:

ـ أمن أجل هذا جئت حقا.. أم جئت تبشرينه بهذا المولود؟

فتورد خدا زايا وعلا الحياء وجهها، ونظر إليها الرجل هنيهة ملتذا ثم سألها:

ـ حسن.. من أى بلد زوجك؟

ـ من أون يا سيدى ومسقط رأسه طيبة.

ـ وما اسمه يا سيدة؟

ـ كاردا بن عن يا مولاى.

فنادى المفتش كاتبا وقال له بلهجة الأمر والخيلاء التى تنازل عنها من أجل عينى زايا.

ـ كاردا بن عن من أون. فذهب الكاتب وبحث بين الدفاتر واستخرج واحدا منها وقلب فى أوراقه باحثا عن حرف الكاف وعن اسم كاردا، ثم عاد إلى رئيسه ومال على أذنه وهمس بصوت خافت ورجع إلى عمله.

وأجد المفتش فى مظهره ونظر إلى وجه المرأة طويلا، ثم قال بصوت هادئ خافت:

ـ آسف يا سيدتى أن أنعى إليك زوجك، فقد مات فى ميدان العمل والواجب!

وصكت كلمة الموت أذنى المرأة ففرت من صدرها صرخة رعب وفزع، ولبثت لحظة كالذاهلة، ثم سألت المفتش بتوسل أليم:

ـ أحقا مات زوجى كاردا بن عن؟

فأجابها بوجوم:

ـ نعم يا سيدتى.. استوصى بالصبر.

ـ ولكن كيف عرفت ذلك يا سيدى؟

ـ هذا ما أنبأنى به الكاتب بعد أن فحص أسماء عمال أون.

ـ ومن أدراك يا سيدى فقد يخدع البصر وتتشابه الأسماء.

وطلب المفتش الدفتر إلى مكتبه ونظر فيه بنفسه ثم هز رأسه أسفا، ونظر إلى وجه المرأة الذى لون الرعب صفحته بصفرة الموت، ورسم الأمل فى عينيه نظرة تضرع وتوسل ورجاء، وقال:

ـ استوصى بالصبر يا سيدتى، وأذعنى لإرادة الآلهة.

فانطفأ نور الأمل الخافت وأجهشت زايا فى البكاء، فطلب المفتش لها كرسيا ومضى يقول لها:

ـ تشجعى يا سيدة.. تشجعى.. هذه إرادة الآلهة.

ولكن زايا كان يلوح له الأمل كما يلوح السراب للظمآن فى المفاوز، فسألته:

ـ ألا يجوز يا سيدى أن يكون الميت واحدا غريبًا يحمل اسم زوجى؟

فقال لها المفتش بلهجة اليقين:

ـ كاردا بن عن هو العامل الوحيد الذى استشهد من عمال أون.

فصاحت المرأة بذل وألم:

ـ يا لسوء حظى يا سيدى!.. ألم تجد الأقدار هدفا لسهمها غير صدرى الضعيف؟

ـ هدئى روعك..

ـ ليس لى رجل سواه يا سيدى .

وكأن المفتش الطيب القلب أراد أن يطمئنها ، فقال لها :

ـ إن فرعون لا ينسى عباده المخلصين ، وتسع رحمته الضحايا والمستشهدين جميعا . . أصغ إلى : لقد أمر مولانا الملك ببناء بيوت لأسر العمال الذين قضوا فى أثناء العمل ، وقد شيدت البيوت عند سفح الهضبة وأوى إليها العشرات من النساء والأطفال ، وقد أجرى عليهم الملك إعانات شهرية ، كما اقتضت إرادته اختيار الرجل من ذوى قرباهم للمعاونة فى الحراسة . . فهل لك قريب تريدين تعيينه مراقبا للعمال؟

فقالت زايا وهى تنتحب :

ـ ليس لى فى الدنيا غير هذا الطفل .

فقال الرجل :

ـ ستأويان إلى حجرة نظيفة ولن تعرفا ذل السؤال .

وهكذا غادرت زايا مكتب مفتش الهرم أرملة بائسة ، تندب زوجها السيئ الحظ وطالعها المنكود .

٨

وكانت البيوت التى أمر فرعون بإقامتها لأسر العمال المستشهدين تقع خارج أسوار منف البيضاء شرقى الهضبة المقدسة ، كانت بيوتا متوسطة الحجم يتكون كل منها من طابقين ، وكل طابق من أربع حجرات متسعة ، وقد أقامت زايا فى حجرة هى وطفلها ، وألفت نفسها تعيش بين أولئك الخلق من الأرامل والثكليات والأطفال ، منهم من لا تفتأ تندب قتيلها ومنهن من اندمل جرحها وعفا الزمان على أحزانها . وكانوا جماعة من ذوى همة ونشاط ، فاشتغل الصبيان بتوزيع الماء على العمال ، واتجرت النسوة بالأطعمة والجعة ، وتحول الحى البائس إلى سوق ناشئة رخيصة دبت بها حركة العمران والعمل ، وبشرت بأن تكون جنين قرية يافعة . .

وقد أمضت زايا أيامها الأولى بسكنها الجديد فى حزن متصل وبكاء أليم على الزوج الفقيد ، وعذبها الحزن عذابا لم يخفف بلواه عنها ما تلقى من توفر الرزق وما تنعم به من عطف بشارو مفتش الهرم العام ، ولكن واأسفاه! فلو ذكر المصابون فى قلوبهم أن الموت فناء يطمس الذكرى ويذهب الأحزان فى قلب الحى بنفس السرعة التى يفنى بها وجود

الميت، لوفروا على أنفسهم جهدا ضائعا وعذابا مريرا، فقد تعزت و أنستها متاعب الحياة مرارة الموت، لأنها أحست بتأفف فى مقامها الجديد وضاقت به ولما تمض به سوى شهور قلائل، واقتنعت بأنه ليس المكان اللائق بها ولا بابنها، ولكنها لم تر عن الصبر محيدا فسكتت على الحزن والضيق.

وفى أثناء تلك الشهور زارها المفتش بشارو عدة مرات، لأنه كان يجيئها كلما ذهب للتفتيش على المساكن وتفقد أحوالها. حقيقة أنه كان يزور كثيرات من الأرامل ولكن زيارته لزايا امتازت برحمة ومودة، وما من شك فى أن الأخريات لم يكن أقل بؤسا من زايا ومنهن من يفقنها شقاء، ولكن لم يكن لواحدة منهن عينان عسليتان ساختنتان كعينى زايا، ولا جسم ممشوق لدن كجسمها. وقالت زايا لنفسها وهى مستغرقة فى لجج التأمل والتفكير: ما أطيبه من رجل، إنه بدين قصير، غليظ القسمات، فى الأربعين من عمره أو يزيد، ولكنه طيب القلب عظيم المودة..! وكانت تلحظ بعين نافذة خفية أنه إذا وقع بصره على جسمها اللدن اضطرب جفناه الثقيلان وانفرجت شفتاه الغليظتان. وحل الهوان فى طلعته محل الخيلاء والكبرياء فتعاطيه تثنيا رقيقا يسمره فى مكانه ثوانى كأنه خنزير محاصر. وتولدت المطامع فى قلب زايا فسلت سلاحها للاستيلاء على المفتش العظيم، وقد انتهزت مرة فرصة حضوره فشكت إليه سوء ما تلقى من الوحشة والكآبة فى مقامها البائس، وقالت له:

- لعلى أكون ذات نفع يا سيدى فى غير هذا المكان، فإنى خدمت طويلا فى قصر أحد سراة أون، ولى خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات.

فارتج جفنا الرجل الغليظان، ونظر إلى الأرملة الحسناء بعين طامعة وقال:

- فهمت يا زايا، فليس ما تشكين هو العطلة أو الخمول، ولكن نفسك ألفت نعيم القصور فلا يتأتى لها الصبر على مثل هذه الحياة البائسة.

فابتسمت الماكرة فى رقة ودلال، وكشفت عن وجه ددف الجميل وقالت:

- هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن؟

فقال المفتش:

- كلا.. ولا بك يا زايا.

فاحمر وجهها وأسبلت جفنيها حتى مست أهدابهما نقرتى خديها، فقال الرجل:

- إن لى ذلك القصر الذى تريدين، ولعله يريدك أيضا.

- إنى رهينة إشارة مولاى.

- لقد ماتت زوجتى تاركة لى ابنين، وعندى من الجوارى أربع، فهل تكونين الخامسة يا زايا؟

ومنذ ذلك اليوم انتقلت زايا وطفلها ددف من حى البائسات إلى حريم مفتش الهرم بشارو بقصره الجميل الذى تمتد حديقته حتى تبلغ مجرى النيل المقدس، وانتقلت إليه كجارية ذات حظوة ليست لغيرها. ووجدت الجو خاليا لمكرها وسحرها، لأن القصر كان بدون ربة مسيطرة، ولأن ابنى المفتش كانا حبيبين صغيرين فعملت على أسر لب سيدها. ونجحت فى مسعاها حتى حملته على الزواج منها، وسرعان ما صارت زوج المفتش بشارو وربة قصره والمشرفة على تنشئة ابنيه خنى ونافا، ولم تكن زايا يخونها المكر أبدا، فمنذ تسنمت مكانتها العالية أقسمت فيما بينها وبين نفسها لتحسنن معاملة الصبيين، وتكونن لهما نعم الأم الحنون.

وهكذا ابتسم الحظ لزايا بعد تقطيب وأقبلت عليها الدنيا بعد إدبار.

٩

ذلك هو القصر الذى قضت الأقدار بأن يكون مرتع طفولة ددف رع. وقد تمتع الطفل بطفولة خالصة ثلاث سنوات كاملة - كما جرت العادة بمصر على أيامه - لم يفارق فيها حضن أمه إلا حين النوم، وقد ترك - فى تلك السنوات الثلاث - أثراً على صدر زايا لم يمح منه طيلة العمر، فملأه أمومة ورضع منه حنانا ومحبة، ولا نستطيع أن نحدث عن طفولة ددف الأولى بأكثر من مس ظواهرها، لأنها - ككل طفولة - سر مغلق وسعادة فى قمقم لا يعرف كنهها إلا الآلهة التى تحوطه بالعناية وتلهمه النجوى، وقصارى ما يقال إنه كان ينمو سريعا كما تنمو أشجار مصر تحت أشعة شمسها المشرقة، وإن نفسه كانت تتفتح كاشفة عن حسنها كما تتفتح الوردة إذا سرى فى عودها دفء الحياة وانبعث فيها روح الجمال، وإنه كان سعادة زايا ونور عينيها كما كان لعبة نافا وخنى الثمينة المفضلة، يتخاطفانه ويقبلانه ويعلمانه الأسماء والنطق والمشى. وإنه ختم طفولته الأولى بعلم لا يستهان به فتعلم كيف يقول لزايا «أماه»، وعلمته المرأة أن تقول لبشارو «أبتاه» وكان الرجل يتقبلها منه بحبور، وكان يتفاءل بوجهه الصبوح الجميل الذى يكتسب رونقه من بهاء اللوتس. وما زالت أمه به حتى تعلم كيف ينطق رع، وكانت تطلب إليه النطق بها قبيل النوم وعقب الاستيقاظ لتستدر عطف الرب على ابنه الحبيب.

وحين بلوغ الثالثة هجر حضن زايا ومضى يحبو فى حجرة أمه، أو يسير متوكئا على المقاعد والدواوين ما بين البهو والحجرات، ودلته غريزة الاستطلاع على نقوش الوسائد وزخرفة المناضد ورسوم الجدران والتحف المنثورة والمصابيح المدلاة، فعبثت يده بما

استطاعت الوصول إليه ومد قبضته للعزيز الممتع حتى إذا أعياه القصد صاح «رع»، أو نفس عن صدره الصغير بآهة عميقة واستأنف السير وأخذ فى البحث والاستكشاف، ثم أتاه المفتش بشارو بثروة عظيمة من اللعب: كالحصان الخشبى، والتمساح الفاغر فاه، والعربة الحربية الصغيرة. فكان يعيش معها فى دنيا غير الدنيا، دنيا يخلق فيها الحياة ويسيطر على المصائر ويقول للشيء كن فيكون، فكان للحصان الخشبى حياته وآماله، وللتمساح الفاغر فاه حياته وأطماعه، بل كان للعربة نفسها حياتها ومطالبها، وكان يحادثها فتحدثه، ويأمرها فتطيعه وتكشف له فى كل حين من أسرار الجماد ما تخفيه عادة عن الراشدين.

وعلى ذلك العهد ولد جاموركا من أبوين عريقين من سلالة أرمنت، وقد استقبله ددف رع استقبالا حفيا، ووهبه حجره يأوى إليه، وتوثقت عرى المودة بينهما منذ ذلك العهد المبكر، وقد قضت محبة ددف لصديقه أن ينشأ هذا نشأته الأولى فى حضنه وأن يتبعه فى أثناء نومه كظله. وأن يلقن اسمه «جاموركا» بلسانه الحلو، وأن يكون أول نباحه نداء عليه، وأول تحريك ذيله القصير حفاوة به، ولكن واأسفاه لم تخل طفولة جاموركا من عذاب، فكان التمساح الفاغر فاه واقفا له بالمرصاد ينغص عليه سعادته ويكدر صفوه، وكان إذا رآه نبح وبرقت عيناه وتصلب جسمه وكر وفر، ولا يهدأ حتى يخفى ددف تمساحه المخيف.

وكانا لا يكادان يفترقان، فإذا أوى ددف إلى سريره رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد ساكنا ـ وقليلا ما يفعل ـ جلس قبالته وبسط ذراعيه، أو مضى يلعق خديه ويديه كيف شاء حنانه واقتضت مودته، وكان يتبعه إلى مماشى الحديقة ويركب معه القارب إذا حملتهما زايا إليه للتريض فى بركة القصر، فكانا يطلان برأسيهما من حافة القارب وينظران إلى صورتهما فى الماء، أما جاموركا فلا يسكت عن النباح، وأما ددف فيعجب لذلك الصغير الجميل الذى يشبهه ويعيش فى باطن البركة.

وكانوا إذا أتى الربيع وصدحت السماوات بأناشيد الطير، وانشقت أردية الشتاء الكثيفة عن نور الشمس البهيج، واحتفى الكون بعيد الشباب، فلبست الأشجار حللا من سندس، وازينت الشجيرات بألوان الورود والرياحين، وتدفق الحب فى القلوب، كانوا يكثرون من رياضة الزوارق على سطح الماء، كانوا يتركون الأطفال عرايا إلا مما يستر، فكان خنى ونافا يقفزان إلى الماء ويسبحان ويتقاذفان بالكرة ويقف ددف إلى جانب جاموركا يشاهدهما بسرور وغيرة، وربما طلب إلى أمه أن يفعل مثلهما فترفعه من تحت إبطيه وتغطسه فى الماء إلى الوسط فيلعب بقدميه ويصيح فرحا مسرورا.

فإذا ارتوت نفوسهم لهوا ولعبا عادوا جميعا إلى حجرة الحديقة الصيفية. وجلست

زايا على الديوان وجلس بين يديها ددف وخنى ونافا وأمامهم جاموركا باسطا ذراعيه، فتقص عليهم قصة البحار الذى تحطمت سفينته وقذفت به الأمواج على لوح من الخشب إلى جزيرة مهجورة، وتروى لهم كيف ظهر له الثعبان الهائل صاحب الجزيرة وكيف كاد يفتك به. لولا أنه علم أنه رجل مؤمن محمود السيرة وأنه من رعايا فرعون، فطمأنه ووهب له سفينة من عنده محملة بالنفيس من الكنوز عاد بها سالما آمنا إلى وطنه.

وما كان ددف يسمع بأذنيه ولكنه كان يرى بعينيه السوداوين الجميلتين. كان سعيدا محبوبا، ومنذا الذى يستطيع ألا يحب ددف ذا العينين السوداوين الدعجاوين والأنف الطويل المستقيم والروح الخفيف الضاحك؟ كان يحب إذا تكلم وإذا سكت، يحب إذا لعب وإذا سكن، يحب إذا رضى وإذا غضب وقد تمتع بنعمة الحب واللهو فى حياة قوامها الحب واللهو والخيال، يعيش كالخالدين دون أن يسأل عن الغد.

إلى أن بلغ الخامسة من عمره وبدأت الحياة تكشف له عن بعض خبيئتها. وفى ذلك الوقت بلغ خنى الحادية عشرة ونافا العاشرة واختتما تعليمهما الأولى، واختار خنى أن يلتحق بجامعة بتاح ليرقى مدارج علمها المتابعة ويتفقه فى الدين والأخلاق والعلوم والسياسة، إذ كان الغلام ميالا للعلم شغوفا بالحكمة وكان يرغب فى شغل وظيفة دينية أو قضائية، أما نافا فلم يتردد فى الالتحاق بمعهد خوفو للفنون الجميلة، لأنه كان يهوى الرسم والتصوير.

وجاء الدور على ددف ليلتحق بالمدرسة الأولية، وليقضى عليه بهجر زايا وجاموركا وعالم الأحلام كل يوم أربع ساعات كاملة، يصرفها مع الأطفال والأغراب فى تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والهندسة والدين والأخلاق والتربية الوطنية.

وكان أول ما قيل له ولهم فى اليوم الأول: «عليكم بالإصغاء التام، ومن يأبى ذلك منكم فاعلموا أن أذنى الطفل فوق خديه وهو يرهف السمع كلما ضرب».

ولأول مرة فى حياة ددف اشتركت العصا فى التفاهم معه. على أنه أبدى استعداداً طيبًا للتعلم، وأقبل بشوق عظيم على درس اللغة الهيروغليفية الجميلة، وبرع فى فهم مسائل الجمع والطرح.

وكان لمدرس الأخلاق أثر عظيم فى نفسه، لأنه كان ذا شخصية قوية محبوبة، وكان يبتسم ابتسامة حلوة تبث فى أنفس التلاميذ المودة والاطمئنان، وزاد من حب ددف له أن وجد شبهًا بينه وبين أبيه بشارو فى بدانة الجسم وانتفاخ الشدقين وجهارة الصوت وغلظه، فكان يصغى إليه بمجامع وجدانه وهو يقول:

«انظروا ماذا يقول حكيمنا قاقمنا، إنه يقول ـ تقدست روحه فى السماوات ـ: «احذر أن تكون عنيدا فى الخصام فتستوجب عقاب الرب، ويقول: إن قلة الأدب بلادة ومذمة،

ويقول أيضا : إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطايب الطعام ما تشتهيه فلا تبادر إلى تناوله لئلا يحسبك الناس شرها . فإن جرعة ماء تروى الظمأ ، ولقمة خبز تغذى الجسم» . ثم يأخذ بعد ذلك فى التفسير وضرب الأمثال وقص القصص ، وكان كثيرا ما يقول لهم : «يجدر بالطفل منكم ألا ينسى ما تكلفته أمه من المتاعب من أجل راحته ، فقد حملته فى بطنها تسعة أشهر ، وحضنته ثلاث سنوات وغذته بلبنها . احذر أن تغضبها ، فالرب يستمع إلى شكواها ويستجيب دعاءها» .

كان ددف يصغى إلى مدرسه بوعيه الكامل ، ويتلذذ بأمثاله وقصصه ويتأثر بقوله غاية التأثر . وأمضى فى تعليمه الأولى سبع سنوات أتم فيها مبادئ العلوم وأتقن الكتابة والقراءة .

وفى أثناء تلك الفترة توثقت أواصر الود بينه وبين أخيه نافا ، فكان يجلس إلى جانبه وهو يرسم أويصور ، يتتبع بعينيه الفاتنتين هاتيك الخطوط التى يخلق تلاحمها أجمل الأشكال وأبدع المعانى . على أن نافا كان يملك قلبه بضحكه الذى لا ينقطع ، وبروحه المرحة وبنكاته اللطيفة .

وكان لخنى أثر بين فى عقله ، جعل علمه الناشئ يجاوز المبادئ ويتصل بالإلهيات والعلوم العالية فى تلك السن المبكرة ، وذلك أن خنى كان يعجبه خط ددف ، فكان يملى عليه مذكراته ومحاضراته فأضاء عقله الصغير قبس من نور قاقمنا ووحى من كتاب الموتى ونفثات من أشعار تايا ، وكانت تنساب إلى عقله فى لطف ، ولكن فى هالات من الغموض والإبهام أيقظته من سباته وبثت فيه القلق والحيرة والحياة .

وقد أحب خنى أيضا ـ رغم رزانته وتجهمه ـ وكان إذا شبع جريا ولعبا هو وجاموركا أوى إلى حجرته ليكتب له محاضراته أو ليقلب فى الكتب المحلاة بالصور ، فتأمل من صغره صورة بتاح رب منف وصولجانه ذى العلامات الثلاث الدالة على القوة والحياة والخلود ، وصورة العجل أبيس المقدس الذى تحل به روح بتاح المعبود ، وكان يمطر خنى بالأسئلة فيجيبه الشاب عنها بصبر ، ويروى له الأساطير وما أعظم ما كانت تستولى عليه ! . . كان يجلس القرفصاء مصغيا إلى أخيه وجاموركا أمامه يوليه وجهه ، ويولى الأستاذ وأساطيره الدينية ظهره !

وانتهت المرحلة السعيدة الممتعة : وأوفى منها ددف على الغاية وأكثر ، بل فاق عقله عمره : فكان مثله مثل شجرة الورد التى تنبت الزهر الجميل ولم تعل عن الأرض أشبارا .

١٠

واها! إن الزمان يتقدم غير ملتفت إلى الوراء، وينزل ـ كلما تقدم ـ قضاءه بالخلائق، وينفذ فيها مشيئته التى تهوى التغيير والتبديل، لأنه ملهاته الوحيدة التى يستعين بها على ملل الخلود، فمنها ما يبلى ومنها ما يتجدد، ومنها ما يموت ومنها ما يحيا، ومنها ما يبتسم شبابه، ومنها ما يرد إلى أرذل العمر، ومنها ما يهتف للجمال والعرفان، ومنها ما يتأوه لدبيب اليأس و الفناء.

وقد فعل الزمان فعله بأسرة بشارو.

فقد بلغ الرجل الخمسين من عمره، ودب الترهل فى بدانته، وخط المشيب رأسه، وأخذ يودع شيئا فشيئا القوة والشباب والفتوة، وازداد الجهاز العصبى حساسية فكثر صياحه وصخبه وانتهاره الحراس وزجره الكتبة، ولكنه كان كالثور المصرى عظيم الخوار عديم الأذى، لأن طبيعته تمسكت بصفتين لا تتنازل عنهما ولا تخضع فيهما لحكم زمان: فخاره وطيبة قلبه، فهو مفتش عام هرم خوفو وويل لمن يخاطبه فلا يقرن باسمه وظيفته وألقابه، وهو لا يمل الحديث عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولا يسره حديث كحديث الملق والإطراء.

وكان إذا دعى إلى المثول بين يدى فرعون بحكم وظيفته، نشر الخبر فى كل مكان تصل إليه دعايته، فيعلم به أهل بيته صغيرا وكبيرا وأصحابه ومرءوسوه، ولا يكتفى بذلك فيقول لنافا وخنى وددف: «هلموا أذيعوا النبأ المجيد بين إخوانكم، وتنافسوا أيها الصغار لتبلغوا الذروة التى تسنمها أبوكم بالإخلاص والعمل والمواهب العالية»، ولكنه ظل كما كان الرجل الطيب الذى ينفر قلبه من الأذى ولا يجاوز غضبه طرف اللسان.

وقد بلغت زايا الأربعين ولم تنل منها السنون إلا قليلا، فاحتفظت بمعالم جمالها وكمال نضجها، وصارت السيادة والكرامة من طباعها الثابتة. فمن يرها تقوم على قصر بشارو ولا يجر له على بال أنها تلك التى كانت زوجا للعامل كاردا وخادما للسيدة رده ديديت. بل هى نفسها أدرجت ذكريات الماضى فى أكفان النسيان، ومنعت الذاكرة من التسلل إلى زوايا التاريخ المنطوى، لتتمتع بسعادتها الأولى ـ أمومتها لددف ـ متعة خالصة، والحق أن حناياها كانت تهفو إليه كأنه سكنها تسعة أشهر، كما أن أعز آمالها أن تراه رجلا مجيدا سعيدا.

وفى ذلك الوقت كان خنى قد قطع مرحلة طويلة فى تعليمه العالى، ولم يبق أمامه سوى ثلاث سنوات للتخصص، ولما كان الشاب بطبعه ميالا إلى الدراسة والتعمق فى أسرار الكون فقد اختار اللاهوت وآثر الانخراط فى سلك الكهنوت، ولم يكن الأمر متوقفا على محض اختياره، لأن الكهنوت علم عزيز لا يلج أبوابه إلا من يجتاز ـ بعد إتمامه الدراسة العالية بما فيها التخصص ـ اختبارات نظرية وعلمية شاقة عدة سنوات فى أحد المعابد، ولكن قوبل طلب خنى بالعطف لما أبداه فى أثناء حياته الدراسية من الذكاء والفطنة والأخلاق النبيلة، وكأنه لم يرث من والده إلا صوته الأجش الأجوف، وفيما عدا ذلك كان نحيفا دقيق القسمات هادئ الملامح، تذكر صورته بصورة أمه التى اتصفت بالورع والتدين.

وكان فى ذلك على النقيض من شقيقه نافا الذى ورث عن والده جسمه البدين ووجهه الممتلئ والكثير من أعماق روحه، فكان طيبا مرحا، وكان من حسن حظه أن خرجت قسماته أدق من قسمات والده الغليظة الثقيلة، وقد حاز الشاب أعلى الشهادة فى فن الرسم والتصوير، واكترى بمعونة والده ـ بيتا صغيرا فى شارع سنفرو ـ وهو أهم شوارع منف التجارية ـ وجعله محلا لعمله ومقاما لعرض آياته الفنية، وكتب على لافتة بالخط الهيروغليفى الجميل: «نافا بن بشارو. إجازة معهد خوفو للفنون الجميلة»، ومضى يعمل ويحلم وينتظر صابرا جمهور الطالبين والمعجبين. ولم ينج جاموركا من فعل الزمن فنما وضخم وقصر شعره الأسود الذى كان مسبلا، وتبدت على وجهه آى القوة والشدة، وعلى أنيابه بينات القسوة والويل، وأجش صوته واخشوشن، فكان إذا نبح دوى نباحه دويا وبعث الرعب فى أفئدة القطط والثعالب والذئاب، وأعلن للملأ أن حارس قصر المفتش ساهر، وكان على صلابته وشدته أرق من النسيم على صاحبه وحبيبه ددف، الذى زادت الأيام ما بينهما توثقا ومودة، فكان إذا ناداه لبى وإذا أمره أطاع وإذا انتهره ذل وسكن، بل إنهما استغنيا بنجوى السرائر عن لغة الظاهر، فكان جاموركا يحس بمجىء ددف إلى البيت إحساسا خفيا، فيهرع إلى لقائه ولما يره. وكان يتعارف على باطنه بندرة عجيبة قد تخون أقرب الناس إليه، فكان يعرف حالات رضاه فيقبل عليه ملاعبا ويقفز واضعا يديه على منطقة وزرته، كما يحس بحالات تعبه أو ضيقه فيسكن بين قدميه مكتفيا بتحريك ذنبه.

أما ددف فقد بلغ الاثنى عشر عاما من عمره، وجاء الوقت الذى ينبغى أن يختار فيه وجهته التى يوليها فى الحياة. والحق أنه إلى ما قبل ذلك بقليل لم يجر تفكيره فى تلك المسألة الخطيرة، وكان الغلام يبدى نشاطا عاما محمودا وقد خدع خنى بتشوقه إلى الفلسفة حتى حسبه كاهنا وحسب الكهنوت مستقبله دون غيره. ولكن نافا ـ وكان بحكم فنه أنفذ بصرا ـ كان يشاهده وهو يسبح وهو يجرى وهو يرقص، وكان يرى جسمه النامى

وقده المشوق فيقول لنفسه وهو يكسوه بخياله اللباس الحربى : «يا له من جندى!» وكان نافا عظيم التأثير فى ددف للحب المتبادل بينهما ، فوجهه ذاك التوجيه الذى باركته زايا وتحمست له ، ومنذ ذاك اليوم ولا شىء يجذب عينى زايا فى الأعياد مثلما يجذبهما منظر الجنود والفرسان وفصائل الجيش .

ولم يكن بشارو ليحفل بما يختار ددف من فنون الحياة فهو لم يتدخل مطلقا فى اختيار خنى أو نافا لمستقبلهما ، ولكنه وجد ميلا إلى التأمل فقال ددف ـ وكانوا جميعا جلوسا فى الحجرة الصيفية ـ وهو يربت بلطف على كرشه العظيم :

ـ ددف ، ددف الذى كان يحبو بالأمس القريب! ددف أضحى يجهد رأسه الصغير فى التفكير فى اختيار سبيل له فى الحياة ينهجه كرجل مسئول ، لقد دار الزمان دورة غادرة ، حنانك أيها الزمان ببشارو أو رفقا به حتى يكمل بناء الهرم فإنك لن تجد له خلفا صالحا .

وقالت زايا تعلن رغبتها :

ـ لا داعى لكثرة الأسئلة ، فإن من ينظر إلى وجه ددف الجميل وقامته الفارعة وقوامه المعتدل لا يرتاب لحظة فى أنه يرى ضابطا من ضباط العجلات الفرعونية .

وابتسم ددف إلى أمه التى وافق حديثها هواه ، وذكر فرقة العجلات التى رآها تشق طرق منف ـ يوم عيد بتاح ـ فى صفوف متحاذية منتظمة لا تشذ عنها يمينا أو شمالا ولا إلى الأمام ولا إلى الخلف ، والفرسان على العربات منتصبون لا يميلون ولا يضطربون كأنهم مسلات مشيدة ، ترمقهم الأبصار وترنو إليهم عيون الحسان .

ولكن خنى لم يرض عن اختيار زايا وقال بصوته الغليظ الذى يشبه صوت أبيه :

ـ كلا يا أماه إن ددف كاهن بالفطرة ، وطالما وضح لى استعداده للتعلم وميله للعلم والمعرفة ، وطالما ألحت على أسئلته الكثيرة الدالة على الفطنة والذكاء ، فمكانه المختار جامعة بتاح لا المدرسة الحربية . ما رأيك يا ددف؟

وكان ددف شجاعا صريحا لا يتردد عن إبداء رأيه فقال :

ـ يؤسفنى أن أخيب رجاءك هذه المرة أيها الأخ ، ولكن الحق أنى راغب فى الجندية .

فوجم خنى ، أما نافا فقد ضحك ضحكة عالية وقال لددف :

ـ أحسنت الاختيار يا ددف . فما صورتك إلا صورة جندى ، هكذا أقنعنى خيالى . . ولو أنك اخترت فى الحياة فنا آخر لذقت مر الخيبة وتزعزعت ثقتى بنفسى .

وهز بشارو منكبيه استهانة وقال :

ـ سواء لدى اخترت الجندية أم الكهنوت ، وعلى كل حال أمامك عدة أشهر فيها متسع

للتفكير والروية . . إيه لكم أيها الأبناء! يخيل إلى أنه لن يخلف أحدكم أباه، وأن واحدا منكم لن يعيد تمثيل الدور الخطير الذى قمت به فى الحياة .

وفاتت الشهور دون أن تغير من رأى ددف، فقر رأى الأسرة على إلحاقه بالمدرسة الحربية .

وفى تلك الأثناء واجهت بشارو أزمة فكرية مرة، هيأت أسبابها أبوته المزعومة لددف، وقد تساءل الرجل فى حيرة : هل ينبغى أن يحافظ على ادعاء هذه الأبوة، أم أنه آن الأوان لإعلان حقيقتها وفصم عراها؟ وكان خنى ونافا يعرفان حقيقة المسألة، ولكنهما لم يشيرا إليها بتاتا لا فى السر ولا فى العلانية حبا فى الغلام وضنا به .

وكان بشارو يقدر وقع الصدمة على نفس الغلام البريئة السعيدة فيقشعر بدنه، ويذكر زايا وما يحتمل من غضبها وسخطها فيحجم إشفاقا، وهو ما فكر فى ذلك عن سوء قصد أو عن زهد فى ددف ولكنه كان يعتقد أن هذه الحقيقة ستعلن عن نفسها إذا لم تجد لسانا يعلن عنها، وأن الخير كل الخير أن تكشف له الآن ليخلص من محنتها لا أن تدخر له حتى يكبر فيضاعف له عذابها، وتردد الرجل الطيب فلم ينته إلى عزم، ولما كان ينبغى أن ينتهى إلى رأى قبل إلحاق ددف بالمدرسة الحربية، فقد أسر الرجل بذات نفسه إلى ابنه خنى، ولكن الشاب هاله الأمر وقال لأبيه بألم وحزن عميقين :

ـ إن ددف أخونا، بل إن ما يربطنا به من الحب لأقوى من الأخوة الطبيعية . وما الذى يضيرك يا أبتى لو أنك تركت الأمور على ما هى عليه ولم تفاجئ الغلام العزيز بضربة الذل والمسكنة؟

وكان الشأن الوحيد الذى يعمل له حساب فى أبوته هو الميراث، ولكن بشارو لم يكن له من حطام الدنيا سوى راتب كبير وقصر ضخم فلن تؤذى أبوته لددف أحدا، ولذلك أشفق الرجل من لهجة خنى الغاضبة وقال يدفع عن نفسه :

ـ كلا يا بنى لن تقع ضربة الذل أبدا، لقد دعوته يا بنى وسأظل أدعوه بها، ولسوف يكتب اسمه بين طلبة المدرسة الحربية : ددف بن بشارو .

ثم ضحك الرجل كعادته وقال وهو يفرك يديه :

ـ ربحت ابنا جنديا .

فقال خنى وهو يمسح دمعة سالت على خده :

ـ بل ربحت رضا الرب وغفرانه .

١١

أوشك شهر توت على الفوات، ولم يبق منه إلا عدة أيام هى كل ما تبقى لددف من الزمان فى بيت بشارو ثم يغادره بعدها إلى المدرسة الحربية. وكانت تلك الأيام أشد أيام زايا العصيبة، غلب عليها فيها الشرود والذهول والتفكير بمرارة فى الشهرين الطويلين اللذين سيحتجبهما ددف داخل المدرسة. . والأعوام الطويلة التى لن تتاح لها رؤيته فيها سوى مرة كل شهر، تحرم من رؤية وجهه الجميل وسماع صوته الحبيب، ويغيب عن قلبها الاطمئنان الذى يقر فيه لقربه والهناء الذى يشمله لوجوده. . فما أقسى الحياة! وقد غشى الحزن قلبها قبل حدوث أسبابه، وظللت حياتها غشاوات من الألم مثل هاتيك السحائب المنتشرة ساقتها الرياح بين يدى غيم هاتور وكيهك الداكن المكفهر.

وحين صاحت الديكة عند الفجر معلنة قدوم اليوم الأول من بابة، استيقظت زايا على صياحها وقعدت فى سريرها مضطربة حزينة، وتنهدت تنهدة حارة كانت أول ما استقبل اليوم من عالم الأحزان، ثم تركت فراشها وسارت فى خفة إلى مخدع ددف لتوقظه وتودعه، ودخلت الحجرة على أطراف أصابعها كيلا تزعجه فاستقبلها جاموركا وهو يتمطى، وخاب ظنها لأنها وجدت الغلام قد استيقظ دون مساعدة، وكان يغنى بصوت خافت نشيد «نحن أبناء مصر انحدرنا من سلالة الآلهة». استيقظ الغلام وحده يلبى أول نداء للجندية، وقد نادته من قلبها «ددف». فانتبه إليها مهللا وجرى نحوها كطائر يستقبل نور الصباح وتعلق بعنقها ورفع إليها فمه، فقبلته بحنان، وقبلت خديه ورفعته بين ذراعيها فقبلت ساقيه، ثم حملته إلى الخارج وهى تقول:

ـ تعال ودع أباك.

ووجد بشارو ما يزال يغط فى نومه ويصعد أنفاسا ناشزة من شخيره ونخيره، فهزته بيدها فانتفض مرتعبا وصاح: من؟ . . من؟ . . زايا!

فضحكت وصاحت به:

ـ ألا تريد أن تودع ددف؟

فجلس فى فراشه وفرك عينيه ثم نظر إلى الغلام على ضوء المصباح الخافت، وقال:

ـ ددف. . أذاهب أنت؟ تعال أقبلك. . والآن اذهب محوطا برعاية بتاح! وقبله بشفتيه الغليظتين مرة أخرى واستطرد:

ـ أنت الآن طفل يا ددف ولكنك ستغدو جنديا ماهرا . . إنى أتنبأ بهذا ، ونبوءة بشارو خادم فرعون لا تخيب . . اذهب يا بنى آمنا وسأصلى من أجلك فى المحراب . .

وقبل ددف يدى والده وخرج مع والدته ، وفى الردهة الخارجية لقيا خنى ونافا متأهبين ، وضحك نافا وقال :

ـ هيا أيها الجندى الباسل ، إن العربة فى الانتظار .

وحنت عليه زايا بوجه غيره التأثر ، فرفع إليها وجها يطفح بالفرح والحب .

واها . . لقد مرت الشهور سراعا وحمت ساعة الوداع ، فلا الحضن يشفى ولا القبلة تعزى ولا الدموع تخفف البلوى . لقد هبط ددف فى السلم بين أخويه واطمأن إلى مكانه من العربة جانبهما ، وابتعدت العربة بالحمل العزيز وهى ترنو إليها من خلل دموعها ، حتى بلعتها زرقة الفجر .

١٢

وبلغت العربة «مرعى أبيس» أجمل ضواحى منف حيث تقع المدرسة الحربية ولما تشرق الشمس ، ولكنهم وجدوا الميدان الممتد أمام المدرسة مزدحما بالراغبين فى الالتحاق بها وفى صحبة كل منهم واحد أو أكثر من أقربائه ، وكان كل منهم ينتظر دوره فى النداء عليه والذهاب للكشف ، وبعدها إما يبقى داخل المدرسة أو يعود من حيث أتى .

وكأن الميدان ـ ذلك الصباح ـ كان معرضا للجياد المطهمة والعربات الفخمة ، لأنه لم يكن يتقدم إلى المدرسة الحربية إلا أبناء الطبقة الحربية والصفوة من أبناء الأثرياء ، وتلفت ددف يمنة ويسرة فرأى وجوها ليست غريبة عليه لأنه زاملها أعواما فى المدرسة الأولية ، فانتعشت نفسه وملئت مسرة وشجاعة .

وكان صوت المنادى لا ينقطع عن النداء وسيل التلاميذ لا يتوقف عن الدخول من باب المدرسة الكبير ، منهم من يبقى فى الداخل ومنهم من يخرج مرة أخرى بوجه كاسف ونفس أسيفة .

وكان خنى ينظر إلى هاتيك الجموع بوجه جامد ، فلم يرتح ددف إلى مظهره وسأله بقلق :

ـ أواجد على يا أخى؟

فربت الشاب على منكبيه وقال :

ـ معاذ الرب يا عزيزى ددف، إن الجندية حياة سامية على شرط أن تكون واجبا عاما يؤدى كل قسطه منه إلى حين، ثم يعود بعده إلى حياته الإنسانية، فلا يهمل موهبة من مواهبه السامية ويصون روحه عن التلف، إنى مطمئن يا ددف إلى أنك لن تطمس التشوف الذى أنار روحك فى حجرتى. أما الانغمار فى الجندية والتفرغ لها فمعناه النزول عن الإنسانية وتدمير الحياة العقلية والرجوع القهقرى إلى مراتب الحيوان.

فضحك نافا كعادته وقال:

ـ الحق أنك يا أخى تنشد الحياة الطاهرة الحكيمة حياة الكهنوت، أما أمثالى فينشدون الجمال والمتعة، ويوجد غيرنا آخرون ـ هم هؤلاء الجنود ـ يمتعضون من التأمل ويعبدون القوة. وحمدا للأم إيزيس فإنها وهبتنى عقلا يستطيع أن يرى جمالا لكل لون من ألوان هاته الحيوات، ولكنى لا أملك إلا أن أوثر فى النهاية حياتى. والحق أن الفصل بين هذه الحيوات لا يتأتى إلا لواحد عليم بها غير متعصب لإحداها.. وهيهات أن يوجد هذا القاضى.

ولم يطل الانتظار بددف فسمع المنادى يصيح: «ددف بن بشارو» فخفق قلبه، وسمع نافا يقول له:

ـ ودعنا يا ددف فلا احتمال لعودتك معنا اليوم.

فعانق الغلام أخويه وسار إلى الباب الرهيب، ثم أدخل إلى حجرة على يمين الداخل حيث تلقاه جندى فأمره بأن يخلع ملابسه، فخلع الغلام ثيابه وتقدم إلى طبيب مسن ذى لحية بيضاء فحصه عضوا عضوا وألقى على هيئته نظرة عامة، ثم قال للجندى «مقبول»، فارتدى الغلام ثيابه فرحا مسرورا، وقاده الجندى إلى فناء المدرسة وتركه يلحق بمن سبقه من المقبولين.

وكان الفناء عظيم الاتساع تربو مساحته على قرية كبيرة، ومحوط من ثلاث جهات بسور ضخم مزخرف بالنقوش الحربية ومحلى بصور الجنود والمواقع والأسرى، وفى الجهة الرابعة تقام الثكنات ومخازن الذخيرة والأسلحة ومكاتب القواد والضباط وإصطبلات الخيل وحظائر العربات، فهو أشبه بحصن منيع.

وقد ألقى الغلام على المكان نظرة دهشة، وسار إلى حيث لحق بزملائه المتجمعين، ووجدهم يتفاخرون بالأنساب ويتنافرون بالآباء والأجداد، وقد سأل أحدهم ددف قائلا:

ـ هل أبوك من رجال الحرب؟

فتضايق الغلام وهز رأسه سلبا، ولكنه قال بلهجة ملئت كبرياء:

ـ أبى بشارو مفتش هرم الملك .

ولكنه لم يبد على وجه محدثه أنه اقتنع بعظمة المفتش وقال :

ـ أبى ساكا قائد فرقة الصقر من حاملى الرماح .

فامتعضت نفس ددف ولم يشترك فى أحاديثهم ، وتوعدتهم نفسه الفتية بالظفر والتفوق ، واستمرت عملية الكشف والاختبار ثلاث ساعات متوالية ، وظل الناجحون ينتظرون حتى أتاهم ضابط من ناحية الثكنات ألقى عليهم نظرة صارمة وصاح بهم :

ـ منذ هذه الساعة ينبغى لكل منكم أن يودع الفوضى وداعا أبديا ويروض نفسه على النظام والطاعة ، كل شىء من الآن فصاعدا يخضع للنظام الصارم ولا أستثنى الأكل والشرب والنوم .

ورتبهم الضابط صفا واحدا وسار بهم صوب الثكنات ، وأمروا بالدخول واحدا فواحدا ، وكان كل منهم يمر على كوة مخزن كبير فيعطى صندلا ووزرة وحلة بيضاوين ثم يتفرقون إلى عنابر كل عنبر يحوى عشرين سريرا فى صفين متقابلين ، وخلف كل سرير صوان متوسط الحجم على سقفه لوح من الورق فى إطار خشبى ، طلب إلى كل منهم أن يكتب اسمه عليه بالخط المقدس .

وأحسوا جميعا بجو غريب يخضع للنظام الصارم وتنبت فيه روح الصرامة والخشونة ، فقد لحق بهم الضابط وأمرهم بأن يخلعوا ملابسهم المعتادة ويرتدوا الملابس الحربية ، ونبه عليهم بأن يخرجوا إلى الفناء إذا سمعوا صوت النفير . . فصدعوا جميعا بالأمر ، ودبت فى العنابر حركة سريعة كانت أول ما أبدى أولئك الصغار من النشاط العسكرى . . وقد فرحوا باللباس الحربى الأبيض وهللوا له ، وحين نفخ فى النفير هرعوا خفافا إلى الفناء حيث رتب الضباط جمعهم فى صفين مستقيمين .

وحضر على الأثر مدير المدرسة ، وهو ضابط كبير برتبة قائد ، فى لباسه الرسمى المحلى بالنياشين والأوسمة ، يحيط به كبار ضباط المدرسة ، واستعرضهم بعناية ثم وقف أمامهم وخطب فيهم قائلا :

ـ كنتم إلى الأمس أطفالا أحرارا ، وأنتم اليوم تبدءون حياة الرجولة الحقة الممثلة فى الجهاد العسكرى ، وكانت أنفسكم ملكا لكم ولآبائكم وأمهاتكم ، أما اليوم فهى ملك الوطن وفرعون . واعلموا أن حياة الجندية هى القوة والتضحية ، فعليكم بالنظام والطاعة لتقوموا بواجبكم المقدس نحو مصر وفرعون .

ثم هتف المدير باسم خوفو فرعون مصر وردد الجنود الصغار هتافه ، ثم أمرهم أن ينشدوا نشيد : «يا آلهة احفظى ابنك المعبود ، وملكه السعيد ، من منبع النيل إلى مصبه» .

وامتلأ جو الفناء الواسع بأصوات العصافير، تغنى فى حماس دافق وجمال رائع، وتجمع بين الأرباب وفرعون ومصر فى نغمة واحدة.

وفى ذلك المساء حين رقد ددف لأول مرة على فراش غريب فى جو جديد، مسه السهاد وجثمت على قلبه الوحشة، فتنهد من أعماق نفسه، ونادت مخيلته إلى ظلمة العنبر أطيافا سعيدة من بيت بشارو، فكأنه رأى زايا وهى تحنو عليه ونافا وهو يضحك ضحكته المرحة وخنى وهو يحدث حديثه المنطقى المتدفق.. وخال جاموركا العزيز يلعق خده ويحييه بذنبه، ولما ارتوت نفسه من الأحلام رنق النوم بجفنيه فنام نوما عميقا، لم يستيقظ منه إلا على النفير عند مطلع الفجر، فقعد فى سريره دون تريث، ونظر فيما حوله دهشا، فرأى أقرانه يستيقظون ويغالبون سلطان النوم بصعوبة، وعلت فى المكان أصوات التثاؤب والتذمر واختلط بها الضحك أيضا..

لا راحة بعد اليوم، فقد بدأت حياة النشاط والجلاد.

١٣

وفى ذلك الوقت طلب المعمار ميرابو الحظوة بالمثول بين يدى فرعون، واستقبله الملك فى بهو الاستقبال الرسمى. وقد جلس جلالته على عرش مصر الذى تربع عليه خمسة وعشرين عاما حافلة بجلائل الأعمال، وكان مهيبا قويا صارما يرتد البصر على جلاله وهو كليل. كما ارتدت خمسون عاما تنفس فيها الحياة عن أن تؤثر فى صلابة بنيانه أو تدفق حيويته، فأبقت على حدة بصره وسواد شعره وحكمة عقله.

وقد سجد ميرابو بين يديه وقبل جاشية ثوبه الملكى، فقال الملك بعطف:

ـ السلام عليك يا ميرابو، قم وتكلم فيما جئت من أجله.

فوقف المعمار أمام رب العرش وكان وجهه يتلألأ بأنوار الفرح، ثم قال:

ـ مولاى واهب الحياة ومنبع النور اليوم أشبع إخلاصى لذاتكم العليا بالعمل المجيد، وأتوج فى خدمتكم بالأثر الخالد، فأنال فى ساعة سعيدة واحدة ما يتمناه المخلص من إخلاصه والفنان من فنه. فلقد شاءت الآلهة التى يتعلق كل خلق بمشيئتها أن أزف اليوم إلى ذاتكم المعبودة بشرى الانتهاء من أعظم أثر أقيم على أرض النيل منذ عصر الآلهة، وأكبر بناء أشرقت عليه شمس مصر منذ أشرقت على الوادى. ويقينى يا مولاى أنه سيظل باقيا على الأجيال مقرونا باسمكم المقدس، منسوبا لعهدكم المجيد، حافظا لروحكم الإلهية، معلنا عن جهاد الملايين من أيدى مصر العاملة

وعبقرية العشرات من رءوسها النابهة، إنه اليوم لعمل مجيد لا نظير له، وغدا هو المثوى لأجل روح حكمت أرض مصر، وبعد غد وإلى أبد الآبدين هو المعبد الذى تأتلف فى ساحته قلوب الملايين من عبادك، يسعون إليه من الجنوب ومن الشمال.

وسكت الفنان الخالد لحظة ريثما شجعته ابتسامة الملك، ثم استطرد:

ـ لقد شيد اليوم يا مولاى شعار مصر الخالد وعنوانها الصادق، فهو ابن القوة التى تربط شمالها بجنوبها، وهو وليد الصبر الذى يغمر صدور بنيها جميعا من الضارب الأرض بفأسه إلى الكاتب على الطرس بقلمه، وهو وحى الدين الذى تخفق به قلوب أهلها، وهو مثال العبقرية التى جعلت من وطننا سيدا على الأرض التى تسبح الشمس حولها فى السفينة المقدسة، وسيظل أبدا الوحى الخالد الذى يهبط على قلوب المصريين فيؤيدها بالقوة، ويلهمها الصبر، ويحثها على الدين ويدفعها إلى الإبداع.

وكان الملك يصغى إلى الفنان وعلى فمه ابتسامة رضا، ويرنو بعينيه النافذتين إلى وجهه المكتسى ببهاء الحماس والفرح. فلما انتهى قال له:

ـ إنى أهنئك أيها المعمار على نبوغك المنعدم النظير، وأشكرك على العمل المجيد الذى شيدت لملكك ووطنك مما يوجب لك التقدير والحمد، ولسوف أحتفل بآياتك الكبرى احتفالا مهيبا يليق بعظمتها وخلودها.

وكان المعمار يحنى الرأس وينصت إلى ثناء فرعون كأنما ينصت إلى لحن إلهى.

واحتفل فرعون بالهرم احتفالا رسميا شعبيا مهيبا، شهدت فيه الهضبة المقدسة من الخلق أضعاف ما شهدت من جميع العمال الأشداء، ولكنهم لم يحملوا إليها هذه المرة الفئوس والعدد، ولكن حملوا الأعلام وأغصان الزيتون وسعف النخل والرياحين، وتغنوا بالأناشيد المقدسة الطاهرة. وصنع الجند بين تلك الجموع طريقا عظيما يمتد من وادى الأبدية، ويميل شرقا ثم يدور حول الهرم، ويعرج غربا حتى يصب فى وادى الأبدية مرة أخرى. وفى ذاك الطريق سارت الهيئات الرسمية للطواف بالبناء الكبير، تتقدمها جموع الكهنة بطبقاتهم المختلفة والنبلاء والسراة، ثم اخترقت الطريق فرق الجيش المعسكر فى منف من ركبان ومشاة، ثم بدا للعيان موكب فرعون والأمراء، فولى العباد وجوههم شطره، وهتفوا له من أعماق القلوب. وانحنوا انحناءة واحدة كأنهم فى صلاة هو قبلتها.

وحيا فرعون الهرم بكلمة موجزة، وباركه الرئيس خومينى. ثم عاد الركب الفرعونى وانقضت الهيئات الرسمية. أما جموع الشعب فجعلت تطوف بالبناء الكبير مهللة مكبرة

هاتفة منشدة، ولم تتفرق جموعها إلا حين سكب الفجر بهاءه وبث روحه الهادئ السحرى فى أرض الوادى الزبرجدية.

وفى ذلك المساء دعا فرعون الأمراء والصحابة المقربين إلى جناحه الخاص، وكان الجو ميالا إلى البرودة فاستقبلهم فى بهو استقباله العظيم، حيث جلسوا على مقاعد من الذهب الخالص.

وكان فرعون على صلابته ومتانة بنيانه يبدو على نظرة عينيه شعوره بالتبعات العظيمة الملقاة على عاتقه. وكان ظاهر الملك لم يتغير حقا، أما باطنه فقد طرأ عليه من طوارئ الزمان ما لم يخف عن أعين المقربين أمثال رعخعوف وخومينى وميرابو وأربو، فلاحظوا مثلا أن الملك يزهد قليلا قليلا فى الرياضة غير مستثن ما كان منها أحبها إلى قلبه كالصيد والطرد، وأنه يميل إلى التشاؤم والتفكير والقراءة، فكان ربما طلع عليه الفجر وهو جالس فى مخدعه يقرأ كتب اللاهوت وفلسفة قاقمنا، وتطورت فكاهته الأولى إلى سخرية لا تخلو من سوء الظن والريبة.

كان أعجب ما فى ذلك السماء ـ وهو ما أعجز الحسبان ـ أن يبدو على الملك آى من الهم والقلق، ذاك المساء الذى احتفل فيه بأعظم عمل فى التاريخ. وكان أشد الناس قلقا لذلك المعمار ميرابو، ولم يتمالك أن سأل مولاه:

ـ ما بال مولاى بادى الانشغال؟

فنظر إليه الملك بشىء من السخرية وقال له متسائلا:

ـ وهل عرف التاريخ ملكا خالى البال؟

ولم يتعز الفنان بجواب الملك فقال:

ـ ولكن ينبغى لمولاى أن يفرح هذا المساء فرحا خالصا.

ـ ولماذا ينبغى لمولاك أن يفرح؟

فوجم الفنان، وكاد ينسيه تساؤل الملك الساخر جميل ثنائه وعظيم احتفاله، ولكن الأمير رعخعوف الذى لم يرض عن تطور الملك النفسى قال:

ـ لأن مولانا احتفل اليوم بتبريك أعظم آية فنية فى تاريخ مصر الطويل فضحك الملك وقال:

ـ أتعنى قبرى أيها الأمير؟ وهل ينبغى للإنسان أن يفرح لبناء قبره؟

فقال الأمير:

ـ أطال الرب بقاء الملك، إن العمل المجيد حقيق بالفرح والتكريم.

ـ نعم. نعم. ولكن إذا ذكر بالموت ألا يوجب شيئا من التأسى؟

فقال ميرابو بحماس :

ـ إنه يذكر بالخلود يا مولاى .

فابتسم فرعون وقال :

ـ لا تنس أنى معجب بفنك يا ميرابو ، ولكن نذير الموت يملأ النفس شجنا ، نعم لا أذكر ما يوحى به عملك المجيد من معانى الخلد ، ولكن الخلد موت لحياتنا الفانية العزيزة .

فقال خومينى برزانة وتأمل وإيمان :

ـ مولاى ، إن اللحد عتبة الحياة الأبدية . .

فقال الملك :

ـ صدقت يا خومينى ، ولكن المقبل على سفر كثير التدبر ، وهذا أحرى بمن يولى وجهه تلك الرحلة الأبدية . وإياك أن تظن أن فرعون خائف أو آسف . . كلا . . كلا . . كلا ، إنى أتعجب فقط لتلك الرحى التى تدور وتدور وتطحن كل يوم ملوكا وسوقة . .

وتضايق الأمير رعخعوف من تفلسف الملك وقال :

ـ إن مولاى الملك يكثر من التأمل .

وكان فرعون يفهم ذات ابنه فقال :

ـ لعل هذا لا يرضيك أيها الأمير .

فقال الأمير :

ـ العفو يا مولاى ، ولكن الحق أن التأمل وظيفة الحكماء ، أما الذين عهدت الآلهة إليهم بتبعات الحكم ، فما أحرى أن يتفرغوا لشئونه الصعاب .

فسأله فرعون بسخرية :

ـ أفترى أيها الأمير أنى أتردى فى هاوية العجز ؟

فارتاع الأصدقاء ، وكان الأمير أعظمهم ارتياعا فقال :

ـ معاذ الرب يا أبتى !

فقال الملك ساخرا ، ولكن بلهجة قوية :

ـ لا تقلق يا رعخعوف ، واعلم أن أباك لا يزال قابضا على السلطان بيد من حديد .

فقال الأمير :

ـ يحق لى يا مولاى أن أهنئ نفسى ولو أنى لم أسمع جديدا .

ـ أم أنك ترى أن الملك لا يكون ملكا إلا إذا أعلن حربا ؟

وكان الأمير رعخعوف يشير على أبيه دائما بأن يجرد جيشا لتأديب قبائل سيناء، ففطن إلى تلميح الملك فصمت وهلة يفكر، وفى أثناء ذلك قال خومينى:

ـ إن السلم أشد حاجة من الحرب إلى الملك القوى الصالح.

فقال الأمير بلهجة قوية حاكت ما ارتسم على وجهه من الصلابة والقسوة:

ـ ولكن ينبغى ألا تعوق سياسة السلم الملك عن خوض غمار الحرب إذا جد الجد!

فقال الملك:

ـ أراك تحوم حول موضوع قديم.

ـ نعم يا مولاى، ولن أكف عنه حتى تذهب بواعثه، فإن قبائل سينا تفسد فى الأرض وتهدد هيبة الحكومة.

ـ قبائل سينا!.. قبائل سينا!.. إن قوات الشرطة تكفى الآن لتأديب شراذمهم، أما تجريد جيش لغزو حصونهم فنية فى صدرى لم تهيأ الظروف بعد لتحقيقها، نظرا لأن الوطن ينوء بالجهد الجهيد الذى بذله عن طيب خاطر من أجل تشييد هرم ميرابو الخالد.. وسيأتى يوم قريب أقضى فيه على شرهم وأكفى الوطن عدوانهم.

وساد صمت مقدار دقائق، ثم ردد الملك بصره الحاد بين الحاضرين وقال:

ـ أيها السادة إنى دعوتكم هذه الليلة لأكاشفكم برغبة عظيمة تخفق فى صدرى.

فنظر إليه الملأ باهتمام، فقال:

ـ ساءلت نفسى صباح اليوم: ماذا صنعت من أجل مصر، وماذا صنعت مصر من أجلى؟ ولا أكتمكم الحق أيها الأصدقاء، فقد وجدت أن ما صنعه الشعب لى أضعاف ما صنعته له، فأحسست بشىء من الألم ـ وكثيرا ما أتألم هذه الأيام ـ وذكرت المولى المعبود مينا الذى وهب الوطن وحدته المقدسة فلم يهبه الوطن بعض ما وهبنى، فاستصغرت نفسى وأقسمت لأجزين شعبى إحسانا بإحسان وجميلا بجميل.

فقال القائد أربو بحماس:

ـ لقد قسا جلالة الملك على نفسه فى الحساب.

فقال خوفو دون أن يعير حديث قائده اهتماما:

ـ إن الملوك ليظلمون كثيرين وإن توخوا العدل والإنصاف، وإنهم ليؤذون كثيرين وإن حرصوا على النفع والخير، وما من عمل سوى عمل الخير الخالد يكفر عن السيئات ويمحو الهفوات. وقد هدانى الألم إلى عمل نافع عظيم.

ونظر إليه الملأ متسائلين، فقال:

ـ إنى أفكر أيها السادة فى تأليف كتاب عظيم أضمنه تجارب الحكمة وأسرار الطب الذى ولعت به منذ صباى، فأترك من بعدى إرثا عظيما لشعب مصر يهدى أرواحهم ويصون أجسامهم.

فصاح ميرابو بفرح عظيم:

ـ يا له من عمل مجيد يا مولاى ستحكم به شعب مصر إلى الأبد.

فابتسم فرعون إلى المعمار، وقال هذا مرة أخرى:

ـ ستزيد كتبنا المقدسة كتابا جديدا.

وكان الأمير رعخعوف يزن ما ينوى الملك صنعه فى عقله فقال:

ـ ولكنه يا مولاى عمل يقتضى أعواما طويلة.

وقال القائد أربو:

ـ لقد كتب قاقمنا كتابه فى عشرين عاما!

ولكن الملك هز منكبيه العريضين وقال:

ـ سأهبه ما تبقى من حياتى.

صمت الملك لحظة ثم قال:

ـ أتعلمون أيها السادة أين هو المكان الذى اخترته لأنشئ فيه كتابى ليلة بعد ليلة؟

ونظر فرعون إلى الوجوه المتسائلة وقال:

ـ حجرة التابوت بالهرم الذى احتفلنا به اليوم.

وبدت على الوجوه الدهشة والإنكار، فقال فرعون:

ـ إن قصور الدنيا تغلب عليها جلبة الحياة الفانية، فلا تصلح لإنتاج عمل خالد!

وانتهى الاجتماع عند ذاك، لأن الملك لم يكن يحب المناقشة فيما بت فيه برأى نهائى، فانصرف الأصدقاء، وحين ركب ولى العهد عربته مال على رئيس حجابه وقال بامتعاض شديد:

ـ إن فرعون يؤثر الشعر على الحكم!

أما الملك فقد ذهب إلى قصر الملكة ميرتيتفس، ووجدها فى مخدعها مع الأميرة الصغيرة مرى سى عنخ، شقيقة رعخعوف التى لم تتجاوز العاشرة، وقد جرت الأميرة إليه كالحمامة، والفرح يلمع فى عينيها السوداوين الجميلتين..

مرى سى عنخ ذات الوجه البدرى واللون الخمرى والعينين اللتين تشفيان بصفائهما من السقام، ولم يتمالك فرعون من أن يبتسم ابتسامة الحب، ويزيح عن صدره الهموم والأحزان، ويتلقاها بذراعين مفتوحتين.

١٤

هبت نسمة من الفرح على قصر بشارو ذلك اليوم، تبدت آثارها فى وجه زايا الضاحك ونافا والمفتش نفسه، وكأن جاموركا قد استبشر خيرا وأحس إحساسا باطنا بأنه ينبغى له أن يفرح، فتمطى ونبح وعدا فى ممرات الحديقة كالسهم الطائش . .

وكانوا جميعا ينتظرون، فسمعوا جلبة فى الحديقة وعلا صوت خادم يقول بفرح : «سيدى الصغير»، فهبت زايا واقفة وجرت نحو السلم وهبطت الأدراج لا تلوى على شىء، وفى نهاية الردهة رأت ددف فى بدلته البيضاء وقلنسوته الفرعونية بهيا كشعاع الشمس : ففتحت ذراعيها، إلا أن جاموركا كان أسرع إليه منها، فهجم على سيدة بعنف واحتضنه بيديه وعلا نباحه يشكو إليه ما لقى من عذاب الشوق وآلام الحنين، فأزاحت الكلب جانبا وضمت الابن العزيز إلى قلبها وأشبعته لثما وتقبيلا وهى تقول له :

ـ ردت الروح إلىّ يا بنى . . كم أوحشتنى عيناك وكم هزنى الشوق إلى اجتلاء وجهك الجميل . . عزيزى، أنت أنحف كثيرا مما كنت وقد لفحت الشمس وجهك . وأنت متعب يا ددف!

وأتى نافع مع جلبته وضحكه، وقال يحيى أخاه :

ـ أهلا بالضابط العظيم .

فابتسم ددف، وسار بين أمه وأخيه، وجاموركا يرقص أمامه طربا ويقطع عليه الطريق من كل جانب، واستقبله المفتش استقبالاً عاطفيا وقبّل خده، ونظر إليه مليا بعينيه البارزتين اللتين تدعيان الفراسة وقال :

ـ تغيرت يا بنى فى هذين الشهرين وبدت عليك الرجولة حقا . وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم، ولكن لا تأسف على هذا فسآخذك لمشاهدته بنفسى . فإنى مازلت ولن أزال مفتشا على منطقته حتى أحال على المعاش . ولكن لماذا أنت متعب يا بنى؟

فضحك ددف وقال ويده تعبث برأس جاموركا :

ـ الحياة العسكرية شديدة قاسية . . وسحابة النهار فى المدرسة تمضى عادة بين الجرى والسباحة وركوب الخيل . . وإنى الآن فارس ماهر!

فقالت الأم :

ـ فلتحفظك الآلهة يا بنى .

وسأله نافا :

ـ وهل ترمى الرمح وتطلق السهام؟

فقال ددف يشرح لأخيه نظام المدرسة بإسهاب التلميذ المفتون :

ـ كلا . . إننا نتدرب فى السنة الأولى على الألعاب وركوب الخيل والسباحة، وفى السنة الثانية نتعلم المبارزة بالسيف والخناجر والمزاريق، وفى السنة الثالثة نتمرن بالرماح وتلقى علينا دروس نظرية، والسنة الرابعة للقسى والعلوم التاريخية، والسنة الخامسة للتدريب على العجلات الحربية، أما العام السادس فللعلوم الحربية وزيارة القلاع والحصون.

فقال نافا :

ـ إن قلبى يحدثنى بأنى سأراك قائدا كبيرا يا ددف . . إن وجهك يثير فى النفس الحماس، ولا ريب فى هذا فإن صناعتى استيحاء السجايا من ملامح الوجه . .

وكأن ددف تذكر أمرا هاما فتساءل باهتمام :

ـ أين خنى؟

فقال بشارو :

ـ ألا تعلم أنه انخرط فى سلك الكهنوت؟ وأنهم يحتفظون به الآن خلف جدران معبد بتاح، ويلقنونه العلوم الدينيةويفقهونه فى الأخلاق والفلسفة فى عزلة بعيدة عن جلبة الدنيا وضوضائها . إنه ليتدرب على حياة هى أقرب الحيوات شبها بحياة الجندية، فهو يغتسل فى النهار مرتين وفى الليل مرتين، ويحلق شعر رأسه وبدنه، ويلبس الصوف ويصرف عن أكل السمك ولحم الخنزير والبصل والثوم . . إنه يا بنى يجوز أشد الامتحانات قسوة ويلقن أسرار العلم المحرمة على غيره من البشر، فلندع له جميعا أن تثبت الآلهة قدمه لتخلق منه خادما مخلصا لها ولعبادها المؤمنين.

فقالوا جميعا فى نفس واحد :

ـ آمين !

وسأل ددف :

ـ ومتى يسعدنى الحظ برؤيته؟

فقال نافا بلهجة أسيفة :

ـ لن تراه قبل أربع سنوات وهى سنو التجربة العظيمة .

فاكفهر وجه ددف حزنا وشوقا إلى معلمه الأول، أما زايا فسألته :

ـ وكيف نراك بعد ذلك؟

ـ فى أول كل شهر . فقطبت جبينها، ولكن نافا ضحك وقال :

ـ لا تستحثى الحزن يا أماه . . ولننظر كيف نقضى يومنا هذا . . ما رأيكم فى نزهة نيلية؟

فصاحت زايا منكرة :

ـ فى كيهك؟!

فقال نافا ساخرا :

ـ وهل يهاب الجندى قساوة الأنواء؟

فقالت زايا بحدة :

ـ ولكنى لا أقدر على جو كيهك ولا على مفارقة ددف دقيقة واحدة هذا اليوم . فلنبق جميعا فى البيت . . وإنى مدخرة له حديثا طويلا لا قبل لى بحفظه فى صدرى بعد الآن .

ولاحظوا جميعا أن ددف فتر مرحه وندر حديثه وغشيته حالة جديدة من الرزانة والجمود ، وقد نظر إليه نافا قلقا بطرف خفى وساءل نفسه : ترى هل يتشبث ددف بطبيعته الجديدة أبدا؟ إنه ينفر من الرزانة والجمود ، ولعله لم يحس بوحشة لغياب خنى لما عرف به من الرزانة والجفاء ، ولكنه أنكر على نفسه مخاوفها وقال : إن ددف ما يزال حديث عهد بالحياة العسكرية . وإنه لذلك لن يتم له هضمها فى وقت قصير ، فلن تزال بنفسه جفوة منها وألم حتى يألفها ويتطبع بطباعها ، وحينذاك تنجاب عن قلبه الوحشة وترتد إليه طبيعة المرح والسرور . وظن أنه لو صحبه إلى معرض فنه ، فربما استطاع أن يعيد إليه انشراحه ، فقال له :

ـ أيها الضابط ، ما رأيك فى زيارة معرض صورى؟

ولكن زايا قالت بغيظ :

ـ لا تفتأ تحاول سلبه منى! كلا يا سيدى لن يبرح اليوم البيت .

فتنهد نافا وسكت ، وخطرت له فكرة ، فأحضر لوحة وقلما وقال لأخيه :

ـ سأرسم صورتك فى هذا الرداء الأبيض الجميل ، وسأحتفظ بالصورة ذكرى جميلة تنظر إليها بعينى الحنان والشوق حين تزين منكبيك بوشاح القيادة!

وباشر عمله بهمة ونشاط . وقضت الأسرة يوما سعيدا فى سمر وأحاديث .

وكانت أمثال تلك الزيارة تقع كل شهر مرة وتفوت كلمح البصر ، وقد انجابت وساوس نافا ، وفارق الجفاء ددف ورجع سريعا إلى طبيعته المرحة الجسور ، استعاد جسمه القوة والفتوة وسار قدما فى طريق النمو والقوة والجمال . .

وكان الصيف ـ حين تغلق المدرسة أبوابها ـ أسعد أيام زايا وجاموركا ، وكانت تعاود البيت فيه جلبة الحياة ومرح النشاط اللذان سكنا به منذ تفرق شمل الإخوة كل إلى حال

سبيله، وكانت الأسرة كثيرا ما ترتحل إلى الريف أو شمال الدلتا للصيد والقنص، فكانوا يشغلون قاربهم ويمخرون به غباب البحيرات التى تظلها نباتات البردى وأشجار اللوتس، ويقف بشارو بين ابنيه نافا وددف وكل ممسك بعصا الصيد المعقوفة، حتى إذا حلقت بطة لا تدرى بما يخبئه لها القدر أحكم كل منهم تسديد الهدف وقذف بها بما يستطيع من القوة والمهارة..

وكان بشارو صياداً ماهرا.. وكان صيده أضعاف صيد ابنيه معا، وكان يحدج ددف بنظرة متعالية ويقول بصوته الأجش، ألا ترى أيها الجندى كيف يحكم أبوك الرماية؟ لا تعجب، فقد كان والدك ضابطا فى جيش الملك سنفرو، وكانت قوته كافية لتشتيت قبيلة الهمج بغير قتال.

وكانت رحلات الصيد تنطوى فى متعة وفرح ورياضة لا نظير لها فى الأيام الأخرى، ولكن لم يهدأ بال بشارو حتى اصطحبه معه إلى زيارة الأهرام، وكان غرضه الأول من الزيارة أن يطلعه على نفوذه وسلطانه ويريه استقبال الجند والموظفين له.

ودعاه نافا لزيارة معرضه وأطلعه على صوره ذات الألوان ورسوماته الجميلة وكان الشاب ما يزال يعمل جاهدا بلا طائل على رجاء أن يدعى يوما للاشتراك فى عمل فنى له قيمته فى أحد قصور الأغنياء أو الهواة، أو أن يشترى أحد الزوار بعض معروضاته.. وكان ددف يحب نافا، فأحب آثاره وأعجب خاصة بالصورة التى رسمها له فى بدلته الحربية البيضاء، فجاءت آية على ملامحه ونظرة عينيه.

وكان نافا فى ذلك الوقت يرسم صورة للمعمار الخالد ميرابو الذى صنع أكبر معجزة فنية فى الوجود.

وقد قال لددف وهو يريه الرسم التخطيطى للصورة:

ـ لم أبذل من قبل فى صورة نصف ما بذلت فى هذه، ذلك أن بطلها ينزل من نفسى منزلة الآلهة.

فسأله ددف:

ـ هل ترسمها من الذاكرة يا أخى؟

فقال:

ـ نعم يا ددف، لأنى لا أرى الفنان الأعظم إلا فى الأعياد والحفلات الرسمية التى يظهر فيها ركاب فرعون، ولكنها تكفى لحفر صورته فى قلبى وعقلى!

واستدار العام وذهب ددف مرة أخرى إلى المدرسة، ودارت عجلة الزمان.. وتقدمت حياة أسرة بشارو فى طريقها المقدر: الأب إلى الشيخوخة والأم إلى الكهولة، وخنى إلى التفقه فى الدين، ونافا إلى إتقان فنه الجميل.

وأوسع ددف خطاه نحو التفوق والنبوغ وإتقان الفنون الحربية ، فاكتسب شهرة فى المدرسة الحربية لم يفز بها تلميذ من قبل .

١٥

سار ددف فى شارع سنفرو الذى لا ينقطع تيار المارين به يلفت الأنظار ببذلته الحربية البيضاء وجسمه الفارع وجماله الجاهر ، حتى انتهى به المسير إلى مدخل بيت «نافا بن بشارو - إجازة معهد خوفو للرسم والتصوير» وقرأ اللافتة باهتمام كأنما يراها للمرة الأولى وقد ارتسمت على فمه الجميل ابتسامة حلوة مشرقة ، ثم اجتاز الباب ، وفى الداخل رأى أخاه مكبا على عمله غير شاعر بما حوله ، فصاح به ضاحكا :

- السلام عليك أيها المصور العظيم .

فالتفت إليه نافا بوجهه الحالم الدهش ، فلما عرف القادم ، قام واقفا وأقبل عليه مرحبا وهو يقول :

- ددف ! . . يا للحظ السعيد . كيف حالك يا رجل؟ هل زرت البيت؟

وتعانق الأخوان مليا ، وقال ددف وهو يجلس إلى كرسى قدمه إليه الفنان :

- نعم زرته ثم أتيت إليك رأسا ، فأنت تعلم أن بيتك هذا جنتى المختارة !

فضحك نافا بصوته العالى وطفح وجهه بالسرور ، وقال :

- ما أسعدنى بك يا ددف ! وإن كنت أعجب كيف تهوى نفس ضابط مثلك إلى هذا المرسم الهادئ الحالم الجميل ! أين هو يا ددف من ميدان القتال وقلاع بوسيروس وبريمس !

فقال ددف :

- لا تعجب يا نافا فأنا جندى حقا ، ولكن حبب إلى الفن الجميل كما بث فىّ خنى الحكمة والمعرفة .

فرفع نافا حاجبيه إعجابا وقال :

- لكأنك ولى عهد المملكة ! ألا ترى أنهم يهيئونه للعرش بتعليمه الحكمة والفن والحرب؟ وإنها لسياسة سامية جعلت من ملوك مصر آلهة ، وستجعل منك قائدا عديم النظير . .

فتصاعد الدم إلى وجه ددف وقال مبتسما :

ـ أنت يا نافا ـ كأمى ـ لا تراني حتى تنعتنى بسجايا الخير جميعا .

فضحك نافا ضحكا عاليا متواصلا ، واسترسل فى الضحك حتى أشفى على التهلكة وأثار دهشة ددف .

فسأله :

ـ مالك؟ ما الذى يضحكك هكذا؟

فرد عليه الشاب وهو ما يزال يضحك :

ـ إنى أضحك يا ددف ، لأنك شبهتنى بأمك؟

ـ وماذا يضحك فى هذا؟ إنى أعنى . .

لا تكلف نفسك مشقة الشرح أو الاعتذار فإنى أعلم بماتعنى ، ولكن المسألة أن هذه هى المرة الثالثة التى أشبه فيها اليوم بامرأة . فقال لى والدى صباح اليوم واجدا : «أنت كالفتاة سريع التقلب» . وقال لى الكاهن شلبا منذ ساعة ، وكان يحدثنى فى شأن صورة له : «أنت يا سيد نافا يتغلب عليك الوجدان كالنساء» . وها أنت ذا تقول إنى كأمك! فهل يا ترى رجل أنا أم امرأة؟؟

فضحك ددف بدوره وقال :

ـ أنت رجل يا نافا ، ولكنك رقيق النفس حساس الوجدان ، ألا تذكر أن خنى قال مرة إن الفنانين جنس بين الرجال والنساء؟

فقال نافا :

ـ إن خنى يعتقد أن الفن يقتضى إعارة من الأنوثة ، ولكنى أعتقد أن وجدانية المرأة تناقض وجدانية الفنان فى الغاية ، لأن المرأة بطبعها نفعية تتوخى ما يحقق غايتها الحيوية على أكمل الوجوه ، أما الفنان فلا غاية له إلا استكناه ذوات الأشياء . وهذا هو الجمال ، لأن الجمال هو استجلاء ذات الشيء الذى يجعل منه ومن بقيةالمخلوقات وحدة ذات انسجام . .

فضحك ددف وقال :

ـ أتظن أنك بتفلسفك هذا قادر على إقناعى بأنك رجل؟

فحدجه نافا بنظرة تحد وقال :

ـ أما تزال محتاجا إلى دليل؟ إذا فاعلم إنى سأتزوج .

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله :

ـ أحقا ما تقول؟

فأغرق فى الضحك وقال :

ـ أيبلغ بك إنكار الزواج علىّ؟

ـ كلا يا نافا . . ولكنى أذكر أنك أغضبت والدنا عليك لزهدك فى الزواج . فوضع نافا يده على قلبه وقد تبدت على وجهه آيات الجد وقال :

ـ أحببت يا ددف . . أحببت بغتة!

فتجمع وجدان ددف فى انتباه واحد وسأله فى لهفة :

ـ بغتة؟!

ـ نعم، كنت كالطائر الذى يحلق فى السماء آمنا وما يشعر إلا وسهم يستقر فى قلبه فيهوى!

ـ متى وأين؟

ـ ددف ، إذا قيل حب فلا تسل عن الزمان والمكان!

ـ من هى؟

فقال بإجلال كأنه ينطق باسم إيزيس :

ـ ماتا ابنة كامادى بوزارة المالية .

ـ وماذا أنت فاعل؟

ـ سأتزوج منها .

فقال ددف بصوت الحالم :

ـ أهكذا تتغير الأمور؟

ـ وبأسرع من هذا، سهم وأصاب، فماذا يصنع الطائر؟

حقا إن الحب شىء عظيم، عرف ددف الفن والحكمة والسيف . أما الحب فهذا لغز جديد . وكيف لا يكون لغزا وقد فعل فى ساعة ما عجز عنه بشارو فى سنين! وأحس بوجدانه يفور وروحه تهيم فى وديان بعيدة الآفاق .

أما نافا فقد استطرد يقول :

ـ ويشاء الحظ السعيد أن أوفق فى حياتى الفنية، فقد دعانى السيد فانى إلى زخرفة بهو استقباله، وغدوت تثمن بعض صورى بعشر قطع من الذهب فآبى أن أبيعها . انظر إلى هذه الصورة الصغيرة!

فحول ددف وجهه الهائم إلى حيث يشير أخوه، فرأى صورة صغيرة تمثل فلاحة صبية على شاطئ النيل عند الغروب وقدخضب الشفق أفق السماء، وكأنه ارتاع لجمال الصورة التى جذبته من وديان الأحلام فدلف إليها حتى صار منها على بعد ذراع، وشاهد نافا إعجابه فسر سرورا لا مزيد عليه، وقال :

ـ ألا ترى أنها صورة غنية بالألوان والظلال؟ انظر إلى النيل والأفق!

فقال ددف بصوت الحالم:

ـ بل دعنى أنظر إلى الفلاحة.

وكان نافا يتأمل صورته فقال:

ـ إن الريشة تخلد مشية النيل ذات الإجلال.

فقال ددف بلا اكتراث لما يقول الفنان:

ـ يا للأرباب.. إنه جسم لدن.. له استقامة الرمح.

ـ انظر إلى الحقول وإلى الزرع المائل، علام يدل ميله؟

فقال ددف وكأنه لا يسمع ما يقول صاحبه:

ـ ما أجمل الوجه الخمرى البدرى!

ـ إنه يدل على ريح الجنوب.

ـ ما أجمل العينين السوداوين.. إن لهما نظرة إلهية.

ـ ليست الفرحة كل شيء فى الصورة، انظر إلى الشفق فالآلهة وحدها تعلم كم أجهدنى فى تصويره وتلوينه.

فنظر ددف إليه وقال بحماس جنونى:

ـ إنها حياة يا نافا. إنى أكاد أسمع غمغمتها.. كيف تعيش معها يا نافا تحت سقف واحد؟

ففرك يديه حبورا وقال:

ـ رفضت فى سبيلها عشر قطع من الذهب الخالص.

ـ لن تباع هذه الصورة أبدا.

ـ ولمه؟

ـ هى صورتى ولو دفعت لها حياتى؟

فضحك نافا وقال:

ـ واها يا سن السابعة عشرة! إنك نار تضطرم.. ولهب يندلع. إنك تبثين الحياة والأنوثة فى الأحجار والمياه والألوان. إنك لتعشقين الأوهام والأخيلة وتخالين الأحلام حقائق واقعة.. وتصلين ابنك عذاب الجحيم!..

فالتهب وجه الشاب دما وسكت عن الكلام، فأشفق نافا من إغضابه فقال:

ـ لبيك أيها الجندى.

فقال ددف بتضرع :

ـ لا تفرط فى هذه الصورة يا نافا .

فقام نافا إلى الصورة ورفعها من مكانها وقدمها إلى أخيه وهو يقول :

ـ هى لك يا ددف العزيز .

فوضعها ددف بين يديه برفق كأنه يمسك بقلبه ، وقال بصوت الممتن الشكور :

ـ شكرا لك يا نافا !

وجلس نافا راضيا ، وأما ددف فلازم وقفته لا يريم . . واستغرق فى تأمل الفلاحة الإلهية ثم قال :

ـ كم يفتن الخيال المبتدع ؟

فقال نافا بهدوء :

ـ ليست من خلق الخيال .

فزلزل قلب الشاب وسأل برجاء :

ـ أتعنى أن صاحبتها من الأحياء ؟

ـ نعم . .

ـ وهل . . وهل هى كصورتها ؟

ـ ربما فاقتها حسنا . .

ـ نافا !

فابتسم الفنان ، وسأله الشاب المفتون :

ـ أتعرفها ؟

ـ رأيتها مرات على شاطئ النيل .

ـ أين ؟

ـ شمال منف .

ـ هل تذهب دائما إلى هناك ؟

ـ كانت تذهب كل أصيل هى وأخوات لها فيجلسن ويلعبن ويختفين مع اختفاء الشمس . . وكنت أتخذ مكانى خفية خلف شجرة الجميز وانتظر حضورهن بفارغ الصبر !

ـ وهل يواظبن على حضورهن ؟

ـ لا أدرى ، فقد انتهت متابعتى لهن بانتهائى من الصورة .

فنظر إليه بارتياب وسأله بخوف :

ـ وكيف استطعت؟

فابتسم نافا وقال :

ـ هذا جمال أعبده ولكنى لا أحبه .

فلم يعبأ ددف بكلامه وسأله :

ـ فى أى بقعة كانت ترى؟

ـ شمال معبد أبيس .

ـ ترى هل ما تزال تذهب إلى هناك؟

ـ وما الداعى إلى تساؤلك أيها الضابط؟

فتحيرت فى عينى ددف نظرة ملتهبة ، فقال نافا :

ـ هل قضى أن يصيب السهم الأخوين فى أسبوع واحد؟

فقطب ددف جبينه وعاد إلى تأمل الصورة فقال نافا :

ـ لا تنس أنها فلاحة .

فتمتم ددف قائلا :

ـ بل ربة جميلة .

فقال نافا ضاحكا :

ـ واها يا ددف العزيز ، لقد أصابنى السهم فترديت فى قصر كامادى ، وأخشى إن كان أصابك أن تقع على كوخ متهدم! . .

١٦

كان اليوم يحمل طابع الأحلام ، فلدى عصره وضع ددف الصورة على صدره ، وذهب إلى شاطئ النيل واكترى قاربا اتجه به صوب الشمال . .

ولم يكن يعى ما يفعل ولا يقدر عاقبة تصرفه ، وكل ما يمكن قوله أنه مسه سحر الافتتان فأطاع وحيه وأصاخ إلى ندائه ، فانطلق يعدو إلى غايته المجهولة مدفوعا بعاطفة قهارة لا تقاوم ، فقد أصابه مس من الافتتان ، واستقر الافتتان فى قلب شجاع لا يهاب الموت ، جسور لا يلوى على المخاطر ، فكان من الطبيعى أن ينطلق لأنه ليس من عادته أن ينمكش ، وليكن ما يكون .

وراح القارب يشق الماء مدفوعا بقوة التيار وشدة الساعدين الفتيين، وجعل ددف يرسل بناظريه إلى الشاطئ يبحثان عن ضالته، فما رأتا أول الأمر إلا حدائق قصور أغنياء منف التى تهبط إلى سطح النيل بدرجات رخامية. وسار فراسخ لا يرى سوى الحقول المنبسطة حتى لمح عن بعد حديقة القصر الفرعونى، فمال بقاربه إلى وسط النهر يبتعد عن منطقة الحرس النيلى، ثم عرج مرة أخرى إلى الشاطئ عند معبد أبيس، ثم أوغل شمالا محاذيا للبقعة التى لا ترى الناس إلا فى المواسم والأعياد. وكاد يشفى على اليأس والقنوط لولا أن رأى على بعد قريب قطيعا من الفلاحات يجلسن على الشاطئ تاركات سيقانهن فى الماء الجارى، فخفق قلبه خفقة شديدة طردت القنوط طردا، والتمعت عيناه بنور الأمل البهيج، فاشتد ساعده وحول القارب إلى الشاطئ، وكان كلما قطع ذراعا التفت إليهن وأمعن النظر، فلما أن دنا منهن واستطاع أن يرى وجوههن فرت من فمه صيحة خافتة، كصيحة الأعمى الذى ترد إليه نعمة الإبصار على حين فجأة. وذاق غبطة الغريق الذى صادفت قدماه صخرة ناتئةوقد أشفى على الغرق، فقد رأى الفلاحة المنشودة، صاحبة الصورة التى على قلبه، جالسة على الشاطئ وسط هالة من أترابها، وكان كل شيء ـ كما قلنا ـ مرسوما بروح الأحلام، فرسا القارب قريبا منهن، ووقف فيه ددف بقامته الفارعة وبزته البيضاء الأنيقة، يتيه بجسم كأنه تمثال القوة المعبودة، وجمال فاتن كأنه إله النيل انحسرت عنه أمواجه القدسية، وجعل يرنو إلى ذات الوجه الملائكى بوجه شفه الهيام والافتتان، فتولت الحيرة الفلاحة ومضت تقلب عينيها فى وجوه صويحباتها. ومضين يقلبن أعينهن فى وجهه المشرق، وكن يظننه عابرا، فلما رأينه واقفا سحبن سيقانهن من النيل وارتدين صنادلهن وتولاهن الإنكار.

فقفز ددف من القارب فصار على بعد ذراع منهن، وقال للفلاحة بصوت رقيق:

ـ طيب الرب مساءك أيتها الفلاحة الجميلة.

فرمقته بنظرة إنكار وكبرياء، وقال له أكثر من صوت من أصوات العصافير المحيطة بها.

ـ ماذا تريد منا يا سيدى؟!.. سر فى حال سبيلك!

فوجه إليها نظرة عتاب وقال:

ـ ألا تردين تحيتى؟

فولت عنه برأسها المتوج بتاج الليل غضبا، وصاحت به الكثيرات:

ـ سر فى سبيلك أيها الشاب، نحن لا نكلم من لا نعرفه!

فقال ددف:

ـ ترى هل عادة البلد الطيب الذى أنبتكن أن يلقى الغريب بمثل هذا الجفاء؟

فقالت واحدة بحدة :

ـ الذى يبدو على وجهك الاستهتار لا الغربة !

ـ كم تقسين على !

ـ إن كنت غريبا حقا ، فليس هذا المكان بغاية الغرباء ، عد جنوبًا إلى منف أو سر شمالا إلى حيث شئت ودعنا فى سلام ، فنحن لا نكلم من لا نعرفه !

فهز ددف كتفيه استهانة وقال وهو يشير إلى الفلاحة الجميلة :

ـ إن مولاتى تعرفنى حق المعرفة .

فتولاهن الإنكار ونظرن إلى الفتاة الجميلة فألفينها غاضبة ، وسمعنها تقول له :

ـ أتفترى على كذبا ! !

فقال الشاب :

ـ أبدا وحق الرب ، قد عرفتك منذ زمن طويل وما جددت فى طلبك إلا بعد أن خاننى الصبر ولج بى الشوق .

فقالت الجميلة الغاضبة :

ـ كيف تزعم هذا وما رأتك عيناى قبل الآن !

قالت إحدى صويحباتها :

ـ ولا تحب أن تراك بعد الآن !

وقالت أخرى بلهجة مرة :

ـ ما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات !

ولكنه لم يبالهن ، وقال للتى لا تتحول عن وجهها عيناه :

ـ طالما رأيتك وطالما امتلأت بك نفسى .

ـ كاذب . . عديم الحياء .

ـ حاشاى أن أكذب ، ولكنى أحتمل كلامك القاسى بشغف إكراما للفن الجميل الذى ينثره

ـ بل أنت كاذب مدع يبغى طريقة عوجاء !

ـ قلت حاشاى أن أكذب . وإليك الدليل .

قال ذلك ودس يده فى صدره وأخرج الصورة وواجهها بها وهو يقول :

ـ هل أستطيع أن أرسم هذه الصورة دون أن تمتلئ عيناى بسناك؟

ونظرت الصبية إلى الصورة ، فلم تتمالك أن تصيح بإنكار وسخط وخوف ،

وامتلأت نفوس البنات سخطا، وهجمت عليه إحداهن بغتة تريد أن تنتزعها منه، ولكنه رفع بها ذراعه بسرعة البرق وابتسم ظافرا وقال:

ـ أرأيت كيف أنك ملء خيالى ونفسى؟

فقالت بغضب شديد:

ـ هذه خسة ونذالة.

ـ ولم؟ ألأنه راقنى حسن فصورته؟

فقالت بحدة لم تخل من توسل:

ـ رد إلى هذه الصورة.

فقال وعلى فمه ابتسامة حلوة:

ـ لن أفرط فيها ما حييت.

ـ أرى أنك من جنود المدرسة الحربية، فأعلم أن سوء أدبك هذا يعرضك إلى أقسى العقوبات.

قال بهدوء:

ـ إنى أعرض نفسى بالنظر إليك إلى ما هو أشد قسوة.

ـ يا عجبا لقد ابتليت بك ابتلاء.

ـ وابتليت أنا ابتلاء أحق بالرحمة.

ـ ماذا أردت بهذه الصورة؟ وماذا تريد منى الآن؟

ـ أردت بالصورة أن تشفينى مما فعلته بى عيناك، وأريد منك الآن أن تشفينى مما فعلته بى الصورة.

ـ لم أكن أحلم قط أن يتعرض لى إنسان بمثل سفاهتك.

ـ وهل كنت أحلم أن أسلب عقلى وقلبى فى لحظة عابرة؟

وهنا صاحت به فلاحة أخرى:

ـ هل سعيت إلينا لتنغص علينا سعادتنا؟

وصاحت به أخرى وقالت:

ـ يا لك من شاب وقح سفيه، إنى أنذرك بأنى إذا لم تذهب سريعا استصرخت بالناس.

فنظر باطمئنان إلى الفضاء المحيط وقال بهدوء:

ـ لم أعتد أن أطلب شيئا فيعز علىّ.

فصاحت به الفلاحة الجميلة :

ـ هل تريد إرغامى على الاستماع إليك؟

ـ كلا ولكنى . . ولكنى أطمع أن يلين قلبك فيهوى إلى الاستماع إلى!

ـ وإذا وجدت قلبى كالصخر لا يلين؟

ـ وهل يشتمل هذا الصدر الرقيق على صخر؟

ـ إنه يتحول إلى صخر حيال سفاهة السفهاء .

ـ وحيال شكوى المحبين؟

فضربت الأرض بقدمها وقالت بعنف :

ـ يصير أشد قساوة .

ـ إن قلب أقسى الفتيات كقطعة الثلج ، إذا مسها نفس حار ذابت وتدفقت ماء نميرا . .

فقالت بسخرية :

ـ إن هذا الكلام الذى تظنه رقيقا دليل على أنك جندى فاسد ، يخفى جسم فتاة خلف رداء الجندية . . ولعلك سرقت هذا الرداء العسكرى كما سرقت صورتى من قبل . .

فاحتقن الدم بوجه ددف الجميل وقال :

ـ سامحك الرب . . أنا جندى صادق الجندية ، وسيحالفنى النصر على قلبك كما حالفنى فى جميع الميادين!

فقالت بلهجة أشد سخرية :

ـ أى ميادين هذه التى تتكلم عنها؟ إن الوطن يتمتع بالسلام من قبل أن تتشرف بك الجندية ، فيالك من جندى يعقد له النصر فى ميادين السلام والطمأنينة .

فاعتلاه الارتباك وقال :

ـ ألا تعلمين يا جميلة أن حياة التلميذ فى المدرسة الحربية كحياة الجندى فى الميدان؟ ولكن لا عليك من هذا سيغفر قلبى لك سخريتك منى . .

فقالت بغيظ :

ـ حقا إنى أستحق اللوم ، لأنى صبرت على سفاهتك .

وهمت بالمسير ، ولكنه حال بينها وبينه وقال مبتسما :

ـ لا أدرى كيف أكتسب مودتك؟ أنا سيئ الحظ . . هل لك فى نزهة نيلية فى القارب؟

وارتاع البنات لتعرضه لصاحبتهن وأحطن بها . وصاحت به إحداهن :

ـ دعنا نذهب فقد لحقنا المغيب .

ولكنه لم يدعهن يذهبن ، وكانت واحدة منهن تطلب منه غفلة ، فلما لاحت فرصة

انقضت عليه كاللبؤة وارتمت على ساقه وتعلقت بها وعضته فى فخذه، وارتمت عليه الفتيات جميعا منهن من تعلقت بساقه الأخرى ومنهن من احتضنته بقوة، وجعل يقاومهن بالصبر دون المدافعة، ولكنه عجز عن الحركة ورأى ـ وهو يكاد يجن ـ الفلاحة الجميلة تجرى ناحية الحقول كالغزال النافر، فناداها وتوسل إليها، وقد اختل توازنه فسقط على الحشائش الخضراء، وما زلن يتشبثن به ولم يتركنه حتى اطمأنن إلى اختفاء صاحبتهن. وقام مهتاجا غاضبا وجرى فى الطريق الذى ذهبت فيه ولكنه لم ير إلا فضاء، فعاد قانطا وقد رجا أن يهتدى إليها بواسطة صاحباتها، ولكنهن كن دهاة فقعدن هادئات لا يبرحن أماكنهن.

وقالت له واحدة بسخرية:

ـ ابق الآن أو اذهب كما تشاء.

وقالت أخرى بخبث:

ـ عسى أن تكون هذه أول مرة تهزم فيها أيها الجندى.

فقال بغضب شديد:

ـ لم تنته المعركة بعد.. وسأتبعكن ولو رحلتن إلى طيبة!

فقالت التى عضته:

ـ سنبيت ليلنا هنا..

١٧

وكان الشهر الذى قضاه فى المدرسة بعد ذاك المساء الجميل أطول الشهور وأشدها قسوة، وكان فى أول الأمر كثير التألم لكرامته وكبريائه يسائل نفسه مغيظا: كيف أخيب هذه الخيبة وما ينقصنى الجمال ولا الشباب ولا القوة ولا الغنى؟! وكان يديم النظر إلى المرآة ويحدث نفسه ما الذى يعيبه؟ ما الذى ينفر الحس منه؟ لماذا أصلته إهانة تلو إهانة وسخرية بعد سخرية! لماذا فرت منه كما يفر السليم من الأجرب؟ ثم يجد رغبة شديدة إلى معاودتها وملاحقتها، ولكنه يذكر الشهر الطويل الذى تحجزه فيه المدرسة بين جدرانها فتذهب نفسه حسرات وتسيل جوى ولوعة، فقد يستطيع لو ثابر على مغازلتها يوما بعد يوم أن يكبح جماحها ويلين عريكتها ويكتسب مودتها، وأى فتاة تقسو إلى الأبد؟ ولكن أنى له هذا وهو حبيس هذه الجدران الضخمة التى ترتد عنها القسى والنبال؟!

وبالرغم من كل شيء ظل مفتونا بها، لا تفارق صورتها صدره، كى يخلو إليها كلماخلال إلى نفسه، ترى من هى تلك الجبارة الفاتنة؟ فلاحة صغيرة هذا عجيب، وأين أعين الفلاحات من عينيها النيرتين الساحرتين، وأين بساطة الفلاحات من كبريائها وعنادها؟ وأين سذاجة الفلاحات من سخريتها المريرة وتهكمها المتعالى؟ لو أنه باغت فلاحة بما باغتها به لربما فرت هاربة أو استسلمت راضية ولكن هيهات! هل يستطيع أن ينسى جلستها وسط صويحباتها كالأميرة بين أفراد حاشيتها ووصيفاتها؟ وهل ينسى كيف دافعته عنها مدافعة المستميت؟ وهل ينسى كيف لبثن بين يديه ـ بعد فرارها ـ لا يبرحن حذرا أن يتبعهن إليها، صابرات على البرد والظلمة؟ فهل يفعلن كل هذا من أجل فلاحة مثلهن؟! كلا وكلا، ولعلها ريفية نبيلة بل عسى أن تكون كذلك حتى لا يقول نافا مرة أخرى إنه وقع على كوخ متهدم؟ ولكن هل وفق معها لكى يقول ذلك لنافا مرة أخرى؟ واأسفاه..!!

ومهما يكن فقد انتهى الشهر الذى خاله لا ينتهى أبدا، وغادر المدرسة كمن يغادر سجنا رهيبا، وذهب إلى البيت بشوق مدخر لغير أهله، وقابلهم بفرح ليس هم الباعث عليه، وجلس بينهم بقلب غائب، فلم يلاحظ ما طرأ على جاموركا من الجمود والفتور، وانتظر بصبر فارغ، ذلك العصر الذى عد الدقائق إليه شهرا كاملا، ثم انطلق إلى بقعة أبيس الطاهرة تنشد عيناه الوجه الحبيب..!

وكان الشهر برمودة والجو معتدلا رطبا، آخذا من البرد بقبضة تنعش وآخذا من الدفء بنفس حى يغرى باللهو والهوى، وكانت السماء بيضاء رقيقة البياض، يشف بياضها الرقيق عن زرقة باهتة.

وألقى على المكان العزيز نظرة ملؤها الحنو، وساءل نفسه المشوقة: أين الفلاحة ذات العينين الفاتنتين؟ ترى هل تذكره؟ أم هل لاتزال تجد عليه؟ وهل ما يزال رجاؤه لديها عسيرا؟ أيستحيل أن يلقى حبه صدى فى قلبها؟ ولكن أين هى؟

إن البقعة خلاء لا تجيب، صماء لا تلبى نداء، فما من معين على البلوى أو صارخ على الشكوى، والقلب يستشعر وحشة ويحس بدبيب الخيبة ويجثم عليه روح تشاؤم وقنوط.

والوقت ـ إذا غره الأمل لا يزال أمامه متسع لمجيئها ـ يمر ثقيلا بطيئا، وإذا خيل إليه القنوط أن موعدها انقضى أحس بالزمن ينطلق إنطلاق السهم، وكأن الشمس تركب عربة سريعة تعدو بها إلى الأفق الغربى.

ومضى يحوم حول المكان الذى رآها فيه أول مرة، وجعل ينظر إلى الحشائش الخضراء طمعا أن يرى أثرا لصندلها أو سحب ذيلها، ولكن الحشائش لم تحفظ من جسمها اللدن أكثر مما حفظ الماء من ساقيها!

ترى هل تواظب على زيارة هذاالمكان كما كانت تفعل من قبل أم أنها زهدت فى نزهتها زهدا فى رؤيته؟ أين هى؟ وكيف السبيل إليها؟ هل ينادى بغير اسم؟ هل يصرخ فى الفضاء؟ وجعل يدور حول المكان الحبيب حائرا، نافد الصبر، يتقاذفه القنوط والأمل . . ولا حت منه التفاتة إلى السماء فرأى الشمس تميل إلى الأفق، ورأى توهجها يخبت فتقدر العين على النظر إليه كأنها جبار مارد أذلته الشيخوخة وأطمعت فيه الضعفاء، فذوى أمله وغرق فى لجة اليأس، واعتلاه حزن شديد، وولى وجهه شطر الحقول فرأى هيكل قرية، فشخص إليها وما يدرى ما يفعل، وفى منتصف الطريق التقى بفلاح آيب بعد جهد النهار الواصب، فسأله عن القرية؟ فقال الرجل وهو ينظر إلى بدلته باحترام: «هى قرية آشر يا سيدى» فكاد من اليأس أن يريه الصورةالساكنة على صدره ويسأله عن صاحبتها .

واستأنف رحلته ولم تكن له غاية محدودة، ولكنه وجد فى السير راحة لم يجدها فى الوقوف والدوران، وكأن الأمل الخلب الذى غرر به ساعة على شاطئ النيل طار إلى ربوع تلك القرية فاتبع أثره. وكان مساء لا ينسى، فقد اخترق طرقات القرية يقرأ الوجوه ويسائل الديار، فأثار منظره الفضول ولفت جماله الأنظار، واتجهت إليه العيون من كل صوب، وما لبث أن وجد نفسه يسير وسط أمة من الفتيات والغلمان والصبيان، وأخذ يعلو الحديث والهتاف وما وجد لضالته أثرا، فتحاشى أهل القرية وغادرها سريعا، وأسرع الخطى نحو النيل فى ظلمة من النفس وظلمة من الكون .

كان حزينا ، يائسا ، تحرق اللوعة صدره، وتمزق الحسرة قلبه، وقد ذكرته حاله بمأساة الربة إيزيس حين ذهبت تبحث عن أشلاء زوجها أوزوريس التى نثرها ست فى تضاعيف الرياح، وقد كانت الأم إيزيس أسعد حظا منه، أما هو فلو كانت حبيبته طيفا من أطياف الأحلام، لكان الأمل فى العثور عليه أدنى إلى قلبه .

أحب ددف الجميل، ولكنه كان حبا غريبا، بلا حبيبة، حبا ليس عذابه الصد أو الخيانة أو ويلات الزمن وكيد الناس، لكن عذابه أنه بلا حبيبة . كانت حبيبته كنسمة هائمة حملتها ريح هوجاء وذهب بها إلى حيث لا يعلم إنسان . فقلبه ضائع لا يعرف له مستقرا، لا يدرى إن كان قريبا أم بعيدا، لا يدى إن كان بمنف أم فى أقصى بلاد النوبة . فيالها من أقدار قاسية تلك التى حولت عينيها إلى تلك الصورة التى يحتفظ بها على قلبه، كانت أقدارا قاسية تعرفها الأرواح الشريرة التى يطيب لها عذاب البشر .

* * *

وعاد إلى البيت والتقى بأخيه نافا فى الحديقة، فقال الفنان :

ـ أين كنت يا ددف؟ لقد طالت غيبتك . ألم تعلم أن خنى فى حجرته؟

فقال ددف بدهشة :

ـ خنى ! . . أحقا ما تقول؟ ولكنى لم أجده حين مجيئى .

فقال نافا :

ـ جاء منذ ساعتين وهو ينتظرك .

فهرع إلى حجرة الكاهن الذى لم تقع عليه عيناه منذ سنوات ، ورآه جالسا كما تعود أن يراه فى الأيام الخوالى والكتاب فى يده ، فلما رآه قام إليه وهو يقول بفرح :

ـ ددف ! كيف أنت أيها الضابط الهمام؟

وتعانقا طويلا ، وقبله خنى فى خديه وباركه باسم الرب بتاح وقال له :

ـ كم تمر الأعوام سريعا يا ددف ! إن وجهك هو هو الوجه الجميل . . ولكنك تنمو نموا عظيما ، وكأنى أرى فيك صورة جندى باسل من الجنود الذين يباركهم الملك عقب المواقع الكبرى وتخلد بطولاتهم جدران المعابد . . يا عزيزى ددف ، كم أنا سعيد برؤيتك بعد هذه الأعوام الطوال !

فقال ددف والفرح يغمره :

ـ وأنا سعيد جدا يا أخى العزيز ، تالله لقد غدوت صورة صادقة من رجال الكهنوت فى نحافة جسمك وهيبة محضرك ونفاذ عينيك ، هل انتهيت من الدراسة أيها الأخ العزيز؟

فابتسم خنى وهو يجلس ويفسح له مكانا إلى جانبه :

ـ إن الكاهن لا ينتهى من العلم أبدا ، لأنه لا نهاية للعلم . وقد قال قاقمنا : إن العالم يطلب العلم من المهد إلى اللحد ويموت جاهلا . ولكنى أتممت الدراسات التعليمية الأولى .

ـ وكيف كانت حياتك فى المعبد؟

فنظر إليه الشاب بعينين حالمتين وقال :

ـ واها لك أيها الزمان ، كأنى أستمع إليك قبل عشر سنوات وأنت تطرح علىّ السؤال ، أتذكر يا عزيزى ددف؟ . . لا داعى للعجب فحياة الكاهن تمضى بين سؤال وجواب أو سؤال ومحاولة الجواب ، إن السؤال خلاصة الحياة الروحية . معذرة يا ددف ، ما الذى يهمك من حياة المعابد؟ ليس كل ما يعرف يقال ، وحسبك أن تعلم أنها حياة الجهاد والطهر ، إنهم يعودوننا أن نجعل الجسم طاهرا مطيعا لإرادتنا ثم يلقنوننا العلم الإلهى ، وهل ينثر الحب الطيب إلا فى أرض طيبة؟

ـ وماذا أنت فاعل أيها الأخ؟

ـ سأعمل قريبا خادما لقرابين الرب بتاح تعالى اسمه المبارك، ولقد حزت عطف الكاهن الأكبر، وتنبأ لى بأنه لن تمضى عشر سنوات حتى أنتخب قاضيا من قضاة منف العشرة.

فقال ددف بحماس.

ـ إنى أومن بأن نبوءة قداسته ستتحقق قبل ذلك.. أنت رجل عظيم يا خنى.

فابتسم خنى ابتسامته الهادئة وقال:

ـ أشكرك يا عزيزى ددف، والآن قل لى هل تقرأ شيئا مفيدا؟

فضحك ددف قائلا:

ـ إذا حسبت خطط القتال وتاريخ الجيش المصرى قراءة مفيدة فأنا أقرأ أشياء مفيدة!

فسأله بإشفاق:

ـ والحكمة يا ددف؟!.. لقد كنت تصغى إلى أقوال الحكماء بشغف وشوق فى هذا المكان قبل عشر سنوات!

ـ الحق أنك زرعت حب الحكمة فى قلبى، ولكن حياتى العسكرية لا تترك لى فراغا للمطالعة التى أهواها، ومهما يكن فقد قصرت الشقة بينى وبين الحرية.

فقال خنى بامتعاض:

ـ إن العقل الفاضل لا يستغنى عن الحكمة يوما، كما أن المعدة السليمة لا تزهد فى الطعام بعض يوم. ينبغى أن تعوض ما فاتك يا ددف، لا تنس هذا مطلقا، إن فضيلة علم الحرب أنه يؤهل الجندى لخدمة وطنه ومولاه بالقوة، ولكن الروح لا تفيد منه شيئا، والجندى الذى يجهل الحكمة، كالحيوان الأمين ليس إلا، وقد ينفع بوحى غيره، فإذا ترك لنفسه عجز عن إفادة نفسه فضلا عن الآخرين، وقد ميزتنا الآلهة عن الحيوان بالروح، وإذا لم تتغذ الروح بالحكمة هوت إلى حضيض الحيوانية. لا تغفل عن هذا يا ددف، لأنى أشعر من أعماق قلبى بأن روحك سامية، وأقرأ على جبينك الجميل أسطرا باهرة من المجد والجلال، باركك الرب فى روحاتك وغدواتك..

وتسلل الحديث بينهما عذبا شهيا لقلبيهما، وكان آخر ما تحدثا به زواج نافا، وعلم به خنى من ددف لأول مرة، فبارك الزوج والزوجة، وهنا خطر لددف خاطر فسأله:

ـ ألا تتزوج يا أخى؟

فقال الكاهن للشاب:

ـ كيف لا يا ددف؟ إن الكاهن لا يستطيع أن يخلد إلى طمأنينة الحكمة ما لم يتزوج،

وهل يستطيع المرء أن يتطلع إلى السماء وفى النفس نزوع إلى الأرض، إن فضيلة الزواج أنه يخلص من الشهوات ويطهر الجسد . .

* * *

وغادر ددف حجرة أخيه عند منتصف الليل، وآوى إلى حجرته وأخذ يخلع ثيابه ويستعيد حديث الكاهن، ثم أخذت تعاوده أحزانه ويتذكر عذاب يومه وخيبته فيه، وقبل أن يضطجع على فراشه سمع طرقا خفيفا، فأذن للطارق بالدخول، فدخلت زايا يبدو على هيئتها الوجوم وسألته :

ـ هل أيقظتك؟

فقال وقلبه يتوجس خيفة :

ـ كلا يا أماه لم أنم بعد، خيرا؟

وترددت المرأة وهمت بالكلام فلم يطاوعها لسانها، فأشارت إليه أن يتبعها، فتبعها قلقا حتى انتهيا إلى مخدعها، وأشارت إلى الأرض، فنظر فرأى جاموركا ممددا كأنه أصيب بسهم قاتل، فلم يتمالك نفسه أن صاح بذعر :

ـ جاموركا . . جاموركا . . ما له يا أماه؟!

فقالت المرأة بصوت مختنق :

ـ تشجع يا ددف . . تشجع يا عزيزى .

فانخلع قلبه فى صدره وركع إلى جانب الكلب العزيز الذى لم يلقه كعادته بالقفز والفرح، وربت على جسمه فلم يبد حراكا، فنظر إلى أمه بعينين كئيبتين وسألها :

ـ ما له يا أماه؟

فقالت المرأة :

ـ تشجع يا ددف إنه يحتضر!

فارتاع الشاب لتلك الكلمة المرعبة وقال محتجا :

ـ كيف حدث هذا؟ لقد لاقانى فى الصباح كعادته .

ـ لم يكن كعادته يا عزيزى . إلا إذا كان فرحه بك محا آلامه ساعتئذ، لقد طعن فى العمر يا ددف وبدا عليه فى الأيام الأخيرة وهن الوداع . .

فاشتد الألم بددف وتحول إلى الصديق الأمين وهمس فى أذنه بحزن عميق :

ـ جاموركا . . ألا تسمعنى؟ جاموركا!

فرفع الكلب الأمين رأسه بصعوبة، ونظر إلى مولاه بعينين لا تريان شيئا كأنه يودعه الوداع الأخير، ثم عاد إلى نومه الثقيل . وجعل يئن بصوت مبحوح، فناداه مرة بعد

أخرى ولكن نداءه لم يحرك به ساكنا ، وخيل إليه أن وطأة الموت تشتد على الصديق الأمين ، ورآه يلهث ويفتح فاه ويغلقه . ثم رآه ينتفض انتفاضة ضعيفة ويسكن إلى الأبد . وناداه من أعماق قلبه قائلا «جاموركا» فضاع النداء سدى . ولأول مرة فى حياته العسكرية ذرفت الدموع من عينيه ، وانتحب باكيا يودع رفيق الطفولة وحبيب الصبا وصديق الشباب . .

ورفعته أمه بين يديها وجففت دموعه بشفتيها ، وأجلسته إلى جانبها على فراشها وعزته بكلمات رقيقة ، ولكنه لم يسمع إليها ولم تنفرج شفتاه فى تلك الليلة إلا عن قوله : أماه أريد أن يحنط ويحفظ فى تابوت فى الحديقة فى البقعة التى كنا نلعب فيها معا ، حتى ينقل إلى قبرى حين يدعونى الرب .

وهكذا اختتم ذلك اليوم الحزين .

١٨

مضى العام السادس والأخير لددف فى المدرسة الحربية .

وأقامت المدرسة حفلتها التقليدية السنوية التى يتبارى فيها المتخرجون قبل توزيعهم على فرق الجيش المختلفة . وأشرقت حياة الفرح ـ ذلك اليوم ـ على المدرسة العظيمة وأزينت أسوارها بأعلام الفرق الحربية ، وصدح جوها بأنغام الموسيقى الحماسية .

وفتحت أبوابها تستقبل المدعوين نساء ورجالا ، الذين يتكون جمهورهم من أسر الضباط والقواد والمتخرجين وكبار الموظفين .

وبعد أن انتصف النهار ، حضر كبار رجال الدولة يتقدمهم الكهنة والوزراء وعلى رأسهم صاحب القداسة خومينى ، وقواد الجيش العظام وعلى رأسهم القائد أربو ، وكثير غيرهم من خاصة الموظفين والكتاب والفنانين ليكونوا جميعا فى استقبال حضرة صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف ولى عهد المملكة ، الذى أنابه صاحب الجلالة الملك عن ذاته فى ترؤس الحفلة .

ولما أزف موعد الأمير هرع كبار رجال الدولة إلى مدخل المدرسة ووقفوا ينتظرون بين صفوف من الجنود ، وما لبث أن ظهر فى الميدان الفسيح المنبسط أمام المدرسة موكب ولى العهد تتقدمه كوكبة من عربات الحرس الفرعونى ، فصدحت الموسيقى بالتحية ، ووقف الجمهور إجلالا وتعالى هتافه لفرعون وولى العهد .

ووصل موكب الأمير إلى مدخل المدرسة ، فتقدم مديرها حاملا بين يديه نمرقة من

الحرير المحشو بريش النعام ترجل عليها صاحب السمو الفرعونى . وكان فى صحبة الأمير شقيقته صاحبة السمو الأميرة مرى سى عنخ ، وإخوته الأمراء رعباوف وحردف وحرسادف وكاعب وسددف وخوفو خعف وهتا ومراب . .

وانحنى الكبراء بين يدى الأمير ، وسار سموه بقامته الربعة ووجهه الصلب الذى زادته الكهولة صلابة وصلفا ، وسارت إلى يمينه الأميرة مرى سى عنخ ، واتخذ مجلسه فى الوسط ، وجلست إلى يمينه الأميرة والأمراء ، وإلى يساره خومينى والوزراء والقواد وكبار الموظفين . وبعد وصول الأمير سكت الهتاف وجلس المدعوون ، وابتدأت الحفلة ، ونفخ فى الصور فصدحت الموسيقى وظهرت فرقة الضباط المتخرجين من ناحية الثكنات تسير أربعة أربعة ، ويتقدمها قائد المدربين حاملا علم المدرسة ، وقد ارتدوا للمرة الأولى ملابس الضباط ذات الوزرة الخضراء والقميص الأخضر والسترة المصنوعة من جلد النمر ، فلما أن صاروا بإزاء العرش الجالس عليه صاحب السمو ، سلو سيوفهم ومدوا بها أذرعهم وهى عمودية أذبتها إلى السماء ، فرد التحية واقفا .

وابتدأت بعد ذلك المباراة العظيمة بسباق الخيل ، فامتطى الضباط الجياد المطهمة ووقفوا صفا ، ثم نفخ فى الصور فاندفعوا كالسهام المنطلقة عن أقواس مردة ، وزلزلت أرجل الخيل الأرض زلزالا شديدا ، وكادت لشدة عدوها تغيب عن الأبصار ، وثبت البواسل عليها كأنهم سمروا فى ظهورها تسميراً . وكانوا صفا ثم فرق بينهم العدو الشديد ، ثم شذ عنهم فارس كان لسرعته كأنما يركب ريحا مجنونة . وكان أسبقهم فى العودة إلى المبتدأ . . وقد أذاع المدرب اسم الفارس الفائز «ددف بن بشارو» فاستقبل بهتاف شق عنان السماء ، ولو أتيح للشاب أن يسمع أباه وهو يهتف «لابن بشارو» بصوت كالرعد لما تمالك نفسه من الضحك!

وبعد مدة وجيزة بدأ سباق العربات ، فركب الضباط وانتظروا صفا ، ثم نفخ فى الصور فانطلقوا كالعمالقة يبعثون بين أيديهم رهبة ويتركون خلفهم دويا كشق الصخور وانهيار الجبال . وكانوا على ظهور العربات يتمايلون ولا يتزحزحون ، كأنهم سيقان نخل راسخة هبت عليها ريح عاصفة تريد اقتلاعها فارتدت عنها خائبة مولولة . . ثم انطلق من بين صفوف العادين راكب سبقهم بقوة مارد فبدا وبدوا كأنه عاد وهم وقوف ، وتوجه الفوز حتى النهاية ، وأعلن المدرب اسم الفائز «ددف بن بشارو» وتعالى باسمه الهتاف واشتد له التصفيق . .

ثم أعلن المنادى عن سباق القفز على الحواجز ، فامتطى الضباط جيادهم ، وأقيم فى وسط الفناء الطويل المصاطب من الخشب يزداد مع التقدم ارتفاعها رويدا رويدا ، ونفخ فى الصور فعدت الخيل بعنف وطارت فوق الحاجز الأول كأنها نسور منقضة ، وقفزت

على الثانى كأنها أمواج الشلال الكاسرة، وتقدموا يكلل هاماتهم النصر المبين، ولكن خان الحظ البعض فعجزت الجياد غير صائخة إلى صراخ فرسانها البواسل، وسقط آخرون بين أصوات الإشفاق، إلا فارسا قفز الحواجز جميعا كأنه قدر محتوم أو فوز مجسم، وأعلن المنادى اسمه «ددف بن بشارو» بين التهليل والتكبير.

وحالفه الفوز فى جميع المباريات فكان المبرز فى إصابة الأهداف بالرمح والقوس، وكان المنتصر فى المبارزة بالسيف والضرب بالمزاريق، وآتته الآلهة نصرا مبينا جعله بطل اليوم دون شريك، ونابغة المدرسة العديم النظير، وأحله مكانة الإعجاب والتقدير فى كل قلب.

وكان على الفائزين أن يذهبوا إلى ولى العهد ليهنئهم على نبوغهم، فذهب ددف ـ ذلك اليوم ـ وحده، وأدى للأمير التحية العسكرية، فوضع الأمير يده فى يده وقال له:

ـ إنى أهنئك أيها الضابط الباسل: أولا على تفوقك. وثانيا على اختيارى لك ضابطا فى حرسى الخاص.

فطفح وجه الشاب بالفرح، وأدى التحية للأمير وعاد مثلج الصدر سعيدا، وسمع فى أثناء مسيره المنادى يعلن للحاضرين تهنئة الأمير واختياره له فى حرسه، فخفق قلبه وذكر بالفرح أسرته: بشارو وزايا وخنى ونافا الذين يسمعون خطاب المنادى ويفرحون له الفرح الذى يجل عن الوصف.

وسارت بعد ذلك فرقة الضباط الجدد إلى عرش الأمير ليخطب فيهم، وقام الأمير وخطب فيهم قائلا بصوته الشديد النبرات:

أيها الضباط البواسل:

ـ إنى أعلن على الملأ إعجابى العظيم بشجاعتكم ومهارتكم وحماستكم وتميزكم بسجايا الجندية الجليلة، ورجائى أن تظلوا كمن سبقكم من إخوانكم عنوان مجد للوطن ولفرعون رب العالمين.

وهتف الضباط للوطن ولفرعون، وبذلك أعلن انتهاء الحفلة، وغادر الأمير المدرسة وعاد موكبه الرسمى إلى القصر الفرعونى، وانصرف المدعوون.

وكان ددف فى تلك الأثناء فى حالة غريبة من الذهول أشذته عما حوله، لا يرجع تفسيرها إلى نشوة الفوز ولكنه إلى أمر أعظم رهبة فى نفسه وأمعن أثرا. إذ كان يسمع مع زملائه إلى خطاب الأمير، وتحركت عيناه إلى الخطيب فعثرتا فى طريقهما بوجه الأميرة مرى سى عنخ، فرأى منظرا عجبا انخلع له قلبه فى صدره. كاد لقوة المباغتة أن يصعق صعقا ويخر على وجهه خرا. يا آلهة السموات ما هذا الذى يرى! إنه وجه الفلاحة التى يحمل صورتها على قلبه! وود لو يستطيع أن يديم النظر إليه ولكنه خشى أن يفتضح

أمره، فنظر إلى الأمام لا يلوى على شيء. وانتهت الحفلة ولما يفق من وقع المفاجأة والدهشة. فعاد إلى الثكنات كمن به مس.

ترى هل يمكن أن تكون فلاحته الجميلة هى صاحبة السمو الأميرة مرى سى عنخ؟ يا له من أمر بعيد عن التصديق، عسير على تصور الخيال!

ومع هذا هل من الميسور أن يصدق بوجود وجهين بهذا الجمال الفتان؟ هل ينسى ما لاقته به صاحبة الصورة من كبرياء، لم يكن قط من أخلاق الفلاحات؟ ولكن جميع هذا لا يسوغ له قبول هذا الفرض الغريب، فليته استطاع أن يتحقق من قسمات وجهها!

أما لو كانت هى الأميرة! فقد أتى أمرا كبيرا لا يستطيع أن يتنبأ بعواقبه، لم يتمالك عند ذاك من أن يضحك ضحكة ساخرة مريرة ويقول لنفسه: ياللغرابة! إن ددف بن بشارو يحب الأميرة مرى سى عنخ! ثم نظر إلى الصورة طويلا بعينين حزينتين، وتنهد قائلا:

ـ هل حقا أنت الأميرة الجليلة! كونى فلاحة بسيطة، فرب فلاحة مفقودة أقرب إلى القلب من أميرة موجودة!

١٩

وتأهب ددف لمغادرة قصر بشارو ـ لأول مرة ـ كرجل مستقل، تاركا فى النفوس حزنا ممزوجا هذه المرة ـ بالفخر والإعجاب ـ وقد قبلته زايا حتى بلت خده بدمعها، وباركه خنى ودعا له ـ وكان يأخذ أهبته أيضا لترك البيت إلى المعبد، وشد نافا على يده بحرارة وقال له: «إن نبوءتى تحققها الأيام يا ددف». وودعه كذلك عضو جديد فى أسرة بشارو وهى مانا ابنة كامادى زوج نافا. أما بشارو العجوز فقد وضع كفه الغليظة على كتفه وقال له بخيلاء: «إنى سعيد يا ددف لأنك تخطو الخطوات الأولى فى طريق والدك العظيم». ولم ينس ددف أن يضع زهرة لوتس على تابوت جاموركا قبل أن يودع بيته فى طريقه إلى قصر صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف..

ومن المصادفات السعيدة أنه وجد أن زميله بمخدعه بثكنات قصر الأمير صديق قديم ترجع صداقتهما إلى زمالة الصبا، وكان شابا ودودا مخلص القلب، صريحا ثرثارا، ففرح بقدوم صديقه القديم واستقبله استقبالا وديا، وقال له ضاحكا:

ـ أدائما فى أثرى؟

فابتسم ددف وقال:

ـ ما دمت فى طريق المجد.

ـ المجد لك يا ددف، لقد كنت الفائز فى سباق العربات، أما أنت فجندى لم يسبق بمثله، إنى أهنئك من صميم قلبى.

فشكره ددف، وفى المساء أحضر سنفر من صوان ثيابه زجاجة من خمر مريوط وكأسين من الفضة، وقال:

ـ اعتدت أن أشرب كأسا من خمر مريوط العذبة قبل النوم، هى عادة مفيدة.. ألا تشرب؟

ـ إنى أشرب الجعة، ولكنى لم أذق الخمر؟

فقال سنفر مقهقها:

ـ اشرب.. إن الخمر داء الجنود.

وعلى حين فجأة قال له بلهجة جدية:

ـ أيها الأخ ددف، إنك مقبل على حياة صارمة.

فابتسم ددف بشىء من الاستهانة وقال:

ـ لقد ألفت نفسى حياة الجندية.

فقال سنفر:

ـ جميعنا يألف حياة الجندية، ولكن صاحب السمو شىء آخر.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

ـ ماذا تعنى؟

ـ إنى أنصحك أيها الأخ بدافع الأخوة لتكون على بينة من الأمر ولتأخذ حذرك، فإن خدمة الأمير شدة لا مثيل لها.

ـ كيف؟

ـ إن سموه شديد القسوة، له قلب كالحجر أو أشد صلابة، والهفوة عنده خطأ مبين، والخطأ جريمة لا تغتفر. وستجد فيه مصر حاكما صارما لا يداوى الجرح بالبلسم كما يفعل جلالة والده أحيانًا. ولكنه لايتوانى عن بتر العضو لأهون خلل يعتوره!

ـ إن الملك الحازم يحتاج إلى شىء من القسوة.

ـ شىء من القسوة.. لا القسوة كلها، سترى كل شىء فى حينه، فلا يكاد يفوت يوم لا يصدر فيه عقوبات عدة يصيب بعضها الخدم وبعضها الجند وبعضها الوكلاء وربما انصبت على الضباط، وإن الأيام لتزيده صلفا وخشونة!

فقال ددف:

ـ العادة أن تلين عريكة الرجل بتقدم العمر ، هكذا يقول قاقمنا .

فضحك سنفر ضحكًا عاليا وقال :

ـ لا يجمل بالجندى أن يستشهد فى كلامه بقول حكيم . هكذا يقول صاحب السمو ! وإن حياة سموه لتشذ عن رأى قاقمنا ، لماذا؟ إنه فى الأربعين . . ولى عهد فى الأربعين من عمره ! تأمل !

فنظر إليه الشاب بعينين متسائلتين ، فاستطرد سنفر بصوت خافت :

ـ يود أولياء العهد لو يحكمون شبانا ، فإذا قست عليهم الأقدار انقلبوا قساة!

ـ أليس سموه متزوجا؟

ـ وله بنون وبنات .

ـ فالعرش مضمون لنسله .

ـ هذا لا يغنى عن الأسف شيئا . . وليس هذا ما يخشاه الأمير .

ـ فما الذى يخشاه؟ إن إخوته مخلصون لقوانين المملكة .

ـ ما فى هذا شك ، ولعلهم لا يطمعون فى شىء ، لأن أمهاتهم من الحريم ، وجلالة الملكة لم تلد سوى ولى العهد وشقيقته مرى سى عنخ ، فالعرش من حق هذين الاثنين قبل أى إنسان ، ولكن الذى يقلق له الأمير هو . . قوة بنية جلالته !

ـ إن فرعون معبود مصر جميعا .

فنظر الضابط إليه وقال :

ـ بلا جدال . . إنى يخيل إلى أنى أستشف أمانى النفوس التى تعيش فى الأعماق دون أن يسمح لها الضمير الحى بأن تطفو ، معاذ الرب أن يوجد خائن فى مصر . . كلا أيها الأخ ، والآن قل ما رأيك فى خمر مريوط؟ . . إنى طيبى ولكنى غير متعصب .

فقال ددف :

ـ هى خير ما قدمت يا سنفر .

واكتفى سنفر بهذا المقدار من الحديث وقام للنوم ، أما ددف فلم يذق جفنه المنام ، لأن ذكر مرى سى عنخ على لسان صاحبه أثار شجونه ولواعجه كما يثير الطعم الملقى على سطح الماء خافى السمك ، فاهتاجت نفسه وتبلبل فكره وقضى سواد الليل يناجى قلبه المحزون .

٢٠

وكان فى قصر ولى العهد يحس من الأعماق بأنه قريب من ذلك السر الغامض، وأنه يعيش فى الأفق الذى يشرق فيه، وأن لابد أن يشع عليه شعاع من أشعته الوهاجة، وكان ينتظر على أمل وخوف ولذة. وإنه ليتجول فى مروج القصر المطلة على النيل، والوقت يسير بين العصر والأصيل، وشمس هاتور تنسكب أنوار بهيجة ترد الزمان الهرم إلى عنفوان الشباب وبهاء الفتوة، وإذا به يرى سفينة ملكية ترسو إلى سلم الحديقة ولم يكن فى استقبالها أحد من الحجاب، فأسرع - كما يقضى واجبه - إلى استقبال الرسول الكريم، ووقف تلقاء السفينة كالتمثال الجميل.

ورأى صورة إلهية كريمة تتخفى فى ثياب الأميرات تنزل من السفينة وتصعد أدراج السلم فى عظمة فرعونية ورشاقة خيالية، كأن ثقلها ينجذب إلى أعلى لا إلى أسفل. رأى صاحبة السمو الأميرة مرى سى عنخ!

واستل سيفه الطويل وأدى عليه التحية العسكرية، ومرت به الأميرة كالحلم الجميل، وسرعان ما غيبتها متعرجات الحديقة.

كيف لا تكون هى هى؟

إن البصر يخدع، والسمع يخدع، أما القلب فلا يخدع أبدا. ولو لم تكن هى ذاتها ما خفق هذه الخفقة الشديدة التى كاد لها ينخلع، ولما تركه من النشوة كالسكران المترنح. ولكن ما بالها لا تحس به ولا تذكره، وقد جرى بينهما من الأمر ما يستحق التذكر؟هل يمكن أن تنسى هكذا سريعا تلك المقابلة الغريبة؟ أم أنها تتناساها ترفعا عن ذكرها؟

وما الفائدة من أن تذكره أو لا تذكره؟ وما الفرق بين أن تكون الأميرة هى صاحبة الصورة أو تكون أخرى تشابهها؟ فالقلب ما خفق بالحب إلا لهذه الصورة البهية، وسيظل يخفق لها سواء أحلت بجسم أميرة من البيت الفرعونى أم بجسم فلاحة من قرى منف، وسيظل على يأس منها فى الحالتين، فما من الحب بد، وما من اليأس بد.

وألقى بنظره إلى الأشجار المتفرعة، وشاهد الأطيار تتجاذبها أغصانها وهى لا تكف عن التغريد وينبئ مظهرها الفرح عن الهيام والوداد، فأحس نحوها بعاطفة لم تزر قلبه من قبل. أحس نحوها بالحسد أن تلهو بغير حساب وأن تعشق بلا عذاب وأن تسمو بفطرتها عن الأوهام والشكوك، ثم نظر إلى حسامه وإلى بذلته ذات الألوان وإلى قلنسوته ذات الكبرياء، فأحس بصغار ووجد رغبة إلى الضحك المرير والهزء الأليم.

لقد أتقن الرماية وبرع فى ركوب الخيل وتفوق فى المبارزة ونال كل ما يتمناه شاب طموح، ولكن ما أعجزه عن إسعاد قلبه! وقد كان نافا أسعد حظا فتزوج من مانا ذات الجيد الطويل والعينين العسليتين، وسوف يتزوج خنى فى هدوء وبساطة لأنه يرى الزواج واجبا دينيا، أما هو فيلبث حاملا بين أضلعه حبا يائسا مكتوما، يذوى به قلبه كما تذوى الشجرة الفارعة إذا منعت نور الشمس وماء النيل.

وظل ملازما لموقفه يعلل النفس برؤيتها مرة أخرى، ولم يكن يشك فى أن الزيارة غير رسمية وإلا لعلم بها كل من فى القصر، ولاستقبلت الأميرة استقبالا يليق بمكانها فى الأسرة الملكية وعلى هذا لا يبعد مطلقا أن تعود إلى السفينة بمفردها. وصدق بعض ظنه، فعادت الأميرة بعد أن ودعها صاحب السمو الملكى عند مدخل القصر.

وكان ددف بمكانه عند سلم الحديقة فوقف مستعدا، حتى إذا صارت بإزائه سل سيفه وأدى التحية، وعلى حين فجأة توقفت الأميرة والتفتت إليه فى نبل وكبرياء، وقالت بلهجة ساخرة:

ـ هل تعرف واجباتك أيها الضابط؟

فقال ددف وقد زلزلت نفسه:

ـ نعم يا صاحبة السمو.

فسألته بلهجة مرة:

ـ هل من الواجب أن تخطف الفتيات فى غير زمن الحرب؟

فاستولى الارتباك عليه، وتلبثت لحظة تحدجه بنظرة قاسية ثم قالت:

ـ وهل من واجب الجندى أن يغدر؟

فلم تحتمل نفسه الألم وقال:

ـ يا مولاتى.. إن الجندى الشجاع لا يغدر!

فسألته بسخرية:

ـ فما قولك فيمن يتربص بالآمنات خلف الشجر ويصورهن خلسة؟

وغيرت لهجتها فقالت بصلف:

ـ يجدر بك أن تعلم إنى أريد تلك الصورة.

وأطاع ددف كما تعود أن يطيع، فدس يده فى صدره وأخرج الصورة من مخبئها الدفين وقدمها إلى الأميرة.

ولم تكن تتوقع هذا، فبدت على وجهها ـ بالرغم من كبريائها ـ الدهشة، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها ومدت يدها البضة وأخذت الصورة.

سارت فى طريقها إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة.

٢١

وظلت حياة ددف فى قصر الأمير لا يشرق فى أفقها جديد، حتى كان يوم عرف فيه قلبه مشربا للألم جديدا.

فى ذلك اليوم خرج صاحب السمو الأمير رعخعوف فى بدلة التشريفة الكبرى، تتقدمه كوكبة من الحرس كان بين ضباطها صديقه سنفر، وعاد الأمير لدى المساء، ورجع سنفر إلى مخدعه فى الوقت الذى رجع فيه ددف إليه بعد قيامه بواجب الحراسة وتفقد الحراس، وكان من الطبيعى أن يسأل صاحبه عن دواعى خروج الأمير بتلك الحال التى لا تأتى إلا فى الأعياد، ولكنه كان يعلم بطبعه الذى لا يستطيع السكوت على سر، وفى الواقع ما استراح سنفر قليلا حتى قال وهو يرتدى منامته:

ـ أتعلم إلى أين ذهبنا اليوم؟

فقال ددف بهدوء:

ـ كلا.

فقال سنفر باهتمام:

ـ حضر اليوم إلى منف صاحب السمو الأمير أبوور حاكم مقاطعة أرسينة، وكان ولى العهد فى استقباله!

فسأل ددف:

ـ أليس سموه ابن خال جلالة الملك؟

ـ بلى. ويقال إن سموه جاء يحمل تقريرا عن قبائل سيناء التى تعددت حوادثها فى ربوع الدلتا الشرقية.

ـ إذن فسموه رسول حرب؟

ـ نعم يا ددف، والذى علمته يدل على أن ولى العهد كان يميل منذ زمن طويل إلى تأديب قبائل سيناء، وأن القائد أربو كان يؤيده فى رأيه، ولكن الملك كان يفضل التريث ريثماتستعيد البلاد قواها بعد الجهد الجهيد الذى بذله فى أوجه العمران وأخصها بناء هرم الملك. ولما مضت فترة الاستجمام استنجز الأمير فرعون ما وعد، ولكن يقال إن جلالة الملك منهمك هذه الأيام فى تأليف كتاب عظيم يرجو أن يجعل منه للمصريين أكبر مرشد للدين والدنيا، فلم يبد جلالته استعدادا للتفكير جديا فى مسألة الحرب، فاستعان الأمير رعخعوف بقريبه الأمير أبوور، واتفق معه على أن

يحضر بنفسه ليطلع الملك على حقيقة عبث القبائل واستهتارها بهيبة الحكومة، وما يخشى من تماديها إذا طال السكوت عليها، فلا يبعد وقد أتى الأمير أن تسير فرقة من الجيش إلى الشمال الشرقى فى القريب العاجل.

وساد الصمت فترة وجيزة، ثم قال سنفر بدافع من حب الكلام:

ـ وقد أولم جلالة الملك وليمة عشاء للأمير حضرها جميع أعضاء البيت الفرعونى، وعلى رأسهم جلالة الملك والأميرات. فخفق قلب ددف لدى ذكر الأميرات، وذكر الأميرة الفاتنة ذات البهاء والكبرياء، فتنهد وهو لا يدرى تنهدا جذب إليه سمع سنفر، فنظر الشاب إليه منكرا وصاح:

ـ وحق بتاح إنك لا تصغى لما أقول!

فانزعج ددف وقال:

ـ كيف تقسم على هذا؟!

ـ لأنك تتنهد تنهد من أعجزه فكره وفرّ إلى حبيبه.

فاشتد خفقان قلبه وحاول أن يقول شيئا ولكن سنفر لم يمكنه من غايته فضحك عاليا وقال باهتمام:

ـ من هى؟.. من هى يا ددف؟.. آه.. إنك تنظر إلىَّ نظرة إنكار؟! لن ألح عليك الآن فسأعرفها يوما وهى أم أبنائك، يا للذكرى! أتدرى يا ددف؟.. لقد تنهدت فى هذا المخدع منذ عامين كتنهدك هذا، وبت ليلى أناجى أطياف الأحلام، وفى العام الثانى صارت زوجى المحبوبة وهى الآن أم ابنى فانا. فيا لها من حجرة موبوءة بالغرام!.. ولكن ألا تقول لى من هى؟

فقال ددف بحدة أملتها عليه أحزان قلبه:

ـ أنت واهم يا سنفر!

ـ أواهم أنا! أشباب وجمال وقوة وجفاف؟! مستحيل!

ـ هو الحق يا سنفر!

ـ كما تشاء يا ددف فلن ألحف عليك بالسؤال، وبمناسبة حديث الغرام هذا أقول إنى سمعت همسا فى أروقة القصر الفرعونى، يدور حول ذكر أسباب أخرى لمجىء الأمير أبوور غير سبب الحرب الذى حدثتك عنه.

ـ ماذا تعنى؟

ـ يقولون إنه ستتاح للأمير فرصة مشاهدة صغرى الأميرات عن كثب، وهى ممن يضرب بجمالهن المثل، فربما زف إلى الشعب المصرى قريبا بشرى خطبة الأمير أبوور للأميرة مرى سى عنخ.

وكان هذه المرة شديد الخور، فتماسك وكتم عواطفه وتلقى الضربة بصبر عجيب، ولم يعلن وجهه عن شيء مما يعترك فى قلبه، وأمن خطر عينى صاحبه النافذتين ولسانه الثرثار الأليم، وحاذر أن يعلق على كلام صاحبه بكلمة أو أن يستزيده من الإيضاح خشية أن تفضحه نبرات صوته، فصمت صمتا ثقيلا رهيبا كأنه جبل شامخ أقيم على فوهة بركان.

ولم يكن يدرى سنفر ما بصاحبه، فاستلقى على فراشه وقال وهو يتثاءب:

- إن الأميرة مرى سى عنخ على جمال عظيم. ألم ترها؟ إنها أجمل الأميرات، وهى كشقيقها ولى العهد شديدة الكبرياء ذات إرادة من حديد، يقولون إنها تتمتع بحب لا نظير له فى قلب فرعون، فثمن جمالها سيكون غاليا بلا ريب. حقا إن الجمال يذل أعناق الرجال.

وتثاءب سنفر مرة أخرى وأغمض عينيه، وكان ددف يرمقه على ضوء المصباح الخافت بعينين كدرهما الحزن والأسى، فلما أن اطمأن إلى استسلامه للنوم أطلق لنفسه عنان التألم والحزن. ونبا به الفراش وأحس بضيق شديد يزهق النفوس، فترك الفراش على أطراف أصابعه وانسل إلى خارج الحجرة وكان الجو رطبا والنسيم باردا والليل حالك الجلباب، تلوح أشجار النخيل فى ظلمته كأشباح نائمة أو أرواح تعسة أضناها الخلود.

٢٢

وبعد انقضاء بضعة أيام علم كل من فى القصر أن سمو ولى العهد دعا الأمير أبوور، وصاحبة السمو الأميرة مرى سى عنخ، وشتيتا من الأمراء والأصدقاء، إلى رحلة صيد بالصحراء الشرقية.

وفى صباح اليوم الموعود جاءت الأميرة مرى سى عنخ، وكان وجهها كهالة من بهاء ونور يشرق سناه على القلوب فيغمرها بحياة الأفراح، وجاء على أثرها سمو الأمير أبوور مصحوبا بالحاشية، وكان فى الخامسة والثلاثين قوى البنيان مهيب الطلعة يدل مظهره على النبل والشرف والبسالة.

وكان كبير حجاب القصر يشرف بنفسه على إعداد قافلة الصيد وتزويدها بما يلزمها من الماء والزاد والسلاح والشباك. واختار رئيس الحرس لمرافقتها مائة جندى من جنود الحرس جعل على قيادتها عشرة ضباط من بينهم ددف، وهؤلاء غير الخدم ومساعدى

الصائدين. ولدى نزول ولى العهد إلى حديقة القصر تحركت القافلة العظيمة، وكانت تتقدمها كوكبة من الفرسان الخبيرين بطريق الصيد، وسار خلفهم صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف، وإلى يمينه الأميرة الفاتنة مرى سى عنخ، وإلى يساره الأمير أبوور، تحيط بهم هالة من الأمراء والنبلاء، وتبعت ذاك الموكب الجليل عربة تحمل قرب المياه، وأخرى تحمل الزاد وأدوات الطهى والخيام، تليهما ثالثة ورابعة وخامسة تحمل أدوات الصيد والقسى والسهام، تسير جميعا بين صفين من الفرسان، وتتبع العربات القوة الباقية من فرسان الحرس المرافق للرحلة يتقدمها ضباطها الذين كان منهم ددف. وسارت القافلة صوب الشرق تاركة خلفها المدينة العامرة والنيل المعبود وتولى وجهها شطر الصحراء، لا ترى حيثما تلقى الطرف إلا فضاء وأفقا رحيبا يعز بلوغه على الإنسان مهما طال به المسير، كأنه ظله الممدود أمامه يتقدمه كلما تقدم.

وكان صباحا نديا. وكانت الشمس طالعة يفرش سناها أرض الصحراء ببساط من أنوار، ولكن جعلها النسيم البارد السارى فى تضاعيف الهواء بردا وسلاما عليهم، فكانوا تحت أشعتها كأشبال بين أنياب اللبؤة..

وتقدمت القافلة فى طريقها تتبع المرشدين..

وكان ددف إذا أرسل الطرف يرى عن بعد الأميرة الصغيرة، التى استبدت بقلبه وأصلته جوى أليما، تمتطى صهوة جوادها المطهم وتتمايل على متنه كالغصن الرطيب، وكان يبدو على سيماها الجلال والكبرياء، إلا أنها كانت تنظر إلى شقيقها أحيانا تحادثه أو تستمع إليه فيلوح نصف رأسها الأيسر كصورة الأم إيزيس على جدران المعابد، وشاهد الشاب الأمير أيبوور يميل بقامته المتينة البنيان ويحادثها ويبتسم، وشاهدها تحادثه وتبتسم، وكانت المرة الأولى التى يرى فيها ذاك الكبرياء والبهاء يجود بابتسامة كأنها سماء مصر صفاء وحسنا وجمالا وندرة غيث.

ودبت الغيرة السامة فى قلبه الطاهر النبيل، وأرسل إلى الأمير السعيد نظرة ملتهبة، ذلك الأمير المجدود الذى جاء رسولا للحرب فالتقى فى طريقه برسول السلام والحب.. وعانى قلبه انفعالات مريرة لم تعهدها نفسه الصافية من قبل، ومضى يحادث نفسه حديثا ثائرا غاضبا.

أيجوز أن يهوى قلبه ويذوب بهواه فى برودة القنوط ويخسر الدنيا جميعا؟.. أيعقل أن يصلى نار الحب وعذابه ومن يهوى يسير على بعد قفزة جواد منه؟ فما قيمة الحياة؟ وما قيمة الآمال التى تمد نفسه بالقوة والجلاد؟ بل ما أشبه حياته بحياة وردة غضة لم تنشق عنها أكمامها، عاجلتها ريح صيف عاصف فاقتلعها من غصنها الحنون ودفنتها فى رمال الصحراء الملتهبة..

من ذاك العبد الذى يسمونه بالطاعة؟ ومن ذلك الظالم العاتى الذى يدعونه بالواجب؟ ما الإمارة وما العبودية : كيف تهصر هذه الأسماء قلبه وترمى به فى هوة اليأس الأليم؟ لماذالا يسل حسامه ويهجم بجواده البرق على تلك المتعالية القاسية ويحملها قوة واقتدار ويغيب بها فى بطن الصحراء، ويقول لها بصوت جهير : انظرى إلىّ، ها أنا رجل جبار وأنت امرأة ضعيفة، ابسطى هذه التقطيبة التى رسمتها على جبينك تقاليد القصر الفرعونى، ونكسى هذا الذقن الذى رفعته عادات الإمارة والسيادة، وتطهرى من هذه النظرة العالية التى تعودت أن تلقيها من عل على الركع السجود، وتعالى جاثية بين يدى، فإن شئت حبا رويتك بالحب، وإن أبيت إلا استكبارا . .

يا له من هذيان كغليان المرجل المكتوم! ويا لها من غضبة مختنقة عديمة الأثر! وها هى القافلة تسير، وها هو الهوى يلعب بالقلوب فتتمايل لسحره القدود وتفتر الشفاه، وها هى الصحراء الواسعة تشهد فى صمتها الأبدى . . يا لها من صحراء! وقد تأمل الخلاء مليا فانتشلته الرهبة من لجة أحلامه وآلامه، وأفرغت فى قلبه الإعجاب والإجلال، وكأن القافلة فى ذلك المحيط الجليل قبضة من مياه فى بحر خضم لا ترى له شطئان، وما أحرى الحدأة المحلقة أن تراها كتلة من الكتاكيت . . واها ما حبه؟ وما آلامه؟ من يحس بها فى ذلك الفضاء الفسيح؟ كم يضيع النداء فى ذلك الكون اللانهائى . فما ددف وما حبه؟!

وانتبه بغتة على صهيل جواده إلى ما حوله، وكانت القافلة تتقدم تقدما مطردا حتى بلغت مقدمتها بقعة الريان وأناخت عندها، وكانت بقعة الريان من أصلح نواحى الصحراء للصيد. وكان يمتد بها جبل ست من الشمال إلى الجنوب، وهى مأوى للحيوانات المختلفة التى يغرم الهاوون بصيدها، ويمتد من سفح جبلها إلى ما يليه شرقا تلان عظيمان يحصران بينهما رقعة واسعة من الصحراء ثم يضيقان كلما امتدا شرقا حتى لا يفصل بينهما إلا عشرون ذراعا فى مكان نادر المثال، أعدته الطبيعة للصيد والقنص والطرد.

وكان السادة يحسون ببعض التعب، فسارع الخدم والجنود إلى نصب الخيام، وعنى آخرون بتهيئة أدوات الطهى وأوقدوا النيران، وكان العمل يسير بهمة ونشاط، فما هى إلا دقائق حتى تهيأ معسكر كامل من خيام ومرابط للخيل ومطبخ ميدان، وأخذ الحرس أماكنهم وآوى الأمراء إلى الخيمة الكبرى المرفوعة على عمد من الخشب المكفت بالذهب الخالص. . واستراح الأمراء ساعة فاستعادوا نشاطهم وقوتهم، ثم قاموا للصيد.

ونصب الخدم شبكة صيد عظيمة عند مقترب التلين، وتفرق الجند على أضلاع المثلث الذى يرسمه جبل ست والتلان الملتقيان بالشبكة العظيمة، وعدا آخرون إلى سفح الجبل

ليثيروا الحيوانات المطمئنة ، فى حين امتطى الأمراء جيادهم، وتفقدوا أسلحتهم، وتوزعوا فى الميدان الفسيح وكل على أهبة الاستعداد .

وامتطت الأميرة مرى سى عنخ جوادها الكريم، ووقفت به أمام الخيمة الكبرى تشاهد الصراع المرتقب حينا بعد حين بين الإنسان والحيوان . . وكانت ترقب حركات الأمراء بعينين عظيمتى الاهتمام، والظاهر أنها استبطأت الصيد والطرد، فسألت بصوت مسموع الضباط الذين يقفون وراءها دون أن تلتفت إليهم :

ـ ما لى لا أرى صيدا؟

فأجابها صوت تعرفه حق المعرفة :

ـ ذهب الجنود ينفرونها، وعما قليل ترينها يا صاحبة السمو إذا تهبط من سفح الجبل وهى تعوى وتخور وتزأر .

وامتد نظرها إلى سفح جبل ست . وصدق الضابط فى قوله فما لبثت أن رأت فصائل من الغزلان والأرانب والأبل تنحدر فى مشياتها المختلفة جاهلة بما تخبئه لها المقادير . وتحفز الأمراء على ظهور الجياد، ثم انطلق كل إلى هدفه وابتدأت المعركة، وكانت همة الصائدين موجهة إلى مطاردة الوحوش وتوجيهها إلى مضيق التلين، حيث تنتظرها الشبكة فاغرة فاها .

وكان الأمير رعخعوف أمهر الصائدين قاطبة. وقد تبدت للعيان خفته ورشاقته، وكامل تسلطه على جواده وحسن توجيهه له، وبراعته فى محاورة الوحش وحصاره وسوقه أمامه إلى غايته المنشودة . . فلم يكن يفشل طراده ولا يخيب تصويبه، فأنهك كلابه تعبا فى طلاب ضحاياه العديدة .

وأظهر الأمير أبوور كذلك مهارة نادرة المثال، فأثار الإعجاب بسرعة انقضاضه ودقة إصابته الأهداف وخفة حركاته، وكان فارسا لا يشق له غبار .

ومضى الأمراء فى لهوهم العنيف والوقت ينطوى خلسة ساعة بعد ساعة، وكاد الصيد ينتهى فى سرور لا مزيد عليه، لولا وقوع حادث كدر الصفو وأفزع القلوب . . إذ كان الأمير رعخعوف يطارد غزالا نافرا تحت سفح الجبل، وإنه ليمر ـ فى عدوه ـ بربوة عالية، إذ اعترض سبيله وراءها أسد هائل الهيكل كاشر الأنياب، فصرخ جند كثيرون يحذرون مولاهم، ولم يكن الأمير متأهبا لمثل هذا اللقاء الخطر المفاجئ، ولكنه كان ثابت القلب صلب العزيمة فوضع يده على رمحه يريد أن يستله من قرابه، ولكن الأسد لم يمهله فوثب وثبة عظيمة وضرب الجواد بيده الجبارة على وجهه، وكان يريد فارس الجواد بنفسه فلم يبلغ إليه، وسرعان ما ثقلت أقدام الجوادوخارت قواه وترنح كالثمل وأوشك على السقوط. وكان الأسد ينكمش استعدادا لوثبة أشد من الأولى . . وتتابعت الحوادث

سراعا فتمكن الأمير من إشهار رمحه وصوبه نحو الأسد المتوثب وقذفه بقوة، وفى تلك اللحظة سقط الجواد فاقد الحياة من أثر ضربة الأسد، فأخطأ الرمح مرماه ونجا منه الأسد، ووقع الأمير الجليل على ظهره فغدا تحت رحمة الأسد الكاسر، أعزل من كل سلاح.

وفى تلك الأثناء كان الأمراء والجند والضباط يطلقون لجيادهم العنان نحو الأمير المهدد، كل يود لو يفتديه بروحه، وكان ددف يطير بجواده فى الهواء طيرا، فكان يطوى المسافة التى تفصله عن الأمير طيا سريعا، وقد سبق الجميع إليه، وصادف وصوله وثوب الأسد وثبته القاضية، فلم يضع لبه، وسل رمحه الطويل وأمسكه بيديه، ووثب من ظهر جواده المنطلق كالسهم شاهرا رمحه، فسقط كشهاب نارى على الأسد الغاضب، وانغرس رمحه فى فم الوحش ونفذ منه إلى الأرض الرملية، وصاحبه معلق به لا تدعه يداه. ولحق به الأمراء والجند وأحاطوا بالأمير، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحتضر فقضوا عليه. وحضرت الأميرة مرى سى عنخ على ظهر جوادها، وكانت مذعورة يكسو وجهها الجميل لباس الخوف والرعب، فلما رأت شقيقها واقفا معافى سليما ترجلت عن جوادها وهرعت إليه وعانقته، وهى تقول بامتنان صادر من أعماق قلبها:

- حمدا للرب الرحيم بتاح.

وأقبل الأمراء على ولى العهد يهنئونه بالنجاة، وصلوا جميعا للرب بتاح شكرا وامتنانا.

وكان الأمير رعخعوف ينظر إلى جواده القتيل بأسف ظاهر، وسار إلى جثة الأسد الذى كاد يورده حتفه فرآها والسهام تغشاها كشعر القنفذ، ثم نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالتمثال الجميل، وسرعان ما تذكره وعرف فيه البطل الذى اختاره بنفسه ليكون بين ضباط حرسه الخاص. فكأن الآلهة اختارته بيده لهذه الساعة العصيبة. وأحس الأمير نحوه بإعجاب وامتنان، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال:

- أيها الضابط الباسل، لقد أنقذت حياتى من الموت المحقق، وسأجزيك عن بطولتك العديمة المثال بما أنت أهله من الخير.

وتقدم الأمير أبوور من ددف، وكانت تهز نفسه النبيلة أعمال البسالة، فشد على يده بحرارة وقال:

- أيها الجندى الشجاع، لقد أديت للوطن والملك خدمة فوق منال التقدير.

ثم عادوا جميعا إلى المعسكر، يخيم عليهم صمت ثقيل، ويشتت نفوسهم الذهول الذى يعقب النجاة من خطر داهم، وفى أثناء الطريق قال أحد رجال حاشية الأمير أبوور له:

- لم ترض الآلهة أن تفجع قلب الملك الكبير الذى يحبس ذاته العالية فى حجرة

التابوت الموحشة، يكتب للشعب الذى يحبه رسالة النجاة من الشر والأمراض.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

واستراح السادة الأجلاء. ثم قدمت لهم مائدة الطعام ودارت عليهم كئوس مترعة بخمر مريوط. وأمر الأمير الخدم أن يوزعوا على الجند كئوسا من خمر مريوط ابتهاجا بنجاته، فشرب الجند وصلوا للرب صلاة الشكر، ثم أنشدوا جميعا نشيد فرعون بأصوات كهزيم الرعد دوت فى فضاء الصحراء، ولبثوا مالبثوا ثم تأهبوا للرحيل، فرفعت الخيام والأثقال وغنائم الصيد، وسارت القافلة على نفس الترتيب الذى أتت به. إلا أن الأمير أمر الضابط ددف أن يسير فى معيته. فأعلن بذلك عن نيته فى جعله من الخاصة المقربين.

فخفق قلب الشاب الشجاع بنشوة المجد والفرح، لأنه لا يحظى بهذا الشرف العظيم إلا الأمراء ورجال الدولة المبرزين، وأحس بسعادة لا توصف إذ يسير فى جناح هالة تتوسطها الأميرة مرى سى عنخ، وخالها تسمع دقات قلبه العنيفة الخافقة بالحب والهيام.. وما يستطيع أن يعطف رأسه إليها، ولكنه كان يرى وجهها الجميل رؤية العين، يراه فى الفضاء الممتد أمامه، ويشاهد سناه بالرغم من السمرة التى شابت الأفق إيذانا بالمغيب.

لو أنها جادت عليه بكلمة شكر مع الشاكرين، لكانت حسبه من المجد ومن الدنيا جميعا!

٢٣

وكان ولى العهد جادا فيما نوى من مكافأة ددف بما هو أهله، كأنما الأقدار اختارته من بين الخلق ليمهد للشاب السعيد طريق المجد. فلم تمض أيام قلائل على حادث الصيد حتى استقبل فرعون مصر ولى عهده وفى معيته الضابط ددف بن بشارو، وكانت مفاجأة سارة للشاب أكثر مما تهدف له أحلامه وآماله، ولكنه سار خلف الأمير رعخعوف بقلب تثبته شجاعة فائقة. واجتاز معا الردهات الطويلة ذات الأعمدة الشاهقة والحراس الجبابرة، إلى أن مثلا بين يدى من يحجب جلاله وجهه عن الأبصار.

وكان الملك رابضا على العرش، لا يدل على السنين التى بلغها سوى شعيرات بيضاء تتلألأ تحت تاج مصر المزدوج وذبول خفيف فى خديه، وتغير فى نظرة عينيه صرفها عن حدة الفتوة والجبروت إلى تأمل الحكمة والعرفان.

وقبل الأمير يد والده العظيم وقال :

ـ هو ذا يا مولاى الضابط الشجاع ددف بن بشارو الذى أنقذ بشجاعته الفائقة حياتى من بين براثن الموت المحقق، يمثل بين يدى جلالتكم كما اقتضت مشيئتكم المقدسة .

فتعطف الملك ومد إليه يده، فقبلها الشاب جاثيا باحترام دينى عميق، وقال له الملك :

ـ لقد استأهلت أيها الضابط بشجاعتك رضائى عنك .

فقال ددف بصوت متهدج :

ـ مولاى صاحب الجلالة، إنى كجندى من جنود الملك لا أعرف لنفسى غاية أسمى من أن أبذل حياتى فى سبيل العرش والوطن .

وهنا قال الأمير رعخعوف :

ـ إنى ألتمس من مولاى الملك الموافقة على تعيين هذا الضابط رئيسا لحرسى .

واتسعت عينا الشاب الذى لم يكن يتوقع هذه المفاجأة، وكان جواب الملك أن سأله :

ـ ما عمرك أيها الضابط؟

فقال ددف :

ـ عشرون عاما يا صاحب الجلالة .

ففطن الأمير إلى مغزى سؤال الملك وقال :

ـ إن العمر الطويل والحكمة والعرفان فضائل تؤهل للكهنوت يا مولاى . أما الجندى الباسل فتتخطى به شجاعته عوائق السن .

فابتسم فرعون وقال :

ـ لك ما تشاء يارعخعوف . أنت ولى عهدى ورغبتك عندى لا ترد .

فسجد ددف عند أقدام العرش وقبل الصولجان، فقال له الملك :

ـ إنى أهنئك بثقة صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف أيها القائد ددف ابن بشارو .

وأقسم ددف يمين الإخلاص للملك، وانتهت عند ذاك المقابلة، وغادر ددف القصر الفرعونى قائدا من قواد الجيش المصرى .

وكان يوم فرح عظيم فى بيت بشارو لا نظير له فى الأيام، وقد قال نافا للقائد الشاب :

ـ إن نبوءتى تتحقق أيها القائد، دعنى أصورك فى رداء القيادة .

ولكن بشارو صاح بصوته الأجش الذى زاده غرابة ضياع أربع أسنان من فمه :

ـ ليست نبوءتك التى خلقت ددف أيها المصور، ولكنه حزم والده، إذا قضت الآلهة أن يكون الابن كأبيه من المقربين إلى فرعون .

ولم تعرف زايا يوما من الأيام ضحكت فيه وبكت مثل ذلك اليوم السعيد، وقد كربها الفكر إلى غياهب الماضى البعيد المنطوى منذ عشرين عاما، وذكرت الطفل الصغير الذى أحدث مولده تنبؤات خطيرة، وأثار حربا صغيرة ذهب والده طعمة لها. . فيا للذكرى! . .

ولما خلا ددف إلى نفسه ذاك المساء ارتد إلى حالة غريبة من الحزن والوجوم، كأنها رد فعل للفرح العظيم الذى غمره طوال يومه، ولكن كانت لها أسباب أخرى ما تفتأ تأكل قلبه كما تأكل النار الهشيم. وقد رنا إلى نجوم السماء من خلل نافذته وقال وهو يتنهد:

ـ أنت وحدك أيتها النجوم التى تعلمين أن قلب ددف القائد السعيد، أشد حلكة من الظلام الذى تعيشين فى لجته الخالدة.

٢٤

وفى اليوم الثانى تقلد ددف بن بشارو منصبه الجليل رئيسا لحرس ولى العهد، وقد أحسن الأمير صنعا فنقل كبار ضباط حرسه إلى فرق الجيش المختلفة وأحل محلهم غيرهم، واستقبل الضباط الرئيس الجديد بالترحيب والاحترام والإعجاب، ولم يكد يطمئن به كرسى القيادة بحجرته الجديدة حتى استأذن الضابط سنفر فى الدخول فأذن له، ودخل الضابط يطفح وجهه بشرا فأدى التحية العسكرية وقال:

ـ أيها القائد الرئيس، لم يقنع قلبى بالتهنئة الرسمية فسعيت إليك لأصرح لك على انفراد بما يكنه قلبى لك من الإعجاب والمحبة.

فابتسم ددف ابتسامة مودة وقال بلطف:

ـ إنى أقدر هذا الشعور النبيل حق قدره يا سنفر، ولا أجد نفسى فى حاجة إلى شكرك عليه.

فقال سنفر بتأثر:

ـ لعل هذا ما يعزينى عن خسارتى فى زوال صحبتك الجميلة.

فقال له القائد الشاب مبتسما:

ـ لن تزول صحبتنا يا سنفر، لأنى انتويت من اللحظة الأولى اختيارك أمينا لى.

ففرح سنفر وقال:

ـ لن أبرح جانبك أيها القائد فى السراء والضراء.

وبعد بضعة أيام دعى ددف إلى مقابلة ولى العهد ـ لأول مرة ـ كقائد حرسه، وكانت المرة الأولى كذلك التى ينفرد به فيها الأمير، فطالع عن قرب جدة أساريره وقسوة ملامحه، وكان من عادة الأمير أن يخلص إلى غرضه رأسا فقال باهتمام:

ـ أعلنك أيا القائد بأنك مدعو مع قواد الجيش وحكام الأقاليم إلى الاجتماع بصاحب الجلالة الملك للتشاور فى مسألة طور سيناء، وتلقى الأمر بقتال القبائل. إذ توطد العزم على خوض غمار الحرب بعد طول التردد، وستشهدن مصر مرة أخرى أبناءها يحشدون لا لبناء هرم آخر، ولكن للانقضاض على بدو الصحراء الذين يهددون أمن الوادى السعيد.

وقال ددف بحماس:

ـ اسمح لى يا صاحب السمو أن أرفع إلى مقامكم العالى التهنئة لنجاح سياستكم.

فابتسمت الأسارير الحديدية وقال:

ـ إنى أثق فى بسالتك يا ددف ثقة كبرى، إنى أدخر لك مفاجأة سارة أبشرك بها بعد إعلان الحرب.

وعاد ددف من مقابلة الأمير سعيدا مغتبطا، وكان يسائل نفسه عما عسى أن تكون المفاجأة السارة التى يعده بها الأمير. والحق لقد رفعه الأمير فى غمضة عين من ضابط صغير إلى قائد عظيم، فما الذى يخبئه له من بشريات المجد والسعادة؟ فهل يدخر له حظه السعيد أسبابا جديدة للعلا والأفراح؟

وجاء يوم الاجتماع العظيم، وأتى القواد والحكام من مصر العليا والسفلى، وشهد البهو الفرعونى رءوس مصر مجتمعة فى صعيد واحد كحبات العقد الفريد، عن يمين العرش المكين وعن يساره، فجلس الحكام صفا وجلس القواد صفا، واتخذ الأمراء والوزراء أماكنهم خلف العرش، وكان ولى العهد يتوسط الأمراء، وكان الكاهن خومينى يتوسط الوزراء، وجلس على رأس الحكام سمو الأمير أبوور، وجلس فى مقابلة على رءوس القواد القائد العام أربو الذى كلل المشيب هامته.

وأعلن كبير حجاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك، فقام الجمع المحتشد واقفا، وأدى القواد التحية العسكرية، وأحنى الحكام والوزراء الهامات إجلالا، وجلس الملك وأذن لملئه فجلسوا، وكان الملك واضعا على منكبيه وشاحا من جلد الأسد، فعلم من لم يكن يعلم أن فرعون دعاهم من أجل الحرب.

واستغرق الاجتماع زمنا يسيرا، ولكنه كان على قصره رهيبا حاسما، وبدا الملك فيه قويا نشيطا، واستعادت عيناه بريقهما المعروف، وقد قال لكبراء مملكته بصوته العظيم الذى يملأ القلوب إجلالا وإكبارا:

ـ أيها الحكام والقواد، لقد دعوتكم لأمر جلل تتعلق به سلامة الوطن وطمأنينة شعبنا الأمين، فقد أبلغنى صاحب السمو الأمير أبوور حاكم أرسينة أن قبائل طور سيناء لا تنفك عن السطو على القرى النائية وتهديد قوافل التجارة، وقد دلت التجارب على أن قوات الشرطة لا تستطيع القضاء عليها قضاء يكفى البلاد شرها، وأنها لا تملك الوسيلة لغزو الحصون التى يمتنع بها رجالها، وقد آن الأوان لدك هذه الحصون وتأديب المتمردين، لدفع شرهم عن الشعب الآمن، وإعلاء كلمة الحكومة الفرعونية.

وكان القوم ينصتون إلى مولاهم فى صمت رهيب وانتباه شديد، فوضح الاهتمام على وجوههم، وتبدى التحفز على انضمام شفاههم وبريق أعينهم، والتفت الملك إلى القائد أربو وسأله:

ـ أيها القائد، هل الجيش على استعداد للقيام بواجبه؟

فقام القائد الخطير واقفا وقال:

ـ صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى ومنبع القوة والحياة، إن مائة ألف جندى بين الجنوب والشمال على كامل الأهبة للقتال، تشد أزرهم عدد حربية لا تعد ولا تحصى ويسدد خطاهم قواد مدربون، ومن الميسور تجنيد أضعاف هذا العدد فى زمن قصير.

فاعتدل فرعون على عرشه وقال:

ـ نحن فرعون مصر العليا والسفلى: خوفو بن الرب خنوم، حامى النيل وسيد بلاد النوبة، نعلن الحرب على قبائل طور سيناء، ونأمر بهدم حصونها وتأديب رجالها وسبى نسائها، إنى آمركم أيها الحكام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم، وأن يرسل كل حاكم فرقة من حامية إقليمه.

وأشار فرعون إلى القائد أربو، فاقترب القائد من مولاه، وقال له الملك:

ـ اعلم أنى لا أريد أن يزيد عدد الجيش المقاتل على عشرين ألفا.

وقام فرعون على الأثر، فقام الجميع وهتفوا باسمه بحماس عظيم وانتهى بذلك الاجتماع الخطير.

وعاد ددف فى ركاب ولى العهد، وكان الأمير مسرورا مبتهجا على غير عادته، فلم يشك الشاب فى أنه يفرح لنجاح سياسته ويفوز بالغاية التى طال تربصه بها، وتذكر ما وعده فخفق قلبه خفقان الحيرة والفرح وود لو يستطيع استنجازه وعده، على أن الأمير لم يمد له حبل القلق والحيرة فقال له وهو يدخل إلى القصر:

ـ وعدتك بمفاجأة سارة، فأعلم أنى نلت موافقة والدى الملك على اختيارك قائدا للحملة الموجهة إلى سيناء.

٢٥

وشملت مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حركة نشاط عظيم واسعة النطاق، وكان الجند يحشدون فى كل مكان، وكانت السفن الكبيرة تمخر عباب النيل آتية من الشمال والجنوب محملة بالجند والأسلحة والمؤن قاصدة إلى منف العظيمة ذات الأسوار البيضاء، فازدحمت بهم ثكنات العاصمة وأسواقها، وضج جوها بصلصلة أسلحتهم الثقيلة وأنغام أناشيدهم الحماسية، فعلم القاصى والدانى بأن حربا على الأبواب، وأن أبناء النيل ينشطون للذود عن سلامة وطنهم.

وفى فترة الاستعداد سافر الأمير أبوور إلى مقاطعته لأمور تتعلق بالحرب والاستعداد لها، وتلقى القائد ددف خبر سفره بقلب لم تنسه هموم الواجب أشجانه وهواجسه، فساءل نفسه ترى هل فاز الأمير السعيد بأمانيه الخاصة فوزه فى مهمته السياسية العامة، وهل عاد إلى مقاطعته سعيدا بإعلان الحرب وإبرام ميثاق الهوى؟ ترى ما الذى حدث بينه وبين الأميرة الجميلة ذات الدل والكبرياء؟ ماذا شهدت خمائل حديقة القصر الفرعونى من مناظر الهوى؟ وماذا سمعت أطياره من مناجاة الحب وهمساته؟ هل رأت الأميرة المتكبرة إذ تذل للناموس الذى لا يعرف الرحمة ولا يترفق بالكبرياء؟ وهل سمعتها إذ تبوح بأنات الجوى باللسان الذى تعود الأمر والنهى؟

ولكن صبرا فغدا يذهب للقتال، وإنه ليذهب بقلب لا يهاب الموت ونفس تهوى المخاطر وروح تتوق إلى المغامرات والأهوال، ليته يحقق النصر لوطنه ويدفع حياته ثمنا للنصر والمجد، فيقوم بواجبه كجندى ويخلد إلى الراحة التى ينشدها قلبه المعذب. يا له من خاطر جميل حرى بأن تنزع إليه النفس الباسلة إذ غررت بها أمانى الحب والغرور، ولكن كيف يودع الوطن وداعا لا رجعة منه دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان حبه لهوا ولعبا؟ إن قلبه ليشتاق إلى رؤية قلبها اشتياقا أليما وإن نظرة من وجهها لأعز عنده من نور البصر ونعمة السمع وطيب الحياة، وهل أحس بأفراح الدنيا وبهجة الحياة إلا على ضوء وجهها الحبيب؟ فلابد من رؤيتها ومحادثتها، وهو طلب يعز على الأحياء جميعا ولكن ما أيسره على طالب الموت..

ولم يدر القائد الشاب كيف يحقق أمنيته المنشودة، ومرت أيام الاستعداد القلائل سراعا حتى جاء اليوم الذى تقرر أن يسير الجيش غداة غده، وأرادت الآلهة أن تهبه بعد عسره يسرا، وأن تدنى إليه ما أرهقه طلبه يأسا، فجاءت الأميرة تزور شقيقها زيارة من

زيارات المفاجأة، وكان الأمير قد ذهب لتفتيش الثكنات الحربية. وعلم رئيس الحرس بمقدم الأميرة فخف طائرا إلى انتظارها، ولم تغب الأميرة طويلا داخل القصر فظهرت بوجهها الفتان وكان فى توديعها كبير الحجاب، وأقبل عليها الشاب بجسارة لم تؤاته فى محضرها إلا مرة واحدة على شاطئ النيل، وأدى لها التحية العسكرية، ثم سار فى معيتها بمفرده بعد أن تخلف كبير الحجاب عند مدخل القصر، وكان يتأخر عنها مقدار خطوتين، فاستطاع أن يملى عينيه من حسن قامتها ورشاقة قدها وفتنة حركاتها، والتهب صدره عطفا ووجدا، وتمنى لو يفرش لها قلبه تطأه بقدميها، ليحس فى سويدائه بوقع خطاها ولمس أناملها وتردد أنفاسها. يا عجبا! إن حكمة الطبيعة لا تخلو من فكاهة ممتعة. انظر إليها كيف توطئ الفوز لهذا الفارس على جميع القوى الجبارة، وانظر إليها كيف تذل عنقه لهذا المخلوق الدقيق البديع الذى لم يخلق لطعان!

وكانا يقطعان الممشى الطويل - المزدان جانباه بالورود والرياحين والتماثيل والمسلات - بخطى وئيدة. وكانت السفينة الفرعونية ترى عن بعد راسية إلى أدراج الحديقة. فتولى الجزع قلب الشاب وكبر عليه أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع، وكان قلبه يضيق بكلمة يود أن يلقيها إلى مسمعيها المحبوبين، ولكن جمودها لم يدع له فرصة للكلام ورأى المسافة تقتصر والسفينة تقترب، فاشتد به الجزع وطغت عليه موجة من الاستهتار حلت عقدة لسانه، فقال لها بصوت متهدج:

- كم أنا سعيد يا صاحبة السمو لأنى رأيتك قبل الرحيل غدا.

فبدا عليها كأنها بوغتت بقوله، وحدجته بنظرة استغراب قاسية وقالت:

- لقد بلغت أيها القائد مكانة رفيعة.. فمالى أراك تقامر بمجدك ومستقبلك؟!

فقال باستهانة:

- المجد والمستقبل يا صاحبة السمو؟ إن الموت يردهما إلى الهوان.

فقالت باحتقار:

- أرى أن والدى جعل على رأس جيشه قائدا يستحوذ على روحه قنوط الموت لا النصر والظفر!

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل وقال بإباء:

- إنى أعرف واجبى يا صاحبة السمو وسأقوم به كما ينبغى لقائد مصرى شرفته الآلهة بنيل ثقة مولاه، وسأبذل حياتى ثمنا له.

فهزت منكبيها وقالت:

- إن الرجل الشجاع لا ينسى ماضيه ولا يخرق تقاليده لواذا بالموت.

وكانت روح الاستهتار تستأثر به فى تلك اللحظة فقال:

ـ هذا حق يا صاحبة السمو ، ولكن ما حياتى إذا كانت هذه التقاليد تعقل لسانى عن البوح بما يضطرم فى فؤادى؟ أنا ذاهب غدا ، وقد تمنيت على الآلهة أن أراك قبل ذهابى . . فأذنت إلى أمنيتى ، وما كان ينبغى لى أن أجحد العطف الإلهى بالصمت والجبن .

ـ يحسن بك أن تتعلم فضيلة الصمت!

ـ بعد أن أقول كلمة واحدة .

ـ ماذا تريد أن تقول؟

فتبدى على وجهه الجميل الهيام وقال :

ـ إنى أحبك يا مولاتى . قد أحببتك حين وقع نظرى عليك ، وهى حقيقة رهيبة ما كانت تؤاتينى الشجاعة على البوح بها لسموك لولا قوتها الخارقة فى نفسى . . عفوا يا صاحبة السمو .

ـ أهذا ما تسميه كلمة واحدة؟ ومع هذا فما كان أغناك عن قولها ، لأنى سمعتها يوما قهرا على شاطئ النيل .

فاهتاجته الذكرى وهزته قولتها «شاطئ النيل» فقال :

ـ لا أمل قولها دقيقة من حياتى يا مولاتى . فهى أجل ما نطق به لسانى ، وأجمل ما سمعت أذناى .

وكانا قد بلغا الأدراج الرخامية فتولاه الجزع وقال بتوسل :

ـ أما من كلمة وداع؟

فالتفتت إليه وقالت :

ـ أستودعك الآلهة أيها القائد ، سأدعو بتاح العظيم أن يحقق على يديك النصر لوطننا المحبوب . .

ثم هبطت أدراج السلم إلى السفينة فى تؤدة ومهابة .

وتركت ددف يرنو إليها بعينين حزينتين ، ويشهد بقلب خفاق السفينة إذ تبتعد عن الشاطئ رويدا رويدا . . ولبثت الأميرة على سطحها لا تدخل مقصورتها فعلقت بها عيناه ، وما زال يرسل ناظريه حتى غيبها عنه منعطف الماء . .

وسار بخطى ثقيلة مهيض الجناح تتجمع فى صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة ، على أنه كان لددف فضيلة لا تخونه فى الملمات ، وهى أنه لا يخضع لانفعال خضوعا يضل به الصواب ويتنكب به عن السداد ، وعلمه أخوه خنى كيف يراجع نفسه ويلزمها الحق والإنصاف ، فانتحل للأميرة العذر عن قسوتها وجمودها ، قائلا إنها إذا لم تصغ جوارحها إلى شكاته ، فما ذلك إلا لأنها لاتحبه ، ليست هى ملزمة بحبه ، ولا تقع على

عاتقها خيبته المريرة، بل ما أحراه أن يقر لها باللطف والرحمة، ألم يقل لها ما لا يقال لأميرة من البيت الفرعونى؟ فماذا صنعت هى؟ لا شىء إلا أن أصغت إليه وعفت العفو الجميل، ولو شاءت لقضت عليه بالهوان وردته أسفل سافلين! فصرفت مراجعته لنفسه الثورة عن قلبه ولكنها لم تعزه عن خيبته شيئا، فانطوى على ألم حزين صامت . .

* * *

وأمضى مساء ذلك اليوم فى بيت بشارو ليودع أهله، وحاول ما استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح الذى عهدوه فيه، واجتمعوا جميعا حول مائدة العشاء: بشارو وزايا وخنى ونافا وزوجه مانا، وتوسط المائدة القائد الشاب، وتناولوا طعاما شهيا وشربوا الجعة. ومضى بشارو يتحدث فى أثناء الأكل بلا انقطاع، غير مبال بالفتات الذى يتطاير من فمه الأهتم، وقص عليهم كثيرا من قصص الحروب وخاصة الحروب التى خاض غمارها فى شبابه. وكأنما أراد أن يطمئن زايا التى دل شحوب لونها على ما يعتلج فى صدرها من المخاوف، فقال:

ـ إن أوزار الحرب تلقى فى الأغلب على عاتق الجنود، وأما القواد فيحتلون مكانًا آمنا يفكرون ويرسمون الخط.

وفطن ددف إلى مرماه، فقال:

ـ صدقت يا والدى. ولكن ترى هل أبليت بلاءك الحسن فى حرب النوبة ضابطا صغيرا أم قائدا كبيرا؟

فاستقام جسم الشيخ فخارا وقال:

ـ كنت حينذاك ضابطا صغيرا فى فرقة الرماح. . وكانت سيرتى فى الحرب إحدى المزايا التى رشحتنى فيما بعد لمنصب مفتش عام الهرم الفرعونى.

ولم تنقطع ثرثرة بشارو، وكان ددف ينصت إليه حينا ويشرد أحيانا، وربما غلبه الألم فتبدو فى عينيه نظرة حزينة، وكأن زايا كانت تلهم أحزانه إلهاما لأنها كانت صامتة ثقيلة القلب، فلم تتناول طعاما وقنعت من الوليمة بكوب من الجعة.

وأحب نافا أن تختتم تلك الليلة ختاما سعيدا، فدعا زوجه مانا إلى العزف على القيثارة وإنشاد الأغنية الجميلة: «ظفرت فى الحب والحرب» وكانت مانا ذات صوت رخيم، وكانت عازفة ماهرة، فملأت جو الغرفة نغما فاتنا وصوتا عذبا . .

واضطرمت فى قلب الشاب نار موقدة لم يصل لظاها فى الحاضرين سواه، وكان نافا أمعنهم فى الجهل والسذاجة، فقد دنا من ددف وهمس فى أذنه:

ـ أبشر خيرا أيها القائد، بالأمس ظفرت فى الحب وستظفر غدا فى الحرب. فاستولى الذهول على ددف وقال:

ـ ما معنى قولك هذا؟

فابتسم المصور ابتسامة ماكرة وقال :

ـ أتظن أنى نسيت صورة الفلاحة الجميلة؟ . . آه ما أجمل فلاحات النيل . . إن الواحدة منهن لتتمنى أن ترقد بين يدى ضابط جميل على الحشائش الخضراء التى تكسو شاطئ النيل . . فما بالك لو كان هذا الضابط ددف الجميل الفاتن؟ !

فقال له با ستياء :

ـ صه يا نافا . . أنت لا تدرى شيئا .

واهتاجه حديث نافا كما اهتاجه غناء مانا وأحس برغبة فى الفرار ، وهم بتنفيذ رغبته لولا تذكر أمه ، ولاحت منه التفاتة إليها فرآها تديم النظر إليه ، فخشى أن تقرأ صفحة قلبه بعينيها الملهمتين فيصيبها من ذلك حزن كبير ، فابتسم إليها ، وأقبل نحوها يختال فى حبور وفرح .

٢٦

وانبثق فجر الغد .

وكان القائد ددف جالسا فى خيمته وسط معسكر الجيش خارج أسوار منف ، يطلع على خريطة شبه جزيرة سيناء وسورها الكبير والطرق الصحراوية المؤدية إليها ، وكانت تشمل المعسكر حركة صاخبة ، فالخيل تصهل والعجلات تصلصل والجند تذهب وتجيء ، ويغشى الجميع نور الفجر الأزرق الهادئ .

وقد دخل الضابط سنفر على القائد وحياه باحترام وقال :

ـ أتى رسول من لدن صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف ، ويطلب الإذن بالدخول على سعادتكم .

فبدا الاهتمام على وجه ددف وقال :

ـ دعه يدخل .

فغاب سنفر لحظة ثم عاد يتقدم الرسول ثم غادر الخيمة ، وكان الرسول يرتدى ثياب الكهنوت الفضفاضة التى تغطى الجسم من المنكبين إلى رسغى القدمين ، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء ، ويرسل لحيته الكثة إلى ثغرة صدره ، فعجب ددف لمرآه ، لأنه يتوقع أن يلقى وجها مألوفا لديه من الوجوه التى يراها عادة فى قصر ولى العهد ، وسمع صوتا ـ خيل إليه رغم خفوته أنه لا يسمعه لأول مرة ـ يقول :

ـ جئت يا صاحب السعادة فى أمر خطير، فأرجو أن تأمر بإسدال الستار على الباب ويمنع الدخول إلى الخيمة بغير إذن.

فنظر ددف إلى الرسول نظرة فاحصة وكان يخالجه التردد، ولكنه هز منكبيه العريضين استخفافا واستهانة، ونادى سنفر وأمره بإسدال الستار على مدخل الخيمة وبعدم السماح لإنسان بالدنو منها، وصدع سنفر بما أمر، وحين خلا المكان نظر ددف إلى الرسول وقال له:

ـ هات ما عندك.

ولما اطمأن الرسول إلى خلو الخيمة رفع عن رأسه قلنسوته السوداء، فبدا شعر أسود غزير هفت خصلاته فسقطت على المنكبين فى ترنح رسمت هالة حول رأس بديع، ثم امتدت يد الرسول إلى لحيته فأزالها برشاقة، وفتح عينيه اللتين كان يضيقهما بمشيئته، فسطع وجه مشرق تلألأ نورا فى جو الخيمة مع أول شعاع أرسلته الشمس فى فضاء الصحراء.

وطار قلب ددف فى صدره، وهتف بصوت متهدج:

ـ مولاتى مرى سى عنخ!

خف إليها كالطير المذعور، وجثا عند قدميها ولثم أهداب ثوبها الفضفاض. وكانت الأميرة ترسل بناظريها إلى الأمام فى خفر واستحياء، وينتفض جسمها اللدن كلما أحست بأنفاس الشاب الحارة تتسلل من نسج سروالها وتهب على ساقها المعطرة.. ثم لمست رأسه بأناملها وهمست بصوت خافت: «قم». فقام الشاب تلمع عيناه بنور فرح بهيج لم يسلس قط لبيان، وجعل يقول:

ـ أحقا هذا يا مولاتى؟ أحقا ما أسمع؟ وما أرى؟

فرنت إليه بنظرة استسلام كأنها تقول له: «غلبت على أمرى فجئت إليك» فقال الشاب:

ـ إن آلهة الأفراح جميعا تشدو فى قلبى هذه الساعة، وقد أنسانى شدوها عذاب الشهور وتسهيد الليالى، ورحضت أنغامها قلبى من مرارة القنوط وظلمات اليأس، رباه! من يقول إنى أنا الذى هانت عليه الحياة بالأمس؟!

فبدا على وجهها التأثر وقالت بصوت خافت كتغريد اليمام:

ـ أهانت عليك الحياة حقا؟

فقال وعيناه تلتهمان الشفتين اللتين تنثران الحديث:

ـ نعم هانت وتمنيت الموت صادقا، والموت تشتهيه النفس التى خسرت آمالها، ولم أك

جبانا قط يا مولاتى فلبثت أؤدى واجبى، ولكن كان يعذبنى إحساس بتفاهة الغاية وعبث الجهد.

وكانت تثقل علىّ وحشة تجثم على صدرى وتغشى عينى بالظلمات.

فتنهدت وقالت:

ـ وكنت أنا أكافح كبريائى وأجاهد نفسى وألقى منهما عذابا واصبا.

ـ كم كنت قاسية على!

ـ وكنت على نفسى أشد قسوة، أتذكر ذلك اليوم على شاطئ النيل، لقد عدت يومها يدب فى أعماق قلبى قلق غريب، وعلمت فيما بعد أنه قدر لقلبى أن يستيقظ على صوتك من سباته العميق، واكتشفت هذه الحقيقة تتقاسمنى لذة المجازفة والخوف من المجهول، ثم ذكرت فخارك واعتدادك بنفسك فثرت وتمردت، وكنت كلما وقع نظرى عليك قسوت على نفسى وقسوت عليك.

فتنهد وقال بلهفة أسيفة:

ـ كم عذبنى غرورى! أتذكرين ثانى لقاء لنا فى قصر صاحب السمو؟ لقد انتهرتنى فى شدة وعنفتنى تعنيفا قاسيا، وبالأمس لم تسمعى لشكاتى وتركتنى دون كلمة وداع، فهل تعلمين كم تعذبت وكم تألمت؟ هيهات.. فليتنى اطلعت على الغيب! كانت أشد أوقاتى عبوسا أحقها بالسعادة. وكنت أشكو إلى الآلهة عذابى فتضحك من جهلى!

فابتسمت وقالت:

ـ وكانت تشهد الآلهة كبريائى فتضحك من هوانى، فهل رأيت مثلنا ألعوبة من قبل؟

ـ ولما نزل ألعوبة تستحق الرثاء، فإنى كلما أذكر ما أضعنا من وقت ثمين!

وتنهد آسفا حزينا، فقالت:

ـ على رأسى يقع وزر ذلك.

فنظر إليها بحنو وقال:

ـ فدتك نفسى من كل شر.

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت:

ـ أظن أن الوقت يقسو علينا هذه المرة.

فتنهد آسفا ونظر إليها بعينين مكتئبتين، فقالت تبث فيه روح الأمل:

ـ أمامنا مستقبل طويل مشرق بالأمل.. فتمن الحياة كما تمنيت الموت.

فقال بسعادة وابتهاج:

ـ لن يقدر الموت على قلبى . .

فوضعت إصبعها على فمه وقالت :

ـ لا تقل هذا .

ولكنه قال بحماس جنونى :

ـ ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحب من الخالدين؟

فقالت :

ـ سألبث بالقصر ، لا أبرحه ، حتى أسمع الأبواق تزف بشرى النصر والعودة !

ـ فلندع الأرباب أن تقصر فراقنا .

ـ نعم سأصلى إلى بتاح ، ولكن فى القصر لا هنا لأنه ليس لدينا متسع من الوقت .

ووضعت القلنسوة على رأسها ، فتألم لاختفاء الشعر الأسود الحالك عن عينيه وقال :

ـ أهون على أن أفارق عضوا عزيزا من جسمى !

فنظرت إليه بعينين يلتمع فيهما نور الحب والأمل ، ولكن خيل إليها أن وجهه يكفهر وصدره ينقبض وتظلل جبينه سحابة مظلمة ، فساورها القلق وسألته :

ـ فيم تفكر؟

فقال باقتضاب :

ـ الأمير أبوور !

فضحكت قائلة :

ـ هل بلغك ما تناقلته الألسن حينا من الزمن؟ يا عجبا . لا يخفى شىء فى مصر وإن كان من أسرار القصر الفرعونى ، ولكنك علمت شيئا وغابت عنك أشياء ، فالأمير إنسان نبيل سامى الخلق ، وقد حادثنى يوما ـ ونحن منفردان ـ فى الموضوع الذى أذيع ، فاعتذرت وقلت له : إنى أوثر أن أبقى صديقته ، ولا أشك أنه أحس بخيبة ، ولكنه ابتسم ابتسامته النبيلة وقال لى : إنى أحب الصدق والحرية ، وتكره نفسى أن تستذل نفسا نبيلة . .

فقال ددف بفرح :

ـ يا له من إنسان نبيل !

ـ نعم ، إنه كريم . .

ـ ألا يوجد فى أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم؟ أعنى . . أخشى فرعون ! !

فخفضت عينيها خفرا وقالت :

ـ لن يكون أبى أول فرعون يصاهر أحد أفراد شعبه المقربين!

فأطربه جوابها وأسكره خفرها، وحنت ضلوعه إليها حنينا موجعا، وامتدت يده إلى يدها ـ وكانت تهم بلصق اللحية بوجهها ـ إشفاقا من مغيب هذا الوجه الحسن المشرق، فأسلمت يدها إلى يده، وكان استسلامها عذبا ساحرا، فجثا الشاب أمامها ولثم يدها هيمان مفتونا، وقالت له:

ـ أستودعك الآلهة جميعا.

ثم ألصقت اللحية المستعارة بوجهها، وضغطت على القلنسوة حتى مست حافتها حاجبيها، فردت إلى هيئة رسول الأمير ولى العهد، وقبل أن توليه ظهرها وضعت يدها فى صدرها وأخرجت الصورة الصغيرة العزيزة التى اتخذتها الطبيعة علة لهذا الغرام الجميل، وأعطته إياها بغير كلام، فأخذها بحنو وهيام ولثمها بفمه ثم دفنها فى صدره فى مكانها الأول المعهود وألقت عليه ابتسامة وداع، وكأنما أرادت أن تضاحكه، فأدت له التحية العسكرية، وسارت فى مشية الجنود إلى الخارج.

ولم يكن الفتى الذى تركته ذاهلا من الفرح مشرق الوجه بنور الأمل هو الذى رأته حين مقدمها كاسف البال شارد الخاطر متهافت النفس، فقد بعث الحب فى نفسه بعثا جديدا وأحياها بعد موات، وزارت مخيلته ـ فى تلك اللحظة السعيدة، أطياف من ماضى قلبه، من معرض نافا الجميل، وشاطئ النيل الأخضر الفسيح، وقطيع الفتيات الحسان، ثم ذكر حزنه ويأسه وتلف نفسه الجلدة الصبور، ثم ذكر الأمل المشرق الذى أدركه فى غمرات القنوط والأحزان، فتمثلت له حقيقة الحب والحياة كنهر يسقى بستانا ناضرا تتألق أزهاره وتغرد أطياره ما جرى ماؤها عذبا، فإذا نضب معينه خوى البستان على عروشه وذوى حسنه وتجرد كفلاة مهجورة.

وأعاده إلى اليقظة دخول سنفر، وأخبره الضابط بأن كل شىء على قدم الاستعداد، فأمره بالنفخ فى الصور إيذانا بالرحيل، فانبثت على الأثر فى المعسكر حركة هائلة، وعزفت الموسيقى، وتحركت طليعة الجيش. وركب ددف عربة القيادة التى يتولى قيادتها سنفر، وركب كبار الضباط وسارت جماعتهم إلى قلب فرقة العجلات، ثم نفخ فى الصور مرة أخرى فتحركت عربة ددف فى الطليعة بين جناحين من عربات الضباط العظام، وتبعتهم فى صفوف متوازية فرقة العربات المكونة من ثلاثة آلاف عربة حربية مثقلة بالسلاح، وسارت خلفها فرق المشاة، تحمل كل علمها، تتقدمها فرقة القسى وتليها فرقة الرماح ثم فرقة السيوف، وتبع الجيش عربات المهمات الكبيرة محملة بالأسلحة والمؤن والعقاقير الطبية، تحيط بها قوة من الفرسان.

اخترق ذلك الجيش الصحراء، يهدف إلى السور المنيع الذى اتخذته القبائل وكرا آمنا.

وقد طلعت عليهم شمس الضحى ولفحهم وهج الظهيرة، وهب عليهم نسيم المغيب وهم يضربون فى الأرض كالمردة، تكاد الأرض تشكو من حمل أثقالهم ولا يشكون من شىء.

٢٧

ورؤيت عربة استكشاف تنهب الأرض صوبهم، فتطلعوا إليها باهتمام شديد، وتقدم قائدها من القائد وأخبره بأن عيونهم عثرت على جماعات من البدو منتشرين حول تل الدوما، وكان من رأى الضباط أن يسيروا إليها فرقة من الجيش لقتالهم، وبسط ددف خريطة الصحراء أمامه وبحث باهتمام على تل الدوما، ثم قال:

- إن تل الدوما يقع جنوب طريقنا، والمعروف عن أولئك البدو أنهم يسيرون جماعات صغيرة للنهب والفرار، وأنهم لا يخطر لهم على بال مهاجمة جيش جرار كجيشنا، فلا خوف علينا من مواجهة حركة التفاف.

فقال له أحد الضباط:

- أظن يا صاحب السعادة أنه ليس من الحكمة تركهم..

ولكن الشاب قال:

- لا شك أننا سنصادف فى طريقنا كثيرا من أمثال هذه الجماعات، فلو أننا سيرنا كل جماعة منها كوكبة من جنودنا لتشتتت قوتنا، فلنضع نصب أعيننا الهدف الأول، وهو اختراق سورهم الحصين وضربهم فى عقر دارهم والقبض على زعيمهم خانو..

ولكنه رأى عن حكمة أن يعزز القوة التى تحرس عربات المؤن والأسلحة.

وتقدم الجيش فى طريقه، ولم يروا فى أثناء سيرهم أثرا لرجال القبائل، وأتتهم الأخبار بأن كل من يضرب فى الصحراء منهم ولى الأدبار، حين سمع بأخبار الجيش الزاحف صوب شبه الجزيرة، فشقوا طريقا آمنا خاليا حتى بلغوا أرسينة، فألقوا عصا الترحال ليأخذوا قسطهم من الراحة وحاجتهم من المؤن، وبادر الأمير أبوور إلى زيارتهم. واستقبل استقبالا رسميا يليق بمكانته السامية، وتفقد الأمير وحدات الجيش، ومكث مع القائد وكبار معاونيه يتحدث إليهم فى شئون الحملة، وقد اقترح عليهم أن يوجدوا حلقة اتصال بينهم وبين أرسينة ليطلع على أخبارهم، وليمدهم أولا بأول بما يحتاجون إليه، وقال لهم فى ذلك:

- واعلموا أن جميع قوات أرسينة مشمرة للقتال، وأن قوات عظيمة من سرابيوم وذقعة ومندس فى طريقها إلى أرسينة.

فقال ددف:

- ندعو الآلهة يا صاحب السمو ألا نحتاج إلى قوات جديدة، احتراما لرغبة صاحب الجلالة الذى يحرص على أرواح العباد.

ونام الجيش تلك الليلة نوما عميقا هادئا، ثم استيقظ على نفخ الأبواق عند صراخ الديكة.

واستأنف مسيرة شرق أرسينة فى جلبة وعظمة، وما زالوا فى حل وترحال حتى لاح لهم عن بعد السور الكبير الذى يبتدئ جنوبا من خليج هيروبوليس. وينعطف شرقا راسما قوسا عظيما، فانعطف الجيش ناحية الشمال، ومال قليلا نحو الشرق، ثم ألقى أثقاله وعسكر فى موضع لا تصل إليه سهام المحاصرين.

واستطاعوا - من معسكرهم - أن يشاهدوا متانة بنيان السور، وأن يروا الحراس الذين يعتلونه والقسى فى أيديهم، استعدادا للذوذ عن حياضهم ضد الجيش المغير.

واتفق رأى ددف والضباط على أن الانتظار لا يجدى فى حالتهم كما قد يجدى فى حصار مدينة بتجويع سكانها، واجتمعت كلمتهم على وجوب البدء بمناوشات خفيفة ليختبروا بها قوة عدوهم.

وكان من الخطر أن تهجم العربات فى أول المعركة خشية أن يخسروا جيادهم المطهمة، فتقدم بضع مئات من الجنود المدرعين حاملى القسى فى شبه نصف دائرة، يفرق بين الواحد ورفيقه عشرات الأذرع من الخلاء، حتى إذا بلغوا موضعا ظن العدو أنه صائبهم فيه أطلق عليهم سهامه فقابلوه بمثلها، وابتدأت أول معركة بين الفريقين، وكانت السهام تنطلق جماعات كثيفة كسحب الجراد، ولكن كان أكثرها يضيع هباء لبعد المسافة..

وكان ددف يرقب المعركة باهتمام شديد، ويشاهد بإكبار مهارة الجنود المصرية فى الرماية التى أكسبتهم شهرة تقليدية لا مثيل لها، ورأى فيما رأى باب السور الكبير، فقال لسنفر:

- يا له من باب عظيم كأنه باب معبد بتاح!

فقال له الضابط المتحمس:

- عسى أن يتسع لعرباتنا التى ستخترقه بعد حين!

ولم تذهب المناوشة سدى، فقد لاحظ ددف أن رجال القبائل لم يبنوا على السور أبراجا تقى رماتهم سهام المهاجمين، فلا يستطيعون أن يرموا عن قسيهم إلا إذا تعرضوا لخطر القتال، فوضحت له فائدة الهجوم بالدروع الكبيرة المعروفة بالقباب.. وكان الدرع

من هذه الدروع أشبه ما يكون بالمحراب المجوف فى حيطان المعابد، وهو لكبر حجمه يمكن أن يخفى الجندى من الرأس إلى القدم، ولسمك جسمه يستطيع أن يرد السهام، فلا تنفذ منه إلا إذا أصابت منافذ صغيرة فى أعلاه يصوب منها حامله.

وقد أصدر ددف أمره بأن يتقدم بضع مئات بهذه الدروع لقتال حرس السور، فاصطفوا جميعا خلف دروعهم فى شبه نصف دائرة واسعة، ثم تقدموا نحو السور لا يبالون وابل السهام المتساقط عليهم، ثم وضعوا القباب على الأرض وراشوا سهامهم، وبدأت بينهم وبين عدوهم معركة عنيفة دموية تطايرت فيها رسل الموت من الجانبين، وكان رجال القبائل يتساقطون بكثرة، ولكنهم أبدوا جلدا غريبا وشجاعة نادرة المثال، فكانوا كلما سقطت منهم طائفة حلت محلها أخرى، وكانوا رغم امتناع المصريين بدروعهم الغريبة يصيبونهم خلل المنافذ الصغيرة، فسقط من المصريين قتلى وجرحى كثيرون.

ومازالوا فى قتال عنيف حتى تخضب الأفق الغربى بدم الشفق، وصدرت الأوامر إلى المصريين بالتقهقر فرجعوا القهقرى وقد نال منهم التعب كل منال.

٢٨

وكانت منف تنتظر أنباء القتال فى هدوء المطمئن، للثقة العظيمة التى توليها جيشها والاستهانة البالغة التى تشعر بها نحو قبائل البدو الناهبة، ولكن قلوبا كبيرة كانت تخفق خفقان المشفق، ويخلق لها الجنان والأوهام ويصور لها المخاوف، منها قلب عاهل النيل العظيم الذى تحول على الكبر إلى الحكمة ومضى يكتب بمداد قلبه رسالته الخالدة إلى شعبه الحبيب، ومنها قلب زايا الذى أضناه الألم وعذبه الخوف وأرقه السهاد، وقلب آخر لم يعرف من قبل معنى الألم ولا ذاق طعم الخوف، وهو قلب الأميرة مرى سى عنخ التى وهبتها الآلهة أبهى ما لديها من حسن وهيأت على الأرض لها أمتع ما فيها من الترف والنعيم، وسخرت لحبها أعظم قلوب البشر طرا، وأزلت لها قوى الطبيعة فلا يقرصها برد الشتاء ولا يلفحها حر الصيف ولا تهب عليها ريح الجنوب ولا ينفذ إليها مطر الشمال، فما زالت تمرح وتلعب حتى مس قلبها الحب كما تمس أنامل الطفل الطليق ألسنة اللهيب، فاكتوت بناره وفتحت صدرها لعذابه وهوانه..

ولم تخف حالتها على وصيفاتها، وعلى وصيفتها ناى على وجه الخصوص، وقد قالت لها يوما وهى تراقبها بعين الريبة والإشفاق:

- أتتنهد مولاتى؟ فما يفعل من لاتحنو عليه الآلهة والفراعين؟ أتجثين ضارعة متوسلة؟ فمن الذى نتوسل به ونضرع إليه؟ أتخفضين عينيك يا مولاتى؟ فلمن خلقت الكبرياء؟

ولكن حلم الأميرة لم يتسع لمداعبات وصيفتها، فكانت تؤثر فى تلك الأيام الشديدة الخلوة إلى نفسها، وكانت تود لو تستطيع أن تحافظ على قولها لحبيبها : إنها لن تغادر القصر حتى تسمع أبواق العودة الظافرة، ولكنها وجدت حنينا إلى زيارة قصر شقيقها ولى العهد لتلقى تحية قلبية على المكان الذى كان يلقاها فيه كلما ذهبت لزيارة أخيها.

وكان ولى العهد يستقبلها ويتحدث إليها، ولم يخف عنها عاطفة كانت تجهلها فيه وهى تململه من سياسة الملك، حتى قال لها مرة بلهجة الغضب :

- إن والدنا يهرم سريعا.

فنظرت إليه نظرة إنكار، فاستطرد يقول :

- حقا إنه ما يزال يحافظ على سلامة بنيته وحدة ذهنه، ولكن قلبه يشيخ ويهرم. ألا ترين أنه يولى ظهره سياسة الحكم ويميل بقلبه وعقله إلى التأمل والرحمة، ويصرف وقته الثمين فى الكتابة؟

أين هذا من واجب الحاكم القوى؟

فقالت له الأميرة بامتعاض :

- الرحمة كالقوة من فضائل الحاكم الكامل.

فقال بسخرية :

- لم يلهمنى والدى هذه الحكمة يا مرى سى عنخ، ولكنه ضرب لى الأمثال الخالدة بآثار القوة الخلاقة لجلائل الأعمال، فسخر أمة لبناء الهرم وزحزحة الجبال وترويض الصخور العاتية، وكان يزأر كالأسد الهصور فتخر القلوب فرقا ورعبا وتأتيه النفوس طوعا أو كرها. فيقتل من يشاء ويغفر لمن يشاء، ذلك هو والدى الذى أفتقده ولا أجده، ولا أرى سوى ذلك الشيخ الذى يمضى الليل إلا قليله فى حجرة التابوت يفكر ويملى، ذلك الشيخ الذى ينفر من الحرب ويشفق على الجنود كأنهم خلقوا لغير القتال.

فقالت مرى سى عنخ :

- لا تتكلم عن فرعون بهذه اللهجة أيها الأمير، لقد خدم والدنا الوطن يوما بقوته، وسيخدمه أضعافا بحكمته.

على أن زيارتها لقصر الأمير لم تكن تقطع جميعا بأمثال هذا الحديث المضنى! ففى يوم

من الأيام المعدودة فى العمر ـ وكان قد مضى على رحيل الجيش المصرى عشرون يوما ـ وجدت الأمير مغتبطا راضيا، ورأت وجهه الصلب يلين عن ابتسامة قليلا ما ترى عليه، فخفق قلبها وطار خاطرها إلى الحبيب البعيد.

فسألت شقيقها:

ـ ما وراءك يا صاحب السمو؟

فقال:

ـ بلغتنى أنباء سارة تقول إن جيشنا حاز انتصارات باهرة، وإنه عما قليل يقتحم حصن العدو.

فصاحت به:

ـ زدنى من هذا النبأ السعيد!

ـ يقول الرسول إن جنودنا تتقدم مدرعة بالقباب حتى صارت على قيد أذرع من السور، واستحال على رجال القبائل الظهور على السور، ومن تحدثه نفسه منهم بالمجازفة ترديه نبالنا قتيلا.

وكان هذا النبأ أسعد ما سمعت من شقيقها فى حياتها. وقد تركت قصر الأمير قاصدة إلى معبد بتاح، وصلت إلى الرب العظيم ودعت للجيش بالنصر ولحبيبها بالسلامة، واستغرقت فى صلاتها استغراقا عميقا لا يعرفه إلا المحبون، وعادت إلى القصر الفرعونى يدب فى قلبها الجزع، الذى يقل صبره كلما دنا من غايته.

٢٩

وكانت الجنود المصرية قد دنت من السور الحصين واستطاعت أن تمسه بأسنة رماحها، وأحاط به الرماة من كل جانب مسددين قسيهم كلما ظهر رجل أردوه قتيلا، ولم يجد العدو من حيلة إلا أن يلقى عليهم الأحجار، وأن يسدد نباله ليصيد بها من يعتلى السور منهم، وظلوا على تلك الحال زمنا يسيرا وكل فريق يتربص لغريمه، وفى فجر اليوم الخامس والعشرين للحصار أصدر ددف أمره للرماة بالهجوم العام، فانقسموا طائفتين: واحدة لمراقبة السور وأخرى تقدمت مستظلة بحماها يحمل رجالها السلالم الخشبية والدروع الطويلة والقسى والسهام، وأسندوا السلالم إلى السور وصعدوا أدراجها ناشرين أمامهم الدروع كأنها الأعلام، ثم أثبتوا الدروع على السور فبدا كحائط الحصون المصرية المدرع بالقباب، وتلقوا بها آلاف السهام التى ترامت عليهم من كل حدب

وصوب، وتساقط منهم عدد غير يسير، وأجابوا عدوهم بسهام لا تطيش ملأت الجو أزيزا مخيفا. وعلا الصياح يشق عنان السماء، واختلط هتاف الفوز بأنات الألم وصراخ الرعب، وفى أثناء القتال المستعر هجم فريق من المشاة يحملون جذوع النخل صوب الباب الكبير، وصكوه صكا شديدا دوى دويا مرعبا..

وكان ددف يقف على ظهر عربته الحربية يرقب القتال بعينين قلقتين وقلب متحفز للقتال وكان يقلب وجهه بين الجنود المعتلية للسور والمتوثبة لاعتلائه وبين الهاجمين على الباب الضخم الذى بدأت تتزعزع أركانه ويضطرب بنيانه.

وبعد زمن ليس باليسير رأى الرماة يقفزون داخل السور، ورأى المشاة من حاملى الرماح يصعدون السلالم ورماحهم مجردة ودروعهم مشهرة فعلم أن العدو أخذ يخلى مواقعه خلف السور ويتقهقر داخل شبه الجزيرة.

ومرت ساعة على قتال عنيف وانتظار جزوع، وكانت فرقة العربات ـ وعلى رأسها القائد الشاب ـ تنتظر صفوفا، ولم يلبث أن فتح الباب على مصراعيه بعد أن رفع الجنود المصريون بداخل السور مزلاجه، وأمر ددف سنفر بالهجوم، فترك للجوادين العنان، وانطلقت خلفه العربات تجلجل جلجلة الجبل المنهار، وتثير خلفها ريحا من النقع والرمال، واجتازت الباب عربة عربة، وكانت تنعطف واحدة إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، فرسمت جناحين مديدين يلتقيان فى عربة القائد، وهاجمت العدو كقبضة يد هائلة تهصر عصفورا هزيلا، وفى أثناء ذلك احتل الرماة الأماكن الحصينة والتلال العالية، وتقدمت فرقة الرماح لتحمى مؤخرة العربات، وتقاتل من يلتف للإحداق بها.

وكان سنفر يقود عربة القائد ببسالة وثبات، وكان ددف يطلق سهامه التى لا تخيب فتعرف مستقرها فى الرقاب والقلوب، وقد ولى العدو الأدبار، ومن تخلف منهم انقض عليه الجنود الزاحفون برماحهم، فلم ينج من الموت إلا هارب أو أسير أو جريح.

وانتهت المعركة الفاصلة فى ساعات قلائل، وباتت قرى القبائل تحت رحمة الجنود المحتلة، وامتلأ الميدان بجثث القتلى أو الجرحى من الفريقين، وانتشر الجند هنا وهناك بغير نظام، وأقبل الجنود المصريون يبحثون بين الجثث عن إخوانهم الأبطال الذين سقطوا فى ميدان القتال، ومضوا يحملونهم إلى المعسكر خارج السور، وأخذ غيرهم يجمعون جثث العدو ليحصوها عدا، وجعل آخرون يقيدون الأسرى بالحبال ويستولون على أسلحتهم ويجمعونهم صفوفا صفوفا، ثم أخليت القرى الصغيرة من النساء والأطفال وأحضرن جماعات جماعات وهن يصرخن ويعولن إلى جانب الأسرى، وأحاط الحرس بالجميع من كل جانب، ثم عاد الجنود كل طائفة إلى حيث نشر علم فرقتها، ووقفوا صفوفا كل فرقة على رأسها ضباطها الذين نجوا من شر القتال.

وأتى القائد يتبعه قواد الفرق، فاستعرض الجيش المنتصر الذى أدى له التحية بحماس عظيم، وسلم على الضباط البواسل وهنأهم بالفوز والنجاة، وحيا ذكرى من سقط منهم شهيدا، ثم سار مع أركان حربه إلى البقعة التى ألقيت فيها جثث الأعداء، وكانت الجثث ممددة بعضها إلى جانب البعض وقد سالت دماؤها أنهارا، ووجد على حراستها ثلة من الجند على رأسها ضابط، فسأله ددف:

ـ كم عدد القتلى والجرحى؟

فأجاب الرجل:

ـ قتل من العدو ثلاثة آلاف رجل وجرح خمسة آلاف.

فسأله:

ـ وكم عدد ضحايانا؟

فقال:

ـ قتل منا ألف وجرح ثلاثة آلاف.

فاكفهر وجه الشاب وقال:

ـ كلفتنا قبائل البدو غاليا.

وسار القائد إلى حيث يوجد الأسرى، وكانوا جمعا غفيرا تنتظمه الحبال الطويلة جماعات. وتقيد أذرعهم إلى الخلف، وقد نكست رءوسهم حتى مست لحاهم صدورهم، وألقى ددف نظرة عليهم وقال لمن حوله:

ـ سوف تهلل مناجم قفط ـ التى تشكو قحطا فى عمالها ـ فرحا بهؤلاء الرجال الأشداء.

انتقل ومن معه إلى منطقة صاخبة هى منطقة السبايا اللاتى لم يستطعن هروبا، وكانت أطفالهن تصرخ وتعول، وكن يلطمن وجوههن ويندبن حظهن ورجالهن القتلى أو الجرحى أو الأسرى أو المشردين، ولم يكن ددف يعلم بلغتهن فألقى عليهن نظرة غريبة لم تخل من إشفاق، ووقع بصره على طائفة منهن تبدو عليها آى النعيم، فسأل الضابط الذى يشرف على حراستهن:

ـ من هؤلاء النسوة؟

فقال الضابط:

ـ هن حريم زعيم القبائل.

وتأملهن القائد وعلى فمه ابتسامة، وكن ينظرن إليه بأعين جامدة لا شك تخفى خلفها نارا مضطرمة يوددن لو يسلطنها على القائد الظافر الذى أسر سيدهن واستذلهن وسامهن من بعد عزة هوانا.

شذت واحدة منهن عن نطاق أترابها وأرادت أن تتقدم من القائد، فحال بينها وبين بغيتها جندى وأشار إليها مهددا منذرا، ولكنها صاحت بالقائد باللغة المصرية المبينة:

ـ أيها القائد دعنى أقترب منك وليباركك الرب رع.

فدهش ددف ودهش من معه جميعا لطلاقة لسانها وحسن نطقها المصرى كأحد الناطقين بها، وأمر القائد الجندى أن يتركها تتقدم منه، فتقدمت بخطى وئيدة حتى دنت من الشاب وانحنت أمامه فى احترام وإجلال، وكانت امرأة فى الخمسين من عمرها وقور الطلعة فى وجهها أثر لحسن قديم عفا عليه الزمان والشقاء، وفى قسماتها شبه عجيب من بنات النيل. فقال لها ددف:

ـ أراك تعرفين لغتنا أيتها السيدة.

فتأثرت السيدة تأثرا شديدا حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

ـ كيف لا أعرفها وقد نشأت لا أعرف لغة سواها؟ أنا مصرية يا مولاى!

فزاد العجب بالشاب وأحس نحوها بعطف شديد، وسألها:

ـ أحقا أنت مصرية يا سيدتى؟

فقالت له بيقين وحزن:

ـ نعم يا مولاى، مصرية بنت مصريين.

ـ وما الذى جاء بك إلى هنا؟

ـ جاء بى حظى التعس إذا خطفنى على أيام شبابى هؤلاء الرجال الغلاظ الأكباد الذين نالوا جزاءهم على أيديكم الباسلة، وساموني سوء العذاب حتى أنقذنى زعيمهم من شرهم ليبتلينى بشره، فضمنى إلى حريمه حيث عانيت ذل الأسر وحسرته عشرين عاما..

فاشتد تأثر ددف، وقال للمرأة البائسة:

ـ اليوم ينتهى أسرك أيتها السيدة التى تربطنى بها أخوة الجنس والوطن، فقرى عينا.

فتنهدت المرأة التى قسا عليها الدهر عشرين عاما طويلة، وأرادت أن تجثو عند قدمى القائد، ولكنه أمسك بيدها برقة وقال لها:

ـ هدئى من روعك يا سيدتى.. من أى البلاد أنت؟

ـ من أون يا مولاى، مقر الرب رع.

ـ لا تحزنى لقد ابتلاك الرب بشر عظيم لحكمة يعلمها هو، ولكنه لم ينسك. ولسوف أقص على مولاى الملك قصتك وأضرع إليه أن يفك رقبتك فتعودى إلى مسقط رأسك راضية سعيدة..

فساور المرأة القلق، وقالت للقائد بتوسل :

ـ أضرع إليك يا مولاى أن ترسلنى إلى بلدتى توا، عسى أن تمن علىّ الآلهة بالعثور على أهلى .

ولكن الشاب هز رأسه وقال :

ـ ليس قبل أن أرفع أمرك إلى فرعون، لأنك الآن ـ شأنك شأن جميع هؤلاء الأسرى ـ ملك للملك ولابد من تسليم الوديعة إلى صاحبها، ولكن اطمئنى ولا تخشى شيئا، ففرعون رب المصريين لا آسرهم ولا مذلهم .

وأراد أن يدخل الطمأنينة على نفسها المعذبة، فأرسلها إلى المعسكر معززة مكرمة .

وعندما أتى مساء ذلك اليوم كان الجيش قد انتهى من دفن قتلاه وتضميد جراح جرحاه، وآوت الجند إلى الخيام تأخذ قسطها من الراحة بعد نصب اليوم المرهق، وجلس ددف أمام مدخل خيمته يصطلى نارا ويتأمل ما حوله بعينين حالمتين، وكان أعظم ما يستولى على مشاعره على الأرض تلك الأعلام المصرية الخفاقة المنشورة على السور الحصين، وفى السماء هاتيك النجوم التى كأنها عيون تتألق أبدا إعجابا بقدرة الخالق وجمال المخلوق . . وكانت تحلق بسماء خياله أطياف جميلة ـ مثل النجوم ـ تمثل لقلبه ذكريات منف السعيدة وأحلامها وآمالها، ولم ينس فى أحلامه تلك الساعة الرهيبة المقبل عليها حين يقف بين يدى فرعون، ويطلب إليه قلب أعز مخلوق إلى نفسه فى مصر . يا لها من ساعة رهيبة!! ولكن ما أجمل الحياة إذا اطردت من نصر إلى نصر، وتنقلت من سعادة إلى سعادة! ليتها تسير كذلك أبدا، وليت الأقدار ترحم الإنسان! ولكن الظاهر أن السعادة نادرة الوجود فى هذه الدنيا، وهل يستطيع أن ينسى صورة تلك المرأة البائسة التى اختطفها البدو من بين يدى سعادتها واهتصروا شبابها وساموها الذل عشرين عاما! يا للمسكينة!

نعم لم يستطع ددف أن ينسى فى سعادته وفوزه بؤس تلك المرأة . .

٣٠

وأشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء وكأنها تستقبل عيدا من أعياد الرب بتاح، فالأعلام ترفرف على أسطح البيوت والقصور، والطرق والميادين تموج بجموع الشعب كأنها عباب النيل إبان الفيضان، والجو يضج بالأناشيد تحية لفرعون والجيش الظافر والجنود البواسل .

وسعف النخل وأغصان الزيتون تلوح فى الفضاء كأنها أجنحة طير أليف تداعب هامات كللها الظفر وأطربها الفرح، وبين تلك النفوس السعيدة المغتبطة شقت مواكب الأمراء والوزراء والكهنة طريقها إلى باب المدينة الشمالى، لاستقبال الجيش المظفر وقائده الباسل.

وفى الموعد الموعود حمل النسيم أنغام موسيقى الجيش الظافر، وبدت طلائعه فى الأفق ترفرف عليها الأعلام، فتعالى الهتاف ودوى التصفيق ولوحت الأيدى بالأغصان، وغمر القوم موجة من الحماس الدافق جعلتها كالبحر المتعارك الأمواج.

وتقدم الجيش بنظامه المعهود تتقدمه جموع الأسرى مكتوفة الأذرع منكسة الذقون، تتبعها عربات كبيرة تحمل السبى من النساء والأطفال والمغانم، ثم بدت فرقة العربات يتقدمها القائد الشاب يحيط به السادة المستقبلون من كبار رجال المملكة، وتتبعه صفوف العربات الحربية المهيبة يشملها نظام دقيق رائع، وتأتى على الأثر فرق الجيش من الرماة وحاملى الرماح إلى حاملى الأسلحة الخفيفة، تتقدم صفوفا تسير كل على أنغام موسيقاها، وقد تركت أماكن من سقطوا فى المعركة الظافرة شاغرة تحية لذكراهم وذكرى لاستشهادهم النبيل فى سبيل الوطن وفرعون.

وكان ددف سعيدا فخورا ينظر إلى جموع الشعب المتحمس بعينين لامعتين. ويرد التحيات الحارة بالتلويح بسيفه العظيم، وقد فتشت عيناه فى الجموع عن الوجوه الحبيبة التى لم يداخله ارتياب فى أنها تراه وتهتف باسمه، حتى خال هنيهة أنه يسمع صوت أمه زايا وخوار والده بشارو المختال الفخور، ثم خفق قلبه خفقة شديدة اهتزت لها حناياه وتساءل ترى هل تشاهده الآن هاتان العينان السوداوان اللتان ألهمتاه الحب كما ألهمت الشمس البازغة قلوب المصريين عبادة الله؟ هل تراه فى مجده؟ وتسمع اسمه تهتف به الألوف المحتشدة؟ هل ترى وجهه الذى أضناه الشوق والبعاد؟

وتقدم الجيش فى مسيرة إلى القصر الفرعونى، وبرز الملك والملكة إلى الشرفة المطلة على الفناء الواسع المعروف بساحة الشعب، ومرت أمامهما جموع الأسرى وأثقال المغانم والسبايا وفصائل الجيش، ولدى اقتراب ددف من الشرفة الملكية جرد سيفه ومد يده تحية ولفت وجهه إلى الملكين، وكانت الأميرات حنوتس ونفر حتيس وحتب حرس ومرى سى عنخ واقفات خلف الملك والملكة، فانجذبت عيناه إلى عينين فاتنتين لهما عليه سلطان ليس لشىء فى الوجود، وتبادلت الأعين رسالة نارية خفق لها القلبان، حملت شوقا مضنى وجوى، فلو أنها مست فى سبيلها حاشية علم من الأعلام لأشعلت نارا موقدة.

* * *

ودعى القائد ددف للمثول بين يدى فرعون، فذهب بقلب ثابت ونفس مطمئنة، ومثل

فى الحضرة الجليلة مرة أخرى، وقد تعطف الملك وقدم له الصولجان، فلثمه ساجدا، ثم وضع على أعتاب العرش مزلاج باب السور الحصين الذى اقتحمه جيشه ظافرا ثم قال:

ـ مولاى صاحب الجلالة فرعون مصر العليا والسفلى، سيد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وصاحب بلاد النوبة، مولاى! لقد أيدتنا الآلهة على عمل عظيم وفتح مبين، فضمت إلى ملككم السعيد ملكا جديدا، وأدخلت فى طاعتكم أفواجا كانوا إلى أمس عصاة طاغين، وطوت تحت جناحى ربوبيتكم قلوبا خاشعة أقسمت فى ذل الأسر يمين الإخلاص لعرشكم العتيد.

فقال له فرعون الذى كلل هامته المشيب:

ـ إن فرعون يهنئك أيها القائد الظافر على إخلاصك وبسالتك، ويرجو أن تمد الآلهة فى عمرك لينتفع الوطن بمواهبك.

وتعطف فرعون ومد يده إلى القائد الشاب الذى لثمها باحترام عميق وقلبه يدق دقا عنيفا، وسأله الملك:

ـ ما عدد جنودى الذين استشهدوا فى سبيل الوطن وفرعون؟

فقال ددف بصوت خافت:

ـ استشهد من الأبطال ألف يا مولاى.

ـ وما عدد الجرحى؟

ـ ثلاثة آلاف يا مولاى.

فصمت قليلا ثم قال:

ـ إن الحياة العظيمة توجب تضحيات عظيمة، فسبحان الرب الذى يخلق الحياة من الموت.

ونظر الملك إلى ددف طويلا ثم قال:

ـ لقد أديت لى خدمتين جليلتين، فأنقذت بالأولى حياة ولى عهدى، وأنقذت بالثانية طمأنينة شعبى، فماذا تطلب؟

رباه! جاءت الساعة الرهيبة التى طالما منى نفسه بها وطالما صورت لقلبه فى الأحلام السعيدة، وكان ددف شجاعا لا يفقد جنانه فى المواقف العظيمة فقال:

ـ مولاى، ما فعلت فى الاثنتين إلا ما يفرضه الواجب على الجندى فلا أطلب لقاءهما ثمنا، ولكن لى أمنية أتقدم بها تقدم الطامع فى رحمة مولاه.

فقال الملك:

ـ وما هى أمنيتك أيها القائد؟

فقال ددف :

ـ إن الآلهة يا مولاى لحكمة تعلمها سمت بقلبى البشرى إلى سماوات مولاى الملك، فتعلق بأقدام مولاتى الأميرة مرى سى عنخ .

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة وسأله :

ـ لكن ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة؟

فارتبك ددف وخيم عليه صمت ثقيل، فابتسم فرعون وقال :

ـ يقولون إنه لا يدخل إلى قدس الرب عبد إلا كان مطمئنا إلى رضاه، وسنرى ما إذا كان هذا حقا . . !

وكان فرعون راضيا، وكأنما أراد أن يلهو قليلا، فأرسل فى طلب الأميرة مرى سى عنخ، ولبت الأميرة نداء والدها وجاءت تسعى فى جلال الحسن، ولما رأت الماثل بين يديه خفق قلبها وتولاها الحياء والارتباك، وترددت كغزال رأى رجلا . . فنظر إليها فرعون بحنان وقال بلهجة رقيقة لم تخل من سخرية :

ـ أيتها الأميرة! يزعم هذا القائد أنه غزا حصنين سور سيناء وقلبك!

فقال ددف بتوسل :

ـ مولاى . . ؟!

وأعياه الكلام فسكت مقهورا مرتبكا، ورأى فرعون قائده وقد خانته شجاعته، ورأى ابنته وقد تولى عنها الكبرياء وأضناها الحياء والارتباك، فهوى قلبه إليها، وناداها إلى جانبه، ثم نادى ددف، فاقترب الشاب فى تهيب شديد، ووضع الملك يد الأميرة على يده فى تؤدة، وقال بصوته الجليل الذى تقشعر له القلوب :

ـ إنى أبارككما باسم الآلهة جميعا .

٣١

واستقبل ددف على أثر انتهاء المقابلة الفرعونية السعيدة فترة من الزمن مقدارها اثنتا عشرة ساعة. توالت فيها الحوادث الجسام الغريبة التى تزلزل النفوس وتحطم العقول، فكانت فى عمره السعيد الهادئ مثل مسقط الشلال فى مجرى النيل الرزين الجليل . .

ماذا فعل ددف فى تلك الفترة القصيرة الحافلة بالعجائب؟

خرج من الحضرة الفرعونية فطلب مقابلة الوزير خومينى، وعرض عليه موضوع

مظلمة المرأة المصرية الأسيرة التى لا تكاد تغيب عن خاطره، وأخلى الوزير سبيلها وأحضرها إلى القائد:

وقال لها ددف:

ـ أهنئك يا سيدتى باسترداك لحريتك بعد طول الأسر. ولما كان الوقت متأخرا فستنزلين ضيفة علىّ إلى الغد، ثم تولين وجهك شطر أون مصحوبة برعاية الآلهة.

فكان جوابها أن أمسكت بيده ولثمتها بامتنان عظيم، ولما رفعت وجهها، انحدر دمعها على خديها وعنقها، واصطحب السيدة معه إلى عربته ورأى سنفر ينتظره على مقربة منها فأدى التحية له وقال:

ـ كلفنى صاحب السمو الفرعونى الأمير رعخعوف أن أبلغ القائد رغبته فى محادثته فى الحال.

فسأله ددف:

ـ أين يوجد سموه الآن؟

ـ فى قصره.

فاستقل العربة وركب معه الضابط والسيدة، وحملهم إلى قصر ولى العهد، وطلب إلى السيدة أن تنتظره فى مكانها، ودخل القصر يتبعه الضابط. وطلب مقابلة الأمير، فدعى إلى حجرته، ووجده الشاب على غير عادته مضطربا وإن حاول أن يمسك زمام نفسه، ولم يعن هذه المرة برد تحيته وابتدره قائلا:

ـ أيها القائد ددف، إنى أذكر دائما إخلاصك الذى أنقذ حياتى من موت محقق، وأرجو أن تذكر نعمتى عليك إذ كنت جنديا صغيرا فجعلتك قائدا كبيرا، وكللت هامتك بالمجد والخلود.

فقال ددف بحماس:

ـ إنى أذكر هذا ولا أنساه، وهيهات أن أنسى آلاء مولاى الأمير.

فقال الأمير:

ـ إنى أحتاج إلى إخلاصك هذه الساعة، فاصدع بما تؤمر واتبع وصاياى بعناية لا تدع للتردد سبيلا إلى قلبك. أيها القائد، لا تسرح جيشك، بل استبقه حيث هو معسكرا خارج أسوار منف، وانتظر أوامرى التى تأتيك عند مطلع الفجر، وإياك أن تتردد عن تنفيذها مهما كانت غريبة، واذكر دائما أن الجندى الباسل ينطلق كالسهم إلى هدفه دون أن يسأل مطلقه.

فقال ددف:

ـ سمعا وطاعة يا صاحب السمو .

ـ انتظر رسلى فى المعسكر عند الفجر ولا تغفل عن ذكر وصاياى .

قال الأمير ذاك ثم وقف معلنا انتهاء المقابلة ، فانحنى ددف لسموه وغادر الحجرة متعجبا شارد الخاطر متحيرا من أمره ، يقول لنفسه : ترى ما هى الأسباب التى دعت الأمير إلى أمره بإبقاء الجيش فى معسكره؟ وما عسى أن تكون الأوامر الغريبة التى ستأتيه بها الرسل عند الفجر؟ ما من عدو يهدد الوطن ، وما من عصيان يهدد الأمن ، وكل مصرى يتخذ وجهته الطبيعية تحت رعاية فرعون وحكومته ، فما وجه الحاجة إلى الجيش؟

وعاد قلقا إلى العربة التى انطلقت به والسيدة التى تصحبه ، وكان كلما اقتربت به العربة من بيت بشارو تخف حيرته وتذهب وساوسه ويتحول عقله إلى أهله الذين ينتظرونه على الجوى بعد أن طال الشوق به وبهم ، ووصلت العربة إلى البيت فأدخل السيدة حجرة الضيوف ، وصعد إلى الأعزة المشوقين ، فتلقته أمه زايا بذراعين مفتوحتين ، وانهالت عليه بالقبل وضمته إلى صدرها بشدة ولم تتركه إلا حين انتزعه من يديها بشارو وهو يقول :

ـ أهلا بالابن الظافر ، والقائد الباسل !

وقبله فى خده وجبهته . ثم عانق ددف أخويه خنى ونافا ، وسلم على زوج الأخير وكانت تحمل على ذراعها طفلا رضيعا ، فقدمته إليه وهى تقول :

ـ انظر إلى سميك ددف الصغير ! . سميته باسمك عسى أن توفقه الآلهة للمجد كعمه العظيم .

فنظر ددف إلى نافا وحمل الصغير بين ذراعيه وقبل شفتيه الرقيقتين ، وقال لأخيه :

ـ يا له من صورة جميلة !

فابتسم نافا الذى كان سعيدا بابنه سعادته بفنه ، وأخذ الطفل بين يديه .

ووجد ددف الفرصة سانحة لإعلان خطبته السعيدة ، فقال لنافا :

ـ لن تكون أبا وحدك يا نافا .

فانتبه الجميع إلى قوله ، وصاح نافا بفرح :

ـ هل اخترت شريكتك أيها القائد؟

فأحنى ددف رأسه قائلا :

ـ نعم .

فنظرت أمه إليه بعينين يتألق فيهما الفرح وقالت :

ـ أحقا يا بنى ما تقول؟

فقال بهدوء :

ـ نعم يا أماه .

فصاحت به :

ـ من هى ؟

وسألت مانا باهتمام شديد :

ـ من هى ؟

وقال نافا ضاحكا :

ـ أنت قادم من ميدان القتال ، فهل عشقت إحدى السبايا ؟

فقال الشاب بهدوء وفخار :

ـ هى صاحبة السمو مرى سى عنخ .

فصاح الجميع :

ـ مرى سى عنخ ! . . ابنة فرعون ! !

فقال :

ـ هى دون غيرها .

وملكت الجميع دهشة عظيمة ، واهتزت قلوبهم بسعادة طاغية جعلت الكلام عسيرا ، وقص عليهم ددف قصته وذكر نعمة فرعون عليه ودموع الفرح تشرق بعينيه الجميلتين ، ولم تتمالك زايا نفسها فبكت ، وكانت تصلى للرب بتاح الواهب المنان ، واهتز بشارو طربا فجعل يروح ويجىء بجسمه المنتفخ المتهدل ، أما نافا فقد قبل الشاب السعيد واسترسل يضحك ضحك الفرح والابتهاج ، وباركه خنى وأكد له أن الآلهة لا تقضى بهذه الأمور الجليلة إلا وهى ترسم له غاية مجيدة لم يفز بها إنسان من قبل ! ومضى كل منهم يعبر عما يختلج فى ضميره من الفرح والسعادة .

وذكر ددف السيدة التى تركها فى حجرة الضيوف ، فقام من فوره وذكر لهم بسرعة قصته ، وقال لأمه :

ـ أرجو أن تكرمى مثواها يا أماه حتى تترك بيتنا .

فقالت أمه :

ـ سأنزل يا بنى للترحيب بها .

وصحب ددف أمه ودخلا إلى حجرة الضيوف معا ، وهى تقول :

ـ أهلا بك يا سيدتى . . لقد حللت فى بيتك . .

ونهضت السيدة من جلستها وأحنت قامتها المثقلة بهوان السنين وذل الأيام ، ثم مدت

يدها إلى مضيفتها الكريمة، فالتقت عينا المرأتين لأول مرة، وبسرعة البرق نسيتا ما كانتا فيه من تبادل التحايا، ونظرتا كل منهما إلى الأخرى بغرابة وكأنما تجهد نفسها لاختراق الحجب الكثيفة التى وضعها الزمان على وجه الماضى البعيد، واتسعت عينا المرأة الغريبة وصاحت فى دهشة جنونية:

ـ زايا.. !

فتولى الذعر زايا وجعلت تنظر إليها بذهول شديد، وجعل ددف يقلب وجهه بينهما فى حيرة وهو يعجب للمرأة التى عرفت أمه مع أنها قضت عشرين عاما من حياتها فى منفاها، وسألها دهشا:

ـ كيف عرفت أمى يا سيدتى؟

ولكن المرأة لم تأبه لقوله، ولعلها لم تسمعه قط: لأنها كانت منتبهة إلى زايا بكل وجدانها، وقد ضاقت بخرسها فصاحت بها:

ـ زايا.. ! زايا.. ! ألست زايا.. مالك لا تتكلمين؟.. تكلمى.. أيتها الخادمة الخائنة.. تكلمى.. وقولى ماذا فعلت بابنى؟!.. أين ابنى أيتها المرأة؟

ولم تتكلم زايا ولا تحولت عيناها عن المرأة الغاضبة، ولكن أعياها الاضطراب ومزقها الخوف فجعلت ترتجف وحاكى وجهها وجوه الموتى، فأمسك ددف بيدها الباردة وأجلسها إلى أقرب مقعد، ثم تحول إلى المرأة فى غضب وقال بجفاء:

ـ كيف تؤاتيك الجرأة على توجيه مثل هذا الكلام إلى أمى أيتها السيدة التى أكرمتها وأنقذتها من عذاب الأسر؟

وكانت المرأة تلهث بشدة كالمحتضر، فتأثرت لكلام القائد الذى أنقذها. وأرادت أن تتكلم، فأعياها الحصر، فما استطاعت إلا أن تشير إلى أمه كأنما تقول له: سلها هى.

فانحنى الشاب إلى أمه بحنو وسألها برقة:

ـ أماه... هل تعرفين هذه المرأة؟

فلم تقل زايا شيئا، ولم تطق المرأة سكوتها فقالت وقد عاودها غضبها:

ـ سلها: هل تعرفين رده ديديت زوج رع؟ سلها: هل تذكر المرأة التى هربت معها حاملة طفلها الصغير من عشرين عاما فرارا من الطغاة؟.. تكلمى يا زايا، قولى له كيف فررت تحت جنح الظلام؟ وكيف خطفت ابنى الرضيع؟ وكيف تركتنى فى مجاهل الصحراء نفساء يائسة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، حتى عثر بى الوحوش وأخذونى أسيرة وسامونى سوء العذاب وذل الأسر عشرين عاما؟.. تكلمى يا زايا.. وقولى ماذا فعلت بطفلى؟.. تكلمى..

فاشتدت الحيرة بددف وهمس فى أذن أمه متألما:

ـ أماه . . سامحينى ، أنا الذى أحدثت لك هذا العذاب ، أنا الذى جئت بهذه المرأة التى أفقدها الحزن رشادها ، سامحينى يا أماه . . سأطرد هذه المرأة .

ولكنها أمسكت بيده تمنعه ، فسألها بتوسل :

ـ لماذا لا تتكلمين يا أماه؟ . . هل تعرفين هذه المرأة؟

فأنت زايا أنينا مؤلما ، وقالت لأول مرة بعد أن غشيها الذهول :

ـ لا فائدة . . تحطمت حياتى . .

فصاح الشاب بصوت كزئير الآساد :

ـ أماه لا تقولى هذا . فدتك نفسى يا أماه!

فتنهدت بحرقة وقالت :

ـ أوه يا ددف العزيز ، بالله لم أقترف سوءا ولم أتعمد شرا ، ولكن كان القدر يقضى بما ليس فى مقدور إنسان دفعه رباه! كيف تنهار حياتى دفعة واحدة؟!

فكاد الشاب يجن من الألم وقال :

ـ أماه! لا تنسى أنى إلى جانبك أدفع عنك كل سوء ، ما الذى يحزنك؟ سواء لدى ما يطويه ماضيك من خير أو شر ، وما يهمنى أن أعلم شيئا إلا أنك أمى وإنى ابنك الذى ينصرك ظالمة ومظلومة ، شريرة وخيرة . أتوسل إليك ألا تبكى وأنا إلى جانبك .

ـ هيهات أن تستطيع معونتى!

ـ محض أوهام يا أماه! أى خطب هذا؟

ـ لن تستطيع معونتى يا ددف العزيز . . رباه! كم بنيت من الآمال ولكنى أقمتها على شفا جرف هار ، فما كادت تستوى حتى انهارت إلى الحضيض مخلفة قلبى خرابا تنعق فيه الغربان .

واشتد التأثر بالشاب وتحول غاضبًا إلى المرأة ، ولكن هذه لم تلن وما انفكت تسأل زايا قائلة :

ـ قولى لى أين ابنى؟ أين ابنى؟

وبهتت زايا هنيهة ، ثم وقفت بحالة عصبية وصاحت بالمرأة :

ـ أتظنين أننى غادرة يا رده ديديت؟ كلا لم أك غادرة قط . لقد سهرت عليك ذاك اليوم العصيب ، ولكن هاجمنا البدو فلم أر مناصا من الهرب ، وأشفقت على طفلك من أذاهم فحملته على ذراعى وعدوت به كالمجنونة ، فكان فرارى ضرورة طبيعية ، وكان وقوعك بين أيديهم قضاء محتوما . ثم عنيت بطفلك ووهبته حياتى ، ونفعه

حبى فنشأ رجلا تفخر به الأم، وها هو ذا يقف أمامك، فهل رأيت مثله إنسانا من قبل؟

وتحولت رده ديديت إلى ابنها وأرادت أن تتكلم، فلم يطاوعها لسانها، ولم تستطع إلا أن فتحت ذراعيها وهرعت إليه وشبكتهما حول عنقه وشفتاها ترتعشان بهذه الكلمة. «ابنى.. ابنى». وكان الشاب ذاهلاً كأنه يرى حلما عجيبا، فبقى ساكنا ينظر تارة إلى زايا التى غدا وجهها يحاكى وجوه الموتى، وأخرى إلى المرأة المتعلقة به التى تعاطيه قبل الأمومة وتحتويه بصدرها الخفاق، ورأت زايا استسلامه، وشاهدت فى عينيه نظرة حنو وعطف، فأنت يائسة وولتهما ظهرها، ثم فرت من الحجرة كالدجاجة المذبوحة.

وأتى ددف حركة، ولكن ازداد تعلق المرأة به وتوسلت إليه قائلة:

ـ ابنى.. ابنى.. هل تترك أمك؟

فجمد الشاب فى مكانه وألقى على وجهها نظرة طويلة، فرأى الوجه الذى حرك قلبه من النظرة الأولى، ورآه هذه المرة أعظم طهرا وجمالا وبؤسا، فخفق قلبه وفاضت نفسه حنانا، ومال رأسه نحوها بغير شعور حتى ضغطت شفتاه على خدها. وتنهدت المرأة بارتياح واغرورقت عيناها بالدموع، ثم انتحبت باكية، فأخذى يهدئ من روعها، وأجلسها على ديوان وجلس إلى جانبها، وكفكفت دموعها، وكان لا يزال موزعا بين الذهول وبين هذا الحب الجديد.

ونظرت إليه المرأة وقالت:

قل لى: يا أماه.

فقال لها بصوت خافت:

ـ أماه..

ثم قال بحيرة:

ـ ولكنى لا أكاد أفهم شيئا..

فقالت له:

ـ ستعلم كل شىء يا بنى..

قالت ذلك ثم سردت عليه قصتها الطويلة، وحدثته عن ولادته وما أحاطه بها من التنبؤات الخطيرة وما أعقبها من الحوادث الجسام، حتى الساعة السعيدة التى ردت روحها إلى صدرها برؤيته حيا سعيدا جليلا.

٣٢

وساقت الأقدار بشارو إلى سماع قصة رده ديديت عن غير قصد، فإنه أراد أن يبالغ فى إكرام ضيفة ددف فنزل لاستقبالها بنفسه، وصادف وصوله خروج زوجه زايا جريا كالمجنونة، فأخذه العجب واستولت عليه الحيرة ودنا من باب الحجرة فى حذر فوصل إلى مسمعيه صوت رده ديديت التى كانت تفيض بالحديث فى حالة عصبية أنستها أن تخفت من صوتها، فاسترق السمع، وأنصت مع ددف إلى قصة المرأة من مبتداها إلى منتهاها!

ثم انسحب من مكانه فى خفة وحذر وقصد إلى حجرته لا يلوى على شىء، وقد اكتسى وجهه بهيئة جد ورزانة واهتمام ندر أن عرفها وجهه إلا فى الملمات، ونبا به مقعده فجعل يروح ويجىء مضطرب النفس مشتت البال مهتاج الخاطر، وكان يفكر فيما سمع ويديره فى عقله المبلبل ويقلبه على وجوهه المختلفة، حتى أضنى التفكير المحموم رأسه وجعله كقطعة الحديد المنصهرة وقال لنفسه بصوت مسموع كأنه يحدث شخصا غريبا:

ـ بشارو! أيها الشيخ البائس. إن الآلهة تبتليك بمحنة شديدة.

وأى محنة!

ددف الجميل العزيز الذى احتضنه طفلا رضيعا فأنقذه من الجوع والفقر، ورعاه بعين الأبوة الرحيمة حابيا وصبيا وغلاما يافعا، ورباه تربية أبناء النبلاء ومهد له سبيل النجاح فكان رجلا يزن أمة من الرجال، ومنحه عطف الأب وقلبه. وتقبل منه محبة الابن وبره. ددف العزيز الجميل تظهره الأقدار على حقيقته فإذا به عدو لفرعون! إذا به الوسيلة التى ادخرها الرب رع لقلقلة العرش المكين وطعن ربه الجليل وسلب حق ولى عهده النبيل، وتأبى الأقدار إلا أن تطلعه ـ وهو خادم فرعون الأمين ـ على هذه الحقائق الهائلة فى ساعة من ساعات القضاء التى تدبرها من وراء الغيب ويلبسها هيئة المصادفات. فأى محنة، وأى ابتلاء!

وصاح بشارو مرة أخرى يحدث نفسه قائلا:

ـ بشارو! أيها الشيخ البائس.. إن الآلهة تبتليك بمحنة شديدة.

واشتد الكرب بالرجل وثقل على صدره القلق، فمضى يحدث نفسه بحزن وألم قائلا:

ـ ددف أيها العزيز، لتكن ابن العامل الشهيد أو وريث كاهن رع الأعظم، فلحقا إنى أحبك حبى خنى ونافا، وإنك لم تعرف أبا سواى..

ولهذا منحتك اسمى رحمة ومحبة. والله إنك لشاب يفيض الإخلاص من طبعه فيض الشعاع من الشمس، ولكن يا أسفا لقد ادخرتك الآلهة وأنت الأمين لأكبر خيانة عرفها التاريخ، خيانة رب العرش المكين، خيانة عهد خوفو مولانا العظيم، خوفو الذى نعلم أبناءنا التسبيح باسمه قبل أن نلقنهم حروف الهجاء. واها أيتها الأقدار! لماذا تلتذين بتعذيبنا؟ لماذا ترميننا بالمحن والويلات فى أوقات سعودنا؟ وماذا كان يضيرك لو ختمت حياتى كما بدأت هنية سعيدة راضية؟!

وازدادت حالته سوءا وأحس بدنو أجله، فدلف إلى المرآة وألقى نظرة على وجهه الحزين الأسيف، وقال يخاطب صورته:

- بشارو!.. أيها الرجل الذى لم يؤذ إنسانا فى حياته، هل يكون ددف العزيز أول ضحية تمتد لها يدك بالأذى؟ يا للعجب! ولماذا كل هذا العذاب؟ لماذا لا تطبق شفتيك وكأنك لم تسمع شيئا؟ رباه. إن الجواب حاضر. إن قلبك لا يستريح لأنه قلب بشارو مفتش الأهرام وخادم الملك، بشارو الذى يعبد واجبه عبادة. هنا الداء. أنت تؤمن بالواجب. حقا أنت لم تؤذ إنسانا ولكنك لم تحد عن الواجب قط.. والآن أيهما ترى أولى بالاتباع؟ الواجب أم تجنب الأذى؟ يستطيع أى تلميذ فى مدرسة منف الأولية أن يبتده الجواب ابتداها. إن بشارو لن يختم حياته بالخيانة، كلا لن يبيع مولاه.. فرعون أولا.. وددف ثانيا.. وتنهد من قلب محزون أليم، ونفس طعنتها الحسرة بخنجر مسموم.. وأبعد عن مخيلته أطياف ددف وزايا وأخذ يرتدى ثيابه الرسمية بعزم ثابت.

ثم غادر حجرته بخطوات ثقيلة وهبط إلى حديقة البيت، ومر فى طريقه بحجرة الضيوف، ورأى ددف واقفا ببابها يدل مظهره على التأمل العميق والاهتمام، فخفق قلبه لرؤياه خفقانا غريبا، واضطرب كل شيء فيه، واضطربت نفسه وصدره وجفناه، وتحاشى النظر إلى عينيه وأشفق من أن يحادثه فتنم لهجته على ثورة قلبه، ونظر الشاب إلى ثياب أبيه الرسمية نظرة غريبة، وسأله بصوت ضعيف:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا.. أبتى؟

فقال بشارو وهو يسرع فى خطاه:

- إلى واجب لا يؤجل يا بنى.

ثم ركب عربته وقال للسائق:

- إلى القصر الفرعونى..

وانطلقت العربة فى طريقها، وكانت جيوش الليل تتجمع فى الآفاق للانقضاض على

النهار المحتضر الذى غاب عنه حارسه فتأمل بشارو الجو بعينين حزينتين ونفس مقبضة وقلب مظلم كالليل الزاحف، وقال لنفسه وهو يتنهد آسفا محزونا :

ـ عرفت الواجب ذا مشقة ولذة، وها أنا أتجرعه مرا لا لذة فيه كالسم الزعاف .

٣٣

قصت رده ديديت قصتها الحزينة وعيناها لا تكفان عن البكاء، وكان ددف يجلس إلى جانبها يستمع إلى صوتها المتهدج ويحس بأنفاسها الحارة تتردد على وجهه، ويديم النظر إلى عينيها الدامعتين الحبيبتين وقلبه آخذ فى الخفقان يكاد يتمزق من الألم والحنان والإشفاق .

وحين انتهت من سرد مأساتها سألت ابنها :

ـ من كاهن رع يا بنى؟

ـ شودا رع!

فقالت :

ـ يا أسفا قضى أبوك ضحية لا ريب فى هذا .

فقال ددف بصوت الداهش الذاهل :

ـ إن الدهشة تذهلنى عن نفسى يا أماه! . . بالأمس القريب كنت ددف بن بشارو وأنا اليوم شخص جديد يحفل ماضيه بالفواجع، ولد الساعة من أب قتيل وأم بائسة عانت ذل الأسر عشرين عاما! يا للعجب . . كان مولدى شؤما، فمعذرة يا أماه!

ـ لا تقل هذا يا بنى الحبيب ولا تحمل نفسك الطاهرة وزر الشيطان الرجيم .

ـ يا للتعاسة! أيقتل أبى وتلاقين العذاب عشرين عاما؟

ـ فلترحمنا الآلهة يا بنى . . انس أحزانك وفكر فى الخلاص . . إن قلبى لا يطمئن .

ـ ماذا تعنين يا أماه؟

ـ الخطر ما يزال محدقا بنا يا بنى . ويهددك اليوم من أنعم عليك بالأمس .

ـ يا للعجب! أيكون ددف عدوا لفرعون؟ أيكون فرعون الذى يهبنى كل يوم من نعمائه ويضفى على من أفضاله قاتل أبى ومعذب أمى؟

ـ هيهات أن يسكت العجب عمن يراقب الناس والدنيا . . فهيا يا بنى إلى الخلاص، لأنى لا أريد أن أفقدك اليوم وما وجدتك إلا بعد عذاب السنين .

ـ إلى أين يا أماه؟

ـ بلاد الرب واسعة.

ـ كيف أفر فرار الجناة وما اقترفت ذنبا؟

ـ وهل كان اقترف والدك ذنبا؟

ـ إن طبعى يأبى على الفرار.

ـ أشفق على قلبى الذى يمزقه الخوف.

ـ لا تخافى يا أماه، إن إخلاصى وخدماتى للعرش يشفعان لى عند الملك.

ـ لن يشفع لك شىء إذا علم أنك غريمه القديم الذى خلقته الآلهة ليرث عرشه.

فاتسعت عينا الشاب دهشة وقال:

ـ أرث عرشه؟! يا لها من نبوءة ضالة!

ـ أضرع إليك يا بنى أن تطيعنى ليطمئن قلبى.

فأخذها بين يديه وضغط عليها بحنو وقال:

ـ عشت عشرين عاما لا يعلم أحد بسرى، ولا أنا نفسى. قد طواه النسيان ولن يبعث مرة أخرى.

ـ لا أدرى يا بنى لماذا أفرق وأتطير.. لربما زايا.

ـ زايا! لقد دعوتها أمى عشرين عاما طويلة، وإذا كانت الأمومة رحمة ومحبة وبذل نفس فهى أيضا يا أماه، لن تشى بنا زايا أبدا.. إنها امرأة بائسة كملكة مخلصة فقدت عرشها على حين فجأة..

وقبل أن تفتح فاها دخل خادم مسرعا وأخبر القائد بأن أمينه سنفر يرجو لقاءه فى الحال وبدون أدنى إبطاء، فعجب الشاب لأن سنفر كان معه منذ زمن قصير، وهدأ روع أمه واستأذن منها وخرج لمقابلة سنفر فى الحديقة، ووجد الضابط قلقا نافد الصبر مضطربا، وحين رآه سنفر أقبل عليه مسرعا وقال له بسرعة دون تحية أوسلام:

ـ سيدى القائد.. لقد أطلعتنى المصادفات على حقائق خطيرة الشأن تنذر بشر مستطير!

فخفق قلب ددف والتفت دون إرادة إلى حجرة الضيوف وهو يسائل نفسه: ترى ما الذى تخبئه الأقدار من الحدثان الجديدة؟

ثم التفت إلى أمينه وسأله:

ـ ماذا وراءك يا سنفر؟

فقال الضابط بلهجة مضطربة:

ـ دخلت أصيل اليوم إلى مخزن الخمور لأنتقى زجاجة نبيذ جيد، وفيما أنا أفتش عن ضالتى ـ وكنت واقفا إلى جانب الكوة المطلة على الحديقة ـ إذ وصل إلى مسمعى صوت رئيس الحجاب ولى العهد يحادث شخصا غريبا هامسا فلم أتبين حديثه. ولكنى سمعت جيدا ما ختمه به من الدعاء للأمير رعخعوف الذى سيصبح فرعون مصر عند الفجر! فانتفض جسمى هولا ورعبا، وأيقنت أن جلالة الملك انتقل إلى جوار أوزوريس، ونسيت ما أنا فيه من التفتيش وهرعت خارجا إلى ثكنات الجند، فوجدت الضباط يقصفون ويتسامرون كعادتهم حين الراحة، فظننت أن الخبر المشئوم لم يبلغهم بعد. ولم أحب لنفسى أن أكون نذير الشر فانسللت إلى الخارج واستقللت عربتى وتوجهت بها إلى القصر الفرعونى فلعلى أقف على حقيقة الخبر، فوجدت القصر هادئا، وأنواره تتلألأ كالكواكب الزاهرة، والحراس يروحون ويجيئون فى طمأنينة ودعة، فلم أرتب فى أن رب القصر يتمتع بالحياة والصحة. فعجبت لما سمعت بأذنى فى مخزن الخمور، وفكرت فيه طويلا فساورتنى المخاوف وتوزعتنى الهواجس، ولاح لخاطرى شخصك مصادفة فكان لى ما تكون المنارة لسفينة ضالة تكالبت عليها الأمواج الهوج والرياح العاصفة والظلمات المحيطة فوليت وجهى نحوك وجئت على عجل أروم عندك حسن التدبير.

فسأله ددف باضطراب وقد نسى همومه الشخصية وما صادفه فى يومه من العجائب:

ـ أواثق أنت من أن أذنك لم تخدعك؟

ـ ثقتى بوجودى أمامك الآن.

ـ أكنت ثملا؟

ـ لم أذقها فى يومى هذا.

فنظر إليه الشاب نظرة جامدة وسأله بصوت خيل إليه أنه صوت غريب:

ـ وما الذى فهمته من هذا؟

فصمت الضابط صمتا رهيبا كأنه يتحامى بصمته الجواب ويدعه للقائد نفسه، وفهم ددف صمته على حقيقته فخفق قلبه وسها إليه، وذكر فى تلك اللحظة وصايا الأمير رعخعوف الغريبة وأمره إياه بعدم تسريح الجيش وانتظاره أوامره عند الفجر واتباعها مهما كانت غريبة، ورجعت به الذاكرة القهقرى فذكر ما حدثه به سنفر هذا الواقف أمامه يوم التقائهما الأول فى حرس الأمير عن أخلاق ولى العهد ونفاد صبره وتبرمه. ذكر هذا كله بسرعة وارتياح. ماذا وراءك أيها الغيب؟ هل فرعون فى خطر؟ هل هنالك خيانة؟!

وسمع سنفر يقول بحماسة:

ـ نحن جنود رعخعوف ولكننا أقسمنا يمين الإخلاص للملك. والجنود جميعا جنود فرعون إلا خائنا.

فعلم أن وساوس سنفر تلتقى بوساوسه، فقال:

ـ أخشى أن يكون الملك فى خطر!

ـ أنا لا أرتاب فى ذلك، وينبغى أن نفعل شيئا أيها القائد.

ـ إن الملك يلبث عادة أغلب ليله فى جوف الهرم مع وزيره خومينى يملى عليه كتابه العظيم، فينبغى أن يوجه انتباهنا إلى الهرم. أخشى أن يغدروا به فى حجرة التابوت.

ـ دون هذا والمستحيل، ففتح باب الهرم سر لا يعلمه إلا ثلاثة: الملك وخومينى وميرابو، والهضبة المحيطة بالهرم عامرة ليل نهار بالحراس وكهنة المعبود أوزوريس.

ـ هل يسير فى ركاب الملك أحد من حرسه؟

ـ كلا، إن العاهل الكبير الذى وهب حياته مصر لا يشعر بحاجة إلى حرس فى وطنه وبين رعاياه، واعتقادى يا سنفر ـ إذا صدقت شكوكنا ـ أن الخطر يجثم فى وادى الموت، فهو طريق طويل خال من الآدميين تغرى وحشته الغادر بالتربص لفريسته.

فسأل سنفر وهو يلهث:

ـ وما الذى ينبغى عمله؟

ـ إن مهمتنا مزدوجة يا سنفر: أن ندرأ الخطر عن الملك ونقبض على الخائنين.

ـ ولو كانوا من الأمراء؟

ـ ولو كان بينهم ولى العهد نفسه!

ـ سيدى القائد، ينبغى ألا نعتمد على حرس ولى العهد.

ـ نطقت بالحكمة يا سنفر، ولا حاجة بنا إليه، فلدى جيش باسل لايتردد جندى من جنودى عن بذل حياته فى سبيل مولاه.

فأضاء وجه الضابط وقال:

ـ فلندع الجيش بلا إبطاء.

ولكن القائد الشاب وضع يده على كتف أمينه المتحمس وقال:

ـ الجيش لا يدعى إلا لقتال جيش مثله، وعدونا ـ إذا صدقت ظنوننا ـ نفر قليل يلوذ بالظلام ويدبر غدره بليل، فينبغى أن نتربص له ونضربه الضربة القاضية قبل أن يسدد إلينا ضربته.

ـ ألا يرى سيدى القائد أنه يحسن بنا أن نحذر فرعون؟

ـ بئس الرأى يا سنفر، إننا لا نملك دليلا على هذه الخيانة المروعة سوى شكوكنا، وقد

تكون محض أوهام فلا نستطيع أن نقيم العذر لفرعون عن اتهامنا الخطير لولى عهده.

ـ فما العمل يا سيدى القائد؟

ـ العمل الحكيم أن أختار بضع عشرات من الضباط الذين أثق فى شجاعتهم، وستكون من بينهم يا سنفر، ثم نقصد فرادى خفية إلى وادى الموت، ونوزع أنفسنا على جانبيه فى حذر وعناية وننتظر. ينبغى ألا نضيع الوقت سدى إذ يجب أن نسبق عدونا إلى كمينه فنراه ولا يرانا.

ولم يضع الشاب وقتا، ولكنه لم يستطع بالرغم مما هو بسببه من أمر خطير أن ينسى أمه، فذهب بها إلى جناح نافا وعهد بها إلى زوجه مانا، وعاد إلى سنفر وركب معه عربته وانطلقا بها إلى معسكر الجند خارج أسوار منف، وكان يحادث نفسه قائلا: فهمت الآن لماذا أمرنى الأمير أن أنتظر أوامره عند الفجر فهو يدبر حيلة لقتل والده، وفى نيته إذا تحققت غايته أن يأمرنى بالزحف بالجيش على العاصمة للقضاء على قوة الحرس الفرعونى ورجال الملك المخلصين أمثال خومينى وميرابو وأربو وغيرهم من بطانة الملك، فيخلو له الجو ويعلن نفسه الجزوع ملكا على مصر. يا للخيانة السافلة!

لا شك أن صبر الأمير نفد، ولكن طمعه سيقضى على آماله وهى قاب قوسين أو أدنى.. فهل تصدق شكوكنا يا ترى أم أننا نتخبط فى ضلال الأوهام؟

٣٤

وطلع الفجر فدبت الحياة مرة أخرى فى هضبة الهرم المقدسة، وتجاوبت فى السماء نداءات الحراس ونفخ الأبواق وترتيلات الكهنة، وعند ذلك فتح باب الهرم وخرج منه شبحان ثم أغلق مرة أخرى، وكان كل منهما يتلفح بدثار سميك أشبه بعباءة الكهنة التى يرتدونها فى حفلات القربان، قال أقصر الرجلين قامة:

ـ إنك يا مولاى تجهد ذاتك العلية إجهادا قاسيا.

فقال الملك:

ـ الظاهر يا خومينى أننا كلما تقدم بنا العمر نرد إلى الطفولة مرة أخرى، فما أشبه ولعى بهذا العمل المجيد بانكبابى فى زمن مضى على القنص وركوب الخيل. ينبغى أن أضاعف مجهودى يا خومينى، فما تبقى من العمر إلا أقصره..

فقال الوزير الأمير ويداه مبسوطتان:

ـ أطالت الأرباب بقاء الملك .

ـ فلتستجب الآلهة دعاءك حتى أتم رسالتى .

ـ لست مناعا للخير ولكنى أتمنى أن يخلد مولاى إلى الراحة والدعة .

ـ كلا يا خومينى . لقد شيدت لى مصر مثوى روحى وما أهبها إلا حياتى الفانية!

وكف الرجلان عن الحديث، وصعد الملك إلى العربة الملكية، وركب الوزير وقبض على اللجام وسارت الجياد خببا، وكانت العربة كلما مرت بجماعة من الكهنة أو الجنود سجدوا تحية واحتراما، وما برحت الجياد تجد فى السير حتى قطعت أرض الهضبة واجتازت حدودها إلى وادى الموت الذى يؤدى إلى أبواب منف، وكانت الظلمة ما تزال حالكة والسماء ملأى بالنجوم يخالها المتأمل لشدة توهجها هابطة إلى فلك أدنى، وقد شملها جلال ساحر تخبت له القلوب وتفتتن الأفئدة .

وتوسطت العربة وادى الأبدية، وكان الملك ووزيره يجلسان هادئين متأملين، وسمعا بغتة أحد الجوادين يصهل بشدة ويقفز عاليا ثم يسقط على الأرض، وأعاق سقوطه العربة عن المسير فتوقف الجواد الثانى، وعجب الرجلان وهم الوزير بالنزول ليرى ما أصاب الجواد، ولكنه قبل أن يتحرك صرخ بألم وصاح :

ـ الحذار يا مولاى . . لقد أصبت .

فأدرك فرعون أن مخلوقا أصاب الجواد وأردف بوزيره، وظنه من قطاع الطرق فصاح بصوت شديد :

ـ إلى الوراء أيها الجبان : من يريد أن يغتال فرعون؟

ولكنه سمع صوتا كالرعد يصيح : «إلى يا سنفر» . فنظر إلى مصدره ـ وهو يسند خومينى إلى صدره ـ فرأى شبحا قادما من جانب الوادى الأيمن كالسهم المنطلق، وسمعه يصيح مرة أخرى :

ـ اختبئ يا مولاى خلف سور العربة .

ثم رآه يقف فى طريق شبح آخر آت من الجهة اليسرى، واشتبك الاثنان فى قتال عنيف، وتبادلا طعنات قاتلة بسيفيهما، ثم صاح أحدهما وسقط على الأرض قتيلا بغير شك . . ترى من الذى سقط : الصديق أم العدو؟ ولم تطل الحيرة بالملك لأنه سمع صوت المنقذ يقول :

ـ هل مولاى بخير؟

فأجابه :

ـ نعم أيها الشجاع، ولكن أصيب وزيرى .

سمع الملك مرة أخرى صلصلة سلاح وراء العربة، فالتفت بسرعة فرأى ثلة من الجنود

تلتحم فى قتال عنيف، ورأى الرجل الشجاع الذى قتل عدوه ينضم إليهم وينصر فريقا على فريق، فوقف الملك الأعزل يشاهد المعركة وهو كظيم.

ورجحت كفة رجال الملك وتساقط أعداؤهم واحدا فواحد، وألقى الرعب فى قلوبهم أن شاهدوا عن بعد كوكبة من الفرسان قادمة تعدو من ناحية الهضبة المقدسة حاملة المشاعل هاتفة باسم الملك الجليل، فزلزلوا زلزالا شديدا وركنوا إلى الفرار. ولكن كان الذين قاتلونهم أشداء جبابرة فأمعنوا فيهم قتلا ولم يبقوا منهم على أحد.

وأحاط الفرسان بعربة الملك، وألقت مشاعلهم ضوءا على الوادى فظهرت جثث القتلى، وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك وقد سالت الدماء الزكية من جباههم وأعناقهم.

وتقدم رئيس الفرسان من عربة الملك، ولما شاهد مولاه واقفا حمد الرب وقال وهو يجثو راكعا:

ـ كيف حال مولانا الملك؟

فترجل فرعون وهو يسند وزيره وقال:

ـ فرعون بخير بفضل الأرباب وشجاعة هؤلاء الرجال.. ولكن كيف أنت يا خومينى؟

فقال الرجل بصوت ضعيف:

ـ بخير يا مولاى.. إصابتى فى ساعدى وليست بذات خطر. فلنصل جميعا شكرا لبتاح الذى أنقذ حياة الملك.

ونظر الملك فيما حوله فرأى القائد ددف، فقال له:

ـ أهنا أنت أيها القائد ددف؟ كأنك تأبى إلا أن تدين الأسرة الفرعونية جميعا؟ فانحنى الشاب فى احترام عظيم وقال:

ـ حياتنا جميعا فداء لمولاى.

فسأل الملك:

ـ ولكن كيف حدث هذا؟.. يبدو لى أن ما وقع لم يكن حادثا تافها وليد المصادفات، وأكاد ألمح فى الظلام خيانة أحبطت بإخلاصكم وشجاعتكم.. ولكن دعونا نرى وجوه القتلى أولا.. وليبدأ بهذا الذى سدد إلينا سهما طائشا..

وسار فى اتجاه العربة وددف وسنفر ورئيس الفرسان يسيرون بين يديه بالمشاعل وخومينى يتبعه فى خطوات بطيئة، فعثروا بالجثة على بعد قريب، وكان صاحبها منبطحا على وجهه والسهم القاتل فى جنبه الأيسر ويئن أنينا أليما، فاضطرب الملك لسماع أنينه وسارع إليه وأماله على ظهره وألقى نظرة قلقة، ولما تبين وجهه صرخ بقوة:

ـ رعخعوف . . ابنى . . !

ونسى فرعون جلاله ونظر فيمن حوله كأنه يستغيث بهم على دفع بلاء لا مرد له، وأمعن النظر ثانية فى وجهه الملقى تحت قدميه، وقال بحزن وفزع :

ـ أأنت الذى حاولت الفتك بى؟

ولكن الأمير كان يعانى ألم النزع الأخير ويتيه فى غيبوبة الاحتضار، فلم ينتبه إلى العيون المرتاعة المحدقة به، وجعل يئن أنينا موجعا وصدره يعلو وينخفض بشدة، فتملك ددف الرعب والألم وكأن تلك الفاجعة تبغته بغير نذير، وساد الجميع وجوم ثقيل نسى فيه خومينى آلام ذراعه وجعل يختلس نظرات الإشفاق من وجه الملك وهو يدعو الرب أن يكفيه شر تلك الساعة : وكان فرعون ينحنى على ابنه المحتضر وينظر إليه بعينين جامدتين جعلهما الحزن كبحيرتين راكدتين . . وكانت نفسه جياشة مضطربة تعترك فيها العواطف المتناقضة والأفكار المتنافرة، وهو بين هذه وتلك مستسلم للجمود. ولبث يديم النظر إلى وجه ابنه المعذب الذى ذهب عنه الجلال وسكنت حركة جسمه إلى الأبد.

وظل الملك ملازما لجموده الغريب زمنا ليس بالقصير، ثم استعاد جلاله وثباته، فاعتدلت قامته، والتفت إلى ددف وسأله بصوت غريب :

ـ أخبرنى أيها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه المأساة.

وأخبر ددف مولاه بصوت متهدج حزين بما قصه عليه الضابط سنفر، وصارحه بالشكوك التى وسوست فى صدريهما وما دبرا من حيلة لإنقاذ مولاهما . .

يا للآلهة!

كان يروح ويجىء مطمئنا ففاجأه الغدر من حيث لم يحتسب، من ولده الأعز وولى عهده، وأنقذته الآلهة من الشر العظيم، ولكن اقتضت مشيئتها لذلك ثمنا غاليا هو الروح التى صعدت الآن ملوثة بأشنع إثم حمل وزره إنسان . . فنجا من الهلاك ولكنه لم يهنأ بالفرح، وقتل ولى عهده ولم يدر كيف يحزن . . وطالعته الدنيا بأنكد وجوهها وهو فى نهاية الطريق . . !

٣٥

وعاد الملك وصحبه إلى القصر الفرعونى، وكان الصباح قد زان الكون بشمس مشرقة، وأحس العاهل الكبير بتعب وخور فآوى إلى مخدعه سريعا واستلقى على فراشه، وانتشر الخبر الأسيف فى رحاب القصر فخفقت له القلوب خفقان الأسى والحزن

والهلع، وزلزل له فؤاد الملكة ميرتيتفس واضطرمت فيه نار موقدة لا تقوى مياه النيل بأسرها على إطفاء جذوة منها، ولحقت المرأة بزوجها العظيم تستغيث بقربه من ويل هذا الشر وتطلب فى محضره العزاء والطمأنينة. فوجدته نائما أو كالنائم، فلمست بأناملها الباردة جبينه ووجدته ساخنا كأنه كتلة من النار يتصاعد منها حمم، فهمست بصوت خافت:

ـ مولاى!

وانتبه الملك إلى صوتها وفتح عينيه بحالة هياج مستعر، وجلس فى فراشه بعنف غريب، ونظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، وقال بصوت جنونى لم تعهد سماعه من قبل:

ـ أتبكين أيتها الملكة القاتل الأثيم؟

فقالت بذلة ودموعها ذوارف:

ـ إنى أبكى حظى التعس يا مولاى.

فصاح بها بغضب جنونى:

ـ لقدولدت لى مجرما أيتها المرأة.

ـ مولاى.

ـ واقتضت الحكمة الإلهية أن تورده حتفه لأن العرش لم يخلق ليجلس عليه المجرمون!

فصاحت المرأة مولولة:

ـ الرحمة يا مولاى! رحمة بقلبى وقلبك! لا تحدثنى بهذه اللهجة التى ترعبنى. إنى بحاجة إلى العزاء، فهلا تناسيت الذكرى الأليمة، كان ابننا وما أحقه بالرثاء الآن!

فهز رأسه هزات عنيفة جنونية وقال:

ـ أراك تترحمين عليه!

ـ يحق لنا أن نبكيه يا مولاى. ألم يخسر الدنيا والأبدية؟

فأمسك الملك رأسه وقال بذهول:

ـ رباه.. ما هذا الجنون الذى يدور فى رأسى؟ ما هذه الضربات التى تتوالى على رأس فرعون؟ كيف لهذا الرأس بحمل تاج المصريين بعد الآن وهو ينوء بالشعيرات البيضاء التى أبقاها الدهر له. أيتها الملكة، إن فرعون يعانى عهدا جديدا بالحياة ولن ينفعك توجعك، فإلىّ بأبنائى وبناتى.. إلىّ بأصدقائى جميعا.. نادى خومينى وميرابو وأربو وددف. هيا..

وغادرت الملكة التعسة مخدع فرعون وأرسلت فى طلب الأمراء والأميرات والأصدقاء، ودعت من نفسها طبيب الملك الخاص كارى.

ولبى الجميع النداء وحضروا سراعا واجمين، ينوءون بصمت مرهق كأنهم يقصدون إلى مأتم رهيب، ودخلوا مخدع الملك فلم يلبث فراشه أن صار بين صفين من آل بيته وأصدقائه المقربين، وكان الملك ما يزال مهتاجا عنيفا زائغ البصر فنظر إلى طبيبه كارى وقال بعنف:

ـ لماذا أتيت أيها الطبيب ولم أدعك؟ لقد لازمتنى أربعين عاما طوالا لم أشك إليك فى أثنائها مرة، وأحر بمن يستغنى عن الطبيب فى حياته أن يستغنى عنه فى مماته.

فاضطربت النفوس لذكرى الموت، وهالها ما ترى من هياج الملك واختلاط أعصابه. أما الطبيب كارى فقد ابتسم برقة وقال:

ـ مولاى يحتاج لجرعة..

وقاطعه الملك صائحا:

ـ دع مولاك واغرب عن وجهى.

فبان الحزن على وجه الطبيب وقال بصوت خافت:

ـ مولاى، قد لا يمتثل الطبيب لأمر مولاه أحيانا.

فاشتد الغضب بالملك وقلب عينيه الزائغتين فى وجوه الواقفين الواجمين، وصاح بهم:

ـ ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ ألا تحركون ساكنا؟ يا للعجب! هل لوثت الخيانة القلوب جميعا؟! هل هان فرعون على جميع أبنائه وأصدقائه؟ أيها الوزير خومينى قل ما جزاء من يعصى فرعون؟

فتقدم خومينى فى إعياء ظاهر من الطبيب وهمس فى أذنه فانحنى الرجل لمولاه وتقهقر إلى الوراء حتى غادر المخدع، ودنا خومينى من فراش مولاه وقال:

ـ هدئ روعك يا مولاى، فما يريد الرجل إلا الخير، أيريد مولاى أن أحضر له كأسا من الماء؟

وخرج الوزير من الحجرة قبل أن يؤذن له، وأعطاه الطبيب كارى كأسا ذهبية من الماء مذاب فيه دواء مسكن، فحمله الوزير إلى مولاه. وتقبله الملك من يد وزيره وشربه حتى الثمالة، وجاء أثره سريعا فهدأت حركات الملك العنيفة وعاودت عينيه نظراتهما المألوفة، ورد إلى وجهه المحتقن لونه الطبيعى، ولكن بدا عليه هزال وخور بالغان.

وتنهد الملك تنهدا عميقا وقال:

ـ ويل للإنسان من الشيخوخة والضعف! . . إنهما يهزءان بأشد الجبابرة!

ونظر إلى الجمع الملتف بفراشه وقال:

ـ أيها السادة . . لقد كنت حاكما جبارا، أشهر فى يمناى الفاصل بين الحياة والموت، وأنطق بالقوانين والشرائع، وألهم الطاعة والعبادة. ولم أغفل فى حياتى لحظة عن توخى الخير والإصلاح، وأردت ألا ينتهى انتفاع العباد بى بانتهاء حياتى على الأرض فكتبت رسالة مطولة فى الطب والحكمة سيدوم الانتفاع بها ما دامت الأمراض لا ترحم الإنسان وما دام الإنسان لا يرحم نفسه . . وامتد بى العمر كما ترون. وأرادت الآلهة أن تبتلينى ببلاء شديد لحكمة أجهلها، واختارت ابنى آلة لها وجردت جيوش الشر فى قلبه فانقلب عدوا لى وتربص بى فى الظلام يريد اغتيالى، ولكن كتبت لى النجاة ودفع الابن التعس حياته ثمنا لبضع ساعات يمتدها عمرى . .

فقال الجمع برجاء:

ـ أطال الله بقاء الملك.

فرفع الملك يده فساد سكوت وعاد يقول:

ـ أيها السادة لقد حمت النهاية، وقد دعوتكم لتسمعوا كلمتى الأخيرة، فهل أنتم مستعدون؟

فأشرق خومينى بالدمع وقال:

ـ مولاى . . لا تذكر الموت . . ستنكشف هذه الغمة وتعيش طويلا لمصر ولنا.

فابتسم فرعون وقال:

ـ لا تحزن أيها الصديق خومينى، فلو كان الموت شرا يدفع لخلد مينا على عرش مصر، ولذلك فخوفو لا يحزن للموت ولايخشاه، وإن الموت لأهون من شرور كثيرة تشوه وجه الحياة . . لكن أريد أن أطمئن على تركتى العظيمة . .

ثم التفت إلى أبنائه ينظر إليهم واحدا فواحدا كأنه حاول أن يقرأ ما يظهرون وما يبطنون، ثم قال:

ـ أراكم تكاتمون قلقا خفيا ولهفة مستترة، ويرمق الواحد منكم أخاه بعين الريبة والحنق. كيف لا وقد مات ولى العهد، واحتضر الملك وكلكم طامع فى العرش راغب فيه، وما أنكر أنكم فتية نبلاء وعلى خلق عظيم ولكن أريد أن أطمئن على تركتى وعلى إخوتكم.

فقال الأمير رعباوف وكان أكبر الأمراء سنا:

ـ أبتى ومولاى، مهما فرقت قلوبنا الأهواء فهى تأتلف على طاعتك، وإن مشيئتك لدينا لهى الشريعة المقدسة التى تلزمنا طاعتها بغير قسم.

فابتسم الملك ابتسامة حزينة، وسها إليهم بعينيه اللتين جرى بمحجريهما الذبول وقال:

- أحسنت القول يا رعباوف، والحق أقول لكم إنى فى هذه الساعة الرهيبة أجد من نفسى قوة عظيمة على السمو على العواطف البشرية، وأحس بأبوتى للعباد تغلب على أبوتى للأبناء، فأعينونى على قول الحق وفعله.

وعاد إلى تفرس وجوههم ثم استطرد:

- يظهر لى أن كلامى لا يقع منكم موقع الإعجاب، والحق أنى لا أجحد أبوتى لكم ولكنى أجد بين يدى من هو أحق بالعرش منكم ومن توليه للملك حرى بأن يصون لكم أخوتكم طاهرة. هو شاب علت به همته إلى القيادة قبل الأوان، وحققت له شجاعته نصرا عزيزا للوطن، وأنقذت بطولته حياة الملك من الخيانة، وإياكم أن تقولوا كيف يتولى العرش من ليس يجرى فى عروقه دم الفراعين، فهو زوج الأميرة مرى سى عنخ التى يجرى فى عروقها دم الملك والملكة معا.

فبدت الدهشة على وجه ددف وتبادل ومرى سى عنخ نظرات الذهول، وبوغت الأمراء ورجال الدولة مباغتة ألجمت ألسنتهم وحيرت أعينهم. واتجهوا جميعا بأنظارهم إلى ددف.

وكان الأمير رعباوف أول من خاطر بتمزيق هذا السكون فقال:

- مولاى إن إنقاذ حياة الملك واجب على كل إنسان وليس هو بالعمل الذى يتردد عنه مخلوق، فكيف يكون جزاؤه العرش؟

فقال الملك بلهجة صارمة:

- أراك تقدح شرر العصيان بعد أن تغنيت بأناشيد الطاعة منذ حين، أيها الأبناء إنكم أمراء المملكة وسادتها، وسيكون لكم الجاه والنفوذ والثراء، وسيكون العرش لددف. هذه وصية فرعون يلقيها على أبنائه بحق ما له عليهم من واجب الطاعة، فليستمع إليها الوزير ليتعهدها بسلطانه وكلمته، وليستمع إليها القائد ليسهر على تنفيذها بقوة جيشه، هذه وصية خوفو الأخيرة يتركها بين يدى من أحبهم وأحبوه وعاشرهم بالحسنى فعاشروه بالمحبة والإخلاص.

وساد صمت رهيب لم يجرؤ أحد على تعكيره، وخلا كل إلى أفكاره، حتى دخل رئيس الحجاب وسجد للملك ثم قال:

- مولاى، إن مفتش الأهرام بشارو يضرع إلى جلالتكم أن تسمحوا له بالمثول بين يديكم، فقال الملك:

- دعه يدخل فهو منذ الساعة من آل بيتى.

ودخل بشارو بقامته القصيرة وجسمه المتهدل وسجد بين يدى فرعون، وأمره الملك بالقيام وأذن له بالكلام.

فقال الرجل بصوت خافت:

ـ مولاى، أردت المثول بين يدى جلالتكم ليلة أمس لأمر هام، ولكن أتى مجيئى بعد ذهاب مولاى إلى الهرم، فاضطررت إلى الانتظار على جزع حتى الصباح.

فسأل فرعون:

ـ وماذا وراءك يا أبا ددف الباسل؟

فقال الرجل بصوت أشد خفوتا وهو ينظر إلى الأرض:

ـ مولاى لست أبا لددف ولا ددف ابنا لى.

فعجب فرعون لإنكار بشارو، وقال بتهكم:

ـ بالأمس أنكر ابن أباه واليوم ينكر أب ابنه!

فقال بشارو بتألم وحزن:

ـ مولاى! تعلم الآلهة جميعا إنى أحب هذا الشاب محبة الأب لابنه، وما كنت أقول هذه الكلمة لولا أن إخلاصى للعرش أكبر فى نفسى من شتى العواطف الإنسانية.

فزاد عجب الملك وبدا الاهتمام على وجوه الحاضرين جميعا، وخاصة الأمراء الذين تمنوا للشاب شرا ينقذهم من قضاء الملك، وردد الجميع أنظاره بين المفتش بشارو وبين ددف الذى امتقع لونه وجمد بصره.

وسأل الملك مفتش أهرامه:

ـ ماذا تعنى أيها المفتش؟

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجرة:

ـ مولاى.. إن ددف هذا ابن كاهن رع السابق «من رع».

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة تلوح فيها الأحلام. وازداد اهتمام الجمع المنصت، وقلقت أعين خومينى وميرابو وأربو، أما فرعون فتمتم بذهول وروحه تسبح فى ظلمات الماضى البعيد وهو يحدث نفسه:

ـ رع!.. من رع كاهن رع..!

وكان المعمار ميرابو أشد ذكرا لذلك اليوم الهائل الذى حفرت حوادثه فى وجدانه، فقال بغرابة:

ـ ابن من رع؟! هذا بعيد عن التصديق يا مولاى، لقد مات من رع وقتل طفله فى ساعة واحدة.

وأتت الذكرى فرعون فى هالة من النيران، فارتجف قلبه الضعيف المتهالك وقال:

ـ نعم، لقد ذبح ابن من رع على فراش ولادته، فما هذا الذى تقوله أيها الرجل؟

فقال بشارو:

ـ مولاى، لا علم لى الطفل الذى ذبح، كل ما أعلمه تاريخ قديم. . أتانى خبره مصادفة أو عن حكمة يعلمها الرب، فكان ابتلاء لقلبى الذى يتعلق بهذا الشاب أيما تعلق، ولكن إخلاصى للعرش يهيب بى إلى روايته. .

ثم قص بشارو على مولاه ـ وعيناه تذرفان الدمع الغزير ـ قصته مع زايا وطفلها الرضيع من مبتداها إلى الساعة الرهيبة التى وقف يسترق بها السمع إلى قصة رده ديديت الغريبة. . ولما انتهى الرجل الحزين أحنى رأسه على صدره ولازم الصمت.

واستولت الدهشة على الحاضرين، ولمعت أعين الأمراء ببريق أمل خاطف، أما الأميرة مرى سى عنخ فقد اتسعت عيناها هلعا ورعبا واصطرع فى قلبها الخوف والأمل والألم. . وركزت بصرها على وجه أبيها. . أو على فمه كأنها تريد أن تمنع بروحها كلمة قد يكون فيها القضاء على سعادتها وآمالها. .

والتفت الملك بوجهه الشاحب إلى ددف وسأله:

ـ أصحيح ما يقول هذا الرجل أيها القائد؟

فقال ددف بشجاعته المعهودة:

ـ مولاى! إن ما قاله السيد بشارو حق لا ريب فيه.

فنظر فرعون إلى خومينى ثم إلى أربو ثم إلى ميرابو يستغيث بهم من هول هذه العجائب، ثم قال:

ـ ما أعجب هذا!

وألقى الأمير رعباوف على ددف نظرة نارية وقال بتشف:

ـ الآن حصحص الحق!

ولكن فرعون لم ينتبه إلى قول ابنه واستطرد يقول بصوت حالم خافت:

ـ حدث منذ نيف وعشرين عاما أن أعلنت على الأقدار حربا شعواء تحديت بها إرادة الآلهة، فجردت جيشا صغيرا سرت على رأسه بنفسى لقتال طفل رضيع، وكان كل شىء يبدو لى كأنه يسير وفوق مشيئتى فلم يزعجنى داع من دواعى الشك قط، وظننت أنى نفذت إرادتى وأعليت كلمتى، وكذا بالحقيقة اليوم تهزأ بطمأنينتى،

وإذا بالرب يصفع كبريائى، وها أنتم أولاء ترون كيف أنى أجزى طفل رع على قتله ولى عهدى باختياره خلفا لى على عرش مصر. فما أعجب هذا أيها الناس!

وأحنى فرعون رأسه حتى استند ذقنه على أعلى صدره وراح فى تأمل عميق. وعلم الجميع أن الملك يبرم قضاء لن يرد فساد صمت رهيب، وانتظر الأمراء على جزع، والخوف والأمل يصطرعان فى قلوبهم اصطراعا عنيفا، ورنت الأميرة مرى سى عنخ إلى والدها بعينين محملقتين أطل منهما ملاك حسن يتضرع ويتوسل، وترددت الأعين اللامعة ببريق الاهتمام بين رأس الملك المنكس وبين الشاب الباسل الذى وقف فى ثبات عظيم مستسلما للأقدار. ونفد صبر الأمير رعباوف فقال لوالده بقلق:

ـ مولاى، إنك تستطيع بكلمة واحدة أن تحقق قضاءك وتنصر إرادتك!

فرفع فرعون رأسه كمن يستيقظ من نوم ثقيل ونظر إلى ابنه طويلا، وأدار عينيه فى وجوه الحاضرين ثم قال بهدوء:

ـ أيها السادة، إن فرعون تربة صالحة كأرض مملكته يزدهر فيها العلم النافع، ولولا جهل الفتوة وعماية الشباب ما قتلت نفوسا بريئة بغير ذنب.

وساد الصمت مرة أخرى، ومنيت نفوس بالخيبة المريرة، وطعنت بخنجر اليأس المسمومة أما الأميرة الجميلة مرى سى عنخ فتنهدت، تنهدت من أعماق صدرها بصوت مسموع وصل إلى أذن الملك فعرف مصدره، ونظر إليها بعطف وحنان، وأشار لها بيده فهرعت إليه كحمامة تتعلم الطيران، وانكبت على يده.

ونظر الملك إلى وزيره خومينى وقال:

ـ إلىّ أيها الوزير بأوراق البردى لأختم حكمتى بأبلغ عظة تعلمتها فى حياتى. أسرع فما بقى من العمر إلا لحظات..

وأحضر الوزير ملفات البردى فوضعها فرعون على حجره، وأمسك بالقلم ومضى يكتب حكمته الأخيرة، وكانت مرى سى عنخ جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة، وكتمت الأنفاس، فما كان يسمع إلا صرير القلم.

وانتهى فرعون فرمى القلم فى إعياء شديد، وقال وهو يسلم رأسه إلى الوسادة:

ـ تمت رسالة خوفو إلى شعبه الحبيب.

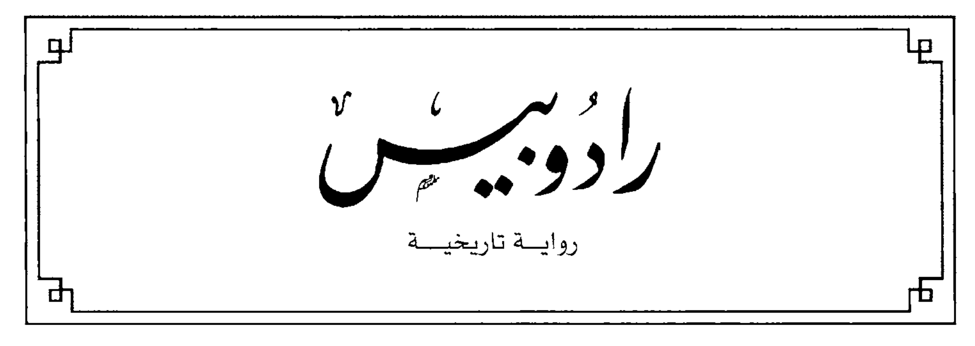
ومضى فرعون يتنهد تنهدًا عميقا ثقيلا، ولكنه قبل أن يستسلم إلى الراحة نظر إلى ددف وأشار إليه، فاقترب الشاب من فراش الملك وقف كالتمثال، فأخذ فرعون يده ووضعها على يد مرى سى عنخ ووضع يده النحيلة على يديهما ونظر إلى القوم وقال:

ـ أيها الأمراء والوزراء والأصدقاء، حيوا جميعا ملكى الغد.

فلم يتردد إنسان، واتجهوا جميعا بأنظارهم إلى مرى سى عنخ وددف وأحنوا الهامات.

ونظر فرعون إلى سماء الحجرة وسها إليها لا يحرك ساكنا. فقلقت الملكة ومالت عليه قليلا فرأت وجهه وقد اكتسى بنور سماوى كأنما يرى بعين بصيرته وجه أوزوريس العظيم يرنو إليه من العلا.

(تمت)



المحتويات

عيد النيل

لاحت فى الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس، المنطوى فى أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة. وكان الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين، أضناهما التعب طوال الليل.

وإنه لفى تطلعه إذ عثر بصره بالشعرى اليمانية، يتألق نورها فى كبد السماء، فتهلل وجهه بالبشر، وخفق قلبه بالفرح، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الرب سوتيس فى أفق السماء، تحمل إلى الوادى بشرى فيضان النيل المعبود، وتسير بين يدى رحمته. وأيقظ صوته الجميل النيام. فهبوا

من نومهم فرحين، وقلبوا وجوههم فى السماء . . حتى قرت أعينهم على النجم المعبود، فرددوا ترتيلة الكاهن، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة. وردد جو مصر الهادئ صوت كاهن الرب سوتيس، وأذاع البشرى إلى الجنوب، للاحتفال بعيد النيل المقدس. فحزموا أمتعتهم، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو، يولون وجوههم شطر آبو العاصمة، فنهبت العجلات الوادى، ومخرت السفن عباب الماء.

كانت آبو عاصمة مصر، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من الصوان، تؤلف بينها الكثبان الرملية، وقد غشاها النيل بطبقات من طميه الساحر، بثت فيها الخصب والخير العميم، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم، وكست سطحها البقول والخضراوات والبرسيم، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان تجرى من تحتها الأنهار، وترعاها القطعان، يطير فى سمائها الحمام والطير، ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار، وتتجاوب فى جوها أغاريد البلابل والأطيار.

فما هى إلا أيام معدودات، حتى ضاقت آبو وجزيرتاها: بيجة وبيلاق، بالنازحين، فامتلأت البيوت بالنازلين، وازدحمت الميادين بالخيام، وغصت الطرق بالغادين والرائحين، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل، يوفون بالنذر، ويقدمون القرابين، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين . . وشاع فى جو آبو الرزين فرح راقص، وطرب حار بهيج . .

وجاء يوم العيد الموعود، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا إلى هدف واحد، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعونى والهضبة القائم عليها معبد النيل، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة، وناءت الأرض بحملهم، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض، فهبطوا إلى السفن، وأطلقوا الشرع، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغانى النيل على أنغام المزمار والقيثار، ويرقصون على توقيع الدفوف . .

ووقف الجنود صفين على جانبى الطريق العظيم شاهرى الرماح، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى لملوك الأسرة السادسة، آباء فرعون وأجداده، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين، أسر كرى، وتيتى الأول، وبيبى الأول، ومحتمساوف الأول، وبيبى الثانى.

وكان الجو يضج بأصوات القوم المختلفة، فيضيع تمييزها كما تضيع الأمواج فى

المحيط المصطخب، ولا يبقى منها إلا دوى هائل شامل. ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة، تخترق الضوضاء، وتبلغ الآذان، يهتف بعضها قائلا: «مجدوا الرب سوتيس الذى بشرنا بالخير». ويصيح صوت آخر: «مجدوا النيل الرب المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب». وبين هذا وذاك، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط، وأنبذة آبو، داعية إلى السرور والنسيان..

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا، تبدو على وجوههم آى النبل والنعيم، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملا متعجبا:

ـ كم من فرعون أطلع على هذه الجموع الحاشدة، وشاهد هذا اليوم العظيم!.. ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور، ملء الأبصار والأفئدة!

فقال آخر:

ـ نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم، كما سنذهب جميعا.. انظر إلى هذا المكان الذى أشغل.. كم من البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة، ويجدد الآمال والأفراح التى تخفق فى صدورنا الآن.. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم؟

ـ إننا أكثر من أن يذكرنا مذكر.. ألا ليت الموت لم يكن..

ـ وهل كان يمكن أن يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت؟ إن الموت طبيعى كالحياة.. وما قيمة الخلود مادمنا نشبع بعد الجوع، ونشيخ بعد الشباب، ونسأم بعد المسرة؟

ـ فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس؟

ـ انتظر ستعلم ذلك بعد حين..

وقال آخر باهتمام:

ـ هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون.

فقال له صاحبه:

ـ أما أنا فقد رأيته يوم التتويج العظيم منذ أشهر فى نفس المكان.

ـ انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد.

ـ سترى أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول.

ـ ما أجمل هذا.

ـ أجل.. أجل.. إن فرعون شاب جميل، لا نظير له فى طوله الفارع، وحسنه الجاهر..

وتساءل أحد المتحدثين قائلا:

ـ ترى ماذا يخلف حكمه؟ . . أمسلات ومعابد، أم ذكريات غزو فى الشمال والجنوب؟

ـ إن صدق حدسى فهى الثانية . .

ـ ولمه؟

ـ إنه شاب عظيم البأس .

فهز الآخر رأسه بحذر وقال :

ـ يقال إن شبابه من نوع جامح، وإن جلالته ذو أهواء عنيفة، يغرم بالحب، ويهوى الإسراف والبذخ، ويندفع فى سبيله كالريح العاصفة . .

فضحك المستمع ضحكة خافتة، وهمس قائلا :

ـ وهل فى ذاك ما يدعو إلى العجب؟ . ما أكثر المصريين الذين يغرمون بالحب ويهوون الإسراف والبذخ . . فما بالك بفرعون .

ـ صه . . صه . . أنت لا تدرى من الأمر شيئا، ألم تعلم بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش؟ إنه يريد المال لينفقه فى تشييد القصور، وغرس البساتين، والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملا . لقد منحهم آباء الملك نفوذا وثراء، والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع .

ـ حقّا إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام .

ـ أجل . . ولا تنس أن خنوم حتب، رئيس الوزراء والكاهن الأكبر، رجل حديدى الإرادة، شديد المراس . . وهناك أيضا كاهن منف، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة .

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة، وقال :

ـ إذن فلندع الأرباب جميعا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأى السديد .

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق :

ـ آمين . . آمين .

ولاحت من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل، فلكز صاحبه بمرفقه قائلا :

ـ انظر أيها الصديق إلى النهر . . لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرقى؟ . .

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر، فرأى سفينة عجيبة، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء، تبدو مقصورتها على البعد متعالية، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها، ولاح فى أعلى صاريها شراع متموج

عظيم، وانتظمت جانبيهاحركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدى . . فاستولت الحيرة على الرجل، وقال:

ـ عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة . .

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب، فحدجهما بنظرة إنكار، وقال لهما:

ـ أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان.

فضحك الرجلان معا. وقال ثانيهما:

ـ صدقت يا سيدى المحترم، فنحن من طيبة، واثنان من الآلاف التى ناداها العيد المجيد فلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان. . هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين؟

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذرا:

ـ طبتما نفسا أيها السيدان الكريمان، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا، ولكنها امرأة. . أجل هى سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع أهل آبو، وجزيرتيها بيجة وبيلاق . .

ـ ومن عسى أن تكون هذه الحسناء؟

ـ رادوبيس . . رادوبيس الفاتنة، ملكة النفوس والأهواء جميعا.

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة، واستدرك:

ـ وهى تقيم هناك فى قصرها الأبيض الساحر. . هدف العشاق والمعجبين، حيث يستبقون إلى نيل عطفها، واستدرار رحمتها. . وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها، صانت الأرباب قلبيكما عن التلف . .

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة أخرى، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد. وكانت السفينة تدنو من الشاطئ، رويدا رويدا، والزوارق توسع لها طريقها على عجل، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها، ثم مقصورتها، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس. .

ومضت فترة وجيزة، ثم رئى أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون فى البحر المتلاطم طريقا، يسير فى أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فاخرا، لايحوزه إلا الأمراء والنبلاء، جلست فيه غادة حسناء، تستند فى طراءة إلى وسادة، وتتكئ على نمرقة، بساعد بض، وتمسك فى يمناها بمروحة من ريش النعام،

تلوح فى عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حالمة، تصوبها إلى الأفق البعيد فى كبرياء سامية، تقتحم الخلق أجمعين.

وكان الركب الصغير يسير على مهل، ترمقه العيون من كل صوب، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلا بجيد كالغزال، ونثرت من فمها الوردى كلمات تاقت نفوس إلى سماعها: فتوقف العبيد عن السير، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز، وارتدت المرأة إلى جلستها الأولى، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام، ولبثت تنتظر الموكب الفرعونى الذى لا شك جاءت لمشاهدته.

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى. فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها الأسود الحالك السواد، ينتظم على رأسها الصغير فى أسلاك من الحرير اللامع، ويهبط على كتفيها فى هالة من الليل كأنه تاج إلهى، ينبلج فى وسطه وجه مشرق مستدير، عانقت فيه أشعة خدين كالورد اليانع، وفما رقيقا مفترا كأنه زهرة من الياسمين فى الشمس فى خاتم من القرنفل، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه، فما رئى وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا.

وقد فتن منظرها الناس كافة، وحرك قلوب الشيوخ الفانية، فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية، لو عثرت فى طريقها بصوان لأذابته. ورمقتها أعين النساء شررا ومقتا، وسرى الهمس بين المحيطين بها، وانتقل الحوار من فم إلى فم.

ـ يا لها من امرأة فاتنة!

ـ رادوبيس. . يسمونها ربة الجزيرة!

ـ هذا جمال قهار، لايمكن أن يعصاه قلب.

ـ هو اليأس لمن يرى.

ـ صدقت، فما وقعت عليها عيناى حتى قامت فى نفسى ثورة جامحة، ونؤت بأعباء ظلم فادح، وأحسست بتمرد شيطانى، وصدت نفسى عما بين يدى، وغلبنى على أمرى الخذلان والخزى الأبدى.

ـ هذا أمر محزن. . لكأنى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة.

ـ هى شر وبيل!

ـ نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر.

ـ ألا رحمة للعاشقين. .

ـ ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة؟

ـ حقًا؟

ـ إن حبها فرض على علية القوم، كأنه واجب وطنى .

ـ لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .

ـ وأثثه بآيات منف وطيبة آنى حاكم جزيرة بيجة .

ـ مرحى . . مرحى . .

ـ وصنع تماثيله، ونحت جدرانه، المثال النابغة هنفر .

ـ نعم، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو، رئيس الحرس الفرعونى .

ـ إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى تستخلصه لنفسها؟

ـ سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية . .

ـ لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .

ـ من أدراك؟ . . عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .

ـ كلا . . إن جمالها هو القوة الجبارة . . وما حاجة القوة إلى الحب؟

ـ انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية . . إنها لم تذق الحب بعد .

وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث، فضاق صدرها .

وقالت بجفاء :

ـ ما هى إلا راقصة . . تربت فى بؤر الفساد والمجون . ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية، وأجادت فن المساحيق، فتبدت فى هذا المظهر الخلاب الكاذب .

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :

ـ معاذ الرب يا سيدتى، ألم تعلمى بعد أن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثراء؟ . . وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان؟

ـ بخ . . بخ . . من أين لها بالحكمة والعرفان، وهى تنفق عمرها فى إغواء الرجال؟

ـ قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهما للحكمة، وأدراهم بالسياسة وأذوقهم للفن .

وسأل سائل :

ـ كم عمرها؟

ـ يقولون إنها بنت ثلاثين .

ـ لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .

ـ ليكن عمرها ما تشاء، فهذا الحسن يانع قاهر، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدا . .

وعاد السائل يسأل باهتمام :

ـ ما منشؤها ، وما أصلها؟

ـ علم هذا عند الأرباب . . وكأنى بها وجدت منذ الأزل فى قصرها الأبيض بجزيرة بيجة!

* * *

وشقت الصفوف المتراصة بغتة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاءه ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشيبين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتان . . وصاح الذين رأوها :

ـ ضام . . الساحرة ضام . .

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الاطلاع على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها الخارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكم بها . والتقت الساحرة فى طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان فى الحقيقة ثملا يترنح فى سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائمتين ، وسألته بصوتها الأجش :

ـ كم عمرك يا غلام؟

فأجابها ، وهو لا يعى ما يقول :

ـ اثنتا عشرة كأسا . .

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التى نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذى لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر وسألها بقحة :

ـ ماذا ينتظرنى من الحادثات يا امرأة؟

فنظرت إليه مليا ، وهى مغيظة محنقة ، ثم قالت له :

ـ أبشر . . ستخونك امرأتك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبته وهى تبتسم ابتسامة كريهة :

ـ أيتها السيدة المحروسة بالعناية! هل أقرأ لك الطالع ؟

ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة، فصرخت العجوز :

ـ مولاتى!

وانتبهت إليها رادوبيس فيما يشبه الذعر، ثم عطفت عنها رأسها سريعا وقد لمسها الغضب، وقالت لها العجوز :

ـ صدقينى ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك!

فتقدم منها أحد العبيد، وحال بينها وبين الهودج. وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء، ووضع على أثره الجند المصطفون على جانبى الطريق الأبواق فى أفواههم، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل، فنسى الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرئبة، وحواس مرهفة.

ومضت دقائق طويلة ثم بدأت طلائع الجيش تسير صفوفا متراصة على أنغام الموسيقى الحربية تتقدمها حامية بيلاق بعددها المتنوعة، تسير وراء علمها المتوج بصورة الباز، فكانت الجنود تقابل فى كل مكان بالهتاف والتصفيق..

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملى الرماح والتروس، تتأثر موسيقاها، وعلمها المزدان بصورة الرب حورس، وقد استقامت الرماح فى صورة هندسية دقيقة، فرسمت فى الهواء خطوطا متوازية طولا وعرضا.

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملى القسى والسهام. واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش.

ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل، ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة فى صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم، يجر العجلة جوادان مطهمان، ويقوم على ظهرها فارسان، سائق مزود بالسيف والمزراق، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد، فذكر المشاهدون لمرآها غزو النوبة وطور سيناء، وخالوا أنهم يرونها تنتشر فى السهول والوديان كالنسور المنقضة، والعدو يتشتت أمامها، وقد أذهله الرعب، وأحاط به الهلاك، فاشتعل الحماس فى عروقهم نارا، وشق هتافهم السماوات.

وبدا للناظرين الموكب الفرعونى المهيب، تتقدمه العجلة الفرعونية، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسى خماسى، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونى على رأسه القائد طاهو.

ووقف فرعون فى عجلته منتصب القامة، مهيب الطلعة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعا، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب.

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج، ويقبض بيد على السوط الملكى، وبالأخرى على العصا المعقوقة، وقد ارتدى فوق لباسه الملكى كساء من جلد النمر احتفالا بالعيد الدينى.

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة، فتعالى الهتاف، فكاد لشدته أن يفزع الطير المحلق فى السماء. وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائية، وأضاء وجهها بنور بهيج، وصفقت يداها الرخصتان..

وأفلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل: «ليحى صاحب القداسة خنوم حتب»، فردد هتافه عشرات الأصوات، وأحدث هتافه انزعاجا وأهاج ضجة شديدة، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب!..

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد، فتوقفت العجلات جميعا، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبى، فترجل الملك عليها. ونفخ فى الصور، فأدى الجند التحية العسكرية، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تؤدة وجلال، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام. ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا. ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره، وأخفى عينيه بيديه، وقال فى صوت خافت:

- يتشرف خادم الرب المعبود النيل، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاى سيد القطرين، ابن رع ورب المشرقين.

فأعطاه فرعون العصا المعقوقة، فقبلها الكاهن فى إجلال عميق، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب، وطافوا بالمذبح، وكان الكهنة يحرقون البخور، فينتشر أريجه فى جو المعبد، وتتنفسه الرءوس المنعكسة إجلالا وقنوتا. وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية:

مثلت فى رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت

نفسى. وقدمت القربان زلفى إليك، فامنن بالخير

على أرض هذا الوادى الطيب، وأهله الآمنين .

ورددت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر، يفيض بالإيمان والتقوى، رافعين رءوسهم إلى السماء و باسطين أيديهم فى الهواء . وردد الحاضرون جميعا الدعاء، وسرى الصوت إلى خارج المعبد، فسارع الناس فى ترديده، وما هى إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته كاهن المعبد، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى الصحون الثلاثة المتوازية، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة، تختلج بخفقات القلوب، فيرن صداها فى جو المكان القاتم المهيب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد، واقترب من باب قدس الأقداس، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا، وركع ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الإلهية، وأغلق الباب، وكان المكان واسعا، شاهق السقف، شديد الظلمة، قوى الأثر، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الإله أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهاج . ونفذت هيبة المكان إلى قلب الملك الكبير، فوهنت حواسه، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس وأزاحه بيده، وأحنى ظهره الذى لا ينحنى أبدا، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال . وكان لا يزال مهيبا، ولكن غابت عن وجهه آى مجد الدنيا وكبريائها، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى . . وصلى فرعون صلاة طويلة . واستغرق فى العبادة ناسيًا مجده التالد وعظمته الدنيوية .

ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى، وقام واقفا وأسدل الستار الكريم، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب، حتى تنفس هواء البهو الخارجى ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء، وساروا وراءه إلى بهو المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وعرجوا جميعا إلى حافة الهضبة المطلة على النيل . ورآهم الأهلون المتجمعون فوق أسطح السفن، فتعالت أصواتهم بالهتاف، ولوحوا بالأعلام والغصون .

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية، فنشر بين يديه ورقة طويلة من أوراق البردى، وتلا بصوت قوى النبرات :

«السلام عليك أيها النيل، يا من يعم فيضه الوادى مبشرا بالحياة والسعادة . إنك لتسكن الغياهب أشهرا، فإذا أصخت إلى توسلات عبادك ولان قلبك الكبير رحمة بهم، خرجت من الظلمات إلى النور، وانسبت فى بطن الوادى زاخرا، فتبعث فى الأرض الحياة، وسرعان ما تهتز النباتات طربا، وتفض الصحراء تحت بساط سندسى، وتزدهر البساتين، وتغنى المغارس، وتصدح الطير، وتهتف القلوب بنشوة الفرح، فيكسى

العـارى، ويطعم الجائع، ويروى الصديان، ويتزوج الأعـزب، وتتلفع أرض مـصر بالسعادة والمجد. . تعاليت والمجد لك. . تعاليت والمجد لك. . ».

ورتـل كهنة المعبد أنشودة النيل عـلى نغم القيثارة والمزمار والناى، وعـلى توقيـع الدفـوف فى ألحان عـذبة وأنغـام شـجيـة.

ولما أن ضـاعت الأنغـام فى تضاعيف الفضاء، تقدم الأمير ناى من فرعون وأسلم إليه قرطاسا مختوما من البردى، يشتمل على دعاء النيل المعبود، فأخذه الملك ورفعه إلى جبينه، ثم تركه يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى صخب صوب الشمال. .

وهبط فـرعـون أدراج الهـضبـة، وركب عـجلته، ورجع الموكب كـمـا أتى تحف به العظمـة ويحوطه المجد، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين، وقد أهاجهم الحماس، وأسكرتهم نشوة الطرب.

الصنـــــــدل

عاد الموكب الملكى إلى السراى الفرعونية، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه، إلى أن خلا إلى نفسه، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية، وجبت لها قلوب الجوارى اللائى يخلعن ثيابه، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه، وكان سريع الانفعال شديد الغضب، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق، فيظنه إنذارا جريئا موجها إلى رغباته، فيشتد بها الغضب وينذر بالويل والثبور. .

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل، ولكنه لم يستطع صبرا، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة، واقتحم بابها بعنف. وكانت الملكة نيتو قريس جالسة بين وصيفاتها، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمأنينة، فلما رأى الوصيفات الملك، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه، وقفن مرتبكات مضطربات، وانحنين له وللملكة، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شىء. . ولبثت الملكة جالسة هنيهة، ترمقه بعينين هادئتين، ثم قامت فى جلال، ودنت منه، ثم شبت على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت:

ـ أغاضب أيضا يا مولاى؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة فى دمائه، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة:

ـ كما ترين يا نيتو قريس!

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه، بأن واجبها الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه، فقالت بهدوء وهى تبتسم إليه:

ـ الحلم أحرى بالملك.

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال:

ـ أتوصيننى بالحلم أيتها الملكة؟ إنه لثوب زائف يتقنع به الضعفاء.

فقالت الملكة فى تألم ظاهر:

ـ مولاى.. لماذا تضيق بالفضائل ذرعا؟

ـ أحقّا أنا فرعون؟.. وهل حقّا أتمتع بشبابى وقوتى؟.. فكيف إذا أريد، ولا أستطيع نيل ما أريد؟.. كيف تنظر عيناى إلى أراضى مملكتى فيتصدى لى عبد ويقول: لن يكون هذا لك؟

فوضعت يدها على ذراعه، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان، ولكنه تخلص منها، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا. غاضبا ساخطا، فقالت بلهجة تنم عن الأسف العميق:

ـ لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو.. واذكر دائما أن الكهنة رعاياك المخلصون، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة، وأنت تريد يا مولاى أن تستردها، فمن الطبيعى أن يقلقوا..

قال الملك الشاب بحدة:

ـ أريد أن أشيد قصورا ومقابر، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية، ولا يقف فى سبيل رغباتى إلا أن نصف أراضى المملكة فى أيدى أولئك الكهنة.. أيجوز أن تعذبنى رغباتى كالفقراء؟ ألا سحقا لهذه الحكمة الفارغة، أو تعلمين ماذا حدث اليوم؟.. لقد هتف نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب.. أرأيت أيتها الملكة؟.. إنهم يتحدون فرعون عينا لعين!

فاستولت الدهشة على الملكة، واصفرّ وجهها الوديع، وتمتمت بكلمات غير مسموعة، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة:

ـ ماذا دهاك أيتها الملكة؟

أحست بلا شك بانزعاج واستياء، ولولا أن الملك غاضب إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها، ولكنها تسلطت على انفعالاتها بإرادة من حديد، وقالت بهدوء:

ـ دع هذا الحديث إلى وقت آخر ، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب ، وينبغى أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة . .

فنظر فرعون إليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :

ـ إنى أعرف ما أريد ، وما ينبغى أن أفعل .

وفى الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته فى البهو الرسمى العظيم ، واستمع إلى خطب الكهنة ، وآراء حكام الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك «لم يكن راضيا» ، وحين تفرق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير يسير ، وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه ، لعلهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحراس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة ، ودار فى الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالثأر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجليه فى انتظاره : سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، ورأسه الأشيب ، وطاهو بجسمه القوى الفولاذى الذى تربى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمعا الهتاف الجرىء الذى عد فى جميع الدوائر تحديا لسلطة فرعون ، وكانا يتوقعان له رجعا شديدا فى نفس الملك الشاب ، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فخفق قلباهما ، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك ؛ لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الأراضى بمنتهى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه ، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا . .

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما ، يرجوان ، ويكابدان قلقا أليما ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبى الهول . وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما ، وكأنه رغب فى أن يمد لهما حبل الوساوس ، فجلس على أريكة فى هدوء ، وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقال :

ـ يحق لى اليوم أن أغضب وأن أتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى، ورن فى أذنيهما الهتاف الجرىء مرة أخرى. فرفع سوفخاتب يديه تألما وإشفاقا، وقال بصوت متهدج:

- تعالى مولاى عن دواعى الألم والغضب!

وقال طاهو بقوة:

- لا يجوز أن يألم مولاى، وفى المملكة سلاح لا ينثلم، ورجال يفتدونه بالأرواح، حقّا أن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم، يتنكبون سبيل الرشاد، ويركبون رءوسهم، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها..

فأحنى الملك رأسه ناظرا إلى ما تحت قدميه، وقال:

- إنى أتساءل هل قوبل أحد من آبائى وأجدادى طوال عهد حكمة بمثل ما قوبلت به اليوم من هتاف، ومامضى على جلوسى سوى بضعة أشهر؟

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف مخيف، وقال بيقين:

- القوة يا مولاى.. القوة يا مولاى.. كان أجدادك المقدسون أقوياء، يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال، وسيف كالقضاء، كن مثلهم يا مولاى، لا تتردد ولا تركن إلى الحلم، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة، تذهل الجبار عن نفسه، وتخنق فى صدره أوهى الأمل.

ولم يرق هذا الكلام فى عينى الشيخ الحكيم سوفخاتب، وذعر من حماس قائله، وأشفق من عواقبه، فقال:

- مولاى.. إن الكهنة منبثون فى أقطار المملكة كالدم فى الجسم، منهم: الولاة والقضاة والكُتَّاب والمربون، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعونى وحامية بيلاق، فالضربة القاسية قد تأتى بعواقب غير محمودة..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة، فقال:

- وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم؟.. أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا، ونرد فى عينيه إلى الهوان؟

- ليس الكهنة بأعداء لفرعون، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو، فالكهنة طائفة مخلصة أمينة. وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال، وأقسم أنى ما يئست يوما من إيجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاى، ويحفظ للكهنة حقوقهم.

وكان الملك يستمع إليهما فى هدوء، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة، فلما أتم سوفخاتب كلامه، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين:

- أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان، فقد أطلقت سهمى.

واستولت الدهشة على الرجلين، ونظرا إلى الملك فى إشفاق وأمل وخوف. وكان طاهو أدنى إلى الأمل، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعض على شفتيه، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة. وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفى:

- تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعًا، ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلا: إن الهتاف باسمه تحت سمعى وبصرى عمل حقير خئون. وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين، فرأيته يضطرب ويبهت، ويحنى رأسه الكبير على صدره الضيق، وفتح فمه ليتكلم، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد.

وقطب الملك جبينه، وصمت لحظة، ثم استطرد قائلا بعنف:

- ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدى، وصارحته بكلام صارم، مؤكدا له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك الهتاف يردنى عن رأى اعتزمته، ثم أخبرته بأن نيتى انتهت إلى ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والنذور..

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون، منكفئ الوجه، يعانى مرارة الخيبة؛ وأما طاهو فكان متهللا فرحا، كأنه يستمع إلى لحن جميل، يتغنى بمجده وعظمته، واستدرك الملك قائلا:

- لا شك فى أن قرارى أذهل خنوم حتب، وأخرجه عن طوره، فبدا عليه الجزع، توسل إلى قائلا: إن أراضى المعابد هى أراضى الأرباب، وإن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب والفقراء، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية، وحاول أن يفيض، ولكنى أوقفته بإشارة من يدى، وقلت له: إن هذه هى إرادتى، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء، وآذنته بانتهاء المقابلة.

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحا:

- باركتك الأرباب جميعا يامولاى!

فابتسم الملك ارتياحا، ولاحت منه نظرة إلى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه، فأحس نحوه بعطف وقال:

- أنت رجل مخلص يا سوفخاتب، ومشير نصوح.. فلا يحزنك أن خولف رأيك.

فقال الرجل:

- لست يا مولاى من قوم مغرورين، يغضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم، لا خوفا من العواقب، ولكن ذودا عن كرامتهم، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى

لو يقع شر كان أنذر به، ليعرف من لا يعرف قدره . . أعوذ بالرب من شر الغرور، فما يدفعنى إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزننى حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسى، وما أتمنى على الرب من شىء إلا أن يكذب رأيى، ليطمئن قلبى . .

وكأن فرعون أراد أن يطمئنه، فقال :

ـ لقد نلت بغيتى، ولن ينالوا شيئا منى، فمصر تعبد فرعون، ولا ترضى عنه بدلا . .

فأمن الرجلان على قول مولاهما بإخلاص، ولكن كان سوفخاتب مضطربا، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذى أصدره فرعون، ويذكر فى ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون فى آبو، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأى، وثبات الشكوى، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر والحزن، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول . . ولكنه لم يبن عن آرائه، لأنه وجد الملك فرحا راضيا ضاحك الثغر، فأشفق من تعكير صفوه، وبسط صفحة وجهه، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

ـ لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذى انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوبى النوبة فى حياة أبى، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .

وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبية، وصببن الخمر، وقدمن كئوسا مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين، فشربوا فى صفاء وهناء، وعلّوا فى نشوة، وجعل سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة، ليركز حواسه فى رحيق مريوط، ويشارك الملك والقائد سعادتهما، وكانوا جلوسا صامتين تتبادل أعينهم المودة والصفاء، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها الطرب شعاع الشمس المائل، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس . . واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمنا غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم من أحلامهم بعنف، إذ سقط شىء فى حجر الملك من عل، فانتفض واقفا، وتبعه الرجلان، فسقط الشىء عند قدميه، وإذا به صندل ذهبى، ونظروا إلى أعلى دهشين، فرأوا نسرا هائلا يحلق فى سماء الحديقة فوق رءوسهم ويبعث فى الفضاء صرصرة مخيفة، ويصليهم نظرات ملتهبة من عينين متقدتين، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة . .

وعادوا بالنظر إلى الصندل، والتقطه الملك بيده، وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتياب .

ومضى الملك فى تأمله، ثم غمغم قائلا :

ـ هذا صندل امرأة بلا ريب، ما أجمله وما أثمنه!

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

ـ ترى هل خطفه النسر؟

فابتسم الملك قائلا :

ـ لا يوجد فى حديقتى شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا.

وقال سوفخاتب :

ـ يعتقد العامة يامولاى أن النسر يتعشق الحسان، وأنه يخطف من العذارى من تهوى إليها نفسه، ويطير بها إلى قمم الجبال، فلعل هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبته، ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه، وسقط عند قدمى مولاى.

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعلا، ويقول :

ـ ترى كيف خطفه؟ . . أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء . . فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

ـ أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاى، خلعته مع ثيابها على شاطئ بركة، وتعرت تستحم، فجاء النسر وخطفه.

ـ ورمى به إلى حجرى . . ياللعجب، لكأنى به يعلم بحبى للحسان! . .

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى، وقال :

ـ أسعدت الآلهة أيامك يا مولاى.

وتبدت الأحلام فى عينى الملك، وابتسمت أساريره، ولان جبينه، وتوردت وجنتاه، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه، ويسائل نفسه : ترى من صاحبته؟ وما صورتها؟ وهل هى جميلة كصندلها؟ وكيف لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك؟ وما شأن الأقدار التى نصبته هدفا له؟ . وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه، فقال وهو يشير إليها :

ـ ما أجمل هذه الصورة . . إنه فارس وسيم، يقدم قلبه هدية على يده المبسوطة.

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فالتمعت أعينهما بنور خاطف، وتطلعا إلى الصندل باهتمام عظيم، وقال سوفخاتب :

ـ هل يتنازل مولاى عن الصندل لحظة؟

فأعطاه، ونظر إليه كبير الحجاب، كما نظر إليه طاهو، ثم رده الرجل إلى الملك وهو يقول :

ـ صدق حدسى يا مولاى . . هذا صندل رادوبيس غانية بيجة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلا :

ـ رادوبيس . . يا له من اسم جميل . . من عسى أن تكون صاحبته؟!

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

ـ هى راقصة يا مولاى يعرفها أهل الجنوب جميعا .

فابتسم فرعون وقال :

ـ ألسنا من أهل الجنوب؟ حقّا إن الملوك قد تخترق أعينها سجف الأفق القصى ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .

واشتد القلق بطاهو ، فقال وقد امتقع لونه :

ـ إنها امرأة يا مولاى قد طرق بابها رجال آبو وبيجة وبيلاق .

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة :

ـ على أى حال هى صورة أنثوية يا مولاى ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :

ـ وحق الرب سوتيس إنكما لأخبر أهل الجنوب بها .

فقال سوفخاتب بهدوء :

ـ إن بهو استقبالها يا مولاى ملتقى أهل الرأى والفن والسياسة .

ـ حقّا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ، هل هى أجمل من رأيت؟

فقال سوفخاتب باطمئنان :

ـ هى الجمال عينه يا مولاى ، هى فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم . لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال يوما إنه من أخطر الأمور فى حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس .

وتنهد طاهو يائسا ، وحدج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ، ثم قال :

ـ إن جمالها يا مولاى جمال شيطانى رخيص ، لا تضن به على طالب!

فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

ـ كلاكما يغرينى وصفه .

فقال سوفخاتب :

- ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يا مولاى .

ونزع خيال الملك به إلى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، أضفى عليه ما سمعه نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام . فتساءل وكأنه يحادث نفسه :

- ترى أأحسن النسر فى اختيارنا هدفا له أم أساء؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال فى حيرة :

- ما هى إلا مصادفة يا مولاى . وما يؤسفنى إلا أن أرى هذا الصندل الملوث بين يدى مولاى المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :

- مصادفة؟ . . إن هذه الكلمة يا مولاى مهضومة الحق ، يظن بها التخبط والعمى ، ومع هذا فهى المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ، فلم يبق للآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق ، كلا يا مولاى ، إن كل حادثة فى هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات - جلت أو تفهت - عبثا أو لهوا .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنونى كاد أن يجرف هدوءه فى حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم عن اللوم والتعنيف :

- أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاى ، فى هذه الساعة الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

- إن الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر فى أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفو لهوه بأمور جده . فمن أدراك أيها القائد؟! فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه فى وجهيهما واستضحك قائلا :

- أدائما على اختلاف أيها الرجلان ، كما تشاءان . ولكن كان ينبغى أن أجد فى طاهو الرجل مغريا بالهوى ، وفى سوفخاتب الشيخ زاجرا عنه ، وعلى أى حال لا مندوحة لى من الميل مع رأى سوفخاتب فى الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو فى السياسة .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجلان ، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهى تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربى ، وقال وهو يهم بالمسير :

ـ أمامنا ليلة عمل شاقة . فإلى الغد، ولسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل فى يده، فانحنى الرجلان فى إجلال .

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوقف كل منهما بإزاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض وعضلاته الفولاذية، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينيه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج فى صدر صاحبه، فيبتسم سوفخاتب، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم، فقال :

ـ غدرت بى أيها الصديق سوفخاتب، بعد أن لم تطق منازلتى وجها لوجه . .

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكارا، وقال :

ـ يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد! ما لى أنا والحب؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أون؟

ـ ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم . . ألم يمل قلبك الفتى يوما إلى رادوبيس؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفا لم تظفر به أنت؟

فرفع الشيخ يديه يستعيذ من كلام القائد، وقال :

ـ إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن، والحق أنه إذا كان قلبى مال إلى هذه الغانية يوما، فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع!

ـ أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها إكراما لى؟

فبدت الدهشة على سوفخاتب، وقال باهتمام وأسف صادق :

ـ أحقّا أنك تجد فى الأمر جدّا؟ . . أم أنك ضقت بدعابتى ذرعا؟

فقال طاهو بسرعة :

ـ لا هذا ولا ذاك أيها المعظم، ولكن يسوءنى فقط أن نختلف دائما .

فابتسم كبير الحجاب، وقال بهدوئه الطبيعى :

ـ لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش!

قصر بيجة

غاب الموكب الفرعونى من الأنظار، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبى الطريق، فتلاطمت أمواجهم، واختلطت أنفاسهم، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا، وانقض على أعدائه كاسرا. فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة. وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون لا تزال تلتهب فى قلبها ناراً وتندفع إلى أطرافها دما حارا. وكانت صورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض، ونظراته المتعالية، وقده الرشيق، وعضلاته المفتولة.

وكانت رأته قبل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل، وكان يقف فى عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال، مرسلا بناظريه إلى الأفق البعيد، وقد تمنت يوم ذاك كما تمنت اليوم لو عطف إليها عينيه.

ترى لماذا؟.. ألأنها تطمع فى أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن رأته فى قداسة الأرباب المعبودة؟ كيف السبيل إلى فهم هذا التمنى؟.. على أنه مهما كانت حقيقته، فقد تمنت صادقة، وتمنت مخلصة مشوقة.

لبثت الغانية مستغرقة فى غمرات أحلامها، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها، بنهم وشراهة. وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج فى المقصورة، واطمأنت إلى عرشها الصغير، وهى فى شبه غيبوبة تسمع ولا تعى، وتنظر ولا ترى.. وانسابت بها تشق وجه النيل الرزين، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض، عروس جزيرة بيجة. وكان القصر يرى عن بعد فى نهاية الحديقة اليانعة التى تنتهى معارجها إلى سيف النيل، تحوط به أشجار الجميز، ويحنو عليه النخيل، كأنه زهرة بيضاء نبتت فى أحضان تلك الجنة الوارفة. فهبطت أدراج السفينة، ووضعت قدميها على أولى درجات الحديقة، وصعدت سلما من المرمر المصقول، يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلاق عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية.

واجتازت بوابة من الحجر الجيرى نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة، وقام فى وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعى، نحته هنفر، وأفنى فيه دهرا جميلا من أسعد أيام

حياته، يمثلها جالسة على عرشها الجميل الذى تستقبل عليه المقربين، ويكشف فى روعة فنية رائعة عن جمال الوجه، وتكعب الثديين، ورشاقة القدمين. ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالى أغصانها، فظلت عليه سقفا من الأزهار والأوراق الخضراء، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة، تنتهى ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبى، وذات الشمال إلى سورها الشمالى. وكان هذا الممر ينتهى إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراش من عمد رخامية، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال، وانتشرت فى جنباتها المترامية التماثيل والمسلات.

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس، ويسبح على سطحها الإوز والبط وتغنى فى جوها الأطيار، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل.

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة، فصارت أمام الحجرة الصيفية، ووجدت فى استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها إجلالا، ثم وقفن ينتظرن أوامرها، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظللة تستريح.. ولم يطل بها المقام فانتفضت واقفة، وقالت لجواريها:

- كم ضايقتنى أنفاس القوم الحارة.. وكم أرهقنى الحر.. اخلعن ثيابى، فقد تقت إلى مياه البركة الباردة.

فدنت الجارية الأولى من سيدتها، ورفعت بخفة خمارها الموشى بالذهب نسيج منف الخالدة.

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر عما فوق النهدين وما تحت الركبتين، ثم تبعتهما جاريتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد، وروعتا الدنيا بجسد طليق، خلقته الآلهة جميعا، وادعاه كل لقدرته وفنه!

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم، فانساب على جسدها، وغشاه من الجيد إلى الرسغين، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبى ووضعته على حافة البركة. ومشت الغانية تتهادى، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين، ثم ألقت بجسمها فى الماء الهادئ يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما. واستسلمت لمداعبة الماء فى رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح، وسبحت طويلا تارة على بطنها، وتارة على ظهرها، وثالثة على أحد جانبيها.

وما كانت لتعير شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواريها، فتوقفت

عن السباحة، والتفتت إليهن، فراعها أن رأت نسرا هائلا يحلق من علو قريب من شاطئ البركة، ويرف بجناحيه، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع، وغاصت فى الماء تنتفض فزعا ورعبا، وتصبرت بجهد جهيد، وحبست أنفاسها طويلا حتى أحست بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها فى خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهى تخشى، فلم تر شيئا. فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يولى بعيدا يوشك أن يلج باب الأفق، فسبحت إلى الشاطئ على عجل، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة، ووضعت قدمها فى إحدى زوجى صندلها، ولكنها لم تجد الأخرى، وبحثت عنها طويلا ثم سألت:

ـ أين الأخرى؟

فأجابها الجوارى فى قلق:

ـ خطفها النسر!

وتبدى الأسف على وجهها، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لإعلان سخطها، فدلفت إلى الحجرة الصيفية، والجوارى من حولها وبين يديها يجففن جسدها الغض، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتثر على أديم عاج.

* * *

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف، وما أكثرهم فى أيام العيد التى تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب، فارتدت أجمل ثيابها، وازينت بأفخر حليها، ثم تركت المرآة إلى بهو الاستقبال، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم.

وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة، بناه المعمار هنى، وجعل صورته على هيئة بيضاوية، وشيد جدرانه من الجرانيت كبيوت الأرباب، وكساه بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر الناظرين، وكان سقفه مقببا تزينه الصور والتهاويل، وتتدلى منه المصابيح المكفتة بالذهب والفضة.

وزخرف الجدران المثال هنفر، وتنافس العشاق فى تأثيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة، والرياش الجميلة. وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعا، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل، وقاعدته من الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت، وقد أهداه إياها حاكم جزيرة بيجة.

ولم يطل انتظار الغانية، فدخل عبد من عبيدها، وأعلن قدوم السيد عانن تاجر سن الفيل. ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه الفضفاضة، ويزهو بشعره المستعار، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب، وضعه على كثب من كرسى الغانية،

ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها، فابتسمت له، وقالت بصوتها الحلو :

ـ أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك؟ أهكذا لا نراك إلا كل دهر طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا، وقال :

ـ ماذا أصنع يا مولاتى! . . هى حياتى التى اخترتها أو التى فرضتها الأقدار علىّ، أن أكون أخا سفر، جواب أرض، تتقاذفنى البلدان، فأقضى نصف عامى فى بلاد النوبة، ونصفه الثانى ما بين الجنوب والشمال، أشترى وأبيع، وأبيع وأشترى، لا أعرف لحياتى مستقرا!!

فنظرت إلى الصندوق العاجى وهى لاتزال تبتسم وسألته :

ـ وما هذا الصندوق الجميل؟ إخال أنه هدية من هداياك النفيسة!

ـ ليس الصندوق بالذات، ولكن ما فيه . . هو سن فيل مفترس، أقسم التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه أربعة من رجاله الأشداء، فحفظته فى مكان أمين، ولم أعرضه على الطالبين . ولما ألقيت عصا الترحال فى تنيس، دفعت به إلى أيدى صانعيها المهرة، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب، وطلوه من الخارج، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك . . وقلت لنفسى : أحرى بتلك الكأس التى كلفت نفوسا غالية، أن تهدى إلى من تبذل فى سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهى راضية .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة، وقالت :

ـ شكرا لك أيها السيد عانن . . إن هديتك على نفاستها لا تعدل بجمال حديثك!

فطرب أيما طرب، ورنا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسل، وقال بصوت خافت :

ـ ما أجملك . . ما أفتنك . . كلما عدت من سفر طويل أجدك أجمل وأفتن مما تركتك، وكأنى بالزمان ولا عمل له إلا السمو بحسنك الفاتن .

وكانت تصغى إلى إطراء حسنها، كمن يصغى إلى نغمة معادة، فطاب لها أن تتهكم به فسألته :

ـ كيف حال أبنائك؟!

فأحس بشىء من الخيبة، وصمت لحظة، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه، فبدا الكأس نائما على جانبه، ثم قال وهو يرفع رأسه إليها :

ـ ما ألذع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ فى قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك؟!

فلم تجبه، ولاتزال تبتسم، ثم دعته للجلوس فجلس قريبا منها. واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين، منهم من يتردد على قصرها كل مساء، ومنهم من لا تراه إلا فى الأعياد والمناسبات، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة، ثم رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقة، وحنجرته الناتئة، وشعره المفلفل، وأنفه الأفطس، وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم. فأعطته يدها، ولثمها الرجل فى حب عميق. وقالت تداعبه:

ـ أيها الفنان الكسول.

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال:

ـ لقد انتهيت من عملى فى زمن قصير.

ـ والحجرة الصيفية؟

ـ هى الباقية بلا زخرف، وإنه ليؤسفنى أن أقول لك بأنى لن أزخرفها بنفسى.

فبدا التساؤل على وجه رادوبيس، فقال الرجل:

ـ سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة، لأن أمى مريضة، وقد بعثت إلى رسولا يبلغنى رغبتها فى رؤيتى، فلم أر بدا من السفر.

ـ خففت الأرباب عنها وعنك.

فشكرها هنفر وقال:

ـ لا تظنى أنى نسيت الحجرة الصيفية، ففى الغد يأتيك أنبغ تلاميذى بنامون بن بسار، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه، إنى أثق به ثقتى بنفسى، ولعلك ترحبين به وتشجعينه.

فشكرته على عنايته بها، ووعدته خيرا.

واطرد تيار القادمين، فجاء المعمار هنى، وقفاه آنى حاكم الجزيرة، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب. وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف، الذى كان فى يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر. وقد عاد أخيرا إلى آبو مسقط رأسه، بعد أن نيف على السبعين من عمره، وكانت رادوبيس لاتفتأ تداعبه، فقالت له وهى تستقبله:

ـ مالى إذا رأيتك أشتهى أن أقبلك؟

فقال الرجل بهدوء:

ـ لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمة.

* * *

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا، وباقات من أزهار

اللوتس، فدهن رءوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب، وأهدين إلى كل منهم زهرة من اللوتس.

وقالت رادوبيس بصوت عال:

ـ ألم تعلموا بما حدث لى اليوم؟

فتطلع إليها الجميع بانتباه، وساد الصمت، فقالت باسمة:

ـ نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة، فهبط نسر بغتة وخطف فردة صندلى الذهبى، وطار بها.

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه، وقال الشاعر رامون حتب:

ـ إن رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة.

وقال عانن بحماس:

ـ أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل.

فقالت رادوبيس آسفة:

ـ كم كان عزيزا لدى.

فقال هنفر المثال:

ـ من المحزن حقّا أن يضيع شىء تمتع بلمسك أياما وأسابيع، وما مصيره فى النهاية إلا السقوط، وقد يسقط فى حقل ناء فتطؤه قدم ريفية بسيطة!

فقال رادوبيس بحزن:

ـ مهما يكن مصيره، فلن يعود إلى..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه، فقال يعزيها:

ـ على أى حال إن خطف النسر لصندلك فأل حسن، فلا تحزنى.

فسأله أحد الأعيان المبرزين:

ـ وماذا ينقص رادوبيس من السعادة، وجميع هذه الوجوه من عشاقها؟

فرد عليه الفيلسوف قائلا، وهو يحدجه بنظرة ساخرة:

ـ ينقصها أن تتخلص من بعضهم!

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكئوس الشراب الذهبية، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة، تطفئ الظمأ فى الفم، وتوقد النار فى القلوب. وقامت رادوبيس على مهل، وسارت إلى الصندوق العاجى، ورفعت الكأس العجيبة، ومدت بها يديها إلى الساقية وهى تقول:

ـ لنشرب نخب السيد عانن لهديته الجميلة، وعودته السالمة.

فشربوا جميعا هنيئا، وشرب عانن كأسه حتى الثمالة، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران، ثم التفت إلى صاحب له وقال:

ـ أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمى على لسان رادوبيس؟

فأمن الرجل على قوله، وتنبه عند ذاك الحاكم آنى إلى وجود السيد عانن، وكان يعرفه، ويعلم بأنه كان فى رحلة فى الجنوب، فقال له:

ـ عود سعيد يا عانن، كيف كانت سفرتك هذه المرة؟

فأحنى الرجل رأسه احتراما، وقال:

ـ حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل، لم أتوغل هذه المرة فيما وراء إقليم الواوايو، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب.

ـ وكيف حال صاحب السمو كارفنرو حاكم الجنوب؟

ـ الحق أن سموه يلقى متاعب جمة بسبب تمرد قبائل المعصايو، فهم يضمرون الكراهية للمصريين، ويتربصون لهم، فإذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة، وقتلوا رجالها، ونهبوا تجارتها، ولاذوا بالفرار أن تبلغهم القوات المصرية.

فبدا الاستياء على وجه الحاكم، وسأل التاجر باهتمام:

ـ ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية؟

ـ إن سموه لا ينفك يرسل قواته فى أعقابهم، ولكنهم لا يواجهون القوات الحربية، ويفرون فى الصحارى والغابات. فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاد المؤن. ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل.

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن، وكانت له خبرة ببلاد النوبة، وكان على علم واف بقضية المعصايو، فسأل التاجر قائلا:

ـ لماذا يصر المعصايو دائما على العصيان!.. إن البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتع فى ظله بالطمأنينة والرفاهية، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا، فلماذا يناصبوننا العداوة؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب، وظن أن نفاسة التجارة هى التى تغرى القوم بالانقضاض عليها، ولكن الحاكم آنى كان متبحرا فى هذه المسائل، فقال للفيلسوف:

ـ الحق يا سيدى الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسية أو دينية. وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة، يعيشون فى أرض جدباء، ويهددهم الجوع فى كل حين، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من جوع. فإذا انبرى المصريون لاستثمارها، هاجموهم ونهبوا قوافلهم.

فقال هوف :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وإنى أذكر يا سيدى الحاكم أن الوزير أونا ـ تقدست روحه فى عالم أوزوريس ـ منى نفسه يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمدهم بالغذاء فى مقابل أن يؤمنوا له طرق القوافل . . هى فكرة ثاقبة أليس كذلك؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

ـ لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون . .

وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا حلقات ، ومنهم عانن ، وشتتهم شجون الحديث ، وحاولت كل حلقة أن تجذب رادوبيس إليها ، ولكن الغانية جذبها اسم خنوم حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء سير الركب الفرعونى ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحست بلفحة غضب ، فدلفت إلى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ، ورامون حتب ، وقالت بصوت خافت :

ـ ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب؟

وكان زوار القصر الأبيض إخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا يعقل ألسنتهم خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حرية مطلقة ، وطمأنينة كاملة . وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدى شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع الدنيا .

وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى وجه رادوبيس الجميل :

ـ إنه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .

فقال هنفر :

ـ نعم ولا شك فى أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب فى أول عهده بالحكم .

وقال هوف بهدوء :

ـ لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته ، فى حضرة فرعون!

فقالت رادوبيس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

ـ ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة . . لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آنى؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

ـ أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات . . فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج ، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخلُ من عنف :

ـ كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة ، يقطعونهم الأراضى ، ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المنزرعة ، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولاشك فى أن هناك وجوها من المنافع أحق بالمال من المعابد .

فقال هوف :

ـ يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الإحسان والبر ، ويصرحون دائما بأنهم يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ـ وما هذه الضرورة؟

ـ أن تشتبك المملكة فى حرب مثلا تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلا ، ثم قالت :

ـ لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آنى :

ـ لقد تورطوا فى خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم يبثون دعاتهم فى الأقاليم ، ويدخلون فى روع الفلاحين أنهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة . .

فتساءلت رادوبيس دهشة :

ـ كيف تواتيهم شجاعتهم؟ !

فقال آنى :

ـ البلاد فى سلام ، والحرس الفرعونى هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تؤاتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية!

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق :

ـ يا لهم من أوغاد!

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأيا فقال :

ـ إذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحد ، وكان مغرما بإثارة الزوابع ، وسأله فى اقتضاب :

ـ وخنوم حتب؟ !

فهز هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

ـ هو كاهن كما ينبغى، وسياسى نافع، وليس من ينكر عليه قوة الإرادة، ونفاذ البصيرة.

وتململ الحاكم آنى. وهز رأسه بشىء من العنف، وقال:

ـ لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش!

فقالت رادوبيس بحدة:

ـ بل أعلن غير ذلك!

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما، فقال:

ـ أنا أعرف خنوم حتب جيدا، وهو بلا شك مخلص لمولاه ولوطنه.

فقال آنى بغرابة:

ـ لم يبق إلا أن تصرح بأن فرعون مخطئ.

ـ كلا.. إن فرعون شاب سامى الآمال، يرغب فى أن يكسو بلاده حلة من البهاء، ولن يأتى ذلك إلا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة.

فتساءل رامون حتب فى حيرة شديدة:

ـ فمن المخطئ إذن؟!

فقال هوف:

ـ عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق!

ولكن رادوبيس لم ترتح إلى تفسير الفيلسوف، ولم ترض عن الموازنة التى يجريها بين فرعون ووزيره، كأنهما ندان. وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة، وهى أن فرعون سيد البلاد دون منازع، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ولأى سبب، ونفر قلبها من كل رأى يخالف عقيدتها هذه، وصرحت برأيها لأصحابها، وختمت كلامها بقولها:

ـ إنى أعجب متى آمنت بهذا الرأى؟!

فقال رامون حتب مداعبا:

ـ حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة.. لاتفرطى فى العجب فالجمال مقنع كالحق سواء بسواء.

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع:

ـ أدرن الكئوس أيتها الجوارى.. وهلمى أيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنا شجيا، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشيق، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر مريوط، وهيأها العيد للفرح والمسرة، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون.

فضربت عنه صفحا، وأرادت أن تسترسل فى حديثها، ولكن التفاتة لاحت منها إلى

التاجر عانن، فرأته كالنائم ، وكان منفردا بعيدا عن الجماعات فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة آنى ، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر ، وصرخت فى وجهه : «اصح» فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها ، فجلست إلى جانبه وسألته :

ـ أكنت نائما؟

ـ بل كنت أحلم .

ـ آه . . فيمن؟

ـ فى ليالى بيجة السعيدة ، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالى الخالدات؟ ! أيمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد!

فهزت رأسها أن لا ، فجزع ، وسألها بخوف وإشفاق :

ـ لمه؟

ـ قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيدها بوعد خائن؟ !

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ، فرحبوا بها فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال واحد منهم يدعى شامة :

ـ ألا تشتركين معنا فى الحديث؟

ـ وفيم تتحدثون؟

ـ يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلا للتكريم الذى يحبوهم به الفراعنة والوزراء .

ـ وهل أجمعتم على رأى؟

ـ نعم يا مولاتى . على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالى شيئا ، فنظرت رادوبيس إلى حيث يجلس الفنانون : رامون حتب ، وهنفر ، وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر ، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين :

ـ ينبغى أن يكون هذا الحديث عاما ، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم؟ . . يقال هنا إن الفن عرض تافه ، وإن الفنانين غير أهل للتكريم . . فما رأيكم؟ !

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التى تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هنفر ابتسامة هزء ، أما رامون حتب فاصفرّ وجهه غضبا ؛ لأنه كان شديد التأثر ، وكان شامة متعجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

ـ إنى رجل عمل وجد ، أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لى خيراتها من

الأنعم السابغة، فأفيد ويفيد معى الآلاف من المحتاجين، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق . .

وأدلى كل من الرجال بدلوه، إما للتنفيس عن حقد طال حفظه، أو لمجرد الثرثرة والإعلان عن النفس، فقال أحد الكبار يدعى رام :

ـ من الذى يحكم ويسوس الناس؟ . . من الذى يفتح البلدان ويغزو المعاقل؟ . . من الذى يجلب الثروة والخيرات؟ . . أناس غير الفنانين بلا ريب . .

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر :

ـ إن الرجال يهيمون بحب النساء، ويهذون بذكرهن فى خلواتهن، أما الشعراء فيبسطون هذيانهم فى كلام موزون، وإلى هنا لايجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنا من المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى :

ـ ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما، ويهيمون فى وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام، يزعمون أنهم رسل وحى كريم . . والأطفال تكذب كذبهم، وكثير من العامة، ولكنهم لايزعمون شيئا .

فضحكت رادوبيس طويلا، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر، وقالت هازئة :

ـ ويحك أيها الرجل . . لماذا إذن تسير مختالا فخورا كأنك بلغت الجبال طولا؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعاليا منهم عن الرد على «المتهجمين بغير علم»، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد، وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند ذاك، فالتفتت إلى الفيلسوف هوف . ووجهت إليه هذا السؤال :

ـ وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين؟

ـ الفن لهو ولعب، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم، فلم يملك الحاكم آنى نفسه من الضحك . وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حتب بغضب :

ـ أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدا خالصا؟

فهزَّ الشيخ رأسه فى هدوء، وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ـ كلا ، ما إلى هذا قصدت، فاللعب ضرورة، ولكن ينبغى أن تذكر أنه لعب .

فسأله هنفر بتحد :

ـ هل الإبداع الملهم لعب؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

ـ أنت تسميه الإلهام والإبداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال .

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هنى تحثه على خوض المعركة ، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعى . ولكن الرجل لم يلب إغراءها ، لا استهانة منه بالموضوع الذى يثير النقاش ، ولكن اعتقادا منه ـ إن حقًّا كان أو وهما ـ أن هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفر ورامون حتب ـ على الأخص ـ بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيجة ، وسأل الفيلسوف بلهجة حاقدة :

ـ إذا كان الفن لعب خيال ، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به؟

ـ لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم الطفولة والخيال !

فهزَّ الشاعر كتفيه استهانة ، وقال :

ـ إن هذا الكلام لا يستحق الرد عليه . .

وأمن على قوله هنفر ، وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظريه فى الوجوه الساخرة ، وقال بحدة :

ـ أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا؟

فقال له عانن ، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :

ـ ما أتفه هذا!

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :

ـ ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى . أيجوز أن أذكر اللذة والجمال ، فيقال لى إنها شىء تافه . . وهل توجد غاية فى الدنيا وراء الجمال واللذة؟ !

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن الغانية ، وقال :

ـ صدق وحق جمالك يا رادوبيس ، إن الحياة تمضى كحلم سريع الزوال ، فأنا أذكر مثلا أنى حزنت لموت أبى حزنا بالغا وبكيته مر البكاء ، ولكنى الآن إذا عاودتنى ذكراه أسائل نفسى : أحقًا عاش ذلك الإنسان على الأرض؟ أم أنه وهم خادع يتراءى لى فى غبش الظلام؟ ! . هكذا الحياة . فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوة؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال وثراء؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا ، وما ساسوا؟ ! هباء فى هباء . . قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ،

والثروة غرورا. أما اللذة فهى لذة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك. فكل ما خلا الجمال باطل!

فبدا الجد على وجه رادوبيس الفاتن، وقالت له وقد لاحت فى عينيها الأحلام:

- ومن يدريك يا هنفر، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل أيضا؟ ألا ترانى أمضى العمر فى دعة وانتهاب لذة، وتملى الحسن والجمال؟ ومع هذا فكم يطاردنى الملل والسأم!

ووجدت رادوبيس أن رامون حتب فى حالة سيئة، وطالعت الاستياء فى وجه هنفر، وصمت هنى، فأشفقت من إيلامهم، وعدت نفسها مسئولة عما أصابهم، فقالت تغير مجرى الحديث:

- حسبكم أيها السادة.. فمهما قلتم فلن تنفكوا تطلبون الفن والفنانين، كم تحبون يا هؤلاء الخصام. إنكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعا للجدل والخصام!..

ضاق الحاكم آنى بالحديث ذرعا، فقال لها بتوسل:

- اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة.

وكان الجميع يتوقون للسماع والطرب، فضموا توسلاتهم إلى الحاكم، ووافقت رادوبيس، وكانت شبعت من الكلام، واستولى عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها، وظنت أن الغناء أو الرقص يزيله، فقامت إلى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن بالدفوف والقيثارة والناى والونج والصفارة ووقفن وراءها صفا.

ثم أشارت بيدها العاجية، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل والنقر الرشيق، يهيئن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى والطرب. ثم مضت أنغام الآتهن تخفت حتى صارت كهمس العاشقين الذاهلين، أنشأت رادوبيس تغنى قصيدة رامون حتب:

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء، أعيرونى آذانكم لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم

الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم وقد شبعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم، فأين الفراعنة؟ أين الساسة؟ أين الغزاة؟ هل حقّا القبر عتبة الخلود؟ ولكن لم يأت من القبر رسول يطمئن قلوبنا، فلا يفوتكم طرب، ولا تفوتكم لذة! لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ!

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهى حنون، أطلق الأرواح من قيود الأجسام، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا. وشاركت فى التجلى الأعلى، وظل القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهدون فرحا وحزنا ولذة وألما. وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إلاه، فاستبقوا إلى الشراب، وهدفوا

بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين، وتداعبهم، وتماجنهم، وتشاربهم، ولما دنت من آنى همس فى أذنها:

- أسعدتك الأرباب يا رادوبيس . . جئتك شبحا مثقلا بالتبعات، وإخال نفسى الآن طيرا يحلق فى السماء . .

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب، وأهدته زهرة لوتس عوضا عما فقد، فقال لها:

- يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال، ألا سحقا لرأيه . . إنه ومضة إلهية تشع من عينيك، وتدور مع وجيب قلبى، ثم تأتى بالأعاجيب . .

فقالت له ضاحكة:

- أيخرج منى شىء يأتى بالأعاجيب، وأنا أعجز من الرضيع؟

ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف، وجلست إلى جانبه، ولم يكن ذاق خمرا، فحدجته بنظرة فاتنة، فضحك الرجل، وقال متهكما:

- يا سوء ما اخترت جليسا!

- ألا تحبنى كهؤلاء؟

- ليتنى أستطيع . . ولكنى أجد فيك ما يجده المقرور فى المدفأة.

- إذن انصحنى ماذا أصنع بحياتى لأنى اليوم أشكو؟

- أتشكين حقّا . . أنعيم وثراء وشكوى؟

- كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم؟

- الجميع يشكو يا رادوبيس، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين الذين يتلهفون على كسرة خبز، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يئنون تحت عبء التبعات الجسام، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة. فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعى بما قسم لك.

- وهل يشكو الناس فى عالم أوزوريس؟

فابتسم الشيخ وقال:

- آه . . إن صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير. أما الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية، فصبرا أيتها الحسناء، إنك مازلت قليلة التجارب.

فعاودتها موجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب الفيلسوف، فقالت بلهجة جدية متصنعة:

- أحقّا أنى قليلة التجارب . . إنك لم تر مما رأيت شيئا؟

ـ وماذا رأيت مما لم أر؟

فأشارت ببنانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة:

ـ رأيت هؤلاء الرجال المبرزين، وصفوة مصر سيدة الدنيا، يسجدون عند قدمى، وقد ردوا إلى الوحشية، ونسوا حكمتهم ووقارهم، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة!

ثم ضحكت ضحكة رقيقة، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط البهو، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التى يبدع فيها جسمها اللدن، ويأتى بالمعجزة من الخفة والتثنى، وغلب الطرب القوم على أنفسهم، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف، واتقدت فى الأعين أنوار خاطفة، وختمت رقصتها، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها، وجالت بعينيها فى أوجه القوم الجشعة، فرأت ما أضحكها قهرا، وقالت:

ـ لكأنى بين الذئاب.

وأعجب عانن الثمل بالتشبيه، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة الجميلة، وحققت له الخمر ما تمنى، وظن نفسه ذئبا حقّا، فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا، ولكنه ثابر على العواء، وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف، حتى صار منها على قيد شبر، ثم قال لها:

ـ اجعلى هذه الليلة من نصيبى..

ولكنها لم ترد عليه، والتفتت إلى الحاكم آنى، وقد جاء يحييها تحية الوداع، فأعطته يدها، ثم تلاه الفيلسوف هوف، وقد سألته ضاحكة:

ـ ألا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك؟

فهز رأسه ضاحكا وقال:

ـ أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم قفط!

ورجا كل أن تكون الليلة له، وألحف فى الرجاء، وتنافسوا فى ذلك تنافسا شديدا حتى حرج الأمر. وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال:

ـ ليكتب كل منكم اسمه فى ورقة، ولنضع الأسماء جميعا فى صندوق عانن العاجى، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ..

واضطر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم، إلا عانن خشى أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع:

ـ مولاتى.. أنا رجل سفر، اليوم بين يديك، وغدا فى بلد بعيد لا أبلغه إلا بشق الأنفس، وإن فاتتنى الليلة فقد أخسرها إلى الأبد..

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم، وردوا عليه هازئين. وكانت رادوبيس صامتة.. تشاهد

عشاقها بعينين جامدتين، وقد عاودها القلق الغريب، فأحست برغبة فى الفرار والانفراد. وضجرت من الصراخ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف، فقالت:

ـ لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة، فلن أكون الليلة لإنسان!

وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين، لا يصدقون آذانهم، ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج، وجأروا بالشكوى. فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم، فقامت واقفة، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت:

ـ إنى تعبة.. دعونى أستريح!..

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها، وغادرت المكان على عجل..

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت، سعيدة بخلاصها تلك الليلة، ولا تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة.. وشخصت إلى النافذة رأسا وأزاحت عنها الستارة، ونظرت إلى الطريق المظلم، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان، فلذ لها منظرهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية.

كيف فعلت ما فعلت؟.. لا تدرى! ولكنها تشعر باضطراب وقلق..

واها.. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة؟. لقد حارها الجواب، ولم يرو غلتها الحكيم هوف نفسه، ثم استلقت على سريرها الوثير، واستسلمت للأحلام، فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة فى إثر الأخرى: فرأت جموع المصريين المحتشدة.. ورأت عينى الساحرة المتقدتين اللتين جذبتاها إليها بقوة قاهرة، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث الرعشة فى المفاصل.. ثم شاهدت فرعون الشاب فى هالة المجد والجمال، ثم ذلك النسر الهصور الذى انقض على فردة صندلها وطار بها إلى السماء. حقا كان يوما حافلا. ولعل هذا أيقظ عواطفها، وشرد خيالها، ووزع نفسها أشتاتًا، مما ذهب ضحية له العشاق البائسون، إن قلبها يخفق خفقانًا شديداً، ونفسها تضطرم بلهيب غامض، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة. وكأنها تود أن تنتقل من حال إلى حال، ولكن أى حال هذه؟! إنها حيرى لا تدرى شيئا، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة؟!

إن ما بها لسحرا مبينا، فإنْ لم يكن سحر ساحر، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر.

طـــــاهـــــو

كانت قلقة مبلبلة موزعة النفس، فيئست من النوم. وغادرت السرير مرة أخرى، ودلفت إلى نافذة تطل على الحديقة، وفتحتها على مصراعيها ووقفت وراءها كالتمثال، ثم حلت عقدة شعرها، فانساب فى خصلات مرتعشة على عنقها ومكبيها، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق، وملأت رئتيها بهواء الليل الرطب، ثم وضعت مرفقيها على حافة النافذة، وأسندت ذقنها إلى كفيها. وتاهت عيناها فى الفضاء الشامل للحديقة. والنيل الجارى وراءها. كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو، يهب نسيمها متقطعا خفيفا ضعيفا فيراقص الغصون والأوراق رقصا رحيما رقيقا، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء. أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع، ترسل شعاعا باهتا ما إن يقترب من الأرض حتى يغرق فى بحار الظلمة.

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيا على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة؟. هيهات.. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاه، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة، وأسلمت إليها خدها الأيمن، وأغمضت عينيها.

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف: «فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعى بما قسم لك». وتنهدت من أعماق قلبها، وتساءلت فى حزن. أما من فائدة ترجى من التغيير حقّا؟.. أحقّا أن الشكوى تلاحق الإنسان أبدا؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانا صادقا يصرف قلبها عن طلب التغيير؟ إن ما بقلبها ثورة جامحة، تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها، وتفر خالصة إلى آفاق غامضة مجهولة. فكيف تجد الراحة والقناعة؟ إنها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى، ولكنها جزعة برمة بكل شىء.

ولم تترك لأفكارها وأحلامها، إذ سمعت طرقا خفيفا على باب مخدعها، فأرهفت أذنيها دهشة، ونادت قائلة وهى ترفع رأسها:

ـ من؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة:

ـ أنا يا مولاتى.. أتسمحين لى بالدخول؟

فقالت:

ـ تعالى يا شيث . .

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها ، ودهشت لوقوف سيدتها ، وأن سريرها لم يمس ، وعاجلتها الغانية قائلة :

ـ ماذا وراءك يا شيث؟

ـ ورائى رجل ينتظر الإذن بالدخول .

فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :

ـ أى رجل؟! . . اطرديه دون تردد .

ـ كيف يا مولاتى؟! . . إنه رجل لا يغلق دونه باب هذا القصر .

ـ طاهو .

ـ هو بعينه .

ـ وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

فلاحت فى عينى الجارية نظرة ماكرة ، وقالت :

ـ هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتى .

فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية ، لحظات ، ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض . وحيّاها بانحناءة من رأسه ووقف أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك . ولم يخف عليها شحوب لونه ، وتجعد جبينه ، وظلمة عينيه ، فأنكرته ، وسارت إلى الديوان ، وجلست عليه وسألته :

ـ أراك متعبا . . هل أجهدك العمل؟

فهزَّ رأسه بالنفى ، وقال باقتضاب :

ـ كلا .

لست كعهدى بك .

ـ حقّا!

ـ لا شك فى أنك تعلم هذا . . ماذا بك؟

هو يعلم كل شىء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أداه إليها بنفسه أم لم يؤده . وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد . ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على إرادتها لهان كل شىء ، ولكنه يكاد أن ييأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها :

ـ آه يا رادوبيس! لو كنت تبادلينني الحب لأمكن أن أتوسل إليك باسم حبنا .

ترى ما حاجته إلى التوسل؟ . . عهدها به رجلا عنيفا يكره التوسل والرجاء، وطالما قنع بفتنة جسمها، فما الذى أفزعه؟! وخفضت عينيها وقالت:

ـ هذا حديث قديم معاد.

فأغضبه قولها على صدقه، واحتد قائلا:

ـ أعلم ذلك . . ولكنى أعيده لدواع حاضرة . . آه . . لكأن قلبك غار أجوف فى قاع نهر بارد . .

كانت ألفت أمثال هذا المقال، ولكنها قالت متململة:

ـ هل منعتك شيئا تشتهيه؟

ـ كلا يا رادوبيس. لقد وهبتنى جسمك الفاتن الذى خلق عذابا للبشر. ولكن طالما طمعت فى قلبك. ياله من قلب يا رادوبيس! إنه يقف وسط زوابع الشهوات جامدا كأنه ليس منك، ولطالما ساءلت نفسى متحيرا مغيظا، ماذا يعيبنى؟ ألست رجلا؟! بل أنا رجولة كاملة. والحقيقة أنك بدون قلب . .

وازداد إنكارها له، ليست هذه المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام؛ ولكنه كان يقوله ساخرا أو غاضبا غضبا خفيفا . . أما فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، فإنه يتكلم بصوت متهدج ويتميز غيظا وحنقا. فما الذى أهاجه؟ وكأنها أرادت أن تستحثه فسألته:

ـ أجئت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنى هذا الحديث؟

ـ كلا لم أجئ من أجل هذا الحديث . . ولكننى جئت من أجل أمر خطير . . إن لم يسعفنى الحب فيه، فلتسعفنى حريتك التى تحرصين عليها.

فنظرت إليه فى اهتمام شديد، وانتظرت أن يتكلم، وبلغ به الضيق أشده، فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لف ولا دوران، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوب عينيه إلى عينيها:

ـ ينبغى أن تهجرى قصر بيجة، وأن تفرى من الجزيرة فرارا فى أقرب وقت . . قبل أن ينبلج الصباح.

فارتاعت المرأة لقوله، ونظرت إليه بعينين لا تصدقانه وسألته:

ـ ما هذا الذى تقوله يا طاهو؟

ـ أقول إنه ينبغى أن تختفى . . أو تفقدى حريتك.

ـ وماذا يهدد حريتى فى بيجة؟

فأصر على أسنانه، وسألها بدوره:

ـ ألم تفقدى شيئا ثمينا؟

فقالت داهشة :

ـ بلى . فقدت فردة صندلى الذهبى الذى أهديتنيه .

ـ كيف؟

ـ خطفه النسر وأنا أستحم فى بركة الحديقة . . ولكنى لا أدرى أى علاقة توجد بين حريتى المهددة وصندلى المفقود؟

ـ مهلا يا رادوبيس . . لقد خطفه النسر حقّا، ولكن ألا تدرين أين سقط؟

وجدته يتكلم بلهجة العارف، فاستولى عليها العجب وتمتمت قائلة :

ـ من أين لى بهذا يا طاهو؟

فتنهد قائلا :

ـ سقط فى حجر فرعون .

وقرعت هذه الكلمة أذنيها فى هالة من دوى هائل، ملأ حواسها جميعا، وأذهلها عن كل شىء . فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها، وكان القائد يتفرس فى وجهها بعينين قلقتين مرتابتين، ويتساءل : ترى ما وقع الخبر فى نفسها؟ وما الإحساس الذى يعتلج فى صدرها؟ وضاق ذرعا . فسألها بصوت خافت :

ـ ألم أكن محقا فى طلبى؟

ولكنها لم ترد عليه، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى إليه . كانت غارقة فى لجج تلتطم فى قلبها الحائر، فهاله جمودها، وكبرت عليه حيرتها، ورأى فى ذلك آية نفر منها قلبه، فذهب صبره، واستنفره الغضب، فغشى بصره، وصاح بها بصوت أجش شديد :

ـ فى أى واد تتيهين يا هذه؟ . . ألم يفزعك هذا الخبر الهائل؟

فارتجف جسمها من شدة صوته . . والتهب الغضب بقلبها، وحدجته بنظرة حقد شديدة، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما يريد، وسألته ببرود :

ـ أترى أنه كذلك؟

ـ أرى أنك تتغابين يا رادوبيس .

ـ كم أنك ظالم . . هب أن الصندل سقط فى حجر فرعون، فهل تراه قاتلى لذلك؟

ـ كلا، ولكنه قلب الصندل بين يديه، وتساءل عمن عسى أن تكون صاحبته؟

فخفق قلب الغانية بشدة وسألته :

ـ وهل وجد الجواب؟

فأظلمت عيناه، وقال بصوت متهدج :

ـ كان هناك إنسان يتربص بى، جعلته الأقدار صديقا عدوا وعدوا صديقا، فانتهز

الفرصة السانحة، وطعننى طعنة نجلاء، فذكرك عند فرعون ذكرا جميلا مغريا، قدح الرغبة فى قلبه، وأهاج الشهوة فى صدره.

ـ سوفخاتب؟!

ـ هو بعينه ذاك الصديق العدو، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشاب.

ـ وماذا يريد؟

فعقد طاهو ذراعيه على صدره، وقال بشدة:

ـ ليس فرعون بالإنسان الذى يرغب فى شىء، ويعز عليه، وهو إذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به.

وساد الصمت مرة أخرى، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطرمة، وجثم الكابوس على صدر الرجل، واشتد به الحنق لصمتها، ولأنها لم تفزع ولم ترتعب، فقال لها بغيظ:

ـ ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر؟ حريتك يا رادوبيس التى تحرصين عليها، ولا تفرطين فيها. حريتك التى دمرت قلوبا وأهلكت نفوسا، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة تفتك بأهل بيجة جميعا، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها، وقالت له بسخط:

ـ أتقذفنى بهذا الوصف الذى تقشعر منه الأبدان، وكل ذنبى أنى لم أستبح نفسى للرياء، وأقول لإنسان كذبا إنى أحبه؟

ـ ولماذا لا تحبين يا رادوبيس؟ لقد أحب طاهو الجندى الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال، وتربى على ظهور العجلات. فلماذا لا تحبين أنت..؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة، وتساءلت:

ـ ترى هل أملك جوابا عن سؤالك؟

ـ لست أبالى هذا الآن، فما لهذا جئت.. أسألك ماذا أنت فاعلة؟

فقالت بهدوء، واستسلام عجيب:

ـ لست أدرى.

فاضطرمت عيناه كجمرتين، والتهمتاها بحنق، وأحس برغبة جنونية فى تحطيم رأسها. وحدث أن نظرت إليه فتنفس تنفسا عميقا، وقال:

ـ حسبتك أشد حماسا لحريتك.

ـ وما عسى أن أفعل؟

فضرب يدا بيد، وقال:

ـ تفرين يا رادوبيس ! تفرين قبل أن تحملى إلى قصر الحاكم جارية من الجوارى، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها، ثم تعيشين هنالك فى وحدة وعبودية، تنتظرين نوبتك مرة كل عام، تعيشين ما بقى من حياتك فى جنة حزينة يطوف بها سجن كئيب . . هل خلقت رادوبيس لمثل هذه الحياة؟!

وثارت ثائرتها غضبا لكرامتها وكبريائها . ترى من الممكن أن يكون حظها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة؟

أيقدر لها فى النهاية ـ هى التى يستبق إلى رضاها صفوة الرجال ـ أن تقاسم الجوارى قلب فرعون الشاب، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحريم الفرعونى؟ أتهوى إلى الظلمات بعد النور، وتتلفع بالهوان بعد العزة، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبارة الكاملة؟ . . أواه . . ما أبشع التصور وأغرب الخيال . . ولكن هل تفر كما يريد طاهو؟ . . أترضى بالفرار؟ رادوبيس المعبودة التى لم يحظ بحسنها وجه، ولم يشحن بسحرها جسم، تفر من العبودية؟ . . فمن إذن التى تطمع فى السيادة والاستئثار بالقلوب؟!

ودنا منها خطوة، وقال لها بتوسل :

ـ رادوبيس . . ماذا تقولين؟

فعاودها الغضب، وقالت بسخرية :

ـ ألا يسوءك أيها القائد أن تغرينى بالهرب من وجه مولاك؟

وأصابته سخريتها فى صميم قلبه، فترنح من هول الصدمة، وقال بسرعة، وقد أحس بمرارة فى فمه :

ـ لم يرك مولاى بعد يا رادوبيس . أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد . أنا أسير لهوى جامح لا يعرف الرحمة، يوردنى موارد الهلاك، ويطؤنى بقدم الذل والعذاب، إن صدرى أتون من عذاب ملتهب، وقد اشتد لهيبه اندلاعًا حين أشفق من فقدك إلى الأبد . فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبى، ولا أخون مولاى المعبود قط .

لم تلق بالا إلى شكواه، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه، كانت لا تزال تثور لكبريائها، ولذلك حين سألها الرجل عما تنوى عمله، هزت رأسها بعنف كأنما تريد أن تنفض عنها الوساوس الحقيرة وقالت بصوت بارد مليء بالثقة :

ـ لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل فى ذهول ويأس، وسألها :

ـ هل رضيت بالهوان وأسلمت للذل؟

فقالت، وعلى فمها ابتسامة:

ـ لن تذوق رادوبيس الذل أبدا.

فاستشاط غضبا. وقال:

ـ آه لقدفهمت! تحرك شيطانك القديم، شيطان الغرور والكبر والقوة، ذلك الشيطان يحتمى ببرودة قلبك الأبدية، ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكم فى المصائر، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد، وأراد أن يجرب قوته وسطوته، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين، غير عابئ بما يدوس فى سبيله الشيطانى من أشلاء القلوب، وذوب النفوس، وأنقاض الآمال.. آه.. لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا الخنجر؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة، وقالت:

ـ لم أمنعك شيئا، وطالما حذرتك من الإغراء!

ـ إن هذا الخنجر كفيل بتهدئة نفسى.. كم تكون نهاية طبيعية لرادوبيس؟

فقالت بهدوء:

ـ وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو!

فنظر إليها طويلا بعينين جامدتين، وكان يشعر فى تلك اللحظة الفاصلة بيأس مميت وقنوط خانق، ولكن غضبه لم ينفجر، وقال بلهجة باردة قاسية:

ـ ما أقبحك يا رادوبيس! أنت صورة بشعة مشوهة، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر. إن صورتك قبيحة لأنها صورة ميتة، ولا جمال بلا حياة، لم تنبض الحياة بصدرك قط، ولم تدفئ قلبك قط. أنت جثة وسيمة القسمات، ولكنها جثة. لم يبد الحنان فى عينيك، ولا انفرجت شفتاك عن ألم، ولا خفق قلبك بالعطف. نظرتك جامدة وقلبك قد من حجر.. أنت جثة ملعونة، وينبغى أن أكرهك، وأن أكرهك ما حييت.. وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء لك شيطانك، ولكنك ستصرعين يوما محطمة النفس، وهذه نهاية كل شر.. لماذا أقتلك إذن.. لماذا أحمل تبعة قتل جثة ميتة؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثم ذهب.

ولبثت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين، حتى غمرها سكون الليل..

ثم رجعت إلى النافذة. كان الظلام شاملا، والنجوم ساهرة فى مأدبتها الأبدية، والسكون مخيما رهيبا، فخالت أنها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها الدفينة.

كان ما بها قويا عنيفا بالحرارة والقلق، يقسم أن جسمها جسم نابض بالحياة، لا جثة هامدة..

فـــرعـــون

وفتحت عينيها فرأت ظلمة. ترى ألا يزال الليل جاثما، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم؟ ولبثت دقائق لا تعى شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا، كأنها جهلت الماضى كما تجهل المستقبل، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكة. وأحست هنيهة بذهول وضيق، ثم ألفت عيناها الظلمة فبهتت وخفت وطأتها، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من خصاص النوافذ فتبينت أثاث المخدع، ورأت المصباح المدلى المكفت بالذهب، وولج الشعور حواسها، فذكرت أنها ظلت يقظة لا يذوق جفنيها نوم حتى غمرها الفجر بموجة الأزرق الهادئ، وأنها ارتمت عند ذاك على السرير، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها، وعلى ذلك تكون فى نهار اليوم الثانى، أو فى مسائه.

وذكرت حوادث الليلة الماضية، وعادت إلى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغى ويزبد، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت. ياله من رجل عنيف! إنه لرجل جبار شديد الغضب، وحشى الغرام، ولا عيب فيه إلا أن حبه عنيد مثابر، شديد التغلغل. وتمنت صادقة لو ينساها أو يمقتها، إنها لا تجنى من الحب سوى المشقة. الكل يتلهف على قلبها، وقلبها زاهد نافر، كحيوان غير أليف. وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثرة ومآسى أليمة، وهى كارهة. ولكن المآسى كانت تتبعها كظلها، وتحوم حولها كخواطرها، فلوثت حياتها بالقسوة والآلام.

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب فى رؤية صاحبة الصندل، وأنه سيدعوها حتما إلى حريمه العامر.. آه.. إن فرعون شاب ملتهب الدماء، جنونى الشباب. كما قيل لها، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال، ولا مستحيلا أن تصدق أقواله، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدا، إن ثقتها بنفسها لا حد لها.

وسمعت طرقا على الباب، فقالت بصوت متكاسل:

ـ شيث.. ادخلى.

وفتحت الجارية الباب، ودخلت تسير فى خفتها المعهودة وهى تقول:

ـ حمدا للرب الذى يسر لك النوم بعد طول السهاد.

وارحمتاه لك يا مولاتى، لابد أن الجوع نال منك كل منال.

وفتحت النافذة، فانبعث منها نور مكلل بسمرة، وقالت ضاحكة:

ـ غابت شمس اليوم دون أن تراك، فباءت من زيارتها للأرض بالخسران.

وسألتها رادوبيس وهى تتمطى وتتثاءب :

ـ أأتى المساء؟

ـ نعم يا مولاتى ، والآن هل تذهبين إلى الماء المعطر أم تتناولين الطعام؟ . . واأسفاه . . ! أنا أعلم بما سهد جفنيك بالأمس!

فسألتها باهتمام :

ـ ما هو يا شيث؟

ـ إنك لم تدفئى الفراش برجل .

ـ خسئت يا ماكرة .

فقالت الجارية وهى تغمز بعينيها :

ـ الرجال عادة مستبدة يا مولاتى ، ولولا هذا ما احتملت غرورهم .

ـ حسبك ثرثرة يا شيث .

وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :

ـ هلمى بنا إلى الحمام . . فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال ، ويؤلمهم أن يروه خاليا منك .

ـ هل جاءوا حقّا؟

ـ وهل خلا بهواستقبالك منهم قط فى هذه الساعة؟

ـ لن أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت إلى سيدتها بارتياب ، وقالت :

ـ خيبت بالأمس آمالهم . . فماذا تقولين اليوم؟ . . آه . لو تعلمين يا مولاتى كم جزعوا لتأخر حضورك .

ـ آذنيهم بأنى تعبة .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت بها بعنف :

ـ اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدرى بما غيّر مولاتها .

وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت إن هذا ليس وقتهم ، فهى لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغى إلى إنسان ، ولا أن تحصر خواطرها فى حديث فضلا عن أن ترقص أو تغنى . . فليذهبوا جميعا . . وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم ، فقامت من السرير وهرولت إلى الحمام . .

وتساءلت فى وحدتها : ترى هل يرسل فرعون فى طلبها هذا المساء؟ آه أهى لهذا

تضطرب وتقلق؟ أهى تخشى؟ كلا . . إن هذا الحسن الذى لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد لها، وإنها لكذلك . . ولن يقاوم جمالها إنسان، ولن يذل حسنها لمخلوق، ولو كان فرعون نفسه! ولكن لماذا إذن هى مضطربة قلقة؟! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذى تلبسها مساء الأمس، والذى نبض بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب الواقف على ظهر عجلته كالتمثال. يا عجبا. . أتراها حائرة لأنها حيال لغز غامض! واسم جبار هائل! ورب معبود!، أترى أنها تود لو تراه فى نشوة البشر بعد أن رأته فى جلال الآلهة؟! أتراها قلقة لأنها تريد أن تطمئنّ إلى قوتها بإزاء هذا الحصن المنيع!

وطرقت شيث باب الحمام، وقالت إن السيد عانن أرسل معها كتابا إلى مولاتها، فغضبت الغانية، وقالت بعنف: «مزقيه إربا»! وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها، فذهبت تتعثر فى الارتباك. وغادرت رادوبيس الحمام إلى مخدعها فى أجمل صورة وأكمل هيئة، وتناولت الطعام وشربت كأسا مترعة من خمر مريوط. ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان، فتلقتها بنظرة تحذير ووعيد، وقالت الجارية فى خوف:

- فى البهو رجل غريب يلح فى مقابلتك.

فاستولى الغضب على الغانية، وصاحت بها:

- هل أصابك مس من الجنون يا شيث؟ أتحالفين أولئك القوم المزعجين علىّ؟!

فقالت الجارية وهى تلهث:

- صبرا يا مولاتى. . لقد دفعت الزوار جميعا، أما هذا الرجل فغريب لم تره عينى من قبل. . التقيت بغتة به فى الردهة المؤدية إلى البهو، ولا أدرى من أين أتى. . وحاولت أن أعترض سبيله، ولكنه سار بغير مبالاة، وأمرنى أن أبلغك رجاءه.

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة، وسألتها باهتمام:

- هل هو من ضباط الحرس الفرعونى؟

- كلا يا سيدتى. . إنه لا يرتدى زى الضباط. . وقد سألته أن يعلن لى عن شخصيته، فهزّ منكبيه باستخفاف، فأكدت له أنك لا تقابلين أحدا اليوم. . ولكنه استهان بكلامى، وأمرنى أن آذنك بانتظاره. . أواه يا مولاتى! إنى أحرص على رضاك، ولكنى لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقيل الجرىء.

وتساءلت أيكون هو رسول الملك؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها. . وجرت إلى المرآة، وألقت على صورتها نظرة فاحصة، ثم دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت فى المرآة، وسألت الجارية:

ـ ماذا ترين يا شيث؟

فقالت الجارية، وهى تدهش لتبدل حال مولاتها:

ـ أرى رادوبيس يا مولاتى!

وغادرت الغانية المخدع، تاركة جاريتها فى دهشتها وحيرتها، وانتقلت كالحمامة من حجرة إلى حجرة، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفاخر السجاد، وتريثت قليلا عند مدخل البهو. . رأت رجلا يوليها ظهره، ووجهه إلى جدار البهو يطالع شعرا لرامون حتب. . ترى من هو؟ كان فى مثل طول طاهو ولكنه أميل إلى النحافة والدقة، عريض المنكبين، جميل الساقين، على ظهره وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكبيه ومنطقة وزرته، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرمى لا تشبه قلنسوات الكهنة، ترى من يكون؟ إنه لا يشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ. . ولما صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت خفيض:

ـ سيدى!

فالتفت الرجل الغريب إليها.

رباه! وجدت نفسها وجها لوجه أمام فرعون. فرعون نفسه بعزته وجلاله، مرنرع الثانى دون غيره من الخلق!

رباه لقد زعزعت المفاجأة كيانها، فأخذت قهرا، وغلبت على أمرها. ترى أهى فى حلم من الأحلام! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر، والأنف الأشم الطويل. إنها لا يمكن أن تنساه أبدا، لقد رأته مرتين، فنفذ إلى ذاكرتها بقوة، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول. ولكنها لم تحسب حساب هذا اللقاء، ولا أخذت أهبتها له، لم ترسم له خطة من خططها البارعة. وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليا، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة؟! أخذت على غرة، فقهرت قهرا! ومنيت بالهزيمة الساحقة، وبادرت تنحنى لأول مرة فى حياتها، وتقول بصوت متهدج: «مولاى».

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة، فتستقر على وجهها الجميل، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماتها بنشوة فاتنة. . فلما حيته قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة واللهجة العالية:

ـ أتعرفيننى؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقى:

ـ نعم يا مولاى. . هكذا شاء حظى السعيد أمس.

وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها. وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله، فلم يعد يأبه لإرادته، واندفع قائلا:

- إن الملوك قوامون على الناس، يسهرون على أرواحهم، وعلى أموالهم، ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة.

ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه، فيخرج فردة الصندل ويقدمها إليها وهو يقول:

- أليس هذا صندلك؟

وتبعت عيناها يد فرعون، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئا.. وتمتمت بانفعال شديد:

- صندلى!

فضحك الملك ضحكة عذبة، وقال وعيناه لا تتحولان عنها:

- بعينه يا رادوبيس، أليس هذا اسمك؟

فأحنت رأسها، وتمتمت قائلة: «نعم يا مولاى».

وكانت مضطربة فلم تزد، أما الملك فاستدرك:

- إنه لصندل جميل، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه، وكنت أحسبها زخرفا جميلا حتى وقعت عليك عيناى، فعلمت أنها حقيقة رهيبة، وعلمت حقيقة أجل، وهى أن الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له فى حسبان.

فشبكت كفيها، وقالت:

- مولاى.. ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك، أما أن تحمل صندلى.. رباه ماذا أقول؟.. لقد فقدت جنانى. غفرانك يا مولاى! ويحى نسيت نفسى يا مولاى، وتركتك واقفا.

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه، ثم انحنت باحترام. ولكنه اختار ديوانا وثيرا، وجلس عليه، وقال لها:

- ادنى منى يا رادوبيس. اجلسى ها هنا..

فدنت الغانية حتى سارت على بعد قريب، ووقفت تغالب اضطرابها وذهولها. فأجلسها بيده، وأمسك بمعصمها - وكانت أول لمسة - وأجلسها إلى جانبه.. وكان قلبها يخفق بشدة، فوضعت الصندل جانبا، وخفضت عينيها، ونسيت أنها رادوبيس المعبودة، التى تعبث بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث. غلبتها المفاجأة، وهز نفسها الشخص المعبود، كأنه ضوء متوهج سلط على عينيها بغتة، فانكمشت كعذراء تتصدى

لرجلها أول مرة . . إلا أن جمالها الرائع خاض المعركة - بغير علم منها - ثابت الجنان، عظيم الثقة، وسلط شعاعه السحرى على عينى الملك الدهشتين كما تسلط الشمس شعاعها الفضى على نائم النبت، فيصحو ويرف رفيفًا فاتنا . كان جمال رادوبيس قاهرا نفاذا، يحرق من يدنو منه، ويبعث فى نفسه الجنون، ويملأ صدره برغبة لا تروى ولا تشبع . .

كانا فى تلك الليلة الخالدة - رادوبيس المتعثرة فى ارتباكها والملك التائه فى الحسن - أحوج بشرين إلى رحمة الآلهة .

وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

- كيف لا تسألينني عن وقوع صندلك بين يدى؟

فساورها القلق، وقالت :

- نسيت أمورا أجل يامولاى .

فابتسم وسألها :

- كيف ضاع منك؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها ، فقالت :

- خطفه النسر، وأنا أستحم .

وتنهد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل السقف، وأغمض عينيه يتخيل ذلك المنظر الفاتن، إذ رادوبيس تلعب فى الماء بجسمها العارى، والنسر يهوى من عل فيخطف صندلها . وسمعت الغانية رفيف أنفاسه، وأحست بها تلفح خدها، وعاد إلى النظر إلى وجهها، وقال بوجد :

- خطفه النسر وطار به إلى . يا للقصة الفاتنة ! . . ولكنى أتساءل منكرا : أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض إلى الرب هذا النسر الكريم؟ . . يا له من فرض محزن ! ومع هذا فإنى أحس فى أعماقى بأنه كبر على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى، فرمانى بالصندل لأنتبه من غفلتى .

فقالت كالدهشة :

- هل رمى النسر بالصندل بين يديك يامولاى؟

- نعم يا رادوبيس . . هذه هى القصة الفاتنة .

- يا لها من مصادفة كالسحر !

- أتقولين مصادفة يا رادوبيس . . وما المصادفة؟ . . إنها قضاء مقنع !

فتنهدت وقالت :

- صدقت يا مولاى . . إنها كالعاقل المتغابى .

ـ سأعلن رغبتى على الملأ ألا يعرض إنسان من شعبى لنسر بسوء!

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة، ومضت فى ثغرها كتعويذة سحرية. وأحس الملك بهيام يملك قلبه، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم فى وجد بين، وقال وهو يتنهد:

ـ إنه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأثمن ما فى حياتى.. رادوبيس! كم أنت جميلة! هذا حسن يزرى بأحلامى جميعا.

وسرت المرأة لقوله، كأنها تسمعه لأول مرة فى حياتها، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادته هياما، فقال وكأنه يضرع ويشكو:

ـ كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبى.

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق، وهمس:

ـ رادوبيس.. أريد أن أنغمر فى أنفاسك.

فبسطت له وجهها، وأسبلت جفنيها. وجعل يهوى بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله، وسها إلى عينيها السوداوين حتى صارت الدنيا ظلاما، وأذهله الهوى، فاستولى عليه تخدير ساحر، حتى تنبه على تنهدها العميق، فاعتدل قليلا، وهمس فى أذنها قائلا:

ـ رادوبيس! إنى أقرأ أحيانا مصيرى، سيكون الجنون منذ الساعة شعارى.

وأسندت رأسها إلى كفها إعياء، وكان قلبها يخفق، فجلسا ساعة صامتين يسعد كلاهما بحديث نفسه، وما يحادث ـ وهو لا يدرى ـ إلا صاحبه، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة، وقالت له:

ـ هلا اتبعتنى يا مولاى لتشاهد قصرى؟

كانت دعوة سعيدة.. ولكنها ذكرته بأمور كاد أن ينساها، فوجد نفسه مضطرا إلى الاعتذار.. وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة. والقصر وما فيه ملك يمينه.. فقال بأسف:

ـ ليس الليلة يا رادوبيس.

ونظرت إليه بإنكار، وسألته:

ـ ولم يا مولاى؟

ـ هناك قوم ينتظروننى منذ ساعات فى القصر.

ـ أى قوم يا مولاى؟

فضحك الملك، وقال باستهانة:

ـ كان ينبغى أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن، والحق يا رادوبيس أننى منذ حادثة

النسر فريسة للعمل الشاق، وكنت أبيت نية زيارة قصرك، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية. ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه، أجلت اجتماعا مهما ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبى.

واستولت الدهشة على رادوبيس، وتمتمت قائلة «مولاى». وكانت تعجب من استهتاره الذى دفعه إلى تأجيل اجتماع مهم من الاجتماعات التى تبرم فيها مصائر المملكة، لكى يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة.. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا نظير له بين أعمال العشاق ولا شعر الشعراء.

أما الملك فقام بدوره وقال لها:

ـ أنا ذاهب الآن يا رادوبيس.. واها.. إن القصر خانق.. إنه سجن مسور بالتقاليد، ولكننى أمرق منها مروق السهم.. سأترك الآن وجها حبيبا لألقى وجها بغيضا، فهل رأيت أغرب من هذا؟.. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة. بل إلى الأبد.

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته، وشبابه، وجنونه.

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه، فقالت وهى تتنهد: «ذهب..». ولكنه فى الحقيقة لم يذهب، لو كان ذهب حقا لما استولى عليها ذلك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم واليقظة، تذكر وتحلم، والصور تمر أمام مخيلتها فى تزاحم وتسابق وجنون.

حق لها أن تسعد؛ لأنها بلغت منتهى المجد، وتسنمت ذروة البهاء وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض. زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكية، وصاح بين يديها أن سوطا من اللهب يلهب قلبه الفتى، فتوجت بهيامه ملكة على عرشى المجد والجمال. وحق لها أن تسعد.. على أنها كانت تسعد سعادة المجد!. ومال رأسها قليلا، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مست شفتاها فريسه..

ولم تنفرد بأحلامها طويلا إذ دخلت شيث. وقالت:

ـ مولاتى.. أتنوين أن تنامى هنا؟

ولم ترد عليها.. وحملت الصندل، وقامت فى كسل وسارت تتهادى صوب مخدعها. وتشجعت شيث بسكرتها، فقالت بلهجة حزينة:

ـ وا أسفاه يا مولاتى.. إن هذا البهو الجميل الذى ألف الطرب واللهو، يقفر الليلة

لأول مرة من السمار والعشاق . . ولعله يتحير مثلى سائلا : «أين الغناء؟ أين الرقص؟ أين الحب؟ هى مشيئتك يامولاتى . . » .

ولم تبالها الغانية ، وصعدت أدراج السلم فى صمت وسكون ، فظنت شيث أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :

ـ لشد ما وجموا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك . . وتبادلوا نظرات الحسرة والحزن العميق ، وتراجعوا فى ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس .

ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت إلى مخدعها الجميل ، وهرعت إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة ، وقالت لنفسها : «إذا كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة معجزة أيضا» . وغمرتها نشوة سعادة ، فالتفتت إلى شيث وسألتها :

ـ من حسبت الرجل الذى جاء لمقابلتى؟

ـ من هو يا مولاتى؟ . إننى لم أره قبل اليوم . هو شاب غريب ، ولكن لا جدال أنه من النبلاء ، مليح رهيب جسور ، يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع شديد ، ولصوته لهجة الآمر ، ولولا خوفى لقلت : إنه لا يخلو من . .

ـ من ماذا؟

ـ من جنون .

ـ حذار . .

ـ مولاتى . . مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعا الذين طردتهم اليوم .

ـ حاذرى أن تندمى حيث لا ينفع الندم .

فقالت شيث دهشة :

ـ هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آنى؟

فقالت بزهو :

ـ إنه فرعون يا حمقاء . .

وحملقت المرأة فى وجه مولاتها . وتدلت شفتها السفلى ، ولم تنطق .

فقالت الغانية ضاحكة :

ـ هو فرعون يا شيث . . فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ، إياك والثرثرة . . اذهبى الآن ، اغربى عن وجهى . فإنى أريد أن أخلو بنفسى . .

وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة ، وكان الليل جثم فى مجثمه وأرخى على الكون جناحيه ، وبدت طلائع النجوم فى كبد السماء ، وأنوار المصابيح

المعلقة بأغصان الأشجار فى الحديقة، وتبدى الليل فاتنا، فتذوقت جماله وأحست لأول مرة بأن انفرادها فيه عذب، بل أعذب من اجتماعها بالعشاق جميعا. . وأصغت فى سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها. . وبعثت الذكريات، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد، خفق فيه قلبها خفقة طائشة، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيجة، وتغدو للأنفس قضاء لا يرد. كانت ريفية حسناء، برزت من بين أوراق الريف المخضلة، كما تبرز الوردة اليانعة، وكان نوتيا عذب الصوت نحاسى الساقين، ولا تذكر أنها سلمت لإنسان بداعى قلبها سواه، وشهدت شواطئ بيجة مشهدا لم تسعد بمثله فى الأرض. ودعاها إلى سفينه فلبت دعاءه، وحملتها الأمواج من بيجة إلى أقصى الجنوب، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا. واختفى النوتى من حياتها فجأة، ولم تدر إن كان ضل، أو فر، أو مات، ووجدت نفسها وحيدة. كلا لم تكن وحيدة، كان معها جمالها فلم تتشرد، والتقطها كهل ذو لحية طويلة، وقلب ضعيف. وطابت لها الحياة وأثرت بموته، وتوهج نورها فخطف الأبصار، فانجذبوا إليها كالفراش المجنون، وألقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوبا فتية، وأموالا لا تعد، وبايعوها ملكة للقلوب فى قصر بيجة، فكانت رادوبيس. . يا للذكريات!

كيف مات قلبها بعد ذلك؟ . . هل أماته الحزن، أم الغرور، أم المجد؟ . . كانت تصغى إلى حديث الحب بأذن صماء، وقلب مغلق، فكان منتهى ما يطمع فيه عاشق مدله مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد.

استسلمت للذكريات طويلا، وكأنما استدعتها لتربطها بأعجب أيام حياتها، وأسعد أيامها!

ومضى الوقت وهى لا تحس به إن كانت ساعات أم دقائق، حتى انتبهت على وقع أقدام، فالتفتت منزعجة، فرأت بابها يفتح، ودخلت شيث لاهثة وقالت:

ـ مولاتى. . إنه يتبعنى. . ها هو ذا.

ورأته يدخل مطمئنا كأنه يدخل مخدعه الخاص، فغمرتها دهشة ممزوجة بفرح وصاحت:

ـ مولاى. .

وانسلت شيث خارجا، وأغلقت الباب، وألقى الملك نظرة على المخدع الجميل، وقال ضاحكا:

ـ هل أطلب المغفرة لتهجمى هذا؟

فابتسمت ابتسامة سعيدة، وقالت:

ـ المخدع وصاحبته لك يا مولاى.

فضحك ضحكته الفاتنة . كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة ، وأمسك بمرفقها ، وسار بها إلى الديوان وأجلسها ، وجلس إلى جانبها ، وقال :

ـ كنت أخشى أن يسبقنى النوم إليك .

ـ النوم . . النوم لا يهتدى إلى أمثال هذه الليلة ، يحسبها من فرط نور السعادة نهارا .

فتبدى الجد على وجهه وقال :

ـ إذن احترقنا معا . .

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها فى مثل هذه اليقظة والحياة ، ولم تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الإنسان البديع ، فقد صدق ، إنها تحترق ، ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجرى فيهما الصفاء والمودة . . ثم قالت :

ـ لم يدر بخلدى أنك تعود هذه الليلة . .

ـ ولا دار لى بخلد ، ولكننى رأيت الاجتماع ثقيلا مرهقا ، وأعيانى تركيز فكرى ، واستخفنى الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت عددا يسيرا ، وأصغيت إليه بعقل مشتت ، ثم ضقت بكل شىء ذرعا ، فقلت له إلى الغد ، ولم أكن أفكر فى العودة ، ولكنى رغبت فى أن أخلو بنفسى للحديث والمناجاة . . فلما خلوت إلى نفسى وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسى قائلا : لماذا أصبر إلى الغد؟ . . وليس من عادتى أن أقاوم عاطفة ، فما عتمت أن وجدتنى ها هنا بين يديك . .

يا لها من عادة سعيدة! إنها تجنى أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب . . وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

ـ رادوبيس . . ما أجمل هذا الاسم ، فإن له وقع الموسيقى فى أذنى ومعنى الحب فى قلبى . وهذا الحب شىء عجب ، كيف يصرع رجلا تعمر لياليه الحسان من كل لون وطعم؟ . . إنه حقّا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب؟ إنه قلق معذب يسكن فى قلبى ، وأنشودة إلهية ترتل فى أسمى مكان من روحى . إنه حنين موجع ـ إنه أنت . أنت حالة فى كل آية من آيات الدنيا والنفس ، انظرى إلى هيكلى هذا الشديد ، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء . .

إنها تبادله هذا الشعور ، وتحس بصدقه ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين ، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلهية ، وتشاهد صورته فى آيات الدنيا والنفس ، وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة ، فما عتم أن تماست أهدابهما ، فسألها برقة :

ـ لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس؟

وفتحت عينيها الجميلتين، ونظرت إليه بوجد وحنان، وقالت:

ـ ما حاجتى إلى الكلام يا مولاى؟ فطالما كان الكلام يتدفق على لسانى، وقلبى ميت، أما الآن، فقلبى يبعث حيا، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس، وتحيا بها.

فابتسم إليها سعيدا، وقال:

ـ اختطفنى هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء.

فقالت وهى تبادله الابتسام:

ـ واختطفنى من وسط دنيا عامرة بالرجال.

ـ كنت أتخبط فى دنياى كالحائر، وأنت منى على بعد ذراع، واأسفاه.. كان ينبغى أن أعرفك من أعوام.

ـ كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا.

فشد على قبضة يده بحماس، وقال:

ـ نعم يا رادوبيس، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر فى لوحها أجمل قصة حب، وما أشك فى أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد، وما ينبغى لنا بعد اليوم أن نفترق. فأجمل ما فى الدنيا أن نرى معا.

فتنهدت من أعماق قلبها، وقالت:

ـ نعم يا مولاى، فلا ينبغى أن نفترق بعد اليوم، وهاك صدرى حقلا ناضرا ارتع فيه أنى شئت.

فبسط كفها بين يديه، وضغط عليها بحنو، وقال:

ـ تعالى إلىَّ يا رادوبيس، ليغلق هذا القصر على الماضى الغادر، فإنى أحس بأن كل يوم ضاع من حياتى قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت إلى سعادتى.

كانت كالمخمورة، ولكن ساورها القلق، فسألته:

ـ أيريدنى مولاى على أن أنتقل إلى حريمه؟

فهز رأسه قائلا:

ـ ستنزلين بأعز مكان به..

فخفضت عينيها ووجمت، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها، ووضع أنامل يمناه تحت ذقنها الصغير، ورفع وجهها إليه وسألها:

ـ مالك؟

فسألته بعد تردد:

ـ أأمر هو يا مولاى؟

فانقبض صدره لذكر الأمر، وقال:

ـ أمر؟.. كلا يا رادوبيس، إن لغة الأمر لا تجدى مع الحب، وإنى ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتى!.. وأعود واحدا من البشر يشق طريقه بلا عون، ويلقى حظه بغير محاباة. انسى فرعون مليا، وأخبرينى ألا ترغبين فى اللحاق بى؟

وخشيت أن يسىء فهم وجومها وترددها، فقال بلهجة صادقة:

ـ أرغب فيك يا مولاى رغبتى فى الحياة، بل الحقيقة أجمل من هذا. الحقيقة أنى لم أحب الحياة حبا صادقا إلا منذ أحببتك، وأن قيمتها فى نظرى أنها تشعرنى بحبك، وتسعد حواسى بوجودك، أليس للمحبين غريزة تصدقهم القول؟.. سلها عن قلب رادوبيس يا مولاى تعد على أذنيك ما جرى على لسانى، ولكنى أتساءل حيرى: لماذا أغلق أبوابه إلى الأبد؟.. إنه أنا بالذات يا مولاى، فينبغى أن تحبه كما تحبنى. لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لى، إما صورتى أو اسمى أو تمثال لى. كيف لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار إليك برسالة الحب الخالدة؟.. كيف لى بهجره وقد خفق قلبى فيه بالحب لأول مرة؟.. كيف لى بهجره يا مولاى وقد زرتنى فيه بذاتك العالية؟.. حرى بأى مكان تطؤه قدماك أن يصير ـ كقلبى ـ لك وحدك، ولا يغلق أبوابه أبدا..

كان يصغى إليها بحواسه المرهفة، وقلبه المشبوب الجامح، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها. ثم لمس بحنو جدائل شعرها الفاحم، واحتواها بين ذراعيه، وطبع على شفتيها قبلة رطبت برحيق عذب، وقال لها:

ـ رادوبيس.. أيتها الحب الممتزج بروحى.. لن يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته، سيبقى ما بقينا مهدا للحب، وجنة للهوى، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات، سأجعل منه محرابا للحب، وأصير أرضه وجدرانه ذهبا مصفى.

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة، وقالت تناجيه:

ـ لتكن مشيئتك يا مولاى، وإنى أقسم بحبى لأذهبن الغداة إلى معبد الرب سوتيس، وأغسل جسدى بالزيت المقدس، لأرحض نفسى من الماضى الشقى، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد كزهرة تشق الأكمام وتتصدى لشعاع الشمس.

فوضع يدها على قلبه، ونظر إلى عينيها وقال:

ـ رادوبيس أنا اليوم سعيد، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتى، حياتى وحسبى بها من حياة.. انظرى إلى، فسواد عينيك أشهى لقلبى من نور الدنيا..

فى تلك الليلة نامت جزيرة بيجة، وسهر الحب بقصرها الأبيض، حتى انحسر فى ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحالمة.

ظل الحب

استيقظت فى الضحى، وكان الجو حارا، والشمس ترسل أشعتها المتوهجة، فتبث فى الدنيا نورا ونارا، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن، وشعرها مبعثرا، منه خصلات نائمة على صدرها، وخصلات ملقاة على الوسادة.

طوبى ليقظة تهيج فى القلب أجمل الذكريات.. كان قلبها مرتعا للغبطة، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما تكشف عالما جديدا جميلا، أو كأنها تبعث خلقا جديدا..

ومالت فى نومتها إلى جانبها، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة، فرأت آثار رأسه عليها واضحا، فاستل من عينيها منتهى العطف والحنان، وأدنت رأسها منه ولثمته، وقد تمتمت بفرح: ما أجمل كل شيء.. وما أسعدنى بكل شيء..

ثم جلست فى فراشها هنيهة وغادرته ـ كما كانت تغادره كل صباح ـ نشطة مرحة كملحة بارعة فى نفس عامرة بالفكاهة، واستحمت بالماء البارد، وتعطرت بماء الزهر، وارتدت ثيابها المبخرة ثم عادت إلى مائدة الطعام، وتناولت إفطارها المكون من بيض وفطير، وشربت كوبا من اللبن الحليب، وكأسا من الجعة.

واستقلت سفينتها إلى آبو، وقصدت إلى معبد الرب سوتيس، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل، وطافت بأرجائه، وتبركت بجدرانه وعمده ذات النقوش المقدسة، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى، وسألتها أن تغسلها بالزيت المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها، وترحض قلبها من الغى والعمى. وقد أحست، وهى بين يدى الكاهنات المطهرات، أنها تودع بلا رحمة قبر الفناء جسد رادوبيس الغانية اللعوب، التى كانت تعبث بالرجال وتهلك النفوس، وترقص على أشلاء الضحايا، وذوب القلوب، وأن دما جديدا يجرى فى عروقها، فينبض فى قلبها وحواسها الطمأنينة، والسعادة، والطهر. ثم صلت صلاة حارة، جاثية على ركبتيها مغرورقة العينين، وضرعت فى الختام إلى الرب أن يبارك حبها وحياتها الجديدة. وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنها طائر يرف بجناحيه فى سماء صافية، واستقبلتها شيث فرحة متهللة، تكاد تطير من الفرح، وقالت:

ـ مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتى . ألا تعلمين من أتى قصرنا فى غيبتك؟ . .

فخفق قلبها باضطراب فرح ، وصاحت :

ـ من ؟

فقالت الجارية :

ـ أتى رجال من أمهر الصناع بمصر مبعوثين من قبل فرعون ، فشاهدوا الحجرات والأروقة والردهات ، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيد الصنع أثاث جديد .

ـ حقًا . .

ـ نعم يا مولاتى ، وسيغدو هذا القصر عما قليل أعجوبة الزمان ، فيا لها من صفقة رابحة!

وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة ، ثم خطر لها خاطر ، فقطبت جبينها وسألتها :

ـ أى صفقة تعنين يا شيث؟

فغمزت المرأة بعينيها ، وقالت :

ـ صفقة الغرام الجديد ، وحق الأرباب إن مولاى ليزن أمة من الأغنياء ، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب . .

وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار ، وصاحت بها :

ـ خسئت يا امرأة . . أنا لا أتجر الآن . .

ـ ويل لى . . لو كانت لدى شجاعة يا مولاتى لسألتك عما تفعلين إذن؟

فتنهدت رادوبيس وقالت :

ـ أمسكى عن هذرك ، ألا ترين أنى أجد فى الأمر جدا؟

فحملقت الجارية إلى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم قالت :

ـ باركتك الآلهة يا مولاتى . . إنى حائرة وأسائل نفسى : لماذا تجد مولاتى جدا؟

فتنهدت رادوبيس مرة أخرى ، واستلقت على الديوان الوثير ، وقالت بصوت خافت :

ـ أحببت يا شيث . .

فضربت الجارية على صدرها بيدها ، وقالت بفزع ودهشة :

ـ أحببت يا مولاتى !

ـ نعم أحببت ، مالك تدهشين؟

ـ معذرة يا مولاتى، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى لك على لسان من قبل. . فكيف جاء؟

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة:

ـ ما الداعى إلى العجب؟ امرأة تحب، يا لها من حقيقة مبتذلة!

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها، وقالت:

ـ أما هنا فلا، عهدى به حصنا منيعا، فكيف أخذ؟ . . ألا بالله قولى لى . .

وبدت فى عينيها الأحلام، وبعثت الذكرى فى نفسها شعورا فياضا، فقالت بصوت كالهمس:

ـ أحببت يا شيث، والحب شىء عجيب. . فى أى دقيقة من الزمان طرق الحب قلبى؟ كيف تسلل إلى أعماق نفسى؟ لا علم لى بذلك، وإنه ليحيرنى حيرة شديدة، ولكنى عرفت الحقيقة بقلبى، لقد خفق بشدة وعنف، خفق لرؤية وجهه، وخفق لسماع صوته، وما كان عهدى به أن يخفق لشىء من هذا، فوسوس لى صوت خفى بأن هذا الرجل صاحب هذا القلب دون منازع، فغمرنى إحساس قوى عنيف عذب أليم، وشعرت شعورا وثابا بأنه ينبغى أن يكون لى كقلبى، وأن أكون له كنفسه، ولم أعد أتصور أن تطيب حياة، ويلذ وجود بغير هذا الامتزاج . .

فقالت شيث لاهثة:

ـ يا للحيرة يا مولاتى!

ـ نعم يا شيث، طالما تمتعت بالحرية المطلقة، كنت أتخذ مجلسى على ربوة عالية وأسرح ناظرى فى عالم واسع غريب، وأسامر عشرات الرجال، وأتذوق متع الأحاديث، وأتملى آيات الفن، وألهو بالمجون والغناء. ولكن كان يرين على صدرى سأم لا شفاء له، وتغشى نفسى وحشة لا طمأنينة معها. الآن يا شيث ضاقت آمالى، وانحصرت فى رجل واحد هو مولاى، وهو دنياى. ولكن دبت حياة دافقة طردت من طريق حياتى السأم والوحشة، وأفاضت عليه نورا وبهجة، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة، ووجدتها فى رجلى الحبيب. . أرأيت ما هو الحب يا شيث؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة، وقالت:

ـ يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى! ولعله أعذب من الحياة نفسها! وإنى أسائل نفسى عما أحس به من الحب، إن الحب كالجوع، والرجل كالطعام. . وإنى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة. . وحسبى هذا. .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر، ثم قامت واقفة، وذهبت إلى شرفة

تطل على الحديقة، وأمرت شيث أن تأتى لها بقيثارة، فأحست برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا . .

وغابت شيث برهة، ثم عادت حاملة القيثارة، وأسلمتها بين يدى مولاتها، وهى تقول :

ـ هل يزعجك أن تؤجلى اللهو إلى حين؟

فسألتها ببساطة، وهى تتناول القيثارة :

ـ ولمه؟

طلب إلىَّ أحد العبيد أن أخبرك بأن إنسانا يطلب الإذن بمقابلتك .

فلاح الاستياء على وجهها، وسألتها بجفاء :

ـ ألا يعرف من هو؟

ـ يقول إنه . . . يزعم أنه مرسل من قبل الرسام هنفر .

وتذكرت ما قاله لها الرسام هنفر أول أمس عن تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجرة الصيفية، فقالت لشيث :

ـ إيتى به إلى . .

وأحست بمضايقة واستياء، وأمسكت القيثارة بحدة، ولعبت أناملها بالأوتار فى خفة وغضب، لعبا لا وحدة بين أجزائه .

وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر، وقد أحنى رأسه فى إجلال، وقال بصوت رقيق :

ـ أسعد الرب يومك يا سيدتى . .

فوضعت القيثارة جانبا ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة؛ كان غلاما معتدل القامة، نحيف القد، أسمر الوجه، حسن القسمات، واسع العينين إلى درجة تستلفت النظر، تلوح فيهما آى الصفاء والسذاجة . فأخذتها حداثة سنه، وصفاء عينيه، وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقّا أن يتم عمل المثال العظيم هنفر؟ وقد أحست بارتياح إلى رؤيته، أذهب عنها موجة الاستياء التى اجتاحتها، وسألته :

ـ أأنت تلميذ المثال هنفر الذى اختارك لزخرفة الحجرة الصيفية؟

فقال الشاب بارتباك ظاهر، وكان بصره يتردد بين وجه رادوبيس وأرض الشرفة :

ـ نعم يا سيدتى .

ـ حسن، وما اسمك؟

ـ بنامون . . بنامون بن بسار .

ـ بنامون . . كم تبلغ من العمر يا بنامون، فإنى أراك صغيرا؟

فتورد خداه وقال :

ـ أبلغ الثامنة عشرة فى مسرى القادم .

ـ أراك تبالغ فى التقدير .

فقال الشاب بإخلاص :

ـ كلا يا سيدتى إن ما أقول هو الحق .

ـ يا لك من طفل يا بنامون!

واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا ، وكأنه خشى أن تعرض عنه لحداثة سنه . وقرأت مخاوفه ، فقالت مبتسمة :

ـ لا تقلق فإنى أعلم أن هبة المثال فى يده لا فى عمره .

فقال بحماس :

ـ لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .

ـ هل سبق أن قمت بعمل مهم؟

ـ نعم يا سيدتى ، زخرفت جانبا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم بيجة .

فقالت :

ـ أنت طفل نابغ يا بنامون .

فتورد خداه ، ولمعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة ، ونادت رادوبيس شيث ، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفية . وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :

ـ ينبغى أن تفرغى لى كل يوم . . فى أى وقت تشائين .

فقالت :

ـ لقد ألفت نفسى أمثال هذه الواجبات . . هل تنحت لى صورة كاملة؟

ـ أو نصفية ، وربما اكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أي حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأحنى رأسه ، وسار على أثر شيث ، وذكرت المرأة المثال هنفر ، وقالت لنفسها فى سخرية : هل كان يدور له بخلد ، أن القصر الذى سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله؟ . .

وأحست بارتياح إلى الأثر الذى تركه الشاب الساذج فى نفسها ، ولعله أثار فى قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل ، هى عاطفة الأمومة . . وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذى لم ينج منه إنسان ، ودعت الرب مخلصة أن يحفظ له طمأنينته وصفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعى الألم واليأس . .

بنـــامـــون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى إلى الحجرة الصيفية بالحديقة، ووجدت بنامون جالسا إلى منضدة، باسطا على سطحها ورقة من البردى، يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو عليه آى الانهماك والتفكير. ولما أحس بوجودها، وضع قلمه وقام واقفا وأحنى رأسه لها، فحيته بابتسامة وقالت:

ـ سأجعل لك هذه الساعة من الصباح، فهى التى أملكها من يومى الطويل..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول:

ـ شكرا يا سيدتى، ولكننا لن نبدأ اليوم؛ لأننى لا أزال أضع الفكرة العامة للزخرف.

فقالت:

ـ آه لقد غررت بى يا غلام!

ـ حاشاى يا سيدتى.. بل عنت لى فكرة رائعة.

فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية، وقالت:

ـ ترى هل يستطيع حقّا هذا الرأس الصغير، أن يبدع فكرة رائعة؟

فتخضب وجهه بالاحمرار، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن:

ـ سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك.

ـ يا للهول.. أخشى أن يأتى بشعا مخيفا!

ـ سيبدو جميلا كما هو.

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة، فحدجته بنظرة فاحصة، فسارع الارتباك إليه، وتحيرت عيناه الصافيتان، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتى استقر بصرها على البركة خلل الباب الشرقى للحجرة.. يا له من شاب رقيق كالعذراء الساذجة! إنه يهيج فى صدرها حنانا غريبا، ويوقظ الأمومة النائمة فى سراديب نفسها، والتفتت إليه، فرأته منكبا على عمله، ولكنه لم يكن متفرغا له، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك مورد الخدين.. أليس ينبغى أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها؟ ولكنها أحست برغبة فى التحدث إليه، فأطاعت رغبتها وسألته:

ـ أمن أهل الجنوب أنت؟

فرفع الشاب رأسه، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج، وقال:

ـ أنا من أمبوس ياسيدتى .

ـ أمبوس؟ . . أنت من شمالى الجنوب إذن ، ولكن ما الذى جمع بينك وبين المثال هنفر ، وهو من أهل بيلاق؟

ـ كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى بالفن أرسلنى إليه ووصاه بى .

ـ وهل والدك من طائفة الفنانين؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال :

ـ كلا . . كان والدى كبير أطباء أمبوس ، وكان نابغة فى الكيمياء والتحنيط ، وقد تعددت اكتشافاته فى طرائق التحنيط وتركيبات السموم . .

ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

ـ ولماذا كان يصنع السموم؟

فقال الشاب بلهجة حزينة :

ـ كان يستعملها كأدوية ناجعة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها واأسفاه كانت السبب فى القضاء على حياته .

فسألته باهتمام شديد :

ـ كيف كان ذلك يا بنامون؟

ـ أذكر يا سيدتى أن والدى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله : «إنه أفتك السموم جميعا ، وأنه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة» . وسماه لذلك السم السعيد . وفى ليلة أسيفة قضى الليل كله فى معمله يشتغل بلا انقطاع ، وفى الصباح وجد ممددا على مقعده فاقد الروح ، وإلى جانبه قارورة سم من ذاك السم الفاتك مفضوضة السداد . .

ـ يا للغرابة! هل انتحر؟

ـ من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك ، ولكن ما الذى دفعه إلى الهلاك؟ . . لقد دفن سره معه ، واعتقدنا جميعًا أن روحا شيطانيا تلبسه ، فأضلته الحكمة فأتى فعلته فى حالة إعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعا . .

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره . فأسفت رادوبيس على إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته :

ـ وهل أمك على قيد الحياة؟

ـ نعم يا سيدتى ، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس ؛ أما معمل والدى فلم يلج بابه إنسان منذ تلك الليلة . .

وعادت المرأة، وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب وفى سمومه المودعة المعمل المغلق . .

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادئ المنطوى على الحب والطمأنينة؛ وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب للحب ساعة كل صباح. على أنه لم يضايقها قط؛ لأنه كان أرق من الطيف. ومضت الأيام وهى مغرقة فى الهوى وهو منكب على عمله، وحياة الفن العالية تدب فى جدران الحجرة الصيفية.

وكان يسرها أن ترقب يده وهى تبث فى الحجرة روحا من جمالها الرائع. وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة، ووقر فى نفسها أنه سيخلف المثال هنفر فى مستقبل قريب. وقد سألته يوما وهى تهم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة:

ـ ألا يلحقك التعب أو السأم؟

فابتسم الغلام بفخار وقال:

ـ هيهات . .

ـ كأنك تندفع بقوة شيطان . .

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة، وقال بهدوء وسذاجة:

ـ بل بقوة الحب . .

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التى توقظ فى قلبها أشهى الذكريات، وتنادى إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال، ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم فى نفسها.

فاستدرك قائلا:

ـ ألا تعلمين ياسيدتى أن الفن هوى؟

ـ حقّا؟!

فأشار إلى أعلى جبينها الذى وضح رسمه على الجدران، وقال:

ـ هاك نفسى خالصة . .

وكانت قد ملكت عواطفها، فقالت بسخرية:

ـ يا لها من حجر أصم!

ـ كانت حجرا قبل أن تلمسها يداى، أما اليوم فهى نفسى.

فضحكت قائلة:

ـ يا لك من مغرق فى حب نفسه!

هكذا قالت وهى توليه ظهرها: ولكن وضح على أثر ذاك اليوم أن نفسه ليست الشىء

الوحيد الذى يحبه، وكانت تسير فى الحديقة على غير هدى كخاطر حائر فى دماغ حالم سعيد، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية، وساقها ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية فى غابة الجميز، وإرسال النظر خلل نافذة الحجرة وكان وجهها الآخذ فى الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنان الشاب فى أسفل الجدار، وكانت تظنه ينهمك فى عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه ويداه مشتبكتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق فى صلاة، إلا أن رأسه كان متجها إلى ما تم نحته من رأسها وجبينها . .

ودفعتها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مذعورة. ورأته يقوم واقفا كأنه ينفتل من صلاته، ورأته يمسح عينيه بطرف كمه الواسع . فخفق قلبها، ولبثت برهة لاتبدى حراكا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرفة البط السابح على سطح الماء أو طنينه، ثم التفتت إلى الوراء وانحدرت مسرعة فى طريقها إلى القصر . .

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمة به، وكانت تطالع معناه فى عينيه الصافيتين كلما رنا بهما إليها، وما كانت تستطيع دفع الشر، فهل تباعد بينه وبينها؟ . هل تغلق باب القصر فى وجهه بأى علة تعتل بها عليه . . لكنها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وباتت فى حيرة من أمرها.

على أن حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شىء فى الوجود بقادر على أن يستبد بوجدانها أكثر من ساعة عابرة؛ لأن عواطفها وإحساساتها جميعا كانت نهب الحب، وملك يدى حبيب طموح لا يقنع من الحب بشىء . . كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرا قصره ودنياه، غير آسف ولا متردد، فكانا يفران معا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم فى أيامهما تلك أن تكتشف رادوبيس فى الضحى بعد توديعه لها، أنها لم تسأله أعينيها يؤثر بالشوق أم شفتيها. أو أن يذكر وهو فى طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكر راجعا لينفى عن حياته أتفه أسباب الهموم.

كانت أياما لا نظير لها فى الأيام.

خنوم حتب

وكان الزمن الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة، يتجهم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب. كان الرجل يقبع فى دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين، ويستمع إلى ما يقال بآذان مرهفة وقلب حزين، ثم يستوصى بالصبر ما أمكن الصبر.

وكان الأمر الذى أصدره الملك بنزع أراضى المعابد ينغص عليه صفو حياته، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية، لأن جمهور الكهنة قابلوه بفزع وألم، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب..

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل، وأنه نادرا ما يحظى بمقابلته والتحدث إليه فى أمور المملكة. وذاع على أثر ذلك أن فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة. وأنه يبيت لياليه فى قصرها. ثم شوهد الصناع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات، ورئيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمين الجواهر. وتهامس الكبراء بأن قصر رادوبيس يتحول إلى مثوى من الذهب والفضة والمرجان، وأن أركانه تشهد هوى جامحا يتقاضى مصر أموالا لا تعد ولا تحصى..

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين، وقد نفد صبره، وضاق بجموده، ففكر فى الأمر طويلا، وعزم على أن يبذل ما فى وسعه ليحول الأمور عن السبيل التى تندفع فيه؛ فأرسل رسولا من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاه فيها إلى موافاته بدار الحكومة. وسارع كبير الحجاب إلى مقابلته، وصافحه الوزير، وقال له:

- إنى أشكرك أيها المبجل سوفخاتب على تلبيتك لرجائى.

فأحنى كبير الحجاب رأسه وقال:

- إنى لا أتوانى عن القيام بواجبى المقدس فى خدمة مولاى.

وجلس الرجلان وجها لوجه، وكان خنوم حتب صلب الإرادة حديدى الأعصاب، فظل وجهه هادئا رغم ما يجيش بصدره من الأحزان. وقد استمع إلى قول كبير الحجاب فى سكون، ثم قال:

- أيها المبجل سوفخاتب، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص.

ـ هذا حق يا صاحب القداسة .

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير ، فقال :

ـ ولكن ضميرى لا يرتاح إلى سير الأمور فى هذه الأيام، وبت أتعثر بالمتاعب والمشكلات . وقد رأيت ـ وأحسبنى فى رأيى من الصادقين ـ أن مقابلة بينى وبينك لا شك تأتى بخير كثير .

فقال سوفخاتب :

ـ إنه ليسعدنى وحق الأرباب أن تصدق فى فراستك يا صاحب القداسة .

فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بلهجة تنم عن الحكمة :

ـ يجدر بنا أن نستوصى بالصراحة . فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والإخلاص .

فأمن سوفخاتب على قوله قائلا :

ـ صدق فيلسوفنا قاقمنا .

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره . ثم قال بصوت نم عن الحزن :

ـ يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك فى هذه الأيام .

وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم الصمت ، فاستطرد قائلا :

ـ وأنت تعلم أيها المبجل أنى كثيرا ما أطلب تحديد وقت مقابلته ، فيقال لى إن ذاته المعبودة خارج القصر .

فبادره سوفخاتب قائلا :

ـ ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته .

فقال الوزير :

ـ ما قصدت إلى هذا أيها المبجل ، ولكنى أعتقد أن حقى كوزير يخول لى المثول بين يدى جلالته بين آونة وأخرى ، لأقوم بواجباتى على الوجه الكامل .

ـ معذرة يا صاحب القداسة ، ولكنك تحظى بالمثول بين يدى فرعون .

ـ نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدنى لا أدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة .

فحدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

ـ لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

ـ هو ذلك يا سيدى .

فقال سوفخاتب بسرعة :

ـ إن فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع. لأن جلالته قال فيه كلمته الأخيرة.

ـ إن السياسة لا تعرف كلمة أخيرة.

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة:

ـ هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه.

ـ أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا؟

واستاء سوفخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه، بعد أن أعلن له إباءه، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك:

ـ سأقف عند كلمة مولاى لا أتعداها.

ـ إن أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة.

واشتد استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول، وثارت كرامته ثورة مكتومة، فقال بشدة:

ـ إنى أعرف واجبى يا صاحب القداسة، ولكنى لا أسأل عنه إلا أمام ضميرى.

فتنهد خنوم حتب يائسا، ثم قال فى هدوء وتسليم:

ـ إن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل، وما داخلنى شك قط فى إخلاصك أو حكمتك، ولعل هذا ما دعانى إلى الاسترشاد برأيك. أما وإنك ترى أن هذا لا يتفق وإخلاصك فلا يسعنى إلا العدول عنك آسفا، وليس لدى الآن إلا رجاء واحد.

فقال سوفخاتب:

ـ تفضل يا صاحب القداسة.

ـ إنى أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة الملكة رجائى بالتشرف بين يديها اليوم.

وأخذ سوفخاتب، ونظر إلى محدثه نظرة دالة على الدهشة، لأنه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنه لم يكن يتوقعه، فاستولى الارتباك على الحاجب، أما خنوم حتب فقال بلهجة دلت على العزم:

ـ إنى أقدم هذا الرجاء بصفتى رئيس وزراء المملكة المصرية.

فقال سوفخاتب بقلق:

ـ ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علما برغبتك؟

ـ كلا أيها المبجل، إنى أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التى تعترض سبيلى، فلا تضيع فرصة ذهبية، عسى أن أخدم بها مليكى ووطنى.

فلم يسع سوفخاتب إلا أن يقول :

ـ سأرفع رجاءك إلى جلالتها فى الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده للمصافحة :

ـ سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر وهو يودعه :

ـ كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه بشدة ، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع الحجرة ويعمل فكره . وكان لا يشك فى إخلاص سوفخاتب ، ولكنه كان قليل الثقة بشجاعته وعزيمته . وقد دعاه وهو يائس منه ، ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلقا : هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها؟ ! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته؟ إن الملكة لا يستهان بها ، وعسى أن تحل العقدة المستحكمة بذكائها ، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك . ولا شك فى أن الملكة تدرك سوء تصرف الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهى ملكة مشهود لها بالفطنة ، وهى زوجة تشارك الزوجات أفراحهن وأحزانهن . أليس من المحزن أن تنزع أملاك المعابد ليبذل ريعها وخيصا تحت أقدام راقصة؟ !

إن الذهب يتدفق إلى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه ، ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار فى صنع أثاثه وحلى ربته وأثوابها . وأين؟ . . أين فرعون؟ . . هجر زوجه وحريمه ووزراءه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة !

وتنهد الرجل فى حزن عميق ، وتمتم قائلا :

ـ ما ينبغى لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو . .

وراح فى تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، إذ دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن . وانتظر الرجل فى لهفة ، وقد اضطربت شفتاه فى تلك اللحظة الفاصلة على قوة إرادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ، وأحنى رأسه محييا ، وقال باقتضاب :

ـ إن حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة .

وحمل من فوره إضمامة الالتماسات ، وذهب إلى عجلته التى طارت به إلى القصر ، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول بهذه السرعة ، فلا شك فى أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من الآلام فى وحدتها الموحشة ، ولا شك فى أنها تتصبر على الإهانة والحرمان قابعة فى سياج قاس من الكبرياء والصمت ، إنه يحس أنها من رأيه ، وأنها ترى الأمور

بالعين التى يراها الكهنة والعقلاء جميعا . وعلى أى حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر : وقصد توا إلى جناح الملكة ، ولم يلبث أن دعى إلى مقابلة جلالتها فى بهو استقبالها الرسمى . وأدخل البهو فاتجه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها الملكى ، وقال بإجلال عميق :

ـ السلام على مولاتى نور الشمس وبهاء القمر .

فقالت الملكة بصوت هادئ :

ـ السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .

واستقامت قامة الوزير ، وإن ظل رأسه منكسا ، وقال بخشوع :

ـ إن عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك العالية ، على تفضلك الكريم باستقباله .

فقالت الملكة بصوتها المتزن النبرات :

ـ إنى أعتقد أنك لا ترجو مقابلتى إلا لأمر خطير . فلم أتوان عن استقبالك .

ـ تعالت حكمة مولاتى ، فالأمر جد خطير ، وما هو إلا صميم السياسة العليا .

وانتظرت الملكة صامتة ، فاستجمع الرجل قواه الذاتية ، وقال :

ـ إنى يا صاحبة الجلالة أصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت أخشى ألا أقوم بواجبى بما يرضى ضميرى ومولاى فرعون .

وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادئ نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على الاسترسال . وأدركت الملكة معنى تردده فقالت :

ـ تكلم أيها الوزير فإنى مصغية إليك .

فقال خنوم حتب :

ـ اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكى بنزع أكثر أملاك المعابد ، فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون ، فهم يعلمون أن أراضى المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفا ، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطا .

ولاذ الوزير بالصمت هنيهة ، ثم استدرك قائلا :

ـ الكهنة يا مولاتى جنود الملك فى وقت السلم ، والسلم ينشد رجالا أصلب عودا من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء . وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبا لو دعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط ، ولكنهم . .

وتردد الرجل عن الكلام لحظة، ثم استطرد بصوت أشد خفوتا :

ـ ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق فى غير هذه الوجوه . .

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح، ولم يداخله شك فى أنها تفهم كل شيء وتعلم كل شيء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم ير بدا من أن يتقدم إليها بالالتماسات، ثم قال :

ـ هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد، وقد رفض مولاى الملك أن ينظر فيها، فهل لمولاتى أن تطلع عليها، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية .

وقبلت الملكة الالتماسات، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة، ووقف فى سكون منكس الرأس . ولم تعده الملكة بشيء، وما طمع فى هذا قط، ولكنه تفاءل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف، فتراجع ويداه على عينيه .

وفى طريق العودة حادث الوزير نفسه : إن الملكة شديدة الحزن، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة .

نيتو قريس

غيب الباب الوزير، ووجدت الملكة نفسها وحيدة فى البهو الكبير، فأسندت رأسها المتوج إلى ظهر العرش، وأغلقت جفنيها، وتنهدت تنهدا عميقا، صعد أنفاسا حارة مكتوية بصورة الحزن والألم، فلشد ما تتصبر وتتجلد، حتى إن أدنى الناس إليها لا يدرى بألسنة اللهيب التى تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة . . وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبى الهول .

وما كانت تجهل من الأمر شيئا، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها، ورأت الملك يتردى فى الهاوية، ويذهب فريسة لهواه الجامح، ويهرع إلى تلك المرأة ـ التى شاد بحسنها كل لسان ـ لا يلوى على شيء . وأصابها سهم سام فى عزة نفسها وسويداء عواطفها، ولكنها لم تبد حراكا، ونشب فى صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب، والملكة ذات التاج، وأثبتت التجربة أنها كأبيها قوية الشكيمة، فصهر التاج القلب، وخنقت الكبرياء الحب، فانطوت على نفسها الحزينة سجينة خلف الستائر . وهكذا خسرت المعركة، وخرجت منها مهيضة الجناح، وما رمت عن قوسها سهما واحدا .

وكان الذى يدعو إلى السخرية، أنهما ما زالا يعدان عروسين. على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش، فما عتم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال. ولم تكن تأبه لهن، لأنهن جميعا لم يصرفنه عنها، ولبثت ملكته وملكة فؤاده. إلى أن ظهرت فى أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف، وملكت عواطفه وعقله جميعا، واستأثرت به دون زوجه وحريمه ورجاله المخلصين، ولعب بها الأمل الخادع حينا، ثم أسلمها إلى اليأس، يأس مكفن بكبرياء فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت.

وكانت تأتى عليها أحايين يثب الجنون فى دمائها، وتشع عينها نورا خاطفا، فتهم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد: كيف يصح لنيتو قريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب؟ فتبرد دماؤها، ويتجمد الحزن فى قلبها كالسم الفاتك فى المعدة.

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلوبا غير قلبها تعانى الآلام بسبب تهور الملك، وها هو ذا خنوم حتب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بينة: إنه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة، ويؤمن بقولها المئون من صفوة الحكماء.. أفلا ينبغى أن تخرج عن صمتها؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغى لها أن تعالج جنونه بحكمتها. وقد آلمها أن يرتقى الهمس إلى العرش المكين، وأحست بأن واجبها يقضى عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة، وهان عليها أن تدوس على كبريائها، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة فى سبيلها السوى مستعينة بالأرباب.

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذى أملته عليها الحكمة والدواعى الباطنة، انهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة وإخلاص.

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكى، وقطعت بقية نهارها فى التفكير والتأمل، ونامت ليلها نوما متقطعا شديد العذاب، وانتظرت الضحى على لهفة، وهو الوقت الذى يصحو فيه الملك بعد سهر الليل.. ولم يداخلها التردد، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح الملك، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحراس، فأدوا لها التحية، وسألت واحدا منهم قائلة:

ـ أين جلالة الملك؟

فأجابها الرجل بإجلال قائلا:

ـ فى مثواه الخاص يا صاحبة الجلالة.

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه، واجتازت بابها الكبير. وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعا، حملت من آى البلهنية والفن ما لا تصدقه العيون. ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها، وكانت مضت أيام عديدة على آخر لقاء، فقام واقفا دهشا، واستقبلها بابتسامة دلت على الارتباك، وقال وهو يشير إليها بالجلوس:

ـ أسعدتك الآلهة يا نيتو قريس.. لو علمت برغبتك فى مقابلتى لبادرت إليك!

فجلست الملكة فى هدوء وهى تخاطب نفسها قائلة: من أدراه أنى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة؟! ثم وجهت إليه الخطاب قائلة:

ـ لا داعى لإزعاجك أيها الأخ، فإنى لا أجد غضاضة فى الانتقال إليك ما دام الذى يحركنى واجب.

ولم يلق الملك إلى كلامها بالا، لأنه كان يحس بحرج شديد، وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها، فقال:

ـ إنى خجل يا نيتو قريس.

وعجبت لطرقه هذا الموضوع، وكان قد آلمها ألما خفيا أن تراه فى منتهى السعادة والصحة، كالزهرة الناضرة، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها:

ـ يهون لدى كل شىء إلا أن تخجل!

وكان أرق المس يهيجه، ويرده من حال إلى حال، فعض على شفته وقال:

ـ أيتها الأخت، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية. وقد يهوى لإحداها فريسة.

وطعنها اعترافه بقسوة فى كبريائها وعواطفها، فنسيت حلمها وقالت بصراحة:

ـ يحزننى وحق الرب، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية.

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها، فأهاجه الغضب، واندفع الدم إلى رأسه، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر. وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغضب الذى جاءت من أجله، فندمت على قولها، وقالت له برجاء:

ـ أنت الذى سقتنى إلى هذا الحديث أيها الأخ.. وما لهذا جئت، وعسى أن يفرخ غضبك، أن تعلم أنى قصدت إليك لأحدثك فى شئون مهمة تمس سياسة المملكة التى نجلس على عرشها سويا.

فكظم حنقه، وسألها بلهجة كالهادئة:

ـ ما حديثك أيتها الملكة؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو صالح لغرضها، ولكنها لم تر بدا من الكلام، فقالت باقتضاب:

ـ أراضى المعابد.

فعبس وجه الملك. وقال بامتعاض شديد:

ـ أتقولين أراضى المعابد؟.. إنى أسميها أراضى الكهنة!

ـ لتكن مشيئتك يا مولاى. فإن تغيير الاسم لا يغير من الأمر شيئا.

ـ ألا تعلمين أنى أكره أن يعاد على هذا الاسم؟

ـ إنى أحاول ما لا يستطيعه غيرى، وهدفى الخير والإصلاح.

فهز الملك منكبيه بامتعاض وقال:

ـ وما الذى تريدين قوله أيتها الملكة؟

فقالت بهدوء:

ـ لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتى إجابة لرجائه واستمعت..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها، وقال بغضب:

ـ أهكذا فعل الرجل؟

فقالت بارتياع:

ـ نعم.. هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك؟

فقال وكأنه يزأر:

ـ بغير شك.. بغير شك.. إنه رجل عنيد، ويأبى أن ينزل عند إرادتى، وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها، وأنه يتربص بى لعله ينجح فى إلغائه مستعينا تارة بالرجاء، وقد رفضت أن أصغى إليه، وتارة يدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير. إن الرجل الماكر يندفع كالأعمى فى طريق خصامى.

فهالها ظنه وقالت:

ـ أنت تسىء الظن بالرجل، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم الرجال إخلاصا للعرش، وأنه حكيم يتوخى الوئام.. أليس من الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته فى ظل عطف أجدادنا؟

واحتدم الغيظ فى قلب الملك، لأنه لم يكن يجد عذرا لإنسان ألا يصدع بأمره فى السر والعلانية، ولا يحتمل بأى حال أن يرى إنسان غير ما يرى.

فقال ممتعضا بلهجة تشف عن السخرية المريرة:

ـ أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة.

فقالت باستياء:

ـ لم يتجه رأيى قط إلى نزع أملاك المعابد، ولا أجد ضرورة لذلك.

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف:

ـ أيسيئك أن تزداد ثروتنا؟

كيف يقول هذا، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال؟

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال:

ـ يسىء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعها فى اللهو العابث.

فاشتد هياج الملك. وقال وهو يشير بيده مهددا:

ـ ويل للرجل الماكر.. إنه يغرى بالشقاق بيننا!

فقالت بتألم وحزن:

ـ إنك تصورنى لنفسك كطفلة غريرة.

ـ ويل له.. لقد طلب مقابلة الملكة ليحادث المرأة المستترة فى ثوبها الملكى.

فصاحت به حزينة متألمة قائلة:

ـ مولاى!

ولكنه استطرد يقول مدفوعا بغضبه الشيطانى:

ـ لقد جئت يا نيتو قريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة فى الوئام.

وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبرياءها. فأظلمت عيناها، ودوى النبض فى أذنيها، وارتجفت أطرافها. ولبثت هنيهة لا تستطيع قولا. ثم قالت:

ـ أيها الملك! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئا أجهله فيسعى به إلى. وما دمت تظن هذا، فاعلم بأنى، أعلم، كما يعلم الجميع، أنك غارق فى أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر. فهل رأيتنى طوال هذه الفترة طاردتك، أو ضيقت عليك، أو توسلت إليك؟.. واعلم أن الذى يريد أن يخاطب فى المرأة يرتد خائبا، ولا يلقى أمامه سوى الملكة نيتو قريس..

فاحتد قائلا بعناد:

ـ لا تزالين تقذفين بحمم الغيرة.

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة، وقامت واقفة يائسة، وقالت بحنق شديد:

ـ أيها الملك.. ليس مما تعير به ملكة أن تغار على زوجها، ولكن مما يعير به ملك حقّا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمى راقصة، ويعرض عرشه الطاهر لخوض الخائضين.

قالت الملكة ذلك، وذهبت لا تلوى على شىء.

واستبد الغضب بالملك، وأخرجه عن طوره وكان يعد خنوم حتب مسئولا عن جميع متاعبه، فاستدعى سوفخاتب وأمره دون أن يمهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره. وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائرا. وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل. وأدخل على الملك الغاضب الحانق، ونطق الرجل بالتحية ـ التقليدية، ولكن فرعون لم يكن يصغى إليه، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلا:

ـ ألم آمرك أيها الوزير بألا تعود إلى مناقشة مسألة أراضى المعابد؟

وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التى يسمعها لأول مرة، وأحس بآماله تنهار دفعة واحدة، فقال يائسا:

ـ مولاى . . رأيت من واجبى أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوى طائفة من شعبكم الأمين.

فقال الملك بلهجة قاسية:

ـ بل أحببت أن تثير غبارا بينى وبين الملكة، لتصيب تحت ستاره غرضك.

فرفع الرجل يديه بتوسل، وأراد أن يتكلم فأرتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين:

ـ مولاى . . مولاى . .

فقال الملك الغاضب المهتاج:

ـ يا خنوم حتب . . أنت تأبى الانصياع لأمرى، فلن أمنحك ثقتى بعد اليوم.

ووجم الكاهن، واستولى عليه الجمود، ثم مال رأسه على صدره فى حزن، وقال باستسلام:

ـ مولاى، يحزننى وحق الأرباب جميعا أن أنسحب من ميدان خدمتكم المجيد، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا من عبيدكم المخلصين.

* * *

وأحس الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر، وأرسل فى طلب سوفخاتب وطاهو، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان، فقال لهما الملك فى هدوء:

ـ انتهيت من خنوم حتب.

وساد السكون العميق، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب، أما طاهو فبقى جامدا . . وكان الملك يقلب ناظريه فى وجهيهما فسألهما:

ـ ما لكما لا تتكلمان؟

فقال سوفخاتب:

ـ إنه لأمر خطير يا مولاى.

ـ أتراه خطيرا يا سوفخاتب! . . وأنت يا طاهو؟

وكان طاهو جامدا ميت الإحساس ، لا رجع للحوادث فى قلبه ، ولكنه قال :
ـ إنه عمل يا مولاى من وحى القوة المعبودة .
فابتسم الملك ، وكان سوفخاتب يقلب الأمر على جميع وجوهه ، فقال :
ـ سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .
فهز فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :
ـ لا أظن أنه سيلقى بنفسه إلى التهلكة .
واستدرك وقد غيَّر لهجته :
ـ والآن بماذا تشيران على فيمن يخلفه؟
وساد الصمت مدة ، ومضى الرجلان يفكران .
وابتسم الملك قائلا :
ـ إنى أختار سوفخاتب فما رأيكما؟
فقال طاهو بصدق :
ـ إن من اخترت يا مولاى لهو القوى الأمين .
أما سوفخاتب ، فبدا على وجهه الانزعاج وهمَّ بالكلام ، ولكن سبقه فرعون قائلا :
ـ هل تتخلى عن مولاك وقت الحاجة إليك؟
فقال سوفخاتب وهو يتنهد :
ـ ستجدنى يا مولاى من المخلصين .

الرئيس الجديد

وأحس فرعون فى العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدى الرجل الذى يثق به ، وولى وجهه نحو المرأة التى استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففى جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس .

أما سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتجهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدماه دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحب ، ويولى كشحه الهموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم ، وقلوبهم تتبع كهنتهم فى كل مكان . وتلفت الوزير حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عونا ومشيرا ، وهما رجلان يختلفان فى أمور كثيرة . ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له . فلبى القائد نداءه ، ومد يده

إليه، وشاركه فى وحشته وجل متاعبه، وكافحا معا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب، وتتجمع فى أفقها السحب والزوابع. على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك، كان مخلصا ينضح قلبه بالأمانة والوفاء، حكيما تنجلى له حقائق الأمور، ولكن صفات الشجاعة والحزم كانت تعوزه، فرأى الخطأ منذ البدء، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى فى مداراته وتهوين عقباه، خشية غضب مولاه أو إيلامه، وهكذا اطردت الأمور فى السبيل الذى شقه الغضب..

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر مهم. قال إن خنوم حتب ارتحل بغتة إلى منف، العاصمة الدينية، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد. واحتارا فى السبب الذى من أجله رضى الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال، وتوقع سوفخاتب شرا، ولم يشك فى أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال الكهنوت، وجميعهم ساخطون لما حل بهم من ضنك، ولعلمهم بأن الأموال التى ضن بها عليهم تبعثر تحت قدمى راقصة بيجة بغير حساب، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرا فى أنحاء القطر، بالتهانى الرسمية من الأقاليم، أما الكهنة فقد انطووا على صمت رهيب، حتى قال طاهو: «لقد بدءونا بالتحدى».

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون إعادة النظر فى مسألة أراضى المعابد. فكان إجماعا خطير الشأن، زاد من متاعب سوفخاتب.

وفى يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة، وجاءه القائد يسعى، فأشار الوزير إلى كرسى الوزارة، وهو يتنهد، وقال:

ـ يكاد هذا الكرسى أن يميد بى.

فقال طاهو:

ـ إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسى.

فتنهد الرجل حزنا، وقال:

ـ أغرقونى بسيل من الالتماسات.

فسأله القائد باهتمام:

ـ هل عرضتها على فرعون؟

ـ كلا أيها القائد، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاتحته فى هذا الموضوع، وأنا لا أحظى بالمثول بين يديه إلا فى فترات متباعدة جدّا.. إنى أشعر بالارتباك والوحدة.

وصمت الرجلان برهة، وخلا كل منهما إلى أفكاره، ثم هز سوفخاتب رأسه متعجبا، وقال وكأنه يحدث نفسه:

ـ إنه للسحر بعينه.

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة، وبغته المعنى الذى يقصده الرجل، فسرت فى جسده قشعريرة وامتقع لونه، ولكنه كبح جماح نفسه، وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من حياته، وسأله ببساطة كلفته جهدا جهيدا:

ـ أى سحر تعنى يا صاحب القداسة؟

فقال سوفخاتب:

ـ رادوبيس، أليست تنفث فى فرعون سحرا؟! بلى وحق الأرباب، إن ما بجلالته لسحرا مبينا..

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم، وخال أنه يسمع شيئا عجيبا يلمس بوقعه السحرى جميع الحواس والعواطف، وكاد يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه، فأصر على أسنانه بشدة وقال:

ـ يقول الناس إن الحب سحر، والسحرة يقولون إن السحر حب.

فقال الوزير الحزين:

ـ بت أعتقد أن جمال رادوبيس سحر ملعون.

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال:

ـ ألم تتل الرقية التى مكنت لهذا السحر؟

فأحس الرجل بلوم القائد وامتقع لونه، وقال بسرعة كأنما يدفع تهمة:

ـ لم تكن أول امرأة..

ـ ولكنها كانت رادوبيس.

ـ رجوت لمولاى سعادة.

ـ فقدمت إليه سحرا واأسفاه!

ـ نعم أيها القائد، إنى أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا.. ولكن ينبغى عمل شىء.

فقال طاهو وكان لا يزال يحس بمرارة:

ـ هذا واجبك يا صاحب القداسة.

ـ إنى أطلب مشورتك.

ـ إن الإخلاص يبلغ غايته فى النصيحة الصادقة.

ـ إن فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسألة الكهنة.

ـ ألا تفضى برأيك إلى جلالة الملكة؟

ـ هذا سبيل أودى بخنوم حتب إلى التعرض إلى غضب جلالة الملك.

فلم يجد طاهو ما يقوله، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت:

ـ ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرة أخرى، وانخلع قلبه فى صدره وكادت العواطف التى يبالغ فى كتمانها تنفجر، وقال لنفسه: إن الشيخ لا يدرى ماذا يقول، ويظن أن مولاه هو المسحور وحده.. ثم قال له:

ـ لماذا لا تجتمع بها أنت؟

فقال سوفخاتب:

ـ لعلك أقدر منى على التفاهم معها..

فقال طاهو ببرود:

ـ أخشى أن تجد على رادوبيس، وتسىء بى الظن فتشوه مسعاى لدى فرعون.. كلا يا صاحب القداسة..

وتهيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة.

ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأن أعصابه ثارت، وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاغبرار، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوى على شىء، تاركا وراءه سوفخاتب غارقا فى لجة عميقة من الأفكار والأحزان.

الملكتـــــان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذى تثقل رأسه الهموم.

كانت الملكة تقبع فى جناحها، تنطوى على حزن دفين، وألم بارح، ويأس محروم من الشكوى، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير، وتشاهد الأمور التى تقع فى الوادى بعينين حزينتين، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها، أو ملكة يتقلقل بها عرشها، وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له اتصال، ما دام الملك يغرق فى هواه، وما دامت هى تلوذ بصمت الكبرياء.

وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا، وأن الحب أنساه كل شىء حتى تركزت السلطة فى يد سوفخاتب. ولم يكن يداخلها شك فى إخلاص الوزير

للعرش، ولكنها غضبت من استهتار الملك وذهوله، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها الأمر، ولم تتردد عن غايتها، فدعت يوما سوفخاتب وطلبت إليه أن يرجع إليها فى الشئون التى تحتاج إلى رأى الملك. وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشىء، وأرضت معه الوزير وهى لا تدرى، الذى تنفس الصعداء، وأحس بأن حملا ثقيلا رفع عن صدره الضعيف.

وعلى أثر اتصال الوزير بها، علمت بالالتماسات التى بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادى، وقرأتها بصبر وجلد، فقرأت الكلمة التى أجمع عليها رأى الصفوة من أفذاذ المملكة، وأحست بالخطورة المستترة خلف أسطرها المتزنة الحازمة.. وتساءلت فى حيرة وألم، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أن فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط؟.. فالكهنة قوة عظيمة، وهم يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه، وهو يستمع إليهم فى المعابد والمدارس والجامعات، ويطمئن إلى أخلاقهم وتعاليمهم اطمئنانه إلى مثله العليا.. فكيف تطرد الأمور إذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون؟.. وقنطوا من إصلاح الأمور التى لم يروها قط تسير فى طريقها التى تسير فيه فى أى عهد من العهود المجيدة الفخور التى طواها الماضى الخالد؟

وما من شك فى أن الأمور تتعقد تعقيدا خطيرا، ويندفع نهر الشقاق، فيفرق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيجة، وبين شعبه المخلص الأمين، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغنى عنه إخلاصه ولا حكمته شيئا..

وأحست الملكة بأنه ينبغى عمل شىء، وأن ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمتاعب، فينبغى أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلص الذى يعتوره، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله.. فما عسى أن تصنع؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحق، ولكنها اليوم لا يعاودها إليه أمل، ولم تنس بعد ما وجه إلى كبريائها من طعنة نجلاء، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة.. وفتشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها. لكن ما غرضها؟.. لقد فكرت فى ذلك مليا، ثم قالت لنفسها: «غاية ما آمل أن أفوز به، أن يرد فرعون إلى الكهنة الأراضى التى انتزعها منهم..». ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ إن الملك غضوب ذو كبرياء عنيف، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان، ولقد أمر بنزع الأراضى فى ساعة غضب خطير، ولكن ما من شك فى أن أشياء غير الغضب تدعوه إلى الاحتفاظ بالأراضى فى حوزته، ومن يعرف قصر بيجة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذه الأشياء، لقد سموه بحق قصر بيجة الذهبى، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب، فلو سدت هذه الفوهة التى تبتلع أموال الملك، لربما هان عليه أن يفكر فى رد أراضى المعابد إلى الكهنة. ولم تكن تطمع فى صرف الملك عن غانية بيجة، ولا فكرت فى ذلك، ولكنها كانت ترجو لإسرافه حدا.

وتنهدت عند ذلك وقالت لنفسها : الآن وضح غرضى ، فينبغى أن نجد وسيلة لإقناع الملك ، بالتحول عن الإسراف الشديد ، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأراضى إلى أصحابها ، ولكن كيف نقنع الملك؟ . . لقد أسقطته من حسابها . ولكنها تجده وراء كل حساب . . لقد فشلت فى إقناعه ، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظا ، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه ، وقد أفلت منها هذا السؤال : «من القادر على إقناع الملك؟» فسرت فى جسدها قشعريرة أليمة ، إذ حضرها الجواب سريعا ، ولكنه كان مروعا أليما ، ولم تكن تجهله . ولكنه كان من الحقائق التى يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة ، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكم فى الملك ، المسير له ، غريمتها راقصة بيجة ، التى حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد . . هذه هى الحقيقة المؤلمة تسأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال . .

وكانت الملكة امرأة حزينة ، ولكنها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق . وكانت تتناسى أنها امرأة ، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك ، فظل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التى خطفته من بين يديها . ولكنها لم تتناس قط أنها الملكة ، ولم تغفل لحظة عن واجباتها . وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به فى مرتقاه فوق منال الهمس والتذمر ، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب . . ؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى؟ إن أفكارنا مسوقة دائما للطواف بمن نحب ومن نكره ، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح . ولقد أحست من بادئ الأمر برغبة فى رؤية رادوبيس التى ترامت إليها أخبارها ، ولكن ما معنى هذا؟ . . أتذهب إليها لتحدثها فى شئون مصر؟ أتذهب الملكة نيتو قريس إلى الراقصة التى تعرض نفسها فى سوق الهوى ، وتخاطبها باسم حبها المزعوم للملك ، أن ترده عن الإسراف وتعيده إلى واجبه؟ . . يا لها من صورة بشعة!

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها ، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل . . فلم تعد تستطيع صبرا ، وأقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها إلى عمل شىء ما ، وإلى بذل محاولة أخرى . . وتساءلت فى حيرتها : «أأذهب حقًا إلى هذه المرأة ، وألفتها إلى واجبها ، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التى يندفع إليها . . » . وأسلمها تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هوى بها إلى الهوس والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها . وما كانت تزداد إلا تصميما ، كانت كسيل يندفع فى منحدر لا يستطيع عنه حولا . ولكنه يندفع مضطربا مزبدا كاسرا . . فقالت فى نهاية المعركة الناشبة : «سأذهب . . » .

* * *

وفى صباح اليوم الثانى لبثت تنتظر عودة الملك . واستقبلت الضحى فى سفينة ملكية ،

أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة، الأبيض الذهبى وكانت تشملها حالة ذهول محزن، ولم تكن ارتدت ثوبا ملكيا، فأحست لذلك بسخط واستياء، ورست السفينة على سلم القصر، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق، فقالت له: إنها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر، فتقدمها إلى بهو الاستقبال، وكان الجو باردا، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرت كأذرع محنطة.. وجلست فى البهو تنتظر وحدها. وكانت تشعر بغرابة وحيرة، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنه يصح أن تخفض الملكة من كبريائها فى سبيل واجبها الأسمى، ولكنها أحست بالانتظار يطول، وتساءلت قلقة: «هل تدعها تنتظر طويلا كما تفعل مع الرجال؟». ولحقها جزع مؤلم، وندمت على تسرعها بالحضور إلى قصر غريمتها..

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب، فرفعت رأسها المثقل، فوقعت عيناها لأول مرة على وجه رادوبيس. كانت رادوبيس بغير ريب. وقد أحست بلذعة ألم ويأس، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهلوك. وبغتت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد.

وسلمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقى:

ـ نزلت قصرك..

فردت الضيفة بصوت بالغ فى جلاله قائلة باقتضاب:

ـ شكرا..

فابتسمت الغانية وقالت:

ـ ليت ضيفتنا تؤذننا بشخصها الجليل.

وكان السؤال طبيعيا ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم تكن تتوقعه. ولم تجد بدا من إعلان نفسها، وقالت بهدوء:

ـ أنا الملكة..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها فى نفسها، فشاهدت ابتسامة تغيض، وعينيها تلمعان دهشة، وصدرها يمتلئ ويتصلب كالأفعى إذا هوجمت.. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريمتها، وأحست بدمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعا، وشعرت بالكراهية والبغضاء، وتواجهتا كغريمتين تتحفزان للقتال.. واستولت عليها حالة مريرة ملوثة بالغضب والحقد. ونسيت الملكة إلى حين كل شىء إلا أنها بإزاء المرأة التى سلبتها سعادتها، ونسيت رادوبيس كل شىء إلا أنها أمام المرأة التى تقاسم حبيبها اسمه وعرشه..

وتبودل الحديث بينهما بادئ الأمر فى ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد فجرى مجرى عنيفا محزنا، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريمتها، فقالت باستياء:

ـ ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحيين الملكة؟

فجمدت رادوبيس فى مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد، وكادت تنفجر لتنفس عن صدرها الكظيم، ولكنها ملكت أعصابها، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت رأسها وهى جالسة، وقد أسندت رأسها إلى المقعد فى تراخ واستهانة، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصرى فى التاريخ.

والتهب وجه الملكة غضبا، فقالت بانفعال:

ـ لم تعدى الحقيقة، فسيذكر قصرك هذه المرة ذكرا جميلا لا كما تعود أن يذكره الناس.

فنظرت إليها بسخرية تستر غيظا وحنقا، وقالت:

ـ ألا سحقا للناس.. أيذكرون بالسوء قصرا يجعله مولاهم مرتعا لقلبه وهواه!!

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنى، وقالت:

ـ ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب..

ـ أحقا يامولاتى؟!.. كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شىء..

فقالت الملكة بلهجة مغيظة:

ـ هذا لأنك لم تكونى ملكة فى يوم من الأيام..

فامتلأ صدر المرأة وتصلب، وقالت:

ـ عفوا يا مولاتى، إنى ملكة حقّا.

فحدجتها بنظرة غريبة، وقالت بسخرية:

ـ يا للعجب، وعلى أى مملكة..!

فقالت بزهو كبير:

ـ على أوسع الممالك طرا.. قلب فرعون..

وأحست الملكة بوهن وألم، وخجل. وأيقنت أنها انحدرت إلى مساجلة الراقصة فى القتال، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار، وتبدت عارية فى جلد المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها، وتمسك بتلابيب غريمتها وتكيد لها كيدا. ونظرت لموقفها وموقف غريمتها. وهى تجلس منها جلسة متعجرفة، وترد سهمها إلى نحرها، وتتيه عليها بحب

زوجها وسلطانه، فشعرت بغرابة وذهول وحيرة، وتمنت لو تكون فى حلم ثقيل سخيف.

وأماتت عواطفها جميعا، ودفنتها فى أعماق نفسها، وارتدت سريعا إلى طبيعتها المتعالية، وجرى فى عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء. فذكرت الغرض الذى جاءت من أجله، وصدقت عزيمتها على أن تكفر عما بدر منها.

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرا وباطنا، وقالت لها:

ـ أيتها السيدة، إنك لم تحسنى لقاء الملكة، ولعلك أسأت فهم الغرض من زيارتى فثرت وغضبت، ولكن اعلمى علم اليقين أنى ما قصدت إلى قصرك لشأن يخصنى أنا..

فسكتت رادوبيس وحدجتها بنظرة مليئة بالارتياب.

ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب. وتناست الملكة، وقالت فى هدوء:

ـ لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجل، أمور تتعلق بالعرش المجيد، والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه.

فقالت رادوبيس بانفعال وسخرية:

ـ يا للأمور الجليلة! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى؟.. ما أنا إلا امرأة يلذ الحب أن يجعلها شغله الشاغل..

فتنهدت الملكة، وأغضت عن لهجتها، وقالت:

ـ أنت تنظرين إلى أسفل، وأنا أنظر إلى أعلى.. لقد حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعادته، وإذا صدق حسبانى، فينبغى أن تهديه سواء السبيل. إنه يفنى فى قصرك تلالا من الذهب، وينتزع من صفوة رجاله أراضيهم حتى ضج الناس بالألم، وجأروا بالشكوى، وقالوا إن مولانا يبخل علينا بمال يبعثره على امرأة يحبها بغير حساب. فواجبك إن كنت تغارين على مجده حقّا، بين كالشمس فى يوم صاف.. أن تصديه عن الإسراف، وتقنعيه برد المال إلى أصحابه..

ولكن رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حق الفهم، وكان وجدانها ثائرا وحقدها شديدا، فقالت بقسوة:

ـ إن الذى يحزنك حقّا هو أنك ترين الذهب يتحول مع عطف فرعون إلى قصرى..

فانتفض جسمها، وسرت فيه قشعريرة، وصاحت بها:

ـ يا للبشاعة!

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء:

ـ لن يفرق شىء بينى وبين مولاى .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بيأس شديد وجرح عميق فى كبريائها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت واقفة وولت المرأة ظهرها ، وسارت فى طريقها متألمة حزينة غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة الغضب .

وصعدت رادوبيس أنفاسها مضطربة ، وأسندت رأسها الساخن إلى كفها ، وراحت فى تفكير قلق حزين . .

قبس من نور

وتنهدت رادوبيس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها : «واأسفاه ، إنى أتناسى العالم ، ولكنه يأبى أن ينسانى أو أن يدعنى فى طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضى وأوشابه . . رباه . . أحقّا أن الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة . . أحقّا أنهم يسلقون حبها بألسنة من لهب؟ . . لقد انكمشت فى قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا . وغاب عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط على ألسنة قوم أشداء ، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود ، وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وإن تنوعت الدوافع التى تسوقها إلى الكلام ، فقد ترامى إليها فى زمن مضى أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم ، وقد سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب . فلا شك أن وراء العالم الهادئ الجميل الذى تعيش فيه عالما صاخبا تغلى مراجله بالأحزان والأحقاد . .

وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهر طوالا لم تذق مثلها فى حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفا وحبا ، وذكرت فى غمرات حزنها الطارئ ما قال آنى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، فتساءلت فى هلع : لماذا لا تجند جنود؟ لماذا لا يعبئ معبودها جيشا عرمرما؟

وقضت سحابة نهارها فى مخدعها كئيبة ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثال بنامون ، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان . ولا القعود بلا حراك أمام عينى الشاب المنهومتين . . فلبثت وحدها حتى الأصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرفل فى ثيابه الفضفاضة فتنهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعيها وضمها إلى صدره العريض كما يفعل كل مرة ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس إلى جانبها على الديوان الوثير ، وكانت نفسه تفيض

بذكريات جميلة أثارها فى قلبه مشهد النيل الذى حمل سفينته منذ حين قليل: فقال لها:

ـ أين الصيف الجميل؟.. أين لياليه الساهرة، إذ تشق بنا السفينة جبهته المتجمدة الدكناء، وإذ نسلم فى المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى. ونستمع لعزف العازفات. ونشاهد بأعين حالمة رقص الراقصات؟

ولم تكن تستطيع أن تجاريه فى تذكره، ولكنها لم ترض أن يحس بالعزلة فى عاطفة أو فكر، فقالت:

ـ مهلا ياحبيبى، ليس الجمال فى الصيف ولا فى الشتاء، ولكنه فى حبنا، وستجد الشتاء دفيئا حنونا ما دام وقوده.

فضحك ضحكته العظيمة التى يضطرب لها وجهه وجسمه، وقال:

ـ ما أجمل حديثك.. إنه أشهى إلى قلبى من مجد الدنيا جميعا! ولكن ماذا تقولين فى الصيد والقنص؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل، ونعدو فى أعقاب الغزلان، ونلهو حتى نشبع نفوسنا المنهومة..

فقالت وقد غلبها الشرود:

ـ لتكن مشيئتك يا حبيبى..

فحدجها بنظرة فاحصة، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلبها يتيه بعيدا، فقال:

ـ رادوبيس.. أقسم لك بالنسر الذى ألف بين قلبينا أن فكرا يسلبنى اليوم عقلك..

فنظرت إليه بعينين حزينتين وأعياها القول، فقال وقد بدا عليه الاهتمام:

ـ صدق حدسى فعيناك لا تكذبانى، ولكن ماذا تمسكين عنى؟

فتنهدت من أعماق قلبها، وعبثت يمناها بعباءته وهى لا تدرى، ثم قالت بصوت خافت:

ـ إنى أعجب لحياتنا، فلشد ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش فى عالم قفر غير معمور.

ـ نعم ما نصنع يا حبيبتى، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب، ولبثنا ضالين حتى هدانا الحب، فمالك تتذمرين؟

فتنهدت مرة أخرى وقالت بحزن:

ـ ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظا لا يغمض لهم جفن؟

وقطب جبينه، والتمعت عيناه بنور خاطف، وأدرك بقلبه وساوسها، فسألها بقلق:

ـ ما الذى يحزنك يا رادوبيس؟.. صارحينى بأفكارك. فحسبنا ما أضعنا فى غير حديث الحب.

فقالت:

ـ لست اليوم كأمس، فقد نقل إلى بعض عبيدى الذين يمشون فى الأسواق حديث قوم غاضبين يحز فى نفوسهم أن مولاهم حرمهم من أراضيهم، ويضاعف من آلامهم أن أموالهم تنفق على قصرى هذا..

فتبدى الغضب على وجه فرعون، ولاح له شبح خنوم حتب يطل على جنته المطمئنة، فيكدر صفوها، ويزعج أمنها، واشتد به الغضب فصبغ وجهه بلون النيل فى إبان فيضانه، وقال لها بصوت متهدج:

ـ أهذا الذى يحزنك يا رادوبيس؟.. الويل لأولئك المتمردين لا يمسكون عن غيهم، ولكن لا تكدرى صفونا. ولا تبالى تباكيهم.. دعيهم لشأنهم، وافرغى لى..

فأحاطت يده بكفيها، وضغطت عليها بحنو، ونظرت إليه بعينين ضارعتين، وقالت:

ـ أنا قلقة حزينة، ويؤلمنى أن أكون سببا لشكوى قوم منك.. وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه.. والمحب يا مولاى شديد المخاوف.

فقال باستياء وغضب:

ـ كيف تخافين، وأنت بين يدى؟

فقالت بتوسل:

ـ مولاى.. إنهم يرمقون حبنا بعين الحسد، وينفسون على هذا القصر الحب والطمأنينة والنعيم، ولقد قلت لنفسى فى حزنى وقلقى: ما للحب وهذا الذهب الذى ينثره مولاى على؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذى يؤلب قوما علينا. ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه؟.. إذا كان بريق الذهب يا مولاى يخطف أبصارهم فاملأ به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم..

ـ وا أسفاه يا رادوبيس، إنك تذكريننى بحديث أكره سماعه.

فقالت بتوسل:

ـ مولاى إنه غشاوة فى سماء سعادتنا، فامحها بكلمة.

ـ وما الكلمة هذه؟

فقالت بفرح، وقد ظنت أنه يلين ويذعن:

ـ أن ترد إليهم أراضيهم.

فهز رأسه بعنف، وقال بلهجة شديدة:

ـ أنت لا تدرين من الأمر شيئا يا رادوبيس، لقد قلت كلمتى فلم تحترم، ونفذت على كره، ولم يسكنوا عن الاحتجاج، وما انفكوا يتحدوننى، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها، وأتمنى دونها الموت، أنت لا تدرين معنى الهزيمة فى نفسى، إنه الموت، ولو فازوا على بنيل بغيتهم لوجدتنى رجلا غريبا حزينا أسيفا لا قدرة له على الحياة ولا الحب.

ونفذت كلماته إلى قلبها، فشدت على يديه بقوة، وأحست برجفة تسرى فى أوصالها. وقد هان عليها كل شىء إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحب. ونبذت رغبتها، وأسفت على توسلاتها، وصاحت بصوت متهدج:

ـ لن تذل أبدا.. لن تذل أبدا.

فابتسم إليها بحنو، وقال:

ـ نعم لن أذل.. ولن تكونى القضاء الذى يسومنى الذل أبدا..

فقالت وهى تلهث، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة:

ـ لن تذل.. ولن تهزم.

وأسندت رأسها إلى صدره، واستنامت إلى خفقان قلبه. وأحست فى غيبوبتها بأنامله تعبث بخصلات شعرها وخديها، ولكنها لم تطمئن طويلا، فقد أزعجها خاطر من الخواطر التى كدرت يومها، فرفعت إليه رأسها، ونظرت إليه بعينين قلقتين، فقال لها:

ـ ما لك؟!

فقالت بعد تردد:

ـ يقولون إنهم فئة قوية، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم.

فابتسم قائلا:

ـ ولكنى الأقوى..

فترددت هنيهة ثم قالت:

ـ لماذا لا تعبئ جيشا قويا يأتمر بأمرك؟

فابتسم الملك، وسألها:

ـ أرى الوساوس تعاودك.

فتنهدت فى غيظ، وقالت:

ـ ألم يبلغ أذنى أن الناس تهمس فيما بينها بأن فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة؟ همس الناس إذا تجمع صار صراخا.. إنه كالشر يندلع لهيبا.

ـ يا لك من متطيرة متشائمة!

فعادت تسأله بإلحاف:

ـ لماذا لا تدعو الجنود؟

فنظر إليها نظرة طويلة، وقد بدا عليه التفكير، ثم قال:

ـ إن الجنود لا تدعى بغير سبب.

وبدا على وجهه الغضب، فاستدرك:

ـ إنهم يضللون الأفكار، ويشعرون بغضبى عليهم. فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر. وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم..

ففكرت مليا، ثم قالت بصوت حالم، وكأنها تحدث نفسها:

ـ اخلق العلل وادع الجنود.

ـ إن العلل تخلق نفسها بنفسها.

فأحست بيأس، وأحنت رأسها الحزين، وأغمضت عينيها. ولم تكن ترجو أملا، ولكن لاح لها فى الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر، فبهتت وذهلت، وفتحت عينيها، فإذا الفرح يتألق فيهما. ودهش الملك، ولكنها لم تباله، وقالت وهى لا تملك عواطفها:

ـ وجدت سببا!

فنظر إليها متسائلا، فاستطردت:

ـ قبائل المعصايو.

فأدرك قصدها، وهز رأسه يائسا، وتمتم قائلا:

ـ لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام.

ولكنها لم تيأس، وقالت:

ـ من يدرى بما يجرى وراء الحدود؟ إن لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا. فلنبعث إليه برسالة سرية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقتال، ويرسل فى طلب النجدة، فتسمع صوته الملأ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب، حتى إذا اجتمع لواؤها إليك، وصلت بها جناحك، وأشهرتها سيفا فى يدك تعلى به كلمتك وتفرض طاعتك.

واستمع لها فرعون فى ذهول ودهشة، وقد عجب أيضا لأنها لم تخطر له ببال. على أنه لم يكن يفكر كثيرا فى تكوين جيش قوى لا تدعو إليه الحالة الحربية، واعتقد ـ ومازال يعتقد ـ أن تذمر الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا

لقمعه. ولكنه بات يعتقد أن عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الالتماسات وإعلان الشكوى.. ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة، ومال إليها بجامع قلبه. وكان إذا مال إلى شيء تعلقه، وانشغل به واندفع فى سبيله برغبة جنونية لا يلوى على شيء. لهذا نظر إلى عينى رادوبيس بفرح وابتهاج، وصاح بصوت قوى:

ـ نعم الفكرة يا رادوبيس! نعم الفكرة!

فقالت بفرح غريب:

ـ هذا ما يحدثنى به قلبى.. وإنها لسهلة التحقيق سهولة تناولى هذه القبلة من فيك الحبيب.. وما علينا إلا الكتمان.

ـ نعم يا حبيبتى.. ألا ترين أن عقلك كقلبك كنز ثمين؟ وحقًّا ما علينا إلا الكتمان، واختيار رسول أمين، فدعى لى هذا.

سألته:

ـ من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفنرو؟

فأجابها ببساطة:

ـ سأختار حاجبا من رجالى المخلصين.

وكانت لا تطمئن إلى قصره العظيم، لغير ما سبب معقول، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة. ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها، وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر. وزاد من حيرتها أنها أدركت أن افتضاح السر معناه شديد الخطر، حتى ليكبر ذكره على الخاطر. وهمت فى لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا، ولكنها ذكرت بغتة الشاب الطفل ذا العينين الصافيتين الذى يعمل بالحجرة الصيفية، وأحست إلى ذكره بطمأنينة غريبة، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة، وقلبه معبد تقدم إليها فيه طقوس العبادة صباح مساء.. فهو رسولها.. وهو الأمين. ولم تتردد فقالت له بثقة:

ـ دعنى أختار الرسول بنفسى.

فاستضحك الملك وقال:

ـ يا لك من رعديد اليوم! لست كعهدى بك.. ومن عسى أن تختارى يا ترى؟

فقالت بخشوع:

ـ مولاى.. المحب شديد المخاوف، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية، له سن الشباب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة، ويخلص لى إخلاصا لا مزيد عليه. ومزيته الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء، وإنه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدرى بأمرها الشديد الخطر.. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا المهالك آمنين.

فهز الملك رأسه راضيا . وكان يكره أن يقول لها لا . وظنت رادوبيس أن السحابة انقشعت ، وإن كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت إليه بادئ الأمر ، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وأيقنت أنها ستستطيع عما قريب أن تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح .

وحنت رأسها بالأحلام ، فراق الملك جمال شعرها ، وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فانحلت وسال على كتفيها ، فتنشقه وجمعه بين يديه ، وغمر به رأسه ووجهه فى دعابة حتى لم يبد منهما شىء .

الرسول

وأشرق صباح اليوم الثانى ، وكان الجو باردا والسماء متلفعة بأردية السحب ، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برىء يعلن ظاهره عن باطنه ، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذيول ليل نسيها وراءه بعد إدباره . .

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها ، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت فى المعبد ، وأقسمت ليزول الماضى بشوائبه . كان الذى ينتظرها أن تخدع بنامون ، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها . على أنها لم تتردد قط لأنه كان ينبغى أن تسبق الزمن . . وكانت تحنو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن تقسو فى سبيلهما قساوة مرة . . وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأن التغرير ببنامون كان أمرا سهلا لا يكلف مكرا . .

وسارت على أطراف أصابعها ، فوجدت الشاب يتطلع إلى صورتها ، ويترنم مغنيا أغنية كانت تغنيها فى الأماسى الخوالى مطلعها :

إذا كان حسنك يصنع المعجزات

فلماذا لا يقدر على شفائى

وأخذت بغنائه ، ولكنها انتهزت الفرصة ، وغنت تتم أغنيته :

هل أعبث بما لا علم لى به

والأفق مستتر خلف سحاب

وعسى أن تكون المدخر لقلبى

فتحول الشاب إليها فزعا مسحورا ، فتلقته بضحكة عذبة ، وقالت له :

ـ إن لك صوتا عذبا، فكيف أخفيته عنى طوال هذه الأيام؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيا، وارتجفت شفتاه ارتباكا، وقابل تلطفها بدهشة.

وأدركت المرأة ما يدور بخلده، فقالت تستدرجه:

ـ أراك تلهو بالغناء، وتترك العمل..

فبدا عليه الإنكار، وأشار إلى صورتها المحفورة. وتمتم: «انظرى».

وكانت الصورة قد استوت وجها جميلاً لاتنقصه الحياة، فقالت بإعجاب:

ـ إنك لقادر يا بنامون.

فتنهد الشاب ارتياحا، وقال لها بامتنان:

ـ شكرا لك يا سيدتى.

فقالت تعطف الحديث إلى غايتها:

ـ ولكنك قسوت علىّ يا بنامون.

ـ أنا؟!.. كيف يا مولاتى؟

فقالت:

ـ خلقت لى نظرة جبارة، وأنا أشتهى أن أكون كالحمامة.

فلزمه الصمت ولم يبن، ففسرت صمته على هواها، وقالت:

ـ ألم أقل إنك تقسو علىّ.. فكيف ترانى يا بنامون.. أجبارة قاسية جميلة كهذه الصورة؟ يا لها من صورة! إنى أعجب كيف ينطق الحجر. ولكنك تحسب أن قلبى لا يشعر كهذا الحجر، أليس كذلك؟ لا تهم بالفرار فهذا هو اعتقادك. ولكن لماذا يا بنامون؟

ولم يدر ما يقول، فغلبه الصمت، وكانت توحى إليه بأفكارها، فيصدقها وينساق إليها ويشتد ارتباكه، واستدركت المرأة:

ـ لماذا يا بنامون تحسبنى قاسية؟ إنك تؤمن بالظواهر، لأنك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح. أما نحن فلنا طبيعة أخرى، والصراحة تضيع علينا لذة الفوز، وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا.

وساءل الشاب نفسه حائرا: ماذا تعنى يا ترى، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها.. أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين، لا تحس بالنار الملتهبة فى كيانه، فما الذى غيرها؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التى تحرق قلبه؟! هل تعنى حقّا ما تقول! وهل تعنى حقّا ما أفهمه؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت:

ـ آه يا بنامون! . . إنك تقسو عليّ بدورك، وآية ذلك الصمت الذى ترد به عليّ.

فحدجها بنظرة والهة، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيه، وقد أيقن صدق ظنونه، فقال بصوت متهدج:

ـ الدنيا لا تسعنى كلاما.

فتنهدت ارتياحا أن حلت عقدة لسانه، وقالت بصوت حالم:

ـ وما حاجتك إلى الكلام؟ . فلن تقول شيئا أجهله . . أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرا، وتركنا فى جسمك أثرا من قلوبنا خالدا . . نعم ها هنا عرفت سرا رهيبا . .

وتفرست فى وجهه زمنا قصيرا، ثم قالت:

ـ ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبى؟ . على حين بغتة عجيبة كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها إلى إنسان فى مكان قصى، وأن أبعث بها مع رسول ترتاح إليه نفسى، ويثق به قلبى. وكنت جالسة وحدى أستعرض أمام ناظرى أقواما من الرجال والنساء، ومن العبيد والأحرار، وما أحس فى كل مرة إلا بالجفاء والقلق. ثم لا أدرى إلا وخيالى يتسلل إلى هذه الحجرة، ووجدتنى فجأة أذكرك يا بنامون، فترتاح نفسى ويطمئن قلبى، بل أحسست بما هو أعمق من هذا، وهكذا عرفت سر قلبى.

فغمر الفرح وجه الشاب، وأحس بالسعادة إلى حد الذهول، فجثا على ركبتيه أمامها، وهتف من أعماق قلبه:

ـ مولاتى!

فوضعت كفها على رأسه، وقالت بحنان:

ـ هكذا عرفت سر قلبى، وإنى لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل طويل.

فقال بنامون، وكان يتيه فى غمرات الذهول:

ـ مولاتى، أقسم لقد شهدنى الليل وأنا ذوب عذاب، وهاك الصبح يلقانى نسمة من سعادة معطرة. لقد أخرجتنى كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور، ونقلتنى من دياجير اليأس إلى سحر السعادة. لقد أحببت نفسى بعد أن أشفيت على الفناء . . أنت سعادتى وحلمى وأملى.

وكانت تصغى إليه فى صمت حزين، وقد شعرت بأنه يصلى صلاة حارة، وإنه يهيم فى جهالة الأحلام الساذجة المقدسة، فوجمت وعاودها شىء من الألم والندم. ولكنها لم تستسلم طويلا لعواطفها التى أثارها فى قلبها بهيامه، فقالت فى دهاء:

ـ إنى أعجب كيف لم أعرف قلبى منذ أجل طويل، بل إنى أعجب للمصادفات التى

لم توفقنى إلى سره إلا حين حاجتى إلى إرسالك إلى مهمة بعيدة، فكأنها دلتنى عليك، وحرمتنى منك فى لحظة واحدة.

فقال الشاب بلهجة العبادة:

ـ سأفعل ما تريدين بروحى وقلبى.

فسألته بعد تردد:

ـ وإن كان ما أريد سفرا إلى بلد لا تبلغه إلا بشق الأنفس؟!

ـ لن يشق علىّ منه إلا أنى لا أراك كل صباح.

ـ فليكن غيابًا إلى حين. سأعطيك رسالة تودعها صدرك، وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة منى، فيدلك على الطريق، ويذلل لك الصعاب. وستسافر مع قافلة لا ينبغى لأحد منها أن يطلع على ما فى صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة، فتسلمها له يدًا بيد، ثم تعود إلىّ.

وأحس بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالنخوة والخيلاء، وكانت يدها على كثب منه، فهوى بفمه عليه ولثمها بشوق ووجد، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها.

وفى طريق العودة عاودها إحساس حزين، حتى قالت لنفسها: أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاى يختار رسوله، من أن أعبث بقلب هذا الشاب؟ على أنه كان سعيدًا، أسعدته كلمة كاذبة، بل كان فى حالة يحسد عليها السعداء حقًا، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة، حتى تيأس من لياذها بالكذب!!

الرسالة

وفى مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهز فى يده رسالة مطوية، يشرق وجهه بنور السعادة، فحدجتها بنظرة غريبة وتساءلت: ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق، وتسير الأمور وفق أحلامها؟! وبسط الملك الرسالة، وقرأتها بعينين مبتهجتين، وكانت موجهة إلى الأمير كارفنرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر. وقد صارحه فيها بمتاعبه، وبرغبته فى تعبئة جيش جرار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذى صفة رسمية، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية، ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها، واجتاحت بها البلدان والقرى.

وطوتها رادوبيس مرة أخرى، ثم قالت:

ـ إن الرسول على أهبة الاستعداد.

فقال الملك مبتسماً:

ـ والرسالة جاهزة.

وبدا على وجهها التأمل والأحلام، ثم سألت:

ـ ترى كيف يقابلون رسالة كارفنرو؟

فقال الملك بلهجة اليقين:

ـ ستهز القلوب جميعًا، وقلوب الكهنة أنفسهم، وسوف يدعو الحكام إلى تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد، فلا يلبث الجيش الذى يناط به أملنا أن يأتينا بعدده وعدده.

واستخفها الفرح وسألته بلهفة:

ـ وهل ننتظر طويلاً؟

ـ أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول فى الذهاب والإياب.

ففكرت هنيهة، ثم عدت على أصابعها، وقالت:

ـ إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل.

فضحك الملك وقال:

ـ هذا فأل حسن يا رادوبيس، فعيد النيل هو عيد حبنا، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة.

وتفاءلت هى خيرا وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملاً عزيزًا فى ذاك اليوم الذى تعده بحق مولدًا لسعادتها وحبها. وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس محض مصادفة، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها.

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار، ثم قبل رأسها وقال:

ـ للّه هذا الرأس الثمين.. لشد ما أعجب به سوفخاتب، ولشد ما أعجب بالفكرة التى أبدعها، فلم يملك نفسه أن قال لى: يا له من حل يسير لمشكل عسير، كأنه زهرة مونقة تخرج من ساق ملتوية، وأغصان شديدة التعقيد.

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبح به لإنسان، حتى ذلك الوزير المخلص سوفخاتب، فسألته:

ـ هل علم الوزير بسرنا؟

فقال ببساطة:

ـ نعـم . إن سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلى وقلبى ، فلا أكتمهما شيئًا .

ودوى اسم طاهو فى أذنيها دويّا شديدًا ، فتجهم وجهها ، وبدا القلق فى عينيها ، وسألته :

ـ وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكا :

ـ لشد ما تحاذرين يا رادوبيس ، ولكن اعلمى أنى لا آمن نفسى على شىء لا آمنهما عليه .

فقالت :

ـ إن حذرى يا مولاى لا يرتقى لإنسان تثق به هذه الثقة .

ولكنها ذكرت على الرغم منها طاهو فى ساعة وداعه الأخير ، ودوى فى أذنيها صوته الأجش ، وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا ، وتساءلت ترى هل لا يزال يعلق بنفسه شىء ؟ !

ولكن الوساوس لم تجد فرصة للعبث بقلبها ؛ لأنها كانت تنسى نفسها بين يدى حبيبها .

* * *

وجاء فى الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته ، غارقا فى القلنسوة حتى الأذنين ، وكان خداه متوردين ، وعيناه لامعتين بنور فرح سماوى . . فسجد بين يديها فى صمت وخشوع ، وقبّل حاشية ثوبها فى عبادة ، فداعبت رأسه بأناملها ، وقالت بحنو :

ـ لن أنسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .

فرفع إليها وجهه الجميل البرىء ، وقال بصوت متهدج :

ـ فى سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنِّى الآلهة على تحمل ألم الفراق .

فقالت له مبتسمة :

ـ ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى فى أفراح المستقبل أحزان الماضى جميعا .

فتنهد قائلا :

ـ طوبى لمن يحمل فى قلبه حلما سعيدا يؤنس وحدته ، ويرطب جفاف ريقه .

فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه وقالت :

ـ لا أوصيك بالحذر . . أين تودعها ؟

فقال :

ـ على قلبى يا مولاتى تحت منطقتى .

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة وهى تقول :

ـ هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آنى يمهد لك السبيل ، ويدلك على أول قافلة تقوم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدا عليه الارتباك والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ، وكفاه ترتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته وخفقاته . ثم مضى راجعا فغيبه الباب ، وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تتعلق به حياتها؟!

طاهـــو يهـــذى

وكان الانتظار مرا من أول عهدها به ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة : ليت الملك لم يفش سر الرسالة لإنسان . كانت تتمنى هذا بحرقة لم يخفف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين . ولم تكن وساوسها ريبة صريحة ، ولكن ثمة قلقا دفعها إلى التساؤل : ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت؟ هل يترددون فى الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشر المبيت؟ . . رباه . . إن إفشاء سر الرسالة أمر خطير . . لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطنى . وأحست بقشعريرة تسرى فى جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوساوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : إن كل شىء يسير وفق الخطة التى رسمناها ، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف ؛ وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على أنها كانت لا تكاد تطمئن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال أنها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلص من الألم ، وأنها تسمع صوته الأجش ذا النبرات المتألمة المجروحة . وقد عانت من مخاوفها الآلام ، ولكنها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذى يكتنفها .

ترى هل يحق لها أن تخشى طاهو أو أن تسىء به الظن؟ . . إن كل الدلائل تدل على أنه نسى . ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئا وامتنع عنه طواعية؟ فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرما محرما ، وما كان بوسعه إلا الإذعان والتسليم ، ولا يعنى هذا أنه نسى أو برأ .

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضى عالقا بقلبه؟ . . إن طاهو جبار عنيد، وقد يستحيل الحب فى قلبه حقدا موريا، فيتحفز عند سنوح الفرصة للانتقام . . على أنها لم تنس فى أحزانها أن تنصف طاهو، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه فى حب مولاه، وأنه رجل الواجب الذى لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع .

كان كل شيء يدعو إلى الطمأنينة، ولكن وساوسها لم تدعها فى طمأنينتها قط، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد؟ . . لقد لحقها الفزع، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها . وكان خاطرا لا يخطر لها على بال قبل يوم، أما اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة . وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلاً إلى دفعه أو الإفلات منه، وفكرت فى ذلك تفكيراً مضطربًا، وقالت لنفسها : فلأدعه ولأحادثه لاستبطان ذاته، وعسى أن أفوز بدفع شره - إن كان هناك شر يدفع - فأنقذه من نفسه، وأنقذ مولاى من شره، وما لبثت رغبتها أن تحولت إلى عزيمة لا تقبل التردد، فاستمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق . . ودعت من فورها شيث وأمرتها بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه . وذهبت شيث وانتظرت هى فى بهو استقبالها على قلق؛ ولم يكن يداخلها ريب فى تلبيته لدعوتها . وذكرت فى انتظارها اضطرابها، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود فى الأيام الخوالى . فأدركت أنها منذ الساعة التى نزل فيها الحب بقلبها، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر، أو قلق كاذب .

وجاء طاهو كما توقعت، وكان مرتديًا لباسه الرسمى، فوجدت فى ذلك معنى مطمئنًا، فكأنه يقول لها إنه نسى رادوبيس غانية القصر الأبيض، وأنه يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون .

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

- أسعد الرب أيامك أيتها السيدة الجليلة .

فقالت وهى تتفرس فى وجهه :

- وأيامك أيها القائد الجليل، وإنى أشكرك على قبول دعوتى .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

- إنى رهن إشارتك يا سيدتى .

رأته كما كان قويّا متين الأسر، دموى البشرة، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيراً طارئًا لا يمكن لغير عينيها أن تراه . وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من وجه الرجل . . وأشفقت

من أن يكون ذلك بسبب ما حدث فى تلك الليلة الغريبة التى فصلت بينهما منذ قريب من عام . . واأسفاه! كان طاهو كجو عاصف، فأمسى كجو راكد . . وقالت له :

ـ إنى دعوتك أيها القائد لأهنئك على الثقة العظيمة التى يوليك إياها الملك .

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال :

ـ شكرا لك يا سيدتى، هذه نعمة قديمة منت بها علىّ الأرباب .

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

ـ ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتى من جميل الثناء .

وتفكر الرجل لحظة، ثم تذكر فقال :

ـ لعلك يا سيدتى تعنين الفكرة النيرة التى أوحى بها عقلك الراجح؟

فهزت رأسها أن نعم، فاستطرد :

ـ إنها فكرة رائعة، جديرة بذكائك اللامع .

فقالت وهى لا تبدى السرور :

ـ إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة، وللوطن السلام والطمأنينة .

فقال القائد :

ـ هذا حق لا ريب فيه، وهو ما جعلنا نهلل لها ونكبر .

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت :

ـ سيأتى يوم قريب تحتاج فكرتى إلى قوتك لتحقيقها، وتتويجها بالنجاح والفوز .

فأحنى الرجل رأسه وقال :

ـ شكراً لك على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان طاهو وقورا رزينا جادًا، لا كما عهدته قديما، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك، واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة . وكانت تلح عليها رغبة قوية فى أن تفاتحه فى الموضوع القديم، وأن تسأله العفو والنسيان، ولكن خانها البيان ولم تدر ما تقول، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة، ورأت فى اللحظة الأخيرة أن تعلن له عن عواطفها الطيبة بطريقة أخرى، فمدت له يدها وقالت وهى تبتسم إليه :

ـ أيها القائد الجليل، إنى أمد لك يد التقدير والصداقة .

فوضع الرجل يده الغليظة فى يدها الرخصة الرقيقة، وبدا عليه التأثر فلم يحر جوابًا، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة .

وفى طريق العودة إلى السفينة تساءل محمومًا : «لماذا دعتنى هذه المرأة؟» . ترك العنان لعواطفه التى كبح جماحها فى حضرتها فاختل توازنه، وانكفأ لونه، وارتجفت أوصاله،

ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة. وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح كالثمل، كأنه عائد من معركة خاسرة أفقدته حكمته وشرفه. وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصا جنونيا، والجو يعفره غبار ثائر خانق. وكان الدم يتدفق فى عروقه ساخنًا هائجًا مجنونًا مسمومًا، ووجد إبريقًا من الخمر على خوان المقصورة، فصبه فى فمه حتى أتى عليه فى استهتار جنونى، وارتمى على الديوان فى حالة يأس قاتل.

وفى الحقيقة لم يكن نسيها، ولكنها كانت تكمن فى سرداب خفى من نفسه ما فتئ يسده بالعزاء والصبر وشعوره القوى بالواجب، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام، انفجر المستودع المختفى فى نفسه، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعًا، وأحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين فى معركة واحدة منتهية. وأحس بدوار فى رأسه المختل، وجعل يحدث نفسه فى غضب كاسر، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه. دعته لتستوثق من إخلاصه، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب، وفى سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه، يا للغرابة! إن رادوبيس العابثة القاسية تجد وتحنو وتتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه، وتشفق من خيانة طاهو، الذى كان يوما يلتصق بنعلها كالتراب، ثم نفضته فى حالة تقزز وملل! الويل للسماء والأرض، والويل للدنيا جميعًا. إنه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل، وبغيظ خانق يطحن نفسه الجبارة. إنه يغضب غضبًا جنونيا جارفًا، ويشعل دمه نارا موقدة، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئًا، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء.

وما إن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعونى، حتى غادرها مسرعا وسار يترنح فى الحديقة لا يلتفت إلى تحيات الجنود، متجها إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات، وفى أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب، وكان عائدًا من جناح الملك. وقابله الوزير بابتسامة تحية، ولكنه وقف حياله جامدًا كأنه لا يعرفه. وعجب سوفخاتب لجموده، وقال له:

ـ كيف حالك أيها القائد طاهو؟

فقال طاهو بسرعة غريبة:

ـ أنا.. كأسد وقع فى شراك.. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقد!

فبدا الإنكار على وجه سوفخاتب وقال:

ـ ما هذا الكلام؟.. أى شبه بين الأسد والسلحفاة، أو بين الشراك والفرن؟..

فقال طاهو فى ذهوله:

ـ أما السلحفاة فتعمر طويلا ، وتتحرك فى بطء وتنوء بحمل ثقيل ، وأما الأسد فينكمش ويزأر ويثب فى عنف فيقضى على فريسته .

فتفرس الرجل فى وجهه دهشًا وقال :

ـ أغاضب أنت؟ لست كعهدى بك!

ـ أنا غاضب . . كيف تنكرنى أيها الجليل ، أنا طاهو ربيب الحرب والقتال . . آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل . . إن آلهة الموت عطشى ولا بد يوما أن أروى غلتها .

ـ فهزَّ سوفخاتب رأسه متوهما أنه عرف ما هناك ، ثم قال :

ـ آه . . الآن فهمت أيها القائد ، إنها خمر مريوط المعتقة .

فقال طاهو بحدة :

ـ كلا . . كلا . . الحق أنى شربت كأسا من الدم ، ثم تبين أنه دم إنسان شرير ، فتسمم دمى ، وزاد الأمر خطورة أنى صادفت فى طريقى إلى هنا رب الخير نائمًا فى المرج ، فأغمدت سيفى فى قلبه . . هيا إلى القتال . . فالدم شراب الجندى الباسل .

فقال سوفخاتب ذاهلا :

ـ إنها الخمر ولا شك ، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك فى الحال .

ولكن طاهو هزَّ رأسه استهانة وقال :

ـ الحذر الحذر أيها الرئيس ، إياك والدم الفاسد ، فهو السم بعينه ، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقض الأسد .

قال ذلك ، ثم سار فى طريقه لا يلوى على شىء ، تاركا سوفخاتب فى ذهول وغرابة .

فـــــترة الانتظـــــار

وكان القصر الفرعونى ، وقصر بيجة ، ودار الحكومة ، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر ، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وكان كل يوم يدنو يدنيها من الفوز ، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل . وما كان هذا الشعور الطيب الجميل لينقطع ، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت ، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة ، أو يقنع مضطرا بعرضها على الملكة ، ولكنه وجد فيها معنى جديدا خطيرا ، لم يشأ أن يتحمل تبعة إخفائه عن مولاه ، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه . . فقابل

فرعون وتلا عليه الرسالة، وكانت التماسا خطيرا موقعا عليه من جميع رجال الكهنوت، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأبيس، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى.

كان الخطاب قويا حازما، فغضب الملك، ومزقه إربا، ورمى به على أرض الحجرة وصاح:

ـ سوف أجيبهم بعد حين قليل.

فقال سوفخاتب:

ـ إنهم يلتمسون جماعة، وكانوا يلتمسون فرادى.

فقال الملك الغاضب:

ـ وسأضربهم جميعا، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل.

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته، وأنه استقبل استقبالا شعبيا رائعا اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالى، وأن الهتافات تصاعدت باسمه، وهتف القوم أيضا لحقوق الآلهة التى ينبغى أن تصان وتخدم، وجاوز هذا القدر قوم، فصاحوا باكين: «واحسرتاه! إن أموال آمون تنفق على راقصة».

ووجم الرئيس أسفا وحزنا، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضا، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة، وغضب الملك كعادته وقال آسفا:

ـ إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئا.

فقال سوفخاتب بحزن:

ـ ليس لديه يا مولاى إلا قوة الشرطة، وهى لا تجدى فى مقاومة جموع غفيرة.

فقال الملك بغضب:

ـ وليس لدى إلا الانتظار على مضض، لقد أدميت وحق الرب كبريائى!

وخيمت سحابة من الحزن على آبو المجيدة، شملت قصورها الشامخة ودور الحكم فيها. وكانت الملكة نيتو قريس تقبع فى جناحها رهينة حبس ووحشة، تعانى آلام قلبها المنفطر وكبريائها الجريحة، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيفتين. وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين، ويقول آسفا لطاهو الصامت الكئيب: «هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد؟! واحزناه!».

واستحالت سعادة الملك غضبا وغيظا، وكان لا يذوق الراحة إلا حين يرتمى بين يدى

المرأة التى أسلمها نفسه، وكانت تدرك ما به، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتهمس فى أذنه: «صبرا» فيتنهد ويقول حانقا «نعم.. حتى أقبض على ناصية القوة».

ولكن اشتد الحرج، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات، واستقبل بالمظاهرات فى كل مكان، وتعالى الهتاف باسمه فى البلدان. وضاق بذلك كثير من الحكام، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون. فاجتمع حكام أمبوس، وفرمونتس، ولاتولس، وطيبة، وتشاوروا فيما بينهم، وقر رأيهم على مقابلة الملك. وقصدوا إلى آبو وطلبوا المقابلة، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سوفخاتب، وتقدم حاكم طيبة بين يديه وحيّاه تحية العبودية والإخلاص ثم قال:

- مولاى، الإخلاص الحق لا ينفع بأن يكون عاطفة فى القلب، ولابد أن يقرن بإسداء النصح والعمل الصالح والافتداء إذا حزب الأمر، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة، ولكنا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا، فلابد من قولة الحق.

فصمت فرعون هنيهة ثم قال للحاكم:

- تكلم أيها الحاكم فإنى مصغ إليك.

فقال الرجل بشجاعة:

- مولاى. الكهنة غاضبون، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم فى الصباح والمساء، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضى إلى أصحابها..

فبدا الغضب على وجه الملك وقال بحنق:

- هل يصح أن يذعن فرعون لإرادة الناس؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة:

- مولاى إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون، فلا إذعان، لكن تعاطف من مولى قادر على عباده.

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال:

- لا أرى فى التراجع سوى الخنوع.

فقال الرجل:

- معاذ الرب أن أشير إلى مولاى بالخنوع، ولكن السياسة بحر لجى، الحاكم كالربان يتفادى الريح العاصفة، وينتهز الفرصة السعيدة.

ولكن الملك لم يعجبه قوله، وهز رأسه باحتقار وعناد واستأذن سوفخاتب طالبا الكلام، وسأل حاكم طيبة قائلا:

ـ هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم؟

فقال الحاكم بثبات ويقين :

ـ نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثثت عيونى فى الأقاليم ، فشهدوا غضب الشعب عن كثب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .

وقال حاكم فرمونتس :

ـ وهذا ما فعلته فجاءتنى أنباء مؤسفة .

وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ، وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة .

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه فى جناحه الخاص ، وكان غاضبا مهتاجا يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :

ـ إن هؤلاء الحكام مخلصون أمناء ، ولكنهم ضعاف ، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشى للهوان . .

وسرعان ما أمن طاهو على رأى مولاه وقال :

ـ إن التراجع هزيمة يا مولاى!

كان سوفخاتب يفكر فى احتمالات أخرى فقال :

ـ ينبغى أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات ، والحق أن قلبى لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب فى آبو .

فبادر طاهو قائلا :

ـ إننا نسيطر على آبو .

ـ لا ريب فى هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه فى العيد الماضى تصاعدت بضعة هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد حقق إرادته ، فينبغى أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخا .

فقال الملك :

ـ إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .

ولكن سوفخاتب لم ينفك يزن الأمور من وجهة نظره ، فقال وكان يؤمن فى قلبه باقتراح الحكام :

ـ سيأتى الرسول فى القريب ، وسيتلو رسالته على الملأ ، ولا شك فى أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئنانا إلى التعبئة وأشد حماسة ، حتى إذا قبض مولاى على ناصية القوة ، أملى إرادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعا برأى سوفخاتب، وأحس بوحشة فى جناحه الخاص، فهرع إلى قصر بيجة الذى لا تلاحقه الوحشة إليه أبدًا. وكانت رادوبيس تجهل ما دار فى الاجتماع الأخير، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه، ولكنها لم تلق صعوبة فى قراءة صفحة وجهه الحساس، والشعور بما يضطرم فى قلبه من الغضب والسخط، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها من الظهور، فقال متذمرا:

- أما علمت يا رادوبيس؟ إن الحكام والوزراء يشيرون علىّ برد الأراضى إلى الكهنة، والرضاء بالهزيمة!

فتساءلت بانزعاج:

- ما الذى حثهم على إبداء هذه المشورة؟

فروى الملك ما قال الحكام، وما نصحوه به، وكانت تزداد انزعاجا وحزنا، وما تمالكت نفسها أن قالت:

- إن الجو يغبر ويظلم وما حمل الحكام على المكاشفة بآرائهم إلا خطر فادح.

فقال الملك بازدراء:

- إن شعبى غاضب.

- مولاى، إن الناس كالسفينة الضالة بلا سكان، تحملها الرياح كيفما تشاء.

فقال بوعيد مخيف:

- سأذهب ريحهم.

وعاودتها المخاوف والشكوك، وخانها صبرها فى تلك اللحظة فقالت:

- ينبغى أن نستوصى بالحكمة، وأن نتراجع زمنا قصيرا مختارين، وإن يوم النصر لقريب.

فنظر إليها بغرابة وقال:

- أتشيرين على بالخضوع يا رادوبيس؟

فضمته إلى صدرها وقد آلمتها لهجته، ثم قالت وقد فاضت عيناها بدمع سخين:

- أحرى بمن يتحفز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداما، والنصر رهين بالنهاية.

فتأوه الملك قائلا:

- آه يا رادوبيس.. إذا كنت تتجاهلين نفسى، فمنذا الذى يمكن أن يعرفها؟ أنا من إذا نزل مرغما على إرادة إنسان ذبل كمدا كوردة سفتها الرياح.

فبدا التأثر فى عينيها السوداوين، وقالت فى حزن عميق:

- فداؤك نفسى يا حبيبى، لن تذبل أبدًا وصدرى يرويك حبا صافيا.

ـ سأعيش منتصرا فى كل لحظة فى حياتى، ولن أمكن خنوم حتب من أن يقول إنه أذلنى ساعة!

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت:

ـ أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانا؟

ـ التسليم حيلة العاجز، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف تتحطم على أسنانه قوى الخائنين.

فتنهدت حزينة آسفة ولم تحاول معاودته، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه وكبريائه.. ومنذ تلك اللحظة وهى تتساءل جزعة متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟..

ما أشق الانتظار.. لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد فى الدنيا.. كم عدت الدقائق والساعات وترقبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتى من الجنوب. وكم حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل منال: أين أنت يا بنامون؟! حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم، فلا طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته!

وتقضت الأيام تجر ثقلها جرا بطيئا، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة فى أفكارها، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة، فرفعت رأسها وسألتها:

ـ ما وراءك يا شيث؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث:

ـ مولاتى، جاء بنامون.

وغمرها الفرح، فانتفضت واقفة كطير فزع، وهى تصيح:

ـ بنامون!

فقالت الجارية:

ـ نعم يا مولاتى، إنه ينتظر فى البهو، وطلب إلىَّ أن أؤذنك بقدومه. كم لوحه السفر!

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو، فألفته واقفا ينتظر وفى عينيه شوق صارخ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل، فوقر فى نفسه أن فرحها به، وله، فغمرته سعادة إلهية وارتمى على قدميها كالعابد، ولف ذراعيه حول ساقيها بحنان ووجد، وهوى بفمه إلى قدميها.. وقال:

ـ معبودتى، حلمت مائة مرة أنى أقبل هاتين القدمين، وهأنذا أحقق أحلامى.

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة :

ـ بنامون العزيز . . بنامون . . أحقًا عدت إلىّ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة، ودس يده فى صدره فأخرج حقًا من العاج صغيرا وفتحه، وإذا ما فيه تراب . . ثم قال :

ـ هذا تراب مما كانت تطأ قدماك فى الحديقة، جمعته بيدى واحتفظت به فى هذا الحق وحملته معى فى سفرى، وكنت أقبله كل مساء قبل استسلامى للكرى، ثم أحفظه على قلبى . .

وأصغت إليه على جزع وتململ، وكان شعورها منصرفا عن حديثه، ونفد صبرها، فسألته برقة تدارى بها جزعها :

ـ ألا تحمل شيئا؟

فدس يده فى صدره مرة أخرى، وأخرج كتابا مطويا ومد لها يده به، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد، وأحست بتخدير فى أعصابها وخور فى قواها، وألقت على الرسالة نظرة طويلة، وشدت عليها بيدها، وكادت تنسى بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرا مهما وسألته :

ـ ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفنرو؟

فقال الشاب :

ـ بلى يا مولاتى، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة. وإنه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية.

ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا؛ لأن الفرح الذى غمر حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :

ـ أستودعك الرب إلى حين، وإن حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام.

وجرت حاملة الرسالة، وكان قلبها ينادى حبيبها ومولاها من أعماقها، ولولا التحرج، لطارت إليه فى قصره كما فعل النسر من قبل، تزف إليه البشرى السعيدة . .

الاجتمـــــاع

وجاء يوم عيد النيل، واستقبلت آبو المحتفلين من أقاصى الجنوب والشمال، وتعالت فى جوها الأناشيد، وازينت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون، واستقبل

الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس فى طريقهم إلى القصر الفرعونى، لينتظموا فى الموكب الملكى العظيم الذى يغادر القصر حين الضحى.

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجاب، وحياهم باسم الملك، وقال بصوت جهورى:

ـ أيها السادة الأجلاء، إن فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال، فتفضلوا بالذهاب إلى البهو الفرعونى.

وتلقى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية. لأن العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم: ترى أى أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد؟!

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذى الجلال والروعة. واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن، وجلس الحكام قبالتهم، وكان يتصدر المكان العرش الفرعونى، وسط جانحين من الكراسى أعدت للأمراء والوزراء.

وما لبثوا قليلاً حتى دخل الوزراء يتقدمهم سوفخاتب، وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالك، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم.

وساد الصمت وبدا الجد والاهتمام على الوجوه، وخلا كل إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التى دعت إلى هذا الاجتماع المهم، حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام، فتطلعوا إليه فى انتباه شامل، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن مجىء الملك:

ـ فرعون مصر نور الشمس، وظل رع على الأرض، صاحب الجلالة مرنرع الثانى..

فهب الجميع وقوفا وأحنوا الهامات، حتى كادت تمس الأرض الجباه، وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو، وحامل الأختام، وكبير حجاب الأمير كارفنرو حاكم النوبة، وجلسوا على العرش، ثم قال بصوت مهيب:

ـ أحييكم أيها الكهنة والحكام وآذن لكم بالجلوس.

فاعتدلت القامات المنحنية فى رفق، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة، واتجهت الأنظار إلى صاحب العرش تواقة إلى استماع كلمته. واعتدل الملك فى جلسته، ثم قال وهو يقلب عينيه فى وجوه القوم دون أن تستقر على أحد:

ـ أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى، لقد دعوتكم لأشاوركم فى أمر خطير يتعلق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد.

أيها السادة: لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفنرو

يحمل رسالة خطيرة من مولاه، فرأيت أن واجبى يقضى علىّ بأن أدعوكم دون إمهال، للاطلاع عليها، والمشاورة فى محتوياتها الخطيرة.

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه، فتقدم الرجل خطوتين فصار فى حذاء العرش، وقال له فرعون:

- «اتل عليهم الرسالة».

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه، وقرأ بصوت جهورى مؤثر:

- «من الأمير كارفنرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر نور الشمس المشرقة، وظل الرب رع، حامى النيل، وصاحب النوبة، وطور سيناء، وسيد الصحراء الشرقية، والصحراء الغربية.

مولاى.. يؤسفنى أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء محزنة، عن حوادث غدر شائنة، وقعت فى أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية، وكنت يا مولاى - اطمئنانا منى إلى المعاهدة التى عقدت بين مصر وقبائل المعصايو، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن - كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة فى الصحراء إلى قواعدها الأصلية. وجاءنى اليوم ضابط من رجل الحاميات وأخبرنى بأن زعماء القبائل شقوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم، وانقضوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات، وأعملوا فيها التقتيل الوحشى. وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس، قوات تفوقهم مائة مرة أو يزيد، حتى سقطوا عن آخرهم فى ميدان الاستبسال. واجتاحت القبائل البلاد جميعا، واتجهت نحو الشمال إلى بلاد النوبة، فرأيت من الحكمة ألا أفرط فيما لدى من قوات محدودة، وأن أوجه همى إلى تحصين الاستحكامات والقلاع، للتمكن من صد العدو الزاحف، ولن تصل مولاى رسالتى حتى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين. وإنى فى انتظار أمر مولاى سأظل على رأس جنودى أقاتل فى سبيل مولاى فرعون. ووطنى مصر».

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة، وظل صوته يدوى فى كثير من القلوب. أما الحكام فقد اتقدت أعينهم، وتطاير منها الشرر، وسرت فى صفوفهم حركة اضطراب عنيف، وأما الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم، وانقلبوا كتماثيل جامدة فى معبد صامت.

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثر أشده، ثم قال:

- هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين، فقام واقفا وأحنى رأسه تحية، وقال:

- مولاى.. إنها رسالة خطيرة حقًا، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة.

ولاقت كلمته ارتياحا فى نفوس الحكام، فقام حاكم أمبوس وقال:

ـ نعم الرأى يا مولاى، فالجواب الأوحد هو التعبئة السريعة، كيف لا ووراء الحدود الجنوبية إخوان لنا بواسل أوقعهم العدو فى ضيق. . وإنهم لثابتون، فلا ينبغى أن نخذلهم، أو نبطئ عليهم. .

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته، فقال:

ـ إذا اجتاح أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شك.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين، وقد ذكر رأيا قديما له طالما تمنى تحقيقه يوما، فقال:

ـ كان رأيى دائما يا مولاى أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير، يكفل لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود.

واشتدت الحماسة فى جناح جميع القواد، ونادى كثير منهم بالتعبئة، وهتف آخرون للأمير كارفنرو ولحامية بلاد النوبة. واشتد التأثر ببعض الحكام، فقالوا للملك:

ـ مولانا. . لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد، ووراءنا إخوان بواسل يتهددهم الموت. إيذن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود.

وكان فرعون ملازما الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس، فلما أن سكت الحكام. . قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب:

ـ هل يأذن لى مولاى فى أن أوجه إلى رسول سمو الأمير كارفنرو سؤالا.

فقال الملك بغرابة:

ـ لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر.

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال:

ـ متى غادرت بلاد النوبة؟

فقال الرجل:

ـ منذ أسبوعين.

ـ ومتى بلغت آبو؟

ـ مساء أمس.

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال:

ـ أيها الملك المعبود، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة، فبالأمس جاء هذا الرجل المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء

المعصايو من أقصى الجنوب ليقدموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون، ويرفعون إلى أعتابه المقدسة آى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام، فما أشد حاجتنا إلى من يميط اللثام عن هذه المعميات.

فكان تصريحا غريبا لم يتوقعه إنسان، فأحدث دهشة كبرى وعجبا، فشملت الرءوس حركة عنيفة، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة، وتهامس الأمراء. أما سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه فى ارتياع، فرآه يقبض على الصولجان بشدة، وتشد عليه بقسوة حتى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه، فخشى الرجل من تسلط الغضب على الملك، فسأل الكاهن قائلا:

- ومن أنبأك بهذا يا صاحب القداسة؟

فقال الرجل بهدوء:

- رأيتهم بعينى رأسى يا سيدى الرئيس، فقد زرت أمس معبد سوتيس، وقدم كاهنه إلىّ وفدا من السود قالوا إنهم من زعماء المعصايو، وأنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون، وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه.

فقال سوفخاتب:

- ألا يصح أن يكونوا من النوبة؟

ولكن الرجل قال بيقين:

- قالوا إنهم من المعصايو، وعلى أى حال فها هنا رجل - هو القائد طاهو - اشتبك مع المعصايو فى حروب كثيرة، وعرف جميع زعمائهم، فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدسة، وعسى أن تزيل أقوالهم من أعيننا غشاوة الحيرة؟

وكان الملك فى حالة شديدة من القهر والغضب، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن، وأحس الوجوه تتطلع إليه فى لهفة ورغبة و رجاء، فقال لأحد الحجاب:

- اذهب إلى معبد سوتيس، وادع زعماء السود.

وصدع الحاجب بالأمر، ولبث الجميع ينتظرون وكأن على رءوسهم الطير. وكان الذهول باديا على وجوه الجميع. وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ود كل منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه. ولبث سوفخاتب قلقا مهموما دائم التفكير يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة، ومرت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلمة، كأنما تنتزع من جلودهم، والملك على عرشه يشاهد الحكام القلقين والكهنة المطرقين، لا تكاد تخفى عيناه ما يعترك فى نفسه من العواطف. ثم خال الجميع أنهم يسمعون ضوضاء يحملها

الهواء من بعيد، فخلصوا من نفوسهم، وأرهفوا السمع، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف، ومضت بالقرب تشتد وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق. وكانت مختلطة غير متمايزة، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هنالك، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا، ومال على أذن فرعون وقال:

- إن جموع الشعب تملأ الميدان، تحيط بالعربات التى تحمل زعماء السود.

- وما هتافهم؟

- يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين، ومعاهدة السلام.

ثم تردد الرجل لحظة واستدرك هامسا:

- ويهتفون يا مولاى لصاحب المعاهدة خنوم حتب!

واصفرَّ وجه الملك من الغضب، وأحس بالحقد والقهر، وتساءل كيف يدعو الشعب الذى يحيى زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو!! ولبث ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا.

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء، وفتح الباب على مصراعيه، ودخل الوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة، ضخام الأجسام، عرايا إلا من وزرة تستر الوسط، وعلى رءوسهم هالات من أوراق الشجر، وقد سجدوا جميعا على الأرض، وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش، فقبلوا الأرض بين يدى فرعون، ومد لهم الملك صولجانه فلثموه فى خشوع، وأذن لهم الملك بالوقوف فوقفوا فى تهيب، وقال رئيسهم باللهجة المصرية:

- أيها الرب المعبود، فرعون مصر، وسيد الوادى. ومعبود القبائل، جئنا إلى رحابك لنقدم إليك آى الخضوع والذل والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم. فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا، وشربنا الماء حلوا سائغا.

فباركهم الملك برفع يده.

وكانت الوجوه متجهة إليه كأنما تضرع إليه أن يسألهم عما يقال عن بلادهم، فقال الملك المقهور:

- من أى العشائر أنتم؟

فقال الرجل:

- أيها البهاء المعبود، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد.

وصمت الملك قليلا، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا، وضاق بالمكان وبمن فيه، فقال:

ـ إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم .

وقدم صولجانه فلثموه مرة أخرى ، وكروا راجعين ، تكاد تمس الأرض جباهم .

والتهب الغضب فى قلب الملك ، وأحس إحساسا باطنيا أليما بأن الكهنة الماثلين أمامه ، وجهوا إليها ضربة قاتلة فى معركة خفية ، لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق . وفاض به الغيظ ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات :

لدى رسالة لا يرتقى الشك إليها ، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أو لا تتبعهم ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمردون ، وأن جنودنا الآن محاصرون ! !

فعاودت الحماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :

ـ مولاى . . لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك ، إن إخواننا ينتظرون النجدة . فلا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشات ، والحق أبلج واضح .

فقال الملك بعنف :

ـ أيها الحاكم ، إنى أعفيكم من الاشتراك اليوم فى الاحتفال بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى . ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا الجند ، فرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم قام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات إجلالا .

الهتـــــــاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاص ، ودعا إليه رجليه المخلصين سوفخاتب وطاهو . فلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدى التأثر ، يقدران حرج الموقف حق قدره . ووجدا الملك كما توقعا مهتاجا غاضبا ، يذرع حجرته من جانب إلى جانب ، ويهدر بوحشية ، فلما انتبه إليهما حدجهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ خيانة . . إنى أشم رائحة خيانة خبيثة فى هذا الجو الخانق .

فانكفأ طاهو وقال :

ـ مولاى . لا أنفى عن نفسى التشاؤم وسوء الظن ، ولكن لا يذهب بى الحدس إلى هذا الفرض الكبير .

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :

ـ لماذا جاء هذا الوفد اللعين؟ . . بل كيف جاء اليوم؟ . . واليوم بالذات؟

فقال سوفخاتب، وكان غارقا فى التفكير والأحزان :

ـ ترى هل هى مصادفة حزينة غريبة؟

فقال الملك فى دهشة مروعة :

ـ مصادفة . . كلا . . كلا . هى الخيانة اللئيمة، أكاد ألمح وجهها يستتر بالإطراق والدهاء. كلا أيها الوزير لم يجئ القوم مصادفة لكنهم دفعوا إلى هنا عمدا ليقولوا سلاما إذا ما قلت أنا حربا، وهكذا وجه إلىّ عدوى ضربة شديدة، وهو ماثل بين يدىّ يعلن الولاء .

فامتقع وجه طاهو ولاح فى وجهه الحزن، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق يائسا وكأنه يحادث نفسه :

ـ إذا كانت خيانة فمن الخائن؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته فى الهواء :

ـ نعم . . من الخائن؟ . . هل هنالك معضلة لا تحل . . كلا . . أنا لا أخون نفسى، ولا يخون عهدى سوفخاتب ولا طاهو، ولا تخوننى رادوبيس، فلم يبق إلا هذا الرسول الشقى . . وا أسفاه! لقد خدعت رادوبيس .

فبرقت عينا طاهو وقال :

ـ سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهز الملك رأسه وقال :

ـ رويدك يا طاهو رويدك . . إن المجرم لا ينتظرك حتى تذهب للقبض عليه، ولعله الآن ينعم بثمن خيانته فى مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة . كيف تمت المكيدة؟ . . لا أدرى كيف، ولكنى أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا بالرسالة قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولى بالرسالة، وجاء رسولهم بالوفد . . خيانة . . نذالة، إنى أعيش وسط شعبى كالأسير . . ألا لعنة الآلهة على الدنيا وعلى الناس .

ولاذ الرجلان بالصمت، حزنا وإشفاقا، وكان طاهو يختلس من مولاه نظرات حزينة، وأراد أن يحاول إعادة الأمل إلى ذلك الجو القاتم فقال :

ـ ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلا :

ـ كيف لنا بتسديد هذه الضربة؟!

ـ إن الحكام فى طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود.

ـ وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفى الأيدى بإزاء الجيش الذى علموا أنه يحشد لسحقهم؟

وكان سوفخاتب ينوء بهم ثقيل كان يؤمن بما يقول الملك، ولكن أراد أن ينفس عن صدره، فقال وكأنه يتمنى:

ـ عسى أن يكون ريبنا وهما، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة، فتنقشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب.

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال:

ـ لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين، كانوا بلا شك ينطوون على سر رهيب، ولما قام رئيسهم ليتكلم، تحدى حماسة الحكام باطمئنان، وألقى كلمته بثقة لا حد لها، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة، آه.. الويل للخيانة.. لن يعيش مرنرع الثانى تحت رحمة الكهنة.

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال:

ـ مولاى.. تحت إمرتك حرس قوى البنيان يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم، ويجود بنفسه فى سبيل مولاه عن طيب خاطر.

فأعرض فرعون عنه، وارتمى على مقعد وثير مستسلما لأفكار رأسه الساخنة، ترى هل يمكن أن يتحقق أمله على الرغم من هذه الأحزان؟ أم يفشل مشروعه إلى الأبد؟ يا لها من ساعة فاصلة فى حياته.. هى مفترق الطرق بين المجد والهوان، والقوة والانهيار، والحب والشقاء! لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضى حيلة، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى التنازل عنها محافظة على عرشه؟ آه.. لن يأتى هذا اليوم، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدا. وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا. وتنهد بالرغم منه حسرة، وقال لنفسه آسفا.. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة! وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول:

ـ مولانا دنا موعد الحفل.

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق، وتمتم «حقّا». ثم قام واقفا وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء القصر العظيم ـ وقوة العجلات متراصة به فى الانتظار ـ وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه، ثم دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة، ورجع لا بسا جلد النمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج. وتأهبوا جميعا للخروج، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيًّا مولاه وقال:

ـ السيد طام رئيس شرطة آبو يستأذن فى المثول بين يدى مولاه.

فأذن له الملك ومشيراه لما شاهدوه على وجهه من آى الاضطراب. وحيًّا الشرطى الكبير مولاه، وقال مبادرا بعجلة واضطراب:

ـ مولاى! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل!

فخفق قلب الرجلين، وسأل الملك منزعجا:

ـ وما الذى حملك على هذا؟

فقال الرجل وهو يلهث:

ـ قبضت فى هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة إلى شخصية نبيلة يكرمها مولاى وأخشى أن تكرر هذه الهتافات فى أثناء الموكب.

فخفق قلب الملك وغلت مراجل الغضب فى دمه، وسأله بصوت متهدج:

ـ ماذا قالوا؟

فابتلع الرجل ريقه، وقال باضطراب وارتباك:

ـ قالوا لتسقط العاهرة! لتسقط ناهبة المعابد!!

فاشتد الغضب بالملك، وصاح بصوت كالرعد:

ـ يا للويل! لابد أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى أو ينفجر بنيانى.

واستطرد الرجل مذعورا:

ـ وقد قاوم المجرمون رجالى، فوقعت معارك بيننا وبينهم، وساد الاضطراب والهرج برهة، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا.

فسأل الملك قائلا وهو يصر على أسنانه غضبا ومقتا:

ـ وماذا قالوا أيضا؟

فأحنى الرجل رأسه، وقال بصوت خافت:

ـ تجاسر المجرمون على ما هو أجل.

فقال الملك فى صوت ذاهل:

ـ أنا.. ؟!

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه، ولم يتمالك سوفخاتب نفسه فصاح:

ـ كيف يمكن أن أصدق أذنى؟

وصاح طاهو بغضب:

ـ هذا جنون لا يعقل.

وضحك فرعون ضحكة عصبية، وقال بسخرية مريرة:

ـ كيف ذكرنى شعبى يا طام؟ . . تكلم إنى آمرك .

فقال الرجل:

ـ قال الأوغاد . . «ملكنا يلهو» . . «نريد ملكا جادا» .

فضحك الملك ضحكة كالأولى، وقال متهكما:

ـ واأسفاه . . ما عاد مرنرع يصلح لعرش الكهنة! . . وماذا قالوا أيضا يا طام؟

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع:

ـ وهتفوا يا مولاى طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتو قريس!

فلاح بريق خاطف بعينى الملك، وردد اسم نيتو قريس بين شفتيه بصوت خافت كأنما يذكر شيئا قديما طال به عهد النسيان، وتبادل المشيران نظرة الدهشة، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتحرج رئيس الشرطة، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثا مريرا، وإن سأل نفسه حيرة: ترى ما عسى أن يكون شعور الملكة حيال هذه الهتافات . . واشتد الضيق بصدره، وأحس بموجة عنيفة من الغضب والتمرد والاستهتار، فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلا بخشونة:

ـ هل حان موعد الذهاب؟

فقال طام بذهول:

ـ ألن يعدل مولاى عن الذهاب؟

فقال الملك بعنف:

ـ ألا تسمعنى أيها الوزير؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع:

ـ بعد برهة قصيرة يا مولاى . . حسبت مولاى سيعدل عن الذهاب؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة:

ـ سأذهب إلى معبد النيل خلل الجموع الساخطة، وسنرى ما يكون . . عد يا طام إلى واجبك .

الأمـــل والســـم

وكانت رادوبيس فى صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى الديوان الوثير تحلم، كان يوما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم . فأى سعادة

وأى فرح. كان صدرها فى ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى معطر، تنبت على حوافّها الأزهار وتغنى فى جوها البلابل شادية نشوى.. فيا لدنيا الأفراح؛ ومتى تتلقى نبأ الفوز؟! حين الأصيل، حين تبدأ الشمس رحلتها إلى العالم الثانى ويشرع قلبها فى رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال الحبيب، فيالساعة الأصيل! ساعة الأصيل هى ساعة الحبيب، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه الغض، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق، يناجى اسمها العذب، يبشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام، وتفرق الحكام ليحشدوا الجنود، فهنيئا لحبنا. آه ما أجمل الأصيل!

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار ينقضى؟.. لقد انتظرت عودة الرسول شهرا انطوى ثقيلا مرهقا، ولكنها تخال هذه الساعات المعدودات أشد وطأة وأكبر كلفة، على أنه قلق يخالط طمأنينة، وخوف يمازج سعادة.. وكأنما أرادت أن تتناسى الانتظار لتتغفل الزمن، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتى عثرت فى شرودها بالعاشق الجاثى فى معبده.. فى الحجرة الصيفية، بنامون ابن بسار، ما أرقه وأخف ظله، كانت تساءلت مرة أخرى حيرى كيف تجزيه على ما أدى لها من خدمة جليلة، وقد طار على جناحى يمامة إلى أقصى الجنوب، وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق.. بل همست مرة فى ارتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه؟ ولكنه علمها بقناعته أن من الحب حبا عجيبا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع، ويرضى بالأحلام والأوهام. فيا له من شاب حالم بعيد عن الدنيا! ولو أنه طمع فى قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماه، دون أن تمد له فمها، ولكنه لا يطمع فى شىء، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض. أو لعله لا يصدق أنها شىء يلمس ويقبل. إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الإنسان، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة فى السماوات.

وتنهدت وقالت: حقّا إن الحب عالم عجيب، أما حبها فينبع متدفقا من صميم الحياة، فالقوة التى تجذبها إلى مولاها هى قوة الحياة الكاملة الرهيبة، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة، ويضل فى آفاق سامية، لا يعلن عن أثر محسوس إلا فى يده الماهرة، وأحيانا فى لسانه الملعثم الحار.. فياله من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام، ويقوى من ناحية أخرى فيبث فى الصخر الأصم حياة! فكيف تفكر فى التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا، فلتتركه فى معبده آمنا، يصور فى جدرانه الصامتة أجمل التهاويل التى تكتنف وجهها الجميل.

وعادت تهتف من أعماق صدرها: متى الأصيل؟ سحقا لشيث لو لبثت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها، ولكنها أبت إلا أن تذهب إلى آبو لمشاهدة عيد النيل..

ما أجمل الذكريات! ذكرت العيد الماضى، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب، ولما وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهى لا تدرى، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء، فحسبته قلقا غاضبا أو نفثة ساحر، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها! ولم يكد يبدأ اليوم الثانى حتى زارها فرعون. ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا.

أما العام الثانى فها هى ذى تقبع فى قصرها، والدنيا تقصف وتلهو فى الخارج، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تبق رادوبيس الغانية الراقصة، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق.. وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همها فتساءلت: ترى ماذا حدث فى الاجتماع الخطير الذى قال مولاها إنه سيدعو إليه ليقرأ عليه الرسالة؟.. هل التأم ولبى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن؟. أواه.. متى يأتى الأصيل؟!

وملت الجلسة، فقامت تتمشى، ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة تسرح الطرف فى آفاقها المنفسحة. ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب، فالتفتت متضايقة برمة، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل، فوجب قلبها، وطالعها نذير شؤم، وسألتها فى إشفاق:

ـ مالك يا شيث؟

وهمت الجارية أن تتكلم، فغلبها البكاء، فجثت على ركبتيها أمام مولاتها، وشبكت يديها على صدرها، وأفحمت فى البكاء بحالة عصبية شديدة، فاستولى الانزعاج على رادوبيس وصاحت بها:

ـ مالك يا شيث؟.. بالله تكلمى، ولا تتركينى فريسة الحيرة، فإن لى آمالا أخاف عليها الوساوس.

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا، وشهقت شهقة عنيفة، ثم قالت بصوت باك:

ـ مولاتى.. مولاتى.. إنهم هائجون ثائرون!

ـ من الهائجون الثائرون؟

ـ الناس يا مولاتى.. إنهم يصرخون فى غضب جنونى، مزقت الأرباب ألسنتهم.

فخفق قلبها مفزوعا وقال بصوت متهدج:

ـ ماذا يقولون يا شيث؟

ـ آه يا مولاتى.. إنهم قوم مجانين تهذى ألسنتهم المسمومة هذيانا مخيفا.

فكادت المرأة تجن فزعا، وصاحت بحدة:

ـ لا تعذبينى يا شيث! صارحينى بما قالوه.. رباه.

ـ مولاتى إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل.. ماذا فعلت يا مولاتى حتى تستحقى غضبهم؟

فضمت رادوبيس يدها إلى صدرها، وقد اتسعت عيناها ذعرا، وقالت بصوت متقطع:

ـ أنا؟!.. أيغضب الناس علىّ أنا؟.. ألم يجدوا فى هذا اليوم المقدس ما يشغلهم عنى؟.. رباه.. ماذا قالوا يا شيث؟ أصدقينى رحمة بى.

فقالت المرأة وهى تبكى بكاء مرا:

ـ تصايح المجانين يا مولاتى بأنك تنهبين مال الأرباب.

فتنهدت من صدر مكلوم، وتمتت بحزن:

ـ أواه.. إن قلبى ينخلع ويتوجس خيفة، وأخوف ما أخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب. أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عنى إكرامًا لمولاهم؟

فصكت الجارية صدرها بيدها، وولولت قائلة:

ـ إن مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم.

وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة، وأحست برجفة تزلزل نفسها، وقالت:

ـ ماذا تقولين؟.. هل تجاسروا على مس فرعون؟

فقالت المرأة الباكية:

ـ نعم يا مولاتى واأسفاه.. قالوا فرعون يلهو. نريد ملكا جادا.

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث، وتلوى جسمها من شدة الألم، وارتمت بيأس على الديوان، وهى تقول:

ـ رباه.. أى هول هذا؟!.. كيف لا تزلزل الأرض. وتندك الجبال؟! كيف لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا؟!

فقالت الجارية:

ـ إنها تزلزل يا مولاتى زلزالا شديدا. فالقوم مشتبكون فى قتال عنيف مع الشرطة، والدماء تسيل وتنفجر.. وكادت الأقدام تطؤنى، ففررت لا ألوى على شىء، وانحدرت فى قارب إلى الجزيرة، وما كان أشد انزعاجى إذ وجدت النيل يموج بالسفن، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون، وكأنهم جميعا على ميعاد.

وغشيها خور، وطغت عليها موجة يأس خانق، أغرقت آمالها الصارخة بغير رحمة. وجعلت تسائل نفسها المحزونة: ترى ماذا حدث فى آبو؟ وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة؟ وما الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه؟ وهل يقدر للرسالة الفشل ويقضى على أملها بالموت؟ الجو مغبر كالح، تتطاير فيه نذر شر مستطير، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة.. إن الخوف القاتل يجثم عليه كقطعة من الزمهرير، وقد قالت بصوت كالبكاء:

ـ العون أيتها الأرباب.. هل يظهر مولاى لهذا الشعب الهائج؟

فقالت شيث تطمئنها:

ـ كلا يامولاتى.. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه بالثائرين.

ـ رباه.. أنت لا تعرفين من هو يا شيث.. إن سيدى غضوب لا يتقهقر أبدا، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث. لابد أن أراه الآن.

فارتجفت الجارية رعبا وقالت:

ـ هذا مستحيل.. فالسفن الغاصة بالهائجين تغطى سطح الماء، وحرس الجزيرة متجمع على الشاطئ.

فشدت على رأسها وصاحت:

ـ ما بال الدنيا تضيق فى وجهى، والأبواب تسد علىّ؟ إنى أتردى فى بئر ضيقة من اليأس، آه يا حبيبى.. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك؟

فقالت شيث تخفف عنها:

ـ صبرا يا مولاتى، ستنقشع هذه السحابة القاتمة.

ـ يمزق قلبى إربا أن أشعر بأنه يتألم. آه يا سيدى وحبيبى! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات فى آبو!؟

وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة، ودهشت شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحب والنعيم والترف تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس، وفكرت فى غيبوبة الحزن التى غشيتها فيما آلت إليه آمالها التى كانت مشرقة منذ قليل. وأحس قلبها ببرودة اليأس، وتساءلت خائفة مذعورة: هل يمكن أن يرغموا مولاها فيفقدوه سعادته وكبرياءه أو أن يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم؟ إن الحياة لا تطاق مع تحقيق أى من هذه الوساوس، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها، فإما أن تعيش رادوبيس التى حالفها الحب والمجد، وإما أن تموت.

وفكرت فى أمرها طويلا حتى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان، فاستولى عليها اهتمام شديد، وقامت من فورتها وغسلت وجهها بماء بارد

لتمحو أثر البكاء من عينيها، وقالت لشيث: إنها ستتحدث إلى بنامون فى بعض الشئون. وكان الشاب منهمكا فى عمله كعادته، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحدثان. ولما أحس بها أقبل نحوها فرحا، ولكنه سرعان ما وجم وقال:

ـ وحق هذا الحسن الإلهى إنك حزينة اليوم.

فقالت وهى تخفض ناظريها:

ـ بل تعبة فقط أو كالمريضة.

ـ الجو شديد الحرارة، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة؟

فقالت باقتضاب:

ـ جئتك برجاء يا بنامون.

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك.

فقالت:

ـ أتذكر يا بنامون أنك حدثتنى يوما عن السموم العجيبة التى ركبها أبوك؟

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة:

ـ نعم أذكر ذلك بغير ريب!

ـ بنامون، أريد قارورة من هذا السم العجيب، الذى أطلق عليه أبوك السم السعيد.

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا:

ـ ولِمَ؟

فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت:

ـ لقد حدثت أحد الأطباء فأبدى اهتماما بشأنه، وطلب إلىّ أن أوافيه بقارورة منه، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه، فوعدته يا بنامون، فهل تعدنى بدورك أن تحضرها لى فى أقرب وقت؟

فقال الشاب بسرور، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء:

ـ ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل.

ـ كيف؟ ألا ينبغى أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها؟

ـ كلا.. لدى قارورة فى مسكنى بآبو.

فأثار تصريحه اهتمامها على الرغم من أحزانها. ورمقته بنظرة دهشة، فخفض عينيه وقد تخضب وجهه احمرارا، وقال بصوت خافت:

ـ أحضرتها فى تلك الأيام الأليمة، حين كدت أشفى من حبى على اليأس، ولولا ما أبديت بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس!

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة؛ أما هى فهزت كتفيها استهانة وقالت وهى تهم بالمسير:

ـ قد ألوذ بها مما هو شر منها!!

سهم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف، وظل الرجلان واقفين ممتقعى الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته، فقال بتوسل:

ـ أضرع إليك يا مولاى أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد.

ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة، فقطب جبينه غضبا وقال:

ـ أأفر لدى أول هتاف؟

فقال الوزير:

ـ مولاى إن القوم هائجون غاضبون، فينبغى التروى.

ـ يحدثنى قلبى بأن خطتنا سائرة إلى الفشل المحتوم، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيبتى إلى الأبد.

ـ وغضب الشعب يا مولاى؟

ـ سيهدأ ويسكن إذا رآنى أشق صفوفه على عجلتى كالمسلة الشامخة، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع.

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد التأثر، فسكت سوفخاتب وهو كظيم، وعطف ناظريه إلى طاهو وكأنه يستغيث به. ولكن القائد كان غارقا فى الهموم كما بدا من امتقاع وجهه، وشرود نظرته، وثقل أجفانه. فشملهم صمت عميق، ولم يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك.

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب، وكان متسرعا مضطربا، فانحنى للملك، وقال:

ـ ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاى فى المثول بين يديك.

فأذن له الملك، وحدج رجليه بنظرة يفحص بها أثر قول الحاجب فى نفسيهما. فوجدهما قلقين مضطربين. فعلت فمه ابتسامة ساخرة، وهزّ كتفيه العريضتين استهانة. ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب، وكان ثيابه معفرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشر، فأدى التحية، وقال قبل أن يؤذن له فى الكلام:

- مولاى! إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة فى قتال عنيف، وقد قُتل من الجانبين رجال كثيرون، ولكن سيقتحمنا القوم إذا لم تصلنا نجدات قوية من الحرس الفرعونى.

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعا، ونظرا إلى فرعون فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب، وقد صاح بصوت أجش:

- وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد.

فاستدرك الضابط قائلا:

- وقد آذنتنا العيون يا مولاى أن الكهنة يخطبون فى الناس فى أطراف المدينة زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب وهمية فى الجنوب ليحشد جيشا يذل به الشعب، والناس تصدقهم ويشتد بهم الغضب، ولولا وقوف الشرطة فى وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر المقدس.

فصاح فرعون كالرعد:

- قطع الشك باليقين، وافتضحت الخيانة اللئيمة، وها هم أولاء يعلنون العداوة ويبدءوننا بالهجوم!

ووقع الكلام من الآذان موقعا غريبا لا يصدق، وبدا على الوجوه كأنها تتساءل فى دهشة وإنكار: أحقا أن هذا فرعون؟ وهذا شعب مصر؟.. ولم يطق طاهو صبرا. فقال لمولاه:

- مولاى! هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية فى دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء، والرب أعلم كيف يكون منتهاه، فمرنى أن أقوم بواجبى.

فسأله فرعون:

- وماذا أنت فاعل يا طاهو؟

- سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة، وأقود فرقة العجلات لملاقاة الثائرين، قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر.

فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليا، ثم قال بصوت رهيب:

- سأقودها بنفسى.

فانخلع قلب سوفخاتب فى صدره، وصاح بالرغم منه:

- مولاى!

فضرب الملك صدره بيديه بعنف، وقال:

- ما زال هذا القصر حصنا ومعبدا منذ آلاف السنين، ولن يصير على عهدى هدفا رخيصا لكل متمرد.

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء ، وأسرع إلى مخدعه ليرتدى لباسه الحربى . وفقد سوفخاتب اتزانه ، وتوجس خيفة وشرا ، فالتفت إلى طاهو ، وقال بلهجة الآمر :

ـ أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه ، فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ، وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطى ، ولبث الوزير ينتظر الملك .

ولكن الحادثات لم تنتظر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة ، وما زالت تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلة على فناء القصر وألقى بناظريه إلى الميدان ، فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى . كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلا رءوسا عارية وسلاحا لامعا . فأحس الوزير بالفزع و نظر إلى أسفل ، فرأى العبيد فى حركة سريعة يثبتون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط فى الأمام على الجانبين الشمالى والجنوبى ، واندفعت قوات عظيمة منهم إلى ممر الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسى . أما العجلات ، فقد ارتدت إلى الوراء ، واصطفت صفين طويلين تحت الشرفة استعدادا للانطلاق فى الفناء إذا اقتحم الباب الخارجى .

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت إلى الوراء ، فرأى فرعون واقفا على عتبة الشرفة فى ثياب القيادة العليا ، على رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شررا متطايرا ، والغضب مرتسما على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول حانقا مغيظا :

ـ حوصرنا قبل أن نبدى حراكا !

فقال سوفخاتب :

ـ القصر يا مولاى قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنها جنود جبابرة ، وسيرتد الكهنة مهزومين .

وجمد الملك فى مكانه ، وتراجع الوزير وراءه ، وجعلا ينظران فى صمت محزن إلى الجموع التى لا يحصيها العد ، وهى تهدر كالوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات كالرعد : «العرش لنيتو قريس» ، «ليسقط الملك العابث» . وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ، فتستقر فى المقاتل ، ورد الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام .

وهزَّ فرعون رأسه ، وقال :

ـ مرحى . . مرحى . . أيها الشعب الكاسر الذى جاء لخلع الملك العابث ، ما هذا الغضب؟ ! ما هذه الثورة؟ ! لماذا تهدد بهذا السلاح؟ ! أتريد حقّا أن تغمده فى

قلبى؟ . . مرحى . . مرحى . . إنه لمنظر حقيق بأن يخلد على جدران المعابد . . مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة ، ويطلقون السهام كالمطر ، فإذا سقط منهم قتيل حل مكانه غيره مستهينا بالموت ، والقواد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال .

وإنه ليشاهد هذه المناظر الأليمة ، إذ سمع صوتا يعرفه حق المعرفة يقول :

ـ مولاى .

فالتفت إلى الوراء مدهوشا ، فرأى الذى يناديه على قيد خطوتين ، فقال بعجب :

ـ نيتو قريس !

فقالت الملكة بصوت حزين :

ـ نعم يا مولاى ، لقد صك أذنى صراخ بشع لم يسمع من قبل فى هذا الوادى ، فجئت ساعية إليك لأعلن ولائى ، وأشاطرك المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها ، فتقهقر سوفخاتب إلى الخارج . وبادر الملك إلى معصميها ورفعها من ركعتها ، ونظر إليها بعينين مرتبكتين . ولم يكن رآها من اليوم الذى جاءت فيه إلى جناحه وردها أسوأ رد ، فاشتد به الحرج والألم . على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه إلى ما كان عليه ، فقال لها :

ـ شكرا لك أيتها الأخت ، تعالى انظرى إلى شعبى ، إنه يحيينى فى يوم العيد !

فخفضت عينيها ، وقالت فى حزن عميق :

ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضبا وسخطا وازدراء ، وقال بلهجة تنطوى على الاشمئزاز :

ـ بلد مجنون ، جو خانق ، قلوب ملوثة . . خيانة . . خيانة . . خيانة . . فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عيناها من الذعر ، وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظن؟ . . وهل يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على أسقامه ، وجاءت طوعا إلى من أهانها وأشقاها؟

وهالها الأمر ، فقالت :

ـ واأسفاه يا مولاى ، ليس فى وسعى إلا أن أشاطرك المصير ، ولكنى أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة؟ !

ـ الخائن رسول ائتمنته على رسالة ، فسلمها إلى عدوى؟ !

فقالت الملكة بلهجة استغراب :

ـ لا علم لى بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت يتسع لإنبائى ، وما أتمنى عليك من شىء إلا أن أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذى يهتف لى ليعلم أنى أواليك ، وأنى أعادى من يعاديك .

ـ شكرا لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما علىّ إلا أن أستعد لموت شريف .

ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا إلى الحجرة الفاخرة ، وكان يطالع الداخل محراب منحوت فى الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقتين ، فاتجه الملكان إلى تمثالى والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر إلى تمثال والديه :

ـ ترى ما رأيكما فىّ ؟ !

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعاوده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :

ـ لقد أورثتنى ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟ لم يكد عام يمضى على توليتى حتى شارفت الدمار ، واأسفاه ! لقد أذللت عرشى موطئا للنعال ، وجعلت اسمى مضغة للأفواه ، واكتسبت لنفسى اسما جديدا لم يطلق على فرعون من قبل ، هو الملك العابث .

وانحنى رأس الملك الشاب مثقلا حزينا ، ولبث ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما إلى تمثال والده ، وتمتم :

ـ لعلك وجدت فى حياتى ما أخجلك ، ولكنك لن تخجل من موتى أبدا !

والتفت إلى الملكة ، وقال لها :

ـ هل تغفرين إساءتى يا نيتو قريس ؟

وكان التأثر قد بلغ منها مبلغا عظيما ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :

ـ لقد نسيت همومى فى هذه الساعة .

فقال بانفعال شديد :

ـ طالما أسأت إليك يا نيتو قريس ، لقد تطاولت على كبريائك ، وظلمتك ، وجعلت حماقتى من سيرتك أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة . كيف حدث هذا ؟ . . وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذى تنصب فيه حياتى ؟ . . لقد غمرتنى الحياة وتولانى جنون عجيب ، ولا أستطيع حتى فى هذه الساعة أن أعلن ندمى . واأسفاه ! إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لى أنه لا يقدر على

تلافيهما. هل رأيت أفدح من هذه المأساة التى أردها؟.. ومع هذا فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الناس. بل لو بدأت حياتى من جديد لما تجنبت الوقوع مرة أخرى. أيتها الأخت.. لقد ضاقت نفسى بكل شىء، وما من فائدة ترجى. فالخير أن أستحث النهاية.

وبدا على وجهه العزم والاستهتار، فسألته حائرة قلقة:

ـ أى نهاية يا مولاى؟

فقال بحدة:

ـ لست نذلا لئيما، وأستطيع أن أذكر واجبى من بعد طول النسيان. ما جدوى القتال؟.. سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد، وسيأتى دورى حتما بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى، ولست جبانا رعديدا يلوذ بأهداب الحياة قابضا على خيط واه من الأمل، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسى.

فارتاعت الملكة وقالت:

ـ مولاى.. أتحمل ضمير رجالك وزر التخلى عن الدفاع عنك؟

ـ بل لا أريد أن أضحى بهم عبثا، وسألقى عدوى وحيدا لنصفى حسابنا معا.

فأحست بامتعاض شديد، وكانت تعرف عناده، فيئست من إقناعه، وقالت بهدوء وحزم:

ـ سأكون إلى جانبك.

ولكنه هلع، وأمسك بذراعيها، وقال بتوسل:

ـ نيتو قريس، إن الشعب يريدك، وحسنا أراد. فأنت جديرة بحكمه فابقى له. إياك وأن تظهرى إلى جانبى فيقولوا إن الملك يحتمى بزوجه أمام الشعب الغاضب.

ـ وكيف أتخلى عنك؟

ـ افعلى هذا من أجلى، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى إلى الأبد.

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد، فصاحت يائسة:

ـ يا للساعة الرهيبة!

فقال الملك:

ـ هذه رغبتى نفذيها إكراما لى، لا تقاومى وحق والدينا، فإن كل دقيقة تمر يسقط جنود بواسل بغير ثمن. الوداع أيتها الأخت الكريمة، أنا ذاهب موقنا بأنك لن تلطخينى بالعار فى ساعتى الأخيرة، إن من يتمتع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن

يقنع بالأسر فى قصر. فالوداع أيتها الدنيا، الوداع أيتها اللذات والآلام. الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء. لقد مجت نفسى كل شىء، فالوداع الوداع..

وهوى بفمه فقبَّل رأسها، والتفت إلى تمثالى والديه، وانحنى لهما، ثم ذهب.

ووجد سوفخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية، جامدا كتمثال أخنى عليه القدم؛ فلما رأى مولاه دبت فيه الحياة وتبعه فى سكون، وفسر خروجه على هواه، فقال:

ـ سيبث ظهور مولاى روح الحماسة فى قلوبهم الباسلة.

فلم يجبه الملك. وهبطا الأدراج معا إلى ممر الأعمدة الطويل الذى يصل ما بين الحديقة والفناء، وأرسل فى طلب طاهو، وانتظر صامتا. وفى تلك اللحظة نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية، إلى بيجة.. وتنهد من أعماق قلبه، لقد ودع كل شىء إلا أحب الناس إليه، فهل تحم النهاية قبل أن يلقى نظرة على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة؟.. وأحس قلبه بحنين أليم وحزن شديد، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحييه، فاندفع بقوة لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلا:

ـ هل النيل آمن؟

فأجابه القائد قائلا، وكان ممتقع الوجه شديد الشحوب:

ـ كلا يا مولاى. ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلحة، ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا.

ولم يكن القصر الذى يهم الملك، لذلك أحنى رأسه، وقد أظلمت عيناه. سيموت قبل أن يلقى نظرة وداع على الوجه الذى باع الدنيا ومجدها من أجله. ترى ماذا تفعل رادوبيس فى هذه الساعة المفجعة؟! هل بلغها ما أصاب آمالها من الانهيار، أم أنها لاتزال تتيه فى وديان السعادة، وتنتظر عودته بفارغ الصبر؟!

ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه، فطوى آلامه فى صدره، وقال لطاهوا آمرا:

ـ مر جنودك أن تخلى الأسوار، وتكف عن القتال، وتعود إلى ثكناتها.

فاستولت الدهشة على طاهو، ولم يصدق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج:

ـ ولكن الشعب يقتحم الباب توًّا!

ولبث طاهو واقفا لا يبدى حراكا، فصاح الملك بصوت كالرعد دوى دويا مخيفا فى ممر الأعمدة:

ـ اصدع بما أمرت.

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه، وتقدم فرعون بخطى ثابتة نحو فناء القصر،

فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة، وقد رآه الضباط والجنود، فسلوا أسيافهم وأدوا التحية، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له :

ـ عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته، ونادى فى الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها فى الجناح الجنوبى من القصر . وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله، ولا تكاد قدماه الضعيفتان تحملانه، وقد أدرك ما يريده مولاه، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة .

ومضت الجند تخلى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوى فى نظام إلى ألويتها، ثم تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدمها ضباطها . وما لبثت الأسوارأن خلت، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادى المنوط بها واجب الحراسة فى أوقات السلام .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر وإلى يمينه سوفخاتب . وعاد طاهو لاهثا، ووقف إلى يساره، وقد بدا على وجهه كالشبح المخيف . وكان كلا الرجلين يرغب فى التوسل إلى الملك برغبة حارة، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة، بدد شجاعتهما، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك إليهما، وقال بهدوء :

ـ لماذا تنتظران معى؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب، ولم يستطع طاهو إلا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسل وإشفاق :

ـ مولاى .

أما سوفخاتب فقال بهدوء غير عادى :

ـ إذا أمرنى مولاى بالتخلى عنه، فسأصدع بأمره لا محالة، ولكنى سأزهق نفسى فى الحال .

فتنهد طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذى أعياه طلبه، وتمتم قائلا :

ـ أحسنت أيها الرئيس .

وسكت فرعون، ولم يقل شيئا .

وفى أثناء ذلك كانت ضربات شديدة قاصمة توجه إلى باب القصر الكبير، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجئ، وتوهموا أنه ينصب لهم شراكا قاتلا، فوجهوا كل قوتهم إلى الباب، ولم يحمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فتزعزعت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة، وانتشروا فى الفناء كغبار ريح الصيف . وكانوا

يتدافعون بعنف، وكأنهم يتقاتلون، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور. وما زالوا فى تقدمهم حتى شارفوا القصر الفرعونى، ولمحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيدا لهم. وتشبثت أقدام الذين على الرءوس بالأرض، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم، وصاحوا فى الجموع:

ـ مهلا.. مهلا.

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الذهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضاءهم، ويزيغ أبصارهم، وتوقع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنه الأسود. ولكن كان هناك بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب سوفخاتب، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد، فامتدت يد إلى قوسها، ووضعت سهما فى كبده، وسددته إلى فرعون وأطلقته، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقر فى أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذى أصيب، ومد يديه يسند الملك فالتقتا مع يدى طاهو الباردتين. وأطبق الملك شفتيه فلم يخرج منهما أنين، ولا آهة، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطب جبينه، وارتسم عليه الألم، وأحس سريعا بخور وضعف، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدى رجليه المخلصين.

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب، وعقد الألسنة صمت ثقيل: وهلعت الأعين، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذى يعتمد على رجليه تتحسس يده موضع السهم فى صدره فيلطخها الدم الساخن المتدفق بغزارة، وكأنهم لا يصدقون أعينهم، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية.

ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل:

ـ ماذا هنالك؟

فقال آخر بصوت خافت:

ـ قتل الملك!!

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية، وتصايح بها الناس، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياع.

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا، فجرى الرجل إلى داخل القصر، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد، فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأناموه فى رفق. وانتشر الخبر داخل القصر، فجاء طبيب الملك مسرعا، وظهرت خلفه الملكة، وكانت تسرع الخطى فى اضطراب باد، ولما وقعت عيناها على الهودج وعلى

النائم جرت إليه فزعة، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب، وهى تقول بصوت متهدج:

- يا للويل.. قد أصابوك يا مولاى كمشيئتك!

وشاهد القوم الملكة، فصاح واحد منهم:

- جلالة الملكة.

وانحنت هامات الشعب الواجم كأنه فى صلاة جامعة. وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى، ففتح عينيه المغمضتين، ومضى يقلبهما فيمن حوله فى هدوء وضعف وكان سوفخاتب يحملق إلى وجهه فى ذهول وصمت، وكان طاهو جامدا ووجهه كوجوه الموتى، وكان الطبيب يفحص الجرح، يكشف عنه قميص الزرد. أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم، ، وقالت للطبيب:

- أليس بخير؟. قل لى إنه بخير!

فأدرك الملك ما تقول. وقال ببساطة:

- كلا يا نيتو قريس، إنه سهم قاتل.

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم، ولكن الملك قال له:

- دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب.

واشتد التأثر بسوفخاتب، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرا تاما:

- ادع جندك، وانتقم لمولاك من المجرمين.

وبدت على الملك المضايقة، فرفع يده بصعوبة، وقال:

- لا تتحرك يا طاهو، هل هانت عليك أوامرى يا سوفخاتب فى رقادى هذا؟! لا قتال بعد الآن، قولوا للكهنة إنهم بلغوا غايتهم، وأن مرنرع الثانى على فراش الموت، فليرجعوا بسلام.

وسرت رعدة فى جسم الملكة فمالت على أذنه، وقالت همسا:

- مولاى! لا أحب أن أبكى أمام قاتليك، ولكن ليطمئن قلبك، فوحق أبوينا، وحق الدم الزكى لأنتقمن من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا بعد جيل.

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن، ووضع بعض الأعشاب حول السهم، واستسلم الملك إلى يديه ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة، ولم ينس فى رقاده الوجه الحبيب الذى تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة فلاحت فى عينيه نظرات حنين، وقال بصوت خافت بغير وعى منه إلى ما حوله:

ـ رادوبيس . . رادوبيس .

وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعته ، وأحست بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها ، فرفعت رأسها وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالا إلى شعور الآخرين ، فأومأ إلى طاهو ، فبادر الرجل إليه . فقال له برجاء :

ـ رادوبيس .

فقال القائد :

ـ هل آتى بها يا مولاى؟

فقال بصوته الخافت :

ـ كلا . . احملنى إليها ، فى قلبى بقية حياة أريد أن تنفد فى بيجة .

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة فى ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء :

ـ نفذ مشيئة مولاى .

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قولها ، فقال لها :

ـ أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه أيضا . . إنها رغبة ميت .

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنت على جبينه ولثمته ، ثم أوسعت للعبيد .

الـــــــــوداع

انحدرت السفينة فى هدوء متجهة صوب جزيرة بيجة ، والهودج فى مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه ، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه . . وكانت هذه أول مرة يخيم فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولاها نائما مستسلما ، يغشى وجهه ظل الموت . وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناهما الحزينتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب ، وكان يرفع جفنيه الثقيلتين ، وينظر إليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما فى تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا ، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبى .

ومال طاهو على أذن سوفخاتب ، وهمس قائلا :

ـ أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة .

ولم يكن سوفخاتب فى تلك الساعة الرهيبة يبالى شعور إنسان ، فقال باقتضاب :

ـ افعل ما بد الك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :

ـ يا له من نبأ لا يدرى الإنسان كيف يؤديه إليها!

فقال سوفخاتب بحدة.

ـ ماذا تخشى أيها القائد؟! إن من يبتلى بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابا لمحذور.

قال سوفخاتب ذلك، وغادر المقصورة مسرعا، وصعد درجات السلم إلى الحديقة، واخترق الممشى مهرولا حتى انتهى إلى البركة، فاعترضت سبيله الجارية شيث، وقد دهشت الجارية لمرآه، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالى. وفتحت فاها لتكلمه، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة:

ـ أين سيدتك؟

فقال شيث:

ـ مسكينة سيدتى لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا. وما زالت تدور بالحجرات، وتطوف بالحديقة حتى...

وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة:

ـ أين سيدتك؟

ـ فى الحجرة الصيفية يا سيدى.

وأسرع الرجل إلى الحجرة. ودخل متنحنحا، وكانت رادوبيس جالسة على كرسى مسندة رأسها إلى يدها، فلما أحست بالداخل التفتت إليه، وسرعان ما عرفته، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزا، وقالت باهتمام وقلق:

ـ الرئيس سوفخاتب!.. أين مولاى؟

فقال الرجل الغارق فى حزنه بذهول:

ـ سيأتى عما قليل..

فضمت يدها إلى صدرها فرحا، وقالت بصوت بهيج:

ـ لشد ما عذبتنى المخاوف على سيدى، لقد بلغنى أنباء العصيان المحزنة، ثم انقطع عنى كل شىء، فتركت وحدى إلى وساوس قلبى.. متى يأتى سيدى؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولا بين يديه فاعتورها القلق وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه:

ـ ولكن لماذا بعثك إلىّ؟

فقال الوزير بجمود:

ـ صبرا يا سيدتى، فلم يرسلنى أحد، والحقيقة الأسيفة أن مولاى أصيب.

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داميا، فحملقت إلى وجه الوزير

الكئيب فزعة، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرى مرتعشة، فقال سوفخاتب الذى أفقده الحزن شعوره:

- صبرا صبرا.. سيصل مولاى محمولا على هودجه كمشيئته. لقد أصيب بسهم فى هذا اليوم المنكود الذى غدا عيدا وأضحى مأتما مروعا.

ولم تحتمل المكوث فى الحجرة، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيحة، ولكنها لم تكد تجاوز العتبة حتى سمرت قدماها فى الأرض، وثبتت عينيها على الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة، فأفسحت لهم الطريق، وهى تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر، ثم تبعتهم على الأثر. وقد وضعوا الهودج فى حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجين، وخرج فى ذيلهم سوفخاتب، وخلا المكان لها وله.. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه، وشبكت أصابع يديها وشدت عليها بقسوة وبحالة عصبية عنيفة، ونظرت إلى عينيه الساهمتين الذابلتين، وقد انقطعت منها الأنفاس، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب، فرأت بقع الدم والسهم النافذ، فاقشعر بدنها بحالة ألم جنونى، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفزع:

- أصابوك؟!.. يا للهول!

وكان نائما فى تراخ وهمود، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة فى الانحلال السريع، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبت فيه نسمات حياة رقيقة، ولاح فى عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة.

ولم تكن تراه إلا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة، فكادت تجن، وهى تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل، وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا، وقالت بتألم:

- كيف تركوه فى صدرك؟!. هل أستدعى الطبيب؟!

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة، وقال بصوت ضعيف:

- لا فائدة.

فلاحت فى عينيها نظرة جنونية، وقالت بصوت العتاب:

- لا فائدة يا حبيبى؟!.. كيف تقول هذا؟.. هل هانت عليك حياتنا؟

فمد يده فى ضعف شديد حتى مست كفها الباردة، وهمس قائلا:

- هى الحقيقة يا رادوبيس، لقد جئت لأموت بين يديك فى المكان الذى أحببته أكثر من أى مكان فى الدنيا.. فلا تندبى حظنا، وامنحينى صفاء.

- مولاى، أتنعى إلىّ نفسك؟!. يا لساعة الأصيل هذه! كنت أنتظرها يا حبيبى بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل، وكنت أرجو أن تجىء حاملا إلىّ بشرى الفوز، فجئت حاملا إلىّ هذا السهم.. كيف لى بالصفاء؟!

فازدرد ريقه بصعوبة، وقال بتوسل وبصوت كالأنين:

ـ رادوبيس تناسى هذا الألم وادنى منى، أريد أن أنظر إلى عينيك الصافيتين.

إنه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته.. أما هى فكانت تعانى آلاما لا قبل لإنسان بها، وكانت تود لو تنفس عن صدرها المضطرم بالصراخ والعويل والهذيان، أو تلتمس الشفاء فى الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم، فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه بالوجه الذى أحبه وسكن إليه دون العالمين.. وكان يتابع النظر إليه برجاء، فقال بحزن:

ـ ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس.

فقالت بأسى وحزن:

ـ هما عيناى يا مولاى، ولكن جف ما يمدهما بالنور والحياة.

ـ أواه يا رادوبيس ألا تريدين أن تنسى آلامك هذه الساعة إكراما لى.. أريد أن أرى وجه رادوبيس حبيبتى، وأن أستمع إلى صوتها العذب.

ونفذ رجاؤه إلى قلبها، فكبر عليها أن تحرمه من شىء يريده فى تلك الساعة السوداء، وقست على نفسها قسوة شديدة، فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفتيها المرتعشتين ابتسامة وحنت عليه فى سكون واطمئنان كأنما تحنو عليه، وهو يرقد رقاد غرام، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا، وانفرجت شفتاه الباهتتان عن ابتسامة.

ولو أنها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا، ولكنها نزلت على إرادته العزيزة، وملأت عينيها من وجهه، وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد، وأنها لن تراه فى هذه الدنيا مهما تألمت أو تأوهت أو سكبت الدمع الحزين، وأن صورته وحياته وحبه ستغدو ذكريات ماض غريب هيهات أن يصدق قلبها المكلوم أنه كان يومًا حاضرها واستقبالها. كل هذا لأن سهمًا مجنونا استقر فى هذا الموضع من صدره. كيف يستطيع هذا السهم الحقير أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها!.. وتنهدت المرأة تنهدا حارا صعد فتات قلبها، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة فى صدره، المضطربة فى أنفاسه، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه، وماتت حواسه، وأظلمت عيناه، ولم يبق منه إلا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس. وتجلى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث، وأمسك يدها التى امتدت إليه فى فزع لا يوصف، وصاح بقوة:

ـ رادوبيس اسندى رأسى.. اسندى رأسى.

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه، ولكنه شهق شهقة قوية، وأسقطت يده إلى جانبه، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت. وأعادت

رأسه إلى وضعه الأول بسرعة، وصرخت صرخة فزع شديدة عالية، ولكنها كانت قصيرة، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه، وتصلب لسانها، والتحم فكاها بشدة، وحملقت إلى وجه الذى كان إنسانا بعينين جامدتين، ثم لم تبد حراكا.

وأذاعت صرختها الخبر الأليم، فهرع الرجال الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا أمام الهودج. ألقى طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة، وتقدم سوفخاتب من الجثة، وانحنى فى إجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع جرى على خديه وتساقط على الأرض، وقال بصوت متهدج مزقت نبراته الباكية الصمت المخيم:

- سيدى ومولاى، وابن سيدى ومولاى، نستودعك الآلهة العلية التى اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية. وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفانية، ولكنها إرادة الرب التى لاترد. فالوداع يا مولاى الكريم.

ومد سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء، وسجى الجثة فى أناة، وانحنى مرة أخرى، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين.

وظلت رادوبيس جاثية، فى غفوة من الذهول لاتفيق ولاتتحول عيناها عن الجثة، وقد سرى فى جسمها جمود غريب كالموت، فلم تبد حراكا، ولا بكت، ولا صرخت، وظل الرجال فى وقفتهم منكسى الرءوس.. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج، وقال:

- وصيفة الملكة.

والتفت الرجال إلى الباب، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها الحزن الشديد، فانحنوا لها تحية، فردت التحية بإيماءة من رأسها، وألقت نظرة على الجثة المسجاة، ثم ردت ناظريها إلى سوفخاتب، فقال الرجل بصوت حزين:

- انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة.

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة، ثم قالت:

- ينبغى إذن أن تحمل الجثة الكريمة إلى القصر الفرعونى، هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير.

واتجهت الوصيفة نحو الباب، وأومأت إلى العبيد، فهرعوا إليها مسرعين، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج. وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحس بشىء مما يدور حولها، وتساءلت بصوت مبحوح غريب:

ـ إلى أين؟ . . إلى أين؟

وارتمت على الهودج، فتقدم منها سوفخاتب وقال :

ـ إن القصر يريد أن يؤدى واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالت المرأة الذاهلة :

ـ لا تأخذوه منى . . انتظروا . . سأموت على صدره .

وكانت الوصيفة تتعالى بناظريها عن رادوبيس، فلما سمعت قولها قالت بخشونة :

ـ إن صدر الملك لم يخلق لكى يكون لحدا لإنسان .

وانحنى سوفخاتب على المرأة، وقبض على معصمها برقة ورفعها بهدوء، وحمل العبيد الهودج، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه، وأدارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين، وصاحت بصوت متقطع كالحشرجة :

ـ لماذا تأخذونه؟! . . هذا قصره . . وهذه حجرته . . كيف تسومونني القهر أمامه؟! . . إن مولاى لا يرضى عمن يسيء إلىّ . . أيها القساة . . أيها القساة .

ولم تبالها الوصيفة، فشقت طريقها إلى الحديقة، وتبعها العبيد يحملون الهودج . وغادر الرجال الحجرة فى خشوع وصمت . وكادت المرأة تجن . وجمدت فى مكانها لحظة قصيرة، وهمت باندفاع وراءهم، ولكن يدا غليظة أمسكت بذراعها، فحاولت التخلص منها، ولكن ضاعت محاولتها هباء .

فالتفتت إلى الوراء بعنف وغيظ، فوجدت نفسها وجها لوجه أمام طاهو . .

نهايـــــة طــــاهــو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنها لا تعرفه، وحاولت أن تخلص ذراعها، ولكنه لم يمكنها من غايتها، فقالت له بعنف :

ـ دعنى أذهب . .

فهز رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنه يقول لها : كلا . . كلا . . وكان وجهه رهيبا مخيفا ونظرة عينيه جنونية، وتمتم قائلا :

ـ إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقيهم إليه .

ـ دعنى أذهب . . لقد خطفوا سيدى .

فاربد وجهه، وقال لها بلهجة عنيفة كأنه يلقى أمرا عسكريا :

ـ لا تقاومى رغبة الملكة الحاكمة.

فسكت عنها الغضب فى خوف وكفت عن المقاومة. واستسلمت استسلاما غريبا، وقطبت جبينها، ثم هزت رأسها فى حيرة كأنها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتت الذاهل، وحدجته بنظرة غرابة وإنكار وقالت :

ـ ألا ترى أنهم قتلوا مولاى؟ . . قتلوا الملك!

وكانت عبارة «قتلوا الملك» تقع من أذنيه موقعا غريبا مروعا فسكن هياجه، وقال :

ـ نعم يا رادوبيس، قتلوا الملك، وما كنت أحسب قبل اليوم أن سهما يمكن أن يقضى على حياة فرعون.

فقالت ببساطة البله :

ـ فكيف تدعهم يخطفونه منى بعد ذلك؟!

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة، وقال :

ـ أتريدين أن تتبعى أثرهم؟ . . يا لك من مجنونة يا رادوبيس، إنك تعمين عن العواقب، فقد أذهلك الحزن . . اصحى أيتها الفاتنة، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان، وانتزعت زوجها من بين يديها، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء . . إنها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبلة بالسلاسل، ثم تدفع بك إلى أيدى جلادين لا يعرفون الرحمة يحلقون شعرك الحريرى، ويسملون عينيك السوداوين، ويجدعون أنفك الدقيق، ويصلمون أذنيك الرقيقتين، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوهة يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشئومة التى أتلفت الملك على نفسه، ثم أتلفته على شعبه!!

وكان طاهو يتكلم بلهجة تشف عن غل، وعيناه تبرقان بنور مخيف؛ ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها، وسهمت إلى شىء غير منظور فى هدوء غريب، ثم هزت منكبيها فى استهانة وبساطة. فاحتدم فى قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشد عليها، وشعر برغبة فى أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطمه تحطيما، ويمتع ناظريه بتشوهه، وتفجر الدم من مسامه ومنافذه. . ولبث دقيقة يتفرس فى وجهها الهادئ الذاهل، ويحاور رغبته الشيطانية، ولكنها رفعت عينيها إليه دون أن يلوح فيهما معنى من معانى الحياة، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسا بجريمة، فتراخت أصابعه، وتنهد تنهدا عميقا ثقيلا، ثم قال :

ـ أراك لا تكترثين لشىء!

وكانت لا تلقى إلى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحادث نفسها :

ـ كان ينبغى أن نتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

ـ كلا . . كلا . . ما عاد كلانا يصلح للدنيا . . ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد .

فقالت ببساطة وهدوء :

ـ أخذتْه منى . . أخذتْه منى . . .

ـ فعلم أنها تعنى الملكة . وهزّ منكبيه قائلا :

ـ لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فحدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

ـ يا أحمق ، يا جاهل ، ألا تعلم؟ . . لقد قتلته الخائنة لتسترده .

ـ من الخائنة؟

ـ الملكة ، هى التى أفشت سرنا وأثارت الشعب . هى التى قتلت مولاى .

وكان ينصت إليها فى صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة . فلما انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

ـ أخطأت يا رادوبيس ، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة .

وحملق إلى وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار ، ثم قال بصوت رهيب :

ـ إن كان يهمك أن تعرفى الخائن ، فها هو ذا يقف أمامك . . أنا الخائن يا رادوبيس . . أنا . .

ولم يهمها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة . ولكنها هزت رأسها هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء . فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفيها بغلظة ، وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :

ـ اصحى ، ألا تسمعين ما أقول؟! . . أنا الخائن . . طاهو الخائن . . أنا علة الكوارث جميعا . .

وارتعد جسمها بعنف ، وانتفضت انتفاضا شديدا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات ، وهى تنظر إلى وجهه الفزع بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه ، وقال بهدوء وبلهجة حزينة :

ـ إنى أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ؛ لأنى أشعر شعورا صادقا بأنى لست من أهل

الدنيا . لقد انقطع ما بينى وبين العالم جميعا ، ولا شك فيما أحدثه اعترافى لك من الفزع ، ولكنها الحقيقة يا رادوبيس ، لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى الألم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها إلى الأبد .

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استطرد قائلا :

ـ وانطويت على الألم ، واستوصيت بالصبر والتجلد ، واعتزمت صادقا أن أؤدى واجبى إلى النهاية ، حتى كان ذلك اليوم الذى دعوتنى فيه إلى قصرك لتستوثقى من إخلاصى . فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دمائى ، فهذيت هذيانا غريبا ، واستاقنى الجنون إلى عدو متربص ، فأفضيت إليه بسرنا ! وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من وراء الظهور .

واهتاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر إلى وجهها الفزع بقسوة ، فعاوده الغضب والحنق ، وصاح :

ـ أيتها المرأة الهلوك المدمرة . لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه . لقد عذب قلوبًا بريئة ، وخرب قصرا عامرا ، وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا أمينا ، ولوث قلبا شريفا . . إنه لشؤم ولعنة . .

وسكت طاهو ، ومازال الغضب يغلى فى شرايينه ، ورآها كصورة للعذاب والخوف ، فأحس ارتياحا ولذة ، وتمتم قائلا :

ـ ذوقى العذاب والهوان ، وانظرى الموت فما ينبغى لأحدنا أن يحيا ، وقد مت منذ زمن بعيد ، ولم يبق لى من طاهو إلا ثيابه المزركشة المجيدة ، أما طاهو الذى اشترك فى غزوة النوبة ، وأبلى بلاء حسنا استحق به ثناء بيبى الثانى ، طاهو قائد حرس مرنرع الثانى ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له . .

وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله . وبدا على وجهه الضيق والجزع الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ، ولا رؤية رادوبيس التى استحالت تمثالاً جامدا . فنفخ فى الهواء بقوة وسخط واشمئزاز ، وقال :

ـ ينبغى أن ينتهى كل شىء ، ولكنى لن أحرم نفسى من العقاب الصارم ، سأذهب إلى القصر ، وأدعو كل من يحسن بى الظن ، ثم أعلن جريمتى للملأ ، وأمزق الستار عن الخائن الذى طعن مولاه وهو يساره ، وأنزع النياشين التى تحلى صدرى الآثم ، وأرمى بسيفى ، ثم أطعن قلبى بهذا الخنجر . . فالوداع يا رادوبيس ، والوداع أيتها الحياة التى تستأدينا فوق ما تستحق . .

نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب . .

النهـــايـــة

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذى يحمل بنامون بن بسار إلى سلم الحديقة. وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معفر الثياب، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس. وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى فى طريق العودة ما هون عليه ما صادفه فى الذهاب، وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير فى ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب، وانتهى به المسير إلى الحجرة، فاجتاز عتبتها، وهو يظن أنها خالية. ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه. ورأى رادوبيس جالسة فى استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب فتردد هنيهة. وأحست شيث بمقدمه، والتفتت إليه رادوبيس، ثم قامت الجارية وانحنت له تحية وغادرت الحجرة، وتقدم الشاب من المرأة، وقد لفه الفرح، فلما أن تبين وجهها عن كثب ركدت حركة نفسه، وأصابه الوجوم والغم، ولم يشك فى أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته، وأن أنباء الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل، فألبسته هذا الرداء الغليظ من الكدر. وركع بين يديها، ثم مال على حاشية ثوبها فقبَّلها بحنان، ونظر إليها بعينيه الصافيتين نظرة إشفاق كأنه يقول لها: «فداؤك نفسى»! ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح، فخفق قلبه خفقة السعادة، وتخضب وجهه بالاحمرار، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف:

ـ غبت طويلا يا بنامون.

فقال الشاب:

ـ لقد شققت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين: إن آبو اليوم تغلى وتفور وتنثر الشظايا المحرقة، فتملأ الجو حمما..

ثم دس الشاب يده فى جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها، وأحست ببرودتها تسرى فى جسمها وتستقر فى قلبها. وسمعته يقول لها:

ـ أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحتمل.

فقالت له:

ـ إن الأحزان تنتقل بالعدوى.

ـ ولكن رفقا بنفسك، فما ينبغى لك أن تستسلمى كل الاستسلام إلى الحزن..

ليتك يا مولاتى تهاجرين إلى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه فى اهتمام خادع ، وتنتظر إليه بغرابة ، نظرتها إلى آخر حى من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقا لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كثب . . وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها ، فلعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع فقال بحماسة :

ـ أمبوس يا مولاتى بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها إلا سماء صافية ، وطيرا لاهيا ، وبطا سابحا ، وأخضر ناضرا . . وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى أثارتها فى نفسك الرقيقة آبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة ، وأحست بشوق إلى النهاية . فبحثت عيناها الموضع الذى شغله الهودج منذ حين ، وصرخ قلبها أن ها هنا ينبغى أن تختم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من بنامون ، فقالت له :

ـ إن ما تعرضه علىّ جميل يا بنامون ، فدعنى أفكر وحدى رويدا . .

فأضاء وجه الشاب بالفرح والأمل ، وسألها :

ـ هل يطول انتظارى؟

فقالت :

ـ لن يطول انتظارك يا بنامون .

فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة .

ودخلت شيث على الأثر ، وكانت رادوبيس تهم بترك مجلسها ، فلما رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلص منها :

ـ إلى بإبريق من الجعة .

فذهبت الجارية إلى القصر ، وكان بنامون قد اتجه إلى البركة واطمأن إلى مقعد على حافتها ، وكان فى تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة ، ويدنى إليه الأمل غايته فى أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيدا عن الشقاء المخيم على آبو فتخلص له ، ويسكن إليها . . ودعا الآلهة أن تهبط إليها فى وحدتها وتلهمها الرأى السديد والحل السعيد . .

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة ، ولما أتم دورته رأى شيث تحمل إبريقا ، وتتجه بسرعة إلى الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب ، وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى ، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة

فانتفض واقفا، وقد انخلع قلبه فى صدره، واندفع جريا إلى مصدرها، فرأى فى وسط الحجرة رادوبيس ملقاة على الأرض، والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها وتنكب عليها تناديها، وتجس خديها وكفيها . . فهرع إليها بساقين مرتجفتين، وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفزع، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكف رادوبيس بين كفيه، فشعر ببرودتها، وكانت كالنائمة، إلا أن وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها، وانسابت ضفائر منه على البساط، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

ـ ماذا بها يا شيث؟ . . لماذا لا تجيب؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

ـ لا أدرى يا سيدى، فلقد وجدتها عند دخولى الحجرة كما تراها الآن، فناديتها فلم تجب، وأسرعت إليها أهزها فلم تنتبه، ولم تبد عليها اليقظة. أواه يا مولاتى . . مالك؟ ! ما الذى اعتورك فحولك إلى ما رأى؟

ولم ينبس بنامون بكلمة، وجعل يطيل النظر إلى المرأة الملقاة فى سكون رهيب، وإن عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة، فشهق شهقة عنيفة، والتقطها بأصابعه المرتعدة، فلم يجد بها إلا آثارا لاصقة بباطنها، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبين له الحق، وسرت فى جسمه النحيل رجفة مزقت جوارحه، فأنَّ أنينا موجعا لفت إليه الجارية، وقال بصوت فزع :

ـ يا للهول! يا للرعب!

فصوبت إليه الجارية عينيها، وسألته بلهفة وذعر :

ـ ماذا يهولك ويرعبك؟ . . تكلم فإنى أكاد أجن من الحيرة!!

ولكنه لم يأبه لها، وقال يحادث رادوبيس، وكأنها تسمعه وتبصره :

ـ لماذا انتحرت؟ . . لماذا انتحرت يا مولاتى؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيدها، وقالت :

ـ ماذا تقول؟ ! كيف علمت أنها انتحرت يا هذا؟

فرمى القارورة بعنف، فاصطدمت بالحائط وتحطمت، ثم قال بذهول وحيرة :

ـ لماذا أزهقت نفسك بهذا السم؟ . . ألم تعدينى بأن تفكرى جديا فى اصطحابى إلى أمبوس بعيدا عن أحزان الجنوب . . أكنت تخدعيننى ريثما تزهقين روحك؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة، وقالت بدهشة :

ـ من أين لمولاتى بالسم؟

فهز منكبيه يأسا، وقال:

ـ أتيت لها به بنفسى.

فتولاها الغيظ، وصاحت به:

ـ كيف تأتى به يا شقى؟!

ـ لم أكن أدرى أنها تريده لتزهق به نفسها، لقد خدعتنى كما فعلت بى الآن.

فتحولت عنه يائسة، وأفحمها البكاء، وانكبت على قدمى مولاتها تقبلهما وتغسلهما بدموعها، وغشى الشاب ذهول، فتفجرت عيناه، وثبتتا على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبدية، وكان يعجب فى ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذى لم تشرق الشمس على مثله من قبل، وكيف تسكن الحيوية الفائضة الملتهبة، وتكتسى بهذا الإهاب الشاحب الذابل الذى تهم به عوامل الخراب؟ تمنى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة، فأبدت عن تثنيها الرقيق، وأشرقت بوجهها ذى البهاء ابتسامة السعادة، وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفنون، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا..

وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج، فنهرها قائلا:

ـ أمسكى عن هذا؟

وأشار إلى قلبه، ثم استدرك:

ـ هنا حزن جليل، أجل من البكاء والنحيب.

وبقى فى نفس الجارية أمل ضعيف يخفق، فنظرت إلى الشاب خلل دموعها، وقالت بتوسل:

ـ ألا يوجد رجاء يا سيدى؟ عسى أن يكون ما بها غيبوبة شديدة؟!

ولكنه قال بصوته الحزين:

ـ ما من رجاء ولا أمل، ماتت رادوبيس، ومات الحب، وتبددت الأوهام.. كم عبثت بى الأحلام والأوهام. أما الآن فقد انتهى كل شىء، وأيقظنى من غفوتى الموت الرهيب..

وانقصف آخر شعاع للشمس، وانغمس وجهه القانى فى عين حمئة، فزحفت الظلمة تغشى الكون فى ثوب حداد. ولم تنس شيث فى حزنها واجبها نحو جثة مولاتها، وأدركت أنها لن تستطيع أن توفيها حقها من الإجلال والصون فى بيجة المحاطة بأعدائها والمتربصين للانتقام منها. وأفضت بمخاوفها إلى الشاب الحزين الذى تحترق نفسه على كثب منها، وطلبت إليه أن يحملا الجثة إلى بلدة أمبوس، وهنالك يدفعان بها إلى أيدى

المحنطين، ويودعانها مقبرة أسرة بسار، ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه، فنادت شيث بعض الجوارى، وأتين بهودج، ووضعن الجثة عليه وسجينها . . ورفع العبيد الهودج إلى السفينة الخضراء التى انحدرت به نحو الشمال .

وجلس الشاب عند رأس الجثة على مقربة من شيث، وقد شمل المقصورة سكون عميق . . فى تلك الليلة الحزينة، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة صوب الشمال، تاه بنامون فى وديان قصية من الأحلام، ومرت حياته أمام ناظريه فى صورة متعاقبة، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء، وما ظن يوما أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير . ثم تنهد من أعماق قلبه المكلوم، وثبت عينيه على الجثة المسجاة التى ارتطمت عليها آماله وأحلامه، فتحطمت وتناثرت، كأوهام بددتها اليقظة .

كِفاحُ طِيبة

رواية تاريخية

المحتويات

سيكننرع

١

كانت السفينة تصعد فى النهر المقدس، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة، يحث بعضها بعضا منذ القدم كأنها حادثات الدهر فى قافلة الزمان، بين شاطئين انتثرت على أديمهما القرى، وانطلق النخل جماعات ووحدانا، وترامت الخضرة شرقا وغربا، وكانت الشمس تعتلى كبد السماء ترسل أسلاكا من النور إذا غمر النبت رف رفيفا، وإذا مس الماء تلألأ لألاء، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس رمز الشمال بعين التساؤل والإنكار.

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة، مستدير الوجه، طويل اللحية، أبيض البشرة، يرتدى معطفا فضفاضا ويقبض بيمناه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبى، جلس بين يديه رجلان فى مثل بدانته وزيه، تدانى بينهم جميعا روح واحدة، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقى على من يصادفه من الصيادين نظرة شرزاء. وكأنه برم بالصمت فتحول إلى رجليه وتساءل قائلا:

- ترى هل ينفخ غدا فى الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب، وتفزع هذه الدور المطمئنة، ويحلق نسر الحرب فى هذا الجو الآمن؟.. آه.. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم.

فهز الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما :

ـ لتكن حربًا أيها الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه تاجا كالملوك ويبنى القصور كالفراعين ، ويسير فى طيبة مرحا لا يبالى شيئا .

فجعل الحاجب يصرف بأنيابه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدل على الحنق والغيظ وقال :

ـ لا يوجد حاكم مصرى سوى حاكم إقليم طيبة هذا ، فإذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد ، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه .

قال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا ييئس أبدا من أن يصير يوما حاكما لمدينة عظيمة :

ـ إن هؤلاء المصريين يكرهوننا .

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة :

ـ نعم . . نعم . . وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية . . لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف .

فابتسم الرجلان أول مرة ، وقال ثانيهما أيضا :

ـ بورك رأيك أيها الحاجب الحكيم ، فإن السوط وسيلة التفاهم التى لا تجدى سواها مع المصريين .

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة ، فما يسمع إلا وقع المجاديف على سطح الماء ، ثم لاحت من أحدهم التفاتة إلى زورق صيد يقف فى وسطه فتى مفتول الساعدين ، عارى الجسد إلا من وزرة تغطى وسطه ، وقد لفحت الشمس بشرته ، فقال بتعجب :

ـ كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم .

فقال الحاجب بسخرية :

ـ لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون .

ـ حقا . . إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى .

قال الحاجب :

ـ حدثنى بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال : إنهم على لونهم وعريهم ذوو صلف وكبرياء ، وإنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة ، وإن بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين . . ربـاه . . إنى أعرف الدواء لكل هذا . . لا ينقص إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم .

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول ، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق :

ـ انظر . . أترى طيبة؟ . . هذه طيبة!

فنظروا جميعا إلى حيث يشير الرجل، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم، بدت خلفه رءوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السماوية، ورئيت فى ناحيتها الشمالية جدران معبد آمون الشاهقة، رب الجنوب المعبود. فما وقعت العين فيها إلا على ما رد عظيم يتعالى إلى السماء، فأخذ الرجال، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلا:

ـ نعم . . هذه طيبة . . وقد أتيحت لى رؤيتها من قبل. وما ازداد على الأيام إلا رغبة فى أن تعنو الهام لمولانا الملك، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها.

فقال أحد الرجلين:

ـ وأن يعبد بها ربنا ست المعبود.

وخففت السفينة من سرعتها، ومضت تدنو من الشاطئ رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن، التى تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس. وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم، وأما غربى الشاطىء الآخر، فتجثم مدينة الأبدية، حيث يرقد الخالدون فى الأهرام والمصاطب والمقابر، تغشاهم جميعا وحشة الموت.

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة، تشق سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجارية، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها، وصورة اللوتس التى تزين مقدمها، حتى حاذت الرصيف، فألقت كلابها الضخم، وقصد إليها بعض الحراس، وانتقل إليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض. وسأل أحد رجالها قائلا:

ـ من أين انحدرت هذه السفينة؟ . . وهل تحملون تجارة؟

فحياه الرجل، وقال «اتبعنى» واصطحبه إلى المقصورة، حيث أدرك الضابط أنه ماثل بين يدى حاجب كبير من حجاب قصر الشمال، قصر ملك الرعاة كما يدعونه فى الجنوب، فانحنى احتراما وأدى التحية العسكرية. ورفع الحاجب يده ليرد التحية فى صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية:

ـ أنا رسول فرعون، ملك الشمال والجنوب، ابن الرب ست، مولانا أبو فيس، إلى حاكم طيبة الأمير سيكننرع لأؤدى إليه ما حملته من البلاغ.

وأصغى الضابط إلى الرسول فى انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى.

٢

ومضت ساعة من الزمان، ثم جاء السفينة رجل وقور، يميل إلى القصر، بادى النحافة، بارز الجبهة، فانحنى انحناءة وقور للرسول، وقال بصوت هادىء النبرات:

ـ إن الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب.

فحنى الرجل رأسه الفخم وقال بصوته الغليظ:

ـ وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى.

فقال حور:

ـ يسر مولاى أن يستقبلك فى الحال.

فأبدى الرسول حركة وقال: «هلم بنا». وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير فى خطا وئيدة، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان إجلالا، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق: «أما كان ينبغى لسيكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبو فيس..؟». وضايقه جد المضايقة أن يسلك الرجل فى استقباله سلوك الملوك. وغادر السفينة بين صفين من الجند والضباط، ورأى خيان على الشاطىء ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى، وأدى له الجند التحية، فردها بكبرياء، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور، ثم تحرك الموكب الصغير فى طريقه إلى قصر حاكم الجنوب، وتحركت عينا خيان فى محجريهما ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات: فالعامة بأجسامهم شبه العارية، والضباط بمعاطفهم الأنيقة، والكهنة بأثوابهم الطويلة، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة، والنساء بأزيائهن الجميلة، فكأن كل شىء يشهد لعظمة المدينة، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبو فيس. وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة وأن الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن فى برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذاك الاستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله، وساءه أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها.. وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتى عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس.

ثم بلغ الموكب ميدان القصر، وكان ميدانا فسيحا مترامى الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش، ويبدو فى مكانه الوسيط القصر الجليل يبهر الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صفين لدى بابه الكبير، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا: هل يستقبلنى سيكننرع وعلى رأسه التاج الأبيض؟».

إنه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم، فهل يلبس تاج الجنوب أمامى؟ هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سيكننرع؟.. وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل، ووجد فى استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعونى وكبار الضباط، فأدوا له التحية جميعا، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعونى، وكانت الردهة المؤدية إلى باب البهو مزينة الجانبين بتماثيل أبى الهول، وفى أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء. وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له، فتقدمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل، ورأى فى صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب وبيده الصولجان والعصا المعقوفة، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان. وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال، وقال بصوته الرقيق:

- مولاى، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس.

وانحنى عند ذاك الرسول تحية، فرد الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسى أمام العرش، أما حور فقد وقف إلى يمين العرش. وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه إلى الرجل الذى يلى يمينه وقال: «أوسر آمون رئيس الوزراء». ثم أشار إلى الذى يليه وقال: «نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون»، ثم تحول إلى شماله وأومأ إلى من يليه قائلا: «كاف قائد الأسطول» وأشار إلى من يليه قائلا: «بيبى قائد الجيش». ولما تم التعارف وجه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيتين:

- نزلت منزلا يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقته.

فقال الرسول:

- حفظك الرب أيها الحاكم الجليل، وإنى سعيد باختيارى لمهمة السفارة فى بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية.

ولم يغب عن سمع الملك قوله: «الحاكم الجليل» ولا فاته مغزاها، ولكن لم يبد على

وجهه أى أثر لما اضطرب فى نفسه، وكان خيان فى تلك اللحظة يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجلا مهيبا حقا، طويل القامة، مستطيل الوجه جميله، شديد السمرة، يميز ملامحه بروز فى أسنانه العليا، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمرا. وكان الملك يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تجىء به بعثات الشمال من أجله، أى طلب الأحجار والحبوب، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية، وراه ملوك طيبة رشوة يكفون بها شر الغزاة، فقال الملك بهدوئه وجلاله:

- يسرنى أن أستمع إليك يا رسول أبو فيس العظيم.

فاعتدل الرسول فى جلسته كأنما يتوثب للنضال وقال بصوته الغليظ:

- منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب، وفى كل مرة تعود راضية.

فقال الملك:

- أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة.

فقال خيان:

- أيها الحاكم إنى أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية: تتعلق الأولى بشخص مولاى فرعون، والثانية بربه المعبود ست، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب.

فألقى إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام. فاستدرك الرجل قائلا:

- شكا مولاى الملك فى الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهز أعصابه فى الليل، وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكريمتين مما أوقعه فريسة للسهاد والضنى، وقد دعا إليه أطباءه وقص عليهم ما يلقى بليله فتفحصوه بعناية، ولكنهم عادوا جميعا من فحصه بالحيرة والجهل، وكان الملك فى رأيهم جميعا سليما معافى. ولما يئس مولاى فرغ إلى نبى معبد ست، فأدرك الحكيم داءه، وقال له: إن مبعث آلامه جميعا أن خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرب إلى قلبه، وأكد له ألا شفاء له إلا بقتلها.

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة فى بركة طيبة مقدسة، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه، ولكنه وجده جامدا صلبا وإن تضرج بالاحمرار، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار، فقال الرسول:

- وفى أثناء مرض مولاى رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيته، وعقب عليه قائلا: أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمى؟.. فأقسم مولاى أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد فى طيبة معبدا لست إلى جانب معبد آمون.

وسكت الرسول ولكن سيكننرع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرة أنه أخذ على

غرة، وأنه فوجىء بما لم يدر له فى خلد، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبة فى إثارته، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب. فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلا: «الأفضل ألا يناقش مولاى الرسول الآن». فهز الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمى إليه حاجبه، وظن خيان أن الحاجب يفضى إلى مولاه بما يقوله فانتظر قليلا، ولكن الملك قال:

ـ أعندك بلاغ آخر تفضى به؟

فقال خيان:

ـ أيها الحاكم الجليل، لقد بلغ مولاى أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض، فراعه ذلك، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية.

فقال سيكننرع بدهشة:

ـ ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب.

فقال الرسول بيقين وإصرار:

ـ بل كان تاج الملوك منهم، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه، لأنه يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك ما تدل عليه ملاحظة مولاى من رغبة صادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى منف وطيبة.

وسكت خيان، فساد الصمت مرة أخرى، وكان سيكننرع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزة من نفسه، وبدا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته. وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جوابا وقال بصوت احتفظ بالرغم من كل شىء بهدوئه.

ـ أيها الرسول إن رسالتك تنطوى على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا، لذلك أرى أن أكاشفك برأيى فيها غدا.

فقال خيان:

ـ خير الرأى ما سبقته المشورة.

فالتفت سيكننرع إلى الحاجب حور وقال:

ـ تقدم الرسول إلى الجناح المعد له.

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم، وانحنى تحية، ثم ذهب يسير فى خيلاء وعظمة.

٣

وأرسل الملك فى طلب ولى عهده الأمير كاموس، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته فى معرفة رسالة حاجب أبو فيس. وحيا الملك فى إجلال واتخذ مكانه إلى يمينه، والتفت إليه الملك وقال:

- لقد أرسلت فى طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال، لترى فيه معنا رأيك، وإن الأمر لجد خطير فأصغ إلى.

ثم روى الملك لولى عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محياه الحسن الذى يشبه أباه فى لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا، ثم أدار الملك عينيه فى الحاضرين، وقال:

- فها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكى نرضى أبو فيس ينبغى أن نخلع هذا التاج، ونذبح أفراس البحر المقدسة، ونشيد معبدا لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون، فأشيروا على بما يجب عمله.

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعا يدل على ما يعتلج فى صدورهم من الهم، وكان الحاجب حور أول المتكلمين، فقال:

- مولاى، إن الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى أملاها، فهو روح سيد يملى على عبده، وملك يتجنى على شعبه، وما أراها إلا صورة متجددة لذلك النزاع القديم بين طيبة ومنف، هذه تسعى لاستعباد تلك، وتلك تتشبث باستقلالها ما وسعتها الحيلة، وما من شك فى أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم، ولعلهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها، ويتحكموا فى عقيدتها، فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها.

وكان حور فى إلقائه قويا صريحا، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكى يحفظوا الجنوب من توغلهم وشرهم، وكان لأسرته فى هذا السبيل فضل وأى فضل، حتى استطاع والده سيكننرع أن يدرب قوات عظيمة سرا ليصون بها استقلال مملكته، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء فى صوته.. ثم قال القائد كاف:

- مولاى.. أرى أنه لا يجوز التسليم بأى مطلب من هذه المطالب.. كيف نرضى بأن

يخلع مولانا تاجه من على رأسه؟ . . كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدو أذل قومنا! . . وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذى يعبده أولئك الرعاة؟

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون :

ـ مولاى . . إن الرب آمون لا يَرضى أن يشيد إلى جانب معبده معبد لإله الشر ست، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توج به رأسه بأمره . . كلا يا مولاى إن آمون لا يرضى بذلك أبدا، وإنه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال، وتحقيق وحدة الوطن، فيعود كما كان فى عهود الملوك السالفين .

فجرى الحماس فى عروق القائد بيبى مجرى الدماء، ووقف بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين، ثم قال بصوته الجهورى :

ـ مولاى؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا، وإنى لعلى يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجى الهابط وادينا من أقاصى الصحارى الماحلة إلى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد رب الشر ويذبح الأفراس المقدسة؟ . . لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالا فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فإنهم يطمعون فى حريتنا وشرفنا، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب، إن قومنا فى الشمال عبيد يحرثون الأرض ويحترقون بألسنة السياط، ونحن نرجو أن نخلصهم يوما مما يعانون من عذاب لا أن نمضى بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس .

لازم الملك الصمت، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكن، وكانت ميوله مع القائد بيبى فقال بعنف :

ـ مولاى . . إن أبو فيس ينظر بجشع إلى عزتنا القومية، ويأبى إلا أن يذل الجنوب كما أذل الشمال، ولكن الجنوب الذى لم يرض المذلة وعدوه فى أوج قوته لن يرضاها الآن . . فمن يقول إننا نفرط فيما أشتد أسلافنا فى صونه ورعايته؟

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال، وكانت سياسته موجهة دائما إلى تفادى غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهمجية لكى يتفرغ إلى إنماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب، وقد خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش، فقال موجها كلامه إلى رجال المملكة :

ـ اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب، ويستذل نفوسهم ويشغل هممهم عن شريف المقاصد .

فهز القائد بيبى رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

ـ يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهدا كافيا لنعرف نفوسهم ، فهم أناس إذا رغبوا فى شىء طلبوه بلسان صريح دون التوسط إليه بالحيلة والمداراة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حريتنا .

فقال الوزير :

ـ ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

فقال القائد :

ـ إن جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس :

ـ ما جدوى الكلام؟ . . قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات ، ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال ، وليس فى الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت ، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوى اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التى لن تطهرها الشمس .

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز والغضب وكأنما سئموا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ، ورفع الملك رأسه ورنا إلى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلا :

ـ أترى أن نرفض مطالب أبو فيس أيها الأمير؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

ـ بكل حزم وإباء يا مولاى .

ـ وإذا جر الرفض إلى الحرب؟

فقال كاموس :

ـ نحارب يا مولاى . .

وقال القائد بيبى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

ـ نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا ، وإذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر الشمال ونجلى على أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحى الطويلة القذرة .

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

ـ وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى؟

فقال الشيخ الوقور :

ـ أرى يا مولاى أن من يحاول إطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر .

فابتسم الملك سيكننرع راضيا وتحول إلى وزيره أوسر آمون قائلا :

ـ ولم يبق إلا أنت أيها الوزير .

فبادر الرجل يقول :

ـ مولاى ، لم أنصح بالتريث كراهية فى الحرب أو خوفا منها ، ولكن لنستكمل الجيش الذى أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاى المجيدة ، وهى تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة الحديدية ، وأما إذا كان أبو فيس يطمع حقا فى حريتنا فأنا أول من يدعو إلى الحرب .

فنظر سيكننرع فى وجوه رجاله ، وقال بصوت دل على العزم والقوة :

ـ يا رجال الجنوب إنى أشرككم فى عواطفكم ، وأعتقد أن أبو فيس يتحرش بنا ويطمع فى أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب ، ونحن قوم لا نذعن للخوف ونرحب بالحرب . إن الشمال فريسة الرعاة منذ مائتى عام ، امتصوا خير أرضه وأذلوا رجاله . أما الجنوب فإنه يكافح منذ مائتى عام غير غافل عن غايته العليا وهى تحرير الوادى جميعه ، فهل ينكص على عقبيه لأول تهديد ، ويفرط فى حقه ، ويلقى بحريته وديعة بين يدى الطامع النهم؟ . . كلا يا رجال الجنوب ، سأرفض مطالب أبو فيس المهينة ، وأنتظر ما يرد به علينا إن سلما فسلم وإن حربا فحرب .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالا ، ثم غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر .

٤

وتوجه الملك إلى جناح الملكة أحوتبى ، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها فى لباسه الرسمى أن رسول الشمال جاء بأمر جلل ، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة ، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء :

ـ أحوتبى . . يبدو لى أن الحرب تطبق علينا مع الأفق .

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت هائلة بدهشة :

ـ أتقول الحرب يا مولاى؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، وقص عليها ما قال الرسول خيان، ورأى رجاله فيه، وما استقر عليه عزمه، وكان يحدثها وعيناه لا تتحولان عن وجهها فقرأ فى صفحته ما اضطرم فى نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام.

وقالت له:

- لقد اخترت السبيل التى ينبغى لمثلك أن يختارها.

فابتسم وربت كتفها، ثم قال لها:

- هيا بنا إلى أمنا المقدسة.

ثم سارا معا جنبا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيرى زوج الملك السابق سينكننرع، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها.

كانت الملكة توتيشيرى فى الستين من عمرها تبدو على محياها آى النبل والمجد والمهابة، وكانت «حيويتها» دفاقة فغلب نشاطها الكبر، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلل فوديها، وذبول خفيف يعلو خديها، وظلت عيناها على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة فى بروز أسنانها العليا، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة، وقد تخلت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع إليه فى الملمات، والقلب الذى يلهم الأمل والكفاح، وقد أقبلت فى فراغها على القراءة، وكانت تديم المطالعة فى كتب خوفو وقاقمنا وكتب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التى خلدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة فى الجنوب جميعه، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واستعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم إلى مستوى البهائم التى تعمل فى الحقول، فإذا كان فى الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحيى الآمال فالفضل فى إذكائها لوطنيتها وحكمتها، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتيشيرى، كما يدعو المؤمنون الربة إيزيس، وعاذوا باسمها من شر اليأس والهزيمة.

هذه هى الأم التى قصدها سيكننرع وأحوتبى، وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن

علمت بقدوم رسول ملك الرعاة، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل فى طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع. وكان زوجها يبعث بالسفن محملة ليتقى قوة القوم الهمجية، ويضاعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش الذى كان أعز ما أورثه سيكننرع ابنه وخلفه. ذكرت ذلك وهى تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبلا يديها، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها، فسألت ابنها وهى تبتسم ابتسامة رقيقة:

- ماذا يريد أبو فيس؟

فقال بلهجة تنطوى على الخنق:

- يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا. بل ما هو أجل من هذا، إنه يساومنا هذه المرة على شرفنا.

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كل شىء:

- كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب.

فقالت الملكة أحوتبى:

- أما هو يا أماه فإنه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق صوتها رقاده، وأن نشيد معبدا لربه ست إلى جانب معبد آمون، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض.

ووافق سيكننرع على قول أحوتبى، وقص على أمه نبأ الرسول ورسالته.

فبدا الإنكار على وجهها الجليل، ودل التواء شفتيها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة:

- وبماذا أجبته يا بنى؟

- لم أبلغه جوابى بعد.

- وهل انتهيت إلى رأى؟

- نعم. . أن أنبذ مطالبه جميعا.

- إن من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها!

- ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه.

- فإذا شهر عليك حربا؟

- شننت عليه حربا بحرب.

ورنت الحرب فى أذنيها رنينا عجيبا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة، وذكرت أياما مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشا قويا يدفع

به طمع عدوه، أما ابنها فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة، فقد تغير الزمن وتجدد الأمل، واختلست من وجه الملكة نظرة فوجدته شاحبا، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة.. وهى نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغى لمعلمة القوم وأمهم المقدسة أن تقوله. وقد سألته:

- وهل تقدر على الحرب يا مولاى؟

فقال بثبات:

- نعم يا أماه.. لدى جيش باسل.

- هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال؟

- يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة.. ثم هز منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ:

- أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاما بعد عام فلم تفلح المداراة فى إسكات جشعهم، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع، وقد حم القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمداراة. سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها.

فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار:

- فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية.

- فماذا تقولين يا أماه؟

- أقول يا بنى: سر فى طريقك يرعاك الرب وتباركك دعواتى، هذه غايتنا وهذا ما ينبغى للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال طيبة الخالدة.

وابتهج سيكننرع وتألق بالنور وجهه، وهوى على رأس توتيشيرى يقبل جبينها، وقبلت خده الأيسر، وقبلت خد أحوتبى الأيمن وباركتهما معا، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين.

٥

وأعلن الرسول خيان أن سيكننرع سيستقبله غداة غد، وفى الموعد المحدد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابه، وهناك وجد فى انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدى الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه، وجلس على العرش وأذن لهم فى الجلوس، ثم صاح حاجب الباب معلنا وصول الرسول خيان،

ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء، وكان يسائل نفسه: ترى ماذا وراء الشورى؟ . . أسلام أم حرب؟ . . ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه، ورد عليه الملك التحية وأذن له فى الجلوس وهو يقول:

- عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة.

- كانت ليلة سعيدة، شكرا لضيافتك الكريمة.

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه، فانقبض صدره واحتدم الغيظ فى قلبه، وكبر عليه أن يتحداه كذلك حاكم الجنوب، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب، فأراد أن يقول رأيه صريحا حازما قاسيا فقال:

- أيها الرسول خيان: لقد درست المطالب التى تحملها إلينا بعناية، وشاورت فيها رجال مملكتى، فاتفق رأينا جميعا على رفضها.

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم، فأخذ واستولى عليه الذهول، ونظر إلى سيكننرع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجمان، واستدرك الملك قائلا:

- لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا، ونحن لا نسمح لأى إنسان أن يمس العقيدة والشرف منا.

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال الملك:

- إذا سألنى مولاى: لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا لست، فماذا أقول له؟

- قل له إن أهل الجنوب يعبدون آمون وحده.

- وإذا سألنى، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التى تقض مضجعى؟

- قل له إن أهل الجنوب يقدسونها.

- يا عجبا. . أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر؟

فأطرق سيكننرع مليا كأنه يفكر فى الجواب، ثم قال بلهجة حازمة:

- إن أبو فيس مقدس لديكم، وهذه الأفراس مقدسة لدينا.

وسرت موجة ارتياح فى نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف، أما خيان فقد اشتد به الغضب ولكنه لم يستسلم لسلطانه، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء:

- أيها الحاكم الجليل، كان أبوك حاكما على الجنوب ولم يكن يلبس هذا التاج، فهل ترى لنفسك حقا غير ما كان يرى أبوك لنفسه؟

- لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم، ومن حقى أن أتوج به رأسى.

ـ ولكن فى منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج، ويسمى نفسه فرعون مصر، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه؟

ـ أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة.

ونفد صبر خيان فقال بحنق واحتقار:

ـ أيها الحاكم، لا تظن أن لبسك التاج يرفعك إلى مصاف الملوك، فالملك من بعد ومن قبل قوة وسلطان، ولست أرى فى أقوالك إلا استهانة بالوشائج الطيبة التى ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا، ونزوعا إلى التحدى لا تؤمن عواقبه.

فتبدى الغضب على وجوه الحاشية، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلا:

ـ أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر، ولكن إذا تحرش بشرفنا متحرش؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة، ومن فضائلنا ألا نغالى فى تقدير قوتنا فلا تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخرا. ولكن أعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة. ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه.

فعلت شفتى خيان الحادتين ابتسامة ساخرة تخفى حقدا مرا. وقال بلهجة ذات مغزى:

ـ كما تشاء أيها الحاكم وما على إلا البلاغ، وستحمل تبعة أقوالك.

فحنى الملك رأسه ولم يتكلم. ثم قام واقفا مؤذنا بانتهاء المجلس، فوقف الجميع إجلالا حتى غيبه الباب عن أنظارهم.

٦

وكان الملك يقدر خطر الحال، فأراد أن يزور معبد آمون، ليدعو الرب المعبود ويعلن الكفاح فى الفناء المقدس، وأعلن إرادته لوزيره ورجاله، فقصدت جموعهم من وزراء وقواد وحجاب وكبار موظفين إلى معبد آمون لتكون فى استقبال الملك. وتنبهت طيبة الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشم، وتهامس كثيرون بأن رسول الشمال جاء متعاليا وآب غاضبا. وذاع بين الطيبيين أن سيكننرع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأى ويسأله المعونة، فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد، وانضم إليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد، وتدافعوا إلى السبل المؤدية إليه، وكان يبدو على وجوههم الجد والاهتمام والتطلع، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث كل يفسر الأمر على ما يرى، وجاء الركب الفرعونى تتقدمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك

وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكى، فسرت فى نفوس القوم موجة من الحماس والفرح، ولوحوا لمليكهم بأيديهم وهللوا له وكبروا، فابتسم سيكننرع إليهم ولوح لهم بصوجانه، ولم يغب عن أحد أن الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة، فاشتد تشوف الناس إلى سماع الأخبار، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء ورجالا، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد بالسجود، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلا: «أدام الرب حياة الملك وحفظ مملكة طيبة»، وردد القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده، فحياه الملك برفع يده إلى رأسه وابتسامة من فمه العريض، ثم تقدم الجمع بأسره إلى بهو المذبح، وقدم الجنود ثورا ذبيحا للرب، ثم طافوا جميعا بالمذبح وبهو الأعمدة، وهناك وقفوا صفين، وأعطى الملك صوجانه لولى عهده الأمير كاموس وسار إلى السلم المقدس فارتقاه إلى قدس الأقداس، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق، وحنى رأسه وخلع تاجه إجلالا للمكان المطهر، وتقدم نحو المحراب الثاوى فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة، ثم سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى:

- أيها الرب المعبود، رب طيبة المجيدة، ورب أرباب النيل، هبنى من لدنك رحمة وقوة، فإنى اليوم أتعرض لتبعة خطيرة إن لم تشدد فيها أزرى عييت دونها. هى الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذى سقط علينا من صحراء الشمال فى جموع همجية خربت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا، هبنى معونتك أصد جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادى من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه إلا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه إلا اسمك.

وسكت الملك، وانتظر برهة، ثم استغرق مرة أخرى فى صلاة طويلة حارة مسندا جبينه إلى قدمى التمثال، ثم رفع رأسه فى وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخبىء وراءه أحداث القضاء.

* * *

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصد بالعرق فسجدوا له جميعا، وتقدم منه الأمير كاموس بصوجانه فأخذه بيمناه وقال بصوت جهورى:

- يا رجال طيبة المجيدة، لعل عدونا فى هذه الساعة التى أحدثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا، فهلموا جميعا إلى الكفاح، وليكن شعار كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده فى عمله، كى يقوى جيشنا على الثبات والقتال، ولقد صليت للرب وسألته العون، وليس الرب بناس وطنه وأبناءه.

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد: «أيد الرب مليكنا سيكننرع . .». وهم الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال:

- هل لمولاى أن ينتظر قليلا لأقدم إليه هدية مقدسة؟

فقال الملك مبتسما:

- كما تشاء يا صاحب القداسة . . .

وأشار الكاهن إلى كاهنين إشارة خاصة؛ فمضيا إلى حجرة المخلفات، وعادا يحملان صندوقا صغيرا من الذهب تطلعت إليه الأبصار جميعا، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق فى أناة ورفق، فرأت الأعين بداخله تاجا فرعونيا، تاج مصر المزدوج، فاتسعت الأعين دهشة وتبودلت النظرات، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدج:

- مولاى هذا تاج الملك تيمايوس . .

فتصايح قوم قائلين: «تاج الملك تيمايوس . .» فقال نوفر آمون بحماس وقوة:

- نعم يا مولاى، هذا تاج تيمايوس آخر فرعون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا. وقد شاءت حكمة الرب أن تحل نقمته ببلادنا فى عهده، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى فى الدفاع أشد البلاء، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه، لذلك رفعه أسلافنا إلى هذا المعبد ليأخذ مكانه بين المخلفات المقدسة، ولقد مات صاحبه بطلا شهيدا فهو جدير برأسك الكبير: وإنى أتوجك به أيها الملك سيكننرع، يا ابن توتيشيرى الأم المقدسة، وأنادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة، وأدعوك باسم الرب آمون وذكرى تيمايوس وأهل الجنوب أن تنفر إلى قتال عدوك وتحرير وادى النيل الطاهر المحبوب.

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلمه إلى أحد رجال الكهنوت، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعه على رأسه المجعد، ثم صاح هاتفا: «ليحيى سيكننرع فرعون مصر». فردد القوم هتافه، وهرع كاهن إلى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكننرع، فردد الطيبيون الهتاف فى حماسة مستعرة. ثم هتف بقتال الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد، وقد أيقنوا بما كانوا منه فى شك.

وحيا فرعون الكهنة، ثم اتجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية.

٧

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدى الجيش والأسطول وقال لهم :

- إن سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعا ، وسنتعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب ، فينبغى ألا نضيع ساعة من وقتنا .

والتفت إلى قائد الأسطول كاف وقال :

- أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء ، فالرعاة تلاميذنا فى القتال فى السفن ، هيىء سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال .

فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على عجل . وتحول الملك إلى القائد بيبى ، وقال :

- أيها القائد بيبى ، إن قوة جيشنا الأساسية معسكرة فى طيبة ، فسر بها إلى الشمال ، وسألحق بك على رأس قوة من حرسى الأشداء ، وإنى أدعو الرب أن يثبت جنودى أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول إلى بانوبوليس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة .

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى ، وجعل الملك يقلب وجهه فى وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم :

- سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا ، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والإخلاص .

فقالوا فى صوت واحد :

- كلنا فداء للملك ولطيبة .

فقال سيكننرع :

- يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان يحثون قومى على الجهاد . وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشداء والقادرين من شعبى ، أما أنت يا حور فإنى أعهد إليك بآل بيتى ولتكن لابنى كاموس كما كنت لى .

وحيا الملك رجاله وغادر المكان قاصدا إلى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل ، وأرسل فى طلبهم جميعا فجاءت الملكة أحوتبى والملكة توتيشيرى والأمير كاموس

وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحمس وابنتهما الصغيرة الأميرة نفرتارى، فاستقبلهم استقبالا وديا وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدفق من بين أضلعه، ومضى يقلب عينيه فى أحب الوجوه إلى قلبه وكأنه يرى وجها واحدا يتكرر لا يفرق بينها سوى العمر، فتوتشيرى فى الستين، وأحوتبى مثل زوجها فى الأربعين، أما كاموس وستكيموس ففى الخامسة والعشرين، وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة، وأخته نيفرتارى دون ذلك بعامين، ولكن ما من وجه فيهم إلا وتتألق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذى يميل إلى البروز أعلاه، وتلك السمرة الخمرية التى تضفى عليه صحة وحسنا، وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال:

- تعالوا نجلس معا ساعة قبيل الرحيل.

فقالت توتيشيرى:

- إنى أدعو الرب يا بنى أن يكون ذهابا إلى النصر المبين.

فقال سيكننرع:

- إنى كبير الأمل فى النصر يا أماه...

ورأى الملك ولى العهد فى لباس الحرب فأدرك أنه يظن نفسه خارجا معه فسأله متجاهلا:

- لماذا ترتدى هذا اللباس؟

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال، وقال باستغراب:

- للسبب الذى من أجله ترتديه أنت يا مولاى.

- هل جاءك أمرى بذلك؟

- ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاى.

- أخطأت يا كاموس.

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال:

- هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاى؟

- إن ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى، وستبقى على عرشى يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمد جيشنا بالرجال والمئونة.

فامتقع وجه الشاب، وحنى رأسه كأنما أثقله أمر الملك، وأرادت توتيشيرى أن تخفف عنه فقالت برقة:

- كاموس.. إن القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهين الذى يخزى إنسانا وهو عمل جدير بمثلك.

وهنا وضع الملك يده على منكب ولى عهده وقال :

- أصغ إلى يا كاموس إننا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الرب، ونحرر بلادنا المحبوبة مما تقيد به من الأغلال، على أنه من الحكمة أن نقدر جميع العواقب، وقد قال حكيمنا قاقمنا : «لا تضع كل أسهمك فى جعبة واحدة» .

وسكت الملك عن الكلام، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتى استأنف الملك قائلا :

- فإذا شاءت حكمة الرب أن يبوء جهادنا بخذلان فما ينبغى أن ينقطع جهادنا قط . . أصغوا إلى جميعا، إذا سقط سيكننرع فلا تيئسوا فسيخلف كاموس أباه، وإذا سقط كاموس خلفه أحمس الصغير، وإذا فنى جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال، وإن تسقط بطلمايس فلتحارب كبتوس، وإن تقتحم طيبة فلتثب أمبوس وسيين وبيجة، أو يقع الجنوب فى أيدى الرعاة فهنالك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون، وستتولى توتيشيرى الأبناء بما تولت به الآباء والأجداد، فلا أحذركم إلا من عدو واحد هو اليأس .

وكان لكلام الملك وقع شديد فى نفوس الجميع حتى أحمس الصغير ونيفرتارى وجما وعلاهما الارتباك، وعجبا كيف يحدثهما جدهما بهذه اللهجة الجدية أول مرة، واغرورقت عينا الملكة أحوتبى بالدموع، فتكدر سيكننرع وقال بلهجة لم تخل من عتاب :

- أتبكين يا أحوتبى . . انظرى إلى شجاعة أمنا توتيشيرى .

ثم نظر إلى أحمس وكان يكلف به كلفا عظيما، وكان الغلام صورة صادقة من جده، فجذبه إليه وسأله مبتسما .

- من العدو الذى يجب أن نحذره يا أحمس؟

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول :

- اليـــأس .

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى : ثم قام واقفا وقال برقة :

- هلموا نتعانق . .

ثم عانقهم جميعا مبتدئا بتوتيشيرى وزوجه أحوتبى وستكيموس زوج ابنه ثم أحمس ونيفرتارى : ثم انعطف نحو كاموس، وكان واقفا فى جمود واستسلام، فمد له يده فشد عليها بقوة، ثم انحنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت :

- فلتصحبك السلامة يا أبتاه . .

ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتتين وقد تجلى على وجهه العزم والبأس.

* * *

وخرج الملك فى رأس قوة من حرسه والتقى فى ميدان القصر بجموع شعب طيبة جميعا رجالا ونساء وأطفالا قد انتقلوا إلى ميدان القصر يحيون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيا تحرير الوادى، وشق سيكننرع طريقه بين موجهم المتلاطم قاصدا باب طيبة الشمالى، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين فى توديعه، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلا، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له:

- سأستقبلك يا مولاى بعد حين ورأسك مكلل بالغار.. اللهم استجب.

واجتاز الملك باب طيبة العظيم فى طريقه إلى الشمال تاركا وراءه أسوار المدينة العظيمة، وكان عظيم التأثر لما رأى ولما سمع، وقد شعر بخطر العمل الكبير المقبل عليه، وكيف أنه ينطوى على إسعاد شعبه أو إشقائه إلى أمد طويل، لقد وضع مصير القوم فى قبضة يده وواجه المخاطر المروعة التى وقف منها أبوه موقف المتمهل المتريث، ولم يكن سيكننرع من الحكام المترفين ولكن كان خلقه ينطوى على الصلابة والبسالة والتقشف والتدين، وكان عظيم الأمل قوى الثقة بقومه. وقد لحق جيشه بالمعسكر فى بلدة شنهور شمال طيبة قبل المساء واستقبله القائد بيبى على رأس قواد الفرق، وكان مضعضع الحواس لما أصابه من إرهاق ووصب، ولم تغب حالته عن عينى الملك فقال له:

- أراك متعبا أيها القائد.

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال:

- استطعنا يا مولاى أن نجمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة، فكونت جيشا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل.

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت فى نفوسهم موجة فرح وحماس، وتردد الهتاف له فى المعسكر شمال بلدة شنهور، ثم كر راجعا إلى الخيمة الملكية وفى صحبته القائد بيبى، وكان الملك مطمئنا إلى جيشه الذى بذل أجمل عهود شبابه فى تدريبه فقال:

- جيشنا باسل.. فكيف ترى شعور القواد؟

- كلهم متفائلون يا مولاى ومتحمسون للحرب، وما من واحد منهم إلا يبدى عظيم إعجابه بفرقة القسى ذات الشهرة التاريخية.

فقال الملك:

- إنى أشارككم هذا الإعجاب، والآن أصغ إلىّ، لا يجوز أن نضيع من الوقت إلا ما

تستلزمه ضرورة إزاحة هذا العدد من الجنود، فإنه ينبغى أن نلقى عدونا ـ إذا هاجمنا حقا ـ فى الوادى المنحدر ما بين بانو بوليس وبطلوس، فهو واد شديد الوعورة ضيق المسالك، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه، ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا فى أثناء اشتباكه مع العدو.

ـ سنشرع فى المسير يا مولاى قبيل الفجر.

فأومأ برأسه دلالة على الموافقة وقال:

ـ ينبغى أن نبلغ بانوبوليس ونعسكر فى واديها قبل أن يعود خيان إلى منف.

ثم دعا الملك قواده إلى الاجتماع به.

٨

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوة الكشافة، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتى عجلة على رأسها فرعون، وتتبعها فرقة الرماح، ثم فرقة القسى والنبال، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة، وعربات المؤن والسلاح والخيام. وأبحر الأسطول فى الوقت نفسه إلى الشمال، وكان الظلام شديدا لا يخفف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء المشاعل، فبلغوا مدينة قسى فهبت جميعا لاستقبال فرعون وجيشه، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة، وساروا مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهية، ولم يتركوه حتى أوغل فى المسير، وبهتت ظلمة الليل وانسكب فى الأفق الشرقى نور الفجر الأزرق الهادىء يتقدم بشائر النور، ثم أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد فى السير حتى بلغ كتوت قبيل العصر، فاستراح فيها وقتا بين المستقبلين من أهلها المتحمسين. ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش فى تنثيرا فأصدر أمره باستئناف المسير، وجد الجيش حتى بلغ تنثيرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق.

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب فى الأرض حتى حلول الظلام يوما بعد يوم حتى عسكر فى أبيدوس، وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقواما تضرب فى الأرض، فعدا على رأس ثلة من رجاله نحو القادمين، وكان كلما هبط الوادى تبين له الأمر فرأى خطوطا متعرجة من الفلاحين يسيرون جماعات يحملون ما خف من متاعهم، ومنهم من يسوق غنما أو ثيرانا يدل منظرهم على البؤس والتشرد، فعجب الرجل واعترض سبيل المتقدمين منهم وهم بسؤالهم، ولكن رجلا منهم صاح به:

ـ الغوث أيها الجندى . . أدركونا فقد هلكنا .

فصاح الضابط منزعجا :

ـ تطلبون الغوث؟ . . ماذا يفزعكم؟

فأجاب كثيرون منهم فى نفس واحد :

ـ الرعاة . . الرعاة .

وقال الرجل الأول :

ـ نحن أهالى بانوبوليس وبطلمايس ، جاءنا جندى من جنود الحدود وقال لنا : إن جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوات عظيمة لن تلبث أن تتدفق إلى بلدتنا ونصحنا بالهجرة إلى الشمال ، فساد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعا إلى ديارنا ننادى النساء والأطفال ونحمل ما يخف حمله ، ثم تركنا البلاد وراءنا فارين ، فما ذقنا الراحة منذ صباح الأمس .

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم الضابط :

ـ استريحوا قليلا ثم جدوا فى السير ، فعما قليل ينقلب هذا الوادى الساكن ميدانا للقتال .

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد فى أبيدوس ، وأبلغه الخبر ، وقام بيبى من فوره إلى الملك وقص عليه الخبر ، فتلقاه بدهشة وانزعاج وصاح :

ـ كيف وقع هذا . . هل بلغ خيان منف فى هذا الزمن اليسير؟

فقال بيبى بحنق :

ـ لا شك يا مولاى فى أن عدونا حشد جيشه على حدودنا قبل أن يبعث إلينا برسوله ، فهو كان يتربص بنا ، وما عرض علينا مطالبه إلا وهو يرجو أن نرفضها ، فلما اجتاز خيان حدودنا عائدا أصدر أمره للجيوش المحتشدة بالهجوم ، هذا هو التفسير المعقول لذلك الهجوم السريع العنيف .

فاصفر وجه الملك سيكننرع غضبا وحنقا وقال :

ـ إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس .

ـ نعم وا أسفاه يا مولاى ، ولا يجدى فى الدفاع عنهما بسالة حاميتنا قليلة العدد .

فهز الملك رأسه أسفا وقال :

ـ خسرنا أوفق ميدان قتال لنا .

ـ لن يؤثر هذا فى شجاعة جنودنا الفائقة .

وفكر الملك مليا ثم قال لقائد جيوشه :

- ينبغي أن نخلى أبيدوس وتنثيرا إخلاء تاما .

فبدا التساؤل على وجه بيبى فقال الملك :

- لن نداقع عن هذه المدن .

فأدرك بيبى ما يعنيه مولاه .

- أيريد مولاى أن يلقى العدو فى وادى كبتوس؟

- هذا ما أريده ، فهنالك تمكن مهاجمة العدو من عدة جهات . وتوجد فى أنحاء الوادى حصون طبيعية ، وسأترك له فى المدن التى نخليها عصابات تكر عليه دون أن تشتبك معه فى قتال فتعطل تقدمه حتى نقوى مراكزنا ، هيا يا بيبى ابعث برسلك إلى المدن ليخلوها ، ومر القواد بالتقهقر فى الحال . . ولا تضيع وقتا فإن حبل الأرجوحة التى يترجح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه فى يد أبوفيس .

٩

وصاح المنادى فى أهالى أبيدوس وبرفا وتنثيرا أن احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب ، فقد أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة ، وكان القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم ، فتولاهم الخوف وبادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكدسون بها العربات تجرها الثيران ، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجل ، ولموا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنما تقطع أوصالهم من الحزن والأسف ، وكان كلما تقدم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة إلى الوراء تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم ، ثم تفزعهم المخاوف فيجدون سراعا إلى المجاهل التى تنتظرهم ، ومروا فى طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم فى صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة أمل ، وافترت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمعت فى جو أحزانهم كما تضىء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة فى يوم أدكن السماء ، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون : «أراضينا وديعة مسلوبة . . ردوها إلينا أيها البواسل» .

كان فرعون فى تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته فى وادى كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيارهم المتدفق ، وكان يشاركهم آلامهم كأنه واحد منهم ، ويضاعف فى ألمه ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له .

وكان القائد بيبى على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقى الأخبار منهم ثم يرفعها إلى مولاه ، فبلغه هجوم العدو على أبيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت

على آخر رجل منهم. وغداة اليوم التالى حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال بها الرجال المدافعون عنها من فنون الدفاع والمشاكسة لكى يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة، أما تنثيرا فقد ثبتت حاميتها للعدو الزاحف ساعات طوالا حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشا كامل العدد والعدة، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفا وسبعين، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع؛ لأنه لم يكن هو - ولا أحد من جيشه - يتوقع أن يملك جيش أبو فيس هذا العدد الضخم من العجلات، وقال لقائده:

- كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات؟

وكان بيبى فى حيرة من أمره، وكان يلقى على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه:

- ستنهض فرقة القسى بواجبها يا مولاى.

فهز الملك رأسه دهشة وقال:

- لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها؟

- والمؤلم يا مولاى أن تكون الأيدى التى صنعتها مصرية.

- حقا إنه لمؤلم.. ولكن هل تنفع القسى فى مقاومة سيل من العجلات؟

- إن جنودنا يا مولاى لا يخطئون أهدافهم، وسيرى أبو فيس غدا أن الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته.

وفى ذلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض. وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعا إليه أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويكتب له ولجيشه النصر.

وأحس الجميع دنو العدو؛ فضاعفوا من يقظتهم، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم فى معركة الموت.

١٠

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسى أماكنهم الحصينة فى الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات، ووقف سيكننرع أمام خيمته مع قائده بيبى وسط هالة من رجال حرسه الأشداء، وكان يقول لهم: «ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها.

ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رماتنا المحصنين على إصابة فرسان العدو وجياده، وليس من شك فى أن أبو فيس سيبدأ هجومه بالعجلات، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقى حتى يفصل فى معركة العجلات، فليكن همنا موجها إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز، حتى نمكن لفرق جيشنا التى لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا».

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذى يهيم به، وكان يدعو ربه آمون فى صدق ورجاء قائلا: «أيها الرب المعبود، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة. وانصر أبناءك المؤمنين، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك فى مثواك المكرم، وتغلق أبواب معبدك المطهر».

وركب الملك عجلته، وفعل القائد بيبى مثله، وأحاط بهما الحرس الفرعونى، ووقف خلفهما مائة عجلة حربية، ثم تقدمت فرقة الرماح ورصت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التى تؤيدها بواجبها الأول.

وحين أخذت تبدو بشائر النور، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول الرعاة فى معركة حامية شمال كبتوس، فقال الملك لقائد جيشه:

إن أبو فيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من إنزال جنود وراء مواقعنا.

فقال القائد بيبى:

- إن الرعاة يا مولاى لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن، وسيبتلع النيل المقدس جثث جنودهم، ويبتلع أمل أبو فيس فى حصارنا.

كانت ثقة سيكننرع فى رجال أسطول طيبة عظيمة، ولكنه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحرية. وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر، والميدان يتجلى للأعين الفاحصة؛ فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسى فى أيديهم، والعجلات المعدودة تتحفز إلى جانبهم للقتال، ورأى فى الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر. وكان العدو ينتظر سفور الصبح، فما عتمت أن تحركت قوات العجلات استعداداً للمعركة، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأمامية فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض العجلات المصرية فى قتال عنيف، فصاح سيكننرع:

- الآن تبدأ معركة طيبة.

فقال بيبى بصوت قوى النبرات:

ـ نعم يا مولاى، وقد بدأ جنودنا بدءا حسنا.

وصوبت الأبصار جميعا إلى الميدان تشاهد سير المعركة، فرأوا عجلات الرعاة تهاجم صفا ثم تتفرق جماعات شتى، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة، وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعا فى استبسال وشجاعة، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا، حتى صاح ببيى قائلا:

ـ لو دام القتال على هذا النحو، فسنتفوق على فرقة العجلات فى أيام قلائل.

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل، ثم ترتد إلى معسكرها وتنقض غيرها كى لا تنهك قواها، على حين كان المصريون يدافعون دون سكوت أو راحة وهم ثابتون فى مراكزهم، وكان سيكننرع كلما رأى فارسا من فرسانه أو عجلة من عجلاته تتعطل، يصيح غاضبا: واأسفاه، ويدرك أتم إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة، وأخذ عدد الوحدات التى يهجم بها الرعاة يتضاعف، كانوا يهجمون ثلاثا ثلاثا، ثم هجموا ستا ستا، ثم عشرا عشرا. واشتد القتال وحمى وطيسه، واطرد عدد عجلات الهكسوس فى الزيادة، حتى ساور سيكننرع القلق، وقال لببيى:

ـ لابد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد إلى الميدان اتزانه.

ـ ولكن يا مولاى ينبغى الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة.

ـ ألا ترى أن العدو يكر علينا كل فترة يسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال؟

ـ إنى أدرك الخطة يا مولاى، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا.

فصر الملك بأسنانه وقال:

ـ لم نكن نتوقع قط أن تكون له هذه الغلبة فى العجلات، ومهما يكن فلا يمكننى أن أترك الرماة بلا نجدة، فليس فى جيشى رماة سواهم.

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة فى خمس وحدات، فانقضت كالنسور الكواسر، وبعثت فى الميدان حياة جديدة، ولكن أبو فيس أراد أن يرد على حملة سيكننرع الجديدة ردا قاسيا، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كل وحدة خمس عجلات، فزلزلت الأرض بصلصلتها، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر.. وتقدم الوقت وهى لا تهدأ أو تخف وطأتها حتى توسطت الشمس كبد السماء. وجاء بعد ذلك رجال الكشافة وآذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد فى الأسر سفينتين، وغرقت له سفينة أخرى، فجاء نبأ النصر فى وقته ليشد من عزيمة المصريين ويثبت قلوبهم، وأذاعه الضباط فى الفرق المقاتلة والتى تنتظر أن يجىء دورها

فى الكفاح، فكان له صدى فرح فى الصدور، وفورة حماس فى القلوب، ولكن صك ذاك الخبر آذان أبوفيس كذلك فاستولى عليه الغضب، وغير خطته البطيئة فى الحال، وأصدر أمره إلى قوة العجلات بالهجوم والانتقام. . ورأى سيكننرع سيلا عرمرما من العجلات ينقض على رماته البواسل من كل مكان، وينشب فيهم أظافره الحادة. وارتاع الملك أيما ارتياع، وصاح قائلا بغضب شديد:

- إن قواتنا التى نهكها النضال الدائم، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات. .

ثم التفت إلى قائد جيشه، وقال بعزم وإصرار:

- سنخوض معركة فاصلة بالقوات التى بين أيدينا، فمر ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم، وبلغهم رجائى أن يقوم كل بواجبه جنديا من جنود طيبة الخالدة.

وكان سيكننرع يدرك الهول الذى ينتظره وجيشه، ولكنه كان رجلا باسلا عظيم الإيمان، فلم يتردد لحظة ونظر إلى السماء وقال بصوت صافى النبرات: «أيها الرب آمون لا تنس أبناءك المخلصين». ثم أصدر أمره إلى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم، واندفع أمامها ليلقى عدوه. .

وبدأت معركة من أشد المعارك هولا، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ، وتساقطت الرءوس. وجرت الدماء ولكن لم تجد بسالة المصريين شيئا فى مقاومة العجلات السريعة المدرعة، ففتكت بهم فتكا ذريعا، وحصدتهم حصدا كالهشيم، وقاتل سيكننرع قتالا مجيدا غير يائس ولا متخاذل، وبدا ساعة كأنه رب الموت يختار له من يشاء من عدوه. واستمرت المعركة حتى الأصيل وهناك بدت الغلبة فى صف الرعاة، فتحفزوا ليضربوا الضربة القاضية، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض، على عجلة سيكننرع، وشقت إليه الصفوف ببسالة خارقة. وأدرك الملك غرض الفارس الجسور، فهرع نحوه حتى تواجها، ثم تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما، فتلقى كل منهما الضربة الموجهة إليه بترسه وتحفز للقتال. ورأى سيكننرع غريمه يسل سيفه، فعلم أنه لم يقنع بتجربة حظه، فسل سيفه واندفع نحوه، وفى تلك اللحظة الرهيبة استقر سهم فى ساعده، فارتعشت يده وسقط منها السيف. . وصاح كثير من حرس الملك: «حذار يا مولاى. . حذار» ولكن الغريم كان أسرع إليه من الحذر، فوجه إلى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوته، فأصابت هدفها، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم، وتوقف مقهورا عن المقاومة. فقبض عدوه بيمناه على رمح ورشقه بقوة، فاستقر فى جانب الملك الأيسر، وترنح على أثره ذاهلا وسقط على الأرض. . وتعالى الصياح من كل جانب، فقال المصريون: «رباه. . لقد سقط

الملك . . دافعوا عن مليككم . . » وصاح قائد العدو وهو يبتسم ابتسامة الظافر : «أجهزوا على المتمرد العاصى ، ولا تبقوا على أحد من رجاله» . فاشتد القتال حول جسد الملك الملقى ، وانقض عليه فارس حقود . ورفع بلطة حادة ، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج ، وتفجر منه الدم كالينبوع ، وثنى بضربة أخرى فوق العين اليمنى ، فحطمت العظام وتناثر المخ فى حالة بشعة ، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم ، فتكالبوا على الجثة ووجهوا إليها طعنات مجنونة قاسية ، أصابت العينين والفم والأنف والخدين والصدر ، فمزقت الجثة وأغرقتها فى بحر من الدماء . .

وكان بيبى يقاتل على رأس من بقى من جنوده ، مدافعا قوات العدو المتدفقة على البقعة التى سقط فيها مولاه . واستيأس القوم فى القتال ، وهانت عليهم الحياة ، وعزموا جميعا على الاستشهاد فى المكان الذى ارتوى بدماء مليكهم الباسل ، فما زالوا يسقطون رجلا إثر رجل حتى أدركهم المساء ، ولبس الكون الحداد ، فكف الفريقان عن القتال ، وقد نهكهم التعب وأثخنتهم الجراح .

١١

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم ، وكان القائد بيبى واقفا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كل منال ، يتجه قلبه إلى الجثة التى خضبت دماؤها الزكية الميدان ، فسمع صوت قائد يقول :

ـ ياللعجب . . كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة . . من يصدق أننا فقدنا جل قواتنا فى نهار واحد . . كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء . . ؟!

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالحشرجة :

ـ إنها العجلات التى لا تقاوم . . لقد حطمت آمال طيبة جميعا . .

فناداهم القائد بيبى قائلا :

ـ أيها الجنود . . هل أديتم ما عليكم نحو جثة سيكننرع؟ . . . هلموا نبحث عنها بين الجثث . .

فسرت قشعريرة فى نفوسهم المتهالكة ، وأخذ كل منهم مشعلا وتبعوا بيبى صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق ، وتفرقوا فى البقعة التى سقط فيها الملك ، تصك آذانهم أنات الجرحى وهذيان المحمومين ، وكان بيبى لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم ، ولا

يكاد يصدق أنه يبحث حقا عن جثة سيكننرع، ويكبر عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة، وكان يقول والدموع تطفر من عينيه: «إشهدى يا أرض كبتوس واعجبى.. إننا نبحث عن جثة سيكننرع بين كثبانك.. ألا رفقا بها، ولتكونى فراشا وثيرا لأضلعها المصابة، ألم تسقط فداء لك ولأرض طيبة!.. واها يا سيدى.. من لطيبة بعدك؟.. من لنا غيرك؟..» وظل فى حيرته قليلا ثم سمع صوتا يصيح قائلا:

«أيها الرفاق تعالوا.. هاكم جثة مولانا». فجرى صوبه والمشعل فى يده. فزعة عيناه من الهول الذى ستراه، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية، امتزج فيها الألم بالغضب. رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه، فصاح غاضبا: «يا للغربان الدنية.. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد الهصور، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر، فقد حييت كما ينبغى للملك من ملوك طيبة أن يحيا، ومت ميتة البطل الباسل..» وصاح فيمن حوله ممن أذهلهم الحزن: «أحضروا الهودج الملكى. هيا يا نيام» وأتى بعض الضباط بالهودج، واشتركوا جميعا فى رفع الجثة ووضعوها عليه، ورفع بيبى تاج مصر المزدوج ووضعه إلى جانب رأس الملك، ثم سجى الجثة، وحملوا الهودج فى صمت أليم، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح، ووضعوه فى الخيمة التى فقدت حاميها وسيدها إلى الأبد.. وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسى الأذقان، ترهقهم كآبة، ويغشى أبصارهم حزن عميق، فالتفت إليهم بيبى بصوت قوى النبرات:

- أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن، فليس الحزن بمعيد سيكننرع إلينا، ولعله ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذى قتل من أجله، لقد وقعت الواقعة، ولكن المأساة لم تتم فصولها، فينبغى أن نثبت فى مراكزنا حتى نؤدى واجبنا كاملا.

فرفع الرجال رءوسهم، وأصروا بأسنانهم صرير العزم والقوة، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت، فقال بيبى:

- إن الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة، ولكن واجبنا لم ينته بعد، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة، كما كنا للحياة الشريفة.

فصاحوا جميعا قائلين:

- لقد ضرب لنا مليكنا المثل الأعلى، وسوف نتبع أثره.

فتهلل وجه بيبى وقال بسرور:

- حييتم من جنود بواسل، والآن اصغوا إلى؛ لم يبق من جيشنا إلا أقله، ولكننا

سنخوض المعركة غدا على رءوسهم حتى آخر رجل، وسيكون من جراء قتالنا أن نعوق تقدم أبو فيس حتى تتهيأ فرص النجاة لأسرة سيكننرع، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهى، وإن سكنت فى الميادين إلى حين. سأفارقكم بعض يوم لأؤدى واجبى نحو هذه الجثة ونحو ذريتها الباسلة، ثم أعود إليكم قبل مطلع الفجر، لنموت معا فى ميدان القتال.

طلب منهم أن يصلوا جميعا أمام جثة سيكننرع، فجثوا وجثا واستغرقوا فى صلاة حارة، وختم بيبى صلاته قائلا:

- أيها الرب الرحيم، تغمد مليكنا الباسل برحمتك فى جوار أوزوريس، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته. كى نلقاه فى العالم الغربى بوجوه لا يخزيها لقاؤه.

ثم نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج إلى السفينة الفرعونية، والتفت نحو رفاقه وقال:

- أستودعكم الرب وإلى اللقاء القريب.

سار خلف الهودج حتى وضعوه فى المقصورة، ثم قال لهم:

- حين تبلغ بكم السفينة طيبة، سيروا به إلى معبد آمون، وضعوه فى البهو المقدس، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتى أوافيكم.

وعاد القائد إلى عجلته، وأمر السائق بالمسير إلى طيبة، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهبا..

* * *

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم، تحت ستار الظلام الذى يغشى معابدها ومسلاتها وقصورها، فى غفلة عما يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام، فاتخذ سبيله رأسا إلى القصر الفرعونى، وأعلن الحرس حضوره، فجاء رئيس الحجاب على عجل، ورد تحيته، وسأله بقلق:

- ماذا وراءك أيها القائد؟

فقال بيبى بلهجة دلت على الجزع:

- ستعلم كل شىء فى حينه أيها الحاجب الأكبر، والآن استأذن لى فى المثول بين يدى ولى العهد..

فغادر الحاجب الحجرة غير مرتاح البال، ثم عاد بعد زمن قصير وهو يقول: «إن صاحب السمو ينتظرك فى جناحه الخاص». فمضى القائد إلى جناح ولى العهد وأدخل عليه فى بهو الاستقبال. وسجد بين يديه، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقعة الأمير. فلما

رفع بيبى رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب، وعينيه الذابلتين، وشفتيه المتقعتين، ساوره القلق، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلا:

- ماذا وراءك أيها القائد بيبى؟ . . . فلا بد من أمر جلل دعاك إلى مفارقة الميدان فى هذا الوقت؟ . .

فقال القائد بصوت دلت لهجته على الحزن والكآبة:

- مولاى، ما تزال الآلهة - لأمر تخفى على حكمته - غاضبة على مصر وأهلها . . !

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق، وأدرك ما يدل عليه من الأخبار المحزنة فتساءل فى قلق وجزع:

- هل أصيب جيشنا بكارثة؟ . . . هل يطلب والدى مددا؟ . .

فأطرق بيبى وقال بصوت خافت:

- وا أسفاه يا مولاى، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب.

ففزع الأمير كاموس قائما، وصاح به:

- هل أصيب والدى حقا؟

فقال بيبى بصوته الثقيل الحزين:

- سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة.

وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجل أسرتكم العظيمة.

فقال كاموس وهو يرفع رأسه:

- رباه . . . كيف تمكن لعدوك من ابنك المخلص . . . رباه ما هذه الكارثة التى تنزل بمصر. ولكن ما جدوى التشكى؟ ليس هذا وقت البكاء. لقد سقط والدى فينبغى أن أحل محله . . صبرا أيها القائد بيبى حتى أعود إليك فى لباسى الحربى.

ولكن القائد بيبى قال بسرعة:

- لم أجىء إلى هنا مولاى لأدعوك إلى القتال، لقد قضى الأمر وأسفاه . . فحدجه بنظرة حادة قاسية، وسأله:

- ماذا تعنى؟

- لا فائدة ترجى من القتال . .

- هل قضى على جيشنا الباسل؟ . .

فأطرق بيبى وقال بحزن شديد:

- خسرنا المعركة الفاصلة التى كنا نرجو أن نحرر بها مصر، وتحطمت قوة جيشنا

الأساسية، ولن ترجى فائدة حقة من القتال، ولن نقاتل إلا لكى نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتا للنجاة . .

ـ أتريد أن تقاتل حتى نفر فرار الجبناء، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو؟ . . .

ـ بل فرار الحكماء الذين يقدرون العواقب وينظرون إلى المستقبل البعيد، ويسلمون بالهزيمة إذا وقعت، ثم ينسحبون من الميدان إلى حين، ثم لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوهم عودا على بدء . . مولاى تفضل وادع ملكات مصر، وليكن الأمر شورى . .

ودعا الأمير كاموس حاجبا، وأرسله فى طلب الملكات، ومضى يتمشى جيئة وذهابا يتناوبه الحزن والغضب، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة، وجاءت الملكات: توتيشيرى وأحوتبى فستكيموس مسرعات، وحين وقعت أبصارهن على القائد بيبى وقد انحنى لهن تحية، ورأين الكدر مرتسما على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء، شعرن بخوف واضطراب، وزاغت أبصارهن، وكان كاموس جزعا فدعاهن إلى الجلوس، وقال:

ـ سيداتى . . دعوتكن لأقص عليكن أنباء أسيفة . .

وتريث لحظة كى لا يفاجئهن، ولكنهن فزعن، وقالت توتيشيرى بقلق:

ـ ماذا وراءك أيها القائد بيبى؟ . . كيف حال مولانا سيكننرع؟ . .

فقال كاموس بصوت متهدج:

ـ جدتاه . . . إن قلبك لذكى الشعور، صادق الحدس . . . فليثبت الله قلوبكن، ويعنكن على تحمل الخبر الفاجع . . . لقد قتل أبى سيكننرع فى الميدان، وخسرنا المعركة . . .

وعطف رأسه عنهن حتى لا يرى آلامهن، وقال وكأنه يحادث نفسه المكلومة:

ـ قتل أبى وهزمت جيوشنا، وقضى على قومنا أن يعانوا الآلام جميعا، من أدنى الجنوب إلى أقصى الشمال . . .

ولم تتمالك توتيشيرى فزفرت زفرة حرى كأنما مجت بها فتات كبدها . ووضعت يدها على قلبها وهى تقول:

ـ ما أشد جرح هذا القلب العجوز . . !

أما أحوتبى وستكيموس فقد ثقل رأساهما، ووكفت أعينهما دمعًا ساخنا، ولولا وجود القائد بينهما لا نتحبتا انتحابا عاليا .

ووقف بيبى وسط ذاك الحزن الشامل صامتا، مجروح الصدر، مضعضع الحواس

جميعا، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى، وخشى أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال:

- يا ملكات أسرة مولاى كاموس، تجلدن وتصبرن، فإنه وإن كان الخطب أكبر من العزاء، فإن الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن، استحلفكن بذكرى مولاى الشهيد أن تكفكفن دموعكن، بالصبر، وتحزمن أمتعتكن، فليست طيبة بالمثوى الأمين غدا . . .

فسألته توتيشيرى قائلة:

- وجثة سيكننرع؟

- فلتطمئن نفسك يا مولاتى، سأؤدى واجبى نحوها كاملا . . .

فسألته مرة أخرى:

- وإلى أين تريد أن نذهب؟

- مولاتى، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى حين، ولكن لنا وطن آخر أمين فى بلاد النوبة، ولن يطمع الرعاة فى النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشق على نفوسهم المترفة، فلتكن لكم مهجرا آمنا، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا، وهنالك يعاودكم التفكير فى هدوء، فترعون أمل المستقبل الجديد، وتتعهدونه بالصبر والبسالة، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس . .

وكان كاموس يصغى إليه من هدوء وسكينة، فقال له:

- فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة، أما أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشى أقاسمه حظه فى الحياة أو الموت.

فساور القلق القائد، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسل، وقال:

- مولاى، لن أستطيع أن أثنيك عن إرادة تريدها، فلأكل الأمر إلى حكمتك، ولا أسألك إلا أن تصغى إلى قليلا . . .

مولاى، إن القتال اليوم عبث ضائع، ومعناه الهلاك المبين، ومصر لن تنتفع بموتك، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامها، ولكنها بغير شك تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض . . . إن كل أمل فى النجاة منوط بحياتك، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة . . . فاجعلوا «نباتا» هدفكم، وشدوا إليها الرحال، وهناك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح. لن تنتهى هذه الحرب كما يتمنى أبو فيس، فلا يتسنى لشعب كشعبنا عاش سيدا كريما، أن يطرق على الذل طويلا. ولسوف تحرر طيبة يا مولاى فى تاريخ قريب: ولن تقف بك الحماسة عند حد، فتطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك . . إن سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعينى فى ظلمات

الحاضر الكئيب، فلا تتردد واعزم عزمة الحكمة. والآن وقد بينت لك نهج الحق، فاقض بما أنت قاض..

وكف بيبى عن الكلام، وما كفت عيناه عن التوسل والرجاء، وتحولت توتيشيرى إلى كاموس، وقالت بصوت خافت:

ـ لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله.

فأحس القائد البائس بندى الأمل، وانتعش فؤاده بالفرح، ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة، فقال بيبى وكان يكذب أول مرة فى حياته:

ـ أما أنا يا مولاى فسألحق بكم بعد حين.. فأمامى واجبان مقدسان: أن أعنى بجثة مولاى، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة، لعلها بالمقاومة الناجحة تساوم على التسليم بأحسن الشروط.

ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء، وغلب التأثر بيبى فقال:

ـ ينبغى أن نواجه محنتنا بشجاعة، وليكن لنا فى سيكننرع أسوة حسنة، ولنتذكر دائما يا مولاى أن العجلات الحربية هى سبب هزيمتنا، فإن كررت يوما على العدو، فلتكن العجلات عتادك. والآن سأذهب لأدعو العبيد إلى حمل الثمين الغالى من ذهب القصر وسلاحه، مما لا غنى عنه..

نطق القائد بيبى بهذه الكلمات، ثم ذهب..

١٢

وانبعثت فى القصر حركة نشاط شاملة، وأضيئت حجراته جميعا، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونية فى سكون محزن، تحت رقابة رئيس الحجاب، وكانت الأسرة الفرعونية فى أثناء ذلك تنتظر فى حجرة الملك كاموس، تشملها الكآبة والصمت، ينكس أفرادها النبلاء رءوسهم، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن، ولبثوا على حالهم ما لبثوا، حتى دخل عليهم الحاجب حور، وقال بصوت خافت:

ـ انتهى كل شىء يا مولاى.

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق، فخفقت قلوبهم، ورفعوا وجوههم ذاهلين، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد. أحقا انتهى كل شىء.. وهل أزفت ساعة الوداع؟.. أهذا آخر العهد بالقصر الفرعونى، وطيبة المجيدة، ومصر الخالدة؟..

وهل يحرم عليهم غدا أن يروا مسلة أمنمحعت، ومعبد آمون، والسور ذا الأبواب المائلة؟ . . أتضيق بهم طيبة اليوم، وتفتح أبوابها غدا لأبو فيس يعتلى عرشها ويتحكم فى الرقاب؟! . . كيف يغدو الهداة ضالين، والسادة فارين، وأصحاب الدار مهاجرين؟

ورآهم كاموس لا يتحركون، فقام فى تثاقل وتمتم قائلا بصوت خافت: «هلموا نودع حجرة أبى». فقاموا قومته، وسارت الأسرة فى خطى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن، ولا كيف يلقونها مهجورة. وتقدم حور خطوة وفتح الباب، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة، وعلقت أبصارهم فى رفق وحنان بالديوان العظيم، والمقاعد الوثيرة، والمناضد الأنيقة، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيا أمام الرب آمون، فخالوه جميعا جالسا على ديوانه، متكئا على وسادته، يبتسم إليهم ابتسامته الحلوة، ويدعوهم إلى الجلوس، وأحسوا جميعا روحه تغمرهم وتطوف بهم، فحلقت أرواحهم الحزينة فى سماء الذكريات، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة، اختلطت آثارها بتنهدهم العميق ودمعهم المسيل.

ثم تنبه كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال، ولثم جبينها، وتنحى جانبا، فتقدمت توتيشيرى ومالت على الصورة الحبيبة، وقبلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الثاكل المحزون، وودعت الأسرة جميعا صورة ربها المفقود، ثم مضوا إلى الخارج فى صمت حزين كما دخلوا.

ورأى كاموس الحاجب حور فى انتظارهم، فسأله قائلا:

ـ وأنت يا حور؟

ـ إن واجبى يا مولاى أن أتبعكم كالكلب الأمين.

فوضع الملك يده على كتفه شاكرا، وتقدموا جميعا فى الردهات ذات الأعمدة، يسير بين أيديهم القائد بيبى، ويمشى كاموس فى طليعة أسرته، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونفيرتارى، فتوتيشيرى، فالملكة أحوتبى، ثم الملكة ستكيموس، ويتبع الجميع الحاجب حور. وهبطوا الأدراج إلى ممر الأعمدة، وانتهوا إلى الحديقة، فسايرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل، فبلغوا السفينة، وانتقلوا إليها واحدا إثر واحد حتى شملتهم جميعا. وحم الفراق، فألقوا نظرة الوداع، تاهت أعينهم فى الظلام المخيم على طيبة كأنه يلفها فى ثوب حداد، فتقطعت قلوبهم، وتصدعت صدورهم وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا فى الظلام ووقف بيبى بين أيديهم لا ينبس بكلمة، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين، حتى تنبه الملك لوجوده، فتنهد وقال له:

ـ أزفت ساعة الوداع.

فقال بيبى بصوت متهدج حزين، وهو يغالب عواطفه مغالبة شديدة:

ـ مولاى، وددت لو أدركنى الموت قبل أن أقف موقفى هذا، فليكن عزائى أنكم تسيرون فى سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة، وأرى أن ساعة الوداع قد أزفت حقا كما تقول يا مولاى، فسيروا يحفظكم الرب برحمته، ويكلأكم بعين رعايته، وإنى أرجو أن يمتد بى العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم، كى يسعد قلبى برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى.. الوداع يا مولاى.. الوداع يا مولاى.

ـ بل قل إلى الملتقى.

ـ نعم إلى الملتقى يا مولاى.

واقترب من مولاه وقبل يده، وكان ما يزال يغالب عواطفه كى لا يبل يدا كريمة بدمعه، وقبل يد توتيشيرى، والملكة أحوتبى، والملكة ستكيموس، وولى العهد أحمس، وشقيقته الأميرة نيفرتارى، ثم شد على يد الحاجب حور بمودة، وحنى رأسه للجميع، وغادر السفينة فى سكون وذهول.

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف فى الماء، وأخذت تبتعد عن الشاطىء على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها، وقد تجمعوا على حائطها، تودع أرواحهم الخافقة طيبة.. وأفلت منه زمام نفسه فبكى.. واستسلم للبكاء حتى انتفض جسمه. وما زال يتبع السفينة العزيزة وهى تغوص فى الظلمة حتى ابتلعها الليل.. ثم تنهد من أعماق صدره، ولبث على حاله لا يدرى كيف يبرح الشاطئ، وقد أحس وحشة كأنه هوى حيا إلى قبر عميق. ثم تحول عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطى بطيئة متثاقلة، وكان يتمتم قائلا: مولاى.. مولاى.. أين أنت؟.. أين أنتم يا سادتى؟.. يا أهل طيبة، كيف تهجعون والموت يحلق فوق رقابكم؟ هبوا.. لقد قتل سيكننرع وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام.. هبوا.. لقد خلا القصر من سادته.. وودع طيبة ملوكها.. وسيعتلى عرشكم غدا عدو لكم. كيف تنامون؟ هبوا.. إن الذل وراء الأسوار.

ثم أخذ القائد مشعلا، وسار فى ردهات القصر حزينا واجما يتنقل من جناح إلى جناح، فوجد نفسه أمام بهو العرش، واتجه نحوه واجتاز عتبته وهو يقول: «معذرة يا مولاى عن دخولى دون إذن». وتقدم بخطى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفى المقاعد التى كانت تعقد عليها الأمور وتبرم، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة، وجثا على ركبته، ثم سجد وقبل الأرض بين يديه، ثم وقف أمامه حزينا، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشا، وقال بصوت جهير:

ـ حقا لقد انطوت صفحة جميلة خالدة، وسنكون نحن الموتى غدا أسعد أهل هذا

الوادى الذى لم يعرف الليل أبدا، أيها العرش . . يحزننى أن أبلغك أن صاحبك لن يعود إليك، وأن وريثك مضى إلى بلد بعيد، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحى الكلمات التى تشقى مصر غدا، فلن يجلس عليك أبو فيس، ولتطو كما انطوى سيدك .

وكان بيبى قد اعتزم أن يدعو جنودا من حرس القصر، ليحملوا العرش إلى حيث يريد .

١٣

وحمل الجنود العرش كما أمروا، ووضعوه على عربة كبيرة . وتقدمهم القائد إلى معبد آمون، وهناك حملوا العرش مرة أخرى، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدس . وفى المثوى المقدس، قريبا من قدس الأقداس، رأوا الهودج الفرعونى محاطا بالجنود والكهنة، فوضعوا العرش إلى جانبه، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئا . وأمر بيبى الجنود بالانصراف، وطلب حضور الكاهن الأكبر، وغاب الكاهن زمنا يسيرا، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذى قدر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعا ومد يده للقائد وهو يقول بصوته الهادىء :

- طاب مساؤك أيها القائد .

فقال بيبى بلهجة دلت على الاهتمام والجزع :

- وطابت لياليك يا صاحب القداسة . . هل تأذن لى بالانفراد بقداستك؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعا على تطلعهم وقلقهم حتى خلا المكان . وتنبه الكاهن الأكبر للهودج والعربة، فبدا الانزعاج على وجهه، وقال للقائد :

- ما الذى أتى بالعربة إلى هنا؟ . . وما هذا الهودج؟ . . وكيف تركت الميدان فى هذه الساعة من الليل؟

فقال بيبى :

- أصغ إلى يا صاحب القداسة، فما من فائدة ترجى من التأنى، أو من تهوين شأن ما نحن فيه، ولكن ينبغى الإصغاء إلى حتى النهاية لأفضى إلى قداستكم بما عندى، وأمضى إلى واجبى : لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد، مصحوبة بالألم والفخار معا، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر، وقتل مليكنا وهو يدافع عن وطنه،

ومزقت الأيدى الغادرة جثته الطاهرة، واضطرت أسرتنا الملكية إلى هجر طيبة، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرا لملوكهم ولا لمجدهم.

مهلا يا صاحب القداسة مهلا.. لقد انتصف الليل أو كاد، وواجبى يهيب بى أن أعجل. إن هذا الهودج يحمل جثة مليكنا سيكننرع وتاجه، وإليك عرشه. هذا تراثنا القومى أعهد به إليك يا كاهن آمون. لكى تحفظ الجثة وتودعها مكانا أمينا، وتحفظ هذه المخلفات فى مستقر حريز.. والآن أستودعك الرب يا كاهن طيبة، التى لن تموت وإن أثخنتها الجراح.

وكان الكاهن قد هم أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه، ولكن القائد لم يمكنه، فصمت صمتًا ثقيلا، وجمد جمودا مطلقا، فكأنه فقد حواسه جميعا. وأدرك بيبى ما يعانيه الرجل من الذهول والألم، فقال:

- إنى أستودعك الرب يا صاحب القداسة، مطمئنا إلى أنك ستقوم بواجبك كاملا نحو المخلفات العزيزة المقدسة.

وتحول القائد عنه إلى الهودج. وانحنى إجلالا حتى لثم غطاءه، وأدى له التحية العسكرية، ثم تقهقر إلى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه، حتى بلغ السلم المؤدى إلى بهو الأعمدة، فأدار ظهره وسار مسرعا لا يلوى على شىء إلى خارج المعبد، وشعر بأنه قد آن له أن يلحق بضباطه وجنوده، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدهم.

على أن استغراقه فى واجباته لم ينسه أمرا ما تخايل لذاكرته حتى أحس له غمزا على قلبه لا يسكن، ذكر أسرته، إبانا زوجه وابنه الصغير أحمس، وأهله جميعا الذين تضمهم مزرعته فى ضواحى طيبة. ما أطول السفر.. إنه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته فى الليل، ولو فعل ما استطاع أن يفى بعهده لجنوده ولظنوه هاربا. فسيلقى حتفه دون أن يلقى نظرة وداع على وجه إبانا وأحمس.. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا، وكان يتساءل محزونا: هل يترك الرعاة صاحب أرض فى أرضه، أو صاحب مال لماله؟ سيشرد السادة غدا أو يقتلون فى ديارهم، وستغدو إبانا وأحمس بلا نصير.. وضاق الرجل، ونازعه قلبه طويلا إلى بيته وآله، ولكن قلبه كان فى سبيل، وإرادته الحديدية فى سبيل سواه.. وتنهد آسفا وهو يقول: «فلأكتب لها كتابا». وبسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيدة إبانا يقرئها السلام ويستودعها الرب، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة، ثم قص عليها ما وقع من أحداث، وما صار إليه الجيش ومليكه. وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول - ولم يذكر النوبة لحكمة يريدها - ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله، وتفر وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج

طيبة، أو إلى الأحياء الفقيرة، حيث يختلطون بعامة الشعب ويشاركونهم مصائرهم. ثم باركها وبارك ابنه، وختم كتابه بقوله: «سنلتقى حتما يا إبانا هنا أو فى العالم السفلى». وأعطى الكتاب سائقه، وكلفه أن يذهب به إلى قصره الريفى ويسلمه إلى زوجه، ثم قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة فى الظلام، وهتف من صميم قلبه: «رباه.. احفظ بلدك.. الوداع يا طيبة..».

ثم أرخى العنان لجواديه، فانطلقا به يعدوان فى طريق الشمال.

١٤

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل، وكان الجيش الجريح نائما، فمضى إلى خيمته وارتمى على سريره فى إعياء وهو يقول: «فلنستجم قليلا لنموت ميتة تليق بقائد قوات سيكننرع». وأغمض جفنيه. ولكن بعض أخيلة قامت غشاء كثيفا بين رأسه وبين النوم، فتخايلت له أشباح الأهوال التى ابتلى بها فى نهاره وليله، فرأى الرعاة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل، ومولاه سيكننرع يسقط صريعا والرمح فى جانبه، وكاموس يثور غاضبا، ثم يسلم محزونا، وتوتيشيرى تئن من جرح قلبها العجوز، ووداع إبانا وأحمس الصغير، وتلك السحب المتلبدة التى تتجمع فى أفق الجنوب.. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج، ورقت وتهافتت بغير شعور منه، فانساب النوم إلى جفونه.

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير، فقام يحس نشاطا غريبا لا يتفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف، وبرح خيمته إلى الخارج، فسمع فى سكون الفجر حركة تنتفض فى أنحاء المعسكر، ورأى أشباح رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين، فاستقبلهم استقبالا حارا، وكانوا قد قاموا فى أثناء غيبته بعمل عظيم، فقال رجل منهم:

- أرسلنا الجرحى فى قوارب إلى طيبة، وكذلك المصابين إصابات خفيفة، لكى ينضموا إلى قوات الدفاع عن أسوار طيبة. وما من شك فى أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط.

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة:

- إننا - معشر أهل الجنوب - تهون علينا الحياة فى أوقات المحن، فما من رجل منا إلا نفد صبره فى انتظار المعركة الأخيرة.

وقال ثالث :

ـ ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا فى هذه البقعة المقدسة ، التى ارتوت بدماء مليكنا الزكية .

فأثنى بيبى عليهم جميل الثناء ، وقص عليهم ما وقع فى طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية ، ولكنه لم يذكر لأحد المكان الذى قصدت إليه . وقد بلغ التأثر بالضباط مبلغا عظيما ، وهتفوا لكاموس الملك ، وأحمس ولى عهده ، والأم المقدسة توتيشيرى .

وولت ظلال الظلام ، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق ، فانتظمت صفوف الجنود تأهبا لمعركة الموت ، وكان ملك الرعاة يدرك ما حل بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم ، فأراد أن يصعقهم بقوات تشل فيهم كل مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة ، ليقضى بضربة واحدة على الجيش الصغير الذى يعترض سبيله . . وحين تراءى الجمعان ، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافى ، وأطبق جيش أبو فيس على الجيش المصرى ، ودارت عجلة الموت ، وبذل المصريون كل ما فى طاقة البشرية من بسالة وبطولة ، لكنهم تساقطوا سريعا بطلا فى إثر بطل ، وداستهم أرجل الخيل بقساوة ، وبدا لعينى بيبى أن المعركة تنتهى سريعا ، ولا سيما لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط ، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلا ، والعدو يوشك أن يحيط بهم ، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام ، وجال بنظره فى جيش عدوه ، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبو فيس وكبار قواده ـ وبينهم قاتل سيكننرع بغير شك ـ فجعله هدفه ، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره . ثم أمر سائقه بالاندفاع ، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه ، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات ، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة ، ومضت تدنو من أبو فيس حتى فطن الأكثرون إلى غرضها ، فتصايحوا غضبا وخوفا ، وقاتل بيبى ومن معه قتال من جن بحب الموت . فتدلل عليهم الموت طويلا حتى شقوا الصفوف إلى جبهة أبو فيس وقواده ، وهنالك وجد بيبى نفسه محاطا بفرسان العدو من كل جانب ، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك ، فقاتل قتالا عنيفا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه ، حتى ظن عدوه أنه شىء لا يموت ، وتكالبت عليه السهام والرماح ، والسيوف والخناجر ، فسقط كما سقط سيكننرع لاحقا بحرسه البواسل ، وقد ضج الجيش من هجمته الهائلة . وكان القتال ـ فى الميدان ـ فى نهايته ، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم . فأمر أبو فيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذى انقض عليه خلال صفوفه المتراصة ! . . ونزل من عجلته وترجل دانيا منه ، حتى وقف على رأس الجثة ، وجعل يتأمل السهام المنغرسة فى كل قطعة منه كشعر القنفذ ؛ ثم هز رأسه الكبير ضاحكا ؛ وقال لمن حوله :

ـ لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا .

١٥

واستيقظت طيبة كعادتها لا تدرى عما سطر لها فى لوح الأقدار شيئا، وإذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان، فتجمع الناس حولهم، وتكاثروا بالأسئلة عليهم، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إن الجيش هزم وفرعون قتل، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانزعاج، وذاع الخبر فى المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل، ففارق الناس ديارهم، وهرعوا إلى الطرق والأسواق، وتجمعوا فى دور الحكومة ومعبد آمون ليأنسوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم. أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين. وفروا جماعات إلى الجنوب أو ا ختفوا فى ثنايا الأحياء الفقيرة.

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسى وشنهور، وأن جيوش الرعاة تتقدم نحو طيبة لضرب الحصار حولها وإجبارها على التسليم. فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون فى بهو الأعمدة بمعبد آمون، وتشاوروا فى الأمر، وكانوا جميعا يدركون خطر الحال ويحسون دنو النهاية وعبث المقاومة. ولكنهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعة، حتى ينالوا وعدا بحقن دماء الأهالى، إلا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائر الغضب، فقال لهم:

- لا تسلموا طيبة أبدا، ولنقاوم حتى نموت كمليكنا سيكننرع، إن أسوار طيبة لا تقتحم، وإذا هددت حقا فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران، ولا نترك لأبو فيس شيئا منها ينتفع به.

وكان أوسر آمون يهدر غاضبا، ويلوح بيديه كأنه يخطب، ولكن الرجال لم يتحمسوا لفكرته، وقال نوفر آمون:

- نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرد والجوع والبؤس، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفف الآلام ونحصر الدمار.

وفى أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشمالى بغير هوادة، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة، والقتلى تسقط من الجانبين. وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا إلى المقاومة، ولكن أسطول العدو هجم على الأسطول المصرى بعد أن جاءه مدد جديد، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصرى. وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة، وأنزل جنودا كثيرين فى جنوبها، فضرب حصاره الكامل حول المدينة، وهجم

عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوما عنيفا، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كل أمل فى إطالة المقاومة، وهددت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ؛ فلم ير الزعماء بدا من التسليم تفاديا من الكارثة العظمى، وأوفدوا ضابطا يعلن وقف القتال، ويستأذن فى قدوم رسول عن المدينة للتحدث فى شروط التسليم النهائية. وعاد الضابط بالموافقة، فوقف القتال فى جميع الأسوار، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولا.

وقبل الكاهن على غضاضة، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأى كسير الفؤاد، ومر فى طريقه بالفرق المختلفة متراصة الصفوف فى قوة وصلف وزهو، تخفق عليها الأعلام من كل لون. ثم وقفت العربة فترجل فى سكون، ووجد فى استقباله بعض الضباط يتقدمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية، عرفه من النظرة الأولى، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذى حل بحلوله الدمار بمملكة طيبة، ولم يغب عنه ما فى استقباله من الشماتة المقصودة. وبدا الرجل صلفا متعجرفا مزهوا، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخر عينه، وقال دون تحية:

- أرأيت أيها الكاهن إلى أى مصير انتهى بكم رأى أميركم؟.. إنكم تتحمسون كثيرا وتحسنون الكلام، ولكن لا قبل لكم بالقتال.. ولقد قضى على مملكتكم بالزوال إلى الأبد.

ولم ينتظر الحاجب كلاما فسار أمامه نحو خيمة الملك، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحى الطويلة.. ثم أذن له فدخل، ورأى فى الصدر الملك أبو فيس فى زى الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج، وكان مهيب الطلعة حاد البصر أبيض مشربا بحمرة، مسترسل اللحية جميلها، وسط هالة من قواده وحجابه ومستشاريه، فانحنى له الكاهن فى إجلال، ووقف صامتا ينتظر أمره، فقال الملك بلهجة ساخرة:

- أهلا بكاهن آمون الذى لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر.

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة، فضحك الملك ضحكة عالية وسأله بتهكم:

- أجئت تملى علينا شروطا؟

فقال نوفر آمون:

- بل جئت أيها الملك لأستمع إلى شروطك، كما ينبغى لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم، وليس لى سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما شهر سلاحه إلا ذودا عن كيانه.

فهز الملك رأسه الكبير وقال:

- يحسن بك أيها الكاهن أن تصغى إلى، إن قانون الهكسوس لا يتغير على مدى الأيام والأجيال، وهو سنة الحرب والقوة إلى الأبد. نحن بيض وأنتم سمر، ونحن سادة وأنتم فلاحون، فالعرش والحكومة والإمارة لنا، فقل لقومك: من يعمل فى أرضنا عبدا فله أجره، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاها فى غير هذه الأرض، وقل لهم: إنى أهدر دم بلد كامل إذا امتدت يد بسوء إلى أحد من رجالى. وإذا أردت أن أحقن دماء الناس - فيما عدا أسرة سيكننرع - فليأت إلى سادتكم بمفاتيح طيبة سجدا.. أما أنتم أيها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه إلى الأبد.

ولم يرد أبو فيس أن تمتد المقابلة إلى أكثر من هذا، فقام واقفا إيذانا بانتهائها، فانحنى الكاهن مرة أخرى وفارق المكان.

وشربت طيبة الكأس حتى ثمالتها، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبو فيس وسجدوا له.. وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبوفيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة.

وفى ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة، وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة، ثم احتفل بالنصر احتفالا عظيما اشتركت فيه الجيوش جميعا، وقسم الأرض والأموال بين رجاله. فصار الجنوب ملك يده أرضا ورجالا.

بعد عشرة أعوام

١

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة، فتبدت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالا. كان بحارتها نوبيين، أما قائداها - اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة - فكانا مصريين كما يدل لون بشرتهما الأسمر، وقسماتهما الواضحة. وكان أولهما شابا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره، حبته الطبيعة طولا فارعا، وقدا نحيلا دقيقا، وصدرا عريضا متينا، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق، وعيناه السوداوان بالصفاء والحسن، وأنفه المستقيم الأشم بالقوة والتناسق، فهو من الوجوه التى أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معا، يرتدى لباس التجار الأثرياء، ويلف جسمه الرشيق فى عباءة ثمينة، قدت على صورة جسمه. وكان صاحبه شيخا فى الستين، يميل إلى النحافة والقصر، بارز

الجبهة فى استواء وارتفاع، تدل جلسته على الهدوء الذى يلازم الشيخوخة غالبا، وأما نظرة عينيه فتنفذ إلى الأعماق.. وكان يبدو أن همه منصرف إلى العناية بالشاب، أكثر مما هو منصرف إلى التجارة التى تحملها السفن، فلما دنت القافلة من منطقة الحدود، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدمة السفينة، يتطلعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الحنين، ثم سأل الشاب بحماس وجزع:

- هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر؟ قل ماذا نحن فاعلون الآن؟

فقال الشيخ:

- نرسى القافلة على هذا الشاطئ، ونبعث فى قارب رسولا إلى الحدود، يبتغى لنفسه سبيلا يمهده بقطع الذهب.

- إن اعتمادنا كله على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب.. أما لو خاب ظننا.

وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح فى عينيه القلق، فقال الشيخ:

- ما دام الظن سوءا فإنه لا يخيب مع هؤلاء القوم.

وعدلت السفينة إلى الشاطىء، فتبعتها القافلة وألقت مرساتها. واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود، وكان عظيم الحماسة قوى التصميم، فلم يعترض الشيخ سبيله؛ وانتقل إلى قارب وجدف بساعديه المفتولتين مفارقا القافلة نحو الحدود، وتبعه الشيخ بعينيه وهو يقول برجاء مؤثر: «أيها الرب المعبود آمون.. هذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل؛ أن يعز سلطانك، ويرفع ذكرك، ويحرر أبناءك، فأيده يارب وانصره واحفظه».

ومضى الشاب يجدف فى قوة، وظهره إلى هدفه، يستدير لينظر وراءه كل هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين، وأحس لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة جديدة، خفق لها قلبه أيما خفقان، ثم رأى فى إحدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله، فأيقن أن حراس الحدود تنبهوا له، وجاءوا يتحققون من أمره. ودنا بقاربه من السفينة حتى سمع صوت الضابط الواقف فى مقدمها يصيح به: «كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام؟».

فصمت الشاب حتى شارف القارب السفينة، ثم حيا الضابط ذا اللحية تحية إجلال وتعظيم، وقال متبالها:

- باركك الرب ست أيها الضابط الباسل، إنى قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة.

فقطب الضابط جبينه وقال بفظاظة:

- خسئت أيها الأحمق، ألا تدرى أن هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام؟

فأبدى الشاب الجميل دهشة، وقال:

- وماذا يصنع إنسان مثلى جمع متاعا ثمينا ليتقرب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته؟ . . هلا أذنت لى بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النبيل؟

فقال الضابط بوحشية:

- بل ستعود من حيث أتيت حيا، إن لم ترغب فى أن تدفن حيث تثرثر.

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب، ورمى بها تحت قدمى الضابط قائلا:

- نحن فى بلادنا نحيى آلهتنا بتقديم الهدايا، فاقبل تحيتى ورجائى.

فتناول الضابط الحافظة وفتحها، وعبثت أنامله بقطع الذهب، فاختلجت أجفانه، وردد بصره بينها وبين الشاب بذهول. ثم هز رأسه كأنه لا يخفى حنقه على الفتى الذى ثناه عن رأيه قسرا، وقال بصوت هادىء:

- إن دخول مصر ممنوع، ولكن قد تستحق رغبتك الشريفة استثناءك من أمر ا لمنع، فاتبعنى إلى حاكم الجزيرة.

وابتهج الشاب، واتخذ مجلسه مرة أخرى فى القارب، وشد على المجداف بقوة ونشاط، وانحدر متتبعا السفينة صوب شاطىء بيجة: ورست السفينة ثم القارب، ووضع الشاب قدميه على الأرض فى حذر وإشفاق، كأنما يدوس شيئا طاهرا مقدسا. وقال له الضابط مرة أخرى: «اتبعنى». فتبعه على الأثر. وبالرغم من تشدده فى التسلط على أعصابه، أفلت زمامه وتمشت فى حواسه نشوة، وعصر قلبه حنين سماوى، فخفق قلبه خفقانا شديدا متواليا، وجعل من شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعا. إنه فى أرض مصر. مصر التى يحفظ لها أجمل الذكريات، وأفتن الصور وأبهج الآثار. إنه يود لو يترك وحيدا فيملأ صدره من نسيمها العليل، ويمرغ خديه بثراها. . إنه فى أرض مصر.

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرة «اتبعنى». فنظر فرأى قصرا جميلا يقف أمامه رجال مسلحون، فأدرك أنه أمام قصر حاكم الجزيرة. ودخل الضابط، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التى تصوب نحوه من كل جانب.

٢

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه ، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر فى مظالمهم لغير الذهب ، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضى ، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة ، وعيناه اللوزيتان الحادتان ، وأنفه البارز الأقنى كأنه شراع قارب . وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة ، ونظرة تدل على الحذر والريبة ، فانحنى الشاب بين يديه بإجلال عظيم ، وقال بأدب بالغ :

ـ ندى الرب صباحك أيها الحاكم الجليل .

وكان الضابط حدثه عن القادم الغريب الذى يرمى فى غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهاج ، ويسوق قافلة محملة بالهدايا ليتقرب بها من سادة مصر ، فرد تحيته بإشارة من يده ، وسأله بصوت غليظ أجوف :

ـ من أنت ومن أى البلاد؟

ـ أدعى يا مولاى إسفينيس ، من بلدة نباتا من بلاد النوبة .

فهز الرجل رأسه بارتياب : وقال :

ـ ولكنى أرى أنك لست نوبيا ، وإن صدق نظرى فأنت فلاح .

فخفق قلب إسفينيس لهذا الوصف الذى نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار ، وقال :

ـ صدقت فراسة مولاى ، فأنا حقا . . فلاح . من أسرة مصرية هاجرت إلى بلاد النوبة منذ أجيال ، واشتغلت بالتجارة عهدا طويلا حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة ، فانقطع رزقها .

ـ وماذا تريد؟

ـ لدى قافلة محملة بخيرات البلاد التى قدمت منها ، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر .

فعبث الحاكم بلحيته ، وحدجه بنظراته المرتابة ، وقال :

ـ أتعنى أنك تجشمت مشاق السفر ، لمحض التقرب والزلفى من سادة مصر .

ـ سيدى الحاكم الجليل ، نحن نعيش فى بلاد ملأى بالوحوش والكنوز ، الحياة فيها جد قاسية ، والجوع والجدب ينشبان أظفارهما فى الرقاب ، نجيد صياغة الذهب ،

ونضنى فى الحصول على قدح من الحبوب، فإذا تقبل سادتى هداياى، وأذنوا لى بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان، وبدلت بؤس قومى أنعما.

فضحك الحاكم ضحكة عالية، وقال:

- أرى الأحلام تطيح برأسك.. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرع؟.. ولكنك ترجو أن يكلل مسعاك بإصدار أوامر فرعونية لمصلحتك.. حسنا.. الحمقى كثيرون.. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا؟

فحنى إسفينيس رأسه إجلالا، وقال بإغراء التاجر الأريب:

- هلا تفضل مولاى بزورة قافلتى ليطلع بنفسه على نفائسها، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها؟

وتحركت لواعج النهم والجشع فى نفس الحاكم، فاستطاب الفكرة، فقال إسفينيس وهو يهم بالقيام للذهاب معه:

- سأمنحك هذا الشرف.

وتقدمه إلى السفينة الحربية، ثم إلى القافلة، وعرضت لناظريه الحلى والجواهر والحيوان العجيب، فشاهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف. وأهدى إليه إسفينيس صولجانا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرد والياقوت فتقبله بلا كلمة شكر، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطا ثمينة، وأنشأ يقول لنفسه. لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول إلى مصر؟.. ليست هذه تجارة، ولكنها هدايا تسبى العقول، وسيرحب بها فرعون بغير جدال، فإن حقق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى. أو رفض مطلبه فلا شأن لى به.. وأمامى فرصة سانحة ينبغى أن أنتهزها، إن خنزر حاكم الجنوب مغرم بكل نفيس، فلأبعث بالتاجر إليه فيذكر لى صنيعى على ما أهديت إليه من كنز، وما أتحت له من فرصة يزداد بها قربا إلى مولاه.. فإذا أراد يوما أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكما ذكرنى بلا ريب:

- وتحول نحو إسفينيس وقال:

- سأعطيك فرصة لتجرب حظك، فسر توا إلى طيبة، وهاك كتابا إلى حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك، وتسأله الشفاعة فى رجائك.

واستخف الفرح إسفينيس، فانحنى للحاكم شكرا وارتياحا.

٣

وكان أول كلمة نطق بها إسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته، أن قال للشيخ الذى يلازمه :

ـ منذ هذه الساعة لا أحمس هناك ولا حور، ولكن إسفينيس التاجر ووكيله لاتو .

فابتسم الشيخ وقال :

ـ نطقت بالحكمة أيها التاجر إسفينيس .

ونشرت القافلة شراعها، وتحركت مجاديفها، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها فى أمان وسلام . وكان إسفينيس ولاتو يقفان عند مقدم السفينة يكابدان شوقا واحدا . تكاد عيناهما تشرقان بالدمع . قال إسفينيس :

ـ بدء حسن .

فقال لاتو :

ـ نعم فلنصل للرب آمون شكرا، ونسأله أن يسدد خطانا ويكلل مسعانا بالفوز المبين .

وجثوا على سطح السفينة وصليا معا، ثم عاد إلى وقفتهما . وقال إسفينيس :

ـ إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق عهدها، فقد ظفرنا بنصف النجاح، فنعطيهم ذهبا ونأخذ رجالا .

ـ اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب . ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام؟ . . إن الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس؛ ولكنه كسلان يستخدم غيره، ويتعالى على التجارة، ولا يحتمل الحياة فى النوبة؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلا بمن يتطوع مثل التاجر إسفينيس بحمله إليه .

ومضيا معا يلقيان ببصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد الغارق فى مجرى النيل، يقلبان الطرف فى خضرة ناضرة تكتنف القرى والدساكر، تحلق فوقها الأطيار، وترعاها الثيران والبقر نشاوى؛ والفلاحون يعملون هنا وهنالك عراة لا يرفعون رءوسهم عن الأرض، فأثار منظرهم فى صدر الشاب الحب والغضب، واستعر قلبه حنانا وحنقا، فقال :

ـ انظر إلى جنود أمنمحيت، كيف يعملون عبيدا للبيض الحمقى المتعجرفين ذوى اللحى القذرة .

وتقدم المسير بالقافلة، فمرت بأمبوس وسلسليس ومجنا ونخب وترت، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة، وتساءل إسفينيس:

- أين ينبغى أن ترسو السفينة؟

فقال لاتو مبتسما:

- فى الجنوب فى طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين، وجميعهم مصريون خلص.

فأمن الشاب على قوله، ولاحت منه نظرة إلى الأمام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلق بصره بها وهى تدنو رويدا رويدا، حتى استطاع أن يتنورها؛ فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألق فى جوانبها الفن الجميل، فخال أنه رأى مثلها من قبل. ولكز لاتو فى ذراعه متمتما:

- انظــر.

فنظر الرجل وقال بسرعة:

- «رباه!». هذه سفينة فرعونية، (ثم استدرك) إنها تسير بغير حرس، فلعل راكبها أحد رجال القصر، أو أمير يطلب الخلوة.

ودنت السفينة فكادت تلتقى بالقافلة: وأثار منظر القافلة الغريب تطلع أصحابها، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوارى، تقدمتهن فى أناة كأنها شعاع من النور الساطع يغشى العيون، شقراء يعبث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية، فأيقنا أن صاحبتها أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم.

ورأياها تشير بأنملتها إلى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاها، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوارى الحسان. فالتفت إسفينيس إلى الوراء، فرأى قزما من الأقزام التى أتى بها يسير على ظهر السفينة، فأدرك سر دهشة الأميرة الجميلة. ونظر إلى لاتو مبتسما أن لاقت إحدى الهدايا ما تستحق من التقدير. ولكن لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب. ونادى النسوة نوتيا، فتقدم من حافة السفينة، وصاح موجها خطابه إلى لاتو بلهجة أمر لا يرد:

- قف أيها النوبى وألق مرساتك.

وأذعن إسفينيس للأمر، وأصدر أمره إلى القافلة بالتوقف. ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التى ظهر بسطحها القزم، وسأل النوتى إسفينيس:

- ما هذه القافلة؟

- قافلة تجارة يا سيدى.

فأشار بيده إلى القزم، وكان يفر إلى باطن السفينة، وقال :

- هل يؤذى هذا المخلوق؟

- كلا يا سيدى .

- إن صاحبة السمو الفرعونى ترغب فى مشاهدة هذا المخلوق عن كثب .

فهمس لاتو قائلا :

- هذا لقب ابنة فرعون .

أما إسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال :

- حبا وكرامة .

وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى السفينة الأخرى، وصعد إلى سطحها ليكون فى استقبال الأميرة، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهن من السفينة حتى بلغنها، فصعدن إلى السطح تتقدمهن الأميرة، فانحنى الشاب بين يديها فى إجلال ظاهر، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة، ويتظاهر بالارتباك والاضطراب، فقال بتلعثم :

- لقد أوليت قافلتى شرفا رفيعا يا صاحبة السمو .

ثم رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة، رأى وجها تجسم فيه الحسن والكبرياء، ففيه من دواعى الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة، ورأى عينين زرقاوين يتجلى فى صفائهما التعالى والإقدام. فلم تلق إلى تحيته بالا، ودارت بعينيها فى المكان تبحث دون ريب عن القزم، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب فى آذان سامعيه :

- أين ذهب المخلوق العجيب الذى كان هنا؟

فقال الشاب :

- سيكون بين يديك . .

وذهب إلى كوة تطل على باطن السفينة، ونادى قائلا :

- زولــو .

وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة، وتبعه جسمه، ثم أقبل على صاحبه، فأخذه من يده إلى حيث تقف الأميرة وجواريها وكان يسير ملقيا بصدره إلى الأمام فى خيلاء مضحكة، وبرأسه الكبير إلى الوراء، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار؛ أما لونه فشديد السواد، وأما ساقاه فمقوستان. قال له إسفينيس :

- حى مولاتك يا زولو .

فانحنى القزم حتى مسّ شعره المفلفل الأرض، فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم :

- أحيوان هو أم إنسان؟

- هو إنسان يا صاحبة السمو.

- ولماذا لا نعده حيوانا؟

- له لغته ودينه.

- يا عجبا، وهل يوجد مثله كثيرون؟

- نعم يا مولاتى، إنه ينتمى إلى شعب وافر العدد، فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة يسددونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير؛ ولكن قوم زولو يأنسون إلى الناس سريعا ويخلصون المودة لمن يصادقهم، ويتبعونه كالكلب الأمين.

فهزت رأسها المكلل بخصلات الذهب عجبا، وافتر ثغرها عن در نضيد، وتساءلت:

- وأين يعيش قوم زولو؟

- فى أقاصى غابات النوبة، حيث يرقد النيل المعبود.

- دعه يحدثنى إن استطعت.

- إنه لا يستطيع أن يتكلم لغتنا، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر، ولكنه سيحيى مولاته بلغته.

وقال إسفينيس للقزم:

- ادع لمولاتك دعاء طيبا.

فاهتزت رأس القزم الكبير كأنه يرعش، ثم نطق بكلمات غريبة بصوت أدنى إلى الخوار، فلم تملك الأميرة إلا أن تضحك ضحكة عذبة، ثم قالت:

- حقا إنه غريب، ولكنه قبيح لا يسرنى أن أقتنيه.

فبدا الأسف على وجه الشاب، وقال بلباقة التاجر الماكر:

- ليس زولو يا صاحبة السمو خير ما فى قافلتى. . إليك دررا تفتن النفوس وتسلب الألباب.

فتحولت فى استهانة عن زولو إلى المتباهى بنفائسه، وألقت عليه نظرة فاحصة لأول مرة، فهالها طوله الفارع ونضارة شبابه، وعجبت أن يكون هذا المظهر لتاجر من عامة الشعب، وسألته:

- هل لديك حقا حلى تستحق الإعجاب؟

- نعم يا مولاتى.

- إذًا أرنى عينة. . أمثلة مما عندك.

وصفق إسفينيس، جاءه عبد فألقى إليه كلمات بصوت خافت، فغاب الرجل هنيهة، ثم عاد يحمل صندوقا من العاج بمعاونة رجل آخر، فوضعاه أمام الأميرة وفتحاه، وتنحيا جانبا. ونظرت الأميرة فى داخل الصندوق، واشرأبت أعناق الجوارى، فرأت ما يسر القلب من لآلئ لامعة، وأقراط وأساور. وتفحصتها بعين واعية، ثم مدت يدها البضة الرخصة إلى عقد آية فى السذاجة والكمال، قلب من الزمرد فى سلسلة من خالص الذهب، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت:

- من أين لك بهذا الحجر النفيس؟.. ليس فى مصر نظيره؟

فقال الشاب بابتهاج:

- إنه درة كنوز النوبة.

فتمتمت قائلة:

- النوبة.. بلاد زولو.. ما أجمله!

فابتسم إسفينيس وهو ينعم النظر إلى أناملها، وقال:

- أما وقد حاز إعجاب سموك، فلا يجوز أن يرد إلى صندوقه.

فقالت فى سهولة:

- نعم.. ولكن ليس لدى ثمنه.. هل أنت ذاهب إلى طيبة؟

فقال:

- نعم يا مولاتى.

فقالت:

- ما عليك إلا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه.

فانحنى الشاب إجلالا، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق، يتبعها الجوارى. وتعلقت بها عينا الشاب حتى غيبها عنه حائط السفينة، ثم تنبه إلى نفسه، فعاد إلى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع، وقد بادره:

- ما وراءك؟

فأجمل له أقوال الأميرة، وتساءل ضاحكا:

- ترى هل هى حقا ابنة أبو فيس؟

فقال لاتو بامتعاض:

- هى الشيطانة ابنة الشيطان.

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته، وأدرك أن التى أثارت إعجابه

ابنة مذل شعبه وقاتل جده، وأنه لم يشعر فى محضرها بما هى أهل له من المقت والكراهية. وتضايق وخشى أن تكون لهجته وهو يروى قولها نمت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين، وقال لنفسه: ينبغى أن أكون أهلا للواجب الذى جئت هنا من أجله. ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق، وحاول أن يحقد على الأميرة، وأحس أنها قوة حقيقة بكل مقاومة.. لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد، ولكن.. رباه.. إنها جمال يجرى فى أعطافه السحر، ولا يسع من يبتلى برؤيته إلا أن يغمض جفنيه من قوة نوره.

وذكر فى تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتارى، بقوامها المعتدل، ووجهها الأسمر الخمرى، وعينيها السوداوين الساحرتين، فلم يزد على أن تمتم قائلا: «يا لهما من صورتين متناقضتين جميلتين».

٤

وبدا سور طيبة الجنوبى وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات، فبدا الجلال مجسما يروع الناظرين. ورنا الرجلان إلى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن، وقال لاتو:

- حياك الرب يا طيبة المجيدة.

وقال إسفينيس:

- وأخيرا يا طيبة.. بعد أعوام طوال فى المنفى.

وانعطفت السفينة نحو الشاطئ، تتبعها على الأثر سفن القافلة، وقد ضمت الشرع ورفعت المجاديف، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسمك، منه ما تزال تدب فيه الحياة، ويقف فى أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المفتولة؛ فانبعث فى نفس إسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم، وقال لرفيقه:

- عجل بنا، فنفسى مشوقة إلى محادثة أى من المصريين.

وكان الجو معتدلا لطيفا، والسماء صافية الزرقة، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشطئان والحقول والمدن، فنزلا إلى الشاطىء يلتفان فى عباءتيهما، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار. وتقدما خطوات نحو حى الصيادين، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطئ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التى ترميها الزوارق فى لجة النيل، يغنون وينشدون. وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك، ويلهبون ظهور الثيران

المشدودة إليها صوب الأسواق . وعلى مسير دقائق من الشاطئ أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من الآجر ، مسقوفة بجذوع النخيل ، يدل مظهرها على السذاجة والفقر .

وكان إسفينيس ينتقل من مكان إلى مكان ، مرهف الحواس ، مفتوح العينين ، يتفحص الصيادين ويتتبع حركاتهم ويصغى إلى أناشيدهم ، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالإعجاب والإكبار . وخالط قلبه وهو يشق جموعهم إحساس ألفة وطمأنينة ومحبة ، فتمنى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمهم إلى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر . وذكر ما حدثته به عنهم توتيشيرى ؛ فقال لصاحبه :

ـ يا لهم من رجال أشداء صابرين .

فقال لاتو ، وكان يشارك الشاب جل عواطفه :

ـ أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالا من الفلاحين . لأن الرعاة يترفعون عن النزول إلى حيهم ، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم .

وقطب الشاب غضبا وتألما ولم يتكلم ، وجدا فى السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما . ورأى إسفينيس عن كثب شابا يافعا يتجه نحوهما يحمل سلة ، وكان يرتدى وزرة قصيرة فى خاصرته ، أما بقية جسمه فعار ، وقد بدا طويلا رشيقا ووجهه حسنا ، فقال إسفينيس :

ـ انظر يا لاتو إلى هذا الشاب ، ألم يخلق ليكون فارسا فى فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه؟

واقترب الشاب منهما ، فرغب فى الحديث إليه ، وحياه بيده وقال :

ـ حياك الرب أيها الشاب . . هل تدلنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر؟

فوقف الشاب عن المسير وهم بالرد عليه ، ولكنه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه ، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار ، وولاهما ظهره ومضى . فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار ، وتبعه إسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلا :

ـ أيها الأخ ، ما الذى جعلك تزهد الرد علينا وتولينا ظهرك غاضبا؟

فصاح الشاب مزمجرا :

ـ إليك عنى يا عبد الرعاة .

وابتعد غاضبا وهو يوسع الخطى ، تاركا الشاب فى ذهول وحيرة . ولحقه لاتو وهو يقول :

ـ إنه لمجنون بلا ريب .

ـ ليس مجنونا يا لاتو . . ولكن لماذا يدعونى عبد الرعاة؟

ـ إنه لدعاء يثير الضحك .

ـ نعم . . نعم . . ولكن هبنا صنائع الرعاة ، فكيف تؤاتيه شجاعته فيتحدانا؟ . . إنه لشاب جسور حقا يا لاتو ، ويدل سلوكه معنا على أن عشرة أعوام من حكم الرعاة الخانق لم تستطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة .

واستأنفا المسير حتى جذب انتباههما ضجيج عال ، فنظرا يمنة فرأيا بناء كبيرا ذا مدخل صغير فى أعلى حائطه كوات ضيقة ، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات ، فسأل الشاب صاحبه :

ـ ما هذا البناء؟

فقال لاتو :

ـ هذه حانة .

ـ هلم نشاهدها .

فابتسم لاتو وقال :

ـ هلم .

٥

ودخلا الحانة معا ، فوجدا نفسيهما فى مكان متسع حوائطه عالية ، يتدلى من سقفه مصباح يعلوه الغبار ، وفى وسطه وضعت الدنان ، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضه ذراع ، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون . ويقف فى دائرته صاحب الحانة فيملأ الأقداح للملتفين به ، أو يرسلها مع ساق يافع إلى الجلوس فى الأركان على أرض الحان . وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا آذاه أحد الشاربين بنكتة أو دعابة انتهره بخشونة وسب وقذف . فجال الرجلان ببصرهما فى المكان ، وأراد إسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساقى ، فأخذ صاحبه من يده ، وشق بمنكبيه طريقا إلى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحدقة فيهما دهشة وإنكارا . وكان أحس شيئا من التعب ، فقال للخمار مسترسلا :

ـ أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين؟

فازداد إنكار من حوله للهجته وغرابة طلبه ، أما الخمار فرد عليه دون أن يعيره التفاتا :

ـ عفوا أيها الأمير . . إن رواد حانتى ممن يقنعون باقتعاد الغبراء .

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش، فانحنى لهما فى هزء، وقال بتلعثم الثمل:

ـ أيها السيدان، إنى أنزل لكما عن كرشى تقتعدانه.

وأدرك إسفينيس خطأه الذى أساء به إلى نفسه وإلى صاحبه، فقال يصلح منه:

ـ إننا نتقبل هديتك شاكرين، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك المعتقة بغير هذا الكرش؟

وسر السكارى بسؤال الشاب، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش:

ـ أجب يا طونا.. أجب.. كيف تشرب أقداحك إذا نزلت للسيدين عن كرشك؟

وقطب الرجل مفكرا، وهرش رأسه متحيرا وقد تدلت شفته السفلى كقطعة كبد دامية، ثم أضاءت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحل السعيد، وقال:

ـ أشرب خمرا مهضومة.

فضحك الرجال، وسر إسفينيس لإجابته، وقال له متلطفا:

ـ إنى أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم، الذى خلق ليكون زق خمر لا مقعد جلوس.

ثم نظر إسفينيس إلى الخمار وقال له:

ـ أيها الرجل الطيب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا.

وملأ الرجل الأقداح وقدمها إلى إسفينيس، فخطف طونا قدحه وأفرغه فى فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق، ثم مسح فمه بكفه، وقال لإسفينيس:

ـ أنت غنى بلا شك أيها السيد الكريم.

فقال إسفينيس مبتسما:

ـ حمدا للرب على نعمائه.

فقال طونا:

ـ ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان؟

ـ صدقت فراستك، وهل من تناقض بين أن نكون مصريين وغنيين؟

ـ نعم، إلا أن تكونا من المقربين إلى الحاكمين.

وهنا قال رجل آخر:

ـ وهؤلاء يقلدون سادتهم فلا ينزلون إلى مخالطتنا.

فتجهم وجه إسفينيس، وعاودته صورة الشاب الذى صاح به غاضبا منذ حين قائلا: «يا عبد الرعاة». ثم قال:

- نحن من مصريي النوبة ، وجئنا مصر حديثا .

وساد الصمت ، ودوت كلمة النوبة فى الآذان دويا غريبا ، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم ، فلا يقدرون على جمع شتات أفكارهم ، فنظر أحد الرجال إلى كأسى الرجلين اللذين لم يقرباهما ، وقال بلسان ثقيل :

- لماذا لا تشربان ، سقاكما الرب أطيب خمر الجنان؟

فقال لاتو :

قليلا ما نشرب ، وإذا ما شربنا فعلى مهل .

فقال طونا :

- نعم ما تفعلان ، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة؟ . . أما أنا فشقائى بمهنتى جلل ، وشقائى بأسرتى وأولادى أجل ، وشقائى بنفسى أفدح ومناى ألا أرفع القدح عن شفتى .

فصفق ثمل مسرورا بقول طونا ، وقال وهو يهز رأسه طربا :

- هذه الحانة مهجر البائسين ، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشهية وهم جياع ، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة ، ومن يهرجون فى أفراح السادة وهم جرحى قلوب ، صرعى نفوس .

فقال رجل غير هذين :

- اسمعا يا رجلى النوبة ، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه ، فيهوى فاقد الوعى ، ولأضرب لكما مثلا بنفسى ، فما من ليلة أعود إلى كوخى إلا محمولا .

وانتفض إسفينيس ، وأدرك أنه بين جماعة من مبتئسى البشر ، وسألهم :

- هل أنتم صيادون؟

فقال طونا :

- جلنا صيادون .

وهز صاحب الحانة كتفيه استهانة ، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله :

- أما أنا فخمار يا سيدى .

فقهقه طونا ، ثم أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير القامة ، نحيف القد ، دقيق الأطراف ، واسع العينين براقهما ، ثم قال :

- وإن أردت التدقيق فهذا الرجل لص .

فنظر إسفينيس إلى الرجل بغرابة ، فارتبك ، وأراد أن يطمئنه فقال :

- لا يساورك القلق يا سيدى ، فأنا لا أسرق فى هذا الحى جميعه .

وعلق طونا على قول الرجل بقوله :

ـ يعنى أنه لما كان لا يوجد فى حينا ما يستحق مشقة السرقة ، فهو يعاشرنا كأحدنا ، ويمارس فنه فى أطراف طيبة ، حيث المال موفور ، والسعادة وارفة الظلال .

وكان اللص نفسه ثملا ، فقال بلهجة الاعتذار :

ـ لست لصا يا سيدى ، ولكننى سائح يضرب الأرض ويشرق ويغرب كما تسوقه قدماه ، فإذا عثرت فى سبيلى بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة ، هديتها إلى مأوى ، وهو كوخى فى الغالب .

ـ وهل تأكلها؟

ـ معاذ الرب يا سيدى ، إن الطعام الحسن يسمم بطنى ، ولكنى أبيعها لمن يشترى .

ـ ألا تخشى الخفراء؟

ـ أخشاهم أكبر خشية يا سيدى ، لأنه غير مسموح بالسرقة فى هذا البلد لغير الأغنياء والحكام .

فأمن طونا على قول اللص قائلا :

ـ القاعدة المتبعة فى مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء ، ولكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء .

وكان يتكلم وعيناه تحدقان فى القدحين المترعين بنهم وجشع ، فغير مجرى الحديث وقال باستياء :

ـ لماذا تتركان قدحيكما فتنة للشاربين؟

فابتسم إسفينيس وقال مسترسلا :

ـ هما لك يا طونا .

فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين ، مرسلا لمن حوله نظرات وعيد ، ثم أفرغهما فى جوفه قدحا إثر قدح ، وتنهد بارتياح . وأدرك إسفينيس معنى الوعيد الذى يهدد به ، فطلب للقريبين منه جعة ونبيذا مما يشتهون ، فشرب الجميع وضجوا فرحين ، وانطلقوا فى الأحاديث والغناء والضحك . وكان الشقاء والفقر يرتسمان على وجوههم جميعا ، ولكنهم بدوا فى تلك الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حسابا للغد . واندمج إسفينيس فى جوهم جذلا مسرورا ، تعتاده الكآبة بين الحين والحين . وقضى بينهم زمنا ليس بالقصير ، حتى دخل الحانة رجل تدل هيئته على أنه منهم ، فحياهم بإيماءة وطلب قدحا من الجعة ، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدل على شىء :

ـ قبضوا على السيدة إبانا وساقوها إلى المحكمة .

ولم يعره الأكثرون التفاتا لما أذهل الشراب من عقولهم، وسأله آخرون:

ـ ولمــــه؟

ـ يقال إن ضابطا كبيرا من الرعاة اعترض سبيلها على شاطئ النيل، ورغب فى أن يضمها إلى نسائه، فقاومته ودفعته عنها.

فزمجر الكثيرون، وسأله إسفينيس:

ـ وما عسى أن تصنع بها المحكمة؟

فحدجه الرجل بنظرة إنكار، وقال:

ـ ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها، فتأمر بجلدها بالسياط، والزج بها فى السجن.

فتجهم وجه إسفينيس وامتقع، وقال للرجل:

ـ هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة؟

فقال له طونا بتلعثم:

ـ الشراب أولى بذهبك، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضابط الكبير، ويعرض نفسه لعاقبة غير مأمونة.

وسأله الرجل الذى أذاع الخبر:

ـ هل أنت غريب يا سيدى؟

فقال إسفينيس:

ـ نعم، وأرغب فى حضور هذه المحاكمة.

ـ أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت.

وفى أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه، وقال هامسا:

ـ إياك والتورط فى أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة.

فلم يجب إسفينيس، واقتفى من فوره أثر الرجل.

٦

كانت المحكمة مكتظة بذوى الحاجات وأصحاب القضايا والشهود، وامتلأت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات، وفى الصدر جلس القضاة ذوو اللحى المرسلة

والوجوه البيض، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة ثمى. فاتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين، وقال لاتو لإسفينيس همسا:

- إنهم يقلدون أنظمتنا فى ظاهرها.

وتفرسا فى الوجوه، فأدركا أن أغلب الحاضرين من الهكسوس. وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة، وأصوات الشكوى والعويل تتصاعد من العراة ذوى الأجسام النحاسية والوجوه السمر. وجاء دور السيدة المنشودة، فنادى المنادى قائلا:

- السيدة إبانا.

وتطلع الرجلان فى لهفة، فرأيا سيدة تقترب من المنصة فى خطى متزنة، يدل مظهرها على الوقار والحزن، وتتجلى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين. وتبعها رجل من الهكسوس يرتدى لباسا فخما، فانحنى للقاضى باحترام وقال:

- سيدى القاضى الجليل، أنا وكيل القائد رخ - الذى اعتدت عليه هذه المرأة - وأدعى خم، وسأنوب عن عظمته أمام القضاء.

فهز القاضى رأسه موافقا، مما أثار دهشة لاتو وإسفينيس، ثم قال:

- بماذا يتهم مولاك هذه المرأة؟

فقال الرجل بإنكار وامتعاض:

- يقول مولاى إنه التقى بهذه المرأة صباح اليوم، فرغب أن يضمها إلى جواريه، فقابلت صنيعه بالإنكار والجحود، ودفعته بوقاحة عدها اعتداء على شرفه العسكرى.

فأثار حديث الرجل ضجة بين الحاضرين واستياء، وتقاربت الرءوس فى همس واستنكار. وأشار القاضى للقوم بصولجانه، فساد السكون، ثم وجه سؤاله إلى المرأة قائلا:

- ما قولك يا امرأة.

وكانت المرأة محافظة على هدوئها، كأن اليأس من الإنصاف أكسبها أمانا من الخوف، فقالت بهدوء:

- إن قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة.

فغضب القاضى، وقال منتهرا إياها:

- حاذرى أن تقولى قولا ينال من مقام المشتكى العظيم فتضاعف جريمتك، قصى ودعى الحكم لنا.

فاحمر وجه المرأة ارتباكا، وقالت وهى ما تزال تحافظ على هدوئها :

ـ كنت أسير فى طريقى إلى حى الصيادين، فإذا عربة تعترض سبيلى وينزل منها ضابط فيدعونى إلى الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة. فارتعت وأردت أن أتحاماه، ولكنه أمسك بيدى وقال لى إنه يشرفنى بضمى إلى نسائه فقلت له إنى أرفض ما يعرضه على. ولكنه سخر منى، وقال لى إن رفض المرأة الظاهرى عين القبول.

وأشار إليها القاضى إشارة أسكتتها، وكأنما ساءه أن تأتى على تفاصيل تحرج مقام الضابط، فسألها :

ـ أجيبى هل اعتديت عليه؟

ـ كلا يا سيدى، لقد أصررت على رفضى، وحاولت التملص من يده، ولكنى لم أعتد عليه لا بيدى ولا بلسانى، ويشهد على قولى هذا جمع غفير من أهل الحى.

ـ أتعنين الصيادين؟

ـ نعم يا سيدى.

ـ هؤلاء لا تقبل شهادتهم فى هذا المكان المقدس.

فسكتت المرأة، ولاحت فى عينيها نظرة حيرة وارتباك، فسألها القاضى :

ـ أليس لديك ما تقولينه غير ذلك؟

ـ كلا يا سيدى، وأقسم أنى ما آذيته بقول أو فعل.

ـ إن المدعى عليك شخص كبير، وقائد من قواد الحرس الفرعونى، وقوله حق حتى تقيمى الدليل على نقضه.

ـ وكيف لى بنقضه، وقد رفضت المحكمة الإصغاء إلى شهودى؟

فقال القاضى بغضب :

ـ إن الصيادين لا يدخلون هذا المكان، إلا إذا سيقوا إليه متهمين.

وأعرض الرجل عنها، وعدل إلى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأى حينا، ثم اعتدل فى جلسته وقال موجها كلامه إلى السيدة إبانا :

ـ أيتها المرأة، لقد أراد بك القائد خيرا فجازيته أسوأ الجزاء، والمحكمة تخيرك بين دفع خمسين قطعة من الذهب، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد.

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدا الرضى على الوجوه جميعا، إلا واحدا صاح بصوت ثائر كأنما أفلت منه الزمام :

ـ سيدى القاضى . . هذه السيدة مظلومة بريئة . . فأطلق سراحها . . اعف عنها إنها مظلومة .

ولكن القاضى استولى عليه الغضب ، وحدج الصارخ بنظرة أسكتته ، وتوجهت إليه الأنظار من كل صوب فعرفه إسفينيس ، وقال لصاحبه دهشا :

ـ إنه الشاب الذى أغضبه حديثنا معه ، واتهمنا بأننا عبيد الرعاة .

وكان إسفينيس مغضبا متألما ، فاستدرك يقول :

ـ لن أدع هذا القاضى الأحمق يزج بهذه السيدة فى السجن .

فقال لاتو بقلق :

ـ إن مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة ، فاحذر أن ينقلب علينا عملك .

ولكنه لم يصغ إلى صاحبه ، وتريث حتى سمع القاضى يسأل المرأة قائلا :

ـ هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه؟

فقام واقفا ، وقال بصوت جميل عذب النبرات :

ـ نعم يا سيدى القاضى .

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحص الكريم الجسور الذى تقدم لإنقاذ المرأة فى آخر لحظة ، ونظرت إليه المرأة فى ذهول ، وكذلك الشاب الذى دافع عنها بالبكاء والاستعطاف . أما وكيل القائد فصوب نحوه نظرة نارية برق فيها الوعيد ، ولكن الشاب لم يبال أحدا وسار نحو منصة القضاة بقامته الطويلة الرشيقة ، ومحياه الجميل الفاتن ، وأدى الغرم المطلوب إلى المحكمة .

وتفكر القاضى مرتبكا ، وهو يسائل نفسه من أين لهذا الفلاح بالذهب؟ ومن أين له هذه الشجاعة؟ . . ولم يجد بدا مما ليس منه بد ، فأقبل على المرأة قائلا :

ـ يا امرأة . . اذهبى طليقة . . وليكن لك مما كدت تتردين فيه موعظة ودرسا .

٧

وغادروا المحكمة جميعا ، لاتو وإسفينيس والسيدة إبانا والشاب الغريب ، وفى الطريق نظرت المرأة إلى إسفينيس ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سيدى ، لقد أنقذتنى مروءتك من ظلمات السجون ، فملكت عنقى بجميل صنيعك ، وحملتنى دينا لا أستطيع الوفاء به .

وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه مغرورقتان بالدموع، وقال بصوت متهدج:

- فليعف الرب عما سلف من سوء ظنى، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا بإنقاذك أمى من غيابات السجن وآلام الجلد.

فغلب التأثر إسفينيس وقال برقة:

- لا عليكما من هذا، لقد ابتليت أيتها السيدة بظلم قبيح. والظلم وإن وقع على نفس بعينها يسىء إلى النفوس العادلة جميعا، وما فعلت إلا أن غضبت فنفست عن غضبى، فلا دين هناك ولا وفاء.

ولم يقنع هذا القول السيدة إبانا، فظلت على تأثرها تتعثر فى ارتباكها وتقول:

- يا له من عمل نبيل.. يا له من عمل يجل عن الوصف ويعلو على المديح.

وأما ابنها فكان لا يقل عنها تأثرا، ورأى إسفينيس ينظر إليه فقال كالمعتذر:

- ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة، لما يبدو عليكما من مظاهر الثراء، فإذا بكما مصريان كريمان لا أدرى من أين جئتما. وقد أقسمت ألا أفارقكما حتى تتفضلا بزورة كوخنا الصغير، لنشرب معا قدحا من الجعة احتفالا بتشرفنا بمعرفتكما، فماذا تقولان؟

وراقت الدعوة إسفينيس الذى كان يرغب فى الاختلاط ببنى جلدته، وكانت شهامة الشاب وجماله يجذبانه إليه، فقال:

- إننا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور.

وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه، ولكنها قالت:

- أرجو المعذرة لأنكما لن تجدا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع.

فقال لاتو بلباقة:

- إن فى صاحبى الكوخ غنى عن كل شىء، ومع هذا فنحن تجار متعودون شظف العيش ووعثاء الطريق.

ثم ساروا جميعا يشملهم شعور واحد بالمودة، كأنهم أصدقاء من عهد قديم وفى أثناء الطريق قال إسفينيس لابن إبانا:

- كيف ندعوك يا صاحبى؟.. أما أنا فإسفينيس، وأما صاحبى فيدعى لاتو.

فحنى الشاب رأسه إكراما، مبتسما وقال:

- ادعونى أحمس.

فخيل إلى إسفينيس كأن أحدا يناديه، ونظر إلى الشاب نظرة غريبة.

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة، وكان ساذجا كأكواخ الصيادين، يتكون من

ردهة خارجية وحجرتين صغيرتين متداخلتين، ولكنه كان على سذاجة أثاثه وفقره الواضح نظيفا حسن الترتيب. فجلس أحمس وضيفاه فى الردهة، وفتحا الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره؛ على حين ذهبت إبانا لتعد الشراب، ولبثوا هنيهة صامتين يتبادلون النظرات، ثم قال أحمس بعد تردد:

- إنه من العجب أن يجد الإنسان مصريين فى مثل مظهركما الوجيه، فكيف ترككما الرعاة تثريان ولستما من صنائعهم؟

فقال إسفينيس:

- نحن من مصريى النوبة، ودخلنا طيبة اليوم.

فصفق الشاب بيديه دهشة وسرورا، وقال:

- النوبة.. لقد فر إليها كثيرون فى أثناء غزو الرعاة لبلادنا، فهل أنتما من المهاجرين؟

وكان لاتو بطبعه شديد الحذر، فقال بسرعة قبل أن يجيب إسفينيس:

- بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة.

- وكيف استطعتما الدخول إلى مصر، وقد أغلق الرعاة الحدود؟

فأدرك الرجلان أن أحمس على حداثة سنه يعرف أشياء كثيرة، وكان إسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان، فقص عليه قصة دخولهما مصر، وفى أثناء حديثه عادت إبانا تحمل أقداح الجعة، وسمكا مشويا، فوضعت الشراب والطعام أمامهم، وجلست تصغى إلى قصة إسفينيس حتى ختمها بقوله: «إن الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويخلب ألبابهم، وسوف نمضى إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا». فقدمت لهما أقداح الجعة والسمك، وقالت:

- إذا وفقتما إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين، فلا الرعاة يرضون بالعمل فى التجارة، ولا المصريون فى حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها.

وكان لدى التاجرين ما يقولان فى ذلك، ولكنهما آثرا السكوت عليه. وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان، وأثنيا على السيدة أجمل الثناء، وأطريا مائدتها الساذجة، فتورد وجهها، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه. وبلغ منها التأثر مبلغا عظيما فقالت:

- لقد مددت إلى يدك الكريمة فى الوقت المناسب، وكم من مصريين بائسين تطحنهم رحى الظلم فى الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين.

وبدا أحمس سريع التأثر. فما كاد يسمع أمه تقول هذا القول حتى تضرج وجهه باحمرار الغضب، وقال بحدة:

ـ المصريون عبيد، يلقى إليهم بالفتات ويضربون بالسياط. أما الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملاك جميعا فمن الرعاة. السلطان اليوم للبيض ذوى اللحى القذرة، والمصريون عبيد فى الأراضى التى كانوا بالأمس أصحابها.

وكان إسفينيس يرمق أحمس فى أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح فيهما الإعجاب والعطف، على حين ظل لاتو خافضا عينيه ليخفى تأثره، وسأله إسفينيس:

ـ وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم؟

ـ نعم، ولكننا جميعا نكظم الغضب ونحتمل الإساءة، شأن الضعيف الذى لا حيلة له. وإنى لأتساءل أما لهذا الليل من آخر؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضى الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكننرع.

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة، وامتقع إسفينيس. ونظر لاتو إلى الشاب دهشا ثم سأله:

ـ كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنك؟

ـ تحفظ ذاكرتى صورا قليلة قائمة، ولكنها واضحة لا تزول، لأيام الشقاء الأولى. ولكنى أدين لأمى بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التى لا تفتأ ترددها على مسمعى.

فنظر لاتو إلى إبانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة، فأراد أن يسرى عنها فقال لها:

ـ أنت سيدة فاضلة وابنك شاب نبيل.

وقال لاتو لنفسه إن السيدة ما تزال تحاذر بالرغم من كل شىء، وكان فى نيته أن يسأل عن بعض أمور تهمه، فعدل عن هذا إلى المستقبل.. وغير الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة، فأعاد الطمأنينة إلى النفوس، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعا شعور المودة الخالصة، وحين هم التاجران بمبارحة الدار قال أحمس لإسفينيس:

ـ متى تذهب يا سيدى إلى حاكم الجنوب؟

فقال إسفينيس وهو يعجب للسؤال:

ـ ربما ذهبت غدا.

ـ لى رجـاء.

ـ ما هـو؟

ـ أن أصحبك إلى ضيعته.

فسر إسفينيس لذلك، وقال للشاب:

ـ أتعرف الطريق إليها؟

ـ حــق المعــرفة .

وحاولت إبانا الاعتراض على ابنها، ولكنه أسكتها بإشارة عصبية من يده، فابتسم إسفينيس وقال:

ـ إذا لم يكن عندك مانع، فستكون الدليل إليها .

٨

وانقضى النصف الأول من اليوم الثانى فى الإعداد لزورة الحاكم، وكان إسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها، ويعلم أن حياة آماله جميعا رهينة ببعض عواقبها، وكذلك آمال من خلفهم وراءه فى نباتا يعترك فى نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل. فشحن سفينته بصناديق التحف واللآلئ، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو، وعدد كبير من العبيد. وقبيل الأصيل وافاهما أحمس، فحياهما بفرح وقال:

ـ أنا منذ الساعة من عبيدكما .

فتأبط إسفينيس ذراعه، ومضوا ثلاثتهم إلى المقصورة. ثم أبحرت السفينة صوب الشمال فى جو رائق وريح مؤاتية، وقد صمت من فى المقصورة، واستغرق كل منهم فى تأملاته، مرسلا بناظريه إلى شاطئ طيبة. وعبرت السفينة أحياء الفقراء، وأقبلت على القصور الشم الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز، تهفو عليها الأطيار من كل نوع ولون، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة، تشقها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم، وترعاها الثيران والبقر، ويعكف عليها الفلاحون العراة الصابرون. وعلى الشاطئ أقيمت المنازف تغرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة. وكانت النسائم تعابث الأشجار حاملة فى حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران، وشذا الأزهار والرياحين، فأحس إسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج إلى الحقول محمولا على هودجه الملكى، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيونه فرحين بطفولته الطاهرة، ناثرين الورد فى طريقه السعيد.

وأيقظه صوت أحمس وهو يقول:

ـ ها هو ذا قصر الحاكم .

فتنهد إسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشاب، ونظر معهما لاتو وقد لاحت فى عينى الشيخ نظرة دهشة وإنكار.

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها، فاعترض سبيلها زورق حربى غاص بالجنود، وصاح بهم ضابط فى عنف وعجرفة:

- ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح.

فقفز إسفينيس من المقصورة، ودنا من حائط السفينة وحيا الضابط باحترام وقال:

- معى رسالة خاصة إلى صاحب العظمة حاكم الجنوب.

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية، وقال:

- أعطنيها وانتظر.

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عباءته وأعطاه للضابط. وتفحصه هذا بأناة، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة، ونادى حارسا فناوله الرسالة. فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر، وغاب زمنا يسيرا وعاد مسرعا إلى الضابط وأسر إليه كلمات، فأشار الضابط إلى إسفينيس أن يدنو بسفينته، فأمر الشاب ملاحيه بالجدف حتى رست السفينة فى مرفأ القصر، وقال له الضابط:

- إن صاحب العظمة ينتظرك، فاحمل إليه بضاعتك.

وأصدر الشاب أمره إلى النوبيين، فحملوا الصناديق وبينهم أحمس، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو. وقال لاتو للشاب وهو يودعه:

- فليكتب الرب لك التوفيق.

ولحق إسفينيس بالقافلة، يقطعون جميعا أرض الحديقة المعشوشبة فى سكون شامل.

٩

مضى التاجر لمقابلة الحاكم، فقاده خادم إلى بهو الاستقبال، وتبعه عبيده بأثقالهم، ووجد الشاب نفسه فى بهو فائق الترف عظيم الأناقة، يتجلى الفن فى أرضه وحوائطه وسقفه، وفى الصدر منه جلس الحاكم على متكأ وثير، فى جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين. وكانت ملامح وجهه الكبير قوية واضحة، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة والبسالة والصفاء. فأشار إسفينيس إلى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم. واقترب من وسط البهو خطوات، ثم انحنى إجلالا للحاكم وقال:

- حياك الرب المعبود ست أيها الحاكم الأجل .

فألقى عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع، وبدا على وجهه الارتياح لرؤيته، وسأله :

- أقادم أنت حقا من بلاد النوبة؟

- نعم يا مولاى .

- وماذا تبغى من وراء رحلتك هذه؟

- أطمع أن أهدى إلى سادة مصر تحفا مما يوجد فى بلاد النوبة، آملا أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها .

- وماذا تطلب أنت لقاء ذلك؟

- بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال .

فهز الحاكم رأسه الكبير، وقد لاحت فى عينيه نظرة ساخرة، وقال بصراحة :

- أراك حديث السن ولكنك جسور مغامر، ومن حسن طالعك أنى أحب المغامرين . . والآن أرنى ما تحمل من التحف .

ودعا إسفينيس أحمس فاقترب الشاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميه صندوقه، وفتحه التاجر فبدا ما بداخله من الياقوت صيغ حليا مختلفة أشكالها، فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والاعجاب، ومضى يقلبها بين يديه، ثم سأل الشاب قائلا :

- هل يوجد من هذه الحلى كثير فى النوبة؟

فأجاب إسفينيس بلباقة، وكان أعد الجواب من قبل أن يدخل مصر :

- إنه لمن أعجب الأمور يا مولاى أن توجد هذه الأحجار الكريمة فى أقاصى أدغال النوبة، حيث تأوى الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة .

ثم عرض على الحاكم صندوقا من الزمرد، وثانيا من المرجان، وثالثا من الذهب، ورابعا من اللؤلؤ . وتفحصها الرجل على مهل مبهورا حتى بدا فى النهاية كالثمل النشوان، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول :

- ما أجمل هذا الحيوان فى حديقة القصر .

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه : «يا له من شاب كالشيطان لا يقاوم» . وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج، وبدا زولو بخلقه الغريب، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفا، ودنا من الهودج ودار حوله وهو يتساءل :

- يا للعجب . . أحيوان هو أم إنسان؟

فقال إسفينيس مبتسما :

- بل إنسان يا مولاى من شعب جم العدد .

- هذا أعجب ما رأيت وما سمعت .

ونادى الرجل عبدا وقال له :

- ادع الأميرة أمنريدس وزوجى وأخى .

١٠

وجاء الذين دعاهم الحاكم، ورأى إسفينيس أن يخفض بصره تأدبا، ولكنه سمع صوتا رخيما زلزلت له نفسه زلزالا شديدا يقول :

- لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم؟

فاختلس نظرة إلى الداخلين، فرأى فى مقدمتهم الأميرة التى زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمردى، وكان منظرها كما عهده يغشى العيون، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد، فأيقن الشاب أن الحاكم خنزر وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة. على أنه رأى وجها آخر ليس بالجديد عليه، وهو وجه الرجل الذى تبع الأميرة وزوج الحاكم، فقد كان القاضى الذى حكم على إبانا بالأمس، وقد وضح له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك فى أن الأميرة والقاضى عرفاه كذلك، لأنهما ألقيا عليه نظرة ذات معنى. وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت، فانحنى للأميرة وقال :

- تعالى يا صاحبة السمو انظرى إلى أنفس ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها. ودار على الصناديق المحملة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو، فأقبلوا عليها فى شغف ودهشة وأعجاب. ونال القزم قسطه من الإنكار والغرابة، وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجابا، وكانت مغرمة بالجواهر غراما يضرب به المثل، فأقبلت على صناديق العاج أيما إقبال. أما القاضى فتحول إلى إسفينيس وقال له :

- كنت بالأمس أسائل نفسى عن مصدر ثروتك، وقد عرفت اليوم كل شىء.

فقلب الحاكم وجهه فيهما، وقال لشقيقه :

- ماذا تعنى أيها القاضى سنموت؟ . . هل عرفت هذا الشاب قبل الآن؟

ـ نعم يا سيدى الحاكم، رأيته بالأمس فى المحكمة، والظاهر أنه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته، فقد تبرع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلاحة متهمة بإهانة القائد رخ من السجن والجلد، فترى يا سيدى أن القائد أصيب فى يوم واحد بفلاحة تتطاول عليه وبفلاح يتحدى غضبه.

فضحكت الأميرة أمنريدس ضحكة رقيقة ساخرة، وقالت وهى تلقى نظرة على وجه الشاب:

ـ وما وجه العجب فى ذلك أيها القاضى سنموت؟.. أليس من الطبيعى أن يشمر فلاح للدفاع عن فلاحة؟

ـ الحق يا مولاتى أن الفلاحين لا يقوون على شىء، ولكنه الذهب وسحره. وقد صدق من قال إنك إذا رغبت فى أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثم اضربه بالسوط.

أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة، فقال:

ـ إن التاجر شاب جسور، وما اقتحامه حدود بلادنا إلا آية من آى شجاعته. مرحى.. مرحى.. ليته كان رجل قتال لأقاتله، فقد صدئ سيفى من طول انزوائه فى غمده.

فقالت الأميرة أمنريدس بلهجتها الساخرة:

ـ كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضى سنموت وهو يديننى؟

ـ أتقولين يدينك يا صاحبة السمو؟.. يا لها من كلمة.

وضحكت من دهشة الحاكم، وقصت عليه كيف رأت القافلة، وكيف جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل، وكانت تروى قصتها بلهجة دلت على ما تتمتع به من حرية وجسارة، وميل إلى السخرية والفكاهة، فزالت دهشة الحاكم خنزر، وقال لها مداعبا:

ـ لماذا اخترت قلبا أخضر يا صاحبة السمو؟.. فإنا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود، ولكن ما معنى القلب الأخضر؟

فقالت الأميرة ضاحكة:

ـ وجّه سؤالك إلى بائع القلب؟

وكان إسفينيس صامتا منصتا تعلوه الكآبة؛ فقال:

ـ القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان.

فقالت الأميرة:

ـ ما أشد حاجتى إلى هذا القلب، لأنى أحس أحيانا أنى قاسية حتى ليلذ لى أن أقسو على نفسى.

وكان القاضى سنموت يطيل النظر فى تلك الأثناء إلى زولو، وحاول أن يحول انتباه زوج شقيقه إليه، ولكنها أبت أن تتحول عن صناديق الأحجار الكريمة، فقال القاضى وقد تأفف من منظر القزم:

- يا له من مخلوق قبيح.

فقال إسفينيس:

- إنه من شعب من الأقزام، لا تروقهم صورتنا، ويعتقدون أن الخالق شوه ملامحها وقبح أطرافها.

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة، وقال:

- إن قولك هذا أعجب من زولو نفسه، ومن كل ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس.

وقال سنموت وهو يحدج إسفينيس بنظرة ارتياب:

- أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته، فمن المؤكد أن أولئك الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنى للحسن أو القبيح.

ورنت الأميرة أمنريدس إلى القزم كالمعتذرة، وقالت:

- هل تستقبح النظر إلى وجهى يا زولو؟

فعاد خنزر إلى قهقهته، واختلج قلب إسفينيس لما رآه من روعة حسنها وفتنة دلالها، وقد تمنى فى تلك اللحظة أن يديم إليها النظر. وساد الصمت بعد ذلك، فأدرك الشاب أنه قد آن وقت الانصراف وخشى أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذى يهمه، فقال للحاكم:

- هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع فى تحقيق آمالى فى ظل رعايتك الكريمة؟

ففكر الحاكم وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء، ثم قال:

- لقد مل قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف والنعيم، وإنهم ليترفعون بطبعهم عن التجارة، فلا سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلا بالمغامرين من أمثالك. ولكنى لا أحب أن أعطيك كلمتى الآن، فينبغى أن أحدث قبل ذلك مولاى الملك. وسأرفع إلى ذاته العليا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقنى على رأيى.

فانشرح صدر إسفينيس وقال:

- سيدى الحاكم، إنى احتفظ لمولانا فرعون بهدية نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا.

فتفرس الحاكم فى وجهه مليا، وخطرت له فكرة يتقرب بها إلى مولاه فقال:

- فى ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن

أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك، فتقدم إليه هديتك التى لا شك أنها لائقة بالمقام الأعلى . . فأخبرنى عن اسمك ومقامك .

- أدعى يا مولاى إسفينيس، وأقيم حيث ترسو قافلتى على شاطئ حى الصيادين جنوب طيبة .

- سيأتيك رسولى فى يوم قريب .

وانحنى الشاب فى إجلال عظيم، وبرح المكان يتبعه عبيده . وكانت الأميرة تنظر فى وجهه وهو يحدث الحاكم عن آماله، ويصغى إليه، وتبعته بنظرها وهو يبرح المكان، فعجبت لآى النبل والحسن البادية على وجهه وقامته، وأسفت أن يكون حظه من الدنيا التجارة وحمل الأقزام . أواه . . كم تمنت أن تجد هذه القامة فى جسم واحد من قومها الميالين إلى البدانة والقصر، ولكنها وجدتها فى جسم مصرى أسمر يتجر فى الأقزام . . وأحست أن صورة هذا الفتى الجميل تحرك عاطفة فى نفسها . . فبدت كالغاضبة، وولت الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو .

١١

وعاد إسفينيس والعبيد فى أثر مرشدهم إلى الحديقة، فتنسم نسمة من ريح طيبة هدأت من وجدانه الثائر، وتنفس تنفسة عميقة امتلأ بها صدره، وكان يعد نتيجة رحلته هذه توفيقا عظيما . ولكنه كان يفكر فى الأميرة امنريدس ويتمثل وجهها النورانى وشعرها الذهبى وشفتيها القرمزيتين، والقلب الزمردى المدلى على صدرها الناهد . . رباه! . . ينبغى أن يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظل قلبه وقلبها معا . . وقال لنفسه : إنها ربيبة النعيم والحب، تظن على غير شك أن الدنيا ما فيها رهن إشارة من أصبعها، وجسورا ضحوكا : ولكنه ضحك مترف لا يخلو من القسوة، تضاحك الحاكم وتهزأ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة عشرة، ولو رأيتها غدا على متن جواد تريش سهمًا ما حق لى العجب .

ثم نصح نفسه ألا يستسلم للتفكير فيها، ولكى يعمل بنصيحته عاود التفكير فى توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر . إنه حاكم جبار قوى عظيم الشجاعة، ولكنه طيب القلب، وربما كان عظيم الغباوة أيضا . وإن نزوعه إلى الذهب عظيم كعامة قومه، وقد هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة شكر . . ولكن هذا الجشع هو الذى فتح له أبواب مصر، وبلغ به قصر الحاكم، وسينتهى به قريبا إلى قصر فرعون . وكان أحمس يسير على مقربة منه، فسمعه يهمس

بصوت لا يكاد يسمع قائلا: «شارف» فظنه يخاطبه. فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلة أزهار ويضرب فى الحديقة بخطى واهنة، وسمع الشيخ الصوت الذى يناديه، فتلفت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمن يناديه.. ولكن أحمس تحاماه وولاه قفاه، فدهش إسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة، ولكن الفتى خفض نظره ولم ينبس بكلمة.

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو فى انتظارهم، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد. فابتسم إسفينيس وقال له:

ـ وفقنا بفضل الرب آمون.

ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف، فأقبل الشاب عليه يحدثه حديث المقابلة، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء. فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحمس متكئا على حائط السفينة ينتحب كالأطفال، فراعهما منظره، وتذكر إسفينيس ما غمض عليه من سلوكه فى الحديقة، فدنا منه يتبعه لاتو، ووضع يده على منكبه وقال له:

ـ أحمس ما الذى يبكيك؟

ولكن الفتى لم يجبه ولم يع مما قال شيئا، واستسلم للبكاء فى حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما، وأحضر إسفينيس له قدحا من الماء وقال له:

ـ ما الذى يبكيك يا أحمس؟.. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذى دعوته شارف؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء:

ـ كيف لا أعرفه؟.. كيف لا أعرفه؟

فسأله فى غرابة:

ـ من هو؟.. ولماذا تبكى هذا البكاء؟

وأخرجه الحزن عن صمته، فباح بما فى صدره قائلا:

ـ آه يا سيدى إسفينيس، إن هذا القصر الذى دخلته خادما من خدمك هو قصر والدى.

فبدت الدهشة على وجه إسفينيس، وتفرس لاتو فى وجهه باهتمام شديد، أما الشاب فاستدرك قائلا وهو فى غيبوبة الحزن الشديد:

ـ هذا القصر الذى اغتصبه الحاكم خنزر هو مهد طفولتى ومرتع صباى، وبين جدرانه العالية قضت أمى البائسة عهد الشباب والنعيم فى كنف والدى قبل أن تقع القارعة فى أرض مصر، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة.

ـ ومن كان أبوك يا أحمس؟

ـ كان أبى قائد جيش مليكنا الشهيد سيكننرع .

فقال لاتو :

ـ القائد بيبى؟ . . يا إلهى . . حقا هذا قصر القائد الباسل .

فنظر أحمس إلى لاتو بدهشة وسأله :

ـ هل كنت تعرف أبى أيها السيد لاتو؟

ـ وهل وجد فى جيلنا من يجهله؟

ـ إن قلبى يحدثنى بأنك من السادة الذين شردهم الغزو .

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد بيبى وسأله :

ـ وكيف انتهت حياة القائد الباسل؟

ـ استشهد يا سيدى فى الدفاع الأخير عن طيبة ، أما والدتى فعملت بوصيته وفرت بى فى جمع من السادة إلى حى الفقراء حيث نعيش الآن ، لقد تشتت سادة طيبة الأقدمون . وتخفى قوم منهم فى أسمال بالية وهاجروا إلى حى الصيادين ، وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول ، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم ، وخلا الجو للبيض الغرباء ذوى اللحى يمشون فى الأرض مرحا ، ويملكون كل شىء . وكان خنزر أسعد القوم حظا فزوجه الملك أخته ، ووهبه ضيعة أبى وقصره ، ونصبه حاكما على الجنوب جزاء ما اقترفت يداه الأثيمتان .

فسأله لاتو :

ـ وأى ذنب اقترفه الحاكم؟

وكان أحمس سكت عن البكاء ، فقال بلهجة تنطوى على الغضب الشديد :

ـ يده الأثيمة التى أردت مليكنا سيكننرع .

وانتفض إسفينيس كمن مسته نار حامية ، ولم يطق قعودا فانتصب واقفا متوعدا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب فى الأفئدة ، فى حين أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس ، وردد أحمس بصره بينهما فوجد أخيرا من يشاركه عواطفه المضطرمة ، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسى .

وبلغت السفينة مرفأها ، وكانت الشمس تنغمس فى النيل والشفق يخضب الأفق ، فقصدوا إلى بيت إبانا ، ووجدوا السيدة تشعل مصباحها . فلما شعرت بمقدمهم تحولت

إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب، فتقدم منها لاتو وإسفينيس وانحنيا لها فى إجلال، وقال الشيخ فى صوت رزين:

- طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم بيبى.

فغاضت الابتسامة من شفتيها، واتسعت حدقتاها دهشة وانزعاجا، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب، وأرادت الكلام فامتنع عليها، فاغرورقت عيناها بالدموع، فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه، وقال لها بحنان:

- أماه لا تخافى ولا تحزنى، وقد علمت ما أولانى هذان السيدان من الجميل، واعلمى إلى هذا أنهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذين شردهم الطغيان، نازعهما الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرة أخرى.

فسكنت نفس المرأة ومدت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص، وجلسوا جميعا متقاربين، وقال إسفينيس:

- إن فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا الباسل بيبى، الذى قضى فى الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل، و إلى ابنه الشاب المتحمس أحمس.

فقالت إبانا:

- وإنى لجد سعيدة أن تلقى إلى المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال العهد القديم، فنتذاكر معًا أيامنا الخوالى. ونشعر بحاضرنا شعورا واحدا. أما أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه، وقد دعاه أبوه تيمنا باسم أحمس حفيد مليكنا سيكننرع وابن ملكنا كاموس - وقد ولدا فى يوم واحد - طيب الرب مساءه حيثما كان.

وبسط لاتو كفيه مؤمنا على قولها، وقال بصدق وإخلاص:

- ليحفظ الرب صديقنا أحمس، وليحفظ سميه العظيم حيثما كان.

١٢

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرة إبانا، فعاشوا جميعا أسرة واحدة لا يفترقون إلا فى الثلث الأول من الليل، وعلم الرجلان أن حى الصيادين مكتظ بالسادة المختفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين، فسر لذلك الرجلان، وأرادا أن يتعرفا إلى بعض البارزين منهم، وأفضيا برغبتهما إلى أحمس بعد أن استوثقا من إخلاص القوم، ورحب الفتى برغبتهما، واختار أربعة من أقرب المقربين إلى والدته هم: سنب

وهام وكوم وديب، وأسر إليهم بحقيقة التاجرين، ودعاهم يوما إلى داره حيث وافاهم لاتو وإسفينيس. وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء، وزرة وسترة من الكتان بالية، فرحبوا جميعا بالتاجرين وتبادلوا التحيات بحرارة دلت على الصدق والمودة، قال أحمس:

- إن من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين، وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون.

وسأل هام التاجرين:

- هل أنتما من طيبة أيها السيدان؟

فقال لاتو:

- كلا يا سيدى.. ولكنا كنا يوما من ملاك أمبوس.

فقال سنب:

- وهل هاجر إلى النوبة كثيرون مثلكما؟

فقال لاتو:

- نعم يا سيدى، وفى نباتا خاصة يوجد مئات من المصريين، ومن أمبوس وسيين وهابو ومن طيبة نفسها.

فتبادل الرجال النظرات، ولم يكن يرتاب منهم أحد فى التاجرين بعدما قص عليهم أحمس ما صنع إسفينيس لأمه فى المحكمة، فتساءل هام:

- وكيف تعيشون فى نباتا أيها السيد لاتو؟

- عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم، ففى النوبة تجود الأرض بالذهب وتشح بالغلال.

- ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتد إليكم أيدى الرعاة.

- دون شك، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين.

- ألا يوجد لنا فى الجنوب قوة حربية؟

- بلى، ولكنها قوة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصرى على حفظ الأمن فى البلاد.

- وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو؟

- إن النوبيين يحبوننا ويرضون بحكمنا طائعين، ولذلك لا يلقى رؤوم أية مشقة فى حكم البلاد بقوة صغيرة لا يعتد بها، ولو شقوا عصا الطاعة ما وجدوا قوة تؤدبهم.

فلاحت الأحلام فى أعين الرجال، وكان أحمس قص عليهم كيف تمكن التاجران من

اجتياز الحدود وزيارة الحاكم، وكيف أن إسفينيس سيقدم إلى أبو فيس هدية يوم الاحتفال بعيد النصر، فتساءل هام بامتعاض :

- وما تبغى من وراء تقديم هديتك إلى أبو فيس؟

فقال إسفينيس :

- أن أثير جشعه، فيأذن لى بالاتجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب .

فسكت الرجال، وسكت إسفينيس ساعة يفكر، وبدا له أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل مشروعه، فقال باهتمام :

- أصغوا إلى أيها السادة، ليس هدفنا الذى نرمى إليه التجارة، وما ينبغى أن تكون التجارة هدف قوم قدموا إليكم فى بيت أرملة قائدنا العظيم بيبى، ولكنا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة، وأن نستعين بقوم منكم كعمال فى الظاهر فنحملكم إلى إخواننا فى الجنوب. سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب والرجال، وربما كررنا يوما بالرجال فقط .

فاستمع الجميع فى دهشة ممزوجة بفرح، وأشعت أعينهم نورا خاطفا، وصاحت إبانا قائلة :

- رباه! . . ما هذا الصوت الجميل الذى يحيى فى أنفسنا هامد الأمل!

وصاح هام قائلا :

- يا إلهى . . إن الحياة تدب فى مقبرة طيبة .

وهتف كوم :

- أيها الشاب الذى يبعث صوته القلوب الميتة، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل ولا مستقبل، يئودنا شقاء حاضرنا فلا نجد منه مهربا إلا فى تذكر الماضى المجيد والتحسر عليه، وها أنت ذا تزيح الستار عن مستقبل باهر .

فانشرح صدر إسفينيس وأفعم قلبه أملا، وقال بصوته الجميل المثير :

- لا ينفع البكاء يا أيها السادة، فإن الماضى يوغل فى القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسر عليه، وما يلبث مجده أن يصبح قريبا إذا توثبتم للعمل له. فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجارا، فإنكم فى القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض وتذل لهم الحصون، ولكن أصدقونى هل تثقون بإخوانكم جميعا؟

فقالوا فى نفس واحد :

- ثقتنا بأنفسنا .

- ألا تخشون العيون؟

ـ إن الرعاة جبابرة بغير عقول، وقد اطمأنوا بقوتهم إلى استعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون.

فصفق إسفينيس بيديه فرحا وقال:

ـ اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشروا بالأمل الجديد، واجمعوا بيننا وبينهم فى كل حين لنتبادل الرأى والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب، وإذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين، فأولى بكم الغضب.

فأمن الرجال على قوله متحمسين، وقال نايب:

ـ نحن غاضبون أيها الشاب النبيل، سيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضبا من إخوان نباتا.

وحيوا التاجرين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن، وسمع الرجلان إبانا تتنهد وتقول:

ـ رباه! . . من يدلنا على أسرة مليكنا الشهيد؟ . . وفى أى ركن من الأرض هو؟

ومضت أسابيع وكان إسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة. كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين فى بيت إبانا، وكانا يكاشفانهم بآمال المصريين المهاجرين فيبثان فى نفوسهم الأمل والحياة، ويصبان فى عزائمهم القوة والجلاد، حتى بات حى الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التى يدعو فيها إسفينيس إلى القصر الفرعونى.

وتوالت الأيام حتى كان يوم جاء حى الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو إسفينيس، ثم سلمه كتابا من الحاكم يجيز له دخول القصر الفرعونى فى ساعة سماها من يوم العيد، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور، وأشرق فى نفوسهم الأمل.

وفى ذلك المساء نامت القافلة، ولبث إسفينيس منفردا على ظهر السفينة فى هدأة وجلال الليل الساكن، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النبيل دررا ولؤلؤا لامعا متوهجا، فدخلته رقة، وأثلج صدره الرضا، وطاب لخياله أن يتردد بين الماضى القريب والحاضر الغريب. فتمثل ساعة الوداع فى نباتا، وجدته توتيشيرى تبشره بأن روح آمون أوحت إليها أن ترسله إلى مصر، وقد وقف أبوه كاموس قريبا منه يوصيه بصوته الجهورى المؤثر. وذكر أمه الملكة ستكيموس وهى تلثم جبينه، وزوجه نيفرتارى وهى تلقى عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلة. . فلاحت فى عينيه نظرة حنان كنور القمر فى صفائه وحيائه. . ونفذت قطرات من الحسن المنبث ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه. فانتعش وانتشى بخمر إلهية. ولكن طرقت مخيلته خلسة صورة من النور والبهاء، فاقشعر بدنه، وأغمض جفنيه كأنما يفر منها فرارا، وهمس لنفسه بامتعاض: «يا إلهى . . إنى أذكرها أكثر مما ينبغى . . وما ينبغى لى أن أذكرها بتاتا».

١٣

وجاء يوم العيد، فلبث إسفينيس فى السفينة نهار اليوم؛ وعند المساء لبس أجمل ما عنده من الثياب، ورجل جمته ومس طيبا، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقا من العاج. وهودجا مسدل الستائر، وساروا فى طريق القصر. وكانت طيبة ساهرة تضج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغانى، وينير القمر منها سبلا اكتظت بجماعات الجنود السكارى المنشدين، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعونى يتقدمها الخدم حاملين المشاعل، فتولت الشاب كآبة ثقيلة، وقال لنفسه محزونا: «قضى على أن أشارك القوم عيدهم الذى يحيون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكننرع». وصوب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة، وذكر قول الحكيم قاقمنا: «الجنود إذا تعودوا الشراب، وهنت سواعدهم وعافوا القتال».

ثم تابع تيار السائرين حتى شارف ميدان القصر، ولاحت لعينيه أسواره ونوافذه نورا فوق نور، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف، ونسمت على رأسه المحموم ريح عبقة عاطرة من ذكريات الصبا، وجدت قلبه حزينا ونفسه والهة. ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا.

واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزر. فنظر فيه بإمعان، ثم نادى أحد الحراس وأمره أن يقود التاجر وقافلته إلى مكان الانتظار بالحديقة. فتبعه الشاب وعرج وراءه إلى أحد ممرات الفناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس. وكان إسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى، وكأنما فارقه أمس آخر مرة. وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدى إلى الحديقة، اشتد وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر، وذكر كيف كان يلعب فى هذا الممر مع نيفرتارى، فيشد على عينيه حتى تخفى نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة، ثم يحل العصابة ويجد فى البحث عنها حتى يظفر بها. وخال فى اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين، ويسمع رجع ضحكتها الحلوة. وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتى الآن؟.. وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضى الجميل، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه.. فبلغوا الحديقة، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشاب:

- انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول.

وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان وريا الزهور، فبحثت عيناه عن الموضع الذى كان يقوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممر المعشب الذى يشق الحديقة نصفين، فوجد مكانه تمثالا جديدا لا روح فيه؛ يمثل شخصا ربعه ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين، فلم يشك فى أنه أمام أبو فيس ملك الرعاة. فأدام إليه النظر شزرا، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق، وكان كل شىء من القصر والحديقة كعهده به. ولاحت لعينيه الحجرة الصيفية على هضبة عالية، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة، فذكر أيامها السعيدة، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعا فى فصلى الصيف والربيع، فينهمك جده وأبوه فى لعب الشطرنج، وتجلس نيفرتارى بين الملكة ستكيموس وجدتها الملكة أحوتبى، أما هو فيقعد فى حجر توتيشيرى، ثم تمضى الساعات وهم فى شغل عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة. جلس إسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة، فلم يتململ ولم يجزع، حتى جاءه الرسول وسأله:

- هل أنت مستعد؟

فقام واقفا وهو يقول:

- على تمام الاستعداد يا سيدى.

فقال وهو يهم بالعودة:

- اتبعنى.

فتبعه ورجاله على الأثر، وارتقوا أدراج السلم، وقطعوا الرواق الفرعونى حتى شارفوا باب البهو الملكى، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية، ووقع الأقدام الراقصة، وسجع الموسيقى العنيف، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار، فأدرك أن القوم لا يتحرجون فى لهوهم ولا يعتدلون فى أعيادهم، وأن الملك يعفيهم من الوقار والتأدب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشية الأولى. ثم نادى باسمه أحد العبيد، وتقدم بخطى متئدة، ورأى وسط البهو خاليا، والقوم جلوسا حوله فى ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون إليه باهتمام، فدخله شىء من الارتباك، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هداياه لتعظم مآثره فى عين الملك، واستبشر بذلك خيرا. ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف، ودنا وحده من العرش وحنى هامته إجلالا، وقال بصوت الخضوع والعبودية:

- مولاى الرب المعبود، سيد النيل، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين.

فقال له الملك بصوت جهورى قوى النبرات :

ـ إنى أمنحك السلام أيها العبد .

واعتدلت قامة إسفينيس، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المتربع على عرش آبائه وأجداده، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك .

ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنه ثمل . وكانت الملكة تجلس إلى يمينه، والأميرة أمنريدس إلى شماله، وقد لحظها الشاب فرآها فى لباسها الملكى كالكوكب المتألق، وكانت تنظر إليه فى هدوء وكبرياء .

وألقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلا بصوته الغليظ :

ـ وحق الرب إن هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء .

فأحنى إسفينيس رأسه وقال :

ـ شاء الرب أن يجعله لمولى من موالى فرعون .

فقهقه الملك ضاحكا وقال :

ـ أراك تحسن القول، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا . وهى حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القوى، وحسن البيان للعبد الضعيف . ولكن لا عليك من هذا فقد قال لى صديقنا خنزر إنك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة . . أرنا هديتك .

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانبا، ثم أشار إلى رجاله فتقدم اثنان منهم بالصندوق العاجى ووضعاه أمام العرش، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجا فرعونيا مزدوجا من الذهب الخالص مرصعا بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان، ورفعه بين يديه فخطف الأبصار، وانبهر له القوم جميعا وضجوا بالدهشة والاستحسان . وأما أبو فيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين، وخلع تاجه دون شعور منه، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع، فتبدى صورة جديدة من الجلال . واغتبط الملك ولاح فى وجهه الرضا، فقال للشاب :

ـ أيها التاجر، إن هديتك حازت القبول .

فانحنى إسفينيس إجلالا، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج، ورئى الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين . وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة فى نفوس القوم جميعا، فقام أكثرهم واقفين، واشرأبت الأعناق، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيوا مولاكم فرعون، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفا، ثم اقتربوا من العرش فى خطى ثابتة وئيدة، وسجدوا بين يدى فرعون ثلاثا، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شىء . وهتف الملك قائلا :

ـ أيها التاجر، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات؟

ـ هى أناس يا مولاى تعيش قبائلها فى أقاصى النوبة الجنوبية، ولا يصدقون أن العالم يشتمل على أقوام سواهم. فإذا رأوا واحدا منا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجبين. وقد ربيت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم، وسيجدهم مولاى مثالا للطاعة والعبودية، ونوعا من التسلية والتلهية.

فهز الملك رأسه الكبير، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال:

ـ جهل من يدعى العلم كله، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا، وإنى أمنحك رضاى.

وحنى إسفينيس هامته، ثم ارتد بظهره راجعا. وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما، فقبض على ذراعه. والتفت إسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة، فرأى رجلا فى الثياب العسكرية الفخمة، جميل العثنون غليظ الشاربين منتفخ الأوداج. دل احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون فى نظرة عينيه على شدة سكره، وقد حيا مولاه وقال:

ـ إنه ليسر مولاى من غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل فى الحفلات القومية، كما تقضى به تقاليدنا المقدسة. وإنى أدخر لذات مولاى المقدسة مبارزة دموية تسر الناظرين.

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفتيه الغليظتين:

ـ ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفض عن النفوس ما ران عليها من سأم، ولكن من السعيد الذى شرفته بعداوتك أيها القائد رخ؟

فأشار القائد الثمل إلى إسفينيس وقال:

ـ هذا غريمى يا مولاى.

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء، وسأله الملك:

ـ كيف استجلب غضبك هذا التاجر النوبى؟

ـ أنقذ امرأة فلاحة ـ تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصى ـ من العقاب، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلا منها.

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة، وسأل القائد:

ـ ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحا؟

ـ أراه يا مولاى متين البنيان مفتول العضلات، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإنى أغضى عن وضاعة جنسه، مرضاة لمولاى ومشاركة فى سرور العيد.

ولكن الحاكم خنزر لم يرض عن المبارزة، وقد رمق شقيقه القاضى سنموت بنظرة

لوم، لأنه أدرك أنه هو الذى دل القائد على إسفينيس دون تقدير منه للموقف، وأشفق من أن يضيع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم:

لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيها القائد.

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله:

- إذا كان من العيب أن أقاتل فلاحا، فمن العار أن أترك عبدا يتحدانى دون أن أنزل به العقاب الذى يستحقه. . ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه.

وظن من سمع قول القائد أنه حق وعدل، وتمنوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتموا سرورهم بالعيد. وكان إسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجا، وكان يشعر بتلهف القوم على استماع كلمته، ويحس نظرة التحدى والاحتقار التى يصوبها نحوه القائد الثمل العنيد، فيغلى الدم فى عروقه. ثم يذكر نصائح توتيشيرى ولاتو، وكيف أن قتله هذا القائد الفظ قد يضيع من يديه الثمرة الدانية القطوف، ويفوت على أسرته الفرصة السانحة، فيبرد دمه وتخذله عزيمته. رباه. . لا محيد عن النكوص، ولا محيص عن الهرب، سيتهكم به القائد، وترمقه الأعين بالاحتقار، ويفارق المكان منكس الذقن كسير الفؤاد، ولكن يظفر بغرضه الأسمى. وهنا سمع القائد يقول له:

- لقد تحديتنى أيها الفلاح، فهل تستطيع مواجهتى؟

فسكت إسفينيس شاعرا بانهيار وتخاذل، وسمع صوتا يقول: «دعوا الشاب إنه لا يعرف القتال». وقال صوت آخر: «دعوا الشاب فإن الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه». فدخله الحنق، وأحس يدا توضع على كتفه وصوتا يقول له: «لست فارسا ولا عار عليك إذا اعتذرت». فنظر فرأى خنزر. فشعر بقشعريرة تسرى فى أعضائه من لمس اليد التى فتكت بجده. ولاحت منه نظرة فى تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمنريدس تنظر نحوه باهتمام، فغلبه الغضب وفقد وعيه، فقال بصوت مسموع:

- إنى أشكر القائد على نزوله لمبارزتى، وأقبل اليد التى يمدها لى.

وسرى الفرح فى النفوس، وضحك الملك وشرب كأسا أخرى، وتطلعت الرءوس من كل حدب وصوب للغريمين. وبدا الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفى والانتقام، ثم سأل إسفينيس:

- هل تضارب بالسيف؟

فحنى رأسه أن نعم، فأعطاه سيفا. ثم خلع إسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القوى يجذب الأبصار برشاقته واعتدال قامته وجمال وجهه. وأعطى

ترسا، فقبض على السيف بيمناه، ووضع الترس على يسراه، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التى أغلقت عليها أبواب المعابد.

وأذن الملك بالقتال، فشهر كل منهما سيفه. وبدأ القائد الغاضب الهجوم فسدد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنها القاضية، ولكن الشاب تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت فى الهواء، ولم يمهله القائد فوجه إلى رأسه ضربة أشد من الأولى بسرعة البرق، فتلقاها الشاب بترسه بحركة خاطفة، فتعالت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعا، وأدرك القائد أنه يقاتل رجلا يجيد الطعان، فأخذ حذره، وعاود القتال متبعا خطة جديدة، فتصاولا، واشتبكا وانفصلا، وكرا وفرا، القائد فى غضب وعنف، والشاب فى هدوء عجيب. وكان يصد هجمات عدوه بسهولة ويسر وثقة، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه اهتياجا وجنونا. وأدرك الجميع أن إسفينيس يكتفى بالدفاع ولا يكاد يهجم إلا إذا أراد بهجومه إفساد خطة أو تفويت ضربة، فتجلى فنه، وبرع على خصمه فى الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذة القتال فوارق الأجناس. فجن جنون رخ. ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا ينى ولا يتوانى، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة، فصد بترسه ما صد، وتفادى بفنه ما تفادى منه، ولبث سليما مطمئنا ذا ثقة لا حد لها، لا يغضب ولا يؤخذ، وكأنه حصن منيع. فأخذ اليأس يستولى على القائد الحانق، وشعر بدقة موقفه وشدة حرجه، وحثه اليأس على المغامرة، فرفع ذراعه بالسيف، وجمع كل ما أعطى من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام، وكان مطمئنا إلى خطة عدوه المقصورة على الدفاع. فما هو إلا أن وجه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه، وارتجفت يده، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدا، فسقط قريبا من عرش فرعون. ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده، لا يكف عن حنقه. فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه، ثم صاح به القائد:

ـ لماذا تبطئ فى الإجهاز على أيها الفلاح؟

فقال إسفينيس بهدوء:

ـ ليس لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك.

فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية، ثم دار على عقبيه وبرح البهو، وعلت ضحكة الملك طويلا حتى اضطرب لها جسمه، ثم أشار إلى إسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه إلى أحد الحجاب، واقترب من العرش وانحنى للملك، فقال له:

ـ إن قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك.. كيف تعلمت القتال؟

ـ أيها الملك المعبود، فى بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه.

فقال الملك :

- يا لها من بلاد . . وقد كنا مقاتلين أشداء رجالا ونساء حين كنا نجوب أطراف الصحراء الشمالية الباردة، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا فى ظلال الترف والنعيم، وشربنا بدل الماء الخمور، طاب لنا السلام، ورأيت واحدا من قواد جيشى ينهزم فى قتاله مع تاجر من الفلاحين .

وكان الملك يتكلم متهلل الوجه ضاحك الفم، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحية وقال :

- مولاى هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهز فرعون رأسه الثمل وقال :

- صدقت يا خنزر، كان القتال عادلا شريفا، وإنى أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

- مولاى . . إن هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدى للعرش أجل الخدمات، بأن يحمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .

فنظر الملك إلى الحاكم مليا . وذكر التاج الذى يتوج رأسه، فقال بلا تردد :

- قد أذنا له فى ذلك .

فانحنى خنزر شاكرا، وسجد إسفينيس بين يدى فرعون، ومد يده فلثم حاشية ثوبه الملكى . ثم وقف فى خشوع وهو يقاوم رغبة فى النظر إلى شمال العرش، ورجع القهقرى حتى غيبه باب البهو الكبير . وكان مسرورا مبتهجا، ولكنه كان يسائل نفسه : «ترى ماذا يقول لاتو إذا علم بقصة المبارزة؟» .

وبلغ إسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل، فوجدوا لاتو ساهرا يترقب، فأقبل على الشاب قلقا متشوقا إلى سماع أخباره، فقص عليه إسفينيس ما صادفه فى القصر من النجاح والمتاعب، فقال لاتو :

لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجاح، ولكنى أخون واجبى إذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيرا باستسلامك للغضب والكبرياء، وما كان ينبغى لك أن تعرض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب . أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك؟ . . أوَ ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك؟ . . ينبغى أن تذكر دائما أننا هنا عبيد وهم سادة، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذى وجه إلى جدك العظيم وإلى مصر جميعا الضربة القاضية . افعل هذا من أجل مصر، ومن أجل من تركناهم وراءنا فى نباتا يخشون ويرجون .

ولم يتمالك الرجل فأجهش فى البكاء، ثم مضى إلى مخدعه فصلى صلاة حارة.

وفى صباح اليوم التالى قصدا إلى كوخ السيدة إبانا كما وعدا أصحابهما من قبل، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحمس وبعض الأصدقاء، بينهم سنب وهام وديب وكوم، وكانوا جميعا قلقين متلهفين على سماع الأخبار، فقال لهما هام:

- إن قلوبنا قلقة يعذبها الخوف ويلهبها الأمل. وقد تركنا وراءنا فى الأكواخ القريبة المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية.

فابتسم إسفينيس ابتسامة حلوة، وقال:

- أبشروا يا أصدقاء، لقد أذن لنا الملك فى الاتجار بين مصر والنوبة.

فلاح البشر فى وجوههم، وتألقت أعينهم بنور الرجاء وقال لاتو بحزم:

- جاء وقت العمل فلا تضيعوا الوقت هباء، واعلموا أن الطريق طويل فينبغى أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال. لا تتوانوا عن إغراء العامة بالاشتراك فى رحلتنا، ومنوهم بالربح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود. وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعا.. هلموا جميعا فاحزموا أمتعتكم.

وانتشرت فى الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم فى جوانبها الحماسة والإيمان، وهرع الرجال المتخفون فى ثياب الصيادين إلى السفن، وشغلوا كل مكان يمكن أن يشغل من أسطحها وبطونها. ثم واجهت إسفينيس مشكلة عسيرة وهى أرحال النساء والأطفال، وشغلهن أماكن أحق بها الرجال والشبان، أو تركهن وحدهن على ما فى هذا من إيلام لهن ولذويهن. ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين، وطال الأخذ والرد، حتى انبرى أحمس بن إبانا فقال:

- أيها السيد إسفينيس، نحن فى حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجنيد هذا الجيش العظيم، وما يضيرهن أن يمكثن فى طيبة حتى نعود إليهن عودة الظافرين. وإنه لأدعى إلى حماستنا أن نقاتل وفى البلاد نساؤنا، من أن نخلفهن وراءنا فى النوبة، وإذا كان فى هذا الرأى ألم لنا، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية فى سبيل غرضنا الأسمى.

وبلغ التأثر بإبانا مبلغا عظيما فقالت:

- نعم الرأى الحكيم.. إن مكاننا هنا، وسنقاسم أهل طيبة حظهم: إن موت فموت، وإن حياة فحياة.

ولم يتردد أحد عن القبول، ورضى النساء بفراق الأزواج والأبناء، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال.

وكان إسفينيس لا يذوق الراحة فى تلك الأيام القلائل الحافلة بجلائل الأعمال والتفديات الصامتة، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين. وكان إلى هذا يعلل نفسه بالآمال، ويذكر الحاضر والمستقبل، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة فى الانتقام. وكان إلى هذا وذاك يكتم أشواقا تضطرم فى فؤاده. ويغالب لواعج الوجدان التى باتت تأكل صدره وكبده، ويضنى بما يعترك فى نفسه من أسباب البغضاء وقوى المحبة. . فلشد ما جاهد وتحمل فى الأيام القلائل، ولشد ما تجلد وتصبر.

١٤

وأذن أخيرا حاكم الجنوب لإسفينيس بالرحيل، وأعطاه جوازًا لعبور الحدود فى أى وقت يشاء. فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب، وكان إسفينيس ولاتو وأحمس بن إبانا يأخذون مجالسهم فى مقصورة السفينة الأولى وفى قلوبهم شوق وحنين، وفى عينى أحمس دموع هى آخر ما ودع به أمه. وكان إسفينيس يغرق فى أحلامه، فذكر طيبة وأهل طيبة، طيبة أعظم مدن الأرض، المدينة ذات الأبواب المائة، والمسلات التى تناطح الجوزاء، والمعابد الهائلة والقصور الشم، والسبل الطويلة والميادين العظيمة، والأسواق التى لا تهدأ ولا تسكن آناء الليل وأطراف النهار، طيبة المجيدة، طيبة آمون الذى قضى أن تغلق أبوابه دون عبادة عشرة أعوام من الأسر، طيبة التى حكمها الهمج أخيرا وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهر يمرغ وجوههم فى ثرى من كان بالأمس لهم عبدا. وتنهد الشاب من قلب مكلوم، ثم ذكر الرجال الجاثمين فى بطون سفنه يحدوهم أمل واحد، ويدفعهم إلى الأهوال حب لمصر مكين توارثوه جيلا بعد جيل. كم يعانون من ألم الفراق لمن خلفوا وراءهم بين أيدى أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال، وكأنهم جميعا هذا الفتى الباسل أحمس الذى يكظم أشواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوة. . ثم طافت بذهنه فى حشد الذكريات صورة ذات بهاء، فأطرق ليخفى عينيه عن لاتو الثاقب البصر، ولو علم الرجل فيما يفكر لغضب مرة أخرى، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أول مرة. وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها، وكيف لا تنفك تنزع إليها. وتساءل متحيرا: هل يمكن أن يجتمع الحب والكراهية لشىء واحد؟. . ولاحت فى عينيه نظرة حزينة، وقال لنفسه: مهما يكن أمرى فلن تقع عيناى عليها مرة أخرى فلا داعى للقلق، وهل وجد فى الدنيا شىء يعز على النسيان؟. وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلت على القلق:

ـ انظر إلى الشمال . . أرى قافلة قادمة على عجل .

فنظر الشابان إلى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشق عباب الماء بسرعة ، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعاين إسفينيس رجلا يقف فى مقدمة القافلة فعرفه ، وقال بقلق :

ـ هذا القائد رخ .

فامتقع وجه لاتو ، وقال وقد تزايد اضطرابه :

ـ ترى هل يبغى اللحاق بنا؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه ، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر ، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق :

ـ هل يجىء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا؟

وأدرك إسفينيس أنه لم يخلص بعد من عواقب خطئه ، وأن الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت بر الأمان والسلامة . وصوب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتى جاوزت بعض سفن قافلته . وإذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس ولم تجىء لخير بلا شك . ثم اتجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها ، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية ، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ :

ـ قف وألق مراسيك .

وغيرت السفن اتجاهها لتحاصر القافلة ، فأمر إسفينيس بحارته أن يكفوا عن التجديف وأن يلقوا المراسى ، فأذعنوا لما أمروا ، وقد تولاهم الخوف لما رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكى السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربية . واشتد القلق بإسفينيس ، وأشفق من أن ينكل القائد الحقود بقافلته فيئد أمل قومه جميعا ، وقال لرفيقه :

ـ إذا كان هذا الرجل يريد رأسى فلا بأس أن أكون أول صرعى الكفاح الجديد ، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلا أن تستأنف المسير ، دون أن تمكن للغضب من نفسك فتقضى على آمالنا جميعا .

فشد الشيخ على يده وقد اسودت الدنيا فى عينيه ، واستدرك إسفينيس قائلا بحزم :

ـ إنى أوصيك يا لاتو بما أوصيتنى به بالأمس من تجنب الغضب غير الحكيم . دعنى أدفع ثمن خطئى . ولئن تعد غدا إلى أبى فتعزيه عن موتى وتهنئه بمن حملت إليه من جنود مصر ، لخير من أن تعود بى إليه وقد خسرنا أملنا إلى الأبد .

وسمع القائد رخ يصيح به قائلا :

ـ اخرج إلى وسط السفينة أيها الفلاح .

فشد الشاب على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته :

ـ لقد أطحت بسيفى أيها العبد المفتون وأنا ثمل أترنح وهأنذا انتظرك وقلبى ثابت وساعدى غير مرتعش .

فأدرك أن القائد ذو طبيعة انتقامية ، وأنه يريد أن ينازله ليغسل العار الذى لحقه منه ، فقال له بهدوء وقد دخله شيء من الطمأنينة على قافلته :

ـ هل ترغب فى أن تعيد الكرة أيها القائد؟

فقال بقحة :

ـ نعم أيها العبد ، وسأقتلك بيدى هذه المرة شر قتلة .

فسأله إسفينيس فى هدوء :

ـ وأنا لا أخشى نزالك ، ولكن هل تعد بألا تمس قافلتى بسوء مهما تكن عاقبة المبارزة؟

فقال القائد باحتقار :

ـ سأترك القافلة احتراما لمشيئة مولاى فتسير دون جثتك .

ـ وأين تريد القتال؟

ـ على ظهر سفينتى .

فلم ينبس الشاب بكلمة ، وقفز إلى قارب وجدف بساعديه القويين حتى بلغ سفينة القائد ، ثم ارتقى السلم إلى سطحها ووقف أمام عدوه وجها لوجه . فألقى عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة ، وأشار إلى جندى من الجنود فأعطى الشاب سيفا وترسا ، وقال له القائد وهو يتحفز للقتال :

ـ لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك . ثم هجم عليه كالوحش الضارى فاشتبكا فى قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين بالسلاح ؛ وعلى مقدمة السفينة الأخرى وقف لاتو وأحمس يشاهدان المعركة ببصر زائغ . . وتتابعت ضربات القائد فصدها إسفينيس بمهارته الفائقة . ثم وجه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه فصكته بعنف بدا عليه أثره ، فانتهز الشاب الفرصة وبدأ هجومه عليه بشدة وحذق ، فاضطر القائد إلى التقهقر ، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التى يسددها له خصمه المقتدر الذى لم يهيىء له فرصة يستريح فيها أو يعاود الهجوم ، وتبدى الحنق على وجه الرجل وصر بنواجذه بغضب جنونى ، فارتمى على خصمه يائسا . ولكن الشاب تفادى منه ووجه إليه ضربة رشيقة أصابت عنقه ، فتخاذلت يداه ، وكف عن

القتال، وترنح كالثمل ثم سقط على وجهه يتخبط فى دمه . فصرخ الجنود صرخة غاضبة، وسلوا سيوفهم الطويلة وتحفزوا للانقضاض على الشاب لدى أول إشارة تصدر من الضابط الذى على رءوسهم . فأيقن إسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولا سيما أن كثيرين كانوا يسددون نحو قلبه قسيهم، فلبث يترقب مذاق الموت مستسلما وعيناه لا تفارقان القائد الطريح أمامه . وفى تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتا قريبا يصيح بغضب :

- أيها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم .

وخيل إليه أنه يعرف الصوت فانخلع قلبه فى صدره، والتفت إلى مصدر الصوت فرأى سفينة فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكئ الأميرة أمنريدس، تلوح على وجهها الجميل آى الغضب .

* * *

وأغمد الجنود سيوفهم وأدوا التحية، فحنى إسفينيس هامته إجلالا قبل أن يفيق من دهشته ويصدق حقا أنه نجا من الموت، وسألت الأميرة الضابط قائلة :

- هل قتل القائد رخ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحص عنقه، ثم وقف قائلا :

- أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السمو، ولكن به نفس يتردد .

فسألته ببرود :

- وهل كان القتال عادلا؟

- نعم يا صاحبة السمو .

فقالت الأميرة بغضب :

- كيف إذن سولت لكم نفوسكم الهم بقتل رجل أعطاه الملك الأمان؟

ولاح الارتباك فى وجه الضابط ولم ينبس بكلمة، فقالت الأميرة بلهجة آمرة :

- أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطباء القصر .

وأذعن الضابط لما أمر فترك إسفينيس حرا، فهبط الشاب إلى قاربه ووجهه إلى السفينة الفرعونية، وهو يقول لنفسه بارتياح : «كيف جاءت الأميرة فى الوقت المناسب؟» . ثم صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس، وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين، وطلب من جارية أن تستأذن له فى الدخول . . فغابت فى الداخل لحظة ثم جاءت بإذن، فدخل خافق القلب، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها فى رخاوة إلى نمرقة محشوة بالقز ووجهها يشع نورا

سنيا، فانحنى بين يديها فى إجلال صادق، ورأى وهو يعتدل واقفا عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها، فتورد وجهه. ولم يغب عنها شىء مما ينطق به وجهه وعيناه، فقالت بصوت رخيم عذب وهى تشير بأنملتها إلى العقد:

- أجئت تسألنى ثمن هذا العقد؟

فاطمأن الشاب إلى لهجتها العذبة، وسر بدعابتها وقال بإخلاص:

- بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصا على ما أوليتنى من نعمة الحياة، التى سأظل مدينا لك بها ما حييت.

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت فى ثغرها كومضة البرق، وقالت:

- نعم أنت مدين لى بحياتك. ولا تعجب إذ أقول هذا فلست ممن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك فلحقت به فى السفينة وشهدت جانبا من قتالكما، ثم تدخلت فى الوقت المناسب لإنقاذ حياتك.

فوقع هذا المن من قلبه موضع الماء من الصادى، ووجد فى نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها فى إنقاذ حياته، ما جعله ينتشى بخمر السعادة، وسألها:

- هل أطمع فى أن تصارحنى مولاتى، بما أعهده فيها من كراهية للرياء والتصنع، بالسبب الذى جعلها تجشم نفسها تعب إنقاذ حياتى؟

فقالت فى استرسال وكأنها تسخر مما ظن أنه أحرجها به:

- أن أجعلك تدين لى بحياتك.

- هو دين يسعدنى ولا يفقرنى.

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى أحس أنه على وشك أن يترنح ويقع على قدميها، وقالت:

- يا لك من مراء كذوب.. أهذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها؟..

- كلا يا مولاتى بل لسفرة لها معاد قريب..

فقالت وكأنها تحدث نفسها:

- إنى أسأل نفسى عما عسى أن يكون انتفاعى بهذا الدين؟..

ووجب قلبه، ونظر إلى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من ا لحياة التى وهبته إياها، وأحس أن ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب إليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا، ففقد لبه وهوى على قدميها..

ثم سألته وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبى على جبينها الأغر وأذنيها :

ـ هل تغيب طويلا؟

فقال وهو يتنهد :

ـ شهرا يا مولاتى .

فلاحت فى عينيها نظرة حزن وقالت :

ـ ولكنك تزمع العودة . . أليس كذلك؟

ـ نعم يا مولاتى وحق حياتى التى هى لك . . وحق هذه المقصورة المقدسة . .

فمدت إليه يدها وقالت :

ـ إلى الملتقى . .

فلثم يدها وقال :

ـ إلى الملتقى . .

* * *

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين وضمه إلى صدره ، وتعلق أحمس بعنقه ولثم جبينه ، ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان ، ووقفوا يودعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهى توغل فى الشمال وهم يوغلون فى الجنوب ، حتى ارتدت عنها الأبصار وهى كليلة .

وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأن شيئا لم يقع .

وجعل إسفينيس يعلل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوى الأجسام النحاسية ، ولكن قلبه كان ينزع به إلى المقصورة ، هل يداخل لاتو شك؟ . . إن لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كل شىء إلا حب مصر ، وهو نفسه لا يخلو من هم يساوره ولا يدرى أأخطأ أم أصاب ، ولكن مَن من بنى الإنسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدر له من قبل دون حسبان لما يجد من الأمور؟ . . فلرب قاصد إلى جبل يجد نفسه منحدرا فى واد عميق ، ولرب مزمع صيد أراش له نبلا يلقى الصيد منقضا عليه ومطارده .

١٥

واجتازت القافلة حدود مصر فى سلام ، فصلى رجالها للرب آمون صلاة جامعة حارة ، وشكروا ربهم على ما هيأ لهم من سبل النجاة ، ودعوه أن يدنى إليهم آمالهم

ويحفظ نساءهم من كل سوء. وصعدت القافلة فى النهر أياما وليالى حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى أرض الجزيرة، ووقف بينهم وإسفينيس إلى يمينه ثم قال لهم:

- أيها الإخوان، دعونى أصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم؛ ألا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكننرع إليكم، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن فى نباتا...

فلاحت الدهشة فى وجوه الرجال، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح:

- أحق أيها السيد لاتو أن أسرتنا الفرعونية فى نباتا؟

فحنى رأسه بالإيجاب مبتسما، فسأله آخرون:

- هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيرى؟

- نعم.. وستبارككم فى الغد القريب.

- ومليكنا كاموس بن سيكننرع؟

- نعم وسوف ترونه بأعينكم، وتسمعون إليه بآذانكم.

- وولى العهد أحمس؟..

فابتسم لاتو وأشار إلى إسفينيس، ثم حنى هامته قائلا:

- إليكم أيها السادة ولى عهد المملكة المصرية، حضرة صاحب السمو الفرعونى الأمير أحمس.

وتصايح كثيرون:

- التاجر إسفينيس ولى عهد مصر الأمير أحمس؟..

أما أحمس إبانا فقد سجد بين يدى الأمير وهو يبكى، فسجد الجميع وراءه، منهم من يبكى ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعا، يود رجالها لو تطير بهم طيرانا إلى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدسة توتيشيرى.. ومضت أيام وليالى، ثم لاحت فى الأفق نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة إلى مرفئها. وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر الحاكم، وتجمع حشد النوبيين على الشاطئ ليشاهدوا السفن والقادمين عليها. ونزل المصريون إلى الشاطئ يتقدمهم الأمير أحمس والحاجب حور، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم، فحيا الأمير والقادمين معه، وأبلغهم تحية الملك وأسرته، وأخبرهم أن جلالته ينتظرهم فى القصر. وهتف الرجال للملك طويلا، ثم ساروا فى جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين..

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة فى فناء قصر الحاكم، وقد غيرت تلك السنوات العشر منها ما غيرت، فترك الجد والصرامة والحزن فى نفوسهم جميعا آثارا لا تمحى أبد الدهر، وكان أكبرهم تأثرا بالدهر، الملكتان توتيشيرى وأحوتبى، فجف عود الأم المقدسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلا، وحفرت الآلام فى جبينها الوضاء تجعداتها، ولم يبق من توتيشيرى القديمة سوى بريق عينيها ونظراتها الدالة على الحكمة والصبر، وأما أحوتبى فقد جلل رأسها المشيب، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم.

ولما رأى الشعب مليكه، سجد له، ثم تقدم أحمس من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكيموس وجدته أحوتبى وتوتيشيرى، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتارى، ثم وجه خطابه إلى الملك قائلا:

ـ مولاى لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح، فإلى جلالتكم أقدم أول كتائب جيش الخلاص..

فلاح السرور فى وجه الملك، وقام واقفا ورفع الصولجان تحية لقومه، فهتفوا له طويلا، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلا رجلا، ثم قال لهم كاموس:

ـ حياكم الرب أيها الطيبيون الشجعان الذين فرق البغى بيننا وبينهم، فقضى عليهم أن يساموا الخسف، كما قضى علينا أن نذوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة. ولكن أراكم رجالا تأبون الضيم وتؤثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة فى ظل الذل، كما عهدتكم دائما وكما عهدكم أبى من قبل، فجئتم تصلون جناحى بعد أن تمزق أو كاد، وتثبتون قلبى وقد أرعشه جفاء الدهر، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلبا وأعظمنا أملا الأم توتيشيرى فى المنام، وأمرها أن تبعث بابنى أحمس إلى أرض الآباء والأجداد ليأتى بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها، فبعثت بابنى كما أمر الرب وأتى بكم، فمرحبا بكم جنود مصر وجنود كاموس، وسيأتى غدا آخرون؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى العمل؛ وليكن شعارنا الكفاح، وأملنا مصر، وإيماننا آمون..

فصاحوا جميعا كرجل واحد: «الكفاح ومصر وآمون..» ثم قامت توتيشيرى واقفة وتقدمت خطوات متوكئة على صولجانها، ثم قالت للرجال بصوت قوى سليم النبرات:

ـ يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة، تقبلوا تحيات أمكم الكبيرة، ودعونى أقدم لكم هدية صنعتها بيدى لكم لنعمل جميعا تحت ظلها.

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجانها، فاقترب من الرجال وقدم إليهم علما كبيرا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة، فلتقفته الأيدى بحماسة، ودعوا

لأمهم دعاء حارا وهتفوا لها ولطيبة المجيدة، فابتسمت توتيشيرى وأضاء وجهها نور بهيج، وقالت :

- يا أبنائى الأعزاء، أصارحكم بأنى لم أستسلم إلى اليأس أبدا، وقد أوصانا سيكننرع يوم الوداع بأن نحذر اليأس، ومازلت أدعو الرب أن يمد فى أجلى حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا والسفلى، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أملى بعد أن ضمت إلىّ سواعدكم الفتية.

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الرب، والحاجب يحييه بما عرف، ثم قدم الأمير أحمس إلى أبيه أحمس إبانا ابن القائد بيبى، فرحب به الملك وقال له :

- أرجو أن تكون لى كما كان أبوك لأبى قائدا باسلا، فعاش لواجبه ومات فى سبيله . .

ثم دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا، ثم مضوا جميعا يفكرون فى الغد القريب والغد البعيد، وباتت نباتا أول مرة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل . .

كفاح أحمس

١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية فى المهجر حياة دعة وخمول، ولكنها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد، ومدارها جميعا قلب توتيشيرى الذى لا يعرف اليأس أو الراحة. فطلبت منذ بدء قدومها إلى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصناع النوبيين والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة، فبعث الرجل برسله إلى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة، وجاءوه بالصناع والعمال. وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية، وبناء السفن وعجلات القتال، وقالت له تشجعه : «ستعمد يوما إلى الهجوم على العدو الذى اغتصب عرشك وامتلك بلادك، فينبغى إذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أبيك».

وتحولت نباتا فى أثناء السنوات العشر إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بأنواعها جميعا، ونمت ثمارها على مر الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد. ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد راهنا موفورا، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحماسة والأمل الصادق، فانخرطوا جميعا غداة وصولهم إلى نباتا فى سلك الجندية، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت إشراف ضباط الحامية المصرية، فلم تأخذهم فى التدريب هوادة، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس.

كانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول، يعاونه ولى العهد أحمس، وأبت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة إلا أن يعملن مع العاملين، فكن يثقفن السهام ويرشنها، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحربية، وكن لا يفتأن يختلطن بالجنود والصناع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجعنهم ويثبتن قلوبهم. وما كان أروع منظر الأم توتيشيرى وهى مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماسة والرجاء، وكان الرجال يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة وإقبالا، فتبتسم المرأة استبشارا، وتقول لمن حولها:

- إن السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا لم تدفعها قلوب أشد صلابة من حديدها.. انظروا إلى رجال طيبة كيف يعملون...؟... سوف ينقض الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوى اللحى القذرة والبشرة البيضاء، فيطير أفئدتهم..

والحق قد انقلب الرجال بقوة الحماسة والحب والبغضاء وحوشا ضوارى..

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية، فضاعف لها السفن، وملأها بالذهب والفضة والأقزام وغريب الحيوان، وارتأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة ليكونوا عبيدا فى الظاهر وأعوانا فى الباطن، يطعنون العدو من الخلف إذا اشتغل يوما باشتباك معهم، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور، وعمل على تحقيقها بغير تردد..

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن فى السفر، وكان الأمير أحمس ينتظر تلك الساعة بقلب أضناه الشوق وعناه الجوى، فاستأذن فى الرحيل على رأس القافلة، ولكن الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرض له من الأخطار، أبى أن يجازف بسفره مرة أخرى بغير داع، فقال له:

- أيها الأمير، إن واجبك الآن يدعوك إلى البقاء فى نباتا..

فبغت الأمير بقول أبيه الذى ألقى على الأمل المضطرم فى صدره كما يلقى الماء البارد على الجمرة المستعرة، وقال له برجاء صادق:

ـ إن رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبى..

فقال الملك:

ـ ستجد الشفاء التام يوم تدخلها غازيا على رأس جيش الخلاص..

فعاود الشاب الرجاء قائلا:

ـ أبى، طالما عللت نفسى برؤية طيبة قريبا.

فقال الملك بحزم:

ـ لن يطول انتظارنا، فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح.

وأدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة، فأشفق من إغضابه إذا عاوده الرجاء، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحس الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه، ولكنه تماسك وتجلد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرب الرجال والقلب حزين كئيب، وكان نهاره ينقضى فى العمل الشاق فلم يظفر من يومه إلا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادى فى خلوته حلو الذكريات، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية التى شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن وألطف الهوى، فيخال أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا: «إلى الملتقى». ثم يتنهد من أعماق قلبه ويقول أسيفا محزونا: أين الملتقى؟.. إنه الوداع الذى لا لقاء بعده.

على أن نباتا فى تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسى الرجل نفسه وهمه، وتقصره على الاشتغال بما هو أجل وأخطر، وكان الرجال يعملون جادين يكافحون بغير انقطاع، فإذا نسمت عليهم ريح طيبة وهزهم الشوق إلى من خلفوهم وراء أسوارها، تنهدوا حينا ثم انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشد، ومرت بهم الأيام لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل، أو أن فى الغد شيئا سوى الأمل.. ثم عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهفين مثلهم: أين مليكنا كاموس، وأين أمنا توتيشيرى، وأين أميرنا أحمس؟.. ثم ينضمون إلى المعسكر يعملون ويتدربون.

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحياه، ثم مد له يده برسالة وقال:

ـ عهد إلى أن أحمل إلى سموك هذه الرسالة..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشا:

ـ من مرسلها؟

ولكن حور لازم الصمت فى وجوم، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه، وفض الرسالة

وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتد وجيب قلبه، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هى ما يأتى :

أيها التاجر إسفينيس :

يحزننى أن أخبرك بأنى اخترت قزما من أقزامك ليعيش معى فى جناحى الخاص، وأنى عنيت به وأطعمته ألذ الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة، حتى أنس بى وأنست به، ثم افتقدته يوما فلم أجده فأمرت الجوارى أن يبحثن عنه فوجدنه قد هرب إلى أخويه فى الحديقة، فآلمنى غدره وصددت عنه، فهل لك أن تبعث إلى بقزم جديد يعرف الوفاء؟..

أمنريدس

وأحس أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه، وأن الأرض تميد تحت قدميه، ولاحت منه نظرة إلى حور فرآه ينعم النظر كأنه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه.

فتحول عنه وسار فى سبيله محزونا كسير الفؤاد، يقول لنفسه هيهات أن تدرى بما يمنعه من العودة إليها، وهيهات أن يستطيع يوما أن يبثها شجوه وعواطفه، وسترى فيه دائما القزم فاقد الوفاء.

وانطوى على آلامه لا يحس ما يستعر فى فؤاده سوى أقرب الأفئدة إليه : نيفرتارى، وقد تحيرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده، ونظرة الحزن التى تلوح فى عينيه الجميلتين كلما أرسل النظر غير قاصد شيئا.

فقالت له ذات مساء :

- لست كعهدى بك يا أحمس.

فاضطرب لملاحظتها، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسما :

- إنه التعب يا حبيبتى، ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال الرواسى؟ . .

فهزت رأسها ولم تقل شيئا، وغدا الشاب أشد حذرا . . .

على أن نباتا لم تكن لتترك إنسانا يغرق فى حزنه، لأن العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد. فكانت تدرب الرجال، وتصنع السفن والعجلات والسلاح، وترسل القوافل محملة بالذهب فتعود محملة بالرجال، ثم تردها فترتد إليها. ومضت الأيام والشهور الطوال إلى أن جاء اليوم السعيد المرتقب، فقصد الملك كاموس إلى جدته توتيشيرى وهو لا يتمالك من الفرح، ولثم جبينها وقال بصوت متهدج :

- أبشرى يا أماه، لقد تم إعداد جيش الخلاص . . .

٢

ودقت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقا ورفع الأسطول مراسيه، ودعت توتيشيرى إليها الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم :

ـ هذا يوم من الأيام السعيدة التى طال انتظارى لها، فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع إليهم أن يفكوا أسرها، ويحطموا الأغلال التى تغل أعناق مصر جميعا. وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنمحيت أو تموتوا ميتة سيكننرع. وليبارككم الرب آمون وليثبت قلوبكم . .

فقبل الرجال يدها النحيلة، وقال لها الملك كاموس وهو يودعها :

ـ سيكون شعارنا جميعا حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع، وسيموت من يموت منا أشرف ميتة، ويحيا من يبقى منا أعز حياة.

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رؤوم تودع الجيش اللجب. ودقت الطبول وعزفت الموسيقى وتحرك الجيش متبعا نظامه التقليدى. فتقدمته قوة الكشافة تحمل الأعلام، وسار الملك كاموس فى طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة، ثم تقدمت فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفا صفوفا لا يحدها البصر، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصم الآذان وتصهل جيادها كزفزفة الرياح، وتليها فرقة القسى الثقيلة بقسيها ودروعها وجعبات السهام، تتأثرها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان. وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد تهيأ الجنود عليه بكامل معداتهم من القسى والرماح والسيوف . .

وتقدمت هذه القوات على أنغام الموسيقى تستعر الحماسة فى قلوبها الفتية الغاضبة، ويلقى منظرها الراهب الرعب فى الأفئدة والنفوس، وتقطع النهار ضاربة فى الأرض وتهجع إذا ما خيم الظلام لا تكل ولا يصيبها الإعياء، مستعينة على مشاق الطريق وطول الرحلة بعزائم تزحزح الجبال، فمروا فى سبيلهم بسمنة وبون وأبسخليس وفتتزيس ونافس، وما زالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابود آخر بلدان النوبة، ونسمت على وجوههم ريح مصر الطيبة فعسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال . .

ودبر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا التدبير. وعهد إلى أحمس إبانا ـ

وكان أمهر رجال الأسطول كافة - بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر، باعتباره قافلة مما ألف الحراس اجتيازها للحدود فى العهد الأخير. وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند إسفار الصبح. وكان أحمس إبانا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التجار الفضفاضة، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله فى سلام، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكون من سفن قلائل وحامية صغيرة، فكانت خطته ترمى إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر، فيسهل عليه ضرب سيين ولما تأخذ أهبتها. وتقدمت القافلة فى خط أفقى، فلما دنت من شاطئ بيجة الجنوبى حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسى، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضباط، وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن، واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة، وانقض عليها قبل أن يأتيها مدد من البر، وألقى عليها شباكه، وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين، فى معركة صغيرة فأبادوهم فى زمن يسير. وفى أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحمس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم فى السفن، فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمنا غاليا، وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشمالية، وتنبهت حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة فجرت إلى الشاطئ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة، وأن أسطولها الصغير أسير . . .

ولم يمض إلا قليل وقت على انتهاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصرى فى الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود، ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة، وانضمت إلى أسطول أحمس إبانا، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة، مما اضطر حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيدا من مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات.

وما هى إلا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقى، تتبعها الفرق ذات اللجب، فأدرك المحاصرون فى بيجة أن القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر. ثم أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسى، وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية المحاصرة فى الوسط، وكان جنودها - إلى وقوعهم فى مركز دقيق - قد رأوا تدفق القوات المصرية فى البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم، وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى. وكان أحمس إبانا

على رأس المهاجمين، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر، ورفع عليه الأعلام المصرية، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود . .

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم، وهرعوا نساء ورجالا إلى قصر الحاكم الجديد وتجمعوا أمامه ليروا ما الخبر، تصطرع فى نفوسهم الآمال والمخاوف، فخرج إليهم أحمس إبانا، وقد تطلعوا إليه صامتين، فقال لهم :

ـ حياكم الرب آمون حامى المصريين وقاهر الرعاة .

فوقعت كلمة آمون من آذانهم موقعا جميلا ساحرا، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم :

ـ هل أتيتم حقا لإنقاذنا؟

فقال أحمس إبانا بصوت متهدج :

ـ لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا، ألا ترون هذه القوات الهائلة؟ إنها جيش الخلاص، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكننرع، الذى جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه .

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين، ثم غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له طويلا، وجثا كثيرون يصلون للرب آمون المعبود، وسأل بعض الرجال أحمس إبانا قائلين :

ـ هل انتهت عبوديتنا حقا؟ وهل نرد اليوم أحرارا كما كنا من قبل سنوات عشر؟ . . هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأننا فلاحون؟

فاهتاج أحمس إبانا غضبا وقال بحنق :

ـ ثقوا أن عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى إلى غير رجعة، وأنكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارا فى كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعى، وسترد إليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر فى غيابات السجون .

فشمل الفرح النفوس المعذبة، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء إلى آمون فى السماء، وكاموس فى الأرض . . .

٣

وفى رونق الضحى نزل الملك كاموس وولى عهده أحمس والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعا إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسيا، وخروا سجدا يقبلون الأرض بين يديه، وتعالى هتافهم لذكر سيكننرع ولتوتيشيرى وللملك وللأمير أحمس، فحياهم كاموس بيديه، وتحدث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة، وشرب وحاشيته وقواده أقداحا مترعة بنبيذ مريوط، ذهبوا جميعا إلى قصر الحاكم، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكما على الجزيرة وعهد إليه فى نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية. وفى ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سيين عند الفجر، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها . .

ونام الجيش مبكرا واستيقظ قبيل الفجر. ثم زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل، فشق الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة، والغضب يتأجج فى الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال. واقتربوا من سيين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول، وشف الأفق الشرقى عن طلائع الشمس، وأصدر كاموس أمره إلى قوات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوات من فرقتى القسى والرماح، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة، وهجمت القوات على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها، فوجهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة. تبعتها قوات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها الدماء أنهارا. واستطاع الرعاة أن يقاتلوا فى بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة. . أما الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق فى طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطئ وأنزل قوات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان، ثم اخترقت القوات الحقول صوب المدينة . .

وكانت المفاجأة عاملا فاصلا فى المعركة قصر مدتها وكثر صرعاها من الرعاة، فما ارتفعت الشمس فى الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتى رئيت جموع الغزاة وهى تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى، وشوهدت الجثث ملقاة فى السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها، وذاع فى أرجاء المدينة والحقول القريبة أن كاموس ابن سيكننرع

اقتحم سين بجيش جرار واستولى عليها، فاستعرت على الأثر ثورة دموية، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلوهم فى مخادعهم، ومثلوا بهم وضربوهم بالسياط ضربا مبرحا، فهام كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريون حين زحف أبو فيس على الجنوب بعجلاته ورجاله . . . ثم هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام المصرية وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها، فهب الأهلون يستقبلونه، وكان يوما مجيدا . .

ونقل الضباط للملك أن عددا غفيرا من الشبان - ومنهم من كانوا جنودا فى الجيش القديم - يقبلون على التطوع فى الجيش بحماسة فائقة، فسر كاموس وولى على المدينة أحد رجاله المدعو شاو، وأمره بأن ينظم المتطوعين ويدربهم لينضموا إلى الجيش جنودا متأهبين، وأحصى القواد للملك ما غنموه من العجلات والجياد، فإذا هو شيء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدموا دون توان حتى لا يدعوا للعدو مهلة للتأهب وحشد الجيوش، وقال :

- سنخوض أول معركة حقيقة فى أمبوس . .

فقال كاموس :

- نعم يا حور، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارين، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن، وسنلقى عدونا مستعدا، وربما استطاع أبو فيس أن يلقانا بقواته الغاشمة فى هيراكونوليس . . فهيا إلى المسير . . .

وزحفت القوات المصرية - البرية والنيلية - صوب الشمال فى طريق أمبوس، ودخلت فى قرى كثيرة فلم تلق مقاومة ألبتة، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة، وعلم الملك أن رجال العدو يحملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارين إلى أمبوس، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل . وجد الجيش فى المسير حتى شارف أمبوس، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرر أن العدو معسكر جنوب المدينة متأهبا للقتال، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس، فعلم كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنود عدوه، ولكن تعذر ذلك على جنود الكشف لأن العدو كان يعسكر فى سهل منبسط لا تسهل مراقبته، فقال قائد شاب يدعى محب :

- لا أظن يا مولاى أن قوة أمبوس تعدو بضعة آلاف . . .

فقال الملك كاموس :

- ائتونى بكل ضابط أو جندى من أمبوس . . .

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال :

ـ عفوا يا مولاى، لقد تغير وجه أمبوس فى عشرة الأعوام المنقضية، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل، رأيتها بعينى فى بعض رحلاتى التجارية، ومن المرجح أن الرعاة جعلوا منها مركزا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود . . .

فقال القائد محب :

ـ على أى حال يا مولاى أرى أن نهجم بقوات خفيفة، حتى لا نتكبد خسارة فادحة . . .

ولم يستحسن الأمير أحمس هذا الرأى، فقال لأبيه :

ـ مولاى أرى خلاف هذا الرأى، أرى أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم، وأن نقذف جل قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت، فنذهل القوات التى تحشد فى طيبة الآن لقتالنا، ونقاتل من الغد رجالا يرون الموت ماثلا فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا، فسيتضاعف جيشنا بما ينضم إليه من المتطوعين فى كل بلد نغزوه، ولن يجد عدونا لخسارته عوضا . .

وراق هذا الرأى الملك فقال :

ـ إن رجالى يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل طيبة . . .

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم فى كسب الموقعة، للدور الخطير الذى يلعبه فى ضرب الحصار على شواطئ المدن الغنية أو إنزال جنود فى مؤخرة العدو، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس . .

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد، ذوى بأس ومقدرة، وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة، فبدءوهم بالهجوم وهم يجهلون قوتهم، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية . وأصدر كاموس أمره بالهجوم، فاندفعت قوات من العجلات تزيد على ثلاثمائة، وأطبقت على قوة العدو فثار النقع وصهلت الخيل وعزفت القسى . ودار قتال عنيف، وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدو القضاء المبرم فاندفع بمائتى عجلة جديدة على قوات المشاة التى تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس، وتبعته قوات من فرقة القسى وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم وألقت فيها الاضطراب والفزع، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر، فتشتت شملهم بين جريح وقتيل وهارب فتلقتهم قوة المشاة المهاجمة فى كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء الأخير . وذهل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد، وانهارت قواته سريعا، وتساقط فرسانه وحطمت عجلاته، وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير

لا يصدق، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق، وضربوا بسواعد يشد أعصابها حقد مؤرث وسخيمة مستعرة . .

واقتحمت قوات مسلحة أبواب أمبوس ودخلتها عنوة لتحتل الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو، ومضى الضباط فى الميدان ينظمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى. ووقف الملك كاموس فى وسط الميدان على عجلته يحيط به القواد إلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور، وكانت الأنباء جاءته بأن أسطوله كر على سفن العدو وهجم عليها بشدة، وأنها تقهقرت أمامه دون انتظام . . فسر الملك وقال لمن حوله مبتسما :

- بدء موفق . .

فقال الأمير أحمس، وكان معفر الثياب مغبر الوجه متصبب الجبين عرقا :

- إنى أتوق لخوض معارك أشد هولا . .

فقال كاموس وهو يلقى على وجهه الجميل نظرة إعجاب :

- لن يطول انتظارك . .

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله، وسار خطى حتى صار وسط جثث الرعاة، وألقى عليها نظرة وقد انبجست الدماء منها فخضبت جلدها الأبيض ومزقتها السهام والرماح، ثم قال :

- لا تظنوا هذه الدماء دماء أعدائنا، بل هى دماء قومنا التى امتصوها وتركوهم يتضورون جوعا .

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

- لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة . .

ثم نظر إلى من حوله وقال بصوت دلت نبراته على القوة والبأس :

- ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين فى طيبة وهواريس، فإذا آزرنا النصر فيهما طهرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيت المجيد، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن هواريس؟

وتحول الملك ليرجع إلى عجلته، وفى تلك اللحظة انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسددت قوسا نحو الملك وأطلقت . . ولم يكن فى الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق، فأصاب السهم صدر الملك، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسى، وهرعوا إلى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والإشفاق، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة، ثم ترنح كالثمل وسقط بين يدى ولى عهده، وصاح الأمير :

ـ أحضروا هودجا وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدج :

ـ أبتاه . . أبتاه ألا تستطيع أن تكلمنا؟

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج ، فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية فائقة . وركع الطبيب إلى جانبه ، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره ، وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يرددون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب . وذاع الخبر فى الميدان ففشت الضوضاء ، ثم ساد صمت ثقيل كأنما لحق الفناء بذلك الجيش العرمرم . .

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة ، فتقلص وجه الملك من الألم ، فأظلمت عينا الأمير من الحزن ، وتمتم حور قائلا :

ـ رباه . . إن الملك يتألم . .

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش ، ولكن الملك لم يبد عليه أى تحسن ، وارتعشت أطرافه بصورة جلية ، ثم تنهد تنهدة عميقة ، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة ، فازداد صدر أحمس انقباضا ، وقال لنفسه شاكيا : «لشد ما تغيرت يا والدى . . » . وحرك الملك عينيه حتى استقرتا على وجه أحمس ، فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع :

ـ ظننت قبل حين أنى بالغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس . .

فصاح أحمس بصوته الحزين :

ـ فدتك نفسى يا أبتاه . .

فقال الملك بصوته الضعيف :

ـ كلا صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها . . وكن أشد حذرا منى ، واذكر دائما أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن ديارنا جميعا . .

وخشى الطبيب على الملك من الجهد الذى يبذله فى الكلام وأشار عليه بالسكوت ، ولكن الملك كان يندمج فى إحساس علوى هو الفاصل بين الفناء والخلود ، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع :

ـ قل لتوتيشيرى إنى لحقت بأبى باسلا مثله .

ومد يده لابنه ، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها إلى صدره ، وقبض الملك على منكبه حينا يودعه ، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح . .

٤

وسجى الطبيب الجثة، وسجد الرجال حولها وصلوا صلاة الوداع، ثم قاموا وكأنهم من الحزن سكارى، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلا:

- أيها الرفاق، يؤسفنى وحق الرب أن أنعى إليكم مليكنا الباسل كاموس، فقد استشهد فى ميدان الكفاح وفى سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل، وانتقل إلى جوار أوزوريس منتزعا من صميم نفوسنا، بعد أن أوصانا بألا نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو العدو عن ديارنا. وإنى بوصفى حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزيكم فى مصابنا الجلل، وآذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحمس بن كاموس بن سيكننرع حفظه الرب وأيده بالنصر المبين..

فحيا القواد جثة كاموس وانحنوا لأحمس الملك الجديد، وأذن لهم الحاجب العودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكى على الأعناق وقد غلبه الحزن، فقال وهو يجفف عينيه:

- لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام فى جوار أوزوريس، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولا على نعشك، وإنك لأكرمنا على الحالين...

ودخل الجيش أمبوس فى نظامه التقليدى يتقدمه نعش الملك كاموس. وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة. وجاءت الجموع الغفيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن. ولما رأى الناس الملك الجديد أحمس سجدوا فى سكون وخشوع، ولم يتعال فى ذلك اليوم هتاف قط.. وتسلم كهنة أمبوس الجثمان العظيم وخلا أحمس إلى نفسه فكتب رسالة إلى توتيشيرى كما أوصاه أبوه، وبعث بها مع رسول..

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول، قالوا: إن الأسطول المصرى هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته، ولكن القائد قمكاف سقط قتيلا، وأن الضابط أحمس أدار دفة المعركة بعد سقوط القائد، وحاز النصر النهائى، وقتل قائد

الرعاة بيده فى معركة عنيفة. وأراد الملك أن يكافئ أحمس إبانا، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول..

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم أمبوس، وعهد إليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها، وقال الملك لحور:

ـ سنتقدم بقواتنا سريعا، لأنه إذا كان الرعاة يعذبون قومنا فى وقت السلام فإنهم سيضاعفون لهم العذاب فى وقت الحرب. فينبغى أن نقصر عهد العذاب ما وسعنا الجهد..

واستدعى الملك الحاكم هام، وقال له أمام حاشيته وقواده:

ـ اعلم أننى آليت على نفسى منذ اليوم الذى سعيت فيه إلى أرض مصر فى ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين؛ فليكن هذا شعارك فى حكم هذا البلد؛ وليكن رائدك أن تطهره من البيض، فلن يحكم بعد اليوم إلا مصرى، ولن يملك إلا مصرى، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه فى استثمارها، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه فى الصالح العام، والمصريون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله، ولا عبد فى هذا البلد إلا الرعاة... وأوصيك أخيرا بجثة أبى فأد إليها واجبها المقدس..

٥

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر، وأبحر الأسطول، ومضت الطلائع تدخل القرى، فاستقبل فيها أحر استقبال وأجمله حتى شارفوا أبولبتو بوليس مجنا، فتأهبوا لخوض معركة جديدة. ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام. وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مؤاتية فلا تجد أثرا لسفن العدو. فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشفية إلى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا فى كمين، وبات الجيش والأسطول فى أبولبتو بوليس مجنا، وفارقاها مع الفجر، وكان الملك وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بهما رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد، وسأل الملك حور:

ـ ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس؟

فقال الحاجب:

ـ بلى يا مولاى، وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها، وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين.

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدو، وأن المعركة تدور بقوة وعنف. فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل، وقال حور:

ـ إن الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل..

فصمت الملك ولم يجب، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقه ومعداته، فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير، وتمثلت له أسرته وهى تتلقى نبأ مقتل كاموس، وكيف تفزع أمه ستكيموس وتنفجع جدته أحوتبى وتئن الأم الصابرة توتيشيرى وتبكى زوجه نيفرتاى التى أصبحت ملكة مصر.. رباه.. لقد سقط كاموس غدرا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات. ثم سرى خياله إلى الأمام، إلى طيبة حيث يملك أبو فيس ويعانى الشعب ألوان العذاب والذل، وذكر خنزر الحاكم الهائل الباسل الذى لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلا، ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس وذكر المقصورة التى أصلاهما الهوى فيها نارا مقدسة، وتساءل: أما تزال تتعلق بالتاجر الجميل إسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده؟

وهنا سعل حور فذكره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق إلى أمنريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها، فأراد أن يطرد الفكر: فألقى ببصره على جيشه العرمرم الذى ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته، فسرى عنه وعاد إلى التفكير فى المعركة الدائرة فى النيل.. وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون: إن الأسطولين مشتبكان فى قتال عنيف، وإن القتلى تسقط بكثرة من الجانبين، وإن القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهن بنتيجة المعركة. فلاح العبوس فى وجه الملك ولم يخف قلقه، فقال حور:

ـ لا داعى للقلق يا مولاى فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل.

فقال أحمس:

ـ إذا خسرناها خسرنا نصف الحرب.

فقال حور بيقين:

ـ وإذا كسبناها يا مولاى كما أتوقع كسبنا الحرب كلها.

وأمسى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف للراحة

والاستعداد، على أنه ما كاد يمكث وقتا قصيرا حتى جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو، فقال أحمس:

ـ إن الرعاة مستريحون، ولا شك أنهم يرحبون بالاشتباك معنا الآن.

وأمر الملك بإرسال قوة من العجلات لتؤيد قوات الاستطلاع إذا هاجمتها قوات تفوقها عددا، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة فى أى وقت كان..

وكان أحمس يحس التبعة الخطيرة التى يتحملها بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته، وشعر بأنه حامى هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد، فقال لحور:

ـ ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة.

فقال الحاجب:

ـ هذا ما سيحاوله كلا الجيشين. وإذا حطمنا عجلات العدو وسيطرنا على الميدان، أصبح جيشه تحت رحمة قسينا..

وفى تلك الساعة وأحمس يتأهب لخوض غمار المعركة، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة، فرأى أحمس إبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها، وأن القتال مستمر على أشده. فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم، ولم يجد مهلة للتفكير إذ أخبر أن جيش العدو بدأ هجومه. فحيا حور والحاشية وتقدم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم؛ فهجم الجيش فى قلب وجناحين اندفعوا صفوفا متراصة فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالا. وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضا كالريح العاصفة فى جموع كثيفة من العجلات، فعلموا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية التى طالما سامتهم الخسف، فثار الغضب فى نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد: «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع». وألقوا بأنفسهم فى المعركة بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام، فقاتل الفريقان بقوة وقسوة ووحشية. وخضبت الأرض بالدماء. واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسى. واستمر القتال قاسيا عنيفا حتى مالت الشمس نحو الأفق وذابت فى بحيرة من دماء. وحلقت فى الفضاء أشباح الظلام، فكف الجيشان ورجع كل إلى معسكره، وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه الذى دافع عنه فى أثناء كره وفره، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم:

ـ كان قتالا عنيفا كلفنا أبطالا بواسل..

ثم تساءل الملك:

ـ ألم تجد أخباراً عن معركة النيل؟

فقال الحاجب:

ـ ما يزال الأسطولان يعتركان . .

ـ أما من جديد عن أسطولنا؟

فقال حور :

ـ قاتل فى أثناء النهار وهو يرتد ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلالم فلم تستطع انفصالا حين خيم الظلام ، والقتال ما يزال مستمرا وإنا لفى انتظار ما يجد من الأخبار .

فتجهم وجه الملك التعب ، وقال لمن حوله :

ـ لندع الرب جميعا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على متن النيل .

٦

واستيقظ الجيش من طلوع الفجر وأخذ فى الاستعداد والتأهب ، وجاءت العيون بأنباء مهمة فقالوا : إن الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقرر بعض من جازفوا بالتوغل فى الحقول المحيطة بميدان القتال أن قوات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفق على هيراكونبوليس طوال الليل وأن تدفقها إلى ما قبيل طلوع الفجر . وتفكر حور مليا ثم قال :

ـ إن العدو يا مولاى يجمع لنا جل قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ، ولا أعجب لذلك لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدمنا سوى أسوار طيبة المجيدة . .

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل ، فعلم الملك أن أسطوله قاتل قتال المستيئس فلم يتمكن منه عدوه كما اشتهى ، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوته . وكف الأسطولان عن القتال ساعات ثم اشتبكا فى عراك جديد بعيد مطلع الفجر ، وكان أسطول أحمس إبانا البادئ بالهجوم ، فانشرح صدر الملك وتوثب للقتال بقلب جذل . .

وحين سفور الصبح تقدم الجيشان للقتال ، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة : حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع . ثم قدموا بأنفسهم فى معترك الموت لا يلوون على شىء ، فالتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتد عليهم ، وقاتلوا بالقسى والرماح والسيوف . ولاحظ الملك أحمس بالرغم من اشتداد القتال أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة ، فعاين القائد البارع فإذا به غير حاكم هيراكونبوليس ، وإذا به الملك أبو فيس

نفسه الذى أهدى إليه التاج المرصع بالجواهر فى قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد فتحفز أحمس لهجمات شديدة، وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرسه يرد عنه هجمات العدو، فلم يلق فارسا من القوم إلا جندله فى غمضة عين، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلب عليه. وطال أمد القتال، واندفعت إلى الميدان قوات جديدة من الجانبين، فاستمر القتال على عنفه وشدته حتى أوشك النهار أن يزول. وفى تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضت قوة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس، وضغطته ضغطا شديدا لم تفد معه المقاومة المنهوكة القوى، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوة المحاربة أو للهجوم على المشاة؛ فأدرك أحمس أن ذاك القائد ذا البأس تحين فى تعبهم فرصة مناسبة، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية. وخشى أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة، أو يوقع مذبحة فى مشاته؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوته ليضيق عليه، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر. ولم يتردد لأن الموقف كان خطيرا دقيقا، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائية قوية، واشتد القتال إلى درجة مروعة مفزعة، واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد. وحينذاك أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر، ولكن القائد كان داهية بارعا؛ فعدل خطته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة إلى جيشه. وفى أثناء هذه العملية الدقيقة استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزر حاكم الجنوب الجبار ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية؛ وقد كلفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات. وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم، وكان أحمس يقول متوعدا غاضبا: «لابد أن نلتقى يا خنزر وجها لوجه...» واستقبله رجاله بالدعاء. ووجد بينهم شخصا جديدا هو أحمس إبانا، فتفاءل من وجوده فى المعسكر وسأله:

- ماذا وراءك أيها القائد؟

فقال أحمس إبانا:

- النصر يا مولاى، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه، وفرت سفن لا تغنى ولا تعين.

فتهلل وجه الملك، ووضع يده على منكب القائد وقال:

- لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب، وإننى بك جد فخور. فتورد وجه أحمس إبانا وقال بسرور:

- ما من شك يا مولاى فى أننا دفعنا ثمن النصر غاليا ، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل .

فقال الملك بلهجة رزينة :

- كبدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضا منها ، والفوز فى هذه الحرب لمن يقضى على فرسان عدوه .

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك :

- إن حكامنا فى الجنوب يدربون الجند ويبنون السفن والعجلات ولكن تدريب فرسان العجلات يتطلب زمنا طويلا ، فلن ينفعنا فى المعركة التى نخوض غمارها إلا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرة أخرى . .

٧

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ فى التأهب والاستعداد ، وارتدى الملك لباسه الحربى واستقبل فى خيمته رجاله وقال لهم :

- لقد صح عزمى على مبارزة خنزر . . .

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم :

- مولاى ، ينبغى ألا تشل ضربة طائشة عملنا المجيد .

وتوسل كل قائد إلى الملك أن يأذن له فى قتال حاكم الجنوب ، ولكن أحمس شكرهم وقال لحور :

- لن يشل عملنا خطب وإن جل ، ولن يعوقه مصرعى إذا صرعت ، فلا يفتقر جيشى إلى القواد ولا تعوز بلادى الرجال ، وما كان لى أن أضيع من بين يدى فرصة أواجه بها قاتل سيكننرع ، فدعنى أقاتله حتى أقتله لأوفى دينا فى عنقى نحو روح كريم يراقبنى من العالم الغربى : ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الخائرين . .

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته ، فتوسط الرجل الميدان وصاح :

- أيها العدو ، إن فرعون مصر يرغب فى مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر :

- قل لمن تدعوه فرعون : إن القائد لا يحرم عدوا شرف الموت بسيفه . .

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم ، ووضع السيف فى حاملته والرمح فى قرابه ، ونخسه فعدا به إلى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب تياها

فخورا يبدو جسمه كأنه كتلة جبارة من الجرانيت، فتدانيا رويدا رويدا حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا، عاين كل منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة:

- رباه.. من أرى أمامى... أليس إسفينيس تاجر الأقزام واللآلئ؟ يا لها من دعابة! أين تجارتك أيها التاجر إسفينيس؟

وكان أحمس ينظر إليه فى هدوء وسكينة فقال له:

- انتهى إسفينيس أيها القائد خنزر، وليس لى من تجارة الآن سوى هذا..

وأشار إلى سيفه. فملك خنزر عواطفه وسأله:

- فمن تكون إذن؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء:

- أحمس فرعون مصر.

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان، وقال ساخرا:

- ومن الذى ولاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذى أهديته إلىّ ساجدا؟

فقال أحمس:

- ولانى الذى ولى آبائى وأجدادى من قبل، فاعلم أيها القائد أن الذى سيقاتلك هو حفيد سيكننرع...

فبدا الجد على وجه الحاكم وقال بهدوء:

- سيكننرع.. إنى أذكر ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن يرغم على منازلتى، وإنى أكاد أدرك كل شىء فاعذرنى على بطء فهمى. فإننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف، أما أنتم معشر مدعى الملك من المصريين فتتخفون طويلا فى ثياب التجار قبل أن تؤاتيكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك.. فليكن ما تريد، ولكن هل ترغب فى مبارزتى يا إسفينيس؟

فقال أحمس بحدة:

- فلنرتد من الثياب ما نشاء فهى ثيابنا أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى آوتكم مصر. ولا تدعنى إسفينيس ما دمت تعرف أنى أحمس بن كاموس بن سيكننرع، أسرة عريقة فى النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة، فلم تعرف التشرد فى الصحارى ولا رعى القطعان، وإنى لأرغب حقا فى مبارزتك وإنه لشرف تكتسبه كى أؤدى دينا فى عنقى نحو أجل إنسان عرفته طيبة.

فصاح خنزر قائلا :

ـ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك ، فظننت أن انتصارك على القائد رخ مسوغا للوقوف أمامى . . فوارحمتاه لك أيها الشاب الغرير . . ماذا تختار أن يكون سلاحك؟

فقال أحمس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة :

ـ السيف إذا شئت .

فقال خنزر وهو يهز منكبيه العريضين :

ـ هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه ، ثم سل سيفه وأمسك بترسه ، ففعل أحمس مثله ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين ، ثم تساءل أحمس :

ـ هل نبدأ؟

فقال خنزر ضاحكا :

ـ ما أجمل هذه المواقف التى تتكاشف فيها الحياة والموت ، هلم يا فتى .

فتوثب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجه إليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه . ثم رد عليه الهجوم وهو يتكلم قائلا :

ـ يا لها من ضربة صادقة يا إسفينيس ، وما أظن إلا أن رنين سيفك على ترسى ينشد لحن الموت . . مرحى . . مرحى إن صدرى يرحب برسل الموت ، فطالما طمع الموت ، وأنا ألعب بين مخالبه ، ثم يرتد عنى خائبا وقد أدرك آخر الأمر أنه إنما حضر لغيرى .

وكان الرجل يقاتل دون أن يكف عن الكلام كأنه راقص ماهر يغنى وهو يرقص ، فأدرك أحمس أن خصمه عنيد شديد البأس ، فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبار فى الكر والفر ؛ فبذل كل ما لديه من قوة ودراية ، وتفادى من الضربات الموجهة إليه وهو يعلم أنها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحس ثقلها ، ورأى خصمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجه إليه ضربة هائلة تلقاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته ، فسأل أحمس :

ـ أين صنع هذا السيف المتين؟

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذلك :

ـ فى نباتا فى أقصى الجنوب .

فقال الرجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وجهت إليه بمهارة فائقة :

- أما سيفى فقد صنع فى منف بأيدى صناع مصريين . . وما كان صانعه يعلم أنه يقدم لى ما أقضى به على مليكه الذى تاجر وقاتل فى سبيله .

فقال أحمس :

- ما أسعده غدا إذا علم أنه كان شؤما على عدو بلاده .

وكان أحمس يتحين الفرصة لهجوم عنيف، فما كاد يتم كلامه حتى وجه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة، فتحاماها خنزر بدرعه وسيفه ولكنه اضطر إلى أن يتقهقر خطوات، فقفز عليه الملك وهاجمه هجوما قاسيا ووجه الضربة تلو الضربة إلى مقاتله . وأدرك خنزر خطر المصير، فكف عن مداعبة خصمه وأطبق فمه، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور . وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس، فظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحمس هنيهة : «ترى هل أصبت؟» . ولكنه لم يحس تخاذلا ولا وهنا، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضعا وقد ارتج ساعده . وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب، وتوقف أحمس عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس، فما كان من أحمس إلا أن خلع ترسه ورمى به جانبا، فبدت الدهشة على وجه خنزر ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول :

- يا له من نبل حقيق بأخلاق الملوك .

واستأنفا القتال فى سكون فتبادلا ضربتين شديدتين، ولكن ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقبة خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم، ودنا الملك منه فى خطى بطيئة، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له :

- يا لك من جبار باسل أيها ا لحاكم خنزر!

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة :

- بالحق نطقت أيها الملك . . ولن يعترض سبيلك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزر ووضعه إلى جانب جثته، ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحنق ورغبة فى الانتقام، فأقبل على فرسانه وصاح بهم :

- أيها الجنود، رددوا شعارنا الخالد : «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع» . واذكروا أن

مصيرنا إلى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة، فلا ترضوا أبدا أن يضيع صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة.

ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس.

واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة.

٨

وفى مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحمس من الميدان متعبا منهوك القوى، فاجتمع بحاشيته وقواده، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوض، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصد هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة. فساور الملك القلق، وخشى أن تتحطم فرقة العجلات الجبارة يوما بعد يوم، وكان فى ذاك المساء غاضبا حزينا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة، فقال وكأنه يحدث نفسه:

ـ هيراكو نبوليس.. هيراكو نبوليس.. ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا؟

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنا أو غضبا، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال، فقال الحاجب حور:

ـ مولاى.. إن فرساننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرنا، وغدا إذا ظهرنا على العدو وحطمنا عجلاته فلن يكون لمشاته قبل بنا، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم.

فقال الملك:

ـ كانت غايتى الكبرى أن أقضى على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائما، كما فعل الرعاة فى هجومهم فى طيبة. ولكنى بت أخشى أن يقضى على قوتينا الراكبتين معا، فنتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقى على مدننا ولا تذر.

وطلب الملك أن يطلع على الإحصاء الأخير للخسائر، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثى قوتها من العجلات والفرسان.

فامتقع أحمس ونظر فى وجوه رجاله، فإذا بالوجوم يعلوها جميعا. ثم قال:

ـ لم يبق لدينا سوى ألفى فارس.. فكيف تقدرون خسائر العدو؟

فقال القائد ديب:

ـ لا أتصور يا مولاى أنها تقل عن خسارتنا . . وأرجح أنها تزيد عليها .

فحنى الملك رأسه ولبث يفكر مليا ، ثم نظر إلى رجاله وقال :

ـ سيعلم كل شىء غدا ، فغدا يوم الفصل دون شك ، ولعل عدونا يعانى من الحيرة والقلق ما نعانى وأكثر ، وعلى كل حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدا ، والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة .

فقال ديب متسائلا :

ـ إن أسطولنا لا يحارب الآن ، فلماذا لا ينزل جنودا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب؟

فقال أحمس إبانا :

ـ إن أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة ، ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدو إلا إذا كان جيشه جميعا مشتبكا فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات ، أما جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا .

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلا :

ـ أليس لنا يا مولاى قوة احتياطية من الفرسان؟

فقال أحمس :

ـ لقد جئنا مصر بستة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل ، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم .

فقال حور :

ـ مولاى . . إن سيين وأمبوس وأبولينوبوليس مجنا تبنى العجلات وتدرب الفرسان بلا توان .

أما أحمس إبانا فقال بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

ـ حسبنا شعارنا الذى لقنتناه الأم المقدسة توتيشيرى : «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع» ، وأن فرساننا لا يغلبون ، وأن مشاتنا ليتحرقون شوقا إلى القتال ، ولنذكر دائما أن الرب الذى أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثا .

وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتسم الملك ابتسامة مشرقة ، وبات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح تقدمت فرقة العجلات وفى قلبها الملك وحرسه ، ونظر إلى الميدان فرآه خاليا فعجب غاية العجب ، ثم أمعن فى النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة . ولم تطل

الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرروا بين يديه أن جيش أبو فيس انسحب من الميدان بجموعه الجرارة وترك هيراكونبوليس فى الليل وجد فى السير نحو الشمال، ولم يتمالك القائد محب أن قال :

ـ الآن حصحص الحق . . وما من شك فى أن قوة عجلات الرعاة تحطمت، وأن أبو فيس آثر أن يفر إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته .

وقال القائد ديب فرحا :

ـ مولاى . . لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة .

وكان الملك أحمس يتساءل : ترى هل انكشفت الغمة؟ . . ترى هل حقا زالت المخاوف؟ ثم التفت إلى ديب وقال :

ـ بل قل إننا حطمنا عجلات الرعاة وكفى .

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح فى النفوس، وهرع رجال الحاشية يتقدمهم حور إلى الملك وهنأوه بالنصر المبين الذى فتح الرب به عليه . ودخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه، وهرع معه الأهالى إليها من الحقول فروا إليها خوفا من انتقام الرعاة، واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء .

وكان أول شىء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذى مد له يد المعونة بعد أن كاد يشفى على اليأس .

٩

واستراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما، وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة وإعادة مصريتها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها . وواسى الأهالى لما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرضت له مدينتهم فى أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب .

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة، وبات فيها حتى فجر اليوم الثانى . ثم استأنف مسيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية . وشارف وادى لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام، وكان الملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها فأرسل أحمس طلائع جيشه إليها وحاصر أحمس إبانا شطئانها الغربية ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة

فدخلها الجيش آمنا . وقص عليهم الأهالى وكيف مر بهم جيش أبو فيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم فى حالة شديدة من الفزع والفوضى .

وتقدم الجيش بقواته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ ترت ، ثم بعدها هزمنتيس ، وكانوا يتوقون جميعا إلى ملاقاة عدوهم ليشفوا غل صدورهم . ولكن كان السرور يتألق فى وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرروا قطعة من الوطن الأثير . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة ، فمضوا ينشدون الأغانى الحماسية ، ويضربون فى أرض الوادى بسيقانهم النحاسية ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة . وكان الوادى ينحدر نحو جنوبها انحدارا فجائيا شديدا ، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنها كانت كسابقاتها من المدن بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام . هز دخول هابو قلوب الجنود جميعا لأنها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد ، ولأن كثيرا من جنود الجيش كانوا من بنيها البواسل ، فتعانقت فى ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين . ثم تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة وأنفس متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل فى تاريخه والمعركة الخطيرة التى تقرر مصير طيبة ، وانحدر فى الوادى العظيم الذى يطلق عليه الطيبيون «طريق آمون» وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقا وغربا ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثل فيها جميعا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة ، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر ، فتصايحت جنبات الوادى هاتفة : «طيبة . . » «طيبة . . » . وجرى اسمها على كل لسان ولهجت به الأفئدة المضطرمة ، وما زالوا يهتفون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ .

وعسكر الجيش العظيم ، ووقف أحمس فى قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذى حاكته توتيشيرى بيديها ، يرسل ناظريه إلى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول :

ـ طيبة . . طيبة . . يا أرض المجد . . ومثوى الآباء والأجداد ، أبشرى فغدا يطلع عليك صبح جديد .

١٠

واستدعى الملك القائد أحمس إبانا وقال له :

ـ سأكل إليك أيها القائد ساحل طيبة الغربى فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك ، مستلهما خططك من الملابسات المحيطة بك .

وأنشأ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة ، فقال القائد محب :

ـ إن أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحا غالية ، ولكن ما من مهاجمتها بد ، فأبوابها الجنوبية هى السبيل الوحيد إليها .

وقال القائد ديب :

ـ إن محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها ، ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة فى تجويع طيبة ، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها . ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلالم والقباب الواقية ؛ ولكنها ليست كافية كذلك ، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة . وعلى أية حال إذا كان ثمن طيبة غاليا فسنبذله عن طيب خاطر .

فقال أحمس :

ـ هذا هو الرأى ، فينبغى ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة ، ويحتمل أن يتعرضوا لانتقام عدونا الوحشى .

وفى ذلك اليوم تقدم الأسطول المصرى نحو شاطئ طيبة الغربى والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارة من هيراكو نبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة ، ولكن كان تغلب المصريين فى عدد الرجال والسفن كبيرا ، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نارا حامية .

وأرسل أحمس طلائع من فرق القسى والرماح لاختبار القوات المدافعة ، فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم ، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفد . وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم ، فلما صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم فى أرجاء الوادى لتهاجم السور فى نقط متباعدة ، محتمية بدروعها الطويلة ، فانهالت عليهم سهام العدو كالسيل . وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع . ودار القتال بلا رحمة ، وكان المعسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفزين للقتال ، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن

جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة ، وقد روع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبا :

- إن جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور وهو يلقى على الميدان بصرا زائغا :

- يا لها من معركة يا مولاى . . أرى الجثث تملأ الميدان .

وكان القائد محب متجهم الوجه معفر الثياب فقال :

- ألسنا نهاجم الموت سافرا؟

فقال أحمس :

- لن أدفع بجيشى إلى الهلاك المحقق ، ويحسن بى أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية ، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره .

ولبث الملك مهتاج النفس ، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع . . وفى ذاك المساء عاد الرسول الذى كان بعثه إلى أسرته فى نباتا يحمل رسالة من توتيشيرى ، فبسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتى :

- «من توتيشيرى إلى حفيدى ومولاى فرعون مصر أحمس بن كاموس ، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية ، ويوفق رأيه للسداد ، وقلبه للإيمان ، ويده إلى مقتل عدوه . . جاءنى رسولك ينعى إلينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغنى كلمته الأخيرة الموجهة إلى ، ويحسن بى - وأنت تقاتل عدونا - أن أضرب صفحا عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعا ، فقد قضى على قلبى أن يذوق الموت مرتين فى حياة قصيرة واحدة ؛ ولكن لا يعز العزاء على من يعيش فى أتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان إلى الموت ، ولا أكتمك - على ألمى وحزنى - أن رسولا يسعى إلى بموت كاموس ونصر جيشنا ، أحب إلى من أن يجيئنى كاموس بنبأ الهزيمة . . فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب الرقيقة المجتمعة حولى ، يتنازعها الحزن والتصبر والرجاء ، واعلم يا مولاى أننا نشد الرحال إلى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا ، لنكون أدنى إلى رسلك ، والسلام» .

قرأ أحمس الكتاب فاستشف ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حار ، وتمثلت له الوجوه التى ودعها فى نباتا ؛ توتيشيرى بوجهها الناحل المكلل بالمشيب ، وجدته أحوتبى بجلالها وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها ، وزوجة نيفرتارى بعينيها الواسعتين وقدها الرشيق ، وتمتم قائلا : «رباه! . . إن توتيشيرى تتلقى طعنات الألم

القاتل بالعزاء والأمل، ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود فلأذكر دائما حكمتها ولأتبعها بعقلى وقلبى».

١١

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة؛ فضرب الحصار حول شاطىء المدينة الغربى، وبث الرعب فى أنفس أصحاب القصور المطلة على النيل، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ. ولكنه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولارتفاعها بسبب انخفاض النيل فى فصل الحصاد، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها. وكان أحمس إبانا تنازعه نفسه إلى شاطئ البلد الجنوبى حيث يقيم الصيادون، ويخفق بحبه قلب حنون، وظن أن هذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة. ولكن الرعاة كانوا أكبر حذرا مما ظن فأخذوا الشاطئ من المصريين، وشغلوا مساحته الممتدة بالحراس المدرعين.

أما الملك أحمس فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة، وقدم للميدان نخبة من رجاله المدربين وراء الدروع الطويلة، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم فى حرب قوامها الفن ودقة التصويب. ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية. واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشر بأى نتيجة أو تنبئ بأية نهاية، فتململ الملك وقال:

- ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته.

ثم شد أحمس على مقبض سيفه وقال:

- سآمر باستئناف الهجوم العنيف. وإذا لم يكن من بذل النفوس بد فلنقدم أنفسنا كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا مصر من نير عدوها الثقيل. وسأوجه رسلى إلى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية.

وأصدر الملك أمره بالهجوم. وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسى والرماح فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين، وجعل القائد محب على الميمنة، والقائد ديب على الميسرة. ومضى المصريون يتقدمون فى موجات واسعة النطاق، لا تلحق الموجة بسابقاتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمى بالسور المرهوب. فلما تقدم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم؛ ولكن خسارتهم على أى حال كانت دون خسارة اليوم الأول ودار القتال على

هذا بضعة أيام أخر، وكثر عدد القتلى من الجانبين. واشتد ضغط جناح المصريين الأيمن للعدو حتى استطاع مرة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعددة، وأن يهلك كل من يتصدى لإطلاق السهام من منافذها. وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم، وأقاموا سلم هجوم وصعدوا عليه مع قوة باسلة، وسهام إخوانهم تغشاهم كالسحاب. وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهددة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجرين نارا حامية حتى أبادوهم، وسر الملك لهذا الهجوم الذى ضرب مثلا رائعا لجيشه، وقال لمن حوله:

ـ لأول مرة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودى على سور طيبة.

والحق كان لهذه الخطوة مغزى عظيم، فقد تكررت فى اليوم الثانى، ثم وقعت فى غداته فى نقطتين من السور. ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدو حتى بات الغزو أملا مرجوا قريبا. وفى تلك الأثناء جاء رسول من ساو حاكم سيين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيرا، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار وسلالمه وعدد من القباب الواقية. فاستقبل الملك الجنود بسرور، وقد تضاعف أمله فى النصر، وأمر بتسييرهم فى الميدان أمام معسكره لتحييهم الجنود ويزدادوا بهم أملا وقوة.

ودار القتال مع الغداة مروعا هائلا، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمة حتى بدا عليه الإعياء واليأس واعتور سواعده النصب، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان:

ـ مولاى.. سنقتحم السور غدا.

واجتمع رأى القواد جميعا على هذا، فبعث أحمس برسول إلى أسرته يدعوها إلى هابو التى يرفرف عليها العلم المصرى، ليدخلوا جميعا طيبة فى الغد القريب.. وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل.

١٢

وطلع فجر اليوم الموعود، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوثبون، توقع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر. ثم تقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين، فرأوا منظرا عجبا لم يتوقعوا رؤيته، فضجوا بالدهشة والانزعاج، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول. رأوا على السور المحيط أجسادا عارية قيدت إليه، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار اتخذ الرعاة منهم دروعا تحميهم شر

نبالهم وقذائفهم . ووقفوا خلفهن ضاحكين شامتين . وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن ، والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت الأكباد جميعا ، فضلا عن أكباد من هم أزواجهن وأبناؤهن . فأسقط فى أيدى الرجال وشلت سواعدهم ، وسرى الانزعاج فى النفوس حتى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء ، وصاح غاضبا :

- يا للوحشية الهمجية . . إن الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال .

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة . ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال ، فاقشعرت أبدانهم هولا ، وأصفرت وجوههم غضبا ، وارتعشت أطرافهم ، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا فى الميدان أمامهم مكتوفى الأيدى ، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز ، وصاح حور بصوت متهدج :

- يا للبائسات ، سيقتلهن توالى الليل والنهار إذا لم تمزق قلوبهن السهام .

ولفت الحيرة الملك ، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتى يحمين بأجسادهن وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيبتين . ما عسى أن يفعل؟ . . إن كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع ، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس . فما عسى أن يصنع؟ . . هل جاء لخلاص شعبه أم للتنكيل به؟ . . وهل أرسل رحمة أم عذابا؟ . وجعل يتمتم فى حزنه : «آمون . . آمون . . ربى المعبود . . إن هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك ، فألهمنى الصواب على أن أجد لنفسى مخرجا» . . وتنبه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل ، عاين ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحمس إبانا ، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلا :

- مولاى . . لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين؟ . . أما كان ينبغى أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن؟

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور :

- انظر لترى بنفسك أيها القائد . . .

ولكن أحمس إبانا لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء :

- آذنتنى عيونى بالعمل الدنىء الوحشى ، ولكن كيف نرضى أن نساق إلى أشراك أبو فيس ونحن به عالمون؟

هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر إشفاقا من أن تؤذى نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا !

فقال الملك أحمس بمرارة :

- أترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن؟

فقال القائد بحماس وثقة :

- نعم يا مولاى ، إنهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين ، بل مثلهن مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس . فلماذا نشفق من ذهابهن هذا الإشفاق المعطل لكفاحنا؟

مولاى . . إن قلبى يحدثنى بأن أمى إبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات . فإذا صدق شعورى فلا أشك فى أنها تدعو الرب الآن أن يجعل حبك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست الجريح وحدى فى جنودنا . فليضع كل منا حول قلبه درعا من إيمانه وعزيمته ولنهجم .

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلب وجهه فى حاشيته وقواده ، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهما ممتقعا :

- صدق أحمس إبانا العظيم .

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

- نعم . . نعم . . صدق قائد الأسطول ولنهجم .

فالتفت الملك إلى القواد وقال بعزم :

- أيها القواد ، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إن مليكهم الذى فقد فى سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل .

وذهب القواد سراعا ونفخ فى الأبواق ، فتقدمت صفوف الجند شاكى السلاح مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع» . وبدأت فى الحال أبشع معركة خاض غمارها الإنسان ، وأطلق الرعاة السهام فرد عليهم المصريون ، وانطلقت نبالهم تشق صدور نسائهم وتمزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة . ولوحت النسوة برءوسهن للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة :

- اضربونا ينصركم الرب وانتقموا لنا .

فجن جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطشت إلى الدماء ، ودوى صراخهم فى جنبات الوادى كعزيف الرعد وزئير الأسود ، واندفعوا لا يبالون الموت المنصب عليهم كأنما فقدوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنمية . وحمى وطيس القتال واشتد الطعان ، وسالت الدماء كأنها ينابيع تنفجر فى الصدور والأعناق ، وأحس كل هاجم أن فى قلبه غمزا جنونيا لا يسكن حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وتمكن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يسكت عدة مواضع دفاعية ،

فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت، فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلى واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف وتوالت الهجمات بعنف وبسالة، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى، ويرسل النجدات إلى المواقع التى يشتد عليها العدو. وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسط فى كبد السماء، فقال:

- إن جنودى يبذلون جهد الجبابرة، ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولى على السور جميعه، فنستأنف غدا من جديد.

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم، فاشتد ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه. والظاهر أن اليأس أخذ يستولى على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة لم يكن يتوقعها أحد، واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور، وبدا سقوط السور أمرا محققا لا يحتاج إلا لوقت. وكان أحمس لا ينفك عن إرسال الإمدادات القوية، وجاءه فى المعسكر ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه، فانحنى للملك وقال:

- أخبار جليلة يا مولاى.. إن أبو فيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالفارين.

فعجب الملك وسأل الضابط قائلا:

- أواثق أنت مما تقول؟

فقال الرجل بثقة وإيمان:

- رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح.

فقال أحمس إبانا:

- لقد أدرك أبو فيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه فى المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه، ففر هاربا.

فقال حور:

- والآن أدرك على غير شك أن الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شر وبيل.

وما كاد حور يتم كلامه حتى جاء رسول جديد من الأسطول فحيا الملك وقال:

- مولاى.. لقد شبت نيران الثورة فى طيبة، وشاهدنا من الأسطول عراكا عنيفا يقع

بين الفلاحين والنوبيين من ناحية، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى.

فبدا القلق على أحمس إبانا وسأل الضابط:

ـ وهل قام الأسطول بواجبه؟

ـ نعم يا سيدى، لقد دنت سفننا من الشاطئ وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتى لا تمكنهم من التفرغ لقتال الثائرين.

فلاح الارتياح فى وجه القائد، واستأذن الملك فى العودة إلى أسطوله ليهجم على الشاطئ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطا:

ـ لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرة بأموالهم.

فقال حور بصوت متهدج من الفرح:

ـ نعم يا مولاى، وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها.

ـ ولكن أبو فيس فر بجيشه.

ـ لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة.

وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفى أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها. وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كل جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح. وما لبث أن رأى جنوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفاق، ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة تنفتح على مصراعيها وجنوده تندفع إلى داخلها هاتفة باسمه، فتمتم قائلا بصوت خافت: «طيبة.. يا منبع دمى.. ومنبت جسدى.. ومرتع روحى.. افتحى ذراعيك وضمى إلى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل». ثم حنى رأسه ليخفى دمعة منتزعة من ضلوعه، وكان حور إلى يمينه يصلى ويجفف عينيه وقد تندى خداه النحيلان.

١٣

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغيب، وأقبل الملك والقائدان محب وديب، ثم تبعهما على الأثر أحمس إبانا فانحنوا لأحمس فى إجلال وهنأوه بالنصر، فقال أحمس:

ـ ينبغى قبل أن يهنئ بعضنا بعضا أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا فى سبيل طيبة فائتونى بها جميعا.

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب، وقد عفرتها الأتربة وخضبتها الدماء، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية، وشملها سكون الموت الرهيب. فرفعها الجنود باحترام وساروا بها إلى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبا إلى جنب، وأتوا بالنساء والأطفال اللاتى مزقتهن سهام جنودهم ووضعوهن فى مكان منعزل. وتوجه الملك إلى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية. ولما دنا من الجثث المتراصة انحنى فى إجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله. ثم سار فى خطى بطيئة مارا بها كأنما يستعرضها فى حفل رسمى مشهود، ثم عدل إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجوا أجسادهن العارية بأغطية من الكتان، فأظلت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه، وتنبه من كمده على صوت القائد أحمس إبانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلا:

- أمـــاه..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألما متفجعا أمام إحدى الجثث، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة فعرف السيدة إبانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء المروع. فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثى خاشعا حزين الفؤاد، وكان يكن للسيدة احتراما عظيما ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها فى تربية أحمس خير قواده بلا نزاع. ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال بصوت متهدج:

- أيها الرب المعبود آمون، خالق الكون، وواهب الحياة ومنظم كل شىء بسنته العالية، هذه ودائعك ترد إليك تبعا لمشيئتك، وقد كانوا فى عالمنا يعيشون لغيرهم وكذلك ماتوا. إنهم قطع عزيزة تناثرت من قلبى، فتغمدهم برحمتك، وعوضهم عما فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبدية باقية.

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال:

- أيها الحاجب، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعا وتودع مقابر طيبة الغربية، ولعمرى إن أحق الناس بأرض طيبة من استشهدوا فى سبيلها.

وعاد فى تلك الأثناء الرسول الذى كان أرسله الملك إلى أسرته فى دابور وقدم إلى مولاه رسالة، فعجب الملك وسأله:

- هل عادت أسرتى إلى هابو؟

فقال الرجل.

- كلا يا مولاى.

فبسط أحمس الرسالة وكانت موجهة من توتيشيرى وقرأ:

- «مولاى المؤيد بروح آمون وبركته، أسأل الرب أن يبلغك كتابى هذا وقد فتحت طيبة

لك أبوابها فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمد جراحها، وتسعد روحى سيكننرع وكاموس. أما نحن فلن نبرح دابور، وقد فكرت فى الأمر طويلا فوجدت أن خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذب وآلامه، أن نبقى فى منفانا حيث نحن الآن نعانى آلام الوحشة والغربة، حتى نحطم أغلاله وترفع عنه النقمة، فندخل مصر آمنين ونقاسمه السعادة والسلام. فسر فى طريقك مؤيدا بالعناية الربانية تحرر البلدان وتقهر الحصون. وطهر أرض مصر من عدوها ولا تجعل له فى أقطارها موضع قدم، ثم ادعنا نأت آمنين».

ورفع أحمس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم:

ـ تقول توتيشيرى إنها لا تدخل مصر حتى نجلى عنها آخر رجل من الرعاة.

فقال حور:

ـ إن أمنا المقدسة تريد ألا نكف عن القتال حتى نحرر مصر.

فهز الملك رأسه بالموافقة، فتساءل حور:

ـ ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء؟

فقال أحمس:

ـ كلا يا حور، سيدخلها جيشى وحده، أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة. ندخلها جميعا كما فارقناها جميعا منذ عشرة أعوام مضت.

ـ سيمنى أهلها بخيبة أمل!

ـ قل لمن يسأل عنى إنى أتعقب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدسة وليتبعنى من يحبنى.

١٤

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونية، وكان فى نيته أن يصدر أمره إلى قواده بأن يدخلوا المدينة فى نظامهم التقليدى على أنغام الموسيقى الحربية، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال:

ـ مولاى كلفنى قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم فى المثول بين يديك، ليقدموا لذاتك العلية هدايا مما غنموا فى ثورتهم.

فابتسم أحمس وسأل الضابط:

ـ أقادم أنت من المدينة؟

ـ نعم يا مولاى .

ـ هل فتحت أبواب معبد آمون؟

ـ فتحها الثوار يا مولاى .

ـ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا؟

ـ يقولون يا مولاى إنه أقسم ألا يبرح خلوته وفى مصر رجل من الرعاة إلا عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك وقال :

ـ حسنا . . ادع قومى .

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسيرون جماعات جماعات ، تسوق كل جماعة هديتها . واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة إلا من أزر على أوساطهم ، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر ، ويدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة تعرت رءوسهم وتلبدت لحاهم وتعفرت جباههم . ثم سجدوا للملك حتى مست الأرض جباههم ، ولما رفعوا وجوههم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور ، وقال كبير القوم :

ـ مولانا أحمس بن كاموس بن سيكننرع بن فرعون مصر ومحررها وحاميها ، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التى استشهدت أصولها فى سبيل طيبة المجيدة ، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرا عن إساءة الأيام إلينا .

فقال أحمس مبتسما :

ـ أهلا بقومى الأعزة ، من آمالهم كآمالى ، وآلامهم من منبع آلامى ، ولون بشرتهم كلون بشرتى .

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج ، ووجه كبيرهم الخطاب إلى الرعاة قائلا :

ـ اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده .

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الرجل :

ـ مولاى . . هؤلاء الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق ، كأنما توارثوها عن آبائهم خلفا عن خلف ، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشق الأعمال بأزهد الأجور ، جعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل . ثم كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلاحون ، ومنوا عليهم أن تركوهم أحياء . . هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العلية عبيدا من أذل عبيدك .

فابتسم الملك وقال :

ـ أشكر لكم يا قومى هديتكم ، وأهنئكم على استرداد سيادتكم وحريتكم .

وسجد الرجال لمليكهم مرة أخرى وغادروا الخيمة ، وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى . ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة بظهره وذراعيه ، فسقط إعياء عند قدمى الملك دون أن يحفل به معذبوه ، وسجدوا لمليكهم طويلا وقال رجل منهم :

ـ مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون ، هذا الشرير المؤزر بلباس الذل كان كبير شرطة طيبة ، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسى لأتفه الأسباب ، فمكننا الرب منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتى مزق جلده ، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضم إلى عبيده .

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند ، وشكر لقومه صنيعهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلا ما إن وقع عليه بصر الملك حتى عرفه ، فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر ، فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدقان ، وحيا الرجال الملك وقال لسانهم :

ـ إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة ، كان يقسم بالعدالة ويقضى بالظلم فى كل حين ، فأورد مشرب الظلم ليذوق ما كان يسقى الأبرياء .

فقال أحمس موجها خطابه للقاضى :

ـ يا سنموت ، لقد كنت حياتك تحكم على المصريين ، فرض نفسك هذه المرة أن يحكموا عليك .

ودفع به إلى جنوده ، وشكر رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى ستار من الكتان من ذؤابته إلى نعليه ، فحيوا الملك هاتفين : وقال قائلهم :

ـ يا فرعون مصر وحامى المصريين والمنتقم لهم ، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وادرعوا بهن فى موقعة طيبة . وأراد الرب أن ينتقم لنا من أبو فيس الظالم فهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه ، وخطفنا دون علمه من هى أعز عليه من نفسه ، وجئنا بها إليك لتنتقم لنسائنا منها .

ودنا الرجل من الشخص المتخفى فى دثار من الكتان وأزاح عنه الستار فبدت امرأة عارية إلا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية كالنور ، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الحنق والغضب والكبرياء ، فبهت أحمس ، ونظر إليها ونظرت إليه فبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها

من الغضب والحنق والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق: «الأميرة أمنريدس..».

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها، وصاح أحمس برجاله:

- لماذا تمثلون بهذه المرأة؟

فقال زعيم القوم:

- إنها ابنة كبير السفاكين أبو فيس.

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطشين للانتقام، فقال:

- لا تمكنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدسة، فالفاضل حقا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى.

فقال رجل من القوم موتور:

- يا حامى المصريين، إن شفاء صدورنا فى إرسال رأس هذه المرأة إلى أبو فيس.

فقال أحمس:

- هل تحثون مليككم على أن يكون كأبو فيس سفك دماء وقتل نساء؟.. كلوا الأمر لى وانصرفوا بسلام.

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا. ونادى الملك أحد ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضى بالأميرة إلى سفينته الفرعونية، وأن يحوطها بالعناية.

وكان الملك يكابد ثورة فى القلب والنفس فلم يحتمل القعود، فأصدر أمره إلى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر والنصر. ولما تحول إلى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين.

١٥

وخلا الميدان، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه، وكان يحث سائقى عجلته على السرعة ويغرق فى الأحلام والأفكار، أى صدمة تعرض لها قلبه اليوم!.. أى مفاجأة كابدها وعاناها؟.. ولم يكن يدور بخلده أنه سيلقى أمنريدس مرة أخرى فمنى باليأس منها، وتمثلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثم ابتلعته الظلماء. ولكنه رآها مرة أخرى على غير انتظار أو حسبان، ألقت بها المقادير إلى رحمته فغدت بغتة فى ملكه الخاص، لشد ما

اضطرب صدره وخفق قلبه، لشد ما تيقظت فى نفسه عواطف حارة أحيت من جديد ذكرياته الحلوة: فانغمر فى تيارها الحنون ناسيا كل شىء.

ولكن هى، هل عرفته يا ترى؟.. وإذا لم تكن عرفته، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد إسفينيس؟.. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف «إلى اللقاء»؟.. ومن حنت إليه فى منفاه فبعثت إليه برسالة كمن الحب فى سطورها كمون النار فى الحجر؟.. أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية؟.. رباه.. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حد لها؟.. هل يصدقه قلبه أم يخدعه؟.. وتمثل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه، فانتفض جسمه القوى وسرت فيه قشعريرة، وتساءل حزينا والقوم الغاضبون من حولها يبصقون عليها ويسبونها ويلعنون أباها؟.. وإنه ليذكر ما كان يلوح فى وجهها من الغضب والحنق والكبرياء، فهل يسكت غضبها إذا علمت أنها أسيرة إسفينيس، وأحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف، وكان ركبه بلغ الشاطئ فهبط إلى السفينة الفرعونية، ودعا إليه الضابط الذى عهد إليه بالأميرة وسأله:

- كيف حال الأميرة؟

- وضعت يا مولاى فى مخدع خاص وجىء لها بثياب جديدة وقدم لها الطعام، ولكنها رفضت أن تمسه، وعاملت الجنود معاملة تنطوى على الاحتقار ودعتهم بالعبيد. ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك.

فبدا على الملك عدم الارتياح، وسار بخطوات هادئة إلى المخدع، ففتح الباب أحد الحراس ورده بعد دخول الملك. وكان المخدع صغيرا أنيقا يضيئه مصباح كبير يتدلى من سقفه، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة فى ثوب بسيط من الكتان وقد مشطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة. فنظر إليها مبتسما فرآها تنظر إليه فى دهشة وغرابة وهى لا تصدق عينيها، وبدت له كأنما هى فى حيرة وشك، فحياها قائلا:

- طاب مساؤك أيتها الأميرة.

فلم تجبه، ولكنها إزدادت بسماع صوته حيرة وشكا، وكان الشاب يطيل النظر إليها فى شغف وافتتان، فسألها:

- هل يعوزك شىء؟

فتفرست فى وجهه، ثم صعدت بصرها إلى خوذته وخفضته إلى درعه وسألته:

- من أنت؟

- أدعى أحمس فرعون مصر؟

فلاح الإنكار فى نظرة عينيها. وأراد أن يزيدها حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه إنها لا تستطيع أن تصدق عينيها. ورآها تنظر إلى شعره المجعد بغرابة، فقال كالداهش:

ـ مالك تنظرين إلى هكذا كأنك تعرفين لى شبيها؟

فلم تدر ما تقول ولم تحر جوابا، واشتاق إلى سماع صوتها والتماس حنانها فقال لها:

ـ هبى أننى أجبتك أنى أدعى إسفينيس، فهل تردين على؟

وما كادت تسمع اسم إسفينيس حتى قامت واقفة وصاحت به:

ـ إذن أنت إسفينيس!

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان، وأمسك بمعصمها وهو يقول:

ـ أنا إسفينيس أيتها الأميرة أمنريدس.

فجذبت معصمها بشدة وقالت:

ـ إنى لا أفهم شيئا.

فابتسم أحمس وقال برقة:

ـ ماذا تعنى الأسماء؟. . كنت بالأمس أدعى إسفينيس وأدعى اليوم أحمس، ولكنى شخص واحد وقلب واحد.

ـ يا للغرابة. . كيف تقول أنت شخص واحد؟. . كنت تاجرا تبيع الحلى والأقزام، وأنت اليوم تقاتل وترتدى ثياب الملوك.

ـ ولم لا؟. . كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفيا، وأنا اليوم أقود قومى لتحرير بلدى واسترداد عرشى المسلوب.

فنظرت إليه نظرة طويلة تحير فى إدراك كنهها. وحاول أن يدنو منها مرة أخرى، ولكنها صدته بإشارة من يدها وجمدت قسمات وجهها وتبدت القساوة والكبرياء فى عينيها، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بلابل الرجاء المغردة فى صدره، وسمعها تقول بشدة:

ـ ابتعد عنى.

فقال لها برجاء:

ـ ألا تذكرين. . .

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذى اشتهر به قومها:

ـ اذكر وسأذكر دائما أنك جاسوس وضيع.

فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب، وقال بغضب :

ـ أيتها الأميرة . . ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا؟

ـ أى ملك يا هذا؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة :

ـ فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

ـ وأبى أيكون أحد ولاتك؟!

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعا، فقال :

ـ ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاتى، ولكنه مغتصب على عرش بلادى، وقد هزمته شر هزيمة وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنته تقع أسيرة بين أيدى القوم الذى ظلمهم، وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلوذ بالصحارى التى قذفته إلى وادينا . . ألا تدركين هذا؟ . . أما أنا فملك هذا الوادى الشرعى لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة، ولأنى قائد مظفر أسترد بلادى عنوة واقتدارا .

فقالت ببرود وسخرية :

ـ طبت من ملك يبرع قومه فى مقاتلة النساء .

ـ يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومى هؤلاء بحياتك؟ . . لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التى استنها أبوك فى تعريض النساء والأطفال لنبال المقاتلين .

ـ وهل تضعنى على قدم المساواة مع أولئك النسوة؟

ـ ولم لا؟

ـ معذرة أيها الملك . . فإنه كبر علىّ أن أتصور أنى مثل إحدى نسائكم أو أن أحدا من قومى مثل أحد من قومكم إلا أن يتساوى السادة والعبيد . . ألا تعلم أن جيشنا غادر طيبة لا يحس ذل المغلوب، وكانوا يقولون باستهانة ثار عبيدنا وسنكر عليهم .

وجن جنون الملك وغلبه الغضب على أمره، فصاح بها :

ـ من العبيد ومن السادة؟ . . إنك لا تدركين شيئا أيتها الفتاة المغرورة؛ لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادى الذى يوحى بالمجد والعزة، ولو تأخر مولدك قرنا من الزمان لولدت فى أقسى صحارى الشمال الباردة، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا . من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا وجعلوا أعزته أذلة، ثم قالوا جهلا وغرورا إنهم أمراء وإننا فلاحون عبيد، وإنهم بيض وإننا سمر،

واليوم يأخذ العدل مجراه فيرد إلى السيد سيادته، وينقلب العبد إلى عبوديته، ويصير البياض سمة الضاربين فى الصحارى الباردة، والسمرة شعار سادة مصر المطهرين بنور الشمس.

هذا الحق الذى لا مراء فيه..

فاحتدم الغيظ فى قلب الأميرة واندفع الدم إلى وجهها، وقالت باحتقار:

- أنا أعلم أن أجدادى هبطوا مصر من الصحراء الشمالية، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا الوادى؟.. كانوا وما يزالون سادة ذوى كبرياء ونخوة، لا يعرفون سوى السيف سبيلا إلى هدفهم، لا يتخفون فى ثياب التجار كى يطعنوا اليوم من سجدوا له بالأمس القريب.

فحدجها بنظرة قاسية متفحصة، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف، وتتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية، فاشتد به الحنق، وأحس رغبة حارة إلى إخضاعها وإذلالها ولا سيما بعد أن أذلت عواطفه بكبريائها وصلفها، فقال بصوت هادئ متعال:

- لا أرى سببا يدعونى إلى الاستمرار فى مجادلتك، ولا يجوز أن أنسى أنى ملك وأنك أسيرة.

- أسيرة كما تشاء، ولكنى لن أذل أبدا.

- بل إنك تحتمين برحمتى فتؤاتيك هذه الشجاعة.

- لم تفارقنى شجاعتى قط.. سل رجالك الذين خطفونى غدرا ينبئوك عن شجاعتى واحتقارى لهم فى أحرج الأوقات وأشدها خطرا على.

فهز كتفيه العريضتين استهانة، وتحول إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول:

- لقد قلت حقا إنى أسيرة، وليست سفينتك المكان الذى يصلح للأسرى، فألحقنى بأسرى قومى.

فنظر إليها مغيظا محنقا وقال يغيظها ويخيفها:

- ليس الأمر كما تتصورين، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخرون عبيدا، أما النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر.

فقالت وقد اتسعت حدقتاها:

- ولكنى أميـرة.

- كنت أميرة.. ولست الآن سوى أسيرة.

- كلما ذكرت أنى أنقذت حياتك يوما يجن جنونى.

فقال بهدوء :

ـ فلتحى هذه الذكرى . . فبفضلها أنقذت حياتك من أيدى الثائرين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك إلى أبو فيس .

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبا حانقا ، وحياه الحراس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة ، وسار إلى مقدمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مالئا صدره بهواء الليل الرطيب ، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل تشق الظلماء إلى شمال طيبة . فأرسل الملك بناظريه إلى المدينة فارا إليها من هموم نفسه ، وكان النور يشع من سفن الأسطول الراسية إلى شاطىء المدينة ، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة فى الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارون ، ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التى يحملها الساهرون الفرحون ، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد ، فجرت على فمه العريض ابتسامة ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة وأعيادها الخالدة .

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى حتى حاذته فى مسيرها ، ورأى الملك القصر مضاء يشع النور من نوافذه وحديقته ، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره ، وأنه عاد حقا إلى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة ، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصى الجنوب والدماء تتفجر من ورائها .

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدم السفينة ، واتجه بصره مرات إلى مخدع الأميرة المغلق ثم تساءل متبرما ساخطا : لماذا جاءونى بها؟ . . لماذا جاءونى بها؟

١٦

وفى صباح اليوم الثانى بكر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك فى سفينته الراسية شمال طيبة ، فاستقبلهم الملك فى المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادئ :

ـ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر ، لقد خلفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح ، ويهزها الشوق إلى اجتلاء نور جبين مخلصها ومحررها .

فقال أحمس :

ـ لتفرح طيبة ، أما اللقاء فحين يقضى الرب بالنصر .

فقال حور:

- وذاع بين الأهلين أن مليكهم فى طريق الشمـال وأنه يرحب بمن يلحق به من القادرين، ولا تسل يا مولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب، ولا عن تهافتهم على الضباط ليضموهم إلى جيش أحمس المعبود.

فابتسم الملك وسأل رجاله:

- وهل زرتم معبد آمون؟

فقال حور:

- نعم يا مولاى زرناه جميعا، وهرع إليه الجنود يتمسحون بأركانه ويمرغون وجوههم فى ترابه ويعانقون كهنته. وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وترددت صلاتهم فى جنبات المعبد، فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبيون جميعا فى صلاة جامعة، أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته.

فابتسم الملك، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس إبانا صامتا مكتئبا فأشار إليه أن يقترب، فاقترب القائد من مولاه، ووضع الملك يده على منكبه وقال له:

- تحمل نصيبك من الأذى يا أحمس، واذكر أن شعار أسرتك الشجاعة والبذل.

فحنى القائد رأسه شاكرا وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه، ونظر أحمس إلى رجاله وقال:

- أشيروا على فيمن أختاره حاكما لطيبة، وأعهد إليه بمهمة تنظيمها الشاقة.

فقال القائد محب:

- إن خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور.

ولكن حور بادر يقول:

- إن واجبى فى السهر على خدمة مولاى لا فى التخلف عنه.

فقال أحمس:

- صدقت.. وأنا لا أستغنى عنك.

فقال حور:

- يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأى هو توتى آمون وكيل معبد آمون، فإذا شاء مولاى فليعهد إليه بشئون طيبة.

فقال أحمس:

- قد وليناه طيبة.

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته.

١٧

ومضت ساعات النهار والجيش يضمد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب، واستبق الجنود الطيبيون إلى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس، وصارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا الخافق. أما أحمس فلم يبرح سفينته، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله عنها؟.. فقال له الرجل: إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما. وكان يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ويعهد بها إلى حراس أمناء، ولكنه لم ينته من تفكيره إلى عزم قاطع، ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته، وأيقن أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبو فيس هذه الحظوة لديه، وكان يعرف حق المعرفة، ويعلم أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة. أما هو فكانت عواطفه متعطشة فائرة، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته، أو فى صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب، فإن الغضب لا يقتل الحب ولكنه يحجبه حينا من الزمن كما يكدر الضباب وجه المرآة المصقولة إلى حين، ثم ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء. ولذلك لم يسلم لليأس، وجعل يقول لنفسه متعزيا: لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع فى الأسر، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحب فتلين وتذعن وتؤدى للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه، أليست هى صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ومنحته العطف والود؟.. أليست هى التى أقلقها غيابه فكتبت إليه رسالة عذل تضمر أنين الحب المكتوم؟.. فكيف تذوى عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب؟.. وانتظر الأصيل ثم هز كتفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع، وحياه الحرس وأوسعوا له فدخل كبير الرجاء. ورآها تجلس فى جمود وهدوء تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل!.. فآلمته كآبتها وقال لنفسه: كانت طيبة على رحابتها تضيق بها، فكيف وقد حبست فى هذا المخدع الصغير؟.. ووقف أمامها جامدا فاستوت فى جلستها ورفعت إليه عينين باردتين، فقال لها برقة:

ـ كيف كانت ليلتك؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوقة، وأعاد سؤاله قائلا وقد ظن أن أمله قريب:

ـ كيف كانت ليلتك؟

وبدا عليها كأنها لا تريد أن تخرج عن الصمت، ولكنها رفعت رأسها بحدة وقالت:

- كانت أسوأ ليالى . . .

فأغضى عن لهجتها وسألها:

- لماذا؟ . . هل يعوزك شىء؟

فقالت دون أن تغير لهجتها:

- يعوزنى كل شىء.

- كيف؟ . . لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك.

فقاطعته بتبرم قائلة:

- لا تتعب نفسك فى ذكر هذا . . فإنه يعوزنى كل شىء أحبه، يعوزنى أبى وقومى وحريتى. ولكن لدى كل ما أكرهه . . هذه الثياب وهذا الطعام وهذا المخدع وهؤلاء الحراس.

فمنى بالخيبة مرة ثانية وأحس انهيار آماله وذهاب رجائه، فجمدت أساريره وقال لها:

- أتريدين أن أفك أسرك وأرسلك إلى أبيك؟

فهزت رأسها بعنف وقالت بشدة:

- كــلا . . .

فنظــر إليهــا متعجبــا متحيــرا، ولكنهــا استدركت بمثل هذه اللهجة قائلة:

- كيلا يقال إن ابنة أبو فيس ضرعت إلى عدو أبيها العظيم أو أنها استحقت الرثاء يوما.

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها:

- إنك لا تتحرجين فى إظهار صلفك اطمئنانا منك إلى رحمتى.

- كذبت . . .

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال:

- يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم، هل تعلمين ما تستوجبه إهانة الملك من عقاب؟ . . هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم؟ . . أنا لو شئت لجعلتك تجثين عند قدمى أصغر جنودى سائلة الصفح والتوبة.

أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده فى نفسها، فوجدها تتحداه بعينيها القاسيتين لا تغضيهما، والغضب يسارع إليها إسراعه إلى بنى قومها جميعا، وقالت بحدة:

- نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سبيلا، ولا يذل كبرياؤنا حتى تطوى السماوات أيدى البشر.

وتساءل فى غضبه هل يجرب إذلالها؟ . . لماذا لا يذلها ويدوس كبرياءها بقدمه؟ . . أليست هى أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه؟ . . ولكنه لم يرتح إلى هذا الهوى. كان يطمع فيما هو أعذب وأجمل. فلما أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واحتد غضبه فزهد فى استذلالها، على أنه أظهر غير ما يبطن فقال بلهجة كلهجتها كبرياء:

- إن مشيئتى لا تقتضى تعذيبك فلن تعذبى لذلك . . وإنه لمن أعجب الأمور أن يفكر إنسان فى تعذيب جارية حسناء مثلك.

- بل أميرة ذات كبرياء.

- كان هذا قبل أن تقعى أسيرة فى يدى.

أما أنا فأوثر أن أضمك إلى حريمى على أن أعذبك: ومشيئتى هى النافذة.

- ستعلم أن مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا على، وأنك لن تمسنى حية.

فهز كتفيه استهانة، ولكنها استدركت قائلة:

- من عاداتنا المتوارثة أنه إذا وقع فرد منا فى أشراك ذل ولم يستطع النجاة، امتنع عن الأكل حتى يقضى كريما.

فقال متهكما:

- حقا؟ . . ولكنى رأيت قضاة طيبة يساقون إلى فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة.

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت، وضاق الملك بحديثها ذرعا وكان يعانى مرارة الخيبة فلم يطق البقاء، وقال وهو يهم بمغادرة المخدع:

- لن تجدى حاجة إلى الامتناع عن الطعام.

وغادر المخدع مغضبا ساخطا وقد بيت نيته على أن ينقلها إلى سفينة أخرى، ولكن ما كاد غضبه يسكت حين خلا إلى نفسه فى المقصورة حتى عدل عن نيته فلم يصدر أمره.

١٨

ومثل الحاجب حور بين يدى الملك فى مقصورته وقال:

- مولاى، جاء رسل من قبل أبو فيس يستأذنون فى المثول بين يديك.

فعجب أحمس وسأله:

- ماذا يريدون؟

فقال الحاجب:

- قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا.

فقال أحمس:

- ادعهم على عجل.

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل، وعاد إلى مولاه ينتظران. ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرذمة من ضباط الحرس، وكانوا ثلاثة يتقدم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج، وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة من الحجاب، بيض الوجوه، طوال اللحى، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء، ووقفوا فى غطرسة ظاهرة، فرد أحمس تحيتهم فى كبرياء وسألهم:

- ماذا تريدون؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجمية متغطرسة:

- أيها القائد...

ولكن حور لم يمكنه من إتمام عبارته، فقال له بهدوئه الطبيعى:

إنك تحدث فرعون مصر يا رسول أبو فيس.

فقال الزعيم:

- الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد، وما دام لنا رجال وفى أيدينا سلاح، فأبو فيس فرعون مصر لا شريك له.

فأومأ أحمس إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول:

- تكلم فيما جئت من أجله.

فقال الزعيم:

- أيها القائد، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس كريمة مولانا الملك أبو فيس فرعون مصر وابن الرب ست. ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون؟

- هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة؟.. ألم يذكر كيف عرضهن لسهام أبنائهن وأزواجهن تمزقهن شر ممزق، وجنودكم الجبناء مدرعون بهن؟

فقال الرجل بحدة:

- إن مولاى لا يتنصل من تبعة عمله، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة.

فهز أحمس رأسه بنفور وقال:

ـ بل الحرب نزال بين الرجال، يفصل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء، وهي عندنا صراع لا ينبغي أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين.. على أني أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهذا رأيه في الحرب؟

فقال الرسول بإباء:

ـ إن مولاي يستفهم لغاية في نفسه، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق.

وتفكر أحمس مليا، ولم يغب عنه الباعث الذي حدا بعدوه إلى السؤال عن ابنته. ولذلك قال بوضوح وبلهجة تمت عن الاحتقار:

ـ عد إلى مولاك وقل له إن الفلاحين قوم شرفاء لا يغتالون النساء، وإن الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم، وإن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها.

فبدا على الرجل الارتياح وقال:

ـ لقد أنقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالا ممن أسرهم الملك، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة.

فقال له أحمس:

ـ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم.

فصمت الرجل مليا ثم قال:

ـ وقد أمرت ألا أعود حتى أراها بنفسي.

وبدا الإنكار على وجه حور، ولكن أحمس بادر الرسول قائلا:

ـ ستراها بنفسك.

فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجي الذي يحمله تابعاه وقال:

ـ وهذا الصندوق يحوي بعض ثيابها، فهل تأذن لنا في تركه في حجرتها؟

فسكت الملك هنيهة ثم قال:

ـ لك هـذا.

ولكن حور مال إلى مولاه وهمس قائلا:

ـ ينبغي أن نفحص الثياب أولا.

فوافق الملك على رأي حاجبه، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدي الملك، ثم فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبا ثوبا، وعثر بحق صغير فأمسك به وفتحه فإذا ما به عقد ذو قلب زمردي. وارتعد قلب الملك لمرآه: وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآلئه يوم كان يدعي إسفينيس ويبيع اللآلئ فتورد وجهه، أما حور فقال:

ـ هل السجن مكان صالح للزينة؟!

فقال الرسول:

ـ هذا العقد حلية الأميرة المفضلة لديها، فإن شاء القائد أبقيناه، وإلا أخذناه معنا.

فقال أحمس:

ـ لا بأس بإبقائه.

ثم التفت الملك إلى الضباط وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة، ومضت الرسل ومضى الضباط فى إثرهم.

١٩

وفى ذات المساء لحقت بالجيش قوات آتية من الجنوب من مدربى أبولينو بوليس وهيراكونبوليس، ورست فى ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصار موجهة من أمبوس، وبشر ربانها الملك بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان المدربين. وانضم إلى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عما فقده من الرجال وأربى عدده على اليوم الذى اخترق الحدود غازيا. ولم ير الملك داعيا إلى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى؛ فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد، وتودع الجنود من طيبة وأهلها، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد. وعند مطلع الفجر نفخ الجنود فى الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صفوفا كأمواج البحر، تتقدمه الطلائع ويسير فى مقدمته الملك وحرسه، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى. وأقلع الأسطول بقيادة أحمس إبانا يشق مياه النيل بوحداته القوية. تواثبوا جميعا للقتال، وشحذ النصر إرادتهم فجعلها كالحديد أو أشد صلابة. واستقبل الجيش فى القرى بحماسة دافقة، وهرع الفلاحون إلى طريقه هاتفين يلوحون بالأعلام وسعف النخل. واجتاز سبيله آمنا فأضحى فى شنهور ودخلها بغير مقاومة، ثم أمسى فى قسى ففتحت له أبوابها وباتوا جميعا فى قسى واستأنفوا المسير مع الفجر، وجدوا فى سيرهم حتى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادى الذى ينتهى بالمدينة، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرءوس، وذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى لعشرة أعوام خلت أو يزيد، وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه، وحار بصره فى جنبات الميدان وهو يتساءل: ترى فى أى مكان سقط،

ولاحت منه التفاتة نحو حور، فرأى وجهه ممتقعا وعينيه مغرورقتين بالدموع، فاشتد به التأثر وقال له:

- يا للذكرى المؤلمة.

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة:

- كأني أستمع إلى أرواح الشهداء التي يعمر بها جو هذا المكان المقدس.

فقال القائد محب:

- لشد ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا.

وجفف حور دمعه وقال للملك:

- فلنصل جميعا يا مولاى على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل.

وترجل أحمس وقواده وحاشيته وصلوا جميعا صلاة حارة.

٢٠

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر، فهتف الجنود لذكرى سيكننرع طويلا. ثم زحف الجيش إلى تنتيرا دون أن يجد أدنى مقاومة وكذلك استرد ديوس بوليس برفا. ثم سار فى طريق أبيدوس وهو يتوق أن يلقى الرعاة فى واديها، ولكنه لم يعثر برجل من العدو، فعجب أحمس وتساءل قائلا:

- أين أبو فيس؟ وأين جيوشه الجرارة؟

فقال حور:

- لعله لا يريد أن يلقى عجلاتنا بمشاته.

- وحتام تدور هذه المطاردة؟

- من يعلم يا مولاى؟.. لعلها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس، حصن الرعاة الحصين الذى شيدوا أسواره فى قرن من الزمان، ولسوف يدمى قلب مصر قبل أن تخترقه جنودنا.

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص، فدخلها دخول الجيش المظفر، واستراح بها يومه..

وكان أحمس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة، ولأنه كان يتوق إلى أن ينغمر فى القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزان فؤاده، ولكن أبو فيس أبى عليه

هذه الراحة، فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة، وقلبه ينازعه إليها على ما به من موجدة عليها. وذكر أحلامه حين ظن أن أسعد الأقدار هى التى دفعتها إلى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنة من جنان الحب. ثم ذكر ما فعل به إباؤها وغضبها، وكيف صيره مريضا محروما من أشهى الثمار وهى ناضجة دانية، وكانت رغبته إلى الحب قوية لا تقاوم فجرفت بتيارها الدافق عوائق التردد والكبرياء، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل، وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفة فى ثوب من أثواب منف الرقيقة. وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلت تنظر إلى ما بين قدميها. وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحس رعدة تصدع صدره، ونازعته الرغبة فى أن يرتمى عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتى من قوة وعزم، ولكنها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة، فلبث حيث هو جامدا، ثم سألها:

- هل زارك الرسل؟

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة:

- نعم.

فجال ببصره فى الحجرة حتى استقر على الصندوق العاجى وقال:

- لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق!

فقالت باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء:

- شكرا لك..

فارتاح فؤاده وقال:

- وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم، ولكنها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدل على الحيرة، فقال أحمس برقة:

- قال الرسل إن هذا العقد عزيز لديك..

فهزت رأسها بعنف وكأنها تنفى عن نفسها تهمة وقالت:

- كنت أكثر من لبسه حقا لأن ساحرة القصر جعلته تعويذة تقى الضر والسوء..

ففطن إلى تهربها، ولكنه لم ييأس وقال:

- ظننت أن ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية.

فتضرج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب:

- لا أذكر اليوم نزوة الأمس، ويجمل بك أن تحدثنى كما ينبغى لعدو أن يحدث أسيرة.

ورأى وجهها قاسيا جامدا فتجرع الخيبة مرة أخرى، ولكنه أراد أن يكتم عواطفه فقال:

- ألم تعلمى بأنا نضم نساء أعدائنا إلى حريم قصورنا؟

فقالت بحدة:

- إلا مثلى..

- هل تعودين إلى التهديد بالصوم؟

- لا حاجة لى به بعد الآن..

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهكما:

- فكيف تدافعين عن نفسك؟

فأرته فى كفيها سلاحا صغيرا لا يزيد طوله عن ظفر وقالت باطمئنان:

- انظر؛ هذا خنجر مسموم، إذا خدشت به جلدى سرى سمه فى دمى فقضى على فى لحظات، دسه إلى الرسول فى غفلة رقبائك، فعلمت أن أبى يضع بين يدى ما أقضى به على نفسى إذا مسنى الضيم أو تحرش بى إنسان.

فغضب أحمس وعبس وجهه وقال:

- أهذا هو سر الصندوق؟.. سحقا لمن يطمئن إلى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة. إن الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم، ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك، فقد دس إليك هذا الخنجر لتقضى به على..

فهزت رأسها كالساخرة وقالت:

- أنت لا تفهم أبو فيس، إنه يأبى إلا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة، أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه كما تعود أن يقضى على أعدائه.

فضرب أحمس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد:

- لماذا كل هذا العناء؟.. فما أزهدنى فى جارية مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد، لقد توهمتك فيها مضى شيئا ليس فيه من حقيقتك شىء، فسحقا للأوهام جميعا..

وتحول الملك عنها وغادر المخدع، وفى الخارج دعا كبير حراسها وقال له:

- لتنقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة..

وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهر الوجه، وعاد فى عجلته إلى المعسكر..

٢١

وضاق الملك بالسكون فأمره قواده بالتأهب. وفي فجر اليوم الثاني زحف الجيش بجموعه الجرارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس في يومين، ولم يظهر حولها أثر للعدو فدخلتها الطلائع في سلام وتبعها الجيش على الأثر. وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة وزفت البشرى إلى الملك أحمس أن بانوبوليس في أيد مصرية، فصاح أحمس:

- لقد أجلى الرعاة من مملكة طيبة.

فقال حور:

- وسيجلون عن مصر قريبا.

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوا ظافرا على أنغام الموسيقى الحماسية، ونفخ في الأبواق إعلانا للنصر، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة، وانتشر الجنود في الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون. وشمل المدينة فرح جنوني خفق في كل صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت في ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان، وقال الملك لرجاله:

- غدا نخترق حدود المملكة الشمالية وترفع على أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ نيف ومائة عام.

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلا..

ولكن في أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها، فقال أحد رجالها إنهم رسل الملك أبو فيس إلى أحمس، فمضى بهم الجنود إلى المدينة، وعلم أحمس بأمر الرسل فذهب إلى قصر حاكم المدينة، ودعا إليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب، وجلس على كرسي الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس في ثيابهم الفخمة. وأذن للرسل بالدخول، وكان المصريون لا يدرون ما يحمله الرسل هذه المرة فانتظروا مشوقين. وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطا من القواد والحجاب في الثياب العسكرية والمدنية تسبقهم لحاهم المسترسلة، ولم يكن يبدو على وجوههم آي التحدي

والغلظة كما توقع أحمس، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعا فى إجلال واحترام حتى كاد الملك أن يعلن دهشته، وقال كبيرهم:

- حياك الرب يا ملك طيبة، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك.

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدل على شيء مما يثور فى نفسه، وقال بهدوء:

- حياكم الرب يا رسل أبو فيس، ماذا تريدون؟

وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب مليكهم، ولكن زعيمهم قال:

- أيها الملك نحن رجال حرب، فى ميدانها نشأنا وعلى سنتها نعيش، شجعان بواسل كما بلوتمونا، نعجب بالبطل وإن كان لنا عدوا، وننزل عند حكم السيف وإن كان علينا. ولقد انتصرت أيها الملك واستردت عرش مملكتك فحق لك ملكها كما حق علينا تسليمها، فهى مملكتك وأنت مليكها. وإن فرعون يقرئك السلام، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحا شريفا يحترم الحقوق ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال.

وأصغى الملك إلى الرسل فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة، ثم نظر إلى لسان القوم وسأله متعجبا:

- أجئتم حقا تنشدون سلاما؟

فقال الرجل:

- نعم أيها الملك.

فقال أحمس بصوت يدل على العزم والحزم:

- إنى أرفض هذا السلام.

- ولماذا تصر على الحرب أيها الملك؟

فقال أحمس:

- يا قوم أبو فيس.. لأول مرة تخاطبون مصريا باحترام، ولأول مرة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات العبودية. أتعلمون لماذا؟ لأنكم غلبتم على أمركم. فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم، وشاة إذا غلبتم، أتسألوننى لماذ أصر على الحرب؟.. فإليكم جوابى: إنى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة، ولكنى عاهدت ربى وقومى على أن أحرر مصر جميعا من نير الظلم والاستبداد، وأن أعيد بها حريتها ومجدها؛ فإذا أراد الذى بعثكم السلام حقا، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال.

فسأله الرسول بصوت غليظ:

- هذه هى الكلمة الأخيرة؟

فقال أحمس بثقة وقوة:

- هى ما افتتحنا به الكفاح، وآخر ما نختتمه به.

فقام الرسل واقفين، وقال رئيسهم:

- ما دمت تريد الحرب فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم حتى يقضى الرب فيها بمشيئته.

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى وغادروا المكان فى خطى ثقيلة.

٢٢

ولبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين، ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبو فيس، فتقدمت جماعات قوية شمال المدينة، والتحمت بقوات صغيرة للعدو فمزقت شملها، ومهدت السبيل للجيش المعسكر فى بانوبوليس، فزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا من قبل فى عدده أو عدته، وأقلع أسطول أحمس إبانا الجبار بسفنه المظفرة. وفى طريق الزحف أبلغت العيون الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة، ولكنه سأل الحاجب حور قائلا:

- ترى هل ما يزال لدى أبو فيس قوة من العجلات يلقانا بها؟

فقال حور:

- ما من شك يا مولاى فى أن أبو فيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه، ولو كان لديه قوة منهم تستطيع أن تفصل فى هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام، على أن الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات، فقدوا الثقة والأمل..

واستمر تقدم الجيش حتى دنا من معسكر عدوه، ولاحت نذر المعركة فى الأفق، وتأهبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك. وصاح أحمس فى القواد قائلا:

سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام ونيف؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدا لآلام الملايين من إخواننا المستعبدين، ولنقدم بقلوب شديدة البأس.. فقد حبانا الرب بالعدد والأمل، وخذل عدونا بالانقراض واليأس وإنى لعلى رأسكم كما كان سيكننرع، وكما كان كاموس.

وأمر الملك طلائعه بالهجوم؛ فانقضت كالنسور الكاسرة، وتحفز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو، فشاهد قوة من العجلات تقدر بمائتى عجلة ترد عليها الهجوم ومحاولة الإحداق بها. وكان الملك شديد الرغبة فى القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس العجلات وانقض على العدو من جميع الجهات، وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوات تفوقهم أضعافا؛ فقذف أبو فيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيد عجلاته المحدودة. ودارت معركة شديدة، ولكن الرعاة لم ينفعهم شجاعتهم وقضى على قوتهم الراكبة..

وبات الجيش ليلته.. وكان أحمس لا يدرى أيلقاه أبو فيس بمشاته مستيئسا أم يفر بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل فى هيراكونبوليس. ووضح الأمر فى الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها والقسى والرماح فى أيدها، ورآهم حور فقال:

- الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاى، ويتعرض أبو فيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرض له مليكنا سيكننرع فى جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام.

فانشرح صدر الملك، وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى. وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجو أمامها سهاما طائرة، فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرق من العدو فيقتلون ويأسرون. وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرضت لرياح الخريف العاتية. وسيطر المصريون على الميدان، وخشى أحمس أن يفلت أبو فيس من يده؛ فهاجم أفروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطئانها، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود. ثم وافته العيون بأن أبو فيس فارق المدينة مع قوات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس، وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين، وقال حور للملك:

- لن تجدى المقاومة فتيلا بعد اليوم، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة.

ولم يأسف أحمس طويلا، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهليها عن كل شىء..

٢٣

وتقدم الجيش فى زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدقون أن الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذل قرنين من الزمان، وأن الذى يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد. ووجد أحمس أن الرعاة قد فروا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم؛ وسمع فى كل مكان طرقه أن أبو فيس مجد فى الهرب بجيشه وقومه إلى الشمال، وهكذا استرد الملك فى شهر من الزمان: هبسيل، وليكوبوليس، وكوسى، ثم بلغ أخيرا هرموبوليس، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس وجنوده، لأن هرموبوليس مسقط رأس الأم المقدسة توتيشيرى، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال فى بيتها العتيد، فاحتفل أحمس بتحريرها، واشترك فى الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعا، ثم كتب الملك إلى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس، ويضمنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط.

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر؛ فدخل تتنوى وسينوبولس وهبنن ثم أرسنوى، وانحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة غير عابئ بمشاق السفر وطول الطريق. وكان أحمس فى أثناء ذلك يحطم الأغلال التى يرسف فيها شعبه البائس، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة، حتى قال له حور يوما:

- إن عظمتك الحربية يا مولاى لا يضارعها شىء فى الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكتك الإدارية، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة، ورسمت السبل التى ينبغى انتهاجها والسنن التى يجب اتباعها، ووليت الحكام الوطنيين، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاما مصريين وقضاة مصريين، فارتفعت الرءوس المنكسة، ولم يعد الرجل يعبأ بسمرته ويعير بها. بل صارت موئله ومفخرته.. ألا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكننرع.

كان الملك يعمل مخلصا مجاهدا لا يعرف اليأس ولا التعب، وكانت غايته التى لا يتحول عنها أن يرد إلى قومه الذين اهتصرهم الذل والجوع والفقر والجهل، العزة والشبع والرغد والعلم.

على أن قلبه لم ينج على كده وانهماكه من همومه الخاصة، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء، وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه: «لقد خدعت.. وما هى إلا امرأة بلا قلب». وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنه وجد روحه تسرى بالرغم منه إلى السفينة التى يعابثها الموج فى مؤخرة أسطوله..

٢٤

واطرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة؛ فظن أحمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت. ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة فى سلام، وعلم أن أبو فيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى؛ فدخل أحمس طيبة الشمال فى حفل لم يشهد له مثيلا من قبل، واستقبله الأهلون استقبالا حماسيا مهيبا، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح. ومكث الملك فى منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية، وطاف بالأهرام الثلاثة، وصلى فى معبد أبى الهول، وقدم القرابين. فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلا استرداد طيبة، وكان أحمس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف، فقال له القائد محب:

- لن يتعرضوا مختارين لبأس عجلاتنا بعد ما بلوها فى هيراكونبوليس وأفروديتوبوليس.

وقال الحاجب حور بثقة:

- إن السفن لا تفتأ تأتى إلينا محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب، وليس أمام أبو فيس إلا الاهتمام بأسوار هواريس.

وتشاوروا جميعا فى الوجهة التى يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم، فقال القائد ديب:

- لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس، فينبغى أن نقصد إليه بقواتنا كاملة.

على أن أحمس كان شديد الحذر؛ فأرسل جيشا صغيرا إلى الغرب عن طريق لنوبوليس، وسير آخر شمالا فى اتجاه أتربيس، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون. وانطوت الأيام وهم يضربون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم. ودخلوا

أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فربيتص وضربوا فى الطريق المؤدى إلى هواريس، وكانت أخبار أبو فيس تترامى إليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافا من البائسين. وقد أحدثت هذه الأخبار فى نفس الملك حزنا شديدا، ورق لحال أولئك الأسرى المستذلين الذين سقطوا فى قبضة الرعاة القاسية..

وأخيرا لاحت فى الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية، فصاح أحمس:

ـ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر.

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينيه الضعيفتين.

ـ حطم أبوابه يا مولاى يخلص لك وجه مصر الجميل..

٢٥

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل، ويمتد سورها شرقا مسافة ينقطع دونها البصر. وكان كثير من الأهلين يعرفون المدينة المحصنة ومنهم من عملوا داخلها أو فى أسوارها، فقالوا لمليكهم: إنه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرة، يليها خندق محيط يجرى فيه ماء النيل، وإن بالمدينة حقولا شاسعة تكفى حاجة إهليها جميعا، وجلهم جنودا ما عدا المزارعين المصريين، وتسقى المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربى وفى حمايته، وتتجه شرقا نحو المدينة.

وقد وقف أحمس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقلبون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية، بدت الجنود فى ذراها كالأقزام. وضرب الجيش خيامه، وامتدت صفوف الجند بحذاء السور الجنوبى، وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى بعيدا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار، وكان أحمس يستمع إلى أقوال الأهلين عن الحصن، و يفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه وعقله لا ينى عن التفكير. وفى أثناء ذلك سير قوات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة، فاستولت عليها دون عناء، وأضحى حصاره للحصن كاملا فى زمن يسير؛ ولكنه كان ورجاله يعلمون أن الحصار عقيم، وأن المدينة مستغنية بنفسها عما عداها، وأن الحصار لو امتد أعواما لن يؤثر فيها شيئا؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فى غير أمل، وأهوال الجو وتقلباته. وفيما كان يجول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم فى الأمر. وقال لهم:

ـ أشيروا على، فإنى أرى الحصار ضياعا للعمر وتبديدا للقوى، وأرى الهجوم ضربا

من العبث وانتحارا صريحا، ولعل العدو يتمنى أن نكر عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم فى خنادقه . . فما الرأى؟

فقال القائد ديب :

ـ الرأى يا مولاى أن نحاصر الحصن بجزء من قواتنا، ونعتبر الحرب منتهية عند ذاك؛ ثم تعلن استقلال الوادى وتباشر واجبك كفرعون مصر المتحدة.

ولكن حور اعترض على الفكرة قائلا :

ـ وكيف تترك أبو فيس آمنا يدرب رجاله ويجدد عجلاته ليكر علينا فيما بعد؟

فقال القائد محب بحماسة :

ـ لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا، والكفاح بذل وفداء، فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة؟

فقال القائد ديب :

ـ نحن لا نضن بنفوسنا، ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء، تهلكة لجنودنا بلا ثمن . .

وكان الملك صامتا متفكرا، فقال وهو يشير إلى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ـ إن هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع، ولكنها قد تظمأ . . .

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة، وقال حور بذهول :

ـ كيف تظمأ هواريس يا مولاى؟

فقال أحمس بهدوء :

ـ بأن نحول عنها مياه النيل . . .

فنظر الرجال مرة أخرى إلى النيل وهم لا يصدقون أنه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه، وتساءل حور :

ـ هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار؟

فقال أحمس :

ـ لا يعوزنا المهندسون ولا العمال . . .

ـ وكم يقتضينا من الوقت يا مولاى؟

ـ عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام . . ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة. ينبغى أن يتحول النيل شمالى فربتتس إلى مجرى جديد يتجه غربا نحو مندس، كى يختار أبو فيس بين الموت جوعا وظمأ أو الخروج لقتالنا. وسيغفر لى شعبى أنى

عرضت من فى هواريس من المصريين للخطر والهلاك. كما غفر لى أنى فعلت ذلك ببعض نساء طيبة . . .

٢٦

وتهيأ أحمس للعمل العظيم فاستدعى مهندسى طيبة المشهورين، وعرض عليهم فكرته فتوفروا على دراستها باهتمام وشغف، ثم قالوا للملك: إن فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدهم بآلاف العمال. وعلم أحمس أن مشروعه لن يتحقق قبل مضى عامين فلم يركن إلى اليأس، ولكنه بعث بالرسل إلى البلدان يحثون على التطوع فى العمل العظيم المنوط به تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه. وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتى اجتمع منهم عدد يكفى للبدء فى العمل، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسا وضربه فى الأرض معلنا ابتداء العمل. فتبعته السواعد المفتولة التى تكد على سجع الأناشيد والأغانى.

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليومى تحت إشراف الضباط والقواد، أما الملك فكان يزجى فراغه بالخروج إلى الصحراء الشرقية طلبا للصيد والطراد والسباق، وفرارا من نوازع قلبه ونزوات هواه، وفى فترة الانتظار هذه حمل إليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى قالت فيها:

«مولاى ابن آمون. فرعون مصر العليا والسفلى، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز. إن دابور الصغيرة اليوم جنة من جنان السعادة والأفراح بفضل ما حمله إليها رسلك من أنباء النصر المبين الذى فتح به الرب عليك، وإن انتظارنا اليوم فى دابور غير انتظارنا بالأمس؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل، وما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حررت من الهوان والعبودية، وأن عدوها ومذلها حبس نفسه بين جدران حصنه، ينتظر خانعا القضاء الذى تقضى به عليه. .

وقد شاء الرب القدير أن يحبوك - أنت الذى أذللت عدوه، وأعليت كلمته - بعطفه ورحمته، فرزقك بغلام نورا لعينيك ووليا لعهدك، دعوته أمنحتب تبركا بالرب المعبود، وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجده وجد أبيه من قبل، وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولى عهد مملكة عظيمة متعددة الأجناس واللغات والأديان، يرعاها أبوه الحبيب . . .».

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ودرت أضلعه الحنان، وفرح فرحا عظيما أنساه

بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت، وآذن رجاله بمولد ولى عهده أمنحتب فكان يوما مشهودا .

٢٧

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنها حافلة بجلائل الأعمال التى اشتركت فى إنجازها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم؛ وكانوا جميعا لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم إلى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى، ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدمها يخفق علم أبيض، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب؛ فسألوهم عن وجهتهم؟ فقال كبيرهم : إنهم رسل الملك أبو فيس إلى الملك أحمس. وطير الحراس النبأ إلى الملك؛ فعقد الملك مجلسا من حاشيته وقواده فى سرادقه، وأمر بإدخال الرسل إليه. وجىء بالرجال يسيرون فى تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبو فيس، وانحنوا بين يدى الملك وحياه كبيرهم قائلا :

- حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس قائلا :

- وحياكم يا رسل أبو فيس . . ماذا يريد ملككم؟

فقال الرسول :

- أيها الملك، إن رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت. ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنا فيهما السادة المعبودين، ثم قضى علينا بالهزيمة فغلبنا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا، ونحن أيها الملك رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة كما قدرنا على جنى ثمار النصر .

فقال أحمس غاضبا :

- أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا المجرى الجديد الذى يحفره قومى فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم وقال :

- كلا أيها الملك، نحن لا نستعطف أحدا ولكنا نقر بالهزيمة، وقد أرسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء : فإما الحرب إلى النهاية، وفى هذا الحال

لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا ، ولكنا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك فى ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلا كاره للحياة متعطش للانتقام .

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثم استدرك قائلا :

ـ وإما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ونخلى هواريس ، ونولى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون ؛ وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل ، فعلم الملك أنه ينتظر جوابه ، ولم يكن الجواب حاضرا ولا مما تسعف فيه البداهة ، فقال للرسول :

ـ هلا انتظرت حتى نقطع برأى؟

فقال الرسول :

ـ كما تشاء أيها الملك ، فقد أمهلنى مولاى نهار اليوم .

٢٨

واجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم :

ـ أشيروا على برأيكم .

وكانوا جميعا على رأى بغير تشاور ولا اتفاق . فقال حور :

ـ مولاى لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة ، فمحوت بذلك آثار الهزائم التى ابتلينا بها فى ماضينا الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين . فلا تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا ، ونوفر على أنفسنا بذلا للنفوس لا يدعو واجب إليه ، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، وسيحرر وطننا إلى الأبد .

وقلب الملك عينيه فى وجوه قومه فوجد منهم حماسة إجماعية لقبول الفكرة . وقد قال القائد ديب : لقد أدى كل جندى من جنودنا واجبه كاملا ، وإن ارتداد أبو فيس إلى الصحراء لهو أشد نكالا من ذوق الموت .

وقال القائد محب :

ـ إن هدفنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة وإجلاؤهم عن ربوعه؛ وقد يسر لنا الرب ذلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذل باختيارنا .

وقال أحمس إبانا :

ـ إننا نشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة .

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال :

ـ نعم الرأى ، ولكننى أرى أن ينتظر رسول أبو فيس فترة أخرى حتى لا يظن إسراعنا إلى موافقته على الرأى السلمى لضعف أو ملل الكفاح .

وغادر الرجال السفينة وخلا الملك إلى نفسه ، وكان على توافر دواعى الابتهاج له كئيبا ضيق الصدر . لقد كلل كفاحه بالفوز المبين وجثا له عدوه الجبار ، ومن الغد يحمل أبو فيس متاعه ويفر إلى الصحراء التى جاء منها قومه خاضعا لإرادة القضاء الذى لا يرد . فما باله لا يفرح ولا يبتهج؟ . . أو ما بال فرحه ليس صافيا وابتهاجه ليس كاملا؟ . . لقد حمت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا إذا رجع إلى قصر طيبة وحملت هى إلى بطن الصحراء المجهولة؟ . . أيتركها تذهب دون أن يتزود منها بنظرة وداع؟ . . وأجاب قلبه أن لا . وحطم أغلال التجلد والكبرياء ، وقام واقفا وفارق المقصورة ، وأخذ زورقا إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه : «مهما يكن من استقبالها فسأجد ما أقوله» . وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فحياه الحراس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر على ديوان ، والظاهر أنها لم تكن تتوقع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والإنكار . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهده بها ، ورأى ملامحها كيوم حفرت فى قلبه على ظهر السفينة الفرعونية ، فعض شفته وقال لها :

ـ أنعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت إليه عينين لم تذهب منهما الدهشة وكأنها لا تدرى بماذا تجيب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدل على شىء :

ـ أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فلاح فى وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول :

ـ ألا تسمعين ما أقول؟ . . أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة . انتهى أسرك أيتها الأميرة وأصبحت الحرية حقا لك .

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء فى عينيها . فقالت بلهفة :

ـ أحق ما تقول؟ . . أحق ما تقول؟

ـ إن ما أقول حق واقع .

فأضاء وجهها وتورد خداها ، ثم ترددت هنيهة وتساءلت :

ـ ولكن كيف كان ذلك؟

ـ آه إنى أقرأ فى عينيك آمالك الطموح ، ألست تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى رد إليك حريتك؟ . . إنى أقرأ هذا ، ولكنها هزيمته وأسفاه التى أنهت عبوديتك .

فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تم الاتفاق عليه ، ثم قال وعما قليل تحملين إلى أبيك وترحلين معه إلى حيث يرحل ، فمبارك عليك هذا اليوم .

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضت طرفها ، فسألها أحمس :

ـ أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك؟

فقالت :

ـ يجدر بك ألا تشمت بى ، فسنغادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

فقال أحمس بجزع ظاهر :

ـ لست أشمت بك أيتها الأميرة ، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح :

ـ شكرا لك أيها الملك .

وسمعها لأول مرة تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ أراك تدعيننى ملكا أيتها الأميرة؟

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ لأنك ملك هذا الوادى دون شريك ، أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك ولم يكن يتوقع أن تلين شكيمتها على هذا النحو . . ظن أنها تزداد بالهزيمة صلفا ، فقال بحزن :

ـ أيتها الأميرة ، إن ذكريات الدنيا سجل اللذة والألم ، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرها ولا يزال أمامكم غد .

فقالت بطمأنينة عجيبة :

ـ نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء المجهولة ، وسنلقى حظنا ببسالة .

ساد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ؛ فذكر صاحبة

المقصورة التى أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان، وكأنه يراها لأول مرة بعد ذاك العهد الطويل، فزلزل فؤاده وقال بجد وجزع:

- عما قليل يفرق بيننا البين ولن تبالى ذلك، ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة.

فلاح فى عينيها الحزن وافتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت:

- أيها الملك إنك لا تعرف عنا إلا القليل.. نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان.

- لم أرد بك الهوان قط.. ولكن غرنى الأمل إدلالا بمنزلة كنت أظنها لى عندك.

فقالت بصوت خافت:

- أليس من الهوان أن أفتح ذراعى لآسرى وعدو أبى؟

فقال بمرارة:

- إن الحب لا يعرف هذا المنطق.

فلاذت بالصمت، وكأنها أمنت على قوله فتمتمت بصوت خافت لم يسمعه: «لا ألوم إلا نفسى». ورنت بعينيها رنوا تائها، وبحركة فجائية مدت يدها إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام. وتتبعها بعينين لا تصدقان، ثم ارتمى إلى جانبها غير متمالك، وأحاط عنقها بذراعه وضمها إلى صدره بجنون وعنف، ولم تقاومه ألبتة، ولكنها قالت بحزن:

- حذار.. لقد فات الأوان.

فاشتد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدج:

- أمنريدس.. كيف هان عليك أن تقولى هذا؟.. بل كيف لا أكتشف سعادتى إلا حين وشك زوالها؟.. كلا لن أدعك تذهبين.

فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له:

- وماذا أنت فاعل؟

- سأبقيك إلى جانبى.

- ألا تدرى بما يقتضيه بقائى إلى جانبك؟.. هل تجود من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلا وكأنه يحادث نفسه:

- لقد استشهد أبى وجدى فى سبيل قومى ووهبتهم حياتى، فهل يضنون على قلبى بالسعادة؟

فهزت رأسها أسفا وقالت برقة :

ـ أصغ إلى يا إسفينيس ، ودعنى أدعك بهذا الاسم العزيز لأنه أول اسم أحببه فى دنياى ، ما من الفراق بد . . سنفترق . . سنفترق . . فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبهم ، ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى . فليتحمل كل منا نصيبه من الألم .

فنظر إليها بذهول وكأنه يأبى أن يكون كل نصيبه من الحب أن يرضى بالفراق وتحمل الألم ، وقال لها برجاء :

ـ أمنريدس ، لا تتعجلى اليأس وأشفقى من ذكر الفراق . فإن جريه على لسانك فى يسر يبعث الجنون فى دمى . . أمنريدس . . دعينى أطرق جميع الأبواب حتى باب أبيك ، فما يكون لو طلبت إليه يدك؟

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهى تمس يده برفق :

ـ واأسفاه يا إسفينيس أنت لا تعى ما تقول ، هل تظن أبى يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربع على عرشها؟ . . أنا أعرف بأبى منك فليس ثمة فائدة ترجى ، وما من وسيلة سوى الصبر .

وأصغى إليها ذاهلا وكان يتساءل : «أحق أن التى تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هى الأميرة أمنريدس التى لم تكن الدنيا تسعها جنونا واستهتارا وكبرا؟» . وبدا لعينيه كل شىء غريبا منكرا ، فقالت بغضب :

ـ إن أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرق بينه وبين من يحب . . » .

ـ أنت ملك يا مولاى ، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبا ، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيبا من شعاع الشمس ونسائم الهواء ، وأكثر تعرضا لثورة الريح واقتلاع الزوابع .

فأنّ أحمس قائلا :

ـ آه ما أشقانى . . لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى .

فخفضت عينيها وقالت ببساطة وصدق :

ـ وطرق الحب قلبى فى ذلك اليوم عينه ، ولكنى لم أكتشفه إلا فيما بعد . وتيقظت عواطفى ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلنى إشفاقى على دائى ، وبت ليلتى حائرة مضطربة لا أدرى ماذا أصنع بهذا المولود الجديد . . حتى غمرنى السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيى .

ـ فى المقصورة؟ . . أليس كذلك؟

- نعـــم .
- أواه . . كيف تكون حياتى بدونك .
- تكون كحياتى بدونك يا إسفينيس .

فضمها إلى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقهما ييئس منهما شبح الفراق الماثل أمامهما . وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير فى ساعة واحدة . وطرق كل سبيل من الفكر يبغى حلا فاعترضه اليأس والقهر ، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه . وأحس كل منهما أنه آن أن ينفصلا ، ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا فلبثا كشىء واحد .

٢٩

وغادر أحمس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماه ، وكان ينظر إلى شىء فى كفه ويتمتم قائلا : «أهذا كل ما تبقى لى من حبى؟» . وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، أهدتها إليه الأميرة تذكارا واحتفظت بالقلب لنفسها . وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة ، وقصد الملك إلى السرادق ودعا برسول أبو فيس وقال له :

- أيها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا . ولما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم وهو ما رضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنا للدماء . وسنتبادل الأسرى فى الحال ، ولكننى لن آمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس ، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادى .

فأحنى الرسول رأسه وقال :

- نعم الرأى الذى رأيت أيها الملك ، فإن الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلا وتذبيحا .

فقال أحمس :

- الآن سأترككم لتبحثوا معا فى تفاصيل التبادل والإجلاء .

وقام الملك فقام الجميع وقوفا وانحنوا له إجلالا ، فحياهم بيده وغادر المكان .

٣٠

وفى مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى؛ ففتح باب من أبواب هواريس و خرجت منه جماعات الأسرى نساء و رجالا، وكانوا يهتفون لمليكهم مسرورين ويلوحون بأيديهم، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس إلى المدينة فى سكون ووجوم.

وفى غداة اليوم الثانى بكر أحمس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقيه ليشهدوا خروج الرعاة من أخر مدينة مصرية، وكانو لا يخفون جذلهم، وتتألق وجوههم بنور الفرح والابتهاج، وكان القائد محب يقول:

- عما قليل يأتى حجاب أبو فيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك، كما أسلمت مفاتيح طيبة الى أبوفيس قبل أحد عشر عاما.

وجاء الحجاب كما قال القائد محب، وقدموا إلى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس رصت به مفاتيح هواريس، فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر، ورد تحيه الرجال الذين عادوا من حيث أتوا فى سكون وصمت.

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها فى جنبات الوادى، فتطلع أصحاب الهضبة صامتين. وبرزت أولى جماعات الخارجين، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمها أبو فيس لاستطلاع الطريق المجهول، وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغال والحمير وبعضهن يحملن فى الهوادج، وقد استغرق خروجهن ساعات طويلة. ثم بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيره تجرها الثيران، فعلم الناظرون أنه أبو فيس وآل بيته، وقد خفق فؤاد أحمس لمرآه وقاوم دمعة حرى أحس انتزاعها من حناياه، وتساءل: ترى فى أى مكان هى؟.. وهل تجد فى البحث عنه كما يجد فى البحث عنها؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به؟.. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه؟ وتابع الركب بناظريه لا يلتفت إلى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب، ومازال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيبهم الأفق وابتلعهم الغيب.

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول:

- فى هذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس، ويكلل كفاح طيبة التى لا تعرف اليأس بالفوز المبين.

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتل اسوارها المنيعة، وبات فيها حتى فجر

الغداة، وزحف أحمس بفرقة العجلات شرقا تتقدمه طلائعه فدخل تنيس ودفنى، وهناك جاءته العيون وهنأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر. فعاد الملك إلى هواريس، وأمر أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كل فرقة ضباطها وقائدها، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته، ثم جثوا جميعا فى خشوع وصلوا للرب صلاة حارة. وختم أحمس صلاته بإن دعا ربه قائلا:

- أحمدك وأشكر لك أيها الرب المعبود، فقد وصلت جناحى وثبت قلبى، واكرمتنى بقبول الغاية التى استشهد فى سبيلها جدى وأبى، فاللهم ألهمنى الصواب وأيدنى بالعزم والأمان لأضمد جراح شعبى، واجعله خير عابد لخير معبود..

ثم دعا أحمس رجاله إلى الاجتماع به فلبوا سراعا، فقال لهم:

- اليوم تنتهى الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا، ولكن الكفاح لن ينتهى أبدا. وصدقونى أن السلام أكبر من الحرب حاجة إلى يقظة النفوس وتوثب العزائم، فأعيرونى قلوبكم لنبعث مصر بعثا جديدا. ونظر الملك فى وجوه رجاله قليلا ثم استطرد:

- وقد رأيت أن أبدأ كفاح السلام باختيار اعوانى المخلصين: لذلك أعهد إلى حور بالوزارة.

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبل يده، فقال الملك:

- وأرى أن سنب خير خلف لحور فى قصرى. أما ديب فهو رئيس الحرس الفرعونى.

ونظر الملك إلى محب وقال:

- وأنت يا محب قائد جيشى العام.

ثم التفت إلى أحمس إبانا وقال:

- وأما أنت فقائد الأسطول، وسترد إليك ضياع أبيك القائد الباسل ببيى. ووجه الملك كلامه إلى الجميع قائلا:

- والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدى كل واجبه.

وتساءل حور قلقا:

- ألا يعود فرعون على رأس جيشه الى طيبة؟

فقال أحمس وهو يهم قائما:

- بل ستقلع بى سفينتى إلى دابور لأزف بشرى النصر إلى أسرتى ثم أعود معها إلى طيبة، فندخلها جميعا كما تركناها جميعا.

٣١

وأقلعت السفينة الفرعونية فى حراسة ثلاث سفن حربية، وكان أحمس ملازما المقصورة ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى . . واستغرقت الرحلة أياما ثم لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة، ورسا الأسطول على شاطئها عند الاصيل، وغادره الملك وحرسه فى ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبين، وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم. وذاع فى المدينة أن رسولا فرعونيًا كبيرًا جاء يزور اسرة سيكننرع، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم، فلما شارفه رأى الحاكم والاسرة الفرعونية فى فناء القصر ينتظرون، وطلع الملك عليهم، فعقدت الدهشه والفرح ألسنتهم، وجثا رؤوم على ركبتيه، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه. وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى؛ فقبل خديها وجبينها ونظر فرأى أمه الملكة ستكيموس مادة زراعيها، فضمها إلى صدره وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها؛ فدنا منها وقبل يديها وجبينها. وأخيرًا رأى توتيشيرى . . أخيرة القوم وأعزهم، توتيشيرى التى كللها المشيب وأذبل خديها الكبر، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول:

- أماه وأم الجميع . . .

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهى ترفع إليه عينيها:

- دعنى أنظر إلى صورة سيكننرع الحية.

فقال أحمس:

- اخترت يا أماه أن أكون الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم، فاعلمى يا أماه أن جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبو فيس وقومه وطردهم إلى الصحراء التى جاءوا منها وحرر مصر جميعا من عبوديتهم، فحق وعد آمون وطابت نفس سيكننرع وكاموس . . .

فتهلل وجه توتيشيرى وومضت عيناها الكليلتان وقالت بفرح:

- اليوم يفك أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كعهدى بها مدينة المجد والسيادة، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيت المجيد.

وجاءت وصيفة الملكة السيدة راى تحمل ولى العهد بين ذراعيها، فانحنت للملك وقالت:

ـ مولاى قبل طفلك الصغير وولى عهدك أمنحتب .

فلانت نظرة عينيه ودرت حناياه حنانا دفاقا ، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به شفتاه المشوقتان ، وابتسم أمنحتب إلى أبيه وعابثه بيديه الصغيرتين .

ثم دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة والطمأنينة ، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم .

٣٢

وحمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية ، ثم انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالى دابور جميعا . وقبل أن ترفع السفينة مراسيها ، دعا أحمس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله :

أيها الحاكم الامين ؛ أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة ، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا إذ لا وطن لنا ، ومأوانا حين عز النصير ومات الصديق ، ومدخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعى إلى الكفاح . فلا تنس صنيعها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرمها شيئا نتمناه لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها .

ثم أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشق طريقها نحو الشمال تحمل قوما تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها . . وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة ، فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج إليها رجال الجنوب فى سفينة الحاكم شاو ، وأحاطت بها زوارق الأهالى يهتفون ويغنون . وصعد إلى صطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسيين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه . ثم انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطئان وتطوف به القوارب ويصعد إلى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان . ومازالت السفينة تجد فى السير حتى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح فى الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد ، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق ، ويتجلى فى نظراتهم الحنين والوجود ، وتفيض أعينهم بدمع الشكران ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت : «طيبة . . طيبة» . وقالت الملكه أحوتبى بصوت متهدج :

ـ رباه ما كنت أتصور ان يقع بصرى مره أخرى على هذه الأسوار .

وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة فى ريح مؤاتية حتى استطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم على الشاطئ ينتظرون ، فعلم أحمس أن طيبة تزجى أولى

تحياتها لمخلصها، فعاد إلى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله. وأدى الجنود التحية العسكرية للسفينة الفرعونية، وصعد إلى سطحها رجال طيبة؛ وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور، والقائدان محب وأحمس إبانا، ورئيس الحرس الفرعونى ديب، وكبير الحجاب سنب، وحاكم طيبة توتى آمون. ثم كاهن طاعن فى السن محترق الشعر شيبا يتوكأ على صولجانه ويسير بخطى وئيدة منحنى القامة وسجد الرجال جميعا لفرعون وقال له حور:

- مولاى محرر مصر ومخلص طيبة وقاهر الرعاة، فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال، إن طيبة جميعا فى الأسواق تنتظر على شوق ولهفه مقدم أحمس ابن كاموس بن سكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعا أحر ما جمعت عليه صدرها من التحية والسلام.

فابتسم أحمس وقال:

- حياكم الرب أيها الرجال المخلصون، وحيا طيبة المجيدة مبدئى وغايتى.. وأومأ حور إلى الكاهن الجليل وقال:

- مولاى.. ائذن لى أن أقدم إلى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون.

فنظر إليه أحمس باهتمام، ومد له يده مبتسما وقال برقة:

- يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر..

فلثم الكاهن يده وقال:

- مولاى فرعون مصر وابن آمون، مجدد حياة مصر ومحيى سير الأعظمين من ملوكها. لقد كنت يا مولاى آليت على نفسى ألا أبرح حجرتى ما دام فى مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلوا طيبة وقتلوا سيدها المجيد، وأهملت نفسى فغزر شعر رأسى وجسدى، وقنعت من الدنيا بلقمات أتبلغ بها وجرعات من الماء القراح كى أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع، وما زلت حتى قيض الله لمصر ابنه أحمس، فحمل على عدونا حملة صادقة ومزق شمله وطرده من بلادنا، فعفوت عن نفسى وأطلقت سراحى، لأستقبل الملك المجيد وأدعو له.

فابتسم الملك إليه، واستأذن الكاهن فى السلام على الأسرة فأذن له، فقصد إلى توتيشيرى وسلم عليها، وعدل إلى الملكة أحوتبى وكان من المقربين إليها على عهد سيكننرع، ثم قبل ستكيموس ونيفرتارى، ثم قال حور لمولاه.

- مولاى: إن طيبة تنتظر مولاها، والجيش مصطف فى الطرق، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء.

فسأل أحمس قائلا:

ـ وما رجاء كاهننا الأكبر؟

فقال الكاهن باحترام :

ـ أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونى .

فقال أحمس مبتسما :

ـ يا له من رجاء فى تحقيقه الغنم والسعادة .

٣٣

وغادر أحمس السفينة تتبعه الملكات ورجال مملكته، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول، فرد الملك تحيتهم. وصعد إلى هودج فرعونى جميل، واعتلت الملكات هوادجهن، ورفعت الهوادج وتقدمتها فرقة من الحرس الملكى، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى، وتقدم الموكب الملكى نحو باب طيبة الجنوبى الوسيط، وكان مزينا بالأعلام والأزهار، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب .

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية، وقد نفخ فى الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين .

ونظر أحمس فيما حوله فرأى منظرا عجبا يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعا فى نظرة واحدة، رأى أجسادا تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحا خالصة من العبادة والحب والحماسة. وضج الجو بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الام المقدسة فى مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل فى عنفوان القوة والشباب. وشق الركب طريقه كانما يخوض بحرا لجيا عبابا، تتعلقه الأنفس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون فى ساعات .

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون، ودعوا له طويلا وساروا بين يديه إلى بهو الأعمدة، حيث قدمت القرابين على المذبح. وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردد فى القلوب فتره طويلة، ثم قال الكاهن الأكبر للملك :

مولاى ائذن لى فى الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

فأذن له الملك، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا يسيرا، ثم ظهر الكاهن مرة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب، فوضعوها جميعا

أمام الأسرة باحترام وإجلال، وتقدم نوفر آمون حتى وقف أمام أحمس، وقال بصوت ساحر نفاذ:

ـ مولاى، إن ما أعرض على أنظاركم لهى أنفس مخلفات المملكة المقدسة، عهد بها إلى لأثنى عشر عاما خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبى لتكون فى مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع. أما التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جثته المحنطة التى اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجل كل جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية، أما العرش فهو عرشه المجيد الذى أدى حقه وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية التى آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون إلى ذل السلامة.

وأما هذا الصندوق الذهبى فيحتوى على تاج مصر المزدوج، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبو فيس، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه جميع أهل الوادى.. هذه يا مولاى ودائع بيبى المقدسة، أحمد الرب أن مد فى عمرى حتى رددتها إلى أصحابها، داموا للمجد ودام لهم.

وتحولت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونى، ثم سجدوا جميعا وفى مقدمتهم الأسرة الفرعونية وصلوا خاشعين.

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به، وكان الصمت يشملهم جميعا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم، وأحست توتيشيرى لأول مرة تخاذلا وخورا، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظريها التابوت المحبوب، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأم المقدسة ويسكن آلام قلبها، فقال لنوفر آمون:

ـ أيها الكاهن الأكبر، احتفظ بهذا التابوت فى قدس الأقداس حتى يودع فى مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه.

فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثوى الرب المعبود، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج، ودنا من أحمس فى إجلال وتوج به رأسه المجعد، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعا: «يعيش فرعون مصر».

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المثوى المقدس فساروا جميعا، وكانت توتيشيرى ما تزال تتوكأ على ذراع أحمس، واجتازوا العتبة المقدسة التى تفصل بين الدنيا والآخرة، وسجدوا للرب المقدس ولثموا الستائر المسدلة على تمثاله، وصلوا صلاة الشكر والحمد أن هيأ لهم الفوز وردهم إلى وطنهم ظافرين.

وغادر الملك إلى هودجه وكذلك الملكات، وحمل العرش على عربة كبيرة، واستأنف الموكب سيره إلى القصر بين الجموع الهاتفة الداعية، المهللة المكبرة، الملوحة بالأغصان

الناثرة الزهور، فبلغوا القصر القديم عند الأصيل، وكان التأثر قد بلغ من نفس توتيشيرى مبلغا كبيرا فاشتد خفقان قلبها واضطربت أنفاسها، فحملت فى هودجها إلى جناحها الملكى، ولحقت بها الملكات والملك، وجلسوا بين يديها قلقين، ولكنها استعادت هدوءها وعادت بقوة إرادتها وإيمانها فاستوت جالسة ونظرت فى الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت ضعيف:

ـ معذره يا أبنائى، لقد خاننى قلبى لأول مرة، ولشد ما تحمل هذا القلب ولشد ما صبر، فدعونى أقبلكم جميعا، ففى مثل سنى يعجل بلوغ الأمل بالنهاية.

٣٤

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لايعرف النوم إلى أجفانها سبيلا، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل فى طرقاتها وضواحيها، ويجتمع الناس فى ميدانها ينشدون ويهتفون، وتسجع ديارها بالأغانى والألحان. فى تلك الليلة لم ينم أحمس على ما به من تعب ونصب. ونبا به الفراش فخرج إلى الشرفة المطلة على حديقة القصر الفيحاء، وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت، وساحت روحه فى الظلام الجاثم، وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنو وإشفاق، ينظر إليها بين الفينة والفينة كأنما يستمد منها أفكاره وأحلامه.

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابة نيفرتارى وكان الفرح ينفى الكرى عن عينيها، فظنت أن زوجها فى مثل سرورها، فجلست إلى جانبه جذلة منشرحة الصدر، وانعطف الملك إليها مبتسما فوقع بصرها على السلسلة فى كهفه فتناولتها بدهشة وقالت:

ـ أهذا عقد؟.. ما أجمله.. ولكنه مبتور.

فقال وهو يجمع أشتات فكره:

ـ نعم.. فقد قلبه.

ـ وا أسفاه.. وأين فقد؟

فقال:

ـ لا أدرى إلا أنه ضاع على غير إرادتى...

فنظرت إليه بمودة وسألته:

ـ أكنت تنوى أن تهديه إلىّ؟

فقـــال:

ـ إنى أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل.

فقالت :

ـ فكيف تأسف عليه إذن؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيا هادئا :

ـ إنه يذكرنى بأيام الكفاح الأولى، حين خرجت أطلب طيبة متخفيا فى ثياب التجار داعيا نفسى إسفينيس، فكان فيما أعرض على الناس للشراء . . فيا للذكرى الجميلة . . نيفرتارى، أود أن تدعونى إسفينيس، فهو اسم أحبه وأحب عهده وأحب من يحبه .

وأدار الملك وجهه ليخفى ما ارتسم عليه من التأثر والحنين . فابتسمت الملكة بسرور، ولاحت منها نظرة إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء، فقالت وهى تشير بيدها :

ـ أنظر الى هذا المشعل . .

فألقى أحمس بصره إلى حيث تشير، ثم قال :

ـ هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة . .

وكأن صاحب القارب تعمد أن يدنو من حديقة القصر ليسمع أهله القادمين جمال صوته، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعا، فرفع عقيرته متغنيا فى سكون الليل يردد سجعه مزمار :

«كم رقدت فى غرفتى منذ سنين»

«أعانى ألم داء وجيع»

«فعادنى الأهل والجيران»

«وزارنى العرافون والأطباء»

«فأعيا الداء أطبائى وجيرانى»

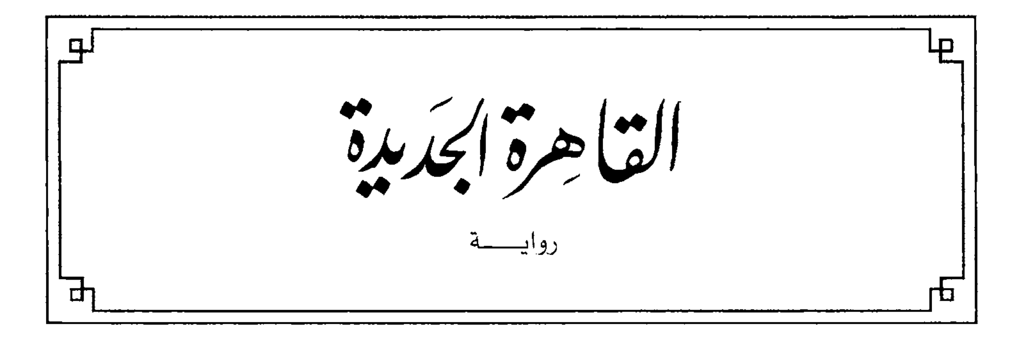
«حتى جئت أنت يا حبيبى»

«فبرع سحرك الطب والرقى»

«لأنك أنت تعرف سر دائى»

وكان صوته جميلا يأخذ السمع، فأنصت أحمس ونيفرتارى، وكانت الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف وحنان، وكان الملك ينظر الى ما بين قدميه بعينين شبه مغمضتين، تنوح فى قلبه الذكريات . .

(تمت)



١

مالت الشمس عن كبد السماء قليلا، ولاح قرصها من بعيد فوق القبة الجامعية الهائلة، كأنه منبثق منها إلى السماء؛ أو عائد إليها بعد طواف، يغمر رءوس الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية والطريق الكبير الذى يشق حدائق الأورمان بأشعة لطيفة: امتصت برودة يناير لظاها، وبث فى حناياها وداعة ورحمة. وقد قامت القبة على رأس صفين من الأشجار الباسقة امتدت مع الطريق، فلاحت كإله يجثو بين يديه كهنته العابدون ساعة العصر والسماء متجلية فى صفاء، مطرزة بعض نواحيها المترامية بسحائب رقاق: والهواء يتخبط بين الأشجار باردا فترجع أوراقها أنينه ونحيبه.

فى السماء دارت حدآت حيارى: وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة. كانوا يغادرون الفناء الجامعى إلى الطريق مشتبكين فى أحاديث شتى، ثم لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس، يسرن فى خفر ويخلصن نجيا. وكان ظهور الفتيات فى الجامعة لا يزال حدثا طريفا يستثير الاهتمام والفضول، خاصة للطلبة المبتدئين؛ فجعل هؤلاء يتبادلون النظرات ويتهامسون، وربما علت أصواتهم فبلغت آذان زملائهم. قال طالب:

- لا يوجد وجه واحد بينهم يوحِّد الله؟

فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخل من تهكم:

- إنهن سفيرات العلم لا الهوى..

فقال ثالث بحمية انتقادية، وهو يتفحص ظهور الفتيات المهزولات:

- ولكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى!

فقهقه الأول ضاحكا وقال مدفوعا بروح الاستهتار والادعاء:

- أذكر أننا فى الجامعة، وأن الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى!

- منطقى جداً ألا يذكر الله، أما الهوى..؟

فقال أحدهم بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالِم:

ـ الجامعة عدو لله لا للطبيعة . .

ـ نطقت بالحق . ولا يؤيسنَّكم قبح هؤلاء الفتيات . فهن دفعة أولى للجنس اللطيف وسيتبعهن أخريات . الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن تنتشر ، وإن غداً لناظره قريب . .

ـ أتحسب أن فتياتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن على السينما مثلا؟

ـ وأكثر . وسترى هنا فتيات على غير هذا المثال السيئ .

ـ وسيزحمن الشباب بلا رحمة .

ـ الرحمة هنا رذيلة .

ـ ولن يكلفن أنفسهن مشاق الحشمة ، فالقوى لا يحتشم !

ـ وربما استعرَت بين الجنسين نار !

ـ ما أجمل هذا . . !

ـ وانظر إلى الأشجار والخمائل ! إن الحب يتولد فيها من تلقاء نفسه كما تتولد الديدان فى قدور المش .

ـ رباّه ! . هل ندرك ذلك العصر السعيد؟ !

ـ بيدك أن تنتظره إذا شئت . . ؟

ـ نحن فى بدء الطريق والمستقبل باهر .

وانتهوا من الحديث العام : وتناولوا الفتيات ـ فتاة فتاة ـ بالتهكم المرير ، والسخرية اللاذعة . .

* * *

وكان أربعة يسيرون معا على مهل ، يتحادثون أيضا وربما أصغوا بانتباه إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب . كانوا من طلبة الليسانس ، يشارفون الرابعة والعشرين : وتلوح فى وجوههم عزة النضوج والعلم . . ولم تكن تخفى عليهم خطورة شأنهم ، أو بالحرى كانوا يشعرون بها أكثر مما ينبغى . قال مأمون رضوان بلهجة انتقادية :

ـ لا حديث للفتيان إلا الفتيات !

فقال على طه معقبا على انتقاد زميله :

ـ وماذا عليهم من ذلك؟ إنهما نصفان يطلب أحدهما الآخر منذ الأزل . .

وقال محجوب عبد الدائم :

ـ اعذرهم يا أستاذ مأمون ، فاليوم الخميس ، والخميس عند الطلبة يوم المرأة بلا منازع .

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة ـ وهو طالب وصحافى معًا ـ وقال بنبرات خطابية :

ـ أدعوكم أيها الإخوان إلى إعلان آرائكم فى المرأة، على ألا يزيد البيان عن كلمات معدودات . ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان؟!

فارتبك الشاب، ثم ابتسم قائلا :

ـ أتريد أن تحملنى على حديث أنتقد الغير على خوضه . . ؟

ـ لا تحاول الهرب، هلم، كلمات معدودات، أنا صحافى والصحافى لاييأس من حديث أبدا . .

وكان مأمون رضوان يعلم أن مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم قائلا :

ـ أقول ما قال ربى، فإن رغبت فى معرفة أسلوبى الخاص، فالمرأة طمأنينة الدنيا، وسبيل وطىء لطمأنينة الآخرة .

وتحول أحمد بدير إلى على طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه .

فقال الشاب :

ـ المرأة شريك الرجل فى حياته كما يقولون، ولكنها شركة دعامتها ـ فى نظرى ـ ينبغى أن تكون المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات .

فالتفت أحمد بدير إلى محجوب عبد الدائم وسأله ضاحكا :

ـ ورأى شيطاننا العزيز؟

فقال محجوب عبد الدائم باهتمام مسرحى :

ـ المرأة . . صمام الأمن فى خزان البخار . .

فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه . ثم سألوا أحمد بدير :

ـ وأنت ما رأيك؟

فقال الشاب باستهانة :

ـ على الصحافى أن يسمع لا أن يتكلم، خاصة فى عهدنا الحاضر .

٢

وانعطفوا مع أول طريق مقاطع لطريق الجامعة، وساروا فى اتجاه المديرية . كان مأمون رضوان أطولهم قامة، ومحجوب عبد الدائم فى مثل طوله تقريبا . أما على طه فربعة متين البنيان، وأما أحمد بدير فقصير جدا، كبير الرأس جدا . وكان مأمون رضوان

يريد أن يختم ساعات العمل أجمل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهو فقال بصوته المتهدج الصاعد من قلبه:

ـ أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدده، فما تعليقكم النهائى على المناظرة التى شهدناها . . ؟

دارت المناظرة حول «المبادئ» وهل هى ضرورية للإنسان أو الأولى أن يتحرر منها . . ؟

فقال على طه مخاطبا مأمون رضوان:

ـ نحن متفقان على ضرورة المبادئ للإنسان، هى البوصلة التى تهتدى بها السفينة وسط المحيط . .

فقال محجوب عبد الدائم بهدوء ورزانة:

ـ طظ . .

ولكن على طه لم يلق إليه بالا واستدرك مخاطبا مأمون:

ـ بيد أننا مختلفان فى ماهية المبادئ . .

فقال أحمد بدير وهو يهز كتفيه:

ـ كالعادة دائمًا . . !

فقال مأمون وقد تألقت عيناه بنور خاطف شأنه عند الاهتمام:

ـ حسبنا المبادئ التى أنشأها الله عز وجل.

فقال محجوب عبد الدائم كالمتعجب:

ـ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير . .

فاستطرد على طه قائلا:

ـ أومن بالمجتمع، الخلية الحية للإنسانية، فلنرع مبادئه، على شرط ألا نقدسها؛ لأنه ينبغى أن تتجدد جيلا بعد جيل، بالعلماء والمربين.

فسأله أحمد بدير:

ـ ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ؟

فقال على بحماس:

ـ الإيمان بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنة، والاشتراكية بدل المنافسة . .

ـ فعلَّق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلا:

ـ طظ . . طظ . . طظ . .

فسأله أحمد بدير :

ـ وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك فى المناظرة؟

فأجابه بهدوء :

ـ طظ . .

ـ هل المبادئ ضرورية؟

ـ طظ . .

ـ غير ضرورية إذًا؟

ـ طظ . .

ـ الدين أم العلم؟؟

ـ طظ . .

ـ فى أيهما؟ !

ـ طظ . .

ـ أليس لك رأى ما؟

ـ طظ . .

ـ وهل طظ هذه رأى يرى؟

فقال محجوب بهدوئه المصطنع :

ـ هى المثل الأعلى . .

والتفت مأمون رضوان إلى على طه وقال، وجل همه أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحدا إلى عقيدته :

ـ الله فى السماء، والإسلام على الأرض، هاكم مبادئى . .

فابتسم على طه وقال بدوره كما قال محجوب عبد الدائم من قبل :

ـ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير . .

فقهقه محجوب قائلا :

ـ طظ . .

وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون فى مسيرهم وقال :

ـ يا عجبا! كيف تجمعنا دار واحدة؟ . . أنا رأسى هواء، والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة، وعلى طه معرض أساطير حديثة .

ولم يلقيا بالا إلى قوله، لأنه طالما أعيتهما معرفة الحد بين جده وهزله ولأن مناقشته متعبة فهو يروغ من التطويق بالتهريج .

وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا، فودعهم أحمد بدير وذهب إلى الجريدة التى يعمل بها مساء، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار، ليأخذوا أهبتهم لسهرة الخميس.

٣

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا. هى قلعة هائلة ذات فناء مستدير واسع، يقوم بنيانها على محيطه فى شكل دائرة، مكونة من طباق ثلاثة، يتركب كل واحد منها من سلسلة دائرية، من الغرف المتلاصقة تفتح أبوابها على ردهة ضيقة تطل على الفناء. كان الأصدقاء الثلاثة يسكنون ثلاث حجرات متجاورة فى الطابق الثانى. وقد صعد مأمون رضوان إلى حجرته الصغيرة، وأخذ فى تغيير ملابسه، وكانت الحجرة مؤثثة بفراش صغير، يقابله صوان، يتوسطهما وراء النافذة الصغيرة مكتب متوسط وضعت عليه الكتب والمراجع. وكان الشاب ممن يحبون الكتب حبا بالغا، فما إن وقعت عيناه على معجم «لا لاند» حتى لاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة وشت بحبه وولعه. بيد أنه لم يضع وقتا، فتوضأ وصلى العصر، ثم ارتدى «ملابس العطلة» وغادر الحجرة إلى الطريق، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكرية جذابة فى مسيره، وكان ذا قوام ممشوق، نحيفا فى غير هزال، أبيض الوجه مشربا بحمرة، أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلاوان. تلوح فيهما نظرة لامعة، تذكى ضياء وجمالا وذكاء. وكان يتقدم فى مسيره لا يلوى على شىء، لقدميه وقع شديد، ولعينيه هدف لا تحيدان عنه، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة. وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بهما جميع أمور حياته.. خطب الفتاة - وهى كريمة قريب له من ضباط الجيش العظام - بعد مشورة أبيه، وتم الاتفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته، وصار يتردد على بيتها كل خميس، فيجالس الأسرة مجتمعة، ويمضى بضع ساعات فى سمر لذيذ. ولم يخطر له على بال قط أن يدعو فتاته إلى السينما، أو أن يدبر حيلة للانفراد بها، ذلك أنه كان من الكافرين بالبدع الحديثة - على حد تعبيره - الثائرين عليها، فلقى سلوكه من أسرة الفتاة - أسرة حافظت على تمسكها بالتقاليد القديمة - كل إعجاب وتقدير. بيد أن ذلك لم يمنع قلبه من الخفقان وهو آخذ فى طريقه المعهود، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقل الترام. وبدا فى جلسته المعتادة، ونظرته الصافية، وقامته العالية، شخصية غنية بعناصر الجمال والجلال. فلو أراد أن يكون عمر بن أبى ربيعة لكان، ولكنه كان ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب. كان ضميرا نقيا،

وسريرة صافية، كان قلبا مخلصا ينشد الدين الحق والإيمان الراسخ والخلق القويم، وقد نشأ فى طنطا، وكان والده مدرسا بالمعاهد الدينية - رجل ذو دين وخلق - فشب فى بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينا وخلقا وقوة، وعرض له فى صباه عارض ترك فى حياته أثرا قويا، ذلك أنه أصيب بمرض أقعده عن اللحاق بالمدارس حتى الرابعة عشرة، فذاق مرارة العزلة، وعرف الألم، وانصهر فى أتون تجربة قاسية، ولكنه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقه فيه غلاما يافعا. ولما دخل المدرسة الابتدائية دخلها فتى مراهقا وقلبا كبيرا وروحا حيا وذكاء وقَّادا. على أنه لم يخل من تعصب وحدة، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونية، تنضب فيها خصوبة نفسه، فينطلق كلسان من لهب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدى له فيضاعف العمل إن كان يعمل، أو يستغرق فى العبادة إن كان يعبد، أو يحتد فى النقاش إن كان يناقش، أو تعلوه الكآبة والانقباض إن كان يعتزل، وفى تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلا إلى تحقيق ذاته إلا فى العمل، فبز الأقران جميعا. وكان فى قدرته أن يتعبد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله، وكان يذاكر فى الأيام الأخيرة من العام الدراسى عشرين ساعة فى اليوم، فكان أول الناجحين فى البكالوريا، كما ينتظر أن يكون أولهم فى الليسانس، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة، ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه فى تفوقه، ولكن لم ترسب للمنافسة فى صدره أبخرة خبيثة، بفضل قوته الخارقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وإيمانه الراسخ بالله. فسما بإنسانيته إلى أعلى المراتب، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلا إلى الزهد العاجز أو الفناء فى الغير، فكان يقول: إن الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض. فكان شابا عظيما، وإن أخفق أن يكون محبوبا، لأن تفوقه مثار لحسد الحاسدين، وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين، ثم إنه لم ينج من ميل للوحدة تأصل فى طبعه منذ عهد مرضه العصبى الطويل، هذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعية، ونكران لروح الفكاهة، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحيانا سوط عذاب، فسماه منتقدوه تارة بالجامعى الريفى، وتارة بالمهدى غير المنتظر. وقال عنه طالب مرة: «الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام فى عصرنا هذا، وقديما أدخل عمرو بن العاص الإسلام فى مصر بدهائه، وغدا يخرجه منها مأمون رضوان بثقل دمه». وظل الشاب على ولائه للتفوق وإن خافه ومقته فى أحايين كثيرة، أجل كان يخاف ذاك الشعور بالتعالى والتفوق ويستعيذ بالله من شره، ولكنه عجز عن قهره، ولذلك لم يرمق عظيما بعين الإعجاب الحق، وأعلن فى صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانته برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال، ولذلك أيضا جعل يهز منكبيه استهانة كلما رأى الطلبة يتحمسون لمن يدعونهم بالزعماء، وكان ينكر الأحزاب جميعا، ويأبى الاعتراف «بالقضية المصرية» ويقول بحماسه المعهود: إن هناك قضية واحدة هى قضية الإسلام

عامة والعروبة خاصة . ومن عجب حقا أنه لم يتأثر بموضة الإلحاد التى كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهده بها وإنما مردّ ذلك إلى أنه التحق بالجامعة ، فى الثالثة والعشرين وقد آمن إيمانا راسخا بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته : الله ، الفضيلة ، قضية الإسلام . فلم يزغ بصره حيال نور الجامعة الجديد ، ولبثت صخرة إيمانه القائمة تتكسر عليها أمواج السيكولوجى والسسيولوجى والميتافيزيقا . تحدى بإيمانه العلم والفلسفة جميعا وجعلهما من ذرائعه ومقوماته ، وسره أيما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة فى ظل الله دائما : أفلاطو وديكارت وبسكال وبرجسون . كما رحب قلبه المخلص بالوفاق الذى بشر به القرن العشرون بين العلم والدين والفلسفة ، فاليوم تنحل المادة إلى شحنات كهربية أشبه بالروح منها بالمادة ، واليوم تسترد الروحية عرشها المسلوب ، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينى ويرد رجال الدين شرائع العلم والفلسفة ، فطوبى للشاب الفيلسوف المؤمن ! غير أن شاب الجيزة تغير عما كان عليه فتى طنطا المصاب ، صار أوسع صدرا وأرحب فهما ، أمكنه أن يصغى إلى مجون محجوب عبد الدائم مبتسما ، وأن يناقش على طه فى قيمة الدين والإلحاد ، وأن يتلقى صابرا سهام الناقدين والساخرين ، إلا إذا احتد واتقدت عيناه وعزّته تلك اللحظة الرهيبة ، فهناك يرتد عنه البصر وهو حسير ! وكان الشاب يجد بين زملائه مؤمنين صادقين ، فلم يشعر فى إيمانه بعزلة ، ولكنه لم يظفر بواحد يشاركه حماسه في الدعوة إلى الإسلام والعروبة ، فقد استغرقت الأذهان أمور أخرى فى ذلك الوقت كالقضية المصرية ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبية ، ولكن الفتى لم ييأس فى وحدته ، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلبا كقلبه .

عاش مشغولا بالآمال الكبار ، إلا أن قلبه استطاع أيضا أن يتنسم الحياة ، وأن يخف مسروراً إلى استقبالها . . . بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج فى شبه جزع ، يود لو يطوى الترام فى غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة . . .

٤

ولبث على طه فى حجرته حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة ، تقع عند مدخلها دكان سجائر ، تقوم على ناصية شارع العزبة ـ امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقى ـ فيما يواجه دار الطلبة . كان مرتديا ملابسه إلا طربوشه ، متأنقا كعادته ، يحسب الناظر إلى منكبيه العريضين أنه من

هواة الرياضة البدنية، وكان فتى جميلا ذا عينين خضراوين، وشعر ضارب لصفرة ذهبية، ودلالة واضحة على النبل، لبث ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحير فيهما نظرة انتظار ولهفة حتى دبت فيهما حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة، فنهض ملوحا بيديه، فابتسمت إليه وأومأت إلى الطريق، فلبس طربوشه وغادر الحجرة ثم الدار، وانطلق إلى شارع رشاد باشا، ومضى يتمشى متمهلا فى الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسقة تقبع وراءها القصور والفيلات، وجعل يرسل الطرف فيما وراءه بين لحظة وأخرى، حتى رأى - على ضوء الغروب الهادئ - صاحبة الشرفة قادمة تخطر. فدار على عقبيه خافق الفؤاد من السرور، واتجه نحوها مورد الوجه، حتى التقت أيديهما، فاشتبكت اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى وغمغم الفتى:

- أهلا . .

فغمغمت ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة:

- مساء الخير . .

واستخلصت يديها برفق، وتأبطت ذراعه، واستأنفا السير إلى شارع الجيزة يمشيان مشية المتمهل الذى ليس له وراء المشى من غاية. هى فتاة فى الثامنة عشرة، تضيء محياها بشرة عاجية، وعينان سوداوان يجرى السحر فى حورهما والأهداب، أما شعرها الفاحم وما يحدثه تجاوب سواده مع بياض البشرة فيخطف الأبصار. وقد حوى معطفها الرمادى جسما لدنا ناضجا ينتشر سحرا ووهجا. سارا متمهلين يبهج منظرهما الشباب والحياة. وجعل على طه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنما يطلب غرة، والفتاة تلحظه بطرف خفى منتظرة على شوق وسرور، حتى اطمأن الفتى إلى غفلة العيون. فضم أصابعه تحت ذقنها، وأدار وجهها إليه وألصق شفتيه بشفتيها حتى رطبتا برضابها، ثم رفع وجهه متنهدا من الأعماق وتتابع خطوهما صامتين، ورأته يلقى عليها نظرات فاحصة، فذكرت - على سحر الموقف وفتنته - معطفها الذى كاد يبلى، ففتر سرورها، وقالت بالرغم عنها:

- أيسوؤك أن ترى دائما هذا المعطف العتيق؟

فلاح الإنكار فى وجه الشاب وقال مؤنبا:

- كيف تلقين بالا إلى هذه الصغائر؟ . إن فى المعطف كنزا جعله الحظ السعيد من نصيبى . !

ولم توافقه على أن المعطف من «الصغائر» بل كانت تقول لنفسها مرات متأسفة: إن العيش السعيد شباب وثياب! ولحظت بذلك الصوفية الأنيقة فرغبت فى لومه. وقالت:

- يا لك من مراء! . أتعد اللباس من الصغائر وأنت تتأنق مزهوا . .

فتورد وجهه حياء، وبدا كالطفل المرتبك، ثم قال كالمعتذر:

ـ البدلة جديدة.. وليس من الممكن ابتياع بدلة قديمة. ولكن الملابس أعراض تافهة. أليس كذلك يا حبيبتى؟

بيد أنها خافت مناقشته، لأنه كان يتوثب للمناقشة باهتمام، ويقف منها موقف المعلم، ولم تكن ترتاح إلى ذلك. والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض. كان كثيرا ما يستهين بالملابس والمآكل ونظام الطبقات، ولكنه كان يلبس فيتأنق، ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع، وينفق عن سعة. أما إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله، وما تعلم أنه ينتظر رأيها فيه، فقالت بصوتها الرخيم الذى يعابث الغرائز:

ـ كدت أتم الكتاب الذى أعرتنيه.

فبدا الاهتمام على وجهه، لأنه كان يرغب أن يحب عقلها كما يحب شخصها، وسألها:

ـ ورأيك؟

فقالت بصراحة:

ـ فهمت أقله، ولم أفز من هذا القليل بطائل.

فشعر بخيبة وسألها:

ـ ولمه؟

فابتسمت إليه لتخفف من وقع كلامها واستدركت:

ـ محور الكتاب ـ الذى تسميه قصة ـ أفكار وآراء، وأنا أرتاد فى الكتب الحياة والعاطفة!

ـ ولكن الحياة فكر وعاطفة!

فلمت أطراف شجاعتها وقالت:

ـ لا تطوقنى بمنطقك، فربما لا أستطيع دفعه، ولكنه لن يغير من ذوقى، الموسيقى مقياس الفن الحقيقى فى نظرى، فما تجاوز مادة الموسيقى فى الكتاب لا ينبغى أن يعد من الفن فى شىء.

فهاله رأيها، وابتسم ابتسامة باهتة، وقال بأسف:

ـ إنك تحرمين على نفسك أشهى ثمار الفن الحقيقى...

فقالت ضاحكة:

ـ مجدولين، آلام فرتر، آلام رفائيل، تلك آيات الفن الذى أحبه. قالت ذلك بلهجة من يقول «لكم دينكم ولى دينى». فأمسك الشاب عن الكلام، وتساءل هل ييأس

حقا من تغيير رأيها؟ . . إنه يريد صادقا أن يتحابا بقلبيهما وعقليهما، وأن تكون شركة حياتهما تامة منسقة، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والند المحترم. إنه يحبها حبا يملك عليه قلبه ونفسه، ولكنه يرجو أن يجعل منها في المستقبل زوجا غير الزوج التي تعرفها البيوت الشرقية. وانتهى بهما المسير إلي شارع الجيزة، فانعطفا إلى يسارها، وتنهد الشاب بارتياح، فالشارع كالمقفر، وجوه كالمظلم، ورفع راحتها إلى فمه، ولثمها بشغف، ثم مال نحوها فأخذ قبلة مطمئنة لذيذة الطعم، من شفتين ممتلئتين طريتين. ولمحها تسبل جفنيها لوقع القبلة، فانتفض جسمه القوى، وشاعت في روحه شرارة سرور مكهربة، وقال وهو يزدرد ريقه:

- ما ألطفك. . ما أجملك!

ومضت فترة سكون لذيذة ساحرة، ثم تنهد وقال فى شبه حسرة:

- بينى وبين الامتحان النهائي أشهر معدودات، أما أنت. !

فقالت:

- امتحان البكالوريا في يونيه. ماذا تختار لى؟

فقال الشاب بحماس:

- كليتى. .

وهى وإن كانت الضرورة تحتم عليها أن تتم دراستها. إلا أنها ودت لو قال لها مثلا: «حسبك دراسة وهلمى إلى عشنا!» فشعرت بشيء من الاستياء وسألته:

- لماذا أختار كليتك؟

- لنكون عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة. .

- مهنة واحدة؟

فقال بحماسه الذى لا ينضب:

- أجل يا حبيبتى وظيفة المرأة أخطر شأنا من عمل الجارية. محال أن أخون مبادئى، أو أن أرضى بحرمان المجتمع عضوا جميلا نافعا مثلك!

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر، لأن الضرورة تملى عليها أن تختار مهنة يوما ما. بيد أنه ضايقها - وإن لم تدر لماذا - حماسه لرأيه، وودت لو كانت هى التى حملته على قبوله على تمنع وتردد منه.

ومضيا في الطريق المقفر. يستلهمان آمالهما الحديث، ويفصلان حديثهما بالقبل.

كانت إحسان شحاتة عظيمة الشعور بأمرين: جمالها وفقرها. كان جمالها فائقا. وقد استأسر سكان دار الطلبة، وجعل سكان الحجرات يرسلون شواظ أنفسهم فتلتقى جميعًا في شرفة الدار الصغيرة البالية، وترتمى عند قدم الفتاة الحسناء الفخور. ولكن لم

توجد بالدار مرآة حقيقية بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح، فالفقر حقيقة ماثلة كذلك، وقوى شعورها به إخوتها السبعة الصغار، وأن لا مورد لهم إلا دكان سجائر مساحتها متر مربع وجل زبائنها من الطلبة! وطالما خافت على جمالها عوادى الفقر، وسوء التغذية. والواقع أنه لولا وصفات أمها ـ كانت الأم من قيان شارع محمد على قبل أن يتزوجها المعلم شحاتة تركى ـ لهزل جسمها، ولذبل ردفاها اللذان مدحهما أحد شعراء كلية الطب بمعلقة رنانة. وقد عرفت على طه، اختاره قلبها من دار الطلبة جميعا، وحظى بإعجابها شبابه وجماله ونبله ومستقبله، بيد أن أمرين هامين جعلا يتنازعان قلبها من أول لحظة: حياة قلبها وحياة أسرتها، أو بمعنى آخر على طه والإخوة السبعة الصغار، وكانت عرفت ـ قبل على طه ـ شابا موسرا من طلاب القانون. وقد أدركت من سلوكه أنه يطمع فيها متعة لقلبه ولهوا لشبابه، فأخذت حذرها. وكان والداها يطلعان على أسرار حياتها، فما راعها إلا إغراء أمها وطمع أبيها فى مال الشاب! وتنبهت إلى حقائق حياتها المرة، وخوافيها المحزنة. والواقع أن والديها لم يضمرا للأخلاق احتراما قط، وكانت شركتهما عشقا قبل أن تصير زواجا، وظل أبوها يرتزق فى سوق الجمال بجماله وصفاقته حتى تزوجته أمها ووهبته ما ادخرت من مال ليتاجر به، فبدد ما بدد على المخدرات والقمار، وبقيت له دكان السجائر الصغيرة. ولكنه كان يقول لنفسه متعزيا: «ضاعت حياتى حقا ولكن البركة فى إحسان». فوجدت فيه الفتاة كما وجدت فى أمها عونا للشيطان والسقوط. ولكنها لم تسارع إلى السقوط، فقد تلقت إهانة عن غير قصد فثار كبرياؤها وأنقذها، إذ رأت الشاب صديقها يجالس أباها يوما في الدكان، فأدركت أنه يساومه على عرضها. وثار غضبها، وشعرت بالخزى والعار، ثم قطعت الشاب بقسوة لم تدع له أملا! خرجت من التجربة ظافرة، ولكن بعد أن علمت أنها تعيش فى بؤرة. ثم إنها شعرت فى قرارة نفسها بأنها تخلصت فجأة من الرقابة والقيود، وأنها صارت حرة تفعل ما تشاء بغير حساب. وأحدث شعورها بتلك الحرية المطلقة فى نفسها ثورة، لبثت حينا بغير هدف ولا وازع أيضًا. ولكن يقظة جنونية دبت فى عواطفها فتمطت ترتاد متنفسا، وإن عقلها الحياء والتردد، كان الجو خانقًا والرئتان سليمتين، فدلت الظواهر على أن النهاية محتومة ما منها مناص. وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسفا على ضياع الشاب الموسر: «إنك مسئولة عنا جميعا، وخصوصا إخوتك السبعة». رباه، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة؟ ألا يمكن أن يتواصوا بالصبر حتى تتم تعلمها بمعهد التربية وتجد مهنة شريفة ترتزق منها؟! واستسلمت للمقادير فى غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة.. حتى جاء على طه. وجدت فى على ودا صادقا، وإخلاصا قويا، ومقصدا نبيلا، فدعم إرادتها المزعزعة. وأنقذها من غمرة الحيرة والخوف، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء: فأحبته وناطت به آمالها. ورمق عم شحاتة تركى الشاب

الجديد باستياء وقال عنه: «إنه شاب فقير، حتى السجائر لا يدخنها!» وقال للفتاة مرة ساخرا: «مبارك عليك الشاب الجميل الذى بعثه الله ليجوعنا!» ولكنها أعرضت عنه، ووضعت أملها في المستقبل: فهو كفيل بأن يهيئ لها مهنة محترمة وأن يحقق لها أحلام قلبها . . .

أما على طه فكان شابا ذا مزايا حسنة كثيرة. كان مثالا طيبا للروح الاجتماعية الحقة، ففى عهد دراسته الأول كان عضوا بارزا في القسم المخصوص، وجمعية الرحلات المدرسية، وجماعة الخطابة والصحافة، يجيد الحديث والخطابة وطهى الطعام والغناء، مع ميل محمود للاطلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة. وبانتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه، ولكنه عمق وارتفع، فصار «الأستاذ» على رئيسا لجماعة المناظرات، وتميز على الأقران بقوته الخطابية وثقافته العامة وحضور بديهته وكان يهتم بالمثل العليا ويتحدث بحماس وإيمان عن المدينة الفاضلة، فصدقه عارفوه، ولكن بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه أنه داهية لا يشق له غبار، وأنه يغزو الأوساط جميعا ملثما بالفضيلة، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة. وأنه يتحدث عن الأخلاق كما تتحدث الخاطبة عن عروس لم ترها ولكنهم غالوا وكذبوا، والحقيقة أن الشاب كان صادقا مخلصا، وأنه إذا كان يحب الجمال فقد أحبه بنزاهة وإخلاص. بيد أن حياته لم تخل من أزمات عنيفة، فقد تزعزعت عقيدته منذ مستهل حياته الجامعية، وتعرض لآلام التحول الفتاكة ولكنه كان شجاعا صادقا. فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوثبة وعقل شغوف بالحق. ولم يكن من الهازئين الماجنين، ولم يكتم إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته، ولكنه ارتمى فى أحضان الفلسفة المادية: هيجل وستولد وماخ، وآمن بالتفسير المادى للحياة، وارتاح أيما ارتياح للقول إن الوجود مادة، وأن الحياة والروح تفاعلات مادية معقدة، وأن الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذي يلازم دورانها دون أن يكون له فيه أي أثر. وطالما قال له مأمون رضوان: إن الفلسفة المادية فلسفة سهلة ولكنها لا تحل مسألة واحدة حلا مقبولا. ولكن على طه كان شابا اجتماعيا، لا يصبر على التأمل طويلا. ويذاكر فى أسبوع ما ربما ذاكره مأمون في يومين، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحب إلخ. . فحسبه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره فى الحياة ولكن هنالك عقبة كأداء تنذر بأن تصير هاوية جارفة: الأخلاق؟ . . نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين، فعلام تنهض اليوم؟! . . ما الذى يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله؟! أم تراه يزدريها كما ازدرى عقيدته من قبل، ثم يلقى بنفسه فى تيار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير؟! إن المنطق واضح، والنهاية محتومة، ولكنه تردد وتماسك واتقى بقوة القصور الذاتى، وتساءل: ألا يمكن أن يحيا كما حَيِىَ أبو العلاء؟ ولكن أبا العلاء كان ضريرا

مجدورا سوداويا، أما هو فشاب جميل مفتول العضلات، اجتماعى المزاج، فأنى يكون له الزهد والتقشف؟! ووجد نفسه فى مثل الحيرة التى وجدت فيها إحسان شحاتة عقب تحررها من ظل والديها. وأخيرا ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقذها، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع، وبشره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع، ودين جديد هو العلم. آمن بالمجتمع البشرى والعلم الإنسانى، واعتقد أن للملحد - كما للمؤمن - مبادئ ومثلا إذا شاء وشاءت له إرادته. وأن الخير أعمق أصولا في الطبيعة البشرية من الدين، فهو الذى خلق الدين قديما وليس الدين الذى أوجده كما كان يتوهم وجعل يقول عن نفسه: «كنت فاضلا بدين وبغير عقل، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة!».

وثاب إلى مثله العليا آمنا مطمئنا. ممتلئا حماسا وقوة، وشغف بالإصلاح الاجتماعى، وحلم بالجنة الأرضية، فدرس المذاهب الاجتماعية، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكيا.. وانتهى المطاف بروحه - التى بدأت رحلتها من مكة - إلى موسكو!. وطمع يوما أن يجذب أصدقاءه المقربين إلى الاشتراكية ولكنه لم يفلح. قال له أحمد بدير معتذرا: «إنى صحافى وفدى. والوفد حزب رأسمالى»، وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف: «للإسلام اشتراكيته المعقولة، فيه الزكاة التى تضمن - لو طبقت بدقة - العدالة الاجتماعية دون جور على الغرائز التى يستمد الإنسان منها العون فى كفاحه، فإذا أردت للدنيا نظاما يهيئ لها الأخوة الحقة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام». أما محجوب عبد الدائم فهز منكبيه استهانة وقال باقتضاب: «طظ». ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفا أنقذه من الحيرة والفوضى والفساد. وحق له أن يقول على نفسه مسرورا: «هاكم بطاقتى الشخصية وهى تغنى عن كل تعريف: فقير واشتراكى، ملحد وشريف، عاشق عذرى!».

٥

انتظر محجوب عبد الدائم فى حجرته كذلك، ولكن دون أن يغير ملابسه لأنه لم يكن كصاحبيه يملك بدلة خاصة ليوم الخميس وكان يرقب الطريق من نافذته، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار فى مشيته العسكرية، ولاحظ إيماءة الهوى بشرفة الدار الصغيرة القديمة، ثم رأى العاشقين الشابين يوافى أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا. وشيع كل واحد منهم جميعا بـ«طظ» مفعمة سخرية وحقدا. فسخريته تضمر دائما حقدا. وكان ينتظر ميعاده، إلا أنه يؤثر الظلمة ويحب الستر، فخلت الدار تقريبا إلا

منه. كان محجوب عبد الدائم - كمأمون رضوان - طولا ونحافة، إلا أنه شاحب مفلفل الشعر، يميز وجهه جحوظ عينيه العسليتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى، هذا إلى نظرة قلقة متقلبة يوحي بريقها بالتحدي والسخرية. ولم يكن به كصاحبيه - جمال، ولكن لم يكن بقسماته كذلك قبح منفر. ولا يخطئ الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدي، فما ينفك في خوف من أن يقذفه بنكتة أو دعابة أو ملاحظة لاذعة. وكان يرى حياته مليئة بالمشكلات، ويضع على رأسها جميعا مشكلته الجنسية، ويصفها بأنها مشكلة عسيرة الحل كالقضية المصرية سواء بسواء! وقد رأى إحسان شحاتة، وطالما أثارت بركان شهوته، رآها - كما يرى أي امرأة أخرى - صدرا وعجزا وساقين، وكانت إحدى مفاتنها هذه كافية لإطلاق شرارة كهربائية في صدره، ولكن الفتاة - على حد قوله - أحسنت الاختيار، وآثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين. ولبثت حياته مقفرة موحشة، فقلبه في ظلام وعقله في ثورة دائمة. كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرية كما يفهمها هو. وطظ أصدق شعار لها. هي التحرر من كل شيء، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ، من التراث الاجتماعي عامة! وهو القائل لنفسه ساخرا: «إن أسرتي لن تورثني شيئا أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به!» وكان يقول أيضًا: إن أصدق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ. وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه. فهو يعجب بقول ديكارت: «أنا أفكر فأنا موجود». ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود، ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما في الوجود! وسعادتها هي كل ما يعنيه. ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها!. وإذا كان العلم هو الذي هيأ له التحرر من الأوهام، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه. فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين، وإنما غايته في دنياه: اللذة والقوة، بأيسر السبل والوسائل، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة. لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه، ولكن تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد. فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة، كان والداه طيبين جاهلين. ولظروفهما الخاصة، أتم تكوينه في طرق بلدة القناطر. وكان لداته صبية شطارا ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسب وقذف واعتَدى واعتُدى عليه وتردى إلى الهاوية. ولما انتقل إلى جو جديد - المدرسة - أخذ يدرك أنه كان يحيا حياة قذرة، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد. ثم وجد نفسه في بيئة جديدة، طالبا من طلاب العلم بالجامعة، ورأى حوله شبانا مهذبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية. ولكنه عثر كذلك على نزعات غريبة وآراء لم تدر له بخلد. عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات

التى يبشر بها علماء النفس والاجتماع والأخلاق والظاهرات الاجتماعية الأخرى، وسر بها سرورا شيطانيا، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذى نهكه الشعور بالضعة، لقد كان وغدا ساقطا مضمحلا فصار في غمضة عين فليسوفا! المجتمع ساحر قديم، جعل من أشياء فضائل، وجعل من أشياء رذائل، وقد وقف على سره وبرع فى سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل! وفرك يديه سرورا، وذكر ماضيه أطيب الذكر، ورمق مستقبله بعين الاستبشار، وألقى عن عاتقه شعور الضعة. بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته سرية، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارا، ويجوز أن يعلن على طه اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية، أما فلسفته فينبغى أن تظل سرية - لا احتراما للرأى العام فإن من مبادئها احتقار كل شىء - ولكن لأنها لا تؤتى أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده! ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعا بالرذيلة لم يتميز بينهم بما يتيح له التفوق عليهم؟ لذلك احتفظ بها لنفسه، ولم يعلن منها ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرية الفكر. إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية، فبدا للقوم ماجنا لا شيطانا مجرما. ومضى في سبيله فقيرا بلا خلق يرصد الفرص ويتوثب للانقضاض عليها بجراءة لا تعرف الحدود.

* * *

لبث فى حجرته ينتظر الظلام، فلقلبه أيضا مغامرات ولكن حبه كفلسفته لا يحيا في النور، وما فتاته في الواقع إلا جامعة أعقاب سجائر. ولشد ما أغضبه حظه من الحب، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفى بضرورات الحياة؟ وكثيرا ما يهزأ بنفسه فيقول: «لست خيرا منها فهى جامعة أعقاب سجائر، وأنا جامع أعقاب فلسفة، ثم إنى فى نظر المجتمع شر منها!» وقد رمت بها المصادفات بين يديه، فلم يدع الفرصة تفلت، وقال متعزيا: من تواضع لله رفعه. رآها ذات مساء - وكان يتمشى فى طريق العزبة المقفر - وراء شجرة تين مع أحد بوابى شارع رشاد باشا. فتربص بها حتى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد النوبى إلى الشارع الآخر، واقترب منها بجراءته ولمس منكبها وهو يقول مبتسما:

- رأيت كل شىء.

فتوقفت الفتاة عن المسير، ورمقته بعين داهشة، وتبينها على ضوء الطريق فوجدها شديدة السمرة كاعب الثديين فاضطربت أنفاسه، وحدجها بعين نمر مفترس.. وأفاقت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة:

- ماذا رأيت؟

فأجاب محجوب وعيناه تقولان لها «برح الخفاء»:

- شجرة التين.. البواب..

فسألته بنفس اللهجة الدالة على الاستهانة :

ـ وماذا تريد؟

فقال بصوت مضطرب :

ـ مثله .

ـ أين؟

ـ ليكن نفس المكان .

فدارت على عقبيها ، ولكنها قالت قبل أن تهم بالمسير ، وبصوت يدل على الإنذار :

ـ ثلاثة قروش !

فغمغم بارتياح :

ـ جميل .

ثمن زهيد لا تنوء به ميزانيته والفتاة لا تخلو من ثدى كاعب . بيد أنه يرجو أن تكون سمرتها القاتمة لونا طبيعيا لا ترابا متلبدا ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يتحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها ، لا بأس ، فشيء خير من لا شيء ، وهل ينسى أنه نفسه لم يكن يستحم ـ فى القناطر ـ إلا فى المواسم؟ . بل إنه ليتساءل : ألا يسوى الظلام بين النساء جميعا؟ ! وسألها وهما عائدان :

ـ ألك عهد طويل بالبواب؟

ـ كلا . هذه أول ليلة .

ـ ألم تتواعدا مرة أخرى؟

ـ كلا .

فقال محجوب بارتياح :

ـ ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا .

فتمتمت وهى تثبت الخمار على رأسها :

ـ وجب .

* * *

وكان الظلام يبتلع الكون ، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبته ، ثم سمع نقرا على الباب ، فدلف منه وفتحه ، فرأى بواب الدار يلوح له بخطاب . وأخذ الخطاب ورد الباب ، وألقى على الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر ، ثم لاحظ بسهولة أن الخط غير خط أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه؟ ! إنه يرى ذلك الخط أول مرة . .

٦

وفض الغلاف متعجبا وقرأ ما يأتى :

حضرة الشاب الفاضل محجوب أفندى عبد الدائم :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإنه يوسفنا أن نخبركم بأن والدكم العزيز مريض وملازم الفراش ، ونسأل الله أن يجعل العواقب سالمة ، ولكن لابد من حضورك فى أقرب وقت لتطمئن عليه بنفسك ، وقد طلبوا إلىَّ أن أكتب هذا إليك فلا تتأخر والسلام .

شلبى العفش (صاحب بقالة القناطر الخيرية) .

هذا يعنى أن أباه فى حالة عجز تمنعه من أن يمسك بالقلم فماذا أصابه؟ وقرأ الكتاب للمرة الثانية وقد لاح الوجوم فى وجهه الشاحب وجعل يشد حاجبه الأيسر بأنامله . ومن عجب أنه لا يذكر أن أباه شكا المرض يوما ما ، كان دائما متين البنيان ثقيل الخطوات ، فلا شك أن مرضا خطيرا غدر به وأعجزه . ترى ما الذى يخبئه الغيب؟ . . وماذا يدخر له ولوالدته؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدى ، أو أن يؤخر سفره دقيقة . وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجئ ، ولف جلبابه فى جريدة قديمة . ثم غادر الدار . لم يمض إلى شارع العزبة كما كان يرجو منذ دقائق ، ولكنه أخذ فى شارع رشاد باشا أو شارع على وإحسان كما يدعوه ساخرا . ومضى يحدث نفسه قائلا : «لو انتهى أجل الرجل لوُئدت آمالى جميعًا . . . رباه! أيمكن أن يحدث هذا وما عاد بينى وبين الامتحان النهائى سوى أربعة أشهر !» وجَدَّ فى الطريق المقفرة الغارقة قصورها فى جلال الصمت لا يسمع إلا وقع قدميه ، حتى بلغ الجيزة ، واستقل الترام ، تظلل الكآبة وجهه وعينيه ، وفى جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقربين : مأمون رضوان وعلى طه ، فنفس عليهما ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة : مأمون رضوان أبوه مدرس بالمعاهد ، ذو مرتب حسن فلا تعيش أسرته فى ظل الخوف ، وهو يعطى الشاب ما يكفيه وأكثر ولولا حمق مأمون الذى جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت له لذات الحياة ولكنه أحمق ، والحمقى دائما مجدودون . أما على طه فأبوه مترجم ببلدية الإسكندرية ذو مرتب ضخم ، والشاب يقبل على التمتع بالحياة فى حدود مثله ، فهو شاب سعيد ، وحسبه إحسان كى يكون سعيداً ، ولعل إنسانًا ما لم يثر حسده كما يثيره هذا الشاب الجميل الموفق ، هو هو البائس! . . أبوه ـ تُرى ألا يزال أباه ـ كاتب بشركة الألبان اليونانية

بالقناطر، خدمة خمسة وعشرين عاما ومرتب ثمانية جنيهات. وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات. وكان الرجل يبذل له من مرتبه ثلاثة جنيهات شهريا أثناء السنة الدراسية، فنهضت بالضرورات من مسكن ومأكل وملبس، ورضى بها الشاب رضاء المتمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملاذ القاهرة من بعيد، ويسترق السمع إلى أخبارها بنهم وألم. كان ينطوى على شهوة جامحة بقدر ما يضيق بطموح جشع. تواردت عليه هذه الخواطر فساءته تلك الساعة أكثر من أى وقت مضى. ثم فكر فى العلاقة التى تربطه بهما، وفيما يسمونه بالصداقة، غافلا عن مشاهد الحقول والمياه التى يطويها الترام فى جريه السريع. أله صديق حقا؟ كلا، وما الصداقة إلا إحدى الفضائل التى كفر بها؟!. حقا إنه يميل إليهما كثيرا، فنقاش مأمون يستهويه، وروح على تجذبه إليه، ويلذه أن يجتمع بهما يتحادثون ويتحاورون ولكن ما شأن ذلك كله بما هو معروف عن الصداقة؟!. إنه مع ذلك يحسدهما ويمقتهما؟ ولا يتردد عن إبادتهما لو وجد فى ذلك نفعا. ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض: «الحرية المطلقة.. طظ المطلقة.. ليكن لى أسوة حسنة فى إبليس.. الرمز الكامل للكمال المطلق.. هو التمرد الحق، والكبرياء الحق، والطموح الحق، والثورة على جميع المبادئ!. وانتهى الترام إلى محطة الإسعاف، فتركه واستقل تراما آخر إلى ميدان المحطة، ومن ثم إلى المحطة نفسها، ثم انطلق إلى شباك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة. ولما تحول عن الشباك وجد نفسه أمام شاب فى الثلاثين. متوسط القامة مع ميل إلى القصر والبدانة، مثلث الوجه كبيره، كثيف الحاجبين، حاد البصر، مستدير العينين، يلقى على ما حوله نظرة متعالية كلها ثقة وزهو، فعرفه، ودنا منه مادا إليه يده باحترام هاتفا:

- الأستاذ سالم الإخشيدى!.. السلام عليكم..

فالتفت إليه دون أن تتغير ملامح وجهه، ونادرا ما يتغير وجهه، فهو لا يندهش ولا ينزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن، فإذا أراد أن يعلن غضبه - وكثيرا ما يفعل - استعان بنبرات صوته الغليظ. التفت نحو محجوب وقال بهدوء ورزانة:

- كيف أنت يا محجوب؟

- شكرا لك والحمد لله.. ولكن ما الذى جاء بالأستاذ إلى المحطة؟

فقال الإخشيدى بصوته الرزين:

- مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدى، ولكن ما الذى جاء بك أنت وليس الوقت بموسم إجازات؟

فقال محجوب بأسف ظاهر:

- إلى القناطر أيضا لعيادة والدى المريض.

ـ عبد الدائم أفندى مريض؟ . . كتب الله له السلامة . بلغه تحياتى .

ثم سارا جنبا لجنب فى اتجاه موقف القطار . وكانت أخبار الإخشيدى انقطعت عن محجوب فترة يسيرة ، فسأله :

ـ ألا تزال يا أستاذ سكرتيرا لقاسم بك فهمى؟

فلاحت شبه ابتسامة فى عينى الإخشيدى وقال :

ـ أنا مرشح الآن لوظيفة مدير مكتبه . المذكرة فى المستخدمين .

فقال بسرور ظاهر لا ظل له فى نفسه .

ـ مبارك . . مبارك يا أستاذ!

فرفع الرجل حاجبيه بزهو ، وقال باقتصاب :

ـ درجة خامسة .

فهتف محجوب :

ـ مبارك . . مبارك ، العقبى للرابعة .

فقال الإخشيدى متفلسفا :

ـ بلدنا منهوب مسلوب ، مسئولياته بيد الضعفاء الأغبياء ، ومهما نرتق فلا نزال دون ما نستحق!

فأمّن محجوب على قوله قائلا :

ـ صدقت يا أستاذ .

ثم استأذن الإخشيدى واتجه نحو عربة الدرجة الأولى ، وأتبعه الشاب عينيه حتى اختفى ، ثم سار إلى الدرجة الثالثة تعلو وجهه الكآبة والأحلام . واتخذ مجلسه من العربة ورأسه لا ينى عن التفكير ، والإخشيدى لا يبرح خياله . منذ عامين كان الإخشيدى طالب ليسانس مثله ـ محجوب ـ الآن ، ولعله كان مثله أيضا يكفر بالمبادئ ولكن دون جلبة أو ضوضاء . . وربما كانا لا يختلفان اختلافا جوهريا فى شىء فهما فى الذكاء سواء ، وهما فى الأخلاق ـ أو عدم الأخلاق ـ سواء . ولكنهما جد مختلفين فى الأعصاب : فسالم الإخشيدى يزن كلامه وزنا دقيقا ، ولم يعرف عنه أنه مس مبدأ من المبادئ أو خلقًا من الأخلاق بكلمة سوء ، أما محجوب فعلى حذره سخر من كل شىء ، ومما يذكره محجوب ولا ينساه أن صاحبه عرف آخر عهده بالكلية كزعيم خطير من زعماء الطلبة ، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزعى المنشورات ضد الدستور الجديد . ومما يذكره ولا ينساه كذلك أن الإخشيدى دعى يوما لمقابلة الوزير ، فذاعت عن المقابلة الأقاويل ، وتوقع كثيرون أن يقع اضطهاد أو بغى ، ولكن الفتى انقلب فجأة وبغير تدرج .

انسحب من ميدان السياسة كله، وتوقف نشاطه الذى لم يكن يعرف الحدود، ولم يعد يُرى إلا فى حجرات المحاضرات. ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سر انقلابه أجابه ببروده المعهود: «ميدان الجهاد الحقيقى للطلبة: العلم!» ثم حصل على الليسانس، وعيِّن - قبل أوائل الطلبة - سكرتيرا لقاسم بك فهمى، وكان واسطته الوزير نفسه. بل وضع فى السادسة - وهى وقتذاك فردوس مفقود - وها هو يرشح للخامسة قبل أن يمضي على تعيينه سنتان، وبعد أن استقال بمدة كبيرة الوزير الذى عينه، مما يدل على أنه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنه يسير قُدُما. يا له من مثال يحتذى! يا له من رجل يستحق من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد!.. لكم يبدو عليه جاه المنصب، وإقبال الحياة!.. ماذا يضيره إذا احتقره مأمون رضوان أو على طه؟!.. طظ..

وكان القطار يطوى الأرض طيا، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ، ولكنه لم يشعر بالبرودة تماما إلا حين كف عن التفكير فزرر الجاكتة واعتدل فى جلسته. سرعان ما عاد إلى تذكر أبيه المريض، فأدرك أنه يغرق فى الأحلام متغافلا عن الهاوية تحت قدميه. وعاد إلى وجومه، مرسلا نظرة حزينة كئيبة، حتى وقف القطار فى القناطر، فأخذ لفافته وغادره. ثم ترك المحطة إلى الطريق العام، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف: «يا قناطر يا بلدنا.. وزعى الحظ بين أبنائك بالعدل!».

٧

ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذى ولد فيه، بيت من طابق واحد، يتقدمه فناء ترابى مسوَّر بدرابزين خشبى، يدل مظهره على البساطة والتقشف.

وكان يواجه المحطة فى الجانب الآخر من الطريق، ويطل سطحه على الحقول فيما وراء السكة الحديدية. وبدا البيت مظلما غير بصيص نور يلوح من خصاص نافذة أبيه. فخفق قلبه خفقانا متداركا، وصرخ به الخوف والرجاء. واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفة، فسمع وقع قبقاب، وعرف صاحبته وفتح الباب، وبدا شبحها وراءه، فأقبل نحوها قائلاً:

- مساء الخير يا أماه.

فسمع صوتا يقول متنهدا: «أنت!» ثم أخذت يده بين يديها، وقالت بنفس الصوت المتعب:

ـ كيف أنت يا بنى؟ حدثنى قلبى بأنك الطارق.

وكا الدهليز مظلما فلم يتبين ملامح وجهها، فردَّ الباب وهو يتساءل بلهفة:

ـ أماه.. ماذا حدث؟.. كيف حال أبى؟

فقالت المرأة بصوت محزون:

ـ ربنا يأخذ بيده.

ووضع لفافة الجلباب على خوان، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين، وسبقته عيناه إلى الراقد على الفراش، واقترب منه، وكان رأس الرجل مائلا نحو الجدار. غمغم بصوت خافت:

ـ مساء الخير يا أبى.. كيف حالك؟

ولم يبد على الأب أنه سمع حسا أو أدرك شيئا، فانحنت الأم على رأسه وقالت:

ـ محجوب يمسِّى عليك..

واعتدل رأس الرجل ببطء، وتحرك جفناه، ثم أبرز يسراه، فأخذها محجوب بين يديه وقبَّلها، وبدا الرجل مريضا جدا وبدت عيناه مظلمتين كأنهما تقطران من ماء آسن، وفمه معوجا؛ قال محجوب:

ـ أبى.. كيف أنت؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

وثبت الرجل عينيه عليه، وتكلم بصوت متحشرج، متقطع المخارج قائلا:

ـ لم يعاودنى النطق إلا ظهر اليوم!

فارتاع محجوب وسأل أمه:

ـ هل عجز وقتا عن النطق؟

فقالت المرأة المتعَبة:

ـ أجل يا بنى. كان فى عمله عصر الثلاثاء الماضى كالعادة، فسقط فجأة فاقد النطق، وجاءوا به محمولا، ودعوا بالطبيب. وأتى الطبيب فحجمه وحقنه، ولا يزال يعوده كل صباح، ولكن لم يعاوده النطق إلا قبل ظهر اليوم.

ـ ماذا قال الطبيب؟

فلاحت فى عينيها نظرة حيرى، وتحركت شفتاها دون أن يسمع لها صوت، فقال أبوه:

ـ قال إنه شلل.. شلل.. جزئى..

وارتاح الشاب لفظاعة الاسم، وإن كان يجهل حقيقته كل الجهل.

وأرادت أمه أن تفرخ روعه فقالت:

ـ ولكنه أكد صباح اليوم زوال الخطر . .

فاستطرد الأب بصوته المتقطع الغامض :

ـ إنى . . أفهم . . ما يقال . . لن أعود كما كنت أبدا . .

فعض محجوب على شفتيه وسأل والدته :

ـ هل وقع الأمر بغتة؟

ـ كلا يا بنى ، كان أبوك كعهدنا به صحة وعافية ، بيد أن ثقلا اعتور ساقه اليمنى ، وصداعا شق عليه مساء الاثنين . .

وساد الصمت ، فأغمض المريض جفنيه ، ولبث بلا حراك ، كأنما راح فى سبات عميق . وعطف الشاب رأسه إلى أمه ، فأيقن أول وهلة أنها لم تذق للنوم طعما منذ مساء الثلاثاء ، عيناها محمرتان ذابلتان ، تطوقهما هالتان زرقاوان ، وبشرتها شديدة الصفرة ، وامتلأ حزنا وكمدا ولاح والداه لعينيه مخلوقين بائسين مثله تماما . وجلس على كرسى قريبا من الفراش ثم أطرق متفكرا : هذه أسرة يتعلق مصيرها بحياة رجل مهدم ، فماذا تحت الجفنين المطبقين؟ . . أحياة أم موت؟ . . أنجاح أم تشرد؟! لماذا لم يتأخر هذا الشلل عاما آخر؟! وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل ، والقصور القائمة على جانبيه ، والباشوات والبكوات تحملهم السيارات منه وإليه ، والنساء اللاتى يلُحنَ وراء ستائره وبين خمائله . فأين من أولئك والداه البائسان؟! . . وهذا البيت المتداعى!! وجعل يقول لنفسه : إنه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه ـ الباشا ـ على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر . وتنهد من قلب مكلوم وقد احتدم الغيظ فى قلبه ثم تساءل وهو لا يتحول عن إطراقه : ترى كيف تنتهى هذه المأساة؟!

* * *

واسترق النظر إلى أمه ، وكانت تجلس مطرقة عند قدميه ، فرآها غارقة فى السواد الذى حلفت ألا تخلعه مدى الحياة منذ ماتت له أختان بالتيفود ، ذابلة الوجه ، تبدو أكبر من سنها الذى جاوز الخمسين بقليل ، تنوء بأثقال عمر أنفقته أمام لهب الكانون ووهج الفرن ، تعجن وتخبز وتغسل وتكنس ، فتحجرت أصابع يديها وبرزت عروق ظاهر كفيها ، لم تجد فى حياتها وقتا للثرثرة ، كانت كالبترول الذى يحرك آلة كبيرة دون أن تدركه الحواس . وكانت تحب ابنها حب عبادة ، وقد تضاعف هذا الحب بعد وفاة شقيقتيه فى ميعة الصبا ، ولكنها لم تترك أثرا يذكر فى تكوينه وتربيته ، وكانت لا تجد فى حياتها مَن تكلمه فعاشت كالبكم فى صمت وجهالة . وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من حياته كذلك ، فكان يواصل العمل فى الشركة من الصباح حتى ما بعد العشاء ، ثم

يهرع بعد ذلك إلى حلقات الأذكار حتى منتصف الليل، فكان لا يكاد يرى ابنه. وكان رجلا مجداً دءوبا، مخلصا لبيئته، وصورة منها، لا يشذ عنها فى شىء، يفاخر كثيرا بقرابته لأحد كبار الموظفين - قريب زوجه - وكان كزوجه لا يعرف الراحة، فلم يهنأ بحياته الزوجية، واقتصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض فروض دينه مستعينا بالعصا فى أحايين كثيرة، لذلك جميعه، نشأ محجوب على خوف من أبيه، وانطلق إلى الشارع الذى أتم تربيته وتكوينه، ولذلك كانت صلته بوالديه واهية باهتة. كان يحب أمه أكثر من أبيه، ولكنه بات على استعداد دائما لأن يخضع صلته بهما لفلسفته المدمرة التى لا تبقى على شىء، فلم يكن حزنه حزنا على والده بقدر ما كان إشفاقا على الرجل الذى ينفق عليه ثلاثة جنيهات كل شهر.

٨

فى صباح اليوم الثانى جاء الطبيب وفحص المريض وحقنه بالكافور، ثم صرح بارتياحه للحالة مؤكدا أن الخطر زال تماما وغادر الرجل الحجرة يتبعه محجوب حتى أدركه فى الفناء، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك الباعث الذى حمله على اللحاق به:

- الحقيقة ما قلت لأبيك، الإصابة جزئية وإلا كانت القاضية. بيد أنى صارحته كذلك بأنه لن يعود إلى عمله، وسيلازم الفراش بضعة أشهر، ولكنه سيحرك جنبه المشلول. بل ربما عاود المشى.

ووقف انتباهه عند «لن يعود إلى عمله» فلم يدر شيئا مما قال بعد ذلك، وأظلمت الدنيا فى عينيه، وعاد إلى الحجرة ذاهلا، وكان أبوه ذا طبيعة عملية، لا يدع أمرا معلقا إذا أمكن أن يبت فيه برأى، فدعا ابنه إلى الاقتراب من الفراش، وقال بلسان ثقيل:

- أصغ إلىَّ يا بنى، لن أعود إلى عملى بالشركة، هذه هى الحقيقة فماذا ترى؟

فازداد صدر محجوب انقباضا، ولازم الصمت فى انتظار النطق بالحكم، فاستدرك الرجل:

- ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا ريب قبل مضى أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن لن أعدم نصيرا يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعا. فقال محجوب بتوسل، وقد نطقت عيناه بالألم والقنوط:

ـ الامتحان يا أبى على الأبواب، نحن فى يناير وهو فى مايو، أما إذا وظّفت الآن فسأعد كحامل البكالوريا، وفى ذلك ضياع لمستقبلى عظيم . .

فقال الأب بحزن :

ـ أعلم ذلك، ولكن ما الحيلة؟ أخاف أن نتعرض للفضيحة أو نهلك جوعا!

فقال الشاب بتوسل حار، وبصوت ملأه حماسا وقوة :

ـ أربعة أشهر، أربعة أشهر فقط بينى وبين ثمرة كد خمسة عشر عاما . . أمهلنى قليلا يا أبتى، ستكفينا المكافأة حتى أنهض على قدمىّ، لن نجوع، ولن نتعرض للفضيحة بإذن الله .

ـ وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك؟ . . إذا خاب سعيك لا قدّر الله؟ إن حياتنا بيديك؟!

فقال محجوب وهو يعض بنواجذه على أهداب الأمل :

ـ أنت لا تدرى ياأبى كيف سيكون اجتهادى! لن يحول بينى وبين النجاح حائل!

وتردد الشاب لحظة ثم قال :

ـ وهناك قريب والدتى أحمد بك حمديس!

ولكن والده رفع يسراه محتجا، وقطب استياء، فخاف الشاب أن يفقد عطفه، وأن يذهب ما بذل فى إقناعه هباء، فقال بسرعة :

ـ لا حاجة بنا إلى معونة أحد، وستسير الأمور بإذن الله وفق آمالى .

وأدرك أنه أخطأ بذكر قريبهم العظيم الذى تناساهم واحتقر صلته بهم منذ تبوأ مركزه الرفيع . أجل إن والده يفاخر جهارا ـ على مسمع من الغرباء ـ بقرابته، ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته، وطالما أضمر له الاستياء واللوم . أدرك محجوب ذلك نادما، وعاد يقول :

ـ لا حاجة بنا إلى معونة أحد، ولكن ينبغى أن نستوصى بالصبر وأن نطمئن إلى رحمة الله، أربعة أشهر فحسب وبعدها الفرج! . .

وكان أبوه يعلم أن المكافأة تكفيهم ـ مع التقتير ـ خمسة أشهر أو ستة، فتفكر مليا ثم سأله :

ـ تستطيع أن تعيش بجنيه واحد في الشهر؟

جنيه واحد! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة؟ . . رباه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقته ثلاثة جنيهات، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد؟! ولم يمهله الرجل طويلا فاستدرك قائلا :

- لا حيلة لى والخيار بين يديك!

هل يملك خيارا حقا؟! كلا، إن أباه مُكره، وما عليه إلا الإذعان والتسليم قال:

- لتكن مشيئتك.

فقال الشيخ:

- لتكن مشيئة الله، والله مسئول أن يوفقك لما فيه الخير، وأن يصل بك جناحنا المهيض.

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتى لا يضيع وقتا هو فى أشد الحاجة إليه. وعند المساء ودَّع الشاب والديه، فقبَّل يد والده، واستسلم لأمه تقبله وتباركه. وحين هَمَّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له:

- الله معك اجتهد وتوكل على الله، ولا تنس أنك أملنا الوحيد.. ومضى إلى المحطة، ومهما يكن من أمر فقد استنقذ من الحيرة التى نهكته عند مجيئه. وعلم الآن أن أمله لا يزال معلَّقا بخيط لم يقطع بعد.

أما ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلَّفه الأمر. وودَّع البلد وداعا فاترا. واتخذ مكانه بالقطار، وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلا نفسه، تساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر: لماذا قُدِّر له أن يولد فى ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة؟ أليس من الظلم أن يرسف فى هذه الأغلال قبل أن يرى النور؟ ولو كان ابن حمديس بك مثلا لكان له جسم غير هذا الجسم ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ، ولذاق الطمأنينة والسلام، ولا قتنى سيارة. وتفكر محزونا فى الفقر الذى يتربص به، فرآه يبتسم إليه هازئا كأنما يقول له: «ما استطعت دفعى بثلاثة جنيهات، فهل تدفعنى غدا بجنيه واحد!». أين يسكن؟.. كيف يأكل؟.. وهز رأسه فى كمد، ولكنه لم يشعر بخور أو تخاذل. كان عظيم الثقة بنفسه، جريئا إلى أقصى حد، بيد أنه تميز غيظا وحنقا.

٩

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تذوب فى بحيرة الشفق الدامية، والسمرة تلون حواشى الآفاق. ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع فرأى على طه قادما من ناحية الجامعة، فوقف ينتظره، وتصافحا ثم قال على باهتمام:

ـ حدثنى الأستاذ مأمون عن مرض والدك، فأسفت لذلك غاية الأسف. وإنه ليسرنى أن أستدل بسرعة عودتك على اطمئنانك!

وكره أن يطلع مخلوق على أحزانه، فقال باقتضاب مبتسما:

ـ شكرا لك..

ـ أليس هو بخير؟

ـ بلى.. شكرا.

وسارا جنبا لجنب على مهل كأنهما يتنزهان، وتساءل محجوب ترى أآت صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه؟!. هذا الشاب الذى يجد فى محضره من دواعى السرور قدر ما يجد من دواعى الألم، واسترق إليه النظر فرآه يسير حالما يضىء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر والبشاشة، ويهتز طربا من نشوة الحب. أليس توفيق العاشق كظفر المحارب لذة وخيلاء؟!.. وشعر برغبة لا تقاوم فى استدراجه إلى هذا الحديث الجميل، فقال مشيرا إلى مغارس الشجر مبتسما ابتسامة لها معناها:

ـ آه لو ينطق هذا الشجر!

ففطن على طه إلى مرمى إشارته، وكان وجدانه من اليقظة بحيث ألحت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير، فقال بتأثر:

ـ أستاذ محجوب، هو ما تظن، ولكن لا تنظر إلى الأمر بعين السخرية، كلا ما هو بالهزل. إن هزة قلب خطير له من المغزى فى هذا الوجود ما لحركة الأفلاك في السماوات؛ فلا تذكر أبدا خزان البخار وصمام الأمن.

وشعر محجوب نحو محدثه باحتقار شديد، ضاعفه ما نمَّت عليه نبراته من التأثر، وضاعفه أيضا ما يكنُّه له من الحسد، وقال في نفسه ساخرا: حتى وظيفة التناسل يريد الأحمق أن يجعل منها محرابا مقدسا، ثم قال بهدوء وبرود:

ـ يا أيها العاشقون، لا أعبد ما تعبدون!

فابتسم على قائلا:

ـ ولا نحن عابدون ما تعبد.

وخاف محجوب أن تعيد سخريته الشاب إلى رشاده، فندم على ما فرط منه وأراد أن يداريه، فغيَّر لهجته وتساءل باهتمام ظاهرى:

ـ غريب أمر هذا الحب!.. بيد أن فتاتك متفوقة حقا!

فقال على بحماس:

ـ ليس الجمال فضيلتها الوحيدة: روحها لطيف، وفؤادها ذكى، ويعجزنى وايم الحق أن أعبِّر لك عن امتزاج روحينا. هذه إحسان!..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم، فامتلأ حنقا فجأة. ترى أهذه هى الغيرة التى يقولون عنها؟ . . ياللعار! كيف يقع فى ذل الغيرة من يطمح إلى تحطيم الأغلال جميعا؟! وعاد يقول بلهجة جديدة يخفى بها سخرية جديدة:

- أظن كمال هذا الامتزاج يوجب أن تكون فتاتك محررة من الدِّين، مؤمنة بالمجتمع والمثل العليا والاشتراكية!

فقال على برزانة:

- حسبنا أن نحيا حياة وجدانية روحية واحدة، وسوف يتحد عقلانا بالاختلاط، فنكون أسرة سعيدة يوما ما . .

فقال محجوب باستغراب:

- أبلغتما هذا الحد؟

- نعم.

- هل تكاشفتما؟

- نعم. سأنتظر حتى تنتهى من دراستها العليا . .

- مبارك يا أستاذ.

وعز عليه أن يهنئ وهو أحق إنسان بالعزاء، وامتلأ شجنا وانقباضا، فاز علىٌّ بأجمل مليحة فى القاهرة، وغدا الجسد اللَّدن الطرى من نصيبه واندفع إلى السؤال بغير روية:

- كيف عرفتها؟ . . فى الطريق؟ . .

فقال على بدهشة:

- كلا . . من النافذة!

- ولكن غيرك نظر أيضا؟

أفلتت منه الجملة بغير روية أيضا، فندم عليها أشد الندم، وخاف أن يفهمها صاحبه على حقيقتها فاستدرك يضلله:

- جيراننا الطلبة ينظرون كذلك . .

فصمت على مبتسما، وسكت محجوب أن يورده لسانه عثرة جديدة. وشارفا دار الطلبة: بدت؛ الثكنة العسكرية، ببنائها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة، ورأيا فى مقابلها - عند ناصية شارع العزبة - دار عم شحاتة تركى، كان الرجل واقفا أمام دكانه، كان فى الخمسين، أبيض البشرة، حسن الوجه فقال محجوب لنفسه ساخرا: «نعم الصهر». ودخل الدار الكبيرة، أسعد الناس وأشقاهم.

١٠

واجتمع الأصدقاء الثلاثة فى حجرة مأمون رضوان، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد. وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التى استمع إليها ظهرا، وجعل يقول إن خطب الجمعة فى حاجة ماسة إلى التجديد، وأنها بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة.

ولم تكن خطبة الجمعة مما يأبه له صاحباه، بيد أن على طه قال:

ـ الحاجة ماسه حقا إلى وعَّاظ من نوع جديد، من كليتنا لا من الأزهر يبينون للشعب أنه مسلوب الحقوق، ويدلُّونه على سبيل الخلاص. .

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك فى أحاديث صاحبيه، لا عن إيمان برأى ـ فلم يكن له رأى يؤمن به ـ ولكن حبا فى الجدل والسخرية. ولكنه شعر ذلك المساء ـ أكثر من ذى قبل ـ أنه من الشعب البائس الذى يعنيه علىّ، فأراد أن ينفس عن صدره المحزون بالكلام، ولم يكن الشعب شيئا يهمه، ولكنه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصة إلا عن سبيله، فقال:

ـ جميل. . إن علّتنا الفقر.

فقال على طه بحماس:

ـ هو الحق، الفقر الذى يختنق فى جوِّه الفاسد، العلم والصحة والفضيلة، إن من يرضى بحال الفلاح حيوان أو شيطان!

فقال محجوب فى نفسه: أو عاقل مثلى على شرط أن يكون غنيا. ثم تساءل بصوت مسموع:

ـ عرفنا الداء، وهذا شيء ميسور، ولكن ما العلاج؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبت طاقيته:

ـ الدين، الإسلام بلسم لجميع آلامنا. .

ومدَّ على طه ساقيه حتى كادتا تمسان المدفأة، وقال دون مبالاة لما قال صاحب الحجرة:

ـ الحكومة والبرلمان. . .

فقال محجوب:

- الحكومة . . أى الأغنياء أو الأسر . والحكومة أسرة واحدة . الوزراء يعينون الوكلاء من الأقارب ، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب المديرون ينتخبون الرؤساء من الأقارب ، الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب ، حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة . فالحكومة أسرة واحدة ، أو طبقة واحدة متعددة الأسر ، وهى حقيقة بأن تضحى بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها .

- والبرلمان؟

فقال محجوب مبتسما بخبث :

- النائب الذى ينفق مئات الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثِّل الشعب الفقير ، والبرلمان فى ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى ، انظر إلى قصر العينى مثلا . فالاسم مستشفى الشعب الفقير ، وبالفعل حقل تجارب لإجراء اختبارات الموت على الفقراء . .

فقال على طه بهدوء :

- السخط شعور مقدس ، أما اليأس فمرض ، ومهما يكن من أمر فالبرلمان بحيرة تلتقى فيها جداول متباينة المصادر ، لا محيد عن أن تمتزج أمواجها ، وينشأ عنها نبع جديد .

فابتسم محجوب ابتسامة مرة وتمتم :

- تعجبنى هذه الأسماء : أحمس والهكسوس ، منفتاح واليهود ، عرابى والجراكسة!

فقال مأمون رضوان ضاحكا :

- أعجب شىء أن طه شيوعى بَنَّاء بينما أنت مدمِّر . . أنت أحق الناس بلقب فوضوى .

فقهقه محجوب حتى سعل وقال :

- نحن نشق على أنفسنا أكثر مما ينبغى ، كأن هذه الحجرة مسئولة عن رفاهية الدنيا . .

فقال على طه :

- سوف تصغى جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة للطلبة . .

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلا :

- هذه الحجرة معمل تفريخ ، فما الخطوة التالية؟

فقال محجوب بسرور شرير :

- السجن إن كنا من الصادقين!

ثم ذكر الهموم التى جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث ، ونهض مستأذنا فى الانصراف بتعب السفر ، ومضى إلى حجرته ، وجلس إلى مكتبه الصغير محزونا متفكرا : إذا انتهى يناير انتهت معه «رفاهية» حياته الراهنة! . أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى

جحيما، ولكنها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود! . ولا شك أن الأشهر الثلاثة القادمة تحمل فى طياتها ألوانا من الشقاء لم يحلم بها قط، فماذا هو صانع؟ ومضى يشد حاجبه الأيسر مقطبا يلوح فى وجهه الشاحب العزم والتحدى . .

١١

ونشط فى الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأن الحى من الأحياء المأهولة، ولأنه مكتظ بالطلبة، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح، ثم عثر فى النهاية على حجرة سطحية بعمارة جديدة بشارع جركس ـ على مقربة من ميدان الجيزة ـ ولكن جدتها كانت طامة عليه لأن صاحب العمارة أبى أن يكرى الحجرة بأقل من أربعين قرشا، فاضطر محجوب إلى القبول مغلوبا على أمره. وأخبر أصحابه بأنه سينتقل إلى حجرة بعمارة جديدة، وقال لهم ـ وهو يغمز بعينه ـ إن أسبابا خاصة دعت إلى ذلك. قال ذلك وهو يعلم أنه سيعجزه غدا وصال جامعة الأعقاب، ولكنه آثر كذبا من هذا النوع على إذلال كبريائه. ووجد نفسه فى حاجة إلى نفقات النقل وابتياع مصباح غازى، فنظر فى أثاثه البسيط فلم يجد شيئا يمكن الاستغناء عنه، سوى صوان الثياب الصغير ـ أشبه بصندوق منه بصوان ـ باعه سرا بمساعدة البواب بثلاثين قرشا. وفى أول يوم من فبراير حزم متاعه وودع صحابه وانتقل إلى الحجرة الجديدة. وأدى الإيجار مقدما فلم يبق معه من نفقته الجديدة إلا ستون قرشا هى جماع ما يملك طوال الشهر. قرشان لليوم الواحد، للغذاء والغاز، وهناك الغسل ضرورة لا محيص عنها ـ وليترك الكنس جانبا ـ ثم الحلاقة، أما فنجان القهوة فمن الكماليات المحرمة. وليس فيما بقى من أثاثه الحقير ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه بثمن يذكر، فالفراش وهو أهم ما لديه لا يكاد يساوى نصف جنيه، ونفعه مع ذلك لا يقدر: فعليه يرقد وتحت حشيته يحفظ ثيابه. وهز رأسه ذا الشعر المفلفل وغمغم: «ستكر الأشهر الثلاثة كما يكر غيرها من الأيام، ولن أموت جوعا على أى حال». وبات ليلته الأولى بالمسكن الجديد.

وفى صباح اليوم الثانى غادر الحجرة بعد أن أغلقها، وأراد البواب أن ينظفها له ولكنه رده مشكورا، وكان فى الحقيقة يهرب لأنه لا يستطيع أن يتنازل له عن مليم واحد. وبلغ ميدان الجيزة، وجال ببصره حتى استقر على دكان فول مدمس فتوجه إليه واجما. ووجد جماعات العمال يقتعدون الإفريز أمام الدكان يلتهمون طعامهم ويتحادثون ويتضاحكون فقال لنفسه: «أصبحت واحدا من هؤلاء العمال الذين يرثى لهم على طه . .» وطلب

نصف رغيف وانتحى جانبا يأكله بشهية، فانتهى ولما يشبع. وكان بطبعه عظيم الشهية يتناول فى إفطاره صفحة فول ورغيفًا غير البصل والمخلل، ولكنه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين فى اليوم. وهز منكبه ومضى فى سبيل الجامعة وهو يقول: «لشد ما أنا فى حاجة إلى صفاء الذهن، فإما النجاح وإما الانتحار!» ومضى وقت الدراسة كالعادة، وقابل أصحابه جميعا، وأنفقوا فى حديقة الأورمان وقتا غير يسير يتناقشون فى المحاضرات. وعندما أزف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف، وعاد هو إلى ميدان الجيزة، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف، مع على، ومأمون، وأحمد بدير، وكان مكونا من صفحة سبانخ باللحم الضانى وأرز وبرتقالة، أما اليوم... !، وأقبل على دكان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة وهو يقول: «أهلا وسهلا». فآذته تحيته ونالت من كبريائه. وكان إلى جانب دكان الفول دكان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى أنفه. فسال لعابه وتوجعت معدته، ثم أخذ الرغيف ـ ومضى فاراً من الرائحة الشهية. وعاد إلى حجرته وفتح بابها، فشم رائحة هواء فاسد لأنه كان قد ترك النافذة مغلقة، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب والبطانية مكومة على الفراش، فأدرك أن عليه منذ الساعة أن يكون طالبا وخادما وربما «غسالة» أيضا، وشرع فى القيام بوظائفه الجديدة ممتعضا ثائرا، الحياة الجديدة شاقة متعبة، سيواصل دراسته بلا ريب، وسيواصلها بعزم وعناد، ولكن لن يسكت له جوع أو يطمئن له جانب، وسيسهر الليالى طاويا، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلج الأطراف مقوس الظهر، وربما فضحه مظهره وعرضه للهزء والسخرية، وربما نال منه الجوع فأسقمه.

ولكن ليس له إلا أن يكافح بصلابة وعناد، وأن يتحدى الناس والحظ والدنيا جميعا وأن يغضب وأن يحقد وأن يجن جنونا. استمر فى عمله حتى انتصف الليل، ثم ترك مكتبه إلى فراشه، ورقد عليه منهوك القوى، وهو يغمغم:

ـ انتهت أولى ليالى محنتى!..

١٢

وفى صباح اليوم الثانى استيقظ متعبا موجع الرأس، ومن عجب أنه لم يكن جائعا، ولكنه ذكر آلام جوع الليلة الماضية، فإن رغيف الفول لم يصمد بعد العشى. وتركه لجوع قاس أليم، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول فى غدائه رغيفا ونصفا، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخى البال، أما ساعات النصف الأول من

النهار فالدروس كفيلة بأن تشغله عن معدته فى أثنائها. فكرة طيبة جديرة حقا برأس فقير معدم والعادة كفيلة بأن تجعل الألم غير أليم، بيد أنه ما كاد يكرع كرعة روية ويستروح نسائم الصباح فى الطريق حتى تمطى وحْش معدته، فانهارت عزيمته، وهرول إلى دكان الفول لا يلوى على شيء. وراح ـ وهو يتناول طعامه ـ يذكر ما يقال عن سير متصوفى الهنود، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة، وكيف يصبرون على الألم ذلك الصبر المر، ويجدون فى هذا وذاك لذة عالية! . . . رباه . . لشد ما احتارت هذه الكلمة البديعة «اللذة» بين أمزجة البشر. أما هو فلذَّاته بيِّنة، وحرمانه بيِّن كذلك، حتى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال! . وذهب إلى الكلية، وحضر الدرس الأول، ثم مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثانى الذى يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمتعون بأشعة الشمس اللطيفة التى يجود بها فبراير جود مقتر شحيح. وكانوا يتحادثون بحمية الشباب وينتقلون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا: تلك الآنسة البدينة التى تضطرب نبراتها ويتهدج صوتها إذا نهضت لقراءة نص من النصوص، ومستر أرفنج مدرس اللاتينى ذو الشعر الذهبى . . ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى، وخُلقت آنسة درية ذَكَرا؟! السينما وتهديدها للثقافة الحقة والفن الرفيع، والويسكى والحشيش وأيهما أمتع، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣؟، من صاحب الفضل الأكبر فى إنشاء الجامعة؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيسة؟ من أحق بالفضل فى نهضة المسرح يوسف وهبى أم فاطمة رشدى؟ أيهما خير للوطن أن يتم الأمير فاروق دراسته فى إيطاليا كما يريد والده، أم فى إنجلترا كما يريد الإنجليز؟. امتلأ الجو آراء وملاحظات، وضج بالضحكات والصياح، واشترك محجوب فى الكلام بقدر، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة، ثم نهض يتمشى فى أرجاء الحديقة الواسعة، حتى أزف وقت الدرس فانطلق إلى الكلية، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبطا ذراع أحمد بدير، وقد قال له الشاب الصحافى:

ـ مبارك عليك السكن الجديد.

فقال محجوب مبتسما:

ـ بارك الله فيك.

فسأله الشاب وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

ـ من أسرة أم من بنات الهوى؟

فأدرك محجوب فى الحال عم يتساءل صاحبه، وارتاح لذلك. وأجابه بابتسامة غامضة قائلا:

ـ هذا سر لا يذاع!

- هل تقيم معك فى الحجرة أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة؟

فقال محجوب بزهو :

- الإقامة مجلبة للشبهات كما تعلم!

فهز الصحافى رأسه وهو يمصمص بفمه وقال :

- يا حظك! . .

وتتابعت أيام فبراير ومتاعب الحياة تصكه صكا، ولاحقه شبح الجوع ليلا نهارا، فلم تطمئن معدته إلا سويعات معدودات فى اليوم الطويل. وكان إلى عمله الدراسى يكنس حجرته وينظف مكتبه ويرتب فراشه ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه. ولم يدر كيف يقتنى الحوائج التى يعدها غيره تافهة كابتياع قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق، فاضطر أياما أن يقتصر على وجبة واحدة. وطحنه الجوع طحنًا، واشتد هزاله، وشحوب وجهه، حتى خاف على نفسه، نفسه التى يحبها أكثر من الدنيا جميعا أو التى يحبها وحدها دون الدنيا جميعا، لبث جائعا وحيدا فى الحجرة التى يحسب بعض صحبه أنها مهد غرام مستعر. لماذا لا يسأل إخوانه أن يطعموه؟ لو سأل على طه ما تأخر أو تردد، ولو سأل مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز. فما الذى يمنعه؟ الكرامة؟ . . الكبرياء؟! . . تبًا له! ألم يكفر بكل شىء؟! ألم يستهزئ بالقيم؟ فما له يأبه للكرامة والكبرياء؟! تبًا له. لا تزال فلسفته كلاما وهراء، متى يصير رجلا حقا؟ متى يفرط فى كرامته وعرضه كأنه ينفض ترابا عن حذائه؟!

وبلغ الكرب ذروته حين طالبته الكلية باقتناء كتاب فى اللغة اللاتينية ثمنه خمسة وعشرون قرشا، فأسقط فى يده، ولم يجد من ثمنه مليما واحدا. وقد بات الامتحان قريبا! ماذا يصنع؟ أما اللجوء إلى أحد من أصحابه فحلّ بغيض مقيت، خصوصا وهو يعلم أنه لم يقض دينه إذا استدان، فماذا يصنع؟! ومضى يوم ويوم، واضطربت حياته أيما اضطراب، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد بك حمديس! . . أيجوز أن يقنط وله مثل هذا القريب الكبير؟! . أجل إن والده يجد عليه وجدا عظيما، ويقول إنه رجل جحود، نسى أهله، وتنكر لهم. هذا هو الواقع حقا، ولكن والده مخطئ فى غضبه وليس البك مخطئا فى سلوكه. إذا كان قريبه يتكبر فجميع أمثاله يتكبرون، ومن حقهم التكبر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غضب والده. بيد أن تكبر البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف، ويمد له يد المعونة، فليقصد إليه آمنا، وسوف يكفيه شر اللجوء إلى البغضاء!

١٣

وغادر حجرته وقد صدقت نيته على زيارة قريبه وتجربة حظه، ولم يقتصد فى تهيئة نفسه، فكوى طربوشه، ولمع حذاءه بقرش كامل أو بثمن وجبة كاملة، ولكنه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجه وهزال جسم، وبحث فى دفتر التليفون عن عنوان قريبه: شارع الفسطاط بالزمالك، وحث إليه الخطى..

وحلَّق به الخيال - فى مسيره - فى عالم الذكريات المنطوية، فأضاءت فترة بعيدة من الزمن إذ هو فى الثامنة، وإذ قريبه لا يزال أحمد أفندى حمديس المهندس بالقناطر، وكانت أسرة المهندس مكونة من زوجه الحسناء وتحية ابنتهما - فى الرابعة - وطفل فى الثانية من عمره. كانت أسرة سعيدة تزينها ربة مفرطة فى الحسن. وفى ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفعون عن مخالطة آل عبد الدائم، ولم يأل عبد الدائم أفندى جهدا فى إكرام الأسرة العزيزة. ولكم جاب الأسواق يبتاع الدجاج والحمام يهيئ لهم مائدة شهية. ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تثنى على ذكائه وتعجب بشطارته، وتترك له تحية يلاعبها فى فناء الدار وفى الطريق. ترى كيف صارت تحية الآن؟.. وهل تذكره؟. لقد انطوى ذاك العهد منذ خمسة عشر عاما، فنسى واندثر وانتهى، وذهب بذكراه الزمن والإهمال. ولو كانوا شيئا ذا بال لرسبت منهم آثار فى باطن الذاكرة، ولكن آل حمديس كبروا وعظموا ولبثوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم، فامَّحت القناطر من سجل الحياة، وغاصت ذكرياتها فى غياهب الماضى، ونبذ عبد الدائم أفندى موظفا بالشركة اليونانية. ترى كيف صارت تحية؟.. ألا يمكن أن تتذكره؟. ذلك الغلام الذى كان يحملها بين يديه ويجرى بها ما بين البيت والمحطة!.. أما حمديس بك فلا يمكن أن ينسى وإن تناسى، سيذكره بمجرد أن يقع عليه بصره، ولن يقبض دونه يده.

وبلغ الزمالك، واهتدى - بعد سؤال - إلى شارع الفسطاط. كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكونا، وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة، وتشتبك أغصانها من الجهتين، فتجعل فوق أديمه ظلة من الأزهار الحمر. فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه الجاحظتين، نظرة يقول لسان حالها متسائلا: «هل يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة؟ أحق ما يقول مدعو الحكمة أم أنهم يخدرون القلوب الملتاعة؟!» واقترب بقدمين ثابتتين من الفيلا رقم ١٤، وسأل البواب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك، وأخبره أنه قريبه وأنه جاء لمقابلته، فدعاه النوبى إلى السلاملك، ودخل حجرة كبيرة

فاخرة الأثاث، لم يسبق له أن دخل بيتا كهذا البيت، أو وجد فى حجرة كهذه الحجرة، فألقى على ما حوله نظرة متفحصة مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة؟ وتطلع بناظريه من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بآى الجمال المعطر. ترى كيف يكون استقبال البك له؟ هل تدعوه حرمه لترى كيف صار الغلام شابا يافعا؟! هل يتذاكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم أفندى الصديق القديم؟.. هل يتأثرون لمرضه ويدركون الباعث الذى حمله على طرق بابهم فيمدون له يد المعونة عن طيب خاطر؟.. يالها من حجرة نفيسة!.. ألا يمكن أن يملك يوما قصرا كهذا يقصد إليه ذوو الحاجات؟..

وسمع وقع أقدام، فاتجه بصره نحو الباب ثم رأى البك ـ وقد عرفه من النظرة الأولى على تغير صورته وتقدم عمره، قادما، فنهض قائما وتقدم منه فى أدب مادا يده، فتصافحا والبك يمعن فيه النظر، ثم قال مبتسما:

ـ هو أنت إذا!.. بدا الاسم غريبا بادئ الأمر ثم أسعفتنى الذاكرة، الآن صرت رجلا، كيف حال والديك؟.

بدا الاسم غريبا بادئ الأمر!.. هو أنت إذا!.. وتناسى محجوب ذلك كله وقال بإجلال:

ـ والدتى بخير، ولكن والدى مريض، بل فى حالة خطرة!

وعند ذلك جلسا، وكان البك يرتدى معطفه يدل مظهره على أنه متأهب لمغادرة البيت، وقال الرجل وهو يسند ظهره إلى مقعده:

ـ لا بأس عليه، ماذا به؟

فقال محجوب بعناية وبصوت واضح:

ـ أصيب والدى بشلل ألزمه الفراش، فانقطع عن عمله، وساءت الحال.

وناط أمله بالعبارة الأخيرة «ساءت الحال» فاسترق إلى البك النظر على أثر النطق بها، ولكنه لم يجد لها أثرا يذكر، وقال البك دون أن تتغير ملامح وجهه الباردة:

ـ أمر محزن، أرجو أن تبلغه تحياتى، وأنت يامحجوب هل انتهيت من الدراسة؟

وأحنقه تغير مجرى الحديث، وأثاره برود محدثه، ولكنه لم يجد بدًا من أن يجيبه قائلا:

ـ امتحان الليسانس فى مايو القادم.

ـ عظيم.. مبارك مقدما..

ثم نهض وهو يقول:

ـ آسف جدا أن أتركك الآن لأنى على موعد هام.

فنهض الشاب قانطا حانقا يلعن فى سره المقابلة التى لم تستغرق دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عاما! ألم يدرك الباعث الذى رمى به إلى بيته؟ ألم تدله «ساءت الحال» على ما جاء من أجله؟! وتبعه إلى الخارج فى حيرة شديدة، هل يمسك بذراعه ويهتف به: «إنى فقير معدم وفى شدة الحاجة إلى معونتك فمد إلىَّ يدك!» وتوثب للعمل مجازفا بكل شيء، ولكنه رأى على بعد قريب فتاه شابة وفتى يافعا يرقيان السلم فى هدوء، فانهار توثبه وجمد بصره على القادمين. عرف تحية من النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة الماثلة للحسن والصورة الثاوية فى الذاكرة، وعرف من أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنه شقيقها. نسى عزمته، وانقلب إلى حالة من الجمود. . والكبرياء. ونظر البك إلى ابنيه مبتسما، ثم أومأ إلى محجوب قائلا:

ـ الأستاذ محجوب قريبى. . تحية ابنتى وشقيقها فاضل.

وتصافحوا. وقال محجوب مبتسما:

ـ إنى أذكرهما جيدا.

فقال إليك وهو يتحرك نحو السيارة التى تنتظره:

ـ إذاً امكث معهما بعض الوقت.

هل يمكث معهما؟. وتبادلوا النظرات فى تطلع وابتسام. أما فاضل فشاب جميل نبيل المظهر فكرهه من النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله، وأما تحية ففتاة حسناء فائقة الحسن، ربما كانت إحسان شحاتة أفتن منها حسنا، ولكن تحية مثال كامل للتعبير عن الأناقة والكبرياء، وأنموذج حى للأرستقراطية، فسرعان ما بهرت حواسه، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحى للحياة العالية التى يتآكل قلبه حسرة عليها، وقد سعرت عواطفه وهيجت طموحه، بيد أنها لم تثر شهوته كما فعلت إحسان، ولا أيقظت بنفسه عاطفة سامية ـ فلا عهد له بالعواطف السامية ـ ولكن حركت به إعجابا مقرونا بالحنق، ورغبة ممتزجة بالتحدى، فشعر فى أعماقه بنزوع إلى السيطرة عليها والبطش بها! وقر عزمه فى الحال على أن يمكث معهما.! وجلس ثلاثتهم فى الثوى الفخم، وأيقن أنه لن تخفى عليهما رثاثة هيئته، ولكنه تلقى هذه الحقيقة بالاستهانة، والواقع أنه كان يتمتع بقدرة عجيبة على قهر الحياء والارتباك. وعلى الادِّراع باستهانة لا تعرف الحدود!.

وقال فاضل مبتسما:

ـ هل تذكرنا حقا يا أستاذ؟

فقال محجوب بهدوء:

ـ عشنا معا فى بلدة واحدة منذ خمسة عشر عاما، كان البك مهندسا بالقناطر وكنا نلعب معا فى «حديقة» بيتنا.

فقال له الشاب بدهشة :

ـ لا أذكر شيئا عن هذا العهد .

وقالت تحية بصوت مهذب كمنظرها سواء :

ـ ولا أنا تقريبا . .

فآلمه ذلك ، وقال مداريا عواطفه بالابتسام :

ـ كنتما صغيرين ، أما أنا فكنت فى الثامنة . .

فهز فاضل رأسه مبتسما وسأله :

ـ وهل انتهيت من الدراسة؟

ترى هذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطية؟ ! وأجاب :

ـ سأنتهى فى مايو .

ـ أية كلية؟

ـ الآداب . .

فقال فاضل بلهجته الرفيعة :

ـ نحن سعداء إذ وجدنا قريبا مثلك .

فقال على الفور :

ـ وأنا أسعد لأنى وجدت قريبين .

وكانت تحية تتفحصه بعينين أنثويين ، فقالت لمجرد الرغبة فى الحديث كما يقضى الأدب :

ـ لم نزر القناطر منذ تركناها .

وارتبك محجوب على غير عادته ، هل يدعوهما لزيارة القناطر ومشاهدة البيت ذى «الحديقة» التى كانوا يلعبون فيها؟ ! بيد أن فاضل أنقذه من ورطته بأن قال موجها خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة :

ـ وهل زرت القاهرة التى تعيشين فيها؟ أنت لا تعرفين إلا الصالونات والسينما؟

فابتسمت تحية وقد تورد وجهها وقالت :

ـ يالك من مغال ساخر ! ألا تعلم أنى أعرف القاهرة جميعا حتى دار الآثار والأهرام زرتها كالسائحين ! . . ؟ !

فخطر لمحجوب خاطر بديع فقال على الفور وقد خلص من ارتباكه :

ـ دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة ، هل زرت الحفريات الجديدة؟ !

فتساءلت تحية ملتفتة إلى المتكلم :

ـ الحفريات الجديدة؟!

فأشار إلى صدره كأنه هو الذى اكتشفها وقال:

ـ حفريات الجامعة: بعد سير دقائق من الهرم الأكبر، دنيا غريبة محاطة بالأسلاك الشائكة، وجميع مفتشيها من أصدقائى وزملائى فمتى نذهب معا لمشاهدتها؟

فقالت بسرور:

ـ لا أدرى، ولكننى سأذهب يوما ما.. أليس كذلك يا فاضل؟

فقال فاضل بلا وعى منه وقد أخذ يعتوره الفتور:

ـ طبعا.. طبعا..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلا بعد انتهاء الزيارة أنه من الممكن أن ينشأ بينه وبينهما نوع مما يسميه الناس بالصداقة. وتفكر فيما يمكن أن يفيده من هذه الصداقة إذا حدثت، أم يخرج منها كما خرج من زيارة البك صفر اليدين..

١٤

ووجد نفسه فى شارع الفسطاط مرة أخرى ولفحته ريح باردة عاتية لم يدر متى هبت، تهز الأغصان فيضج الطريق بحفيفها، وتصفر بين الجدران فيصم الآذان زفيفها. فسرت إلى جسمه المتعب رعدة تمشت فى مفاصله، فأمشير أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع. بيد أن أفكاره شغلته عما حوله فاقتحم طريقه نصف شاعر بقساوة الجو. ذكر فاضل، وقارن بينه وبين نفسه، هنالك الصحة والجمال والغنى وهنا المرض والدمامة والفقر، ومع ذلك فهما قريبان! أما تحية ففتاة أرستقراطية، صورة حية للدنيا التى يطمح إليها. ترى هل يذهب بها يوما إلى الأهرام؟! إن فتاة مثلها لحقيقة بأن تكون مفتاحا سحريا يفتح الأبواب المغلقة ويصنع المعجزات. تفكر في ذلك طويلا، ولكن يا أسفا. أيجوز أن يغرق فى تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة؟ من أين له النقود ليبتاع كتاب اللاتيني؟. وكيف له بمقاومة الجوع الذى بات يهدد جسده وعقله!.. يا عجبا!.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته؟! أيكون هذا الطعام الذى يقتلع من الطين ويسمد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها؟ وعماد التفكير؟ والمبدع الحق للمثل العليا؟ أليس هذا دليلا على أن جوهر الإنسان قذارة وحقارة؟!. وحث خطاه. وكانت الرياح لا تزال تزمجر كاسرة. والسماء تتلبد بالسحاب المظلم، ومياه النيل الزمردية تصطخب وتعربد، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة، وبصق على الأرض باحتقار كأنما يناصب الدنيا

العداء؟ . . ألا يحسن به أن يقترض؟ . . ممن؟ . . وكيف يقضى دينه؟ لن يكون الشهر القادم بخير من سابقه، بل لعله أسوأ، فما العمل؟ لو كان يعرف فن النشل؟ . . النشل فن سحرى، والنشال يملك ما فى جيوب الناس جميعا، وقد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة. ولكن ما العمل؟ هل يعيد على حمديس بك الكرة؟ أيقابله فى الوزارة ويسأله صراحة المعونة؟ واعترضت سبيل أفكاره صورة تحية. تحية بنبلها وأرستقراطيتها. أيرضى أن تعلم أنه بائس شحاذ! . . هذه الفتاة تحرك مشاعره. ليس مجنونا فيهذى كما هذى على طه، فهى شهوة جديدة كتلك التى علقت إحسان لا أفلاطون ولا هيام، ومن عجب أنه كان عظيم الثقة بنفسه لحد غير معقول، ربما كان مبعث هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة، وفضلا عن ذلك كان يشارك العامة اعتقادهم فى التفوق الجنسى على الأغنياء، فاعتقد صادقا أن تحية ليست بمنأى عن طموحه. كانت أحلامه لا توقفها السماوات، وزادها الجوع جنونا، ذلك الجوع الذى جعل من دراسته كفاحا مريرا ومن لياليه عذابا أليما. وكتاب اللاتينى؟ تبًا له. كيف يحصل على النقود؟!

١٥

واستيقظ فى صباح اليوم التالى أهدأ نفسا، فهمدت الأخيلة التى بعثتها فى عقله زيارة آل حمديس. ولذلك أمكنه أن يثوب إلى رأى، وأن يقرر أن يقصد إلى حمديس بك فى الوزارة مادا يده بالسؤال. مضحيا بصداقة تحية وفاضل. ولم ير بدا من العدول عن الذهاب إلى الكلية، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفر ما يركب به الترام فى الذهاب والإياب، ومضى إلى حال سبيله فبلغ وزارة الأشغال فى تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريبه. فوجده رجلا فى الأربعين، فحياه بأدب وقال له:

ـ أريد مقابلة سعادة البك.

ـ من حضرتك؟

ـ قريب البك . . محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتب الكلام ترتيبا مؤثرا. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول.

ـ البك يرأس المجلس الاستشارى فيحسن أن تعود يوما آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوى على أم رأسه، وقال برجاء:

ـ ولكنى أريده لأمر هام جدا.

ـ لاشك فى هذا، إن شاء الله، ولكن يوما آخر.

ـ أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

ـ تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيظا محنقا، هل يبتلع الترام ماتبقى من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشارى إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغى أن ينتظر فى المدينة حتى العصر ـ إذا أراد أن يقابل البك ـ توفيرا لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذى ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثا عن دكان فول! وتناول الطعام الذى داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق فى طريق قصر النيل: ليقضى وقت انتظاره الطويل فى حدائقه. وكان الجو باردا، والسماء ملبدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقا مرددا بحقد وغضب: «أهاننى الرجل المجرم. أهاننى المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجرى وراءه مرة أخرى!.. هو عدو ما من صداقته بد، وهو بعض الألم الذى تمتحنه به الدنيا. وأمر أصابعه على جبينه المحترق وقال: «لن أبكى.. سأحافظ على جبروتى، ومهما بلغ منى الجوع فلن أصرخ مع الجبناء هاتفا يارب!» وانتهت به قدماه إلى الحديقة. وراح يمضى الوقت ما بين الجلوس والمشى ضجرا مملولا. وبردت أطرافه، وأحس تعبا فى معدته، وتساءل خوفا وفزعا: «ألا يمكن أن تترك هذه الأيام السود آثارا لا تزول أبد العمر؟!» وتجهم وجهه الشاحب، ولاحت فى عينيه نظرة قلق محزنة. ومر على انتظاره نصف ساعة، وكان يتمشى فى الطريق المحاذى للنيل، لا يدرى كيف يؤاتيه الصبر حتى يأزف الموعد، وعلى مقربة من باب الحديقة الأندلسية الخلفى رأى فتاتين تدنوان منهمكتين فى الحديث والابتسام، فألقى عليهما نظرة عابرة، فعرف إحداهما كانت تحية حمديس دون سواها! كانت فى شغل عنه بصاحبتها! أما هو فقد أحدث ظهورها المفاجئ فى نفسه أثرا أى أثر، انقطع حبل أفكاره: نسى أباها ومجلسه الاستشارى، تناسى آلامه وجوعه: وتركز همه فى شيء واحد أن يلقاها، ولم يحفل بمظهره، ولا بوجود الفتاة الغريبة: ولم تتحول عيناه عنها فى معطفها السنجابى الملتف حولها فى أناقة أرستقراطية: ولعلها شعرت بعينيه فنظرت نحوه، وكانت أصبحت على بعد أذرع منه، فاعترض سبيلها ـ وحنى رأسه تحية. ولاحت الدهشة في وجهها: ثم تورد، وألقت عليه نظرة سريعة، ثم مدت إليه يدها، وقدمت إليه صديقتها: وقدمته إليها: ثم وقفوا ثلاثتهم فى شبه ارتباك، لقد اندفع إلى تنفيذ غرضه: ثم لم يجد ما يقوله، ثم عمد إلى الأحاديث التقليدية فسألها:

ـ كيف حال الأسرة الكريمة؟

فقالت برقتها الطبيعية :

ـ بخير شكرا لك .

وأنقذه عقله من ارتباكه فذكره بحفريات الجامعة ، فسر لعثوره على موضوع للحديث وقال :

ـ هذه فرصة سعيدة تهيأت لى لأذكرك . . أنجز حر ما وعد؟

فقالت مقطبة دهشة :

ـ لا أفهم شيئا .

فقال بلهجة تنم عن العتاب :

ـ الحفريات . . حفريات الجامعة .

ـ آه . . كلا لم أنس .

ـ متى؟

ـ متى!

ـ نعم . لنكن عمليين : ما رأيك فى عصر الجمعة القادم؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد راق لها الاقتراح :

ـ حسن .

ـ وفاضل بك؟

ـ سأخبره . .

ـ لنتفق على موعد .

ـ لا نريد أن نتعبك ، فسم موعدك .

ـ الساعة الرابعة مساء ، أمام محطة الأتوبيس بميدان الجيزة .

وسلموا وافترقوا . واستأنف مسيره . نجاح باهر فاق كل ما تمنى ، فصار الحلم موعدا . أجل لاحظ أن صاحبتها تفحصت منظره بدقة ، ولكن ماذا يهم المنظر ، أليس أحقر رجل بامرأتين؟ فما بالك إذا كان الرجل محجوب عبد الدائم! إذا محتمل جدا أن تمسى العلاقات وثيقة ، وليس هذا بالأمر الهين ، فتحية من ذرائع الحظ التى يرفع بها المجدودين ، وهى بعد شىء نفيس أنيق ، ومن يعلم . . ؟! بيد أنه أدرك أنه لم يعد من الممكن استجداء حمديس بك ، إذ ليس من المنطق فى شيء أن يمد يده اليوم إلى الأب سائلا . وأن يلقى كريمته غدا لقاء المودة والاحترام . ولو فعل لأبى الرجل على كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بائس مثله ، ولأبت ذلك عليها نفسها الغالية ، فإما الاستجداء وإما اللقاء : ولكن لم يعد هناك اختيار ، أو أنه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدرى ، لقد سد

هذا الباب فى وجهه . . ! ووجد نفسه بعد كل ما بذل من جهد يتساءل متحيرا : ما العمل؟ . . كيف أحصل على النقود؟ . وكان يحث الخطى مرتبكا مهموما ، ويعمل فكره دون توقف ، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدى ، ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة! . . أجل ، هذا جار قديم ، وهو غير مأمون رضوان أو على طه ، ولن يجد غضاضة فى أن يمد له يده ، فلماذا لا يقصد إليه؟ ! . . يا لها من فكرة ، واليوم لم يكد ينتصف بعد ، وبينه وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر ، فليذهب بغير تردد . وقد ذهب .

١٦

وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدى سكرتير قاسم بك فهمى ، فقيل له بل مدير مكتبه ، ودلوه عليه ووقف على الباب ساع طويل القامة عريض المنكبين ، غزير الشارب ، فطلب أن يؤذن له عليه ، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ «تفضل» . ووجد الحجرة مكتظة بالجالسين نساء ورجالا ، وغاب الإخشيدى ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظفين يعرضون أوراقهم . ونظر الشاب فيما حوله وتساءل : متى ينفض هذا الحشد من الخلق؟ . . متى تتهيأ له فرصة للكلام؟ وعلا صوت الإخشيدى فى الحجرة ، ورنت نبراته الدالة على الأمر والسلطان ، تلاحظ وتنتقد وتعنف ، وأصوات الموظفين تئن بالشرح والتفسير والأعذار ، وجعل الموظفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحدا إثر واحد حتى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشاب ، ومد يده ودعاه إلى الجلوس ثم التفت إلى الزوار ، وأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ونفخ الدخان فى لذة وارتياح ، وقد لاح فى وجهه السرور والخيلاء ، واختلس محجوب إليه نظرات خاطفة : إنه شبعان وسعيد . ولا شك أنه أفطر زبدة وقشدة وعسلا ، تبدو عليه آى الصحة ، والاطمئنان إلى كرسيه الكبير . وأحس نحوه مقتا وتساءل فى سره ساخرا : لماذا لا يعلق فى حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ست أم سالم بجلبابها الأسود الملوث بالتبن؟ ! وكان الزوار أصحاب حاجات كالعادة ، فقدم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسية ، واستشفعته سيدة فى ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة ، ورجاه آخر أن ينقل له قريبه إلى القاهرة وقد قضى فى الأرياف عشرين عاما من سنى خدمته ، وسأل شاب أن يؤذن له فى مقابلة البك ليهدى إليه مؤلفه عن حياة الطفل حتى الخامسة ، وسمع الجميع يدعونه بإجلال واحترام : «سعادة البك» وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغطرسة . وتصبر محجوب فى قلق وعذاب حتى يفرغ البك المدير له . وحدثت المعجزة فخلت الحجرة . وتحول الإخشيدى إليه وقال :

ـ هكذا أقضى نهارى، ثم أستأنف ليلا فى قصر البك!

وتساءل محجوب فى سره حانقا: هل تريدنى أن أدعو الله أن يريحك من عملك؟ ثم قال بملق مبتسما:

ـ على قدر أهل العزم تأتى العزائم!

فهز الإخشيدى رأسه الكبير، وكان لا ينى عن الإشادة بعظمته، والهزء بفضل الغير. وقد عرف بحدة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه على السواء. وقد قيل عنه بحق أنه شيد حياته على العمل المتواصل، والدعاية لنفسه، والتشهير بمنافسيه. على أن أنانيته كانت تصور له أكثرية المتصلين به كمنافسين، ولذلك قل من نجا من شره. ولم يكن يأبه رأى الناس فيه، وكأنه يؤثر فى باطنه أن يقال عنه ما أفظعه عن أن يقال ما أطيبه. وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار «كل عاشق حق مكروه». هز رأسه الكبير وقال للشاب:

ـ عمل متصل. لكن هل كفانى شر الألسنة؟.. هيهات.. ولن يفتأ قوم قائلين رقى الإخشيدى إلى الخامسة وما مضى فى السادسة عامين!

فتظاهر محجوب بالإنكار وقال:

ـ وهل وضع نظام الأقدمية لقتل الكفاءات؟!

ـ الظاهر أنى فى وزارة، والحقيقة أنى فى مزبلة. والآن يا عزيزى ما حاجتك؟

فازدرد محجوب ريقه، واعتدل فى جلسته، ثم قال بلهجة تنم عن الرجاء:

ـ سالم بك، إنك جار قديم وزميل قديم، وملاذنا وقت الشدة.

ياسعادة البك والدى طريح الفراش، ونحن فى بأساء، وأنا فى أزمة مؤيسة، وقد نفدت نقودى: فدعنى أسألك بعض المعونة..

وتفحصه الإخشيدى بعينيه المستديرتين، فأدرك أنه جائع! ولكنه لم يتعود على أن يعطى أبدا، ولا عهد له بفن الإحسان، ولا كان من «الضعفاء» الذين تلين مظاهر البؤس من قلوبهم: فاعتبر الشاب وحاجته عائقا سخيفا اعتاق تيار أفكاره، فتوثب لمحوه، ولكن ماذا يجمل به أن يفعل؟ يعتذر له؟ ولكنه يكره الاعتذار خاصة لمن لا حول له. ثم تذكر أمرا فسأل الشاب:

ـ هل تجيد الفرنسية والإنجليزية؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء، لأنه كان يتوقع شيئا آخر غير هذا السؤال؟ ولم يدر ما حكمة توجيهه إليه! ولكنه أجاب قائلا:

ـ نعم أجيدهما..

ـ حسنا. . . أتعرف مجلة النجمة؟ . . . صاحبها صديقى وزميلى وربما رحب بك إكراما لي . .

ـ هل أكلف بترجمة بعض الموضوعات؟

ـ نعم . . مقالات . . فكاهات . خذ بطاقتى هذه واذهب إليه! وسأحدثه عنك بالتليفون . ولا تؤاخذني فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرض أوراقى عليه . . أليس هذا أكرم بك وأنفع!

ونهض الإخشيدى قائما، وأخذ ملفا في يسراه، ومد يده للشاب :

فمد له الشاب البائس يده وهو يسأله :

ـ أيدر هذا العمل ربحا معقولا؟

فضحك الإخشيدى ـ ولشد ما بدا لعينيه بغيضا ـ وقال :

ـ لعلك سمعت عن ثراء الصحفيين! على أنك ستجد ما أنت فى مسيس الحاجة إليه . . وتقدمه الإخشيدى نحو الباب، فجزع جزعا شديدا وأوشك أن يهتف به سائلا بضعة قروش، ولكن الباب فتح قبل ذلك، وبدا الساعى بجسمه الضخم الطويل، فغادر الحجرة حاملا البطاقة . وغادر الوزارة واجما متحيرا ما زالت أزمته قائمة . ومجلة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج آجل فما العمل؟ . . وكيف يحصل على النقود؟ . . وكانت الساعة تدور فى الثالثة . والجو بارد كما كان فى الصباح فخبط فى الطريق على غير هدى . مثقل الرأس قانطا، وضاقت الدنيا فى وجهه، حتى كور قبضته مهددا، وقال حانقا غاضبا بصوت أشبه بالنحيب : «سيدفع العالم ثمن هذه الآلام؟!» . وقد أدرك أنه لم يبق إلا على طه أو مأمون رضوان! . . لكم كره أن يمد لهما يدا، ولكنه لم يعد يملك حيلة، ولابد مما ليس منه بد . ومضى إلى الترام متسائلا : أيهما يفضل؟! كلاهما شاب نبيل، ولكنه لا يحب على، بينما لا يكره مأمون، وفضلا عن ذلك فمأمون رجل دين وورع، فهو حقيق بأن يصون سره، ويحفظه بالغيب، جدير بأن يغضى عنه إذا تأخر عن قضاء دينه . ومضى إلى دار الطلبة، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان، واستقبله الشاب بسرور وسأله :

ـ لماذا تغيبت اليوم عن الكلية؟

فقال محجوب :

ـ مكره أخاك، لشد ما أعانى من الاضطراب؟

وتفرس مأمون فى وجهه بعينيه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من الهزال والقنوط، وسأله باهتمام وإشفاق :

ـ ما بك يا أستاذ محجوب؟

فقال دون تردد:

- ظروف قاسية، فقدت آخر مليم من نقودى، لا أملك من ثمن كتاب اللاتينى مليما واحدا..

ونهض مأمون قائما دون كلمة، واقترب من المشجب، ودس يده فى جيب جاكتته، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة، وأتى بها إلى الشاب، فأخذها محجوب وهو لا يصدق، وفتح فمه ليشكر صاحبه، ولكن صاحبه سارع بوضع إصبعه على شفتيه متمتما «هس».

وغادر دار الطلبة لا يلوى على شىء. حتى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة. وكان راضيا وساخطا معا، راضيا لحصوله على النقود، ساخطا لأنه بات مدينا لمأمون رضوان.

١٧

وجاء يوم الجمعة الموعود، فذهب إلى محطة الأتوبيس قبيل الميعاد بزمن يسير ومضى يسأل نفسه: ترى هل يفيان بوعدهما؟.. وفى الموعد المضروب جاءت سيارة فخمة وقفت أمام المحطة، وأطل من نافذتها الوجه الجميل. فخفق فؤاده وهرع نحوها، وفتح له الباب واتخذ مكانه، ثم أدرك وقتئذ فقط أن تحية جاءت بمفردها. وعجب لذلك، ولكن لم يطل عجبه، وغمره سرور شاملٌ، وإن سأل بإنكار متكلف:

- أين فاضل بك؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير، ثم التفتت إلى محجوب وقالت بلهجة انتقادية:

- ركبنا معا، ثم رأى فى الطريق «بعض الناس» فتخلف عن الرحلة وحملنى اعتذاره إليك.

فأطرق محجوب ليخفى سروره، وسألها بأدب:

- وكيف الوالدان الكريمان؟

- الحمد لله.. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة.

- عفوا.. عفوا..

فقالت بصوت ينم عن الرجاء:

- سنرى أشياء لذيذة.. أليس كذلك؟

فقال بيقين وإن كان فى الحقيقة يذهب إلى هنالك أول مرة:

ـ بكل تأكيد..

وساد الصمت. وراحت الفتاة ترسل ببصرها من النافذة، وراح هو يسترق إليها النظر. هذه أول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقا. وأين؟.. فى سيارة فخمة تحزن الحاسدين ـ فضل هذا التعبير عن تسر الناظرين ـ فأسكرت أنفه رائحة ذكية، لا رائحة العرق الملبد بالتراب، فدخله شعور المختنق إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين، ولم تكن به ذرة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة. فتركزت رغبته في تخيل صورة واحدة: أن يلقى بنفسه عليها!.. وشعر بدبيب الرغبة يسرى فى دمه. فألقى ببصره إلى الخارج. وتساءل لماذا تخلف فاضل؟.. هل رأى فتاة حسناء فجرى وراءها؟ أم أن تحية نفسها عملت على التخلص منه؟ وداعبه غروره الجنسى فقال: إنهما (هو وهى) من دم واحد، وكما يقولون «فالدم يحن»، ليس شيء بمستحيل. أما لو صدق حدسه فسترى أشياء لذيذة كما تحب!.. والسائق؟!.. لا يهم.. فهو لا يستطيع أن يتصور الثراء والعفاف فى كائن بشرى معا، ولا شك أن هؤلاء السائقين مدربون على التغاضى..! أجل.. أجل.. أو فما الداعى إذا لمجيئها منفردة؟!، إن أجمل حكمة هى التى تقول: «إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما» فأين هذا الشيطان ليجثو بين يديه، ويلثم قدميه؟ طالما كان للشيطان تابعا ومريدا أفلا يجزيه الشيطان عطفا بإخلاص؟!.

واسترد بصره من الخارج، وشعر برغبة إلى جرها إلى الحديث، فسألها:

ـ والآنسة فى الجامعة؟

فهزت رأسها نفيا وقالت مبتسمة:

ـ كلية بنات الأشراف.

فقال بسرور:

ـ جميل.. جميل جدا.. وسألته تحية:

ـ ماذا تنوى أن تعمل بعد الليسانس؟

وبغته السؤال. إن أقرانه يتحدثون عن المستقبل بحزن ويأس والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب فى الوزارات يروحون بالشهادة على وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة.. ولكنه بجسارته المعهودة تخلص من ارتباكه. وقال بثقة ويقين معا، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين:

ـ على أن أختار بين طريقين، فإما الانخراط فى السلك السياسى، وإما التحضير للدكتوراه فالتدريس فى الجامعة..

فقالت مبتسمة :

ـ جميل . .

لماذا استعملت تعبيره الخاص؟ . . أتسخر منه الشيطانة أم تجهل هذه الأمور؟ . . وأراد أن يسبرها فسألها :

ـ أيهما تفضلين!

ـ أنا؟ . . هذا شأن يعنيك . .

فقال بمكر ودهاء :

ـ ويعنيك أيضا ما دام يعنى قريبك .

فتورد وجهها وقالت :

ـ السلك السياسى أجمل . .

وتمثل له حمديس بك ذاهبا إلى الخارجية للتوسط فى تعيينه ثم قال :

ـ هذا رأيي . . ما أجمل أن تمضى الحياة كلها ما بين بروكسل وباريس وفيينا .

فاستضحكت قائلة :

ـ أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا؟

فجاراها فى ضحكها ، ولكنه قال بدهاء :

ـ هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك قريبه!

وابتسما معا . وقال لنفسه راضيا أن اللبيب بالإشارة يفهم ، وحسبه ذلك الآن . أما عن المستقبل فقلبه يحدثه بأن هذه الفتاة لن تذهب من حياته كأنها شيء لم يكن . ومن يعلم؟ إن الجسارة لا تنقصه ، بل لعل عيبه أنه جسور أكثر مما ينبغى . واستسلم لتيار أفكاره ، حتى انتبه إلى السيارة وهى ترقى الطريق الملتوى الصاعد إلى هضبة الأهرام . ونزلا عند سفح الهرم الأكبر وهو يقول :

ـ الحفائر وراء أبو الهول بفراسخ معدودات .

وسارا سيرا غير يسير ، وجعلت أقدامهما تنغرس فى الرمال وتقلع بقوة . وكان الوقت أصيلا ، والجو باردا ، ولكن السماء صفت ، وأشرقت الشمس دون حجاب . بدت ملابسه فى وضح النهار غير ذات أناقة أو جمال ، فقلق ، وقال لنفسه ساخرا : «لعلها تسأل نفسها لماذا لا يرتدى حضرة السفير معطفا؟» . وبعد مسير ثلث ساعة لاحت منطقة الحفائر تحيط بها الأسلاك الشائكة ، فتمتم محجوب :

ـ وصلنا .

واقترب الشاب من الخفير وأرسله بورقة إلى مفتش المنطقة ، وعاد الرجل وأذن لهما

بالدخول، فدخلا، ثم قابلهما المفتش وهو شاب دون الثلاثين، وكان من أصحاب محجوب، فرحب بهما وقال لهما معتذرا:

ـ ستريان الأماكن المسموح بزيارتها، وهى التى تم الكشف عنها، ولكنى لن أرافقكما إليها لأنى مشغول جدا، ولا أظنكما فى حاجة إلى دليل (وهنا هز محجوب رأسه موافقا) حسنا. هاكما معبد الشمس وهو تابع للمعبد القديم المعروف بمعبد أبى الهول، وإلى جانبه الجزء الخلفى لمقبرة الأمير سنفر...

وقال محجوب لنفسه: «قضى الله لحكمة يعلمها أن نظل اليوم منفردين. وإذا كانت حكمة الله كلها على هذا المنوال فأنا من المؤمنين!»، وأخذ كنزه النفيس إلى معبد الشمس. وهبط أدراجا صنعت حديثا، فوجدا نفسيهما فى بهو أرضه من الصوان، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة، ولا سقف له ولم يكن به شىء يروع أو يثير العجب، فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق بعدم الاكتراث، ولم يكن محجوب أقل خيبة منها، ولكنه تعمد أن يكبر من شأن رحلته فقال:

ـ انظرى إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور!

فابتسمت كالهازئة وقالت:

ـ وماذا كان عليها لو أنها اندثرت؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال:

ـ لو كنا نقرأ الهيروغليفية لعرفنا أمورا تستثير الإعجاب والدهشة.

ـ حقا!

ـ بكل تأكيد، ألم تلمى بتاريخ الفراعنة؟!

فهزت رأسها نفيا. وبذلك انتهت زيارة الأثر الأول. وفيما هما يدنوان من المقبرة وراء المعبد سألته تحية:

ـ ألا توجد آثار أخرى غير هذه المقبرة؟

وأحس ما وراء التساؤل من ملل، فارتبك وقال:

ـ توجد آثار كثيرة ولكن لم يصرح بزيارتها..

وهبطا أدراجا فوجدا نفسيهما فى حجرة صغيرة مستطيلة، تتحلى جدرانها بالنقوش والصور، ولا يكاد يعلو سقفها كثيرا على طول الهامة، وألقيا على المكان نظرة عامة، ثم تعلق الشاب بالصور، فقال بصوت خافت:

ـ فلنشاهد الصور، انظرى إلى ألوانها الزاهية..

وبدآ بالحائط القريب من المدخل، وقد حلى بصور تمثل صاحب المقبرة وعلى يساره

زوجه، بينهما أطفال، ويحيط بهم جميعا خدم وحشم، وعلى الحائط الذى يليه شاهدا منظر حقل مترامى الأطراف، تحرثه محاريث تجرها الثيران. ووقف هنا وهناك فلاحون عرايا. وتحولت تحية من المنظر بلا ريث، وانتقلت إلى الحائط الثالث. وأدرك محجوب أنها مرت خجلة من صور العرايا، وتفحص الصور بعينيه الجاحظتين فجرت على شفتيه ابتسامة خبيثة، واضطرب مجرى دمه، وقوى شعوره بأنهما منفردان. ولم يتحول عن منظر الحقل، ولا حول عينيه عن صور العرايا، حتى ملأت عليه نفسه تلك الحقيقة الرائعة وهى أنهما منفردان أمام العرايا. وخيل إليه من إدمان النظر، أن الصور تتجسم لعينيه، وأن الحياة تدب فيها، والدماء تتدفق فى عروقها، فتكتسى بشرتها بذاك اللون الخمرى ذى الوهج، وتلتمع فى محاجرها نظرات خاطفة. ثم تشرئب أعناقها نحو. . الفتاة الهاربة، موردة الخدين من الخجل. وخفق فؤاده بعنف والتهبت جوارحه من قوة العاطفة، وعبثا حاول أن يملك زمام نفسه. وذكر مجيئها بمفردها، وحديثهما فى السيارة، ورقة حاشيتها، وانفرادهما معا، ثم وجودهما فى هذه المقبرة تغشاهما وحشة الأجيال، فخال الثمرة دانية القطوف، وعنف هياجه حتى صار وحشا فاقد العقل والإرادة. وازدرد ريقه بصوت غريب وعيناه ثابتتان على العرايا وإن باتا لا يريان شيئا:

- هلا نظرت إلى هذا الحقل الحافل. .

فقالت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل:

- ليس به ما يستحق الرؤية. .

فعطف رأسه وقال بصوت كالهمس:

- لشد ما أنت ملولة يا آنسة.

ودنا منها خطوة فحاذاها، وجعل ينظر معها إلى صورة خادمة تعجن، وانحنى قليلا كأنما ليعاين جزءا من الصورة، فلامس كتفها ويمناها، ثم اعتدل ونظر فى عينيها وقال بصوت متهدج:

- ألم يعجبك شىء؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة:

- الحق أننا لم نجد ما يستحق عناء الرحلة. .

فقال محجوب بصوته المتهدج وعيناه تثقبان عينيها:

- ولكن المكان جميل وهادئ. .

وانتبهت إلى تهدج صوته، وشعرت بحدة نظرته النارية، فاختلج بصرها، ونظرت إلى الأرض، ثم قطبت فى حيرة وقالت:

ـ آن لنا أن نذهب . .

فهز رأسه، وهم أن يقول شيئا، ولكن أعياه القول، فأمسك بيدها، ولكنها سحبت يدها بسرعة، وألقت عليه نظرة إنكار، فلم يبالها، واسترد يدها بقوة، وقال وصفحة وجهه تموج بعاصفة: «دعينا نمكث قليلا» . . وتملكه شيطان الشهوة، فجذبها نحوه بعنف، وأحاطها بذراعيه، وأهوى إليها بفم يحترق إلى التهامها . ولكنها صدته بيمناها، وباعدت رأسها عنه ولاح فى وجهها الجميل الغضب، وصاحت به صوتًا رن رنينا مزعجا فى المقبرة الصامتة :

ـ أجننت! . . دعنى . . اترك يدى . .

فاستصرخها قائلا يكاد يجن من العذاب :

ـ لا تغضبى . . . أرجوك . . . تعالى . . . تعالى إلى صدرى . .

ولكنها تخلصت من ذراعيه بقوة جنونية لا تدرى كيف أتتها، وصاحت بعزم وقسوة :

ـ مكانك . . إياك أن تلمسنى . . إياك أن تعترض سبيلى . .

واتجهت نحو الباب، فتنحى لها، وتبعها مطرقا، صامتا، مثقلا بشعور الخزى والخجل . وسارا صامتين يقطعان الطريق الذى جاءا منه صديقين سعيدين، وقد اكتسى وجهها الجميل بلون الغضب القانى، وارتفع رأسها كبرياء وصلفا، ولم يدر كيف يصلح من خطئه، وكلما طال الصمت يئس وغلب على أمره، حتى تساءل نادما أما كان ينبغى أن يمد حبل الصبر؟ وقال لنفسه متأسفا : الظاهر أن فتاة مثل تحية لا تؤخذ كما تؤخذ جامعة الأعقاب . . لعله لم يوفِّها حقها من اللباقة والغزل، ولو أنه اصطنع معها التريث والأناة لربما فاز بها، تبًا للشهوة الجامحة . لقد ضيعت عليه فرصة سانحة . وبلغا السيارة، وقالت تحية بلهجة آمرة دون أن تنظر إليه :

ـ مكانك .

وصعدت إلى السيارة، وأغلقت الباب، وأمرت السائق بالمسير . وأتبعها عينيه حتى هبطت تحت مستوى البصر وغابت عن ناظريه تاركة إياه وحيدا عند سفح الهرم . ولبث هنيهة مكانه ـ كما أمرته ـ واجما ـ ثم هز منكبيه، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتى أوشك أن يضحك من نفسه، ونظر إلى الهرم طويلا، ثم غمغم ساخرا : «إن أربعين قرنا تنظر إلى مأساتى من فوق هذا الهرم!» . ثم غلبته موجة غضب مفاجئة ـ فاحمر وجهه الشاحب، واضطربت أرنبة أنفه، فود لو يستطيع أن يقذف القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة، وتحركت قدماه ولايزال يأكله الغضب . علام الحزن؟ . . ما هى إلا أنثى! . . ولن تزيد على فتاته ـ جامعة الأعقاب ـ شيئا! . . أجل . بيد أنه أضاع فرصة، وخسر تحية وأباها إلى الأبد! وتذكر لحظة، ثم غمغم وهو يهز كتفيه استهانة : طظ .

١٨

وجاءت فترة استقرار نسبيا . .

تناسى محجوب إخفاقه وتوثب للعمل فقابل رئيس تحرير «النجمة» وكلفه الرجل بترجمة بعض المختارات نظير خمسين قرشا فى الشهر ، فصار دخله مائة وخمسين قرشا ، واستطاع أن يتقى به ويلات الموت جوعا وأن يجعل الحياة محتملة على أية حال . وانبرى للعمل يواصله ليلا ونهارا ، ما بين دراسته الجامعية وعمله الصحفى البسيط . وخلت حياته من الفراغ فندر تفكيره فى نفسه ، واجتراره الهموم ، ومضت أيام كاملة لا يكوِّر فيها قبضته غضبا أو يهتف ساخطا ساخرا قائلا : طظ . أجل كانت توجد أويقات غيظ ما منها بد ، إذا تهيأ لتناول طعامه الحقير مثلا ، أو رأى على طه بجسمه الرياضى وابتسامته السعيدة ، أو ذكر طرقه الأبواب التماسا لبضعة قروش ، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرا هونا محتملا .

وولَّى مارس بجوه اللطيف ورياحه الطيبة وسمائه الآخذة فى خلع أردية الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه ، وتبعه على الأثر إبريل بشمسه المزهوة ـ شأن كل حديث نعمة ـ ورياحه المغبرة وجوِّه الأصفر الكدر . وجاءه فى أول مايو كتاب والده الشهرى المعهود قال له فيه : إنه أرسل إليه آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه ، ودعا له بالتوفيق والنجاح ، ثم قال له : إنه سينتظر من الآن فصاعدا معونته التى بات فى أشد الحاجة إليها ، وبشَّره بأنه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرك قريبا ، وربما أمكنه المشى متوكئا . لم يكن فى الرسالة شىء لم يسبق الاتفاق عليه ، بيد أنه لم يستطع مدافعة الغيظ الذى هاجمه ، وعاودته ذكريات الليالى السود ، ليالى الجوع والهذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت ، ولو كانا لكنت . . .

ثم كان الامتحان فى أول مايو ، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه ، ونجح الصحاب الأربعة الذين تزاملوا أربعة أعوام كاملة . ولم يكن الامتحان ـ بالنسبة لمحجوب ـ مجرد امتحان مدرسى . كانت فى الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كى يجنى ثمار كفاح خمسة عشر عاما ، فسر سرورا مضاعفا ، وتنهد ارتياحا من الأعماق . ولكن سرور الطالب المتخرج بالنجاح سرور قصير المدى ، بل هو سرور لا يجاوز ليلة ظهور النتيجة ، فإذا أدركه الصباح غشيه بهموم من نوع جديد ، هموم شاب يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردا ـ خصوصا إذا كان حاله كحال محجوب ـ ذلك الجبار المقنع المشتمل على

جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذى يسمونه المستقبل. ومضى الصحاب يجتمعون كل مساء تقريبا بنادى الجامعة، وكانت تترامى إليهم أخبار الزملاء ذوى الحسب والنسب، ممن تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد، متفائلين أو متشائمين، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان: «لن يتغير مجرى حياتى، فلن أبحث عن مهنة جديدة، بالأمس كنت طالبا وصحافيا، فالآن أتفرغ لعملى فى الصحافة». ولم يكن مأمون رضوان يدرى إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى فى مصر، ولكن هدفه بقى واحدا فى الحالتين، وهو الإسلام، وقد تساءل مرة قائلا: «ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقى فى جمعية الشبان المسلمين؟ فنطهر الإسلام من غبار الوثنيات، ونرد إليه روحه الفتية، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربى جميعا ثم بلاد المسلمين!». أما على طه فلم يكن ذا هدف واضح، ولكن اختلطت عليه الوسائل. كان مهيأ للاشتغال بالسياسة، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس. ولو وجد حزبا ذا مبادئ اجتماعية لاشترك فيه بلا تردد، ولكن أين هذا الحزب؟.. فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثم يشترك فيها، أم يأخذ هو فى الدعوة إليها منذ الآن؟ لا شكَ أن الانتظار أسهل، وأحكم، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى فى بلد لا يشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة، ولعله من الخير أن ينتظر قليلا ليستكمل عدته من العلم والمعرفة، وغير ذلك، فلم ينط أمله فى الوظيفة، ولا كان يرفضها لو أتيحت له.

محجوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع: الإسلام، السياسة، الإصلاح الاجتماعى، كل أولئك مسائل لا يكترث لها، أما شغله الشاغل فهو اتقاء الموت جوعا، أو هو وظيفة توفر له الرغيف!، وإذا أخفق فى الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهدده وحده هذه المرة، ولكن يتهدد والديه معه، وهو لا يشفق عليهما بقدر ما يشفق من مضايقتهما له، فما العمل؟.. كان فى الحقيقة بلا معين، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين. وتفكر طويلا، ولكنه لم يفعل شيئا إلا أن كتب لوالده كتابا قال فيه: إنه بصدد البحث عن وظيفة، وإنه يرجو أن يتمكن قريبا من تأدية واجبه نحو أسرته، وشرح له الصعاب التى تعترضه، وفى ذلك الوقت رشح أستاذ الفلسفة الفرنسى مأمون رضوان لبعثة السوربون، ووصى بتعيين على طه فى المكتبة ليتهيأ له جو حسن لتحضير رسالته. سمع محجوب بهذه الأنباء، وقارن بين حظه وحظ زميليه.. غداً ينتقل مأمون ربيب أحقر قرية فى الغربية إلى باريس.. وغداً يطمئن على إلى كرسيه فى المكتبة فيحضر الماجستير ويعقد على إحسان!.. مرحى.. مرحى.. وماذا هو فاعل؟.. هل تعود أيام فبراير السود؟. وذهب لمقابلة على طه فى المكتبة، وقد مر على تعيينه أسبوع، وكان يتوقع أن يجده فرحا مسرورا، وقابله الشاب بابتسامته المعهودة، فلم يقرأ فى وجهه ذلك السرور

الذى توقعه، بل خال أنه يرى مكانه فتورا لم يتعوده صاحبه، وعجب لذلك أيما عجب، وغمضت عليه أسبابه، حتى حسب أن الشاب يدارى فرحه بهذا المظهر الفاتر. وتجاذبا الحديث طويلا، وأعرب له عن نيته فى عدم الاستمرار فى الوظيفة، قال:

- هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلا للاشتغال بالحياة العامة.. وربما اخترت الصحافة فى الوقت المناسب..

وذكر محجوب عمله فى النجمة وما يدر عليه من رزق واسع! فجرت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وعاد على طه يقول:

- إنى أتهيأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة فى مصر..

وضاق محجوب صدرا بآمال صاحبه، وسأله صراحة عما إذا كان فى الإمكان أن يجد وظيفة فى المكتبة؟ ومضى به الشاب إلى موظف المستخدمين يستفتيانه، وكان الرجل صريحا جدا، فأمسك بيد محجوب وقال له بحدة:

- اسمع يابنى: تناس مؤهلاتك، ولا تضع ثمن طلب الاستخدام، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها: هل لديك شفيع؟ أأنت قريب أحد مما بيدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة؟.. إن أجبت بنعم فمبارك مقدما، وإن أجبت بكلا فلتول وجهك وجهة أخرى..

وغادر المكتبة مظلم العينين من اليأس ومرارة الإخفاق. ولم يكن شىء مما سمع بالجديد عليه، ولكنه أحنقه كأنما سمعه أول مرة، ومضى يخبط فى حديقة الأورمان، واجما مكتئبا. آه لو كان أبقى على علاقته الحسنة بآل حمديس، آه لو لم يقطع تلك العلاقة بوحشية يوم الهرم؟. ترى لماذا لا يستقيم له أمر؟ لماذا لا ينال حظه من السعادة والطمأنينة؟.. لماذا يرصده الجوع كأنما لا يجد فريسة سواه؟. الدنيا جميعا فرحة لا تأبه له. هذا الربيع يجرى فى خضرة الغصون وحمرة الأزهار، ويطير مع العصافير والأطيار، ويرقص على الشفاة الموردة الغارقة فى النجوى عن يمين وشمال. الدنيا كلها فرحة مطمئنة، والوجوه مشرقة. هذه حديقة الأورمان مجمع أفراح الإنسان والحيوان والنبات، والأرض نفسها والسماء تشملها غبطة صامتة فوق كل كلام. أيموت جوعا فى هذه الدنيا؟. وبدا له سؤاله غريبا نافرا، وضحك هزءا وسخرية وتحديا، وقال متحديا: «أأموت جوعا؟.. فلا نزل القطر.. فلا نزل القطر.».. كيف يموت جوعا ثائرا على جميع القيود؟.. كيف يموت جوعا كافرا بالضمير والعفة والدين والوطنية والفضيلة جميعا؟.. وهل جاع فى هذه الدنيا أحد ممن يتصفون بالرذيلة؟.. بل هل كانت الشكوى إلا من أنهم يستأثرون بكل طيب فى هذه الحياة؟ ماذا عليه لو نشر فى الإعلانات المبوبة بالأهرام يقول:

«شاب فى الرابعة والعشرين، ليسانسيه، طوع أمر كل رذيلة، عن طيب خاطر يبذل كرامته وعفته وضميره نظير إشباع طموحه». ألا يقتتل عليه العظماء.؟ ولكن من له بنشر هذا الإعلان؟.. من عسى أن يأخذ بيده؟.. لا فائدة من السعى لدى الزملاء، ولا الأساتذة، ولا حمديس بك.. إلا واحدا كان يجب أن يفكر فيه دون سواه.. سالم الإخشيدى.. ليس بذى مروءة ولا نجدة، ولكن هل لديه سواه؟!.

١٩

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدى فى بيته، لأن حجرته بالوزارة لا يتهيأ لها الجو الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ فى شقة بشارع السيد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحا ليضمن وجوده.

واستقبله الأستاذ فى حجرة استقبال صغيرة أنيقة، وكان يقيم فى القاهرة بمفرده ومعه طاهية.. وأدرك الأستاذ الباعث على الزيارة بداهة، ولكنه ترك القادم يفصح عن رغبته، دون مبالاة، وقال محجوب:

ـ معذرة عن مجيئى إلى البيت، فإننى أعلم أن عملك بالوزارة لا يسمح لك بسماع الأحاديث الخاصة.

فقال الإخشيدى ببرود:

ـ الواقع أننى لا أترك العمل إلا فترة قصيرة يوم الجمعة!

وفطن محجوب إلى ما فى إجابته من مغزى، ولكنه تغاضى عنه بجسارته المعهودة، وقال:

ـ حصلت على الليسانس.

فابتسم الإخشيدى ابتسامة تشجيع فاترة، وتمتم قائلا:

ـ مبارك...

فشكره الشاب بحماس وقال:

ـ يا سالم بك، أنت جار قديم، وزميل قديم، وأستاذنا فى العلم والوطنية على السواء، ولن أنسى ما حييت أن توصيتك لدى رئيس تحرير النجمة أنقذت حياتى ومستقبلى من الضياع. لهذا أقصد إليك كبير الرجاء، يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورق اللحم، فهل آمل أن تلحقنى بوظيفة ما؟

أصغى الإخشيدى بلا تأثر، لأنه تعود سماع هذه الخطب الحارة. وكان يحتقر الشاب

ويستهين به لفقره وعوزه، فلم يتحمس لمساعدته. وكان يوجد بالوزارة وظيفتان خاليتان، ولكنه وعد شخصا إحداهما، وتقبل نظير الأخرى هدية فاخرة، وقد يصير محجوب ذا فائدة يوما ما، ولكن العاجلة خير من الآجلة. وجعل محجوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف والرجاء، ويشعر أنه بات تحت رحمة إنسان لا يراعى إلا مصلحته الذاتية. ولما وجد منه صمتا قال بصوت مؤثر:

ـ إنى أملتك وكفى.

فأشعل الإخشيدى سيجارة، وهز رأسه كالآسف وإن لم تدل عيناه على شىء، وقال بهدوء:

ـ لا توجد وظائف خالية عندنا الآن.

فلاح اليأس فى وجه الشاب وتساءل:

ـ أما من فائدة ترجى؟

ـ لا داعى لليأس المطلق، ليس عندنا وظائف، ولكن توجد فى الدولة وظائف كثيرة، ويمكن أن أدلك على سبيل الخير.

ولم يجد فى قوله ما يبعث على الأمل، ولكنه لم ير بدا من أن يقول:

ـ شكرا لك يا بك، شكرا لك.

فنظر إليه الإخشيدى نظرة غامضة قوية وقال:

ـ أرجو أن تكون رجلا عمليا، وأن تحسن فهم الدنيا، وأن تعلم أن كل فائدة بثمن. . لست أسألك شيئا لنفسى، فما أنا إلا دليل.

ـ عفوا، عفوا. . أستغفر الله. .

فابتسم الإخشيدى وقال:

ـ إذا أخذت بقولى فهنالك أناس قادرون يستطيعون أن ينفعوا أمثالك!

وسكت الإخشيدى لحظات ثم استدرك:

ـ هناك مثلا عبد العزيز بك رضوان. . ألم تسمع عنه؟!

ـ بلى. . أظنه من رجال الأعمال المعروفين.

ـ هو ذلك. . وله كلمة نافذة فى العهد الحاضر. . ودائرة اختصاصه وزارة الداخلية.

فسأله الشاب متحيرا:

ـ ومن لى بمعونته؟

ـ الطريق ميسور، ولكن ينبغى أن تعلم أنه يأخذ ممن يعينه نصف مرتبه لمدة عامين بضمان!

وهال الثمن الشاب المعدم، ونظر إلى صاحبه بخوف، ثم سأله بعد تردد:

ـ أليس يوجد من هو أيسر شرطا؟

فقال الإخشيدى فورا، كأنه نادل يقرأ ثبتا:

ـ المطربة المعروفة الآنسة دولت . .

فلاحت الدهشة فى وجه الشاب الشاحب، فلم يباله الآخر واستدرك:

ـ منطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية وبعض الدوائر الكبرى . .

وأخذ الإخشيدى نفسا عميقا من سيجارته، واستطرد قائلا:

ـ والأسعار كما يأتى: الدرجة الثامنة ثلاثون جنيها، والسابعة أربعون، والسادسة مائة جنيه. والدفع فورا.

وتنهد محجوب يائسا، ثم تفكر قليلا وقال:

ـ أظن شرط عبد العزيز بك رضوان أرفق، فإنى لا أملك مما تطلبه المطربة مليما، ولكنى أستطيع أن أتنازل عن نصف مرتبى إذا صار لى مرتب، فكيف أتصل به؟

ـ ليس الآن . . ليس قبل شهر ونصف، بعد عودته من أداء فريضة الحج . .

تبًا له! ولكن الجوع لن يبقى علىَّ حتى يعود الحاج. وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به صاحبه ذرعا:

ـ الانتظار معناه الجوع . . فما عسى أن أصنع؟

فقال الإخشيدى ضاحكا لأول مرة:

ـ لست بالفتى الأمرد، ولا أمك بالفاتنة اللعوب، فما عسى أن أصنع أنا؟!

وساد الصمت، وبات فى حكم المقرر أن ينهى الإخشيدى المقابلة، لولا أن خطر له خاطر. وتفكر سريعا ثم قال لنفسه إن استفادة محجوب محتملة، أما استفادته هو ـ إذا حقق هذا الخاطر ـ فمؤكدة!. ثم قال:

ـ هنالك السيدة إكرام نيروز.

ـ منشئة جمعية «الضريرات»؟

ـ نعم.

ـ ولكنها مثرية جدا، ويضرب بثرائها المثل . .

ـ نعم . . نعم . . السيدة لا تطلب مالا، ولكنها مغرمة بالشهرة والثناء. ويمكن أن أقدمها إليك فى إحدى المناسبات، وعليك بعد ذلك بقلمك ومجلة النجمة، فإذا وفقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك، إنها صاحبة نفوذ واسع يمتد إلى وزارات كثيرة، وأحزاب كثيرة.

وكان يرمى إلى استغلال الشاب فى الدعاية لها، بعد أن يقدمه كأحد تابعيه الذين يأتمرون بأمره، فقال:

ـ ستقيم السيدة نيروز حفلة خيرية يوم الأحد القادم بدار «الضريرات» فاحضر الحفلة وسأقدمك للسيدة؟ واكتب عن الحفلة وصاحبتها، ولننتظر، ولننتظر.

ـ أيبلغنى هذا ما أريد؟

ـ ربما توقف هذا على قلمك! . . وعليك أن تبتاع تذكرة بخمسين قرشا؛ لأنك لست صحافيا محترفا، وربما عرفت فيما بعد أن هذا المبلغ الزهيد أجل فائدة من ستين جنيها تؤديها للآنسة دولت. . فهلم دون تردد.

وعلى جسارته لم تؤاته شجاعته على أن يستلف منه ثمن التذكرة، فنهض قائما وصافحه شاكرا وغادر الحجرة.

٢٠

خمسون قرشا! . مبلغ زهيد حقا، ولكن كيف يحصل عليه؟ حقا إنه يدخر مكتبه وكتبه لينتفع بثمنها فى الشهر الذى يسبق صرف أول مرتب إليه ـ ترى هل ينتظر يوما حقا هذا المرتب؟ ـ فمن يعطيه ثمن التذكرة؟ . . مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودع أسرته قبل السفر إلى أوربا، فلم يبق إلا على طه. ولابد مما ليس منه بد.

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت، واستقبله على بالابتسامة المعهودة، ولكن محجوب أدرك من أول نظرة أن صاحبه حزين! . ليس هذا على طه الذى يعرفه، انطفأ نور عينيه البهيج، وهمدت روحه المتوثبة الحية، وكل هذا حقيق بأن يوليه سرورا لو وجده فى ظروف غير هذه. أما اليوم فهو يشفق من أن يلقى هذا الحزن عثرة فى سبيل الغرض الذى تجشم من أجله هذه الزيارة! وتعامى عما قرأه فى وجه صاحبه وسأله:

ـ أين بلغ بك موضوع بحثك؟

فنفخ على طه ضجرا وقال بيأس ملموس:

ـ لا أدرى، إنى الآن مهيض الجناح.

فقطب محجوب متظاهرا بالإشفاق، وقال وهو يلعن فى سره نحسه الملازم:

ـ كفى الله الشر، ماذا تقول؟

وكان على عصبى المزاج، لا يكاد يطوى سرا فقال:

ـ كما ترى . . الأمر يتعلق بإحسان!

وكأن ماء باردا رش على وجهه، فثار اهتمامه، وغمغم متسائلا:

ـ خطيبتك!

فتنهد على وقال بانكسار وحسرة:

ـ خطيبتى!

فازدادت دهشة محجوب وقال بلهجة من يود معرفة كل شىء:

ـ لا أفهم شيئا . .

وتردد على ثانية، أيبوح بسره؟ . . وكان بطبعه غير كتوم، وكان محجوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصة حبه، وكان إلى هذا وذاك فى أشد الحاجة إلى الترويح عن نفسه، فقال بصوت أبان عن تأثره العميق ويأسه:

ـ ولا أنا، لشد ما أنا ذاهل حائر، ولشد ما أسائل نفسى، ما الذى حدث؟! ما البواعث الخفية الأسيفة التى تنفث سمومها فى الظلام . .

كانت الحياة تسير سيرا جميلا. كنا متحابين ونزداد على الأيام حبا. وكنا متفاهمين ونزداد على الأيام تفاهما. عرفنا ماضينا وأحببناه. وخبرنا حاضرنا ورضينا به، وأملنا مستقبلنا وانتظرناه، وتتابع اللقاء، وتمت الألفة، ورسخت المودة . .

وسكت على لحظة، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المتجهم، ثم اندفع يقول مسحورا بحرارة الحديث:

ـ ما الذى بث الفساد فى حياتنا؟ . إنه شىء لا يصدق، ولكنه الحقيقة دون زيادة، كيف حدث هذا ؟! . بدأت تتغير! وكان التغير طفيفا بادئ الأمر، ولكنه لم يخف عن قلبى اليقظ الساهر. رأيت فى عينيها نظرة قلقة حائرة، تناوبها الشرود وفترت ابتسامتها، ومضت تتجافى عن حديث الحب، وتتقى ذكر آمالنا وعهودنا. فأخذت نفسى بالصبر عهدا عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشك، ولكن دون جدوى فلم يتغير الحال، وكاشفتها بوساوسى، وقلت لها ما أجدر حبنا بأن يكون هباء إذا طوت دونى سرها! ولكنها اتهمتنى بالمبالغة واعتذرت عن تغيرها بتوعك مزاجها فتضاعف عذابى وألمى . . كيف أصدق أن حبا كحبنا يموت فجأة وبغير نذير؟ وجددت بها، فصارت اللقيا جحيما، ثم انقطعت عنى، أتصدق؟ لقد جننت، فرصدتها فى كل مكان، وراسلتها، وثابرت على مطاردتها بعناد، فجاءت لمقابلتى، جاءت تتعثر بالحزن والخجل، فصحت بها أن تحولها سيورثنى الجنون.

وأمسك الشاب، وكان محجوب يتابعه بحواس مرهفة، ويوليه اهتماما كاد ينسيه غرضه من الزيارة، وتظاهر بالتأثر الشديد ليشجع صاحبه على الاسترسال، فقال على:

- قلت لها إن تحولها سيورثنى الجنون، فقالت لى إن لقاءنا أورثها الجنون بالفعل، وقالت لى إن آمالنا مقضى عليها بالفناء، فينبغى أن نعالج حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة. هل أرضى بالشقاء دون دفاع؟! أأفرط فى سعادتى دون سؤال؟!. قالت لى إنها رغبة والديها، وإنها يئست من إقناعهما، وإنها لم تدع وسيلة، وضرعت إلىَّ فى النهاية أن نفترق وألا أضاعف لها العذاب.

ونظر الشاب إلى محجوب طويلا، حتى أفاق قليلا من سكرة الحديث، فتورد وجهه وقال:

- لماذا أطيل عليك؟.. لقد انتهى كل شىء: تحطمت آمالى. إن دراسة الحكمة لا تغنى عنى شيئا.

وعجب محجوب أيما عجب: لماذا يرفض عم شحاتة تركى بائع السجائر الأستاذ على طه؟ أيراه غير أهل لنسبه!.. أم يطمع الرجل أن تتم كريمته دراستها لتنفق على أسرته؟! ثم خطر له خاطر فسأل صاحبه:

- ألا يجوز أن مثريا كبيرا طمع فى الفتاة فأراد أبوها أن يزوجها له؟!

فرفع على حاجبيه حيرة ولم ينبس بكلمة. وكان محجوب قد ذكر غرضه الأول من هذه الزيارة، فأراد أن يمهد له، وكان اعتراف على قد أحدث فى نفسه لذة كبيرة، فسالت نفسه نشاطا وحبورا، ولكنه قال لصاحبه بلسان الواعظ:

- لا يجمل بك على أية حال أن تستسلم للحزن، والحق أقول إنه مهما يكن السبب الحقيقى لهذه القطيعة فلا شك فى تبعة فتاتك، فهبها كشىء لم يكن، وأودع العلة والمعلول سلة المهملات..

فقال علىّ بحزن:

- لم يلتئم الجرح بعد!

- هذا جزاء من يهيم بنظريتك فى الحب، ألا ترى أن الكلاب تعالج الحب بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة؟.. نحن المسئولون عن شقائنا دائما..

فلازم علىّ الصمت، واستطرد الواعظ:

- النسيان.. النسيان.. أترضى أن تكون من المجانين الذين يفسد الحب حياتهم؟

وساد الصمت. وفى تلك اللحظة امَّحى سبب قوى مما كان يبغض على طه إليه، فلم يعد يمقته كما كان. خفت وطأة البغضاء، ومضى يقول لنفسه: ما يضيره لو فقد إحسان؟. فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال! إحسان التى طالما أصلته نارا، فمن الراحة ألا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما!.. ثم نهض قائما، متوثبا للهجوم على غرضه، فمال نحو صاحبه وهو يصافحه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أستاذ على . . أخوك فى حاجة إلى خمسين قرشا حتى آخر الشهر ؟

ودس على يده فى جيبه ومدها إليه بما يريد ، فتناولها محجوب قائلا :

ـ شكرا لك . . شكرا لك أيها الصديق الكريم .

وغادر المكتبة راضيا ، وتساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر : متى يمتلئ جيبى بنقود الحكومة؟ !

٢١

وأخذ أهبته . استحم ، وكوى البدلة والقميص والطربوش ، ولمَّع الحذاء ، وحلق ذقنه ورجَّل شعره ، فبدا شخصا جديدا ، وإن لم يزايله الهزال ولا الشحوب .

ذهب إلى دار جمعية الضريرات مبكرا . ووجدها دارا كبيرة ، أنيقة ، تحيط بها حديقة غنَّاء وارفة الظلال ، فسار إلى بهو عظيم مستطيل ، يتصدَّره مسرح كبير ، وقد تراصت به صفوف المقاعد الخضر ، وعلى الجانبين أبواب الشرفات المطلة على الحديقة . ولم يكن سبقه إلى المكان إلا نفر قليل فاتخذ مجلسه هادئا ، ومضى يتفحص المكان بعينيه الساخرتين ، ويتساءل : ترى هل يمكن حقا أن تنتهى به رحلته فى هذه الدار إلى الحكومة؟ ! . وكان تيار القادمين لا ينقطع ، وكان فى استقبالهم جماعة من الأوانس الحور . وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثر عددهم ، وتزاحموا نساء ورجالا . فى أبهى الثياب وفاخر الحلل ، فشاع الحسن فى كل موضع ، وتطاير فى الجو شذا العطور ، وزاغ بصر محجوب ، وترددت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة ، والنحور المتألقة ، والظهور العالية ، والصدور الناهدة . وجرى دمه بحيوية فائضة ، وسرى القلق فى أعصابه . وعجب لهذه الدنيا الباهرة ، أين كانت خافية؟ . . هذه الثياب الفاخرة ، وتلك الحلى النفيسة . إن واحدة منها تكفى للإنفاق على طلبة الجامعة جميعا . وهؤلاء النسوة ، ما أكثرهن وما أجملهن ولكن من المؤسف حقا أن كل امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر . وأكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة ، وهن المسلمات الطوالم ! . كأن الفرنسية لغة الدار الرسمية ، ترى كيف يتفاهمن مع الضريرات؟ ! واجتاحته موجة من السخرية مفعمة حقدا ، لا لغيرة على لغة البلاد ، ولكن تلمسا لأسباب الكراهية . وتساءل أين صاحب السعادة ابن الست أم سالم؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجيء سيدة باهرة المنظر ، عرفها من النظرة الأولى ، فذكر القناطر لعهد خلى ، وذكر مهندس القناطر الشاب وزوجه الحسناء ، أجل كانت حرم حمديس بك دون غيرها ، وقد جاء وراءها

البك نفسه، وتبعته تحية وفاضل! وعلق بصره بالأسرة وهى تمضى إلى مقاعدها من الصف الأول، وتورد وجهه الشاحب، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام، فخال أنه يسمع صفقة باب السيارة وهو يغلق دونه!.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنمية إلى البطش بهذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة!.. آه لو تأبطت ذراعه حسناء من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة «قريبه»!. تلك الأسرة الكريمة التى تجشمت المجىء إلى هذا البهو فى سبيل الإحسان والرحمة! ينبغى أن يسود بلا قيد ولا شرط، فلا ضمير ولا خلق، ولكن متى يجلس معهم فى الصفوف الأمامية! فى لباس السهرة الفاخر لا فى بدلة الصحافة هذه!!؟. وقبل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإخشيدى يشق طريقه إلى الأمام فى مشيته المتمهلة، ورزانته المعهودة، كأن البهو لا يحوى سواه.. وكان يحيى برأسه كثيرا من الطبقة العالية نساء ورجالا، فظل يتابعه بناظريه حتى جلس، وقد ملأه إعجابا وحسدا. هذه هى الحياة الحقة، الحياة الممتعة، الحياة التى ترضى الغرائز جميعا. الإخشيدى مثله الأعلى.

ونعم المثل الأعلى هو. وشعر عند ذاك بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس فى المقعد الملاصق، فتصافحا بحرارة، وسأل محجوب قائلا:

ـ ماالذى جاء بك يا أستاذ؟

فنظر إليه الشاب نظرة كأنما يقول له ما الذى جاء بك أنت؟

وأجابه كالداهش:

ـ عملى!.. ألست مندوب الجريدة؟

فقال محجوب:

ـ وأنا مندوب مجلة النجمة!

وضحكا معا. وهمَّ أحمد بدير أن يسأل صاحبه عما إذا كان ينوى الاشتغال بالصحافة، لولا أن رفع الستار، وبدت على المسرح سيدة جليلة، ذات جبين وضَّاح، ووجه مستدير مهيب، لم يذهب كل جماله على اقترابها من الستين، وقوبلت بتصفيق حاد متواصل، فتلقته برزانة من يألفه، وحنت رأسها تحية للمعجبين، وبسطت بين يديها ورقة. ونظر محجوب إليها طويلا، ثم سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض:

ـ السيدة إكرام نيروز منشئة الدار..

أجل. عرف ذلك بداهة، ترى أى دور ستلعبه فى حياته؟.

واستدرك أحمد بدير قائلا:

ـ إنها عجوز ولكنها مغرمة بالشباب!

وأدرك أن أحمد بدير لن يمسك ـ كعادته ـ وسر لذلك أيما سرور، لأنه من المحنق أن

يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل. أما السيدة إكرام نيروز فراحت تلقى كلمة الافتتاح بصوت هادئ متزن جميل. رحبت بالحاضرين، وأثنت على عواطف الخير التى تعمر صدورهم، ثم تكلمت عن جمعية الضريرات وهدفها السامى. ألقت كلمتها بالعربية، فلم تكد تنجو كلمة من خطأ نحوى ولحن. وتبادل الصاحبان الابتسام، وقال أحمد:

ـ لا تحزن فالدار خالية ممن قد يفطن إلى الخطأ..

فقال محجوب كالمعتذر:

ـ مغفور لها الخطأ، أليست تخطب بلغة أجنبية؟

ثم شاهد الحاضرون فصلا من مسرحية لموليير. وغنَّت مدام تارد أغنية فرنسية عالمية، وتركت فى النفوس أبلغ الأثر، ثم دعى الجميع إلى بهو آخر مستدير، أعدَّ للرقص، فتصدَّرته فرقة موسيقية إيطالية، ورصَّت إلى جوانبه الموائد، وعزفت الموسيقى، ورقص الراقصون: ودارت الكئوس مترعات. ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص ويتحدثان. كان محجوب يرى الرقص لأول مرة، فأثار دهشته وإعجابه، رأى الصدور تكاد تلمس الصدور، والأذرع تحيط بالخصور، فعجب كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم! وتمنى لو كان من الراقصين. وتفحص الوجوه بعينيه الجاحظتين القلقتين، وهمس لنفسه: «المال. المال هو السيادة وهو القوة، هو كل شىء فى الدنيا!» وعثرت عيناه بثدى ناهد تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض الشفاف، فحمى دمه، ورفع بصره ليرى وجه صاحبته، فرأى عجوزا دميمة على فرط تهتكها، فلكز صاحبه ولفته إلى السيدة هامسا:

ـ كيف يكون هذا الثدى لهذه العجوز؟

فألقى أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة: وابتسم كالساخر، ثم قال:

ـ وكيف تكون هذه الحفلة الخيرية فى حانة؟!

فقطب محجوب غاضبا، أو متظاهرا بالغضب وقال:

ـ لتذهب الضريرات إلى الجحيم.. الحانة خير وأبقى!

وجال ببصره مرة أخرى فرأى تحية حمديس! رآها تراقص شابا جميلا مفتول العضلات، له طول مأمون رضوان، ومتانة بنيان على طه: فشعر أنه ـ الشاب ـ يستطيع أن يقبره بضربة واحدة. وتجهم وجهه، وسأل أحمد بدير عنه، فقال الشاب:

ـ وكيل نيابة وأحد أبطال التنس المعدودين..

وتنهد محجوب. ولو أمكنه ـ فى تلك اللحظة ـ أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمى به إلى حبال المشنقة لما تردد!. ما الذى منع من أن يكون أحد هؤلاء الشبان؟! الدنيا جميعا!

القوى الكونية التى خلقت التاريخ، وصنعت الطبقات، وقسمت الحظ، وجعلت عبد الدائم أفندى أباه، والقناطر مسقط رأسه. وهنا سمع أحمد بدير يهمس إليه متعجلا:

«انظر إلى الشرفة» وأدار رأسه إلى داخل الشرفة: فرأى سيدة تكاد تخفى وجهها بمروحة من ريش النعام، وعلى يدها ينحنى رجل متقدم فى السن، فلما استوى واقفا، عرفه من الصورة التى تنشرها له الجرائد من آن لآخر، قال أحمد بدير:

- هذه حرم أنيس بك إبراهيم، والباشا من المعجبين بها، ويقال إنها تسعى لمنح زوجها الباشوية!

وكفَّت الموسيقى، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة، فتحول الشابان إلى الشرفة، دخلا معا، قال أحمد بدير:

- فى أول عهدى بحياة المجتمعات كان يكلفنى موقفنا هذا عناء ما بعده عناء: كنت أخال الناس جميعا وكأن لا عمل لهم إلا تفحصى من الرأس إلى القدم وأنت؟

فذكر محجوب ملابسه، ووجهه الذابل الشاحب، فتصاعد الدم إلى خديه، ولكن سرعان ما استدعى جسارته واستهانته فقال بصوت هادئ:

- فى موقفنا هذا يداخلنى شعور بأنى رجل يجول بين ماشية!.

ولم يكد يتم كلامه حتى وجد نفسه أمام حمديس بك، وجها لوجه.

وخفق قلبه بعنف. ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقيها من آى الخوف والاضطراب، وتساءل ترى كيف يواجهنى؟.. ما عسى أن يقول؟ ما عسى أن يفعل؟.. أما حمديس بك فقد عرفه، ولاحت فى وجهه ابتسامة، ومد له يده قائلا:

- كيف حالك يا محجوب؟

وتصافحا، وافترقا بسلام!.. وتولته الدهشة.. إذن أخفت تحية الأمر!.. ولم يدر له هذا بخلد.. وتنبه إلى أحمد بدير يسأله للمرة الثانية:

- أتعرف حمديس بك؟

فأجابه بزهو:

- طبعا.. طبعا. ابن عم والدتى!

- وكيف لم تحدثنا عن هذه القرابة العظيمة؟.

فأجابه محجوب بنفس اللهجة، وكان لا يزال متأثرا بسرور النجاة:

- طظ!..

وهبطا الأدراج إلى الحديقة، ومضت عيناه تبحثان عن سالم الإخشيدى، ومتى يقدمه إلى السيدة؟.. وهل من فائدة ترجى؟.. ومر بجماعات النساء والرجال، وشاهد نخبة

من الرجال المعروفين، منهم المتحفظون، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان. ولفت نظره شخص غريب المنظر، ضخم الجسم فى غير تناسق، مكرش، كأنه مادة حيوانية لم تسَّو بعد، يمشى منفرج الساقين كأنه ذو داء. بيد أنه بدا أثيرا محبوبا مكرما، يحادث العظام بغير كلفة، ويمازحهم ويعلو صوته بينهم بغير مبالاة، ويقهقه عاليا، . وعجب محجوب لشأنه، وسأل صاحبه عنه قائلا:

ـ ومن هذا أيها العارف بأمر الناس؟

فضحك أحمد بدير وقال:

ـ كيف لا تعرفه؟ . . عزوز ضارم. كان يوما موظفا محترما، ثم اضطر إلى الاستقالة لأسباب خلقية، فاشتغل بالأعمال الحرة، وعرفه أناس من ذوى النفوذ، فأعيد إلى الخدمة وسار قدما. . ولكنه لم يهجر أعماله الحرة!

ـ وكيف يجمع بين الاثنين؟

ـ عمله الحر شقته الأنيقة، فيها مائدة للقمار، وفيها الحسان الكواعب الحور! . .

وتفكر محجوب مليا، وانقبض صدره، وتكدر صفوه، كيف يتاح له التفوق فى مثل هذا المجتمع؟! إنهم يعملون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف، ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة. فما الفائدة؟! أليس من الأفضل أن ينقلب مصلحا كمأمون رضوان أو كعلى طه؟! وقطع أفكاره ظهور شاب كالقمر، ممشوق القوام، بديع الحسن، ناعم البشرة، فاتن العينين، أخاذ الملامح، لامع الشعر، يخطر كالغزال نافثا سحر الأنوثة والذكورة معا. فما تمالك أن تمتم قائلا:

ـ لله ما أجمله! . . أتعرفه؟

فقال أحمد بدير مبتسما:

ـ أحمد مدحت. أشهر من نار على علم، يدعونه بحق كوكب الشرق!

ـ موظف؟!

ـ ببنك مصر. متخرج فى الحقوق منذ عام. مرتب ثلاثون جنيها.

ـ ثلاثون جنيها! ومن كان شفيعه؟

فضحك بدير قائلا:

ـ هو شفيع نفسه يا أحمق!

ورن جرس يدعو المبعثرين فى جوانب الحديقة إلى بهو التمثيل. فعادوا جميعا وأخذوا مجالسهم بهدوء ونظام. ورفع الستار بعد قليل عن مجموعة من بنات الطبقة الراقية فى أردية فرعونية رائعة، ورقصن جميعا رقصة فاتنة التصوير، دقيقة التعبير،

أخذت بمجامع القلوب، حتى همس أحمد بدير بأغنية سيد درويش «دا بأف مين اللى يألّس على بنت مصر بأنه وش» وصفق الجمهور للراقصات بحماس وإعجاب.

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال، فسرت فى الحاضرين هزة شوق واهتمام، وشملهم سرور عجيب. وظهرت على المسرح هيئة المحكمين. كانت المسابقة أمتع ما فى السهرة، بل كانت المشهد الوحيد الذى أجمع الحاضرون على الاهتمام به. وقد تفحص أحمد بدير المحكمين بإمعان. ثم جرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة، وأبرز من جيبه بطاقة كتب عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتى صارت كالعويد، ودسها فى جيب محجوب وهو يقول:

- دع هذه البطاقة حيث هى حتى تعلن النتيجة، ثم ابسطها تجد اسم ملكة الجمال!

فسأله محجوب بدهشة:

- وكيف عرفته؟

- صه.. انتباه!

وتركز انتباه الجميع فى مكان واحد، ودعا الداعى أولى المتسابقات، فطلعت فى سماء المسرح كالكوكب النيِّر فى بهاء وأناقة. وكانت ترفل فى ثوب من الحرير الأبيض، وتبسم ابتسامة توحى بالهدوء واللطف، بيد أنها أخفقت فى إخفاء ارتباكها، وقال أحمد بدير بأسف:

- فى أوروبا تبدو المتسابقات عرايا! أما نحن فنقنع بالحكم على الظواهر..

فتساءل محجوب ساخرا كعادته:

- ولماذا لا يختارون المحكمين من المطلعين؟!

وحملقت الأعين، وأمسك كثيرون بالنظارات المكبرة، وأثبت البعض ملاحظاتهم فى مذكرات. واستمر العرض والفحص بلا سأم ولا ملال. وتتابعت الوجوه كالأقمار. ثم اختفت هيئة المحكمين للمداولة فتصاعد اللغط، وعلا النقاش، وتراهن كثيرون. وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت اسم الفائزة: آنسة هدى حيدر، فصفق الجميع، وصفق والدها فى مقدمة الجميع. وأبرز محجوب البطاقة من جيبه، وبسطها، فوجد فيها اسم الفائزة «هدى حيدر» بخط واضح، فلاحت الدهشة فى وجهه وسأل رفيقه:

- ما معنى هذا؟

فابتسم أحمد بدير فخورا بفراسته وحسن اطلاعه على البواطن، ورغب أن يترك صاحبه لحيرته، ولكن الآخر ألح عليه، فلم ير بدا من إسكاته، فقال بصوت لا أثر للفخر فيه:

ـ عرفته بطريق المصادفة! رأيت الفائزة منذ يومين مع الأعضاء الصحافيين من لجنة التحكيم عند سفح الهرم، أيدهشك هذا؟!

وكره محجوب عبد الدائم أن يدهش حقا، فتمالك نفسه، وقال بضجر:

ـ كلا لا يدهشنى شيء. اختيار الموظفين تزييف، رسو العطاءات تزييف، الانتخابات نفسها تزييف، فلماذا لا يكون انتخاب ملكة الجمال تزييفا؟

* * *

وأوشك الجمع أن ينفض، فذكر محجوب غرضه: ورأى الأستاذ سالم الإخشيدى يتجه نحو أحد الأبواب، فودع صاحبه ومضى نحوه. وكان الأستاذ قد نسيه تماما، فتصافحا، وسارا معا إلى الباب المقصود، ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيدة نيروز فى صدارتها مع نفر قليل من أصحابها. وأهاب محجوب بجسارته أن يخونه الارتباك. واقترب مع صاحبه من السيدة الجليلة، وانحنى الاخشيدى على يدها مسلما، وقدمه إليها بصوته الرزين الهادئ: «الأستاذ محجوب عبد الدائم، مندوب النجمة!، من خريجى الجامعة المعجبين بما أحدثت عصمتك من نهضة رائعة». وانحنى لها محجوب فمدت له يدها قائلة:

ـ إنى فخورة بالجيل الجديد... (وأتمت بالفرنسية) فقد طفح الإناء بالماء القذر، ولا بد من تطهيره وملئه من جديد..

فقال محجوب بالفرنسية:

ـ هذا حق يا سيدتى..

وكان الإخشيدى يقوم لها بدعاية فى بعض الصحف إما بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه: فرجا أن تضيف ما عسى أن يؤديه محجوب إلى أفضاله السابقة. وألقت السيدة على الشاب أسئلة تتعلق بثقافته وتخصصه وآماله، فأجاب محجوب بلباقة، وجرى الحديث مجرى جديدا، فاستأذن الإخشيدى وصاحبه، وغادر المكان وهو يقول له مودعا:

ـ الشيء الكثير يتوقف على قلمك..

حقا؟.. أتحقيق أمله رهن بمقاله عن حفلة اليوم؟.. وعاد إلى الجيزة متفكرا تستأثر به الأحلام. وأرق تلك الليلة كما كان يؤرقه الجوع فى ليالى فبراير، تاه فى وادى الأحلام والآمال، ثم ذكر طويلا السهرة التى عاش فيها نصف الليل كله: جمال الرفاهية، ومشاهد النعيم، ومجالس الحسن، وروعة العشق، وجنون الإباحية، تلك الحياة الباهرة التى تذوب روحه شوقا إليها...

٢٢

وعند ضحى اليوم الثانى كان يقطع حجرته الصغيرة ذهابا وجيئة مفكرا فى المقال الخطير. ماذا يقول؟ كيف يبدأ؟ وبم يختم؟ ثم ركز ذهنه فى حصر النقط الهامة: ثم هداه منطقه إلى طريقة لبقة فى كشف النقط الخطيرة، فبسط صفحة، وشطرها نصفين بخط رأسى، وجعل لكل شطر عنوانا:

الحقيقة	ما ينبغى أن يكتب
١ - إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال.	١ - أسرة إكرام نيروز وعراقتها فى الوطنية.
٢ - غرامها بالشبان.	٢ - زوج وفية وأم بارة.
٣ - تفوقها فى الفرنسية وعجزها فى العربية.	٣ - اغترافها من الثقافتين العربية والفرنسية.
٤ - دار الضريرات حانة.	٤ - مشروعاتها الخيرية.
٥ - مدعووها على مثالها.	٥ - مدعووها على مثالها.
٦ - المدعوون يهتمون بكل شىء إلا الضريرات.	٦ - عاطفة الخير.

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير، ثم جلس إلى مكتبه يتهيأ للكتابة، ولكنه لم يكد يمسك بالقلم حتى سمع طرقا على باب حجرته - لأول مرة منذ انتقاله من دار الطلبة - فنهض منزعجا ساخطا وفتح الباب. رأى جسما ضخما يملأ عليه الفراغ، فتذكره وخفق قلبه خفقة مروعة، كان ساعى سالم الإخشيدى دون غيره. ورفع عينيه إلى الرجل فى تساؤل ولهفة، فقال الرجل مبتسما ولكنَ بصوت غليظ:

- سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن.

- سالم بك؟

- نعم!

- أين؟

- فى مكتبه بالوزارة!

ثم قص عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيده، وكيف وصف له

البواب مسكنه الجديد. ولكن محجوب لم يسمع شيئا، كان يرتدى ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه: ماذا هنالك؟!.. أيمكن..؟! ولكن بهذه السرعة!.. إنه لسحر مبين!.. هذه المرأة إمبراطورة.. بل شيطانة.. بل إلهة.. آه.. لشدّ ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر فيضيع هذا السرور الجنونى سدى!.. ولكن لأى سبب يدعوه إن لم يكن لهذا؟..

وذهبا إلى الوزارة فبلغاها فى منتصف الثانية عشرة، وقصد إلى حجرة الإخشيدى، فاستقبله هذا بلطف لم يعهد مثله من قبل. وأمر الساعى ألا يأذن لأحد حَتى يأمره. وجلس محجوب على كثب منه، فالتفت إليه الرجل بوجهه المثلث الهادىء، ولكن كان الهدوء هذه المرة قناعا يخفى انفعالات عارمة، وقال مبتسما:

ـ دعوتك لأمر خاص بمستقبلك!

هى الكلمة المرجوة!.. لن يضيع السرور سدى.. وغلبه الانفعال فقال بصوت متهدج:

ـ لم أفرغ من المقال بعد!

ـ دع المقال الآن، وانس إكرام نيروز. سنحت فرصة أجل فائدة، كالثمرة الدانية تروم من يقطفها..

فتساءلت عيناه المحملقتان، وقال وهو يزدرد ريقه:

ـ بعونك أقطفها!

فتريث الإخشيدى متفرسا فى وجهه بدهاء لم يلاحظ الآخر ـ لم يلاحظ شيئا ـ ثم قال:

ـ وجدت وظيفة.

وساد صمت وقد تورد الوجه الشاحب، فاستدرك الإخشيدى:

ـ درجة سادسة!

ـ سادسة!!

ـ سكرتير.

فتساءل لاهثا وهو لا يصدق أذنيه:

ـ سكرتير من؟

فأشعل الإخشيدى سيجارة، غير راحم لهفة صاحبه، وقال متغافلا عن سؤاله:

ـ الفرصة الجميلة كنز لمن يهتبلها، حسرة للمتردد. أتذكر كيف كان فيضان المسيسبّى من سنوات بركة على قطن بلادنا البائر؟

فاحترق الشابّ لهفة وقال بعزم أكيد:

ـ محال أن أتردّد يا سعادة البك.

فسر الإخشيدى لتلهفه، واطمأنت نفسه القلقة بعض الشيء، ثم قال:

ـ سبق أَن أفهمتك أنك يمكن أن تأخذ إذا رضيت أن تعطى!

أن تعطى؟! ماذا يملك لكى يعطى؟.. وغصّ بخيبة لم يتوقعها، فانطفأ بريق عينيه، وقال بصوت كسير متسائلا:

ـ ولكن.. ولكن كيف أعطى؟.

ـ ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة فى سوق الفرص «وتنهد محجوب بصوت مسموع» ومن سجايا الإنسان مالا يقوم بمال. المسألة لا تعدو هذا: أأنت جسور ذكى حقيق بالطيبات، أَم أنت ممن تلقى بهم الأوهام على شاطئ الحياة فتطؤهم النعال كالتراب؟.

فلاحت الحيرة فى العينين الجاحظتين، حتى خلع الشاب طربوشه ومسح على شعره المفلفل، ثم لبسه بسرعة، وقال:

ـ أرجو أن أكون عند حسن ظنك..

ـ لهذا دعوتك، وما خابت فراستى قط.

ونظر إلى محجوب بعينيه المستديرتين وسأله:

ـ أتقبل أن تتزوج؟

فتولته الدهشة. لم يخطر له الزواج على بال، فلم ينبس بكلمة. وكان الإِخشيدى لا يزال مصوّبا إليه عينيه. فقال بلهجة ساخرة:

ـ جاء دورى لاستحثاثك.

ـ ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير؟

فهز الإخشيدى منكبيه استهانة وقال:

ـ ظننتكَ أشد رغبة. لماذا أنتظر؟ يوجد ألف عروس وعروس ولابد من اختيار واحد اليوم..

ـ اليوم؟.

ـ بل الساعة.

فتنهد محجوب، وواتته جسارته المعهودة فقال بتسليم:

ـ إذا قبلت..

فابتسم الإِخشيدى ابتسامة ماكرة وقال:

ـ بداية حسنة ولكنها ليست كل شيء.

ماذا يريد الشيطان؟ . . ليس الأمر كما حسب أول وهلة. ليس الزواج كل شيء، فماذا تحوى «كل شيء» هذه؟ . . وسمعه يقول بصوته البغيض:

ـ ولكنى متفائل بجسارتك وبسرعة بتّك فى الأمور، الوظيفة فى مكتبنا هذا، وكنت شاغلها لأسابيع خلت وظيفة سكرتير قاسم بك فهمى.

يا للعجب. أيصدق هذا؟. أيمكن حقا أن يجود الدهر بكل هذه السعادة؟. ولماذا يختاره الإخشيدى وما يعهده ذا مروءة أو أريحية؟ إنه يطالبه ـ نظير هذه الوظيفة ـ بالزواج، فأى زواج هذا؟. أجل أى زواج هذا. . وأخفى حيرته وقال بسرور:

ـ يا لها من سعادة كالحلم. جزاك الله عنى خيرا.

فابتسم الإخشيدى وقال وقد ازداد اطمئنانا وجسأة:

ـ دعنى أتكلم عن الزوجة.

فأحدث لفظ «الزوجة» فى نفس الشاب هزة، وتطلع إلى الإخشيدى بعينين متسائلتين كأنهما تسألانه: «من هى؟ . . ما صورتها؟ . . ما معنى زواجى بها؟» فقال الإخشيدى:

ـ فتاة كريمة من «دائرة» قاسم بك فهمى.

دائرة. وتساءل الشاب بارتياع:

ـ قريبته؟

ـ قاربت الحقيقة. . هى من معارفه!

فتغابى محجوب وتساءل مزدردا ريقه:

ـ معرفة جوار، صداقة والدين؟

فقال الإخشيدى ببساطة واستهانة:

ـ قاربت الحقيقة، سعادته صديقها هى بالذات!

وبدت الحقيقة سافرة. وأدرك ما يراد به. وعرف ثمن الوظيفة الفاخرة. إن الإخشيدى لا يرسل الساعى فى طلبه حبًا فى سواد عينيه، ولكن ليستغل بؤسه. وإنه ليمَقت الإخشيدى ولكن ليس هذا بيت القصيد. لقد تضرج وجهه بالاحمرار، وأحس الحرارة تسرى فى رأسه، فجعل يستصرخ ما جُبل عليه من جسارة وفجور. أجل ما الذى يخجله؟ . . ما الذى يؤلمه؟ . . أيؤمن بالزواج؟ . أيؤمن بالعفة؟ . أيشعر بإهانة فى تصريح صاحبه؟ . إن الحياة تنبرى لامتحان فلسفته، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلا أو عقيدة وعملا، فيا أيها الاضطراب زُل، ويا أيها الغضب اسكت،

وليتحدث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدث عن درجة حرارة الجو فى البرازيل . فدعا استهانته وسخريته ، وسأل صاحبه :

ـ عذراء؟ !

فقال الإخشيدى مبتسما :

ـ كانتَ !

ولاذ بالصمت هنيهة ، وكان الوجه الشاحب لا يزال متوردا . واستدرك الإخشيدى :

ـ لا تحسبن عظماء الرجال بمعصومين ، والبك جاد فى إصلاح خطئه . فإذا شاطرته مقصده النبيل ، ظفرت برضاه ، وهيأت لنفسك مستقبلا حسنا . ومثل هذا العمل يتطلب قلبا كبيرا وعقلا واسعا ، وثقافة عميقة ، أما إذا تناولت الأمور بمعيار العوام فهذا فراق بينى وبينك ، ولا تتوهمن أنى أجرى وراءك ، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم بيد أنى أوثر أن تعمل معى أنت فى هذا المكتب لما أعهده فيك من الذكاء والإخلاص . ثم إننا جيرة من قديم ، ودرجة سادسة كنز . . !

إنه يدرك البواعث الخفية التى جعلت الإخشيدى يرسل إليه ساعيه . إنه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه . ولعله إن لم يظفرَ بزوج طيب للفتاة التى اعتدى البك عليها اضطر أن يقدم نفسه كبشا للتضحية . هذا واضح ومفهوم . ولكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تذكر . هنالك وظيفة سكرتير ، وهنالك الدرجة السادسة ، أفيجوز أن يضحى بها؟ ولماذا؟ . . أيشعر بما يدعونه غيرة على العرض؟ . . حاشاه . أيصدق فيما يسمونه الشرف؟ . تبًا له . لقد قال كلمته الأخيرة فى كل هذه الأشياء ، فينبغى أن يختار دون تردد . التردد معناه أنه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور . تبًا له . أينسى ليالى الجوع؟ أينسى الفول المدمس؟ أينسى التخبط فى شوارع القاهرة شحاذا متسولا؟ . على طه فى المكتبة ومأمون رضوان فى طريق باريس ويتردد؟ ! حمديس بك لا يكلف نفسه مجالسته خمس دقائق ويتردد؟ ! . وتحية ـ وهنا تميز غيظا ـ أغلقت باب السيارة فى وجهه ويتردد؟ ! . ونتف حاجبه الأيسر ، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله :

ـ من هى؟ أريد أن أعرف كل شىء؟

فقال الإخشيدى :

ـ ستعرف كل شىء فى حينه ، ولن تكون من الآسفين .

فرفع محجوب حاجبيه استهانة وقال :

ـ ليكن . فمتى يكون التعيين؟

٢٣

فتنهد سالم الإخشيدى بارتياح، وقال وهو ينهض قائما :

ـ تعال أقدمك إلى البك .

وتبعه على الفور باذلا جهده لضبط عواطفه . ودخلا حجرة فاخرة رأى فى صدرها مكتبا كبيرا يجلس إليه البك . واقتربا من المكتب فى احترام حتى كادا يلمساه . ورأى الإخشيدى يتنازل مرة واحدة عن جلاله، وينحنى على يد البك فى خشوع، ففعل مثله، ولما اعتدل فى وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة . كان فى الأربعين، معتدل القامة، جميل المحيا، أنيق الملبس والهندام، صغير الشارب جميله، يدل مظهره على أنه إمام من أئمة مدرسة الغزل . وقد قدمه الإخشيدى إليه وأثنى عليه، فرحب به فى تحفظ مقصود، وسأله :

ـ هل أنت من متخرجى هذا العام ؟

فأجاب محجوب بالإيجاب، فقال له البك :

ـ أرجو أن تكون عند حسن ظن الأستاذ الإخشيدى بك .

ثم مد له يده إيذانا بانتهاء المقابلة! وقد تعمد أن يجعلها مقابلة رسمية حتى لا يلعب الغرور برأس الشاب، وعاد إلى حجرة الإخشيدى، ورآه محجوب مختالا فخورا، فامتلأ حنقا عليه، ولكن حنقه لم يدم طويلا، لأنه ـ رغم كل شىء ـ كان راضيا، وسأل بأدب :

ـ متى يتم التعيين؟

ـ هذا علىّ هين . ستكتب اليوم مذكرة تعيينك، فجهز مسوغات التعيين، ويتم كل شىء إن شاء الله فى بحر أيام . أما الآن فدعنا ننجز الأمر الآخر . . . (وسكت لحظات) تكرم بالحضور إلى بيتى عصر اليوم . . . فتساءل محجوب بدهشة :

ـ لماذا؟

فقال الآخر بهدوء :

ـ لتعقد زواجك .

فقال محجوب بانزعاج :

ـ أليس من الأفضل أن تؤجل هذا إلى ما بعد إتمام التعيين؟

ـ ولمه؟

فقال الشاب مبتسما :

ـ حتى أتريش . . .

ـ أستاذ محجوب خير البر عاجله ، سيُدفع لك بمبلغ محترم تستعين به على الزواج حتى تقبض أول مرتب ، ولن يكلفك الزواج شيئا ، شقة العروس فى انتظارك ، وما عليك إلا تجديد ملابسك!

فاستولت الدهشة على الشاب الذى لم يكن يتصور أن كل شىء مهيأ على هذا الوجه . كانت المصيدة مجهزة تنتظر فأرا . ووقع الفأر . ترى أبها عسل أم سم؟

ـ ألا تعطينى مهلة أسبوعا؟

ـ العقد اليوم ليطمئن قلب والدى العروس ، أما الزفاف فبعد التعيين .

فتنهد محجوب مستسلما ، وسأله :

ـ وأين شقة . . . العريس . . . ؟

ـ شارع ناجى ، عمارة شليخر شقة رقم ٤ .

فقال الشاب بدهشة :

ـ هذا حى إفرنجى ، إيجاره مرتفع بغير شك!

ـ لا تكترث لهذا . . .

فتساءل الآخر بانزعاج :

ـ كيف يمكن هذا!

ـ أنت كثير الأسئلة ، قليل الصبر . اعلم يا أستاذ أن البك قد اكترى هذه الشقة لمدة عام!

فتبلبل فكر الشاب ، وسأل بمكر :

ـ لو ترك لى الخيار لاخترت مسكنا مصريا .

وابتسم الإخشيدى ابتسامة دلت على احتقاره لمكر صاحبه ، وقال باستهانة :

ـ المساكن الإفرنجية ينعدم فيها التطفل ، فإذا رأى البك أن يزورك ، زارك فى أمن من المتطفلين :

وصوب بصره نحو المتكلم فوجده يتظاهر بالنظر فى بعض الأوراق وشعر مرة أخرى بالدم يتصاعد إلى رأسه ، وخفق قلبه بعنف ، وذكر ـ لا يدرى كيف ـ زميله أحمد بدير وحفلة السيدة إكرام نيروز ، وتخيل نفسه جالسا فى الحفلة ، وصاحبه الصحافى يومئ إليه خفية من بعيد ويحدّث! . دائما الناس ، الناس دائما . أيترك الناس يحطمون سعادته؟

أيهما يفضل؟ أن يكون من المجدودين وليقل أحمد بدير ما يشاء، أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافى ما يقوله عنه؟ . . . وقطب غاضبا، ألا يزال مترددا؟ . . كيف نسى «طظ» العزيزة؟ يا له من جبان حقير. واشتد غضبه. ثم نظر إلى صاحبه وقال بحدة:

ـ ليكن . .

فقال الإخشيدى:

ـ سأنتظرك عصر اليوم.

وفيما هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة تقابلها كتب على لافتتها «السكرتير الخاص» فخفق فؤاده. ومضى إلى الخارج. وجعل يحدث نفسه: قرنان فى الرأس، يراهما الجاهل عارا، وأراهما حلية نفيسة. قرنان فى الرأس لا يؤذيان. أما الجوع . . . سأكون أى شىء، ولكن لن أكون أحمق أبدا. أحمق من يرفض وظيفة غضبا لما يسمونه كرامة. أحمق من يقتل نفسه فى سبيل ما يسمونه وطنا. . أحمق من يضيع على نفسه لذة لأى وهم من الأوهام التى ابتدعتها الإنسانية. كل هذا حق وجميل. بيد أنى منفعل هائج. لماذا؟! ذلك أن العقل لا ينفرد بتوجيه سلوكنا. وبينما يحدث العقل حكمة، يخلف الشعور حماقة. فعلى الحكمة أن تمحق الحماقة وليكن لى أسوة حسنة فى الإخشيدى، ذلك الأريب. ظفر بوظيفته لأنه خائن، ورقى لأنه قوّاد. فإلى الأمام . . إلى الأمام.

وكور قبضة يمناه ولوح بها، وحث خطاه وقد انبعث من عينيه الجاحظتين نور خاطف . .

٢٤

وغادر حجرته عصرا بعد أن ارتدى بدلته بعناية وأخذ حظه من التأنق والزينة! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدى. لبث طوال يومه متفكرا. وكان يقطع تفكيره بالتعجب. ثم يقول لنفسه وكأنه لا يصدق «سأتزوج اليوم». وكانت الورقة التى يثبت بها نقط الموضوع الخاص بحفلة جمعية الضريرات لا تزال على مكتبه! فكيف قطعت الأمور هذا الشوط البعيد؟! تفتحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثمن، الزواج؟! . . لا ينبغى أن يدع اسما يهوله، فما هو إلا اسم! . . وكثير مما نحسبه حقائق أو قيما ما هى إلا أسماء. هو عادة اجتماعية. وفى بعض البلاد يتعدد الأزواج كما تتعدد

الزوجات فى بلاد أخرى، وقد يباح الزنا فى بلاد، وكانت الإباحية قانونا فى بعض المجتمعات. فليس هناك قانون مطلق للزواج، وليتحلّ بما أثر عنه من شجاعة وجسارة. هكذا مضى يحادث نفسه ثم ذكر فى طريقه والديه!.. وانقبض صدره على رغمه. وفرق. وتفصد جبينه عرقا. تمثلت له والدته التى تؤمن بأنه لا يخطئ أبدا. وتمثل له والده الريفى، بطيبته وتقواه وغيرته. إنه يتزوج دون علمهما. ولا يدرى متى يعلمان، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطيعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدى!.. إن ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش. أليست عروسه فى انتظاره؟!.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه. تُرى من عروسه؟... ما صورتها ما أسرتها؟ ما أخلاقها وأحوالها؟! قلبه يحدثه بأنها جميلة وإلا ما جذبت شخصا كقاسم بك. ولكن لا شك كذلك فى أنها فقيرة كما يدل اختياره زوجا لها، والفتاة الغنية لا يعوقها عن الزواج عائق. والشرف قيد لا يغل إلا أعناق الفقراء. ترى ماذا تخبئ له هذه الحياة الزوجية؟ كيف يكون شعوره نحو زوجه غدا؟ وكيف يكون شعورها نحوه؟ وما هى حقيقة الرابطة التى سترتبطهما معا؟! وكيف يستقبل البك إذا جاء لزيارته!.. يا لها من حياة، ويالها من تجربة. غدا تمتحن فلسفته وقوته. إنه يسير نحو هدفه لا يلوى على شىء. ولا يستطيع عقله الآن أن يجد حلا لجميع المشكلات التى ينطوى عليها الغد. ولكنه إذا واجهها فسيعرف كيف يقهرها، وينتصر عليها كما انتصر على كل عقبة فى ماضيه. وداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء، فسار بقدمين ثابتتين وانتهى إلى بيت الإخشيدى، وفتح له الرجل بنفسه، ثم مضى به إلى حجرة نومه وسأله:

- أأنت مستعد؟

فقال محجوب وهو يبتسم ليستبقى ثقته بنفسه:

- كما ترى يا بك.

ونظر إلى الإخشيدى فلم ير ما اضطره قديما إلى إجلاله، وشعر فى أعماقه برغبة فى تحديه والاستهانة به. قال الرجل:

- سيأتى المأذون عما قليل...

فابتسم محجوب وقال بغرابة:

- المأذون!

فقال الإخشيدى مبتسما أيضا:

- ستدخل دنيا يا عم. والآن دعنى أقدمك إلى العروس ووالديها.

وتبع الإخشيدى خافق الفؤاد، تلوح فى عينيه نظرة تطلع وما يشبه الخجل والتردد،

وكان لا يكف عن دعاء جراءته وقحته، ويرسل ناظريه لرؤية حياته ومستقبله.. وسبقه الإخشيدى إلى الدخول وهو يقول:

ـ هاكم عضوا جديدا فى أسرتكم المحترمة...

ودخل وراءه، فوقعت عيناه على وجه غريب، رأى إحسان شحاته، إحسان شحاته تركى دون غيرها، والتقت عيناهما..

٢٥

كانت إحسان شحاتة دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التى أحبها على طه فتعاهدا على الحب والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثم أعقبتها أمور. حدث ذلك وهى عائدة عصرا من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلى شارع الجيزة، أمام القصر المعروف بالفيلا الخضراء. ولكم مرت بهذه الفيلا ذهابا وإيابا منذ أعوام، ولكن فى ذلك اليوم وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكل حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يخل وقعها من أثر. رأت رجلا جليل الشأن، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقة جسمه وميله إلى القصر نوعا. ولعل ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعا، فوجدته مصوبا نحوها عينين أحست ـ فى حياء ـ نفاذهما وحرارتهما!. كانت الفيلا ملكا لمدير شركة إيطالى، باعها إلى هذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنه موظف خطير، ونوه البعض باسمه، ولكنها نسيت ذلك جميعه وما بلغت دارها الباهتة حتى كادت تنسى البك ونظرته. فى عصر اليوم الثانى ـ وعند عودتها من المدرسة أيضا ـ رأته بموقف الأمس. التهمتها العينان الجميلتان وهى مقبلة نحوه، وتبعاها بعد أن جازته. وتساءلت ترى هل وجد ذلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنه انتظر اليوم على عمد؟!. وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظل ذهنها متفكرا. وعند منتصف الطريق شعرت بدنو سيارة من الطوار الذى تمشى عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيارة تكاد توازيها، سيارة رائعة كأنها فيلا متحركة، ولمحت وراء نافذتها عينى البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطؤت حركة السيارة حتى سارت تسايرها، فتولاها الحياء والارتباك، وحثت خطاها، وابتعدت داخل الطوار. ولما اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيارة مسرعة ودارت إلى طريق الجامعة، واختفت عن الأنظار. قطع الشك، فهذا غزل. وخالط

فؤادها شعور بالسرور والخيلاء، وغلبتها خفة ودلال ورثتهما عن أمها فترنمت بصوت خفيض بأغنية: «التاكسى على الباب مستنينى» ثم قالت لنفسها: «ليس تاكسى، ولكنها سيارة ولا سيارات عابدين!». بيد أنه كان شعورا بريئا أحدثه زهو الصبا. أما الرجل العظيم الجميل فلم يمسك، بل تمادى فى غزله يوما بعد يوم. فلم تر بدا من الاستياء والتجهم له وقالت له عيناها: «هذا سلوك لا يليق». ولكنه لم يأبه لإنذارها. ويوما رأت إلى جانبه فى السيارة شخصا جديدا مثلث الوجه مستدير العينين، ثم استمرت المطاردة وعنفت، حتى باتت الفتاة فى حيرة. كانت تحب على طه فرأت أن من المنطق أن تنتهى هذه المطاردة الملحة. ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل فى نفسها أثرا سيئا، وعلى العكس من ذلك أبهج نفسها لوعة ونظرة عينيه الجذابتين. وقالت لنفسها متألمة: إنه على كهولته أجمل من على وأروع منظرا، ولولا أن قلبى قال كلمته لما دريت كيف أصده عن صاحب السيارة العظيم!. وجعلت تتساءل مغيظة: هل أرعوى؟. متى يغيب عن ناظرى؟ متى يبعد عن سبيلى؟!. ولكن هل كانت صادقة فى تساؤلها؟ أو لأى درجة كانت صادقة؟. فلم تجد لذلك جوابا صريحا. باتت فى حيرة من أمر نفسها. وراحت تقول لنفسها كالمعتذرة.. إن كانت تسر لمطاردته.. فما ذلك إلا إرضاء لغرورها الأنثوى وتأثرا بمقامه الكبير. وما تدرى يوما إلا وأبوها يقول لها بلهجة ذات معنى - وكانت راجعة من المدرسة - «ألم تثوبى إلى رشدك بعد؟!». واضطرب فؤادها، وتوردت وجنتاها. هل يعلم الرجل بما يحدث فى شارع رشاد باشا؟!، رباه، أدائما هو بالمرصاد لها؟! ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة، فقال وكانت أمها لحقت به: «رجل لا يقل مقاما عن وزير وأعظم جاها وثروة، ألا ترين سيارته؟، ألا ترين قصره؟. فماذا تريدين؟!»، فسألته الفتاة بحدة: «ماذا يريد هو؟» فقال المعلم شحاتة تركى بصوت غليظ أخافها على غير عادته: «يريد بك خيرا، ويريد بنا خيرا، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقق إخوتك الجياع.. كلمنى مدير مكتبه الذى أعرفه منذ عهد تلمذته. سيتزوج منك. نعم. لم لا؟. أنت جميلة، وأنا رجل من صلب كريم. لعن الله الزمن. فحتام تلوى بوزك؟. افتحى عينيك. أبوك يستغيث بك. وأمك تستغيث بك. وإخوتك يستصرخونك!». واستفاض الحديث. واشتركت فيه أمها. فى تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتى مطلع الفجر.

قضت الليلة تتقلب على جنبيها وتفكر. وعند عصر اليوم الثانى - فى الموعد المعهود، اقتربت السيارة منها وفتح الباب. وترددت قليلا ثم صعدت إليها..

كيف وقع هذا؟!. ألم تكن تحب على طه؟ بلى كانت. ولكنه ليس الحب الذى يعمى ويصم. ليس الحب الذى يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة. كانت تحب الجاه كذلك وتكره الفقر. كانت تئن تحت حمل أسرتها الثقيل. كانت الفيلا منظرا بديعا،

والسيارة كنزا نفيسا، والبك إلها من آلهة الذهب والسلطان. لقد قاومت أول مرة الشاب الحقوقى لأنها كانت أول مرة. ثم راح والداها لا يسكتان عن الإلحاح، وقد جعلاها منذ التجربة الأولى فى حل من كل استهتار، بل جعلا عصمتها بيدها، ولولا على لهوت وانتهت من زمن بعيد. بيد أنها لم ترد فيما بينها وبين نفسها أن تعترف بضعفها. تجاذبتها فى ليلتها المسهدة عهود كثيرة وعواطف متباينة. ترددت بين البك وعلى طه. بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد، بين الراحة والتعب، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكد والكفاح، بين عيش رغيد لها ولأسرتها وحياة جلها مغالبة لفقر لا يغلب وضنك لا يزول. ثم اختارت دامعة العينين، خافقة الفؤاد. وأوهمت نفسها أنها تضحى بسعادتها فى سبيل الآخرين، وأن الليل استقبلها فتاة معذبة، وطلع عليها شهيدة من الشهداء. قالت لنفسها: «إنى أحب على، ولكنى أحب إخوتى كذلك. ولا يجوز أن يذهب إخوتى ضحية لأنانيتى. لذلك - لا لشىء آخر - ينبغى أن أذعن لأبى. أنا لا أحب البك، ولا أحب الجاه، والله يعلم بذلك!». وهكذا صعدت إلى السيارة التى ظلت تطاردها بعناد وإصرار. كانت السيارة سحرا، وكان صاحبها ساحرا كذلك. كان على طه عاشقا وناقدا فى آن واحد، يحب ولكنه ينقد ويعلم ويرشد أيضا، أما البك فرجل فاتن، منظره جميل، وكلامه لذيذ، ودعاباته جنون وفتون، كانت عيناه بأعين المنومين أشبه، وكان إذا نظر فى عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عام واستسلام حالم. وجزى الله صبر المعلم شحاتة تركى خيرا، فجاءته يوما سيارة شيكوريل وأفرغت حمولتها من الثياب الفاخرة!. وحركت أم إحسان رأسها على طريقة العوالم وغنت: «حود من هنا وتعال عندنا» ولاح السرور فى عينى إحسان وهى تقلبهما فى ألوان الحرير لتختار ما يروقها، وهكذا بدأ تاريخ جديد. ثم كانت نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع. انطلقت السيارة بالبك الجليل، إلى يمينه فلقة قمر تبعث الجنون، والحق أن إحسان بعد أن تريشت وأخذت زينتها وصار شيكوريل ومدام جريكور الخياطة فى خدمتها أصبحت. على حد قول ألبك، جنونا رسميا. فى ذلك اليوم بيت أمراً. تعطلت السيارة فى الطريق فتركها الراكبان. وقال البك إن له فيلا على مقربة من المكان واقترح أن يستريحا فيها حتى يتم إصلاح السيارة. ومضيا إلى فيلا جميلة تحيط بها حديقة غناء. ثم قال البك إنها وقد شرفت بيته الخلوى فينبغى أن يحتفل بزيارتها الميمونة. وأمر خادما فهيِّئت لها مائدة من التفاح والشمبانيا. وقشر لها تفاحة وقدم لها كأسا من الشمبانيا وهو يقول لها إنها شراب غير مسكر ولذيذ. كان الوقت أصيلا والحياة فى أطيب أحوالها. كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر، والسماء موردة الوجنات بحمرة الشفق، والحدأة تولى مودعة ضاربة بجناحيها، ووسائد الكرسى الكبير تتلقاها وكأنها تضمها بحنو، وقدماها منغرستان فى سجادة وثيرة. وبعثت الشمبانيا

الدفء في العقل، والعقل إذا أحس دفئا تهيأت له قوة سحرية يحول بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحية خال من الخوف والهم والأحزان. وتصاعد همس محبوب أشهى من نفثات الأماني ونقرت على معصمها أصابع مسحورة، تدغدغ حواسها وتحمل دمها رسائل الاستفزاز، ونفدت أنفاس حارة مترددة كشكات الإبر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها. وجعلت تدافع بساعدين مخذولتين، حتى يئست، فضمت بهما.

* * *

ونطقت عيناها بالفزع والارتباك والحياء، فقال لها البك بلهجة مطمئنة:

- لا تحسبني أني غدرت بك. إن مستقبلك أمانة بين يدي والله على ما أقول شهيد . . .

٢٦

التقت عيناهما - محجوب وإحسان - في صمت وذهول. وذكر كلاهما صاحبه فتولته الدهشة والانزعاج واضطرب أيما اضطراب، ذكرها محجوب فكاد يفقد رشاده. وذكرته إحسان فتولاها الذهول، وذكرت على طه، ودار الطلبة، والماضي الذي تود أن تفر منه فرارا. ونظر محجوب فيما حوله فرأى عم شحاتة تركي في معطف جديد، وسيدة بدينة أدرك أنها زوجه. وفطن الإخشيدي إلى ارتباك الجماعة، فقال مبتسما:

- لعلكم لا تحتاجون إلى تعارف . .

فقال عم شحاتة:

- محجوب أفندي جارنا منذ أربع سنوات . .

ولم يكن الإخشيدي يجهل هذا - وهو ما جعله يحرص على ألا يعرف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء - قال:

- مصادفة جميلة، والناس تقول: «اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش» سلم واجلس يا أستاذ محجوب.

وأفاق الشاب من ذهوله، فاقترب من آله الجدد وسلم عليهم واحدا واحدا، ومدت له إحسان يدها، خافضة العينين، بوجه كالجمان. كانت تريد أن تسدل على الماضي ستارا كثيفا، وأن تفر منه إلى الأبد، فرمى بها الحظ بين يدي واحد من صميم ذاك الماضي،

وكأنه ـ الحظ ـ لم يشبع بها تنكيلا ! وأراد الإخشيدى أن يعالج توتر الجو بالحديث، ولكن محجوب لم يلق إليه بالا . وكيف له بأن يغفل ثانية عن العجيبة الماثلة أمامه؟! . هذه إحسان شحاته بلحمها ودمها! . أهذا سر مأساة على طه؟! . يا عجبا ، كيف غوت؟! كيف استولى البك عليها؟! كانت ثقة على بها عمياء! . . أهكذا تقع إحسان؟! . . أما هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدا، ومع ذلك فلم يذهب به سوء الظن يوما إلى التنبؤ بما وقع! . . انتهت إحسان التى أحبها على طه، وانتهى ذاك الحب القديم، وها هى إحسان أخرى جديدة تمد إليه يدا ليرتبطا بميثاق الزواج . . . إحسان التى طالما تمناها معذبا محسورا! . أفليست الحقيقة أغرب من الخيال؟ وتنبه إلى صوت الإخشيدى يقول له معاتبا :

ـ أما تستفيق؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتمتم قائلا :

ـ إنى أعجب لهذه المصادفة .

فسأله الإخشيدى مبتسما :

ـ كيف ترى هذه المصادفة؟

فقال محجوب بلا تردد :

ـ مصادفة سعيدة بلا جدال!

وجعل الإخشيدى يتكلم عن المصادفة متفلسفا، وقالت أم إحسان كلمة أو كلمتين، وظن عم شحاتة أنه أحاط بالموضوع حين قال : إن المصادفة من صنع الله وبأمره سبحانه . ولكن بالرغم من هذا كله ظل العروسان غارقين فى أفكارهما، وغلب الوجوم والارتباك على جو الجلسة . ثم رن الجرس، فنهض الإخشيدى ظافرا بالخلاص من التوتر الشائع حوله، ومضى إلى الخارج وهو يقول :

ـ لعله المأذون يا سادة . .

وخفقت القلوب جميعا، ثم دخل الحجرة شيخ يتبعه الإخشيدى، وسلم على الحاضرين، ثم دعا الله أن يجعل محضره مباركا . وجلس الشيخ إلى نضد، شمر عن ساعديه، وأخذ فى عمله البسيط الخطير .

وجرت يده المغطاة بالشعر الغزير على القرطاس، وتابعه عم شحاته، والإخشيدى، أما محجوب فقطب قليلا وأحد بصره ليركز انتباهه ويطرد أفكاره، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها . وجاءت الدقيقة الفاصلة، فالتفت المأذون إلى محجوب عبد الدائم وقال له : «كرر ما أقوله : الآن قبلت زواج الست إحسان كريمة السيد شحاتة تركى، البكر البالغ الرشيد إلخ . . » وكرر محجوب قوله بنبرات هادئة،

وصوت واضح، لم يعتوره اضطراب حتى نطقه كلمة «البكر» بيد أنها وقعت من مسمعه موقعا غريبا أثار سخريته الكامنة، وحقده الراسخ. وذكر إجابة الإخشيدى حين سأله عن العروس: عذراء؟! فأجاب الفاجر باستهانة: كانت؟!.. أجل كانت، فلماذا لا يكتب المأذون: التى كانت البكر؟!. تزوير فى أوراق رسمية!.. زواجه تزوير، حياته تزوير، الدنيا كلها تزوير..

ومضى المأذون يلقى الخطبة: الحمد لله الذى أحل النكاح وحرم السفاح. واستمر فى محفوظاته واستمر محجوب فى تأملاته. وقال لنفسه: ولكن البك حرم النكاح وأحل السفاح!، وجاراه هو على اعتقاده فوقع على عقد نكاح فى الواقع هو عقد سفاح! وصارا زوجين أمام الله والناس!.. واسترق الشاب إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمرتين تنذران بالدموع، فقال لنفسه ساخرا: أول الغيث قطر. وتبودلت التهانى، ودارت أكواب الشربات. كان زواجا غريبا، شعر كل من شارك فيه بأنه يؤدى واجبا ثقيلا يود الفراغ منه فى أقصر وقت: ارتاح الوالدان دون أن يستخفهما فرح أو سرور، وغرق العروسان فى وجوم وتفكر، وغلبهما شعور بالقلق والخجل. قد عجبت إحسان فى أول الأمر، حين علمت أنه يراد تزويجها، وتساءلت حيرى: أين الذى يرضى بعروس مثلها؟ ثم ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئا؟ والدها الذى تعامى عن سقوطها، والذى وصاها بعشيقها ولم يوصها بزوجها: فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته؟ وقد وجد بالفعل واحد، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها، وإنها لتذكره، وتذكر كيف صدت هواه حين كانت تملك الصد عن هواه. وخالطها شعور نحوه بالاحتقار، ولكنها لم تتماد فيه، وقالت لنفسها ممتعضة: ألست مثله أو أضل سبيلا؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال.

أجل، صارا زوجين..

٢٧

وقعت التجربة إذا وتلقتها فلسفته بساعدين شديدتين، إلا أن نفسه لم تخل من قلق. بيد أن هذا القلق لم يقعده عن العمل بل على العكس جعله أشد رغبة فيه، فلم ينس غرضه لحظة واحدة، ولم يضع ثانية بلا نشاط، وكأنما وجد فى العمل ملهاة عن وساوسه. راح يعد مسوغات تعيينه، وكانت أعجبها شأنا شهادة بأنه «حسن السير والسلوك»، ووقع عليها الإخشيدى وزميل له مما جعل محجوب يقول ساخرا: «من يشهد للعروس؟؟».

وتسلم عشرين جنيها ليستعين بها على إصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلا لأنه لم يكن رأى شيئا كهذا من قبل. وجعل يعبث بها باهتمام، ويتفرس فيها بغرابة وإنكار. هذا ثمن القرنين اللذين يحلى بهما رأسه، كل قرن بعشرة جنيهات! ورأى على إحدى الورقات صورة الفلاح، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة، وذكر أباه طريح الفراش، المهدد بالجوع، وتساءل لماذا لم يصوروا أحد الباشوات؟ . أو العلم التركى؟! . وقال لنفسه ساخرا: إن هذه الصورة شبيهة بامضائه على عقد الزواج. ومضى بجيبه المنتفخ إلى الخياط وابتاع قماشا لبدلتين، فأدرك الرجل أن الطالب صار موظفا، ولم يكن فصل له سوى بدلة واحدة فى مدى أربع سنوات الدراسة. ثم ذهب إلى الموسكى، واشترى بيجامتين، وقمصانا، وفانلات وجوارب. وحذاء وطربوشا، كما ينبغى لعروس! وحزم ثيابه الجديدة فى حقيبة كبيرة وقد تورد وجهه سرورا وحياة. وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامتة، وذكر ليالى فبراير البشعة، ودكان الفول بميدان الجيزة، تبا لهاتيك الأيام السود؟. لن تعود أبدا مهما كان الثمن! . . ينبغى أن يتورد هذا الإهاب الشاحب، وأن يمتلىء ما بين هذا الجلد وهذا العظم، وأن يصفو هذا الذكاء الجبار، وأن يهلك شبح الجوع المقيت. إن النعامة لكى تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طولا، والأسد لكى يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكا، والحرباء لكى تعيش اصطنعت كل لون. وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل! أجل، وليكن طموحه لا نهائيا، وطمعه لا حد له، فقد غرم ثمنا باهظا ويجب أن يكون الجزاء كالعمل. وتفكر مليا، ثم وصى نفسه قائلا: الحذر؟ ليفعل ما يشاء، ولكن لا يجوز أن يقول إلا ما يشاء الناس. وقد فطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فإذا امتدح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يعدم من يسبغ عليه لقب الفاضل، أما إذا صارحها العداء فسينقلب عليه الناس جميعا وعلى رأسهم الملوثون. وليكن له أسوة فى الإخشيدى الذى يرى فى كل حفلة خيرية! . . بل لماذا لا يفكر جديا فى الاشتراك فى بعض الجمعيات الخيرية؟! . ثم ذكر زواجه! وعاد يتساءل كيف هان على طه على إحسان؟ كيف زلت قدمها؟! وما عسى أن يفعل على إذا علم غدا أن إحسان صارت زوجه؟ سيسقط فى يده، ويتشتت ذهنه حيرة، ولا يصدق أنه ـ محجوب ـ كان سبب شقائه، فإذا لم يجد بدا من التسليم بهذه الحقيقة الغريبة اتهمه حاقدا ثائرا بكل خسة ودناءة وغدر ذميم. ليكن. فليتهمه كيف شاء، وليحقد عليه ما وسعه الحقد. بيد أنه ذكر دينه الذى لم يقضه، الخمسين قرشا، فصدق عزمه على ردها إليه فى يومه، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه، فأرسلها بالبريد. وارتاح لذلك أيما ارتياح، وشعر بأنه قطع آخر خيط يربطه بعلى طه، وأنه لا يجوز له بعد الآن أن يعبأ بما يتوهمه الآخر أو بما يحسه أو بما قد يفعله. ودعا البواب وكلفه ببيع أثاث حجرته، ووعده بالتنازل عن ثلث

ثمنه نظير أن يحتفظ له بما قد يصله من خطابات باسمه، وكان يفكر وقت ذاك فى والديه. ولعلها كانت أول مرة يذكرهما بلا سخط أو تذمر أو غضب، وقد بات فى نيته أن يرسل لوالده جنيهين كل شهر، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن.

أما غدا، فصباحا يذهب إلى الوزارة، ومساء يأخذ عروسه إلى عشها الجديد.

٢٨

واستيقظ مبكرا، ومضى إلى الوزارة، وانتظر الإخشيدى فى حجرته، وجاء المدير عند تمام التاسعة، فتصافحا بمودة ظاهرة، وشربا القهوة معا، وقال له الإخشيدى وهو يهيئ مكتبه:

- لا شىء يصدق! أتعلم أن أكثرية طلبات الإعفاء من المصروفات مقدمة من ذوى اليسار؟

ولم يكن محجوب - فى ذلك الوقت على الأقل - ليهتم بأمثال هذه الأمور، ولكنه لم ير بدًا من التظاهر بالدهشة، وقال:

- شىء لا يصدق حقا!.. وكيف يسوغون التماساتهم؟

وقال الإخشيدى:

- لا حاجة ماسة إلى التسويغ، حسب أحدهم أن يقهقه ضاحكا وأن يقول لقاسم بك: «ألا يكفينا هبوط أسعار القطن؟» ثم مزاح فمداعبة فموافقة!

ثم جعل كعادته يتهكم من أحوال البلد وتصرفات كبار الموظفين وصغارهم، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك، ولعل ذلك إلى حين.. والتفت إلى محجوب قائلا:

- لا تنس أن عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصريف للأمور. (ثم غلبه طبعه فى التهوين من شأن الغير وأعمالهم فقال).. هو سهل فى ذاته، بل هو لعب. لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم. ولكن إلى لباقة..

فقال محجوب باهتمام:

- أرجو أن أنتفع بإرشادك..

- يسرنى أن أجد مساعدا مخلصا لى، ولذلك احتفظت لك بهذه الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها، ولذلك أيضا ينبغى أن نكون يدا واحدة لأن أعداءنا كثيرون. لا يغرنك ما تلقى من بشاشة. فالعادة أن الموظفين يقبلون على صاحب السلطان ما

أقبلت الدنيا عليه، فإذا أفل نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره: فلنكن يدا واحدة.

وتحدث الإخشيدى طويلا على غير عادته. وفكر محجوب طويلا فيما يدعو إليه الآخر من أن يكونا يدا واحدة، فقال مخاطبا صاحبه فى سره: وقعت فى شر منك، وساقك الحظ إلى مساعد من طينتك، يفهم الإخلاص كما تفهمه، ولكل شيء آفة من جنسه، وليست منزلتى عند البك دون منزلتك، فإذا كنت مهرجه أو قواده فأنا زوج عشيقته.

وجاء الساعى الضخم وأعلن حضور قاسم بك، فنهض الإخشيدى واصطحب محجوب إلى حجرته، وصافحهما البك بسرور، وهنأ الشاب علىَ تسلمه العمل، وقال له برقة:

ـ أرجو لك التوفيق، والمستقبل الباهر..

ومضى الإخشيدى يعرض عليه بعض الأوراق، أما محجوب فوقف انتباهه عند «المستقبل الباهَر». يقولون: «يا بخت من كان النقيب خاله» والنقيب أقرب إليه من خاله! واختلس من البك نظرات، ليملأ عينيه من الرجل الذى صاد إحسان، وأفقدها رشدها. نظر إليه بغرابة كأنما ينقب عن سره السحرى، أيوجد فى محاسنه؟ أم جاهه؟ أم فى مكان اكتشفته إحسان لحسن حظها أم لسوء حظها! أعجب بهؤلاء الرجال ذوى السلطان إنهم يأتون الكبائر باستهانة، ويتجاهلون ما يسميه السذج ورطة أو مشكلة، ويخلقون الحل اليسير للأمر فى غمضة عين، وكان هو الحل اليسير!.. كيف غوت إحسان؟ سيظل متحيرا حتى يعرف الحقيقة. ليس على طه دون البك جمالا، وهو يفوقه بشبابه. فكيف غوت؟.. ولو كانت تزوجته لقال آثرته لماله، ولكنها.. رباه.. تبًا لهؤلاء الرجال الأقوياء، إنهم لا يعرفون المستحيل. أم تكون إحسان خدعة كبرى حازت على المصلح الاجتماعى الأحمق، وما هى إلا.. لابد أن يعرف الحقيقة.

وغادرا حجرة البك، وسار به الإخشيدى إلى حجرة «السكرتير الخاص» وقد قام ببابها ساع طاعن فى السن، وكانت حَجرة مستطيلة اصطفت على جانبيها المقاعد الجلدية وتصدرها مكتب كبير. قال الإخشيدى:

ـ أستودعك الله، سأبلغ المستخدمين أنك تسلمت عملك اليوم.

وكان الإخشيدى يقول لنفسه: أما كان الأحكم أن يلحق الشاب بوظيفة بعيدة عن المكتب؟ فليسَ مما يرتاح إليه أن يوجد فى نفس المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك! ولكن ماذا كان بيده أن يفعل؟ كانت الحالة حرجة، والبك مضطربا خائفا، والوظيفة خالية، ولو لم يعثر على محجوب لربما كان هو الزوج! ولعل الأيام تثبت أن الشاب أهل لصنيعه!

وترك محجوب وحده فى الحجرة، استخفه سرور عجيب كاد يرقص له. وجلس على الكرسى المتحرك ضاحك الثغر، ووضع يده على سماعة التليفون، ولم يكن استعمل التليفون قط! وجعل يحرك الكرسى ذات اليمين وذات الشمال. موظف خطير بغير شك. وغدا يمتلئ بطنه باللحوم والفواكه. تبا للفلاسفة الذين يقولون: إن السعادة فى البساطة، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع؟

واليوم والغد، أما الماضى فسحقا له..

* * *

ولبث ساعة وحيدا حتى ضاق بوحدته، ورغب أن يفعل شيئا أيا كان. فضغط على زر الجرس، وفتح الباب وجاء الساعى العجوز وقال بأدب: «أفندم يا سعادة البك». وتورد وجهه! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقعا موسيقيا مطربا، وإن تظاهر بعدم المبالاة، ثم قال باقتضاب: «قهوة» وما كاد الباب يغلق مرة أخرى حتى رن جرس التليفون، فرنت أوتار قلبه، ورفع السماعة بقلق ووضعها على أذنه، ثم قال بصوت هياب:

- أفندم.

- سكرتير قاسم بك فهمى؟

- نعم يا فندم.

- البك موجود؟

- نعم يا فندم.

- دعنى أكلمه... قل له محمد رشاد.

وظن أنه ينبغى أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره، فأعاد السماعة إلى موضعها الأول - فأقفل السكة وهو لا يدرى - ومضى إلى حجرة البك وقال باحترام:

- محمد رشاد.. بك، يريد أن يكلم سعادتك.

- خله يدخل..

- إنه يتكلم فى التليفون.

فسأله البك بدهشة:

- ولماذا لم تحول السكة إلىّ..؟

فلم يحر جوابا ولاح فى وجهه الارتباك على غير عادته، فضحك البك وقال:

- حول السكة علىّ، استعمل الموصل فى مثل هذه الأحوال.

وغادر الحجرة مرتبكا، وقد أدرك أنه أخطأ. كيف تحول السكة؟. وأى شيء هذا الموصل؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السماعة إلى أذنه فسمع نقيقا متصلا فقال:

ـ يا سعادة البك...

فلم يجبه أحد مع معاودة الدعاء، ولم يسمع إلا النقيق المستمر، فاشتد ارتباكه، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديدا، ولبث ممتعضا. ما كان يعلم أن للتليفون ثقافة خاصة ينبغى أن يعلمها، ودعا الساعى على مضض ليلقنه سر التليفون. ودون بعض الملاحظات على ورقة كى لا ينسى ما يجب ذكره فى المستقبل. ثم دبت الحياة فى الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون فى مقابلة قاسم بك فهمى، فاستقبلهم دون ارتباك، وعاونته جسارته الطبيعية على تمالك أعصابه، والظهور بمظهر الرزانة والثبات. واستقبل أحد الباشوات المعروفين، الذين لم يكن يراهم إلا من بعيد، فسلم عليه، واستأذن له، ودعاه إلى مقابلة البك. وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتم بعنف انفعال السرور والفرح. ومضى نهار العمل فى حركة دائبة ونشاط متصل وسرور لا مزيد عليه. وبهذا النشاط غير المنقطع نسى أفكاره ووساوسه، فارتاح باطنه وهو لا يدرى، وغادر الوزارة معافى كأنما ينهض من نوم عميق.

وكان غير الفتى الذى جاء الصبح ساعيا، فقد عرف بكوات وباشوات، وثقف فن التليفون. ودعى «محجوب بك» عشرات المرات، فكان أعظم ثقة وخيلاء، بل أوشكت أن تتغير مشيته ونظرة عينيه. وذكر ـ فى نشوة المجد المباغت ـ قريبه أحمد بك حمديس، فود لو يأتى يوما لمقابلة قاسم بك ليجىء حجرته مستأذنا، فأى دهشة تتولاه! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثم يقص ما رأى على أسرته فتسمع تحية، وتعلم أنها أغلقت باب سيارتها دون فتى ذى نباهة ومجد!.. ولكم يود أن تراه تحية مع زوجه الحسناء! فزوجه تفوقها حسنا وفتنة، وإنه ليود أن يتفرس فى وجهها وهى تنظر شزرا إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتان!

صبرا صبرا، إن الحياة بدأت تبتسم...

٢٩

وفى ذلك اليوم نفسه ذهب محجوب عبد الدائم إلى الإخشيدى ـ كوعد سابق ـ ومضى به الرجل إلى الشقة ليسلمها له، وحمل محجوب معهَ حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيدى مفتاح الشقة وهو يقول:

ـ الشقةَ وما تحتوى ـ لكما ـ إلا صوانا صغيرا فى حجرة النوم.

أدرك محجوب أن الصوان خاص بقاسم بك فهمى، وتورد وجهه، وشعر محجوب برغبة قوية فى أن يركله بما أوتى من قوة! . وقال الإخشيدى:

- يحسن أن يجدد العقد باسمك.

- أهو الآن باسم قاسم بك؟

فقال الإخشيدى ببرود:

- باسمى أنا . . .

فأحس محجوب ارتياحًا وسأله:

- وكم إيجار الشقة؟

- عشرة جنيهات!

فابتسم محجوب قائلا:

- ما يعادل ماهيتى تقريبا . . .

- سيؤديها البك، كما سيؤدى عنك أجر الطاهية . . . وغير ذلك . . .

ودارا معا فى الشقة دورة استكشافية، وكانت على صغرها آية فى جمال البناء ونفاسة الأثاث. فتولته الدهشة، وأدرك أنه يرى كثيرا من قطع الأثاث لأول مرة، ولم يدر لها أسماء. كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال، وهى تفتح على دهليز يؤدى إلى صالة معدة للجلوس وبها جهاز الراديو، وعلى جانبها الأيمن بابان، أحدهما لحجرة النوم، والآخر لحجرة السفرة، ولحجرتى النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطل على شارع ناجى. وذكر فى موقفه بسرعة بيت القناطر، ودار الطلبة، وحجرة السطح بعمارة شارع جركس. أدرك فى موقفه ذاك أن الحقائق قد تفوق الأحلام سحرا وجمالا. والواقع أن مادة الأحلام مستمدة فى العادة من محسوسات الحالم ومدركاته، وها هو ذا يرى أدوات ترف لأول مرة فى حياته، لم تكن من محسوساته ولا من مدركاته! الفرق بين هذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب، كلتاهما امرأة، أجل، ولكن شتان بين هذه وتلك. ونسى فى تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائما من أنه لا يوجد ثمة فرق بين امرأة وامرأة، وأن إحسان وتحية وجامعة الأعقاب كلهن سواء! . .

وقال له الإخشيدى وهو يودعه:

- غدا مساءً تجد عروسك فى انتظارك!

وذهب الرجل والشاب يرمقه شزراً.

وعند أصيل اليوم الثانى انطلق إلى الجيزة، وذكر فى الحال على طه. ترى فى أى

موقع يقيم؟ كان يعلم أنه فى الجيزة ولكنه جهل عنوانه. فهل لا يزال الشاب مقيما على عهده واهتماماته بالفتاة؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل نما إليه خبر زواجها؟ أيمكن أن يلتقى به وهى متأبطة ذراعه؟: ساوره قلق، وإن كان لا يبالى شيئا، بل ود فى تلك اللحظة لو يلقاه على ويعلم كل شيء. ومضى إلى بيت عم شحاتة تركى، فوجد الأسرة فى انتظاره - ما عدا إحسان - فأيقن أن تعليمات الإخشيدى سبقته إلى آله الكرام. وكان الجميع - عم شحاتة وزوجه والأبناء الستة الصغار - يرفلون فى الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحدبه!. وسلم وسلموا بحرارة، فقبله عم شحاتة فى جبينه، وقبل يد حماته، وداعب الصغار وقبل أصغرهم فى خديه. وفى جلسته أمعن نظره فى الوجوه تتطلع إليه، فأقر لتوه بأن بيت عروسه حافل بالحسن. أبوها حسن القسمات، وأمها حسناء، وإخوتها لآلئ منثورة. وقال لنفسه إن الجمال سلاح نافع حقا فى يد الفقير. واستفاض الحديث، وساهم فيه الشاب كما ينبغى وإن ود لو يغادر البيت فى أقرب وقت، وتكلم عم شحاته عن دار الطلبة، وعن الطالب محجوب عبد الدايم المهذب المجتهد، وكيف أنه لم يكن من عملائه لأنه لا يدخن، وكيف أنه - عم شحاته - يحترم الطلبة الذين لا يدخنون وإن (وقد ضحك عند ذاك) لم ينتفع باستقامتهم، وقال إنه لم يحيى حفلا لعرس ابنته لأن الزوج الطيب هو الفرح الحقيقى، وأنه لم يدع أحدا من أقربائه وآله - وهم ريفيون - حتى لا يجشمهم مشقة السفر. وغلب على ظن محجوب أن الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف، ولكنه ذكر والديه بامتعاض، وقال إنه طير نبأ زواجه إلى والديه، ولولا أن أباه - وهو مزارع ذو شأن - بالقناطر وهو مريض لشهد يومه وباركه بنفسه. وتحدثت أم إحسان عن أبنائها، وعن إحسان خاصة، وأدرك محجوب من حديث حماته، من لهجتها، وحركات رقبتها وحاجبيها وعينيها أنها امرأة ذات دلال وأنوثة ودعابة ومكر - وكان يجهل تاريخها بشارع محمد على - وقد سألته عن وظيفته، واقترحت عليه أن تقرأ كفه، وتنبأت له بذرية صالحة ومركز حكومى ممتاز، وكان محجوب يتكلم ويستمع، ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب، وعيناه تتساءلان «حتام الانتظار؟». وأخيرا جاءت إحسان. جاءت فى ثوب العرس الأبيض الشفاف، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة، فتجلى سواده اللامع وأكسب بشرتها صفاء، وجاء فى صحبتها نسوة أربع - قيل إنهن قريبات أمها - ولكنه لم يلق بالا إلى أحد، جذب حسنها عينيه فأطاح باستهتاره المعهود، حتى تمشت شرارة الكهرباء فى صدره، وقرض على أسنانه، والتقت عيناهما وهما يسلمان، فامتلأ بالسحر الجارى فى لحظيهما، وشعر بأنه ثمل يترنح، وعاودته ذكريات عذابه القديم، ومآسى شهوته المضطرمة، فلم يصدق - على استهانته وجسارته - أنها صارت ملكا له، أو حتى ملكا له على المشاع كما يقولون وذكر للشريك، وكيف سبقه، فتألم، وعاود النظر إلى

الجسد البض الذى يشف عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلا تألما . وكان عم شحاتة قد هيأ للحاضرين عشاء فاخرا كلفه ثمنا غاليا ، فدعاهم إلى المائدة ، ونهضوا تسبقهم ضجة الصبيان . وكانت أم إحسان على مرحها مستاءة فى أعماقها ، وكانت تود من كل قلبها أن تحتفل بيوم إحسان السعيد ، وأن تجعل منه يوم سرور للحى جميعا ، ولكن الإخشيدى صارحها بأن محجوب أعجز من أن يحقق لها رغبتها ، وكانت تعلم أن زوجها أعجز من زوج كريمتها ، فطوت نفسها على رغبتها الخانقة : وقد أكلوا مريئا وعادوا إلى جلستهم هانئين ، ولم يكن يوجد ثمة داع إلى بقاء العروسين ، فنهضا يودعان الحاضرين . وجيء بتاكسى حملت إليه ثياب العروس فى حقيبة كبيرة ، وأخذ محجوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودعين ، وهبط السلم على مهل ، وكأن أم إحسان قد نفد صبرها فأطلقت زغرودة رنت بين الحيطان رنينا نفاذا ، خفق له فؤاد الفتى ، وارتج جفناه . وتلقت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقى الجنود علامة الهجوم ، فأطلقن الزغاريد ، تتجاوب أصداؤها ، ويشتد صفيرها المتقطع يهتز له صدور الحسان . واحتوى التاكسى العروسين ، وقد نسيا فى شدو الزغاريد نفسيهما فابتسما فى بشاشة وحياء ، وظلا ينظران إلى الواقفات بالباب حتى جاوزت السيارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا .

٣٠

وأراد أن يتكلم ، ولكنه لم يدر ماذا يقول ، وكان كلما طال صمته طال حصره ، فعدل عن رغبته وهو كظيم . وتفحصها بعناية . رآها تنظر إلى الطريق من النافذة ، مولية إياه مؤخر رأسها . ولم يشك فى أن أعينا كثيرة فى الطريق ستنفس عليه هذا الحسن البديع الذى يستأثر به . وسر لذلك أيما سرور . ليت آل حمديس يرونه فى جلسته هذه ، وخصوصا تحية حمديس ! . . وخطر له فى تلك اللحظة ـ وقد اطمأن إلى أن تحية تكتمت فضيحته ـ أن يمضى يوما إلى زيارة قريبه العظيم ليقدم له عروسه كما جرت العادة . وداعب هذا الخاطر فؤاده حتى أسكره . وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج ، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن ، فجرى على الجيد فالمنكب فالثدى الناهد ثم الخاصرة الخميصة وأخيرا الفخذ اللفاء . وتنهد من أعماق صدره ، وقال لنفسه : ما أشد جوعه ، واضطرام دمه . ووقف التاكسى أمام عمارة شليخر ، ونزل ونزلت مستندة إلى يده ، وسارا إلى المصعد ، ودخلا الشقة يتبعها البواب بالحقيبة . ودلها على حجرة النوم فتقدمت إليها وردت الباب ! ووقف مترددا : ثم تراجع إلى مقعد فى الصالة وارتمى

عليه. لم يرتح أول وهلة لإغلاق الباب، وذكر باب السيارة فى الهرم! ولكنه سرعان ما أقام العذر بالارتباك الذى يحدثه الموقف بيد أنه لم ينج من مرارة طبعه الساخر فقال لنفسه: يا له من حياء هو بالأبكار الساذجات أولى! ثم قطب وتساءل: ترى ماذا تخبئ له حياته الجديدة؟ أسعادة أم شقاء؟! إنه لا يطمع أن تنظر إليه كزوج بالمعنى المفهوم لأنه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة وحتم أن تراه - فى قرارة نفسها - قوادا، كما يراها فى قرارة نفسه عاهرة. فهل يمكن أن يسعد قواد وعاهرة معا؟؟ هذه هى مسألته دون زيادة ولا نقصان. إنه لا يروم من حياته الزوجية معنى اجتماعيا، ولا ذرية صالحة، ولا احتراما متبادلا، كل ما يريده رغبة متبادلة، ميل يعادل ميله، شهوة بشهوة، وحسبه هذا من زواج هو وسيلة لا غاية، إنه يروم حبا بلا غيرة، يرد ماءها الحين بعد الحين. دون قلق أو فكر أو هم، وتوكله أولا وأخيرا على نفسه الجسور التى حطمت القيود ومزقت الأغلال. كان يفكر ونظره عالق بالباب المغلق. أينتظر حتى يفتح؟ وإذا ظل مغلقا، فهل يلبث مكانه حتى الصباح؟ ونهض قائما، ودنا من الباب ونقره بخفة، فلم يجبه صوت ولا حركة، فأدار الأكرة ودفعه. وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجرة إلا نورا خافتا آتيا من ناحية الشرفة، فأدرك أنها فى الشرفة، تستجم، فمضى إليها فى خطا رقيقة، ورآها جالسة فى ناحية مسندة ذراعها إلى حافتها ملقية بنظرها إلى الطريق. ولم تبد حركة لدخوله، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح الشرفة، ثم قال:

- فعلت خيرا بدخولك الشرفة، فهذه الليلة من ليالى يوليه الحارة؟

فحولت رأسها إليه، وقالت بعد تردد:

- أجل هذه ليلة حارة..

سر لمبادلتها إياه الحديث، فأتى بمقعد، وجلس عليه على كثب منها، وألقى عليها نظرة، فراعته صورتها، وحرقه تكوين جسمها البديع المشتهى، وذكر أنه سيتمتع بهذا الجسد الفاتن هذه الليلة، بل هذه الساعة، فجن جنونه، وأسكرته هذه الحقيقة الماثلة بين يديه، كأنه يكتشفها لأول مرة. ولم تعد تحتمل عرامة نظرته فأطرقت، فمد يده إلى ذقنها، ورفع رأسها إليه، وهو يقول بصوت متهدج:

- دعينى أطالع وجهك الجميل...

والتقت عيناهما لحظة، فامتلأ حماسا وقال بحرارة:

- تآلفت حياتنا بمعجزة. وما كنت أحسب قبل اليوم أن المصادفة تلعب هذا الدور الخطير فى حياة الانسان، فما أحقها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود جميعا، ولعلك تجدين وحشة، ولكنك ستتغلبين بذكائك وثقافتك. وكما أن الحب يكون مقدمة للزواج، فالزواج يكون مقدمة للحب، والمعاشرة كفيلة بمزج النفوس وتوحيد الآمال... أليس كذلك؟؟

فتحركت شفتاها كأنما لتتكلم، ثم جمدتا ارتباكا، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة. وازداد حماسا فقال:

- ستدركين معنى قولى هذا، وستعملين على تحقيقه، لنعملن معا على تحقيقه، وسنرى..

وقال لنفسه: إن النساء لا يعشن بلا حب - حقيقة تعلمها من القراءة - فهى لا شك تحب، ولكن من المحبوب المجدود؟!..

حسبه يوما على طه، ثم ظنه قاسم بك فهمى، وقد يكون المال دون غيره، فعلى هذه الحقيقة تتوقف سعادته. وقد يكون صادقا فى قوله لها «ولعلك تجدين وحشة؟» فالحقيقة أنها كانت تجد هذه الوحشة، وقد أدرك ذلك من أول نظرة، بل أدرك أنه لو أعتقها هذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرقة، ولكنه نبذ هذا الخاطر، موقنا أن الحيوان الهائج فى باطنه لا يعرف التسويف ولا التأجيل. ولا يقدر على انتظار مهما كان الثمن. ثم كف عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعة:

- هلمى ندخل...

وأمسك بمعصمها برفق ونهض، فنهضت طائعة، ثم أحاط خصرها بذراعه، ودخلا معا..

٣١

وفتح عينيه فى الصباح الباكر فوقعتا على مرآة الصوان الفاخر، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس. وارتفق ساعديه، ثم ثبت عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التى لم تمح آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة فى النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريرية، ما أجمل صفاء هذه البشرة، ما أعمق سواد هذا الشعر، واهتز صدره طربا فهوى بشفتيه الممتلئتين على خدها الأسيل..

ومضى الأسبوع الأول من هذه الحياة الجديدة، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبذول بشراهة جنونية، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أن لذته - لذتهما - لن تتم إلا بشيء جديد ضرورى جدا كى ينسى هو ما ينبغى أن ينساه، وكى تنسى هى ما يحسن أن تنساه، فيصفو الجو، ويستمتعا بحياتهما أجمل استمتاع. وجرب بالفعل ذلك الشيء الضرورى الذى سمع عنه كثيرا: الشراب!. وقليل منه كفاهما، ولكنه نفعهما نفعا سحريا، بفضله وجدها تذوب رقة، وتنفث سحرا، وسكن بين ذراعيها يرشف من

طيبات رزقه. كانت الحياة فى ظاهرها ثملة باللذة مخمورة بالشهوة أما فى الأعماق فاضطربت تيارات خفية. فلم يفتأ محجوب يتساءل عن على طه وقاسم فهمى وقلب إحسان. وربما ثار شكه، وراح يؤنب نفسه ويعنفها، ويقول إنه الحمق ولا شيء غيره، الذى يوسوس له فيوقظه من لذته ليصلى نار الفكر. وحاول مرات أن يعوذ بسخريته، وجعل يوصى نفسه قائلا: «اقتل الشك، امح الكرامة من قاموسك، احذر الغيرة، أفرغ شهوتك، توثب للطموح، واذكر أن ما أنت فيه هو الامتحان الأول والأخير لفلسفتك، فقل الآن طظ، قلها بلسانك وبقلبك وبإرادتك..».

ولم تخل إحسان كذلك من خواطر تضطرب فى أعماقها. عرفت أخيرا المصير واستقر بها المستقر. أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجا للبك العظيم. ووجدت نفسها ربة هذا البيت العجيب الذى يتنازعه صاحبان. لم تعد تقول لا. فما خوف الغريق من البلل؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها. إن القلب الذى أيقظه على طه اندثر وذهب. والأمن الذى لوح لها به قاسم فهمى خاب وانطفأ. فلم يبق لها إلا تلك الغريزة الحيوانية التى أطلقها والدها من عقالها منذ البدء. ربما حنت إلى على طه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها محجوب عبد الدائم، ولكنها لم تسمح لاحدى هذه المشاعر بالتمادى والتضخم، ومالت بمزاجها وبالدوافع التى تحيط بها إلى الاستسلام التام. ما من فائدة ترجى من التحسر على ماض لن يعود، وأولى بها أن تولى الحاضر والمستقبل عنايتها، فلتستمتع باللذة، ولتستأثر بالقوة، ولتنفق عن سعة، ولتغمر أسرتها بكل خير عميم، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثا، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها، لقد همت بأن تحتقره أكثر من مرة، ولكن لماذا؟؟ لأنه..؟ ولكنها هى أيضا..؟؟ فلا تعيره ولا يعيرها؟. بل هنالك وجه آخر يقرب بينهما، فهو فيما يبدو ضحية مثلها للعوز والطمع. وكلاهما ضحية لشر واحد فما أجدرهما بالتصافى والتعاون. كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة، ويحاول ما استطاع أن ينفى عن نفسه نوازع الشقاء. واطردت الحياة فى لذة يهيئها الشراب والرغبة فى السعادة. وكان محجوب أقدر منها على التغلب على أمثال هذه الهموم لاستهانته المعروفة، أما هى فكانت حديثة عهد بالشذوذ، فربما تولتها الكآبة إذا خلت إلى نفسها، وربما وجدت حنينا إلى الآمال المشرقة الأولى فى الحب والحياة الشريفة، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد فى أولى لياليه، ولكنها كانت تتغلب على مرضها ـ والحنين مرض ـ بتلك الواقعية التى اشتهرت بها النساء، وبتلك الرغبة الصادقة فى طيب الحياة. ولهذا السبب سألها محجوب يوما ـ من أيام الأسبوع الأول ـ وهو يقرصها فى خدها:

ـ أنت سعيدة؟

أجابته من فورها :

ـ نعم، والحمد لله . .

فقال لها الشاب بسرور :

ـ الحياة أمامنا منبسطة، والفرص دانية، فلنشب بين الأزهار، ولنجن الثمار . .

فقالت مبتسمة عن درها النضيد :

ـ نشب . . ونجنى .

ـ لا تصدقى الحكم الجامدة التى يعرفون بها السعادة . السعادة ليست فى الحياة، وجميع ظروف الحياة لديها سواء، هى حقا فى الإرادة فمن يردها إرادة تأته طوعا أو كرها . .

فحدجته بنظرة متفكرة بعينيها السوداوين البديعتين، فقال بحذر وتواضع :

ـ إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون . . !

فقالت بهدوء :

ـ لا داعى لهذا . . (وهنا ذكرت شطر بيت للمتنبى) .

فقالت : كل مكان ينبت العز طيب . .

فأخذ يدها فى يده كأنه يعاهدها، تريث قليلا، ثم قال وقد غير لهجته :

ـ وثمة شيء آخر، لا ينبغى أن نعيش فى عزلة . لنقتحم الحياة العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى نصيب .

كان يريد أن يتمتع بحياته الاجتماعية على أكمل وجه، وأن يقدس مظاهرها الكاذبة التى يكبرها الناس جميعا، واشتدت إليها حاجته ليخفى بها ما فى حياته من شذوذ . ولذلك فكر جديا أن يذهب وعروسه إلى آل حمديس، ليبرئ جرحا قديما، وليشبع شهوته إلى الظهور، ولكن ألا توجد ثمة عقبة حقيقية؟؟

٣٢

ولم ينثن عن رغبته الجريئة، وأراد أن يجعل منها أولى خطاه فى غزو المجتمع الراقى . ورأى عن حكمة أن يمهد للزيارة بمحادثة حمديس بك بالتليفون، وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغته أم أن الفتاة الأريبة أخفتها عنهم . وحادثه، ووجد منه خطابا

رقيقا، فأخبره بزواجه، وكاشفه برغبته فى تقديم زوجه إليه فرحب بها البك أيما ترحيب. وهرع محجوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء:

ـ دعينى أقدمك إلى أقربائى العظام..

وعند عصر اليوم العاشر من حياته فى البيت الجديد أخذ أهبتهما للزيارة الخطيرة. فارتدت إحسان ثوبا جميلا من ثيابها الجديدة، وتجلت صورتها الفاتنة، وتهيأ سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجية الصافية والشفتين الورديتين وبدا الشاب فى منظر حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه. واستقلا تاكسى إلى الزمالك. لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة، أما محجوب فكان يبتسم ابتسامة هادئة مطمئنة كأنه ذاهب إلى بيته الذى شب وترعرع فيه. وقد عبرا الحديقة إلى سلاملك الاستقبال وهما على تلك الحال، فما راعها إلا منظر الأسرة الكريمة فى انتظارهما عند مدخل السلاملك. وقفوا الأربعة صفا: أحمد بك حمديس، حرمه، تحية، فاضل. وسر محجوب لنجاح الاستقبال، وقد اطمأن إلى نجاحه من قبل لما هو معهود فى النساء كافة من الميل إلى تفحص بنات جنسهن ونقدهن، وتبادلوا التحية والسلام، ولم يخف عن عينيه الجاحظتين الأثر الذى أحدثته زوجه فى المستقبلين، فأحس ارتياحا وغبطة. وجلسوا، وما زالوا يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة، وجعلت عيناه القلقتان تدوران فى جميع الأنحاء وتتفرس فى الوجوه. ووجد نفسه وهو لا يدرى يقارن بين زوجه الحسناء وتحية حمديس. إن لتحية جمالها، ولها إلى جمالها سمت أناقة ورفعة، ولكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن الرائع. إن زوجه أجمل من تحية، بل أجمل من أم تحية فى صباها، وأعينهم لا تنكر هذا ولا تمارى فيه. وطرب لذلك أيما طرب وقال لنفسه بشماتة: «لقد هزمت فى المقبرة يوم الرحلة وتم لى الانتقام اليوم». وأراد أن يعرفهم بزوجه كما ينبغى، فقال بجسارته المعهودة وهو يشير إلى فتاته:

ـ إحسان كريمة شحاته بك تركى من كبار تجار الدخان. ألا تعرفه يا سعادة البك؟

وتورد وجه إحسان، وأطرقت لتخفى ارتباكها. أما أحمد بك حمديس فزوى ما بين حاجبيه باحثا فى ذاكرته، ثم قال بلهجة الاعتذار:

ـ لا أذكر للأسف (والتفت إلى إحسان). لنا عظيم الشرف!

فقال الشاب ضاحكا وهو يشير إلى زوجه مرة أخرى:

ـ زميلة قديمة، عرفتها فى الجامعة..

فابتسم البك وابتسمت زوجه، وابتسمت إحسان أيضا وقد هالها اندفاع محجوب، ولم تدر أين يقف. وكان فاضل ينظر إلى العروس بفتور، أما تحية فلم تحول عنها عينين ثاقبتين، وقد فطنت ببداهتها إلى البواعث الحقيقية التى أغرت الشاب بهذه الزيارة،

فازدادت له احتقاراً وتجلى فى نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية. وراحت حرم حمديس بك تتحدث عن فتيات الجامعة، فقالت:

ـ إن الجامعة: تمهيد للوظيفة، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلا آخر، (وسألت العروس):

ـ ألم تخامرك فكرة التوظيف وأنت تلتحقين بالجامعة؟

وكانت إحسان برمة بالحديث، مشفقة من مغبة الكذب، ولكنها لم تر بدا من الإجابة فقالت:

ـ بلى يا هانم، ولكن كل شيء قسمة ونصيب كما يقولون

فسألتها تحية بمكر:

ـ ألم تأسفى لتغير مجرى حياتك؟

وابتسموا جميعا، وضحك محجوب كأنما راقته دعابتها وقال:

ـ سامحنى الله. كانت إحسان طالبة بارعة، وطالما أثارت إعجاب المسيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها، وقد اعترض طويلا على انقطاعها عن المدرسة..

ونظر إلى تحية ليرى ما ترك من أثر فى عينيها، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية، فلم يغضب، بل سر سرورا خفيا. ودخل عند ذاك خادم نوبى بالمرطبات. فشربوا هنيئا وسادت فترة سكون كالاستراحة.

وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرة أخرى، فنادت الذكريات البعيدة، وذكرت الغلام الصغير الذى يطالعها الآن زوجا رشيدا ورب أسرة ناشئة، وتكلمت عن الزمن وسرعته العجيبة، ثم سألت الشاب قائلة:

ـ كيف حال والديك؟

ـ الحمد لله.

أجاب محجوب بسرعة، وسرعان ما انقبض صدره، فسألته السيدة مرة أخرى:

ـ ألم يحضرا زفافك؟

ـ لم يمكنهما ذلك لمرض والدى..

فدعت السيدة للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضا:

ـ وكيف القناطر؟

ـ جميلة كعهدك بها..

ـ يا عجبا، لم نعاودها منذ فارقناها..

وسأله أحمد بك مبتسما:

ـ هل تقضيان شهر العسل فى القاهرة؟

فسر محجوب بالسؤال لأنه فتح له أبوابا للحديث، فقال:

ـ عملى كسكرتير لقاسم بك فهمى لا يدع لى فراغا فى الوقت الحاضر . . . !

وهنا قالت تحية لتشرح للشاب أسباب وجودهم فى القاهرة فى يوليه إذا كانت غابت عنه:

ـ والدى يقوم عادة بأجازته فى أغسطس فنسافر جميعا إلى أوروبا . . ! ثم غيرت لهجتها وسألته باهتمام:

ـ ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريات الجامعة؟

واضطرب فؤاده، وجرى بصره بحذر على وجه الجالسين، ؟ فوجدهم مبتسمين لا تدل وجوههم على شىء مما أثاره الخوف فى نفسه من سوء الظن فتنهد ارتياحا وقال وقد تمالك نفسه:

ـ كلا . . .

ثم قال بخبث:

ـ سنذهب بلا شك عندما نبتاع سيارة قريبا . .

فقالت بخبث أيضا:

ـ المشى فى الرحلات ألذ . .

وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمى، وقال له إنه كان زميله فى البعثة، ووعده أن يوصيه به خيرا. وضايقته هذه الصلة التى لم يتوقعها، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سر زواجه؟؟ وشعر بيد ثلجية تقبض على قلبه. ولما كانت الزيارة للتعارف فأحب ألا تطول أكثر مما طالت، ونهض مستأذنا فى الانصراف . .

* * *

وفى طريق العودة قالت له إحسان وهى تنفخ:

ـ أعوذ بالله منك . .

فقهقه ضاحكا، وقال بسخرية:

ـ كونى جسورة. الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلا أنه ذو فوائد.

ـ وإذا انكشفنا؟؟

فقال بضجر:

ـ وإذا . . وإذا . . دائما وإذا . . إذا هذه حرف خيبة إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبط همة الفاعل، لا تقولى وإذا . .

فضحكت إحسان وقالت :

ـ حرم البك قريبك سيدة لطيفة!

فاختلس إليها نظرة ماكرة وقال بخبث وشيطنة :

ـ وتحية؟ . . يا لها من فتاة كاملة!

فصمتت لا تدرى ما تقول . ثم غمغمت :

ـ أجل . .

وكان يلحظها بخبث . وسر سرورا كبيرا . وعاد إلى الشقة يخامره شعور الظافر المنتصر . وظل ذاك المساء مغتبطا حتى ناداه جرس التليفون ، وما وضع السماعة على أذنه حتى تجهم وجهه . وفتر حماسه ، كأنما ألقى على لهيب قلبه الفرح الراقص ماء بارد . كان المتكلم سالم الإِخشيدى ، وقد أخبره أن البك سيزور الشقة مساء الغد . .

٣٣

ما لجرح بميت إيلام .

جعل يردد هذا الشعر قبيل مساء اليوم الثانى وهو يتأهب لمغادرة البيت ثم تساءل متى يموت جرحه إذا؟ ! كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته ، ولكنه شعر فى اضطرابه وألمه بأن الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقذيفة إذا انطلقت من المدفع : تتفجر وتتناثر . حاول أن يستعيد رباطة جأشه وبروده . حاول أن يقول «طظ» ولكنه ، أخفق ، أو أخفق مؤقتا على حد تعبيره . وجعل يتساءل ترى هل علمت؟ . ثم نظر إلى التليفون فرجح أن يكون طير إليها النبأ السعيد! فالتليفون هو القواد الثانى فى هذه الشقة؟ ترى ما حقيقة شعورها؟ ! أمسرورة هى بذاك اللقاء المرتقب؟؟ . . أتنتظر على لهفة أم بغير مبالاة؟؟ . . أيحطم هذا الرأس الجميل كما تحطم جوزة الهند ليرى ما فيه؟ وتلوث حية الغيرة فى قلبه نافثة سمها القتال ، وغادر البيت . وسار فى شارع ناجى على غير هدى ، وقصارى ما يطمح إليه أن يمسك زمام عقله ، أو أن يثوب إلى رشده . ووجد نفسه أمام حانة «لاروز» فمال إليها بلا تردد ، كأنها هى هدفه المطلوب ، وكان طلاب الجعة يتقاطرون عليها فرارا من جو يوليو القائظ ، متهافتين على الجزء التابع لها من الطوار ، ولكنه كره الازدحام ، وانتبذ مكانا داخلها ، فلم يلق حوله إلا شابا يجلس إلى مائدة غير بعيدة منفردا بكأسه ، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه كان يرفع الكأس إلى شفتيه الممتلئتين ، ويفرغها حتى الثمالة ، ثم صفق يطلب أخرى .

شرب بشراهة لا عهد له بها، وإن كان يوجد فى حانة لأول مرة فى حياته. وما انفك عقله متفكرا مشغولا لا يغيب به عما حوله. ولم يكن غضبه لاضطرابه بأقل من اضطرابه نفسه، كبر عليه أن يأسى على معنى تافه من المعانى التى ثار عليها وكفر بها. أغضبه حقا لعرضه؟.. وما عرضه؟؟. ألم يتحرر من هاتيك الأغلال جميعا؟؟ كلا إنه لا يغضب لعرضه. ولا عرضه بالشىء الذى يستحق الغضب، ولكنه يعانى الغيرة. وتفكر مليا، ثم عاد يحادث نفسه: هل الغيرة طبيعية أو تقليد اجتماعى كالعرض؟؟. بل صفة طبيعية بلا مراء. إن الحيوان يعانى لأواءها كالإنسان سواء بسواء، فنحن نغار ما دمنا نحب، وما دمنا نرى أنفسنا جديرين بأن نحب كذلك. هكذا حدث نفسه ولكنه لم يقتنع كل الاقتناع، ولا ارتاح الارتياح كله، بقى فى النفس شىء. ألا ترى أن هذه الغيرة توشك أن تفسد عليه جميع ما أفاد من فلسفته وتحرره؟؟. إنه ينتقد ويحلل ويحطم، ولكن وراء ذلك تتخايل لعينيه أشباح مخيفة: سيارة تقف أمام عمارة شليخر، ينزل منها البك الأنيق، المصعد، الجرس، باب الشقة يفتح، مساء الخير أيها العروس.. جاء زوجك الطبيعى، ثم.. كيف تلقاه؟. فى نفس الحجرة وعلى نفس الفراش... وصفق بشدة يطلب كأسا جديدة ولاحت منه عند ذاك التفاتة إلى الشاب المنفرد بكأسه - بكئوسه - فوجده يحدق فيه بدهشة وسرور، فقد راقبه الشاب منذ حضوره، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته غير الإرادية، ويتساءل عما يقلقه، ولكن فى سرور ولذة شأن المنتشى الثمل. ولما التقت عيناهما ابتسم فابتسم له محجوب والسكارى سريعو التعارف، إلى بعض وإن كانت مودتهم سطحية، فتبودلت التحية، وبدا الشاب الغريب وكأنه يلوذ بصاحبه من وحدته التى جعلها السكر أفظع من أن تحتمل، وعاذ به محجوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته، وسرعان ما جلسا وجها لوجه، شابين ثملين لا يقيمان لشىء وزنا. وتعارفا. ثم قال الشاب الغريب:

- رأيتك آخذا فى حديث عنيف مع نفسك، فوددت لو حملت عنك بعض هذا العناء..

فضحك محجوب ضحكة عالية جدا دلت على انفلات الزمام من يده، وسأله:

- أحقا كنت أحادث نفسى؟

- أجل. وكنت محتدا.. بل حانقا..

وكان لابد أن يتكلم، لأنه دعا بمتكلم: ولأنه أراد أن يروح عن نفسه، ولم يجد فى ذلك من بأس، فحالته وحالة صاحبه آذنتا بحديث أهوج ماجن لا يعرف الحدود. سأله:

- ومتى يحادث الإنسان نفسه؟

- فى أحوال نادرة..

- اضرب مثلا.

ـ فى السرور الفائض والحزن البالغ أو فى حالات لا هى إلى السرور الفائض ولا الحزن البالغ!

ـ وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت؟؟

ـ الحالات التى يحادث الإنسان فيها غيره . .

فقال محجوب متحيرا وهو يقبض على كأسه :

ـ لا أكاد أفهم شيئا . . .

ـ ولا أنا! . . فى مجلس الأنس، كما فى مجلس النواب، ليس بالمهم أن تفهم ما يقال، ولكن المهم أن تتكلم.

ـ كيفما اتفق؟؟

ـ وكيفما أحببت . . . !

ـ ولذه الاقتراح، فطرح التفكير ظهريا، وراح يقول وقد احمرت عيناه الجاحظتان من الشراب :

ـ أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل . .

ـ كتب محمد الدرس . .

ـ اعمل لدنياك كأنك تموت غدا، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا.

ـ ولكنك لن تعيش أبدا، وربما لم تعش حتى مطلع الصباح، لأنك تفرط فى الشراب . .

ـ إذا نطلب كأسًا أخرى . .

ـ علام يدل امتلاء الحانات بالواردين؟

ـ يدل على أن دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠ .

ـ أتحسب أن دستور ١٩٢٣ يعود؟

ـ أين هو الآن؟

ـ فى ضريح سعد مع جثث الفراعنة.

ـ فليحفظوه هنالك حتى نستحقه.

ـ هل أنت وفدى؟

ـ كلا . . . أنا حنبلى!

ـ وأى فرق بين الاثنين؟

ـ الحنبلى ينقض وضوءه خيال الكلب.

ـ والوفدى؟

ـ ينقض وضوءه خيال الظل .

ـ إذا أنت حر دستورى!

ـ أنا؟ . . أنا فى الحقل . . !

ـ أنت كبش إذا ذو قرنين!

واضطرب محجوب، وبهت، وكأنه يستيقظ من هذيانه على مطرقة، وحدج صاحبه بنظرة ملتهبة، لكن وجده يبتسم منشرح الصدر، متأهبا لتلقى كل ما يقذفه به، فحمل نفسه على السرور حملا، وسأل الشاب الغريب .

ـ خبرنى . أحق أن القواد فى نعيم؟

وتضاحك الشاب، ورأى محجوب يرمى فى الموقد حطبا، فرغب أن يعاونه وقال :

ـ حالك خير دليل!

فضحك محجوب ضحكة عالية ارتج لها المكان وقال :

ـ حدثنى بما لك من خبرة عن أنواع القيادة .

ـ قيادة عمياء لا يدرى بها ضحيتها من النوع الذى ابتلى به زوج عشيقتى . . .

ـ واحد .

ـ وقيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارا للسلامة، وهى موضة منتشرة فى بعض الأوساط .

ـ اثنان .

ـ وقيادة يختارها الزوج للذة أو لفائدة . هل أنت متزوج؟

فعاوده الضحك، وأغرق فيه ليخفى توتر أعصابه، ثم قال بحقد خفى :

ـ يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معا وهو وقف عليك : كنت أول الأمر تجهل ما أنت مبتلى به، ثم تكشف لك فتجاهلته إيثارا للسلامة، ثم تعودته فاستلذذته .

وأغرقا فى الضحك معا . ثم قال الشاب الغريب بلهجة ظاهرها الجد وباطنها المزاح :

ـ الواقع أن القيادة من أعقد مشكلات الزواج فى العصر الحديث .

ـ الحقيقة أن الزواج من أعقد مشكلات القيادة . .

ـ صدقت، ألا ترى كيف يضرب الشبان عن الزواج؟؟ ولكنهم يشتركون فى الأسر من منازلهم . .

ـ الانتساب ألذ بلا تكاليف . .

وهذيا طويلا، بلا ملل ولا تعب حتى أوشك الليل أن ينتصف . . .

وطاب له أن يخبط فى الشوارع على غير هدى قبل أن يعود إلى البيت. وغمغم كالمترنم: «أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل» ثم راح يقول: «أنا فى الحانة والبك فى الحجرة» ولكنه كان فى منتهى النشوة والسرور، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تذوب فيها جميع الأحزان. وبدا له وكأن شيئا فى الدنيا لا يساوى مثقال ذرة من الكآبة، وآتته قدرة يمكنه أن يحقق بها فلسفته إذا شاء بلا تردد ولا تفكر ولا انفعال. وقد أدرك فى تلك اللحظة أن فلسفته والخمر كلتيهما من جوهر واحد! وعاد إلى البيت، ودخل الحجرة، كان كل شىء هادئا ساكنا، وهى مستغرقة فى نوم عميق. ووقف فى وسط الحجرة يحدق فى وجهها بعينين محمرتين ذابلتين ولبث واقفا حتى خال الأرض تدور به. وخطر له خاطر فسر به دون أن يتدبره، ونفذه بأسرع مما خطر له. دنا من الفراش، ثم ارتمى عليها بجسمه كله كأنه يلعب حركة سويدية: واستيقظت إحسان فزعة، وفرت من فيها صرخة، وحملقت فى وجهه بعينين مرتعبتين، ثم دفعته بعيدا عنها وقد أخذت تدرك حقيقة الحال. دفعته بغيظ وحنق، وصاحت به:

ـ أنت سكران.. كدت تقتلنى.. ابعد..

فجعل ينظر إليها بذهول مالئا عينيه من وجهها الساخط الغاضب، ثم ابتسم، ابتسم ابتسامة لا معنى لها، أو ابتسم سرورا بما أحدث فيها من ألم وغيظ. وزاد حنقها وتضاعف، وقالت بحدة:

ـ كسرت أضلعى بجنونك، فابعد عنى... أنت سكران، لا تنم فى هذه الحجرة...

وظل الابتسام مرتسما على شفتيه، ثم فرت من فيه ضحكة خفيفة، ولما تضاعف غضبها أغرق فى الضحك حتى زلزل كيانه..

٣٤

فى صباح اليوم الثانى استيقظ فى ساعة متأخرة، ونهض متعبا مصدع الرأس، وكان نام ليلته على الشيزلنج، فنظر فى الفراش بعينين خائفتين، ولكنه وجده خاليا، وتذكر ليلة الأمس، فهالته الذكرى: ثم هز منكبيه استهانة ومضى خارجا، والتقى بها فى الصالة فطالعته بوجه مقطب فارتبك حينا، وابتسم غاضا من بصره، وسألها بلهجة لطيفة:

- لا زلت غاضبة؟

فقالت بحدة :

- السكر يجعل منك وحشا مجنونا ، لا تسكر أبدا ، شرب كأس . . كأسين كما نفعل شيء محتمل ، أما أن تعود بعد انتصاف الليل ثملا تترنح وتسلك مثل ذاك السلوك الشائن فشيء لا يحتمل . .

وانتقلا إلى حجرة السفرة ، وتناولا فطورهما ، في سكون بادئ الأمر ، ثم تبادلا بعض الكلمات ، وغادرا الحجرة فى حالة طيبة . وذهب إلى الوزارة قبيل الظهر ، وكان البك قد سافر إلى الإسكندرية ذلك اليوم يمضى بضعة أيام فى بولكلى . فجلس فى حجرته يطالع الجرائد ، وبعد مضى برهة وجيزة استقبل زائرا لم يتوقع حضوره ، فتح الباب ، فرفع رأسه عن الجريدة ، فرأى مأمون رضوان قادما نحوه ، ولاحت الدهشة فى وجهه ، ثم نهض هاشا باشا ، وتصافح الصاحبان بحرارة ، وجلس مأمون وهو يقول :

- مبارك . . مبارك . .

فأدرك محجوب أنه يهنئه على الوظيفة ، وسر لذلك أيما سرور ، وقال :

- الله يبارك فيك ، حسبتك فى طنطا . .

- عدت من يومين لشئون خاصة ، وقابلت ليلة عودتى الأستاذ أحمد بدير فى نادى الجامعة فأنبأنى بتعيينك ، وسررت لذلك سرورا عظيمًا . .

أحمد بدير . . انقبض صدره لذكر هذا الاسم الخطير ، وتساءل فى نفسه : ترى ماذا يعلم هذا الصحافى المحيط بفضائح المجتمع؟ . . ماذا قال لمأمون رضوان؟ . وحدج صاحبه بنظرة عميقة ، ولكنه وجده هادئا صافى النظرة كالعهد به ، يشف منظره عن باطن نقى طاهر لا تقربه أخبار السوء . واصطنع ابتسامة وقال متسائلا :

- وكيف حال الأستاذ؟ . . لم أقابله منذ عهد ليس بالقصير ولم يأت لتهنئتى .

فابتسم مأمون وقال :

- غابت عنك أشياء ، لقد نشر خبر تعيينك - كما قال لى - فى جريدته ، وهو يعتبرك مدينا له بالشكر .

وتحدثا عن البعثة ، والوظائف الإدارية والفنية ، ومهنة التدريس فى الجامعة والمدارس الثانوية ، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه ، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية ، وقال لصاحبه : إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب . وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر ، ولكنهما أدليا بآرائهما فى يسر وتسامح وجرَّ الحديث بعض الشئون الخاصة

فاعترف مأمون أنه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلق بزواجه. وعندئذ أخبره محجوب بأنه تزوج!. وهنأه الشاب مرة أخرى، ودعا له بالتوفيق، ثم قال:

- قابلت صديقنا على طه أمس ومكثت معه مدة طويلة...

وخفق قلب محجوب لهذا الانتقال المفاجئ، وساوره القلق، ترى هل أدى الحديث إلى على طه كيفما اتفق؟ أم علم على بزواجه وحدَّث به مأمون؟ لم يكن من الممكن أن يظل زواجه سرا، وكان حتما أن يعلم به على طه يوما ما، ولكن كيف انتهى إليه؟ وكيف فسَّره؟ ونظر إلى مأمون، فالتقت عيناهما، وقرأ في العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب، فلم يعد يخالجه الشك، إن عيني مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع، وهما تسألانه بلسان فصيح: «أحقا ما يقال؟ هل خنت صديقك حقا؟». ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال، فقال متسائلا:

- وكيف حاله؟

فقال مأمون برزانة:

- على ما يرام..

وساد الصمت برهة، وأطرق محجوب. لقد صدق حدسه ما في ذلك شك. ولكن لأى مدى عرفت الحقيقة؟. إن الذين يعرفون الحقيقة - آل إحسان والبك والإخشيدى - لا يمكن أن يبوحوا بها لمخلوق، لأن البوح بها ضار بهم. ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلا لاحتقاره، وهو ما جاءه إلا ليسمع دفاعه عن تهمة صديقه - تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعا في وظيفة - هذا هو الحق المبين. وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعبأ بحزن على، ولا هو يعبأ برأى مأمون فيه. ونظر إلى زائره بجسارته المعهودة وسأله:

- ماذا يسوؤه؟

ولم يدر مأمون ماذا يقول، فعض على شفته مرتبكا ولاذ بالصمت. فضحك محجوب ضحكة فاترة كأنه يجيب نفسه:

- زواجى.

فتساءل مأمون بلهفة:

- هل حقا...؟

فقال محجوب باقتضاب:

- تزوجت حقا من جارتنا القديمة إحسان شحاتة تركى..

فلاحت في وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج، فابتسم محجوب وقال:

ـ ولكنى لم آت نكرا . . .

وقص عليه كيف فترت العلاقة بين على وإحسان حتى انقطعت، وأكد له أنه لم يتقدم لطلب يدها إلا بعد ذلك .

وسأله مأمون بصراحته المعروفة :

ـ لست مسئولا عن فتور العلاقة وانقطاعها؟ .

فقال له محجوب بلهجة التأكيد :

ـ مطلقا .

وانتهت الزيارة عقب ذلك . وشعر محجوب وهو يصافح مأمون أن الشاب يودعه الوداع الأخير، وما إن سمع صفقة الباب وهو يغلق حتى بصق باحتقار وغضب، وغمغم بحقد شديد «طظ» .

٣٥

واستقلى بعد الغداء فى فراشه دون أن يغمض له جفن . ونامت هى كالعادة إلى جانبه فجعل يستمع إلى تنفسها المنتظم الذى ألفه . ثم استسلم لتيار أفكاره العارم الذى حرمه لذة النوم . اليوم هجره مأمون، وبالأمس هجر هو على طه، فانقطعت صلته بأقرب الناس إليه .

ولم تكن الصداقة يوما بالشىء الذى يحرص عليه، ولكنه يشعر بالغربة والوحدة، وبأنه فى واد والدنيا كلها فى واد . أجل لم يرع صداقة إنسان، ولكن أكثر من إنسان رعى صداقته فهيأ له شعور الأنس بالناس . أما الآن فالخيوط الواهية التى تصله بالناس تنقصف واحدا إثر واحد، ويهوى هو إلى وحدة عميقة . ومن قبل كانت غرابة آرائه سببا فيما يعتريه الحين بعد الحين من شعور الوحشة، فلما جازف بتحقيق بعض آرائه تضاعف شعور الوحشة، وأحس أنه فى واد والدنيا كلها فى واد، وتساءل فى جزع : كيف يطرد سحائب الوحشة عن صدره؟ . . ليس فى عالمه فرد واحد يوده . هولاء الموظفون الذين يتصل بهم لا يقرون إلا نوعا من الزمالة الإجبارية . وسالم الإخشيدى لا يبالى شيئا غير منفعته . فأين يجد الدواء؟ . وألقى ببصره إلى جانبه فرأى الوجه النائم، وسمع التنفس المنتظم . أجل، هى العزاء . وهى السلوى، خلاصة ما بقى له من دنياه، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئا . وحقيقة قلقه اليوم ليست ناجمة عن قطيعة مأمون له، بقدر ما هى ناجمة عن تذكر على طه وهواه . غدا قلبه فريسة للغيرة، ولم يعد يؤمن بأن الأمر

مجرد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلما سئل عن الحب أو المرأة. كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفا قويا، فلعله كان نتيجة للشعور بالوحشة، أو لعله كان سببا فيه. ولم يكن - حتى فى حالته تلك - يؤمن بالحب كما عرفه على طه. ولم يعرج ببصره إلى السماء قط، ولا حلم بالمثال والأوهام. بيد أنه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوة مستبدة غشوم. لا تقع بمجرد بلوغ الجسد، ولكنها تطمع فى أن تستبد كذلك برغبته وميوله وهواه، فتكون رغبة مبتادلة، وحنينا متبادلا، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنه بدد الوحشة وفاز بالعزاء. هذه القوة المستبدة الغشوم تهزأ بالعقول الراجحة والنفوس المتعجرفة والفلسفات الساخرة. وابتسم ابتسامة المتهكم وجعل يقول تبًا لهذه الغيرة الحقيرة.. ما جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها لمجرد إغضاءة من هذا الحيوان اللطيف.. ولم تخف عنه حقيقة مشاعره الجديدة. لقد قبل الزواج بادئ الأمر على أنه مساومة نفعية، وأراد أن يتغلب على وضعه الشاذ بحريته المطلقة وطموحه اللانهائى، ولكنه يطمع الآن فى أكثر من جسد زوجه، يطمع فى عواطفها ولو أن حظه كان جمعه بغير إحسان - الفتاة التى أحبها قديما - لربما كان الحال غير الحال. أما إحسان فلا يملك إلا أن يحبها؛ وقد تكدر صفوه بهذه الأفكار. رأى فيها نذيرا يهدد كيانه وحياته، وقال لنفسه محزونا: عسى أن تكون آثار مرض وقتى أحدثته الوحشة المخيفة.

* * *

وحين العصر جلسا معا فى الشرفة يشربان القهوة. ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتى بدا تعبا قلقا. وجعل يتفرس فى وجهها بعينيه الجاحظتين حتى لاحظت ذلك، كما لاحظت تعبه وقلقه وحدست أسباب ذلك، وظنت أنها ترجع جميعا لليلة أمس. فلم تنبس بكلمة، ولكنها ألقت عليه نظرة متسائلة. وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال:

- لم أنم ظهرا..

فسألته وهى تتظاهر بعدم المبالاة:

- ولمه؟..

ولكنه لم يجب سؤالها، وشعر بقوة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذى يغشاه ويحيره، فثبت عليها عينيه وقال:

- أنت سر يجب أن أعرفه..

فلاحت الدهشة فى وجهها الجميل الذى لم يكن أفاق تماما من أثر النعاس. وتمتمت:

- سرّ!.

- أجل. يجدر بنا أن نتكاشف.

ـ نتكاشف! . .

فلم يعبأ بدهشتها وحسبها تظاهرا، ثم قال:

ـ حياتك تثير فى النفس أسئلة محيرة . .

فأغضت دون أن تتكلم وبدا على وجهها الوجوم، ولكن قوة مهما بلغت من الشدة لم تكن لتثنيه عما اعتزم، فقال:

ـ التكاشف فى حالتنا لا يقدر بثمن. ينبغى أن يفهم كلٌ منا صاحبه لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة، اذكرى دائما أننا شريكان، وأن كل شىء ما خلا هذه الشركة زائل . .

فأخذت آخر رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى نضد بينهما دون أن تنبس بكلمة أو تبدى رغبة فى الكلام. فاستطرد متسائلا بجرأته:

ـ لماذا فعلت ما فعلت . . ؟

فاحمر وجهها وقالت بحدة:

ـ ولماذا قبلت؟ . .

فقال بسرعة وبلهجة لينة توحى بالاعتذار:

ـ أنا لا أحاسبك، ولكنى أريد أن أفهم . . لماذا؟ . . ألم . . ؟

وأغلق فمه مرغما وقد تورد وجهه، ثم استدرك قائلا:

ـ على طه . . ؟

وطعنته وبسرعة اللهجة الحادة الغاضبة:

ـ لا محل لذكره . .

فسألها بصوت خافت:

ـ وقاسم بك . ؟

وقطبت، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال، ثم قالت بحدة:

ـ حملنى على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج . .

وأحس ارتياحا لهذا الجواب، وقال بلين:

ـ لا تغضبى. أنا لا أحاسبك كما قلت لك، بيد أنى أريد أن أعرف، ألا . . أعنى هل . . ، أعنى قلبك: أجل قلبك! . .

ـ قلبى! . . إن هذا التكاشف لن ينتهى بشىء، أو هو لن ينتهى بخير. قلبى؟! . . عم تتساءل؟! . . ألسنا . . . سعداء!

ـ بلى . . بلى . .

قال ذلك بسرعة، وتفكر مليا. ثم سألها بجرأة عجيبة:

- وإذا منعتك عن البك؟

فنفخت باستياء، وقالت:

- أطيع زوجى..

وشعر بما فى إجابتها من تهكم فأدماه جرح عميق، وتساءل عما جناه من تحقيقه الجرىء. فوجد نفسه حيث بدأ فى حيرة وقلق، وأدرك أن على طه لا يزال مبعث غضبه وحنقه.. «لا محل لذكره» ما معنى هذا، وقد قالتها بغضب!

غضب لحالة التدهور العامة التى انتابته، لماذا لا يقاتل هذه العواطف الخبيثة حتى يقتلها؟ أيستسلم لما يستسلم له الحمقى من بنى آدم؟!.. فلتحب على طه أو فلتحب قاسم بك. وليأت البك كل ليلة إذا أراد، وليلقين كل ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة والعبث. هذه هى مسألته بلا زيادة ولا نقصان. بيد أن طموحه لا يجوز أن يقف عند حد: لكل داء دواء، ودواء العزلة التى يعانيها المجد والخمر! يُسطى عليه فينبغى أن يسطو على الناس!. وغداً يلتمس بيوت الفجور ويعشق النساء ألوانا!. فإذا انكشف سر زوجه يوما طمع أن يقال: إن زوجها أفسدها باستهتاره، وإنه شاب فاجر لا شىء آخر!. وتنهد فى شبه ارتياح لما انتهى إليه تفكيره، غير أنه لم يطمئن إلى الارتياح طويلاً. ذكر - متجهما - أنه يخاف الناس دائما، وأنه يخافهم أكثر مما ينبغى، وأنه يخافهم على الخصوص خلاف ما تقضى به فلسفته، ففيم التخبط والحيرة؟! ومتى يبلغ بحياته أقصى الكمال الذى ينشد؟..

٣٦

ولم يعد لمثل ذلك الحديث مرة أخرى، وبذل قصاراه فى تجنب ما يعكر الصفو ويبلبل الخاطر. وكان إذا قاتل عن سعادته قاتل بعنف ويأس غير مبق على شىء. وإذا كانت الحياة الزوجية لم تتح له، فقد قام بدوره خير قيام، كما يقوم الممثل بدوره خير قيام حتى لينسى نفسه فيضحك حقا ويبكى حقا. ظهراَ أمام الناس كزوجين سعيدين، فلم تَعُز أحدهما الرغبة فى التوفيق والتلهف على السعادة، أما حين يشعران جفوة أو برودة فكأس أو كأسان يصلحان ما يوشك أن يفسد. وقد صدق عزمه على أن يشغل وقته كله بحياته الجديدة حتى لا تجد الوساوس فرجة إلى قلبه. وكانت وظيفته تستغرق جل نهاره، ففكر أن يقتحم الحياة الاجتماعية التى بدأها بزيارة آل حمديس - ليشغل ما يبقى

من وقته . . وليجنى من متع مظاهرها ما تجود به على مثله . وحادث فى ذلك إحسان ، وانتهز فرصة سانحة يومًا فقال لها :

ـ عرفت جماعة من صفوة الموظفين الشباب وبعض الأعيان وقد دعانى أحدهم ـ دعانا معا ـ إلى حفل سيقيمه لعيد ميلاد ابنه ، فقبلت الدعوة بسرور . . !

فرفعت عينيها الدعجاوين ولم تدر ماذا تقول ، فعاد يقول بحماس :

ـ لا ينبغى أن نقبع فى دارنا ، انظرى إلى الإخشيدى كيف يعرف وجوه المجتمع العالى جميعا ، وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته وأسس مستقبله؟

وكانت فى أعماقها تتوق إلى التسلية والعزاء والسرور ، وترغب فى أن ترى وأن تعرف وأن تتناسى ، فرحبت بالاقتراح ، وقالت وقد سبقتها ابتسامتها إلى الموافقة :

ـ لنذهب . .

فسر الشاب ، كان يهوى دائما أن تشاركه اهتمامه وآماله . وكان يشعر دائما بغريزته بأنه إن نجح فى جذبها إلى محيط أطماعه فقد ضمن فوزا عظيما . لذلك سر ، وقال :

ـ إن مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحالة الجسور لا يمكن أن يعود خالى اليدين . . وإن لى من وظيفتى لمركزا ممتازا ، وإن لك من جمالك لمكانة سامية . .

وذهبا معا إلى حفل الميلاد . وأحدثت إحسان بجمالها الفاتن أثرا بالغا واستعان محجوب بجسارته على تمثيل دوره ، ولم يعجز عن خلق الفرصة المناسبة لإعلان قرابته بأحمد بك حمديس . وعاد وقد ظفرت إحسان بإعجاب شاب وجيه يدعى على عفت ، وقد دعاهما الشاب بعد يومين إلى بنوار بمسرح الفانتزيو . .

وتقضت الأيام الباقية من يوليه فى حياة مرحة حارة ، فارتادا السينما والصالات الصيفية . ودعى هو إلى البوديجا وجروبى وصولت . وأفضى بسروره يوما إلى الإخشيدى ، فقال وهو يمط بوزه استهانة :

ـ الطبقة العالية الآن خارج القطر . وستعود الحياة الحقيقية إلى القاهرة فى أواسط أكتوبر . .

وقد هاله الأمر ، ولكنه قنع بمعارفه الجدد ، ولعلهم أن يكونوا أدنى إليه ـ أو لعله أن يكون أدنى إليهم ـ من أولئك السائحين فى بطون القارات الحية . بيد أن أمرا واحدا أزعجه ، هو تكاليف هذه الحياة المرحة الممتعة . هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء ، وأن يقتنى الأنواع النفيسة ، ويختار الألوان الجميلة : مع ملاحظة الوفرة حتى لا تقع العين الناقدة على شىء واحد مرتين ، ولم يلق بين أولئك الشبان من يتحدث عن العروبة ، ولا من يناقش الاشتراكية أو أجست كونت . ومن بينهم جامعيون

كثيرون ولكنهم متأقلمون ، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة . ووجد نفسه يهوى إلى التدخين ومشاهدة ألعاب القمار .

ولكن كيف يواجه هذه الحياة بمرتبه الصغير ؟ ! . . أجل إن قاسم بك يقوم بنفقات البيت والزوجة ! ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو ، وهى تتسع يوما بعد يوم وتتنوع ساعة بعد ساعة ! . وقد تفكر فى ذلك طويلا ثم قال لنفسه : «أمثالى يرتقون سريعا فى الحكومة ، فلا يجوز أن أتخلف عنهم ! » .

وطابت حياة المجتمع لإحسان . استهوتها بما فيها من تسلية ومرح وفرص للظهور والمباهاة واستثمارات للإعجاب . وجذبت اهتمامها نحو أمور جديدة فبثت فى حياتها روح العناية والحماس ، وأنقذتها من تأمل حياتها ـ ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ والاستسلام للفكر . سرورها ما صادفها من نجاح ووداد . وكان قاسم بك فهمى مغرما بها غراما جنونيا ملك عليه نفسه ، فجرى وراء هواها غير عابئ بمركزه أو أسرته أو أبنائه . وأنفق عليها عن سعة حتى صارت زينة كل مجلس بفضل جمالها ولباسها . تلك حياة ، أما القبوع فى البيت تنتظر أحد رجليها فهو فوق ما تحتمل . بيد أنها رغم كل ذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة خلا من الحب قلبها . لم تكن تحب البك ، ولم يعد لسحره العجيب من سلطان عليها ، والأرجح أن سحره زال مذ آنست غدره . ولعلها انطوت له عن موجدة وحقد ، إلا أنها حرصت عليه حتى لا تذهب «تضحيتها» هباء . وكانت فتاة ذات طبيعة عملية فأودعت الماضى مدارج النسيان ، وولته ظهرها ، غير عابئة بغمزه على قلبها الحين بعد الحين ! فالماضى المولى ورمزه الجميل ـ على طه ـ شيئان لا يعودان . وركزت اهتمامها فى زوجها ، فهو شريك حياتها ، وهو قرين حاضرها ومستقبلها ، وقد استأدته الحياة ـ مثلها ـ تضحية فظيعة ! وإنه ليهدف ـ مثلها أيضا ـ إلى غاية واحدة ، ثم إنه بعد هذا وذاك شاب يمكن أن يحب ، وأن يهب الحياة الزوجية السعيدة ، فكانت تشجع محاولاته فى سبيل سعادتهما المشتركة ، تشاربه وتبادله القبلات وترجو أن ينتهى التمثيل بحياة حقيقية ، ولو كان مزاج إحسان حيوانيا بحتا لبلغت ما تحب من سعادة ، ولكن ما زال قلبها متشوقا إلى حنان ومودة لا يجدهما فيما تتيح لها حياتها من لذة وترف . لذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل ، وكلما ألح عليها هذا الشعور تمادت فى التهالك على حياة المرح والترف حتى فاقت زوجها فى طموحه .

وكانت تغادر بيتها عادة كل صباح عقب خروج زوجها إلى عمله ، إذ كانت تضمر للبيت نفورا جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها . وكانت المحال التجارية الكبرى هدفها المختار ، تنتقل بين معارضها ، وتضرب فى طرقاتها المزدحمة ، وربما ابتاعت حاجة مما يلزمها ، غير ملقية بالا إلى الشبان الذين قد يتعرضون لمغازلتها . وما حاجتها إلى رجل جديد وفى بيتها رجلان ؟ . . وفضلا عن ذلك فقلبها كان يحدثها دائما

بأنها ستألف زوجها يوما ما وتحبه وتخلص من حيرتها جميعا . أما إذا تمكن منها الملل وأدركتها السآمة فربما خرجت عن حكمتها ، وذكرت مثالب حياتها ـ والديها وزلتها وحياتها الراهنة ـ فاجتاحتها موجة تمرد ثائرة وحدثتها نفسها بالجرى وراء اللذة حتى قرارة بؤرتها ، ولكنها لم تفعل . كما أنها لم تتخذ قراراً نهائيا كما فعل محجوب فى مثل ظروفها تلك : كانت تتسكع كل صباح كالمتعطلين وربما استقلت الترام أو الأوتوبيس إلى بعض النواحى النائية ذهابا وإيابا . وعلمت يوما أن إحدى صديقاتها ستنتقل يوما مع زوجها إلى مفوضية روما . فأثر فيها الخبر تأثيرا عجيبا ، وتمنت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعا . فما أجدر مثل هذه الحياة النشيطة أن تنسى كل ذى هم همه ، وأن تسدل على تفاهة الحياة ستاراً كثيفا . وقالت لمحجوب وكان قد علم الخبر :

ـ ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما . . !

فسألها بدهشة :

ـ هل ترغبين فى السفر حقا؟

ـ أجل . . لم لا؟

فقال وقد ابتسمت شفتاه :

ـ والبك؟

ـ عسى أن يكرمنى بهذه الخدمة فيما بعد . .

وأدرك ماتعنيه بقولها «فيما بعد» ، فهز كتفيه وقال :

ـ إذا فتر هواه يوما فلن يفعل شيئا مطلقا . .

والتقت عيناهما فى نظرة ذات معنى ، وأراد أن يستغل الفرصة السانحة أبعد استغلال فقال :

ـ إنه الآن يذعن لرغباتك فلا تفلتن من بين يديك هذه الفرصة الجميلة . الفرصة السعيدة لا تسنح فى عمر مرتين : تناسى هذه الرغبة الفجائية فى السفر فهى رغبة خيالية ، واعلمى أنك إذا فقدت حبه يوما فستلقين الحياة عابسة متجهمة . إذا لم نحسن الاستفادة من ظروفنا فسنضطر غداً إلى مغادرة حينا هذا إلى حى فقير . وليغلقن المجتمع الراقى أبوابه فى وجوهنا ، ولنكونن أضحوكة المتندرين ، فينبغى أن نحتاط للمستقبل البعيد . .

وتفكر فى كلامه قليلا فوجد أنه يتكلم كما يتكلم القوادون بيسر وبغير مبالاة . وسر لمقدرته ، وعدَّها فوزا مبينا لفلسفته وإرادته . وتفكرت إحسان فى كلامه طويلا ، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر . .

٣٧

وجاء أول أغسطس، وقبض أول مرتب له من الحكومة، وهو مرتب لم يكن ليحلم به أيام الجوع، فمن عجب حقا أنه لم يسر به! . توزعته المطامع وتعددت رغائبه فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع. وذكَّره المرتب بوالديه اللذين ينتظران على لهفة نصيبهما من مرتبه، لا شك أن مكافأة والده نفدت، ولعله يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو فى فبراير الماضى، وسيعجز حتما عن أداء إيجارة المسكن، وربما وجد والداه نفسيهما بلا ماوى وبلا طعام. ما عسى أن يفعل؟

كان حكيما بلا ريب حين قرر أن يخفى عن والده تعيينه، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدى ألا يذيع الخبر فى القناطر حتى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب، ولكن متى يجىء الوقت المناسب؟. إن مرتبه لا يفى بتكاليف هذه الحياة الراقية، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغى، فإذا تنازل لوالديه عن جنيهين أو ثلاثة اختل ميزانه وافتضح أمره وانهارت آماله! فكيف يواجه هذه الصعاب؟! وتولاه الغضب كان دأبه الغضب إذا تحير أو ارتبك، كأنما يعتقد فى قرارة نفسه أن لا شىء يستحق الحيرة أو الارتباك، ولكنه ذكر على رغمه والديه، وتماثلت له صورتهما، أبوه على فراش المرض - ولم تحرك هذه الصورة نفسه إلا بقدر يسير - وصورة أمه بعينيها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به وبمستقبله، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيلته فلم يفلح، فأجمع على أن يقهر ما توقظه فى نفسه من عاطفة بقوة وصرامة. لم يكن حبه والديه دافعه الأول إلى التفكير فيهما، ولكن شعوره بالتبعية نحوهما كان الدافع، وفطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه. ألا يزال يعلق بنفسه شىء من الأوهام؟. ما البنوة؟ أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الأسرة؟ بلى، وسيكفر بها كما كفر بأخوات لها من قبل، ولن يراعى إلا ذاته ومجده ولذته. . وتساءل لماذا يعيشان؟ وما فائدتهما فى هذه الحياة؟ وما معنى الحياة لهما؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويريحان؟ البر بالوالدين شر إذا عاق سعادة الابن، بل كل ما يعوق سعادة الفرد شر. هذا واضح بيِّن، وهو يؤمن به إيمانا عميقا، ولكن ماذا هو فاعل؟ أيقطع كل صلة له بالقناطر ويترك والديه يلاقيان مصيرهما وحدهما؟ وكيف يدبر لهما النقود التى يحتاجان إليها؟ الواقع أنه لا يستطيع الإنفاق عليهما والظاهر أنه لا يستطيع كذلك أن ينساهما!

وظل مغتماً متفكرا حتى غادر الوزارة، ولم يكن بتَّ فى الأمر برأى وإن كان شعوره بأنانيته لا يغلب. وعند شارع قصر العينى التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجا من إدارة الجريدة، وتصافحا بحرارة، وما لبث أن عاوده شعور الخوف الذى ينتابه كلما ذكر هذا الصديق المخيف. ومشيا جنبا إلى جنب يتحادثان كعادتهما القديمة فى طريق الجامعة وحديقة الأورمان. وسأله الشاب الصحافى عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك، وحدثه عن مشاق حياته الصحافية. وكأنما أراد محجوب أن يجامله فقال:

ـ الصحافة فن خطير، والوظيفة الحكومية بالنسبة إليها لهو ولعب.. فقال أحمد بدير بسرور:

ـ صدقت أيها الصديق العزيز، ولذلك فإنه يدهشنى أن يزهد شاب مثلنا فى العمل الحكومى ويهجر وظيفة محترمة ليجاهد فى ميدان الصحافة..

فلاح التساؤل فى وجه محجوب وتمتم:

ـ حقا؟!

ـ أجل. هو صديقنا الأستاذ على طه..

وقلقت عيناه الجاحظتان، ولاحت فيهما نظرة متجهمة، ثم داراها بالدهشة وقال متعجبا:

ـ على طه!

فقال أحمد بدير:

ـ إنه شاب جسور مثالى، فسرعان ما ضاق ذرعا بمكتبة الجامعة، واتفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلة أسبوعية للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى..

ـ والماجستير؟

فقال أحمد بدير:

ـ قال لى: لندع البحث للباحثين، ولنركز همّنا فيما هو أجل، وليكن جهادنا كله لمصر وكيف تحول من أمة عبيد إلى أمة من الأحرار..

فتفكر محجوب عبد الدائم مليا دون أن يبدو على وجهه شىء، ثم قال:

ـ الواقع أن الأستاذ على طه ذو طبيعة عملية، فهو لا يصلح للتفكير العلمى النظرى..

فلحظه الصحافى بنظرة حادة، وقال:

ـ هذا لا يعيبه. الطبيعتان على اختلافهما جليلتان. والحق أن صديقنا شاب مخلص متحمس، ولقد ركل الحياة المطمئنة ليدعو إلى مثله العليا على ما فى ذلك من مشقة

وخطورة، فليست مبادئ صاحبنا بالمبادئ التى يأمن معها الصحافى على نفسه، وربما تعرض لسفاهة السفهاء، وتهجم الجهلاء المتعصبين، وربما سيق إلى ما هو أخطر من ذلك جميعا، ماعسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكية؟

ولم يجب محجوب، ولكنه تساءل:

ـ وهل صدرت المجلة؟

ـ تصدر فى أوائل هذا الشهر.

فقال محجوب بعد تردد:

ـ وكيف جاء بالمال اللازم لمثل هذا المشروع؟

ـ أعطاه والده مائة جنيه..

فتساءل محجوب كالساخر:

ـ وهل يؤمن ذلك الوالد الموسر بالاشتراكية؟

فضحك بدير وقال:

ـ لعل الرجل يعد مشروع المجلة عملا تجاريا، فأعانه بما فى وسعه وهو وشأنه بعد ذلك..

فهز محجوب رأسه وقال بلهجة لا تخلو من الاحتقار:

ـ طالما حدثنا على طه فى دار الطلبة عن مبادئه، والحديث لون من ألوان السمر الجميل. أما أن يهجر الإنسان عمله، ويتخذ من الحديث عن مبادئه عملا قد يؤدى به إلى غيابات السجون فسلوك أقل ما يقال فيه إنه جنون، وما صاحبنا بمجنون، فكيف فعل هذا؟.. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان! وكيف حدثنا طويلا عن الإسلام؟.. ثم انظر إليه وقد جمح للسفر إلى باريس ليتأهل لوظيفة الأستاذية العظيمة.. هذا شاب حكيم..

فقال بدير بسرعة وبلهجة نمت عن الدهشة:

ـ مأمون رضوان شاب مخلص أيضا. وأؤكد لك أنه سيتم تعلمه بتفوق كالعهد به، وأنه سيكون إماما من أئمة المسلمين هذا أمر لاشك فيه..

ـ أو فيه شك كبير..

فهز بدير منكبيه، ولكنه لم يجادل صاحبه لأنهما كانا اقتربا من ميدان الإسماعيلية حيث ينبغى أن يفارقه، واكتفى بأن قال:

ـ لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه، وسيسافر الزوجان إلى الخارج فى نهاية هذا الشهر..

ها هى ذى الخطوط الأولى لهذه الحيوات المتناثرة ترسم فى صحيفة الدنيا الواسعة، ولا يدرى أحد كيف تصير فى الغد القريب أو البعيد، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير، وكل ما يدريه أن حياة أى منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحمد بدير إلا حياته، فإنها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة! . وما يعنيه ذلك فى كثير أو قليل، ولكن ينبغى أن يخاف سوء العاقبة، كما ينبغى لعاقل يعيش بين حمقى ومجانين! . ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة، ولا أن يستهين بالكآبة التى تولته. ومن عجب أنه وعلى طه نقيضان، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرق بين عابده والكافر به! . . وبلغا الميدان. وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوهين باجتماع حزب الحكومة. وتذكر الأستاذ بدير أمرا فقال وهو يصافح صاحبه مودعا:

- على فكرة. لقد فقد رئيس الحكومة عطف السراى!

فاضطرب محجوب، وذكر أن قاسم بك فهمى من رجال العهد الحاضر المعروفين وتساءل:

- والإنجليز؟

فمط الشاب بوزه وقال:

- قلب المندوب السامى قُلَّب. .

وافترق الشابان: واتجه محجوب إلى شارع سليما باشا متجهما مكتئبا. ولكن أنقذه هذا الاضطراب الجديد من الحيرة التى لازمته منذ قبض مرتبه، ولم يعد إزاء الخطر الماثل يتردد فى الحكم على والديه، فكانا أولى ضحايا الأزمة السياسية. .

٣٨

ونقل الخبر إلى زوجه، فكان حديثهما على المائدة، وفى الشرفة، وتساءلا معا: هل يبقى قاسم فهمى أو يذهب بذهاب الحكم؟ . وكان البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبية، فلم يكن ثمة أمل فى بقائه إذا استقالت الوزارة، وقال محجوب:

- إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتما إلى وظيفة مغمورة - إن لم يقذف بى إلى أقاصى الريف - وفقدت آمالى البعيدة إن لم أفقد وظيفتى نفسها. .

أكان كافح ما كافح ليجنى هذه النهاية المحزنة؟! أهذه خاتمة الجسارة والمغامرة والاستهانة بكل شيء؟ . لقد امتلأ غما وكمدا، وجعل ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئا. ولم تكن إحسان دونه غما أو كمدا. فكَّرت مثله فيما يمكن أن يتكشف عنه

الغد، وتخايل لعينيها المصير المنتظر . لم يعنها كثيرا فقدان الآمال البعيدة، ولكن كربها تزعزع الطمأنينة الحاضرة. هل تحرم هذه الحياة الناعمة الراغدة؟ . . هل ينضب النبع الذى يروى أسرتها العطشى؟ لتجد نفسها يوما فى إحدى مدن الريف ربة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه؟ .

هذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه. ولم تدر كيف تواجهها غدا إذا صارت حقائق واقعة! . ولكن الظاهر أن الخبر كان سابقا لأوانه، ولم يجدا صدى فى الجرائد التى عكفا على قراءتها بعناية. وأكد لهما كثيرون من الأصدقاء أنه لم يئن الأوان بعد. وتتابعت أيام أغسطس فى هدوء حتى ألفا الطمأنينة مرة أخرى، بل عاد محجوب يذكر والديه ويتساءل عما ينبغى أن يصنع بهما. وكان هذه المرة ذا عزيمة صادقة فكتب خطابا لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته، وذكر له أنه لا ينى عن البحث عن عمل، ووعده بفرج قريب، وقال لنفسه، يسكن خاطرها: إن الرجل يستطيع أن يصبر شهرا آخر أو شهرين حتى يدركه بالمعونة فى ظروف أنسب؟ . . ولكن الطمأنينة لم تدم. وبعث الخبر الذى أعلنه أحمد بدير أول الشهر من جديد. وتطايرت الإشاعات حتى ملأت الجو. وبات الأفق ينذر بشر مستطير. وعاد الزوجان إلى أفكارهما، وساورتهما المخاوف. وقد قابل محجوب مديره سالم الإخشيدى فى مكتبه يوما ليسأله عما هنالك؟ ووجده كما عهده دائما هادئا رزينا. ولكنه لم يتأثر بهدوئه ولا برزانته لأنه يعلم حق العلم أنه لا يخرج عنهما حتى فى أحرج الأوقات. ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلا، فسأله الشاب وقد ظل واقفا:

- ما حقيقة هذه الإشاعات التى تتناقلها الألسن؟

فسأله الإخشيدى بصوت لم يفقد أية رنة من رنات الرياسة:

- أية إشاعات؟

- سقوط الوزارة. ماذا وراء الأكمة؟ .

فابتسم الإخشيدى وقال:

- وراء الأكمة ما وراءها! .

- هل حقا يمكن أن يزول هذا العهد؟

فقال الإخشيدى وقد تملكته رغبة عابثة فى تعذيبه:

- كل شيء زائل . .

فملأه بروده حنقا وغيظا حتى اضطر إلى مداراتهما بالابتسام وقال:

- سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب . .

وأبت عليه نفسه أن يقول إنه لا يعلم شيئا، فابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة:

- انتظر. إن غداً لناظره قريب..

- أما من كلمة مطمئنة؟

وعاودته الرغبة فى تعذيبه فسأله متجاهلا:

- ماذا يخيفك؟

فاتسعت عينا الشاب الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه، ثم قال:

- ما أجمل أسوان فى أغسطس!

فهز الإخشيدى كتفيه استهانة وقال:

- كل مكان ينبت العز طيب.

- الإشاعات صادقة إذن...

فصمت الإخشيدى لحظة منقبا عن إجابة لا تكشف جهله غدا أو بعد غد، ثم قال:

- لا يعلم أحد حتى هذه اللحظة، أما بعد ذلك فالسياسة مجنونة.. وعاد إلى حجرته مغيظا محنقا يقول لنفسه: «ابن الست أم سالم يَريد أن يوهمنى بأنه سياسى داهية، تبا له!».

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأن الوزارة قدمت استقالتها بالفعل، وقال قائل: إنه اتصل ببولكلى بالتليفون فأكد له الخبر. وعمَّت الموظفين حركة عنيفة لا تظهر إلا إبان الاستقالات، فانطلقوا فى الردهات يتحدثون بأصوات مرتفعة عن الوزراء الجدد. واضطرب الشاب أيما اضطراب ولاح فى عينيه الوجوم. وجاءه الساعى وأخبره بأن قاسم بك غادر الوزارة، فاتصل بالإخشيدى بالتليفون وسأله عن الجهة التى ذهب إليها البك، فأجابه بأنه لا يدرى. وخاطب - بالتليفون - جمهرة من صحبه فى الوزارات المختلفة وتلقى الإجابات: ماذا عندك من الأخبار يا فلان؟ - الحالة حرجة، ما آخر الأخبار يا أستاذ؟ قطران، هل من جديد يا فلان؟ - ضربوا الأعور على عينه، أسمعت الإشاعات الغريبة يا عزيزى؟ عن الوزارة؟ إلى الجحيم يا سيدى! وهكذا حتى أيقن أن الوزارة فى النزع الأخير. ورن جرس تليفونه، وإذا بالمتكلم إحسان زوجه فأوجس خيفة:

- هل جاءك النبأ؟

- الوزارة؟

- نعم. استقالت..

- كيف علمت هذا؟..

ـ ملحق الجرائد . .

ـ إذا . .

ـ إنى أكلمك لأطمئنك .

ـ كيف؟ . . هذا كلام غير معقول . .

ـ بل معقول جدا . سأحدثك بالتفصيل عند عودتك ، اعلم الآن أن البك قال لى إن الوزارة ستتغير ، أما العهد فباق كما كان . .

ـ أمتأكدة أنت؟

ـ ولدىَّ أخبار تسرك غير هذه ستعلمها حين عودتك . .

وأغلقت التليفون فنهض الشاب من فوره وغادر الحجرة . وفى الطريق سمع باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة ، وآنس الاهتمام والسرور يجريان مع الهواء فى كل مكان . ذهب الطاغية ، غار سفاك الدماء . وانفك حبل الاستبداد عن أعناق المصريين أو كاد . لم يشاركه أحد سروره ، ولولا ما بشرته به زوجه لانتحب باكيا . ووجد إحسان فى انتظاره ، فاستقبلته بابتسامة عذبة ، وأقبلت عليه تحدثه بما عندها من أخبار ، وأعادت على مسمعيه ما قالته فى التليفون ، ثم سألته :

ـ أتدرى من وزيرك الجديد؟

فسألها متعجبا :

ـ من؟

ـ قاسم بك فهمى . .

رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورد وجهه ، وسألها :

ـ أقال لك هذا؟

ـ أجل . .

غمره شعور ارتياح وسرور ، ولكنه لم يطمئن به طويلا ، وما لبث أن نتف حاجبه الأيسر وهو يقول :

ـ وزيرا! . . ليته ظل كما كان! . . الوزارة تقليد لا تخليد ، فمن لنا غدا؟ . .

ولكن ريبه لم يؤثر فيها ، فقد خالت إن الوزارة آلت إليها هى ، وقالت بإنكار :

ـ إنه الوزير ، ألا تفهم؟ . .

ـ بلى يا عزيزتى ، هى فرصة سعيدة ، بيد أن الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة ، وسيستقيل غدا أو بعد غد ، ونجد أنفسنا بلا نصير ، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون . . . !

فلم تحر جوابا، ومضت تنتقل إلها عدوى القلق حتى لعنته فى سرها. وجعل الشاب يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ ثم قال:

- هذه هى فرصتنا الأخيرة، فإما نحسن انتهازها فنحيا فى عيشة راضية، وإما ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان.

والتقت عيناهما، وأدركت ما يرمى إليه، ولكنها انتظرت حتى يفصح عن رأيه. واستدرك محجوب قائلا:

- إذا استقال ونحن فى مركز «معقول» فلن نأسف على ذهابه.. !

واستأنف الكلام بعد صمت قليل:

- ينبغى أن ألحق بمكتبه..

- سكرتيرا له؟

فهز رأسه كأنه يقول: «هذا لا طائل تحته» واستدرك:

- سكرتيره درجة سادسة فلا فائدة فيها، أما مدير مكتبه فدرجة رابعة!

- أيمكن القفز من السادسة إلى الرابعة؟

- يمكن ترقيتى إلى الخامسة خصما على الرابعة، وفى الكادر تأويلات تتسع لكل شىء، فما رأيك؟

وعضت على شفتيها لتخفى ابتسامة خيلاء، وكانت تدرك أن أية درجة يرقى إليها فكأنما ترقى إليها هى، ولم يداخلها شك فى أن الدرجة الرابعة المرجوة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذى تتمتع به الآن، فبادلته شعوره بإخلاص، وتمتمت قائلة بصوت خفيض:

- لا أظنه يرفض لى رجاء...

فقال بحماس وإيمان:

- همتك، همتك يا بطلة! فعلى نتيجة سعيك يتوقف مصيرنا.

وفى صباح اليوم الثانى تناول الأهرام باهتمام، ونظر فى الصفحة الأولى، فجرى بصره على عمود من الصور، صور الوزراء الجدد. ووجد فى وسطه مبتغاه، صورة قاسم بك فهمى، فاستقرت عليها عيناه، وتنهد من الأعماق. ترى هل يتحقق هذا الأمل!.. هل تستطيع قبلة أو رنوة أو تنهدة أن تنقله من حال إلى حال، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة؟

٣٩

ومضت أيام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته فى القاهرة - لا فى بولكلى - لحالة ربو يعانيها منذ سنوات. وفى اليوم الرابع لتوليه الوزارة علم محجوب أنه استقر الرأى على اختياره لوظيفة مدير المكتب. استقبلته إحسان بابتسامة وقالت بخيلاء «مبارك..» فاهتز فؤاده سرورا، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنه لم يركز كل اهتمامه فى هذا الأمل طوال الأيام الأربعة الماضية. صار الأمل حقيقة رائعة. وسيصبح من كبار الموظفين. ليست الدرجة الخامسة بالحظ الذى يستهان به، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة؟! وتخايلت الرابعة لعينيه مرسومة بألفاظ واضحة، ثم تحولت إلى صور ذهنية على هيئة كرسى كبير، وأحاط بالكرسى سعاة، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات. ولم ير نفسه وهو يتخيل هذا المجد وإلا لسخر منه كعادته، فقد قطب متكبرا وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ. ولذ له فى تلك الساعة أن يفر صفحات الماضى القريب: ليالى فبراير، دكان الفول بميدان الجيزة، رحلة الأهرام، تردده بين الجيزة وشارع الفسطاط والإخشيدى مادا يده بالسؤال، زواجه، ثم هذه النهاية!.. ولاح له رأسه المفعم جسارة وفلسفة كمصباح يهدى سواء السبيل، فطاب نفسا، وفرك يديه حبورا.

وذهب إلى الوزارة مبكرا فى اليوم الثانى. وجلس إلى مكتبه الذى يوشك أن يهجره، وقد بدا لعينيه حقيرا، ولكنه لم يكن أول المبكرين. فتح الباب وبدا عند عتبته الأستاذ سالم الإخشيدى!.. وانقبض صدره انقباضا لم يبد على وجهه بطبيعة الحال، ووقف مبتسما يستقبل القادم وهو يتساءل فى نفسه ما الذى دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدوم إلى مكتبه؟!. ومد له يده بسرور وهو يقول:

- أهلا بسعادة البك. تفضل بالجلوس!.

وجلسا معا. وجاد الإخشيدى بابتسامة من ابتساماته النادرة، وتكلم كلاما عاما عن الوزارة الجديدة، والبك الذى ينتظر أن يخلف قاسم بك ثم قال بهدوئه المعهود:

- لدى ما أحب أن أكاشفك به، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول..

وحدس الشاب ما يريد قوله، وأحس استياء وحنقا، ولكنه قال بلهجته الدالة على الترحيب والسرور:

- حسنا فعلت، وهأنذا رهن أمرك..

فصوب الإخشيدى نحوه عينيه المستديرتين وقال :

ـ الأمر جد خطير ما دام يتعلق بمستقبلنا ، وسنجنى من ورائه نفعا مؤكدا متبادلا . ولكنى أحب أن أسألك سؤالا قبل كل شيء : ألم تجدنى صديقا مخلصا؟

ـ بل خير الأصدقاء جميعا . .

قال محجوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة اللينة اللطيفة التى لم يتعود الإخشيدى الكلام بمثلها من قبل . أين الأمر والنهى والزجر؟ أين البرود والتعالى؟ وقد شعر فى أعماقه بدبيب الحنق والسخرية ، ثم استمع إليه وهو يقول :

ـ شكرا لك . صداقتنا هذه كنز نفيس . وبفضلها تستطيع أن نقتحم الصعاب يدا واحدة . .

ـ نطقت بالحكمة كعادتك يا بك . . .

وجعل يقول فى سره : تكلم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع . فأنا أعرفك كما تعرف نفسك أيها الشيطان الماكر . وحسبى أن أعرف نفسى كى أعرفك حق المعرفة ، ولكل شيء آفة من جنسه! .

وحدجه الإخشيدى بنظرة ثاقبة وقال :

ـ علمت أن مذكرة تكتب لندبك مديرا لمكتب الوزير . . . ؟

هذه هى النقطة الجوهرية . أيريد أن يتنازل له عن الوظيفة!! . . يا له من أحمق . كيف غاب عنه أنه تلميذه! . إن الدين والأخلاق والتقاليد لم تستطع أن تحول بينه وبين هذه الوظيفة ، فهل يظن أن «صداقته» تنجح فيما أخفقت فيه جميع القوى! . قال بهدوء :

ـ أجل . علمت ذلك بالأمس فقط . . .

فقال الإخشيدى :

ـ إن ذلك يسرنى بقدر ما يسرك ، بيد أنى أحب أن ألفت نظرك إلى أن درجة مدير مكتب رابعة وأنت فى السادسة ، فإذا وجدت درجة خامسة خالية فقد بلغت مرادك . خذ وظيفتى ودع لى وظيفتك الجديدة يتحقق أملنا جميعا .

وتساءل محجوب فى سره أغبى هو أم يتغابى؟! فلم يدرك أنه يطمع فى الرابعة نفسها؟ وهب أن القفز إلى الرابعة تعذر عليه فهل من شك فى أنه يفضل أن يكونا فى الخامسة معا عن أن يمهد له سبل التفوق عليه؟ . ونظر إليه متظاهرا بالاهتمام وتساءل :

ـ وماذا تريدنى على أن أفعل ؟

فقال الإخشيدى :

ـ صارح الوزير بأنك قانع بوظيفتى . .

وجاءت الدقيقة الفاصلة ! . وكان يدرك بلا ريب أن أسطورة الصداقة التى تغنيا بها معا رهينة بكلمة واحدة ، فتردد قائلا ، وذكر أن عداوة الإخشيدى شىء لا يستهان به فليس الرجل بعلى طه أو مأمون رضوان اللذين لهما من شرفهما وازع . هذا رجل ـ مثله ـ بلا خلق ولا مبدأ ، وهو يعرف كل شىء ، فماذا يصنع ؟ ! . . . وتفكر مليا . قال إن سره سيعرف يوما بلا ريب ، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير ، وماذا نال تهكم بدير من أبطال حفلة جمعية الضريرات ؟ ! . . . طظ ؟ ! . كلا ثم لا ينبغى أن يتردد ، وليذهب الإخشيدى وصداقته إلى الجحيم ! . واجتاحته عاصفة استهانة ، فقال :

ـ ألا ترى يا سالم بك أن هذا معناه رفض شرف آثرنى به الوزير ؟ !

فرمقه الإخشيدى بنظرة غريبة كأنها تقول له : «يا بن اللئيمة !» . ولكنه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة ، وصمت برهة ، وقد هم بمراجعته ، وأوشك أن يرسم ابتسامة من ابتساماته ، وانتظمت على لسانه عبارات لطيفة ، وكاد يذكر كلاما عن الصداقة والتعاون ، ولكن إرادته منعت ذلك كله ، فظل صامتا جامد الوجه والنظرة ، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدل على شىء :

ـ أهذا رأيك ؟ !

فقال محجوب بغير مبالاة وقد تلبسه شيطانه :

ـ أجل . ألا تشاركنى رأيى ؟ !

فتمتم الإخشيدى وهو يحول عنه عينيه .

ـ معقول . لك حق . أشكرك . مبارك !

وغادر الحجرة بخطاه الوئيدة وقد عاوده كبرياؤه . وارتفق محجوب مكتبه متفكرًا ! . سبق أن خسر على طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعا . أما هذه المرة فقد ساوره الخوف ، وقد ثار بخوفه ، وكور قبضته غاضبا ، وكأنما أراد أن يتناسى همه فنهض قائما ، وغادر الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطلع بنفسه على مذكرة ندبه . . .

٤٠

واحتل الأستاذ محجوب عبد الدائم ـ أو محجوب بك عبدالدائم من الآن فصاعدا ـ حجرة مدير مكتب الوزير . ووفد عليه كبار موظفى الوزارة مهنئين . فكان يوما عظيما

ومجدا مشهودا وهنأه البعض بالدرجة الرابعة «مقدما» كأنها باتت أمرا مفروغا منه! . أما سالم الإخشيدى فلم يهنئه . وأعلن بذلك عداوته صراحة . وقد ذاع خبر فى الوزارة بأن الإخشيدى سينقل إلى الخارجية وبأنه سيرقى هناك إلى الرابعة . فلم يغب عنه المصدر الذى خرج منه الخبر ، ولكنه لم يستبعد صحته ، لأنه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال الدولة ، وقد قال لنفسه : «الإخشيدى قوى بلا جدال ، ولولا زوجى ما تغلبت عليه ولكان اليوم فى مكانى هذا . . . » . وداخله سرور . فإذا نقل الإخشيدى حقا خلا له الجو وصار رجل الوزير الأول ، كما صارت زوجه من قبل امرأة الوزير الأول! . سر لذلك بلا ريب ، بيد أن سروره لم يدم طويلا . عاد يفكر فى غضب الإخشيدى وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك : وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاسترد مرحه وجعل يقول لنفسه : إن الناس يحبون المظاهر ويخدعون بالرياء ، فإذا اضطر للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء ، ولو بلغ به الأمر أن يشترك فى جمعية الشبان المسلمين مثلا! . فطظ فى كل شىء إلا الناس . على الأقل فى العلانية . ولكنه لم ينته عند ذاك من الإخشيدى وغضبه ، خطر له خاطر أزعجه أيما إزعاج وقد عجب كيف أنه لم يخطر له من قبل؟ الإخشيدى جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة فى الانتقام أن يفشى سره بطريقة ما إلى والديه؟ ازدرد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة ، وجعل ينتف حاجبه متفكرا مغتما . ولبث متفكرا مغتما حتى كبر عليه أن يذهب سروره ـ يوم مجده ـ ضحية وساوس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة ، فنفخ مغيظا محنقا ، وكور قبضته غاضبا ، وقال لنفسه : قضى الأمر ، وكان ما كان ، فليكن ما يكون . وبعيد جدا أن يبلغ الإخشيدى حقيقة زواجه فإنه هو أيضا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة . ثم إن الإخشيدى أحكم من أن يفشى سرا يتعرض به لغضب قاسم بك ، ولكنه من ناحية أخرى ينبغى أن يتوقع أن يعلم أبوه بنبأ تعيينه فيحسن به أن يدبر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته . وأراد أن يطرد همه ، فبسط ورقة على مكتبه ، ورسم رقم مرتبه الجديد : ٢٥ جنيها؟ وثبت عليه عينيه الجاحظتين حتى ابتسمت أساريره . سيقبضه أول أكتوبر ، وما أول أكتوبر ببعيد ، فهل يمكن أن يتصور ذلك بائع الفول بميدان الجيزة؟ . بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة ـ بعد ثمانية أعوام ـ على مرتبه هذا! . نجحت طظ نجاحا باهرا! وقد ارتاح لذلك ارتياحا عزاه عن كل ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان . وسر سرورا خالصا ببراءته من ذلك المرض الوهمى الخبيث الذى يسمونه الضمير أو الندم . حقا خاف أحيانا الناس ، وعذبته الغيرة أحيانا أخرى ، ولكن هذا شىء والندم شىء آخر . كان كفره بالقيم والمجتمع كاملا باهرا ، وإنه ليؤمن بأنه سيظل قويا حرا ، ما امتد به العمر . وأنه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو رد إلى أرذل العمر ، وما أجمل أن يستهين بالموت ـ إذا

حضره الموت ـ وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فزع إلى قوة وهمية أو إله باطل. هذا هو انتصار العقل الحر على الغرائز العمياء والأوهام الباطلة!. وتذكر قاسم بك فهمى والإخشيدى وعشرات ممن اتصل بهم فى حياته الجديدة، كل أولئك يبدون كأنهم من مدرسته. كلا. إنه يرفض ذلك رفضا متعجرفا! أولئك يفعلون الشر وهم يعرفون أنه شر، ومنهم من يفعله وهو لا يميز الخير من الشر، ومنهم من لا يحمل نفسه مشقة التفكير بتاتا، ومنهم من يفعله وهو يؤمن بالخير. هو غير هؤلاء جميعا. إنه ينكر الخير والشر معا. ويكفر بالمجتمع الذى صنعهما، ويؤمن بنفسه فقط: يوجد لذيذ ومؤلم، ونافع وضار، أما خير وشر فمحض وهم باطل. ورب قائل يقول: «لو آمن كل بهذا لهلك الناس جميعا». هذا حق لا جدال فيه. ولكنه ليس أحمق كى يدعو لرأيه هذا. إنه يحتفظ به لنفسه، وإذا قال تكلم غيره، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين!. والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التخفى، فالمجتمع لا يعنيه إلا أن يحافظ على ذاته، ويعادى فى ذلك حتى عشاقه الذين ينشدون له الكمال أمثال: على طه ومأمون رضوان. فهو كالمرأة المغرورة إذا آنست من عاشق انتقادا نبذته، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربما السجن!.

طابت الحياة إذًا. ثم ذكر أمرا فاستدرك قائلا: «إلا شيئا واحدا»، هى إحسان!. أو هى تلك العاطفة المستبدة التى لا تقع بغير الحب. وأين الحب؟ الفتاة تشاركه آماله، وتحسن معاشرته، ولكنه يشعر بأنها تؤدى واجبا بإخلاص. إنها كالموظف الذى يحب الوظيفة دون عمله بالذات. أو هو لا يحبه ولا يكرهه. ارتبط مصيرها بمصيره، هى تحب الحياة كما يحبها، وتهوى الترف كما يهواه، ولكن ينقصه شىء كى يكمل هذا الامتزاج حقا، شىء يروعه افتقاده حتى فى تلك الأويقات التى يبدوان فيها سعيدين ثملين، والشفة على الشفة والصدر ملتصق بالصدر. وليس هذا بالشىء الذى يهون وإن قال عنه ـ فى غمرة اليأس ـ طظ. بل إنه ليحدث فى نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة التى أحدثها الجوع من قبل. ولذلك فكر جديا فى أن يسطو كما يُسطى عليه، بل عابثته فكرة اكتراء حجرة وتأثيثها استعدادا للطوارئ، ومن يدرى؟.. فلا يبعد أن يقصد إليها غدا أو بعد غد ذوو الحاجات، وكما أعطى ينبغى أن يأخذ!

* * *

وعند مساء ذلك اليوم ـ يوم مجده ـ وفد الأصدقاء على الشقة الأنيقة بعمارة شليخر ليقدموا التهانى لزوج مدير المكتب، وجرى الحديث فى مرح وسرور، وقد اقترح البعض أن يحتفلوا جميعا بترقية محجوب. وقال أحدهم مخاطبا إحسان:

ـ فى يوم الخميس القادم ينتصف الشهر العربى، ويتربع البدر فى كبد السماء، وتمسى

القناطر قبلة الواردين، فما رأيك فى رحلة قمرية؟ . . . (وهنا لحظ عفت بطرف خفى واستدرك غامزا بعينيه) وعفت بك يملك يختا صغيرا جميلا . . . ؟!

وسر عفت سرورا كبيرا، وكان إعجابه بإحسان يزداد يوما بعد يوم. وقال بسرعة دلت على حماسة للقبول:

ـ اليخت وصاحبه رهن أمركم!

وما سمع اسم القناطر حتى سرت فى جسده قشعريرة باردة، وكان يعلم أن حماس الصحاب ليس لشخصه هو، فقال معترضا:

ـ هذه النزهة القمرية لا توافق جو سبتمبر الرطب البارد . .

فضحك عفت وقد أشفق من أن تفلت من يده الفرصة السانحة وقال:

ـ لا شك أن وظيفتك الكبيرة قد بثت فى نفسك شيئا من الشيخوخة فبت ترجف من الجو اللطيف . . !

وكان هذا «المدح فى قالب الذم» جديرا بأن يلذ محجوب فى ظروف أخرى، ولكنه لم يستطع أن يتذوقه فى رعبه، وقال بحمية:

ـ الدنيا واسعة، اختاروا أى مكان تحبون، أما القناطر . .

واعترض عليه كثيرون فضاعت بقية كلامه، ولم يدر كيف يقنعهم ويحولهم عن رأيهم، ولبث حيال احتجاجهم مقهورا، بينما راح عفت يقول:

ـ ليس ثمة فائدة ترجى من الاعتراض، والأولى بك أن تصغى إلى . . . سينتظر اليخت عند قصر النيل فى الساعة التى تتفقون عليها . . أطعمة جافة لطيفة . . زجاجة ويسكى لكل ثلاثة . . . دعونى أحصيكم . . . وعلا ضجيج الاستحسان، وشاركتهم إحسان سرورهم، وجعل محجوب يقلب عينيه فى وجوههم حائرا وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها. لن يجد من رحلة القناطر مهربا، سيقطع حدائقها ذهابا وإيابا فى ضوء القمر، أليس من المحتمل أن يلقى أحدا من أهلها الذين يعرفونه؟ . . بلى، هذا محتمل، ويحسن به والحال كذلك ألا يبرح اليخت منتحلا عذرا، أجل لن يستطيع مقاومة العربيدين العنيدين، فليذهب إذا لم يكن من الذهاب بد، والحدائق على أية حال بعيدة عن المحطة، بعيدة عن البيت البائس الباهت . . .

٤١

ومضت أيام أربعة تمتع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية. وقد شعر جميع الذين يتصلون به من الموظفين - صغارا وكبارا - بأنه موظف متعجرف ينبغى أن تؤدى إليه حقوقه كاملة، ولا يعفو عن زلل ولا يتكلم إلا آمرا. وكان كلما لان الموظفون - ولابد أن يلينوا - تمادى وطغى، واستلذ تماديه وطغيانه، حتى ود فى أحايين لو يمضى يومه كله فى الوزارة آمرا زاجرا...!

وجاء يوم الخميس، موعد النزهة. فغادر الزوجان بيتهما ومضيا فى طريق قصر النيل، وقالت إحسان بتأفف وهما يقطعان طريقهما:

- لعلك الوحيد فى الجماعة الذى لا يملك سيارة...!

فضحك محجوب قائلا:

- فى التأنى السلامة...!

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادى على تاكسى فيستقلانه على قرب المسافة. وذكر لهجتها المتأففة فقال لنفسه ساخرا: «عيب كبير ألا يكون لكريمة عم شحاته تركى سيارة خاصة!»، ثم ذكر الأعباء التى تواجهه بها الحياة الجديدة كرغبته فى اكتراء حجرة وتأثيثها، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيته لوالده، وغير هذه وتلك من وجوه الترف والإنفاق، فهاله الأمر. وحدث نفسه قائلا: «سأظل ما حييت فقيرا إلى المال!». وبلغا مرسى اليخت بعد قليل. فغادرا التاكسى وأقبلا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشى الظلام الآفاق. واستقبلا استقبالا جميلا، وتقدم عفت بك من الزوجين وصافحهما، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبطته وسارا فى الطليعة إلى اليخت. ولم يكن محجوب يحب صاحب اليخت، وقد بدأ يخامره النفور نحوه منذ لبى دعوته إلى الفانتزيو. قرأ فى عينيه الجميلتين آى الإعجاب بزوجه فامتعض وتميز من الغيظ، ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضى بعين المقت والغضب...

وكان اليخت صغيرا، ولكنه جميل أنيق. وكان مكونا من طابقين، بالأول المقصورات، والثانى سطح مسور اصطفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة، وفى المقدمة منه امتدت الموائد حافلة بما لذ وطاب. وقد أمر عفت بك بالإبحار فرفعت المرساة وأبحر اليخت ميمما شطر الشمال. فى هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقى صاعدا من وراء النخيل. هكذا بدأت الرحلة.

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقابلين، وراحوا يسمرون فى جو لطيف رطيب. وجعل محجوب يردد ناظريه بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيدا عنه فى هالة من الإعجاب والمعجبين، فذكر أيام كان يطالعها عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة بيد أنه رآها الآن أبهى ما تكون جمالا وسحرا، واستشعر الهوة العميقة التى تفصل بينهما! وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة، فرأى على طه - فى حالتى سروره وحزنه - وعم شحاته تركى، والوزير، وسالم الإخشيدى، ومخدعه بعمارة شليخر!. ووجد نفسه يتساءل أيفضل لو كانت إحسان له قلبا وجسدا فى بيت زوجية هادئ «شريف» ولو كان موظفا صغيرا بلا مجد؟!. ولم يجد الجواب حاضرا، أجل كان طموحه قويا كعاطفته، بل لعل طموحه أقوى. ولكن ما جدوى المفاضلة؟!، وألقى بنظره إلى النيل يتسلى، ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ فى الصعود والصفاء، كلما امتدت ظلمة الليل أذكت نوره وبهاءه، ولكنه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها، وكان يلذ له أن يقول: إن الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل، ومصدر منذ الأزل لجهالات لا نزال نرسف فى أغلالها. وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ فى الفجر للصلاة والعبادة، وكيف كان يقلب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو: «والليل إذا يغشى»، «والسماء والطارق» بصوت حنان، وعيناه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة. ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشواب من يعشق الطبيعة؟، وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم فى شغل عن الدنيا بأنفسهم.

وسمع آنسة فيفى تتساءل فى إغراء:

- لماذا لا نرقص..!

فقال على عفت من فوره:

- ارقصوا إذا شئتم، ولكن هل ترقصون بلا موسيقى؟

فقال أحمد عاصم:

- أبشروا لقد أحضرت معى موسيقى اليد.

وتصاعدت أصوات الاستحسان، ودارت العيون تتصيد الأحباب، وتناول أحمد عاصم آلته ولعب بها وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها الراقصة، ونهض الجميع للرقص إلا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه وعفت بك الذى آثر أن يجلس إليهما. وجعلوا يشاهدون الراقصين فى صمت وإعجاب. ثم أعلن عفت بك إنكاره لجهلها الرقص، وقال لإحسان:

- سأعلمك الرقص، فإنه لا يجوز أن تجهليه،.. ما رأيك؟

فتمتمت وعيناها لا تفارقان الراقصين:

ـ لا أدرى . .

ـ غريب من يجهل الرقص فى الحفلة الرائعة، أليس هذا رأيك يا محجوب بك؟

فشعر محجوب بالخطر المحدق به، وأراد أن يزوغ منه، فقال بعدم اكتراث :

ـ لا أظن . .

فضحك عفت ضحكة عالية وقال :

ـ يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر . . .

وضحكت إحسان لضحكه وقالت :

ـ قد نتتلمذ لك يوما ما . . .

فلاح الحماس فى وجه الشاب وقال بسرور فياض :

ـ فى أى وقت تشائين . . .

ولازم محجوب الصمت متظاهرا بالاهتمام بمراقبة الراقصين، وهو يكظم حنقه وثورته . إن الشاب الأحمق التياه بجماله يتحفز للانقضاض على عرضه، وإنه لفاعل إذا وجد غرة، ولكن هيهات أن ينهزه فرصة، فليس لأحمق مثله أن ينبت فى رأسه قرنا جديدا، . . . لقد وهب رأسه للقرون الذهبية، قرون المجد والسلطان . ولكن ترى هل تستجيب لغزله؟ . هل تلين هذه الفتاة الغامضةالفاتنة؟ . وأحس أنياب الغيرة السامة تنهش صدره .

ورقص الراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب ـ أو الملل ـ فكف عن اللعب، وانفرط عقد المتجاذبين، فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام . وكان البدر قد علا فى السماء وانسكب نوره إلى مياه النيل المتموجة فتقاذفته ونثرته كاللؤلؤ يخطف الأبصار . وتساءل البعض :

ـ متى نفتح البوفيه؟

فرد عليه قرين :

ـ ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطئ الحديقة يا جائع؟

فقال آخر :

ـ هل لكم فى لعب الورق؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهيهم عن صفوهم، وعادوا إلى السمر، وانتبه محجوب من أفكاره على صوت الأستاذ حسنى شوكت وهو يقول :

ـ كيف لا يكون أمرا خطيرا؟! . . إن نجاح الحزب النازى فى الوصول إلى الحكم أمر جد خطير .

فقال أحمد عاصم :

ـ ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يبتلع هتلر .

ـ انظر إلى الأفق ، ألا ترى أن هتلر فى عنفوان الشباب والرئيس فى نهاية العمر؟

ـ إذا سيتمخض الغد عن حرب ضروس . .

ـ كلام معقول ، بيد أن فرنسا لا تتريث حتى تستعيد ألمانيا قوتها وتتجمع للانقضاض عليها ، وهنالك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان ، ولا تنس أن إيطاليا العظيمة تعد نفسها حامية النمسا ، فما هو إلا أن تتصافح هذه البلدان ، وربما انضمت إليها روسيا فتضيق الحلقة الفولاذية رويدا رويدا حتى تخنق ألمانيا فى النهاية وتقضى عليها القضاء الأخير . .

وإنجلترا؟ . . هل تتغاضى عن خنق ألمانيا؟؟

ـ ولم لا؟

ـ إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا ـ أو غيرها ـ تسيطر على القارة الأوربية .

أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام ، وكان على اطلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل بالسياسة العالمية ، فاقترح على نفسه أن يعنى بمعرفة الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم الأمر ، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عما حوله حتى لا يلاحظ أحد صمته . فغاب حقا عن الحديث دقائق ، ولما عاد بوعيه إلى الجلوس ، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخلية دون أن يدرى كيف . وسمع بعضهم يقول :

ـ أما مصر فيستطيع أى حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر .

ـ الواقع أن أى نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتورية إذا طبق فى مصر .

ـ هذا وطن «ضربك شرف يا أفندينا» . . .

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين :

ـ لن تظفر مصر باستقلالها أبدا . . .

ـ استبدت بها عادة الحكم الأجنبى!

فضحك عفت وقال :

ـ وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟ . أما الزعماء فيتعاركون على الحكم ، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال .

ووجد محجوب الفرصة سانحة ليقول قولا «أخلاقيا» وليحدث لنفسه سمعة إيجابية ، الأمر الذى أجمع على تحقيقه حين فكر فى الاشتراك فى جمعية الإخوان المسلمين ، فقال مبتسما :

ـ ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك. . . !

فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع :

ـ لا تجرى فى عروقى نقطة دم مصرية واحدة .

وأحدث قوله عاصفة من الضحك ، أما محجوب فتضاعف مقته له ، لا غضبا لوظيفته ، ولكن ثورة لكبريائه ، وذكر خطبة رنانة ألقاها والد عفت فى مجلس الشيوخ فظن أنه قبض على عنق الشاب ، وقال بلهجة الظافر :

ـ فما قولك فى خطبة الباشا والدك فى مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية ، التى دافع بها عن الفلاح دفاعا وطنيا مجيدا؟!

فقهقه عفت وقال كالساخر :

ـ هذا فى مجلس الشيوخ ، أما فى البيت فكلانا متفق ـ أنا ووالدى ـ على أن أنجع سياسة مع الفلاح هى : السوط .

وضحك الحاضرون ـ من الجنسين ـ ضحكا عاليا . وابتسم محجوب يدارى هزيمته ، وقد أفرخ روعه ، وارتاح إلى تفرده بالدفاع عن «القومية المصرية» ، وقال لنفسه : «إن بدلة التشريفة الحقيقية هى ثوب الرياء فلا يفوتنى ذلك!» وتساءل ساخراً : ترى كيف يصلح على طه هذا الشعب الكريم؟ وكيف يحقق مثله العليا؟

ومضى الوقت واليخت يشق الأمواج وكأنه يسبح فى النور السنى ، وانتبه محجوب مرة ثالثة على قول شاب :

ـ . . فما من شك أن الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة فى فندق إبقاء على سائق السيارة .

فسألت إحدى الفتيات باهتمام :

ـ وهل حقا خيرها الباشا بين بقائه هو أو السائق؟

ـ نعم .

ـ وماذا كان جوابها؟

ـ السائق . . ؟

ولبث يلتقط الأحاديث من هنا وهنالك ، طورا فى يقظة وانتباه ، وطورا شاردا ذاهلا ، حتى لاحت الحدائق ساهرة فى ضوء القمر كأعذب الأحلام . ونهض الصحاب مهتمين . ثم دعاهم عفت بك إلى البوفيه .

٤٢

استبقوا إلى الموائد، واتخذوا مجالسهم، وأترعت الكئوس، وملأ عفت كأس إحسان، وكانت أول مرة تشرب فى جماعة، فقالت بصوت خفيض:

- حسبى كأس واحدة.

فقال الشاب ضاحكا:

- هلا تلفعت بخمار التقوى وذهبت إلى «السيدة» للوعظ والإرشاد؟!

ثم همس فى أذنها:

- انظرى إلى حكمت، إنها تشرب زجاجة كاملة دون أن يبوح لسانها بسر.

ورأت إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح الحفل، فرفعت كأسها فى شىء من الارتباك، فارتفعت الأيادى بالكئوس، وهتفوا جميعا باسم مدير المكتب، ثم أفرغوا كئوسهم حتى الثمالة. وسرعان ما مزقت السكاكين اللحوم، ثم التقطتها الشوكات وسلمتها إلى الأفواه النهمة، وتحول المقصف إلى ميدان، دارت به معركة بالغة فى عنفها، بالغة فى لذتها، وتعددت ضحاياها من الأطعمة والأشربة. وتنبهت إحسان إلى أن عفت بك يتعمد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملأ كأسها، وأن حذاءه مس حذاءها أكثر من مرة، ولكنها لم تشجعه. وأكل محجوب وشرب بنهم، لا طلبا للذة، ولكن هربا من مشاعره، لأنه ما انفك يفكر فى البيت القائم أمام المحطة مذ رسا اليخت إلى شاطئ الحديقة، تولاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطع منه فكاكا، ترى ماذا يفعل والداه فى هذه اللحظة؟، ألا يزال والده طريح الفراش؟ وما عسى أن تفعل أمه؟.. هل نفدت النقود؟.. هل باعا بعض الأثاث القديم؟ ألا يحتاجان لشىء من فتات هذه المائدة؟.. كيف يتخلص من شعور الضيق والكآبة؟! من له بمن يخضع شعوره لقسوة عقله الحر؟! وقد أفرط فى الشراب، وثرثر بغير حساب، ولم يأل جهدا فى الهرب من باطنه، والارتماء بين أيدى المحيطين به واختلط الحديث أيما اختلاط، وسأل سائل جماعة المتزوجين: هل حقق الزواج أحلامهم؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجوا ضاحكين. وسأل آخر عن أمتع ما فى الزواج؟ فقال شاب متزوج: إنه الحب، وقال آخر: إنه الخلاص من الحب!» وقال ثالث: إنه تحديد النسل!، وأجاب محجوب فى سره: «بل هو القرن الذهبى!» وقال حسنى شوكت بلا مناسبة:

- خسرت فى الأسبوع الماضى خمسة عشر جنيها.

فقالت له خطيبته:

- البقية فى الأسبوع القادم!

وقال أحمد عاصم:

- يقولون إن سيىء الحظ فى القمار سعيد فى الحب.

فقالت فتاة مبتسمة:

- ذلك لأن سيىء الحظ فى القمار لا يعرف الغش!

وقال شوكت مرة أخرى:

- إن أعجب مقامرة شاهدتها فى حياتى كانت مقامرة شاب بعشيقته!

فلاح الاهتمام فى وجوه الجميع وسأله كثيرون:

- حقا؟.. وكيف كان ذلك؟

فأجاب الشاب الثمل قائلا؟

- إنه صديق حميم، وقد اصطحب يوما عشيقته إلى ناد خاص من أنديه القمار، فخسر جميع نقوده، وكانت الخمر قد لعبت برءوس الجميع فاقترح عليه سكران أن يقامر بعشيقته على كل خسارته، فإما استرد نقوده وإما خسر عشيقته، فقبل الاقتراح وقامر عليها وخسر عشيقته...

- وهل رضيت المرأة؟!.

- كانت فى حالة سكر بيِّن، وقد انتقلت ملكيتها إلى الرابح، أو - وهو الأصح - انتقلت ملكيته إليها.

- من عسى أن يكون ذلك الصديق؟.

- أما هذا فلا، لأن أحد الطرفين موجود بيننا.

وتبادلت الأعين نظرات الإنكار، وابتسمت الثغور فى ريب، ولاح الفضول فى جميع الوجوه خاصة النساء، وسألت إحسان عفت بك:

- من هذا المقامر يا ترى؟

فسرَّ الشاب بسؤالها وفسره على هواه، ثم قال:

- لا يدرى ذلك إلا الأستاذ شوكت، ولعله لا يدريه أيضا.

- أيعجبك هذا النوع من القمار؟

فقال كالساخط:

- أنا لا أقامر بمن أحب..

وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغى، وأجمعت على ألا تشرب غير كأسها الثالثة، ودارت رءوس ورءوس، فتشاحن زوجان علانية وتبادلا السباب، وكاد الأستاذ حسنى شوكت يفقد صوابه، وانتشى محجوب عبد الدائم ولعبت الخمر بعقله فتناسى همومه وأكب على الحديث والضحك.

ولما فرغت الصحاف والزجاجات هتف بهم عفت قائلا:

ـ هلموا إلى الحديقة..

ورددوا قوله: «إلى الحديقة.. إلى الحديقة» ومضوا أزواجا وأفرادا. وأراد محجوب أن يتخلف فى اليخت كما كان اعتزم، وتنحى جانبا، بالرغم من سكره الشديد، ولكن لاحت منه نظرة فرأى زوجه متأبطة ذراع عفت بك فى مقدمة الراحلين، فهاج دمه، وقرض أسنانه بحنق، وعثر به بعض الإخوان فتأبط ذراعه ودعاه إلى المسير معه، فلم يقاوم، ونسى عزمه ومخاوفه. وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالا، بين سائرين يتضاحكون، وجالسين يأكلون ويشربون، وهؤلاء وأولئك ينفثون المرح فى كل مكان، وقد ألَّفت بينهم جميعا دواعى الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحب الفكاهة والمزاح، فاشتبكوا فى الحديث على غير سابق معرفة، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلا بين الزهور، معتصمين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر، والبدر يطل عليهم من علياء السماء فى موكبه الأبدى تحف به الكواكب والنجوم، غامراً الدنيا بنوره البهى.. وطابت النفوس وصفت، فراح ذوو الأصوات الجميلة يسجعون الأغانى. وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار. وكان أصحاب اليخت يمضون فى المماشى باعثين ضجيجا صاخبا، وكان الأستاذ حسنى شوكت يعربد بلا مبالاة، فلفت نحوهم الأبصار. وسار محجوب إلى يمين زوجه ـ وعفت بك إلى جوارها ـ وقد بلغ به السكر. وكان يتكلم ويضحك ولكنه كان متغيظا على الفتى الذى يلازم زوجه كظلها، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنه فى القناطر، فى بلده، على كثب من والديه البائسين، فجعل ينظر فيما حوله بحذر، ويقاوم جهده شعور القلق الذى يساوره. وفكر أكثر من مرة أن يقفل إلى اليخت، ولكنه ظل مستسلما لتيار الرفاق. وحدث أن أوقفهم حسنى شوكت عند بائع تين ليبتاع منه، وكان البائع عجوزا يتوكأ على عصا من كبر وعجز، تذكر محجوب أباه فى غمضة عين، وجدُّوا فى طريقهم وصورة الرجل لا تفارقه، فأبوه إذا قدِّر له أن يترك الفراش فلن يكون إلا صورة من هذا الرجل، ولن يخطو خطوة بغير عصا يتوكأ عليها. وتفكر مليا ثم قال لنفسه: «ولا يبعد إذا تحطمت وسائله أن يرفع سلة تين ويسرح بها! ومن يدريه فلعله يسرح الآن بسلة تين فى موضع ما من البلد؟ وألقى بطرفه ناحية المحطة وهو يمشى كالمترنح وقد انقبض صدره انقباضا شديدا. ولم يعد يشارك الرفاق

لهوهم وسرورهم، وولى عنه الصفاء والسرور، وغلبه القلق والحزن والخوف. كان مجيئه خطأ كبيرا، ولكن هل كان تخلفه يغير من واقع الأمر شيئًا؟ . . إذا كان تقدير أبيه صادقا فقد مضى عليه الآن ثلاثة أشهر وهو بلا عون، فماذا صنع بنفسه وبأمه . . ؟ وكيف واجه عبوس الحياة فى عجزه ومرضه؟! ثلاثة أشهر أو يزيد: يونيه ويوليه وأغسطس، وهذا الأسبوع من سبتمبر، أى ذلك الزمن الذى ذاق فيه حلاوة العيش وطيب الحياة، وثقل رأسه، وخمدت نشوته مخلفة خمارا مصدعا، وخانته جراءته التى تستهين بكل شىء، حتى تساءل فزعا: أهذه يقظة ما يسمونه بالضمير؟ أبعد تلك الثورة المدمرة التى شملت حياته الجامعية كلها، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر بالنجاح المطلق، يجد نفسه فى هذه الحالة الزرية من الجبن والألم؟. وكوَّر قبضته بعنف، ورفض بعناد أن يعترف بضيعته وخوفه، أو بأن الذى يئن فى صدره ضمير، أو بأنه لا يزال يتأثر بعاطفة البنوة، رفض ذلك رفضا عنيدا مغيظا، وقال يعزى نفسه ويشجعها: إن هو إلا الخوف من فضيحة قد تهدد مركزه الاجتماعى، إنه لا يأسى على والديه ولكنه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده. وموعدهما أول أكتوبر فإذا تسلم ماهيته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هذا العذاب. وردد هذا الرأى فى نفسه وأكده له تأكيدا شديدا، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه. ولما عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخبط منفردا، فنظر فيما حوله ذاهلا فلم يجد إلا الأستاذ أحمد عاصم، وسأله عن الرفاق؟ فهز كتفيه قائلا: «لا أدرى» فأدرك أنه ضل الجميع. وشعر بتعب، وغثيان مباغت، ثم انقلب يقىء . . ! وأخذه صاحبه من يده إلى اليخت، وهناك مضى به إلى مقصورة، فاستلقى على أريكة وراح فى سبات. ولم يدر كم لبث، ولكنه كان يرى فى مخيلته دائما بائع التين حتى خاله أباه بالذات. وقد قهره الشقاء على ذل السؤال.

٤٣

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب وبحَّت منهم الأصوات. وأبحر اليخت قبل منتصف الليل بقليل. وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحمد عاصم بأنه نائم فى مقصورة، ودعاها لاصطحابها إليه، ولكن عفت تطوع بالمسير بين يديها، وهبطا معا إلى باطن اليخت، وتقدمها فى ردهة جانبية إلى باب مقصورة وفتحه وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر وردَّ الباب، ووجدت المقصورة خالية، وطالعتها فى وسطها صورة لعلى عفت على نضد، فتحولت إلى الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يبتسم إليها

بعينين تنطقان بالهيام والظفر، فأدركت أنه استدرجها إلى مقصورته، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة مقاصده:

- أين محجوب.. ؟

فقال والابتسامة لا تزال على شفتيه، وقد احمرت عيناه الجميلتان من أثر الخمر:

- سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة..

فسألته بلهجة رزينة:

- لماذا أتيت بى إلى هنا؟

كانت ثقته بنفسه لا حد لها، فكان جوابه أن جثا على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقيها بذراعيه وضمها إلى صدره، وقال لها رافعا إليها وجهه:

- لا تسأليني يا إحسان، أنت تعرفين كل شيء، والكلام فى مثل حالتى تحصيل حاصل، ألم يتكلم قلبى منذ أول لقاء بيننا؟ ألم يصرخ هذه الليلة حتى خفت أن تصك نجواه آذان الحافين بنا..!.

وتولاها الاضطراب والاستياء، وأمسكت بساعديه لتفك السلسلة التى تطوقها، ودفعته بعنف، وصاحت به بصوت خشن، غاضب:

- دعنى من فضلك.. دعنى..

ثم أربد وجهها وعبس، فقرأ فيه الجد والنفور، وتورد وجهه خجلا، وأرخى ذراعيه، ونهض واجما دون أن ينبس بكلمة. وفتح الباب حتى غادرت المقصورة، ثم دلها على مكان زوجها وعاد أدراجه. ووجدت محجوب نائما أو كالنائم، وكان فى حالة إعياء شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة..

* * *

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية صباحا. وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر فى سيارة أحمد عاصم، وكان محجوب أفاق قليلا ولكنه لبث متعبا منهوك القوى، وما اعتور روحه وحالته المعنوية كان أدهى وأمر. تركت نكسة السكر فى روحه آثارها فانقبض صدره، وخمدت نشوته، وامتعضت نفسه، وأحس الدنيا بحواس المريض، وغابت إحسان قليلا وجاءته بفنجان قهوة، وجلست قبالته على الشيزلنج، قالت له:

- أفرطت فى الشراب..

فأحنى رأسه بالإيجاب وإن ذكر الأسباب الأخرى التى كدرت صفوه وقال بسخط:

- لقد قبلت الدعوة إلى هذه الرحلة على غير إرادتى..

فقالت تدافع عن الرحلة :

ـ وما ذنب الرحلة؟ . . كانت رحلة جميلة طيبة . .

فقال بحدة :

ـ يا له من صفيق سى عفت بك هذا!

فابتسمت إحسان، وترددت مليا، ثم غمغمت :

ـ انتهى . . أوقفته عند حده .

فثبت عليها عينيه الجاحظتين الذابلتين المحمرتين متسائلا، فأوجزت له ما حدث ولكنه أبى إلا أن تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة، فروت له الحادثة بحذافيرها، حتى انفجر قائلا :

ـ صفيق . . وقح، ولكنك أحسنت كل الإحسان، يا لهم من أرذال جميعا! . .

واتقدت عيناه، بيد أنه تساءل بأى حق يعيب أى إنسان فى هذه الدنيا وهو ما هو رأيا وفعلا؟ . . وقال وكأنه يجيب نفسه :

ـ نستغفل الناس إذا شئنا، ولكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا .

فتفكرت فى قوله وعلى شفتيها ابتسامة غامضة، وعاد يفكر فى والديه فصدقت نيته على مد يد المعونة إليهما حتى ينفض عن حياته أى ظل للكدر، ثم عجب كيف أن تغيرا هينا فى الجسم قد يذهب ببهجة الدنيا فى غمضة عين، ويحيل لذاتها وصفاءها ألما وكدرا يزهقان النفس. واقترحت عليه إحسان أن ينام، ولكنه أراد أن يرتاح قليلا بمكانه من المقعد، فمضت هى إلى الفراش. وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه هذا التغير فدأب على تناول الحياة بحواس المرض والامتعاض؟! واقشعر بدنه! . . ولم يجد سوى جواب واحد : الانتحار! . هكذا قد يقضى على نفسه من كرس نفسه للأنانية! ومع ذلك يوجد فى هذه الدنيا أناس يؤثرون التعب والأهوال على السلامة، كصاحبه القديم على طه، ولا يمكن أن يسلم مخلوق بأنه ليس لهم لذَّاتهم الخاصة بهم فى نضالهم وكفاحهم، فأية لذة هذه؟! أحقا للإيثار لذة كلذة الأثرة؟ إنه يجل هذه اللذة ويحتقرها. وتمثل له على طه بوجهه الجميل وحماسه المتقد، وذكر عهد دار الطلبة ومأمون رضوان، فتحول رأسه وهو لا يدرى إلى الفراش، ورنت عيناه إلى إحسان وقد غطَّت فى سبات عميق. فبدت له الذكريات فى إطار من الدهشة والأحلام . .

٤٤

واستيقظ فى ضحى اليوم الثانى - الجمعة - وعاودته فى الحال ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة. وغادر الفراش بهمة متوثبة، واستحم بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه، وعاد إلى الصالة، فالتقى بزوجه، وقد سألته برقة:

- كيف أنت الآن؟

فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلَّت على الخجل والارتباك:

- عال.. شكرا لك..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج، ومضى إلى حديقة صولت حيث اجتمع ببعض الزملاء من الموظفين، وشرب كوبًا من عصير الليمون، ولبث ساعة بينهم يتحادثون هونا، ثم غادر المكان، تاركا قدميه للطريق ينقله من شارع إلى شارع مستسلما للذة المشى. فذكر الليلة الماضية فعبس وجهه، وهاله ما بثته فى نفسه من مشاعر الألم واليأس، وما أشاعته فيها من أفكارسود وخواطر ضعف واستكانة. وتولاه خجل لما اعتوره من خور فى الجسم والنفس، وقال لنفسه: «لقد ظفرت حتى الآن بفضل حرية عقلى وقوة إرادتى وتلك الحكمة العالية: طظ.. فلا يجوز أن أفرط فى كنز من كنوزى الغالية!».. أجل، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وخمر ونساء ومال وطعام وترف، فكيف يسمح بأن ينغص عليه هذه اللذات أب مشلول، وخواطر مرض، وغيرة جنونية؟!. وسرعان ما استرد نشاطه وحيويته، وعقليته الصارمة الساخرة، واستقبل الحياة مرة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذى لا يعرف الحدود. وبدا كل شىء كأنما يسير فى مجراه الطبيعى، وكأن الحياة ستظل مذعنة لمنطقه أبد الدهر. وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر، فأثبتت له حوادثه أنه إذا كان يستطيع أن يتحكم فى نفسه فإنه أعجز من أن يدَّعى القدرة على التحكم فى الحوادث..

كان السبت يوم قاسم بك فهمى، وكان محجوب يغادر الشقة فى تمام السابعة مساء ليهيئ للرجل الخلوة المنشودة، ولكن كانت الساعة السادسة حين رن الجرس، ولم يكن الشاب يتوقع قدوم أحد فى تلك الساعة، فدلف إلى الردهة الخارجية ليرى القادم، وفتحت الطاهية الباب فرآه كما أراد. لم يصدق عينيه، وجعل يحملق بذهول جنونى. رأى أباه، أباه دون غيره من البشر، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكئا على عصاه، ملقيا إليه ببصر جامد مكفهر. سمِّر كلاهما فى مكانه. وجمدت عيناهما لا تتحولان. وكابد محجوب فى تلك اللحظة الرهيبة شعورا بالخوف والقنوط والهزيمة لم يشعر بمثله

من قبل، ثم مزق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنه واضح ينم عن الألم والتهكم المرير:

ـ ألم تعرفنى بعد.. لماذا لاتهرع إلى استقبالى؟!

وأفاق الشاب من ذهوله فاقترب من أبيه فى خطى متهالكة ومد إليه يده، ولكن الرجل تجاهلها. فقال محجوب بارتباك وتلعثم:

ـ تفضل يا والدى... تفضل..

فتحرك الرجل متوكئا على عصاه يسير فى خطوات ثقيلة، وقد تقوس ظهره، وتهدم بنيانه، وجعل يتفحص الأثاث والجدران بعين ملؤها الإعجاب الهازئ، ويقول:

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله.. لشد ما تعانى يا بنى مرارة البؤس والفقر!؟

فاشتد ارتباك محجوب وحصر، فما استطاع أن ينبس بكلمة، ها هو ذا والده يملأ الشقة بالفزع وعما قليل يأتى قاسم بك، حقيقتان لا يدرى كيف يمكن أن يجتمعا، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من التفكير فى عقباهما. ترى كيف يذكر غداً هذا اليوم الخطير؟! أيذكره كما يذكر مأزقا خطيرا نجا منه بأعجوبة؟. أم يذكره يوما أسود انهارت فيه آماله جميعا؟، ولم يستطع فى انفعاله الأول أن يحسن التفكير ولا التدبير. وفتح عند ذاك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان، ولعله بعثها للخروج ما سمعت من صوت وحركة غير عادية، فعجبت لوجود الشيخ الغريب، وألقت على هيئته الرثة نظرة إنكار. وحوّل عبد الدائم أفندى إليها رأسه، فلاحت على شفتيه ابتسامة حزينة، وقال بغير مبالاة ملتفتا إلى ابنه:

ـ زوجتك؟!. (ثم حوّل رأسه إليها) أهلا بزوج ابنى، أنا حموك يا عروس!؟.

وحدجت إحسان فى وجه زوجها فهالها جموده وارتباكه وكآبته، وآنست فى عينيه نظرة منكسرة لم ترها من قبل، فلم تشك فى صدق الرجل، ولم تكن تعلم شيئا عما بين الرجلين مما يستوجب الموقف الذى يقفه زوجها، ولكنها لم تتردد عن القيام بواجبها، فاقتربت من القادم ومدت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس. وكان محجوب يرى ما يقع أمامه بعينيه الذاهلتين، ولكنه كان انتقل من ذهول سلبى إلى ذهول إيجابى، فجعل يستصرخ إرادته وعقله لينتشلاه من ورطته وأخذ يفيق من وقع المباغتة فلم يرتح لوجود زوجه، وأومأ لها إيماءة خفية بالانسحاب، فلم تلبث أن تراجعت بلطف. وتوثب بجامع قوته ليمتلك زمام الموقف ويسترد عقله وإرادته، وأعانه على ذلك الخطر الذى يتهدده باقتراب موعد الوزير. أجل ينبغى أن يخفى أباه عن عينى القادم عما قليل ويعالج أمره فى خلوة وهدوء، هو أبوه على أية حال وليس شيطانا ولا قضاء وقدرا، وقال له بصوت رقيق ليِّن:

ـ تفضل معى يا أبتى . .

وأعطاه ذراعه، فلم يرفض الرجل، وأدرك أنه يريد أن يحادثه على انفراد، فنهض بمعونته، وسار به محجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل، ثم أغلق الباب، وكان عقله لا ينى عن التفكير: ما الذى دله على مسكنه؟ ما الذى جاء به؟ وهل من المصادفات أن يجىء فى يوم الوزير وقبل موعده بقليل، وشم فى الجو رائحة مؤامرة نتنة، وتخايل لعينيه شبح الإخشيدى بوجهه المثلث وعينيه المستديرتين، فسرت فى جسده رعدة، وامتلأت نفسه حنقا وكراهية. ترى هل أفشى سره كله؟ . .

رباه أي كارثة ترصده؟ . . ولكن كلا . . أبوه لا يعلم بسره الخطير، وإلا ما استطاع ـ وهو الريفى الغيور ـ أن يتمالك أعصابه، ولكن البغيض جاء به فى الوقت المناسب لعله أن يكتشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أفظع، وتفصد جبينه عرقا باردا . .

وصوَّب الرجل نحوه نظرة ملتهبة وقال:

ـ لماذا تقف أمامى هكذا؟، لماذا لا ترحب بى؟ . . وكيف لا تهنئنى بالشفاء؟

وسكت الرجل الغاضب حتى تمالك أنفاسه ثم استدرك بلهجة ساخرة قاسية:

ـ لشد ما آلمنى ما علمت من فقرك وبؤسك وسعيك عبثا فى سبل الحصول على وظيفة، فحفزنى ذلك على ترك أمك وحدها فى القناطر، والحضور بنفسى لمواساتك، أعانك الله يامسكين! .

واستطاع محجوب أن يتكلم بعد أن أغلق الباب واطمأن بعض الاطمئنان:

ـ أبتى . . لا تتهكم بى . . أنا أعلم أنى أستحق غضبك ولكن دعنى أشرح لك ما التبس عليك فهمه، والحكم لك . .

ـ وهل من حاجة إلى الشرح يابنى؟ . . حسبى أن أنظر فيما حولى لأدرك فى أى شقاء تعيش! . .

فعض محجوب على شفتيه وقال:

ـ أبى . . . ، والله ما غفلت عنك قط، ووالله ما سنحت فرصة لمساعدتك فأهملتها، ولكن ظروفى قاسية رغم هذه المظاهر الخداعة، لذلك لم يرتح لى جنب، وما كان ليقر لى قرار قبل أن أطمئن عليك وعلى والدتى . .

فاشتد اكفهرار وجه الشيخ وقال بحدة وحنق:

ـ ظروفك قاسية أيها الابن البار؟! . . ماذا تنتظر حتى تتفضل علينا بجنيهين؟ أتنتظر الوزارة؟!، إنى أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت تعلم أن والديك يعانيان الفاقة والجوع والتشريد! لقد استصرختك باكيا ولكنى علمت فيما بعد أنى خاطبت ضميرا ميتا. تركتنا للعجز والفقر حتى بعنا أثاث بيتنا، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية،

والماهية الكبيرة، والمسكن الوثير، ولكنك لا تجد فى ذلك كله إلا ظروفا قاسية لا تسمح لك بأن تنقذنا من التسول، أليس كذلك أيها الشاب الهمام؟.

امتقع وجه محجوب حتى حاكى وجوه الموتى، شعر كالمختنق الذى ينتفض ويقتتل عبثا لاستنشاق نفس واحد. ولم يكن كلام أبيه قد حرك قلبه ولكنه أربكه وكرَّبه وأوقعه فى ضيق شديد، فقال:

ـ لشد ما يؤلمنى كلامك يا والدى، أصغ إلىَّ، سأكاشفك بالحقيقة وأصلح خطئى، وأكفِّر عما تتهمنى به من عقوق. يعلم الله أنى كنت سأزف إليك أنباء توفيقى وأمدُّك بالمعونة أول الشهر القادم، لقد وفِّقت إلى وظيفتى منذ شهرين وكنت معدما فكان علَّى أن أهيئ نفسى بالمظهر اللائق، وإلا ضيعت على نفسى فرصة لا تسنح فى حياة مرتين، فاقترضت مبلغا كبيرا ما زلت مدينا به، هكذا فزت بالوظيفة ولكن ما زلت أكابد الارتباك والفاقة، هذه هى الحقيقة.

فهز الرجل رأسه فى ريبة وقال بامتعاض:

ـ إنك تعنى أكثر مما ينبغى بالمظهر اللائق، والمسكن الأنيق، والمآدب الفاخرة!..

فأدرك محجوب أن الإخشيدى وفى وشايته حقها، وقال وهو يغالب عواطف الحنق والغضب:

ـ هذه المظاهر وإن بدت كمالية إلا أنها من ضرورات وظيفتى..

ـ وهل من ضرورات هذه الوظيفة المجيدة أن نتضور جوعا؟! فقال الشاب وهو يبذل جهد المستميت ليدارى غضبه وحنقه:

ـ كلا يا أبى. لقد أبنت لك عن حسن مقصدى فلا تثبط همتى بنقمتك ودعنى أتم نجاحى..

ـ أحسبه لا يتم إلا بقتلنا..

ـ بل سيتم بما فيه سعادتنا جميعا..

وسكت عبد الدائم أفندى مليا وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظن، ثم قال متسائلا:

ـ إذا كانت هذه حالتك فكيف تزوجت؟!.. لماذا لم تؤجل الزواج إلى ميسرة؟! وكيف تتزوج دون إخبارنا فضلا عن الرجوع إلى رأينا؟.. وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذى أكَّد له جهله بالسر الخطير، وقال بصوت خفيض:

ـ كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث فى أيامنا هذه كثيرا، لقد صاهرت أسرة محترمة تمت إلى الوزير بصلة القربى وكانت الزيجة من أسباب ارتباكى، ولعلك أحطت الآن بالظروف القاسية التى اكتنفت حياتى فى الشهرين الماضيين.

بيد أن الرجل لم يكن مطمئنا، واشتدت بالشاب حالة التوتر والاستياء، وشعر كلاهما بأن لديه ما يقوله، ولكن جرس الباب الخارجى رن بغتة، وفتح الباب ثم أغلق: وسمعا وقع أقدام ثقيلة فى الدهليز يعرفها محجوب حق المعرفة . .

٤٥

وخفق قلبه بعنف، وسرت فى جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان، وتخايلت لعينيه مرة أخرى صورة الإخشيدى البغيضة. ترى كيف تنتهى هذه الليلة؟ أيذكرها فى المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكى؟. وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله:

ـ هل كنت تنتظر ضيفا؟

فقال بلا تردد وهو يتظاهر بالهدوء:

ـ نعم . . هذا حمى جاء لزيارة كريمته . .

ـ ألا تذهب للقائه؟

فتلجلج لحظات ثم قال بحزم:

ـ كلا، ستجد زوجى عذرا تنتحله لغيابى، وسأقدمك إليه فى وقت آخر . . !

وساد الصمت، وقد شعر الشيخ بأن ابنه يتأفف من تقديمه إلى حميه فنكس ذقنه فى سكون وحزن. وجلس محجوب قريبا من الباب يحاول جهده أن يضبط عواطفه، واختلس من والده نظرات غاضبة تنم عن حنقه وحقده. ينبغى أن تنتهى الليلة بسلام. أحس فى باطنه بأنه إذا انتهت الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد. ولكن ما الذى يدعوه إلى الخوف؟! قد بلغ الوزير المكان الذى يريده بسلام، ونمت حالة والده على أنه يجهل سره الخطير، فما عليه إلا أن يأخذ نفسه بالصبر والانتظار حتى يذهب البك ـ كما جاء ـ بسلام. بيد أنه لبث ـ على رغم ما تبشر به الحوادث ـ قلقا مغتما. وزاد من توتر أعصابه أن والده عاد يقول بنبراته الدالة على الإنكار والمرارة:

ـ لو كان قلبك حنونا يابنى لاستهان بضرورات الوظيفة التى تعتذر بها، ولشق عليك أن تترك والديك يتضوران جوعا. وأعجب لوالدتك ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون، ونبذت ما نقل إلينا عنك، وقالت لى: «ستبدى لك الأيام أنى أعرَف بابننا منك» فليتها جاءت معى لترى بعينيها . . !

وشعر محجوب بضجر، وضاق بالرجل الذى لولا وجوده لم يكن فى المأزق الذى هو فيه، وتوثب للرد عليه، ولكن الجرس دق مؤذنا بقادم جديد، فوجب قلب محجوب

وجيبا مؤلما. من يكون الطارق؟ هل من جديد؟! وفتحت الطاهية ثم سمع صوتًا يتكلم بحدة، فتميز الشاب غيظا ومضى إلى باب الحجرة وفتحه، فرأى سيدة تزيح الطاهية من طريقها وتدخل فى حالة هياج عصبى شديد، كانت السيدة أرستقراطية المظهر، أنيقة الزى، فتولته الدهشة والانزعاج، ثم ارتاع وذعر وأعيا عليه القول، ورأته المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة، تقدح عيناها شررا، حتى وقفت أمامه وسألته بازدراء:

- أأنت المدعو محجوب عبد الدائم؟

وكان محجوب فى حالة جعلته مهيأ للذعر والتشاؤم، وحدثته نفسه المضطربة بأنه ضحية مؤامرة غادرة، أبوه أداة من أدواتها القتالة، وغلبه القنوط، وأيقن أن مجده بات معلقا بخيط وشيك الانقصاف. نظر إلى المرأة بإنكار وقال بصوت منخفض مشفقا من صوتها المرتفع الذى يصك أذنى أبيه:

- نعم يا سيدتى أنا هو..

فعبست حانقة ولوت شفتيها اشمئزازا وقالت بلهجة قاسية:

- هلا دللتنى على الحجرة التى ينفرد فيها زوجى بالسيدة المصون زوجك؟

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقه شطرين، وخارت قواه، وأوشك أن يذهل عما حوله، وتحولت المرأة عنه كالمجنونة إلى باب المخدع، وأدارت الأكرة، ولكنها وجدت الباب مغلقا، فدقته براحة يدها بشدة صائحة بغضب جنونى:

- افتحا الباب، افتح أيها الرجل والوزير الخطير، لقد برح الخفاء ورأيتك بعينى داخلا هذا الماخور.. افتح وإلا حطمت الباب. وبلغ اليأس بالشاب نهايته، فوقف مكانه لا يبدى حراكا، وكأنه يرى فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يناط بها مصيره، وكأنه كبر عليه أن يصدق أن مجده الذى حشد له ما حشد من قوة وفكر، وبنى عليه ما بنى من آمال، يمكن أن يصير فى بعض الدقيقة أثرا بعد عين. وشعر بوالده يقترب منه ويسأله بصوته الذى بات يمقته مقتا:

- ماذا هنالك؟.. ماذا تقول هذه السيدة؟

ولكن لم يكلف الشاب نفسه مئونة الرد عليه، وكأنه لم يسمع قوله، فلم يعد يباله، ولم تكف المرأة عن دق الباب، وصاحت حانقة:

- إنى أنذرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعا فتحته كرها بقوة الشرطة. فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيدة، وقال لها بصوت ينم عن الرجاء:

- سيدتى..

ولكنها لم تتركه يتم كلامه، فتحولت إليه ولطمته على وجهه بشدة وغل، وصاحت به:

ـ لا تنبس بكلمة أيها القواد الخسيس . .

فتراجع محجوب مروعا إلى موقف أبيه وهو لا يدرى به . وانفتح عند ذاك الباب وبرز منه قاسم بك فهمى ثم أغلقه وراءه ، وسمع صرير المفتاح من الداخل ، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات ، ولكن ارتباكه كان أعظم مما تنفع فيه المداراة ، وقال لزوجه بسرعة :

ـ هلمى معى إلى الخارج من فضلك . .

فصاحت به وقد جنت غضبا :

ـ افتح هذا الباب ، لا بد من فتحه .

فقال لها بصوت خفيض :

ـ خفضى من صوتك يا هانم . . هذا لا يليق بك . .

فصاحت به بتهكم :

ـ حدثنى عما يليق وعما لا يليق يا معالى البك . هل من اللائق يا ترى أن أضبطك فى مخدع زوج هذا القواد الصفيق ! ، وهل يسرك أن يطلع ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة ؟ !

ـ كفى . . كفى ، هلمى معى ولنسوين خلافنا فى بيتنا .

وحاول أن يمسك بساعدها ، ولكنها نترت ساعدها من يده باحتقار وصاحت به :

ـ سأغادر هذا البيت الملوث ، ولكن لا تمن نفسك بتسوية الخلاف . لقد فاض الإناء ، فلا تفاهم بعد اليوم ، ولأنتقمن منك انتقاما يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين .

ومضت المرأة نحو الباب الخارجى ، والبك فى أعقابها ، وذهبا معا .

* * *

وتمتم محجوب بصوت مبحوح :

ـ انتهى كل شىء .

أعجب بها من حقيقة ! أيخفق ذاك الكفاح الجبار ولما يتسلم ماهيته الجديدة ؟ .

أتصاب الحظوظ كالأعمار بالسكتة القلبية ؟ !

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزونا :

ـ مامعنى هذا يا بنى ؟ .

وكأن هذه الجملة نفط ألقى على صدره الملتهب ، فالتفت نحوه هائجا تقدح عيناه شررا ، وقال بحنق وحقد :

ـ انتهى كل شىء ، انتهت الوظيفة والماهية . هلم نتسول معا . .

وارتسمت فى عينى الرجل الذابلتين نظرة زائغة ذاهلة، وبدا فى حيرة قتالة وكرب عظيم. لم يصدق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه. كابد الألم الممض والغضب المختنق. ولولا ما آنس من قنوط ابنه وهذيانه لا نفجر بركانه. لم تنته الوظيفة والماهية فحسب، ولكن ابنه نفسه انتهى، ولم يعد ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده: لا تسألى عن محجوب، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات. وشعر عند ذاك باعياء وخور، وبأنه يسقط إن لم يطمئن إلى مجلس، فولى الشاب ظهره، وعاد أدراجه فى خطوات ثقيلة، متوكئا على عصاه يكاد يقع على وجهه.

وارتمى محجوب على مقعده فى الصالة، مرتفقا يد المقعد، مسندا رأسه إلى راحته. وكان السكون شاملا كأنه بيت مهجور، وكل شىء بموضعه كأن أمورا خطيرة لم تنقلب رأسا على عقب. هل تستطيع روحه الثائرة أن تصمد لهذا الشلال العارم من الحظ العاثر؟! هل يمكن أن ينبرى لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة بدرعه المعهود: طظ؟ وما الحيلة إذا لم يستطع؟.. ما عسى أن يصنع أنانى مثله، لا يهمه فى الدنيا شىء إلا نفسه، إذا تألب الشقاء على سعادته؟ أمامه سبيل واحد هو الموت!. تبا لحظة! كيف انتهى مجده بهذه السرعة الجنونية؟! ألا تكتظ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين تترفق بهم حتى النهاية؟! وتنبه من تأملاته على وقع أقدام خفيفة، فرفع رأسه المثقل فرأى إحسان أمامه تطالعه بوجه تعلوه صفرة الموت. التقت عيناهما فى صمت أليم وكأن كليهما يقول لصاحبه: «أهذه نهاية الكفاح والتعب!».

وخرجت عن صمتها أخيرا فسألته بنبرات متضعضعة:

ـ هل ذهبوا؟

فأجابها فى مثل نبراتها:

ـ أجل.. كما ترين.

فترددت هنيهة ثم سألت:

ـ ما عسى أن ينتظرنا؟

وكيف يدرى هو! بيد أنه هز رأسه وقد أخذت يسراه تشد حاجبه، وقال:

ـ لا أعلم الغيب. يحتمل حدوث أى شىء، ولكن لا مفر من التشاؤم، فالأمر المؤكد أن أحلامنا تبددت. هذه هى الحقيقة. وساد صمت ثقيل. ولاحت فى عينيها نظرة غائبة، وجعلت تستحضر من الماضى ما أودعته من ذكريات، ذكرت آمالها وكيف خابت واحدا بعد آخر، فاعتلج بصدرها الألم والحسرة حتى اغرورقت عيناها، وأغرق محجوب فى أفكاره مرة أخرى، ولكنه لم يستشعر الندم ولا أقر بالخطأ، كلا ولا عدل عن رأى، وراح يتساءل هل يتكشف الغد عن حياة جديدة أو لم يبق له

إلا الموت؟! بيد أنه غلب على أمره هذه المرة فاستسلم لليأس والقنوط، وغشيت عينيه سحابة مظلمة، وحاول جهده أن يهيب بروحه المتمردة، وغمغم بصوت لا يكاد يسمع هامسا: «طظ» ولكنها نمت ـ على خلاف عادتها ـ عما يكنه فؤاده من اليأس والاستسلام.

٤٦

اجتمع الرفاق الثلاثة ـ على طه وأحمد بدير ومأمون رضوان ـ بإدارة مجلة النور الجديد التى يصدرها على طه. وكان مأمون رضوان يكثر من اجتماعه بصاحبيه ليتزود منهما قبل سفره الوشيك. ولم يكن للناس من حديث في تلك الأيام إلا حديث الفضيحة الكبرى التى لاكتها الألسن فى كل مكان. قيل: إن حرم قاسم بك فهمى همت بنشر بيان فى الصحف عن الأسباب التى أدت إلى طلاقها من زوجها. وقيل: إن بعض الجهات تدخلت فى الأمر وأقنعتها بالعدول عما كانت أجمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير، وسحب مذكرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان. استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولكنها لم تعد تخفى على أحد. وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد، لأنهم لم ينسوا زميلهم القديم، ولا نسوا عهد الزمالة والجيرة بالجامعة ودار الطلبة. وكان على طه أشدهم ألما، ولكنه لبث ألما دفينا يعتلج مع بواعثه الباطنة وقد قال أحمد بدير:

ـ أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهترة؟. أتذكرون طظ المشهورة؟.. طالما حسبت ذلك لغوا وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل..

فقال مأمون رضوان بنبرات تنم عن الأسى:

إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيدا سهلا لكل شر.

فابتسم على طه على حزنه وشجنه، وقال:

ـ اسمح لى أن أحتج على هذا الاتهام!

فقال مأمون رضوان مستدركا:

ـ أنت لك إيمانك الخاص وإن كنت أراه دون الكفاية..!

وابتسمت عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس أحد بكلمة:

ـ ترى أنصير فى المستقبل عدوين لدودين؟

فقهقه أحمد بدير ضاحكا وقال:

- لا شك فى هذا . ستهاجمك هذه المجلة التى تباركها الآن بتمنياتك وستتهمك غدا بالرجعية والجمود، وستتهم أنت صاحبها - صديقك - بالزيغ والكفر والإباحية، ومن يعش يره! .

وابتسم الأصدقاء الأعداء . ثم قال مأمون رضوان بثقة وإيمان :

- مأساة اليوم هى مأساة الزيغ!

فهز على طه رأسه فى شك وقال :

- كم فى المؤمنين من أوغاد . فليست الحقيقة ما ترى . وصاحبنا البائس وحش وفريسة معا، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته . وهنالك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم، فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعس . فالمجتمع الذى نعيش فيه يغرى بالجريمة، بيد أنه يحمى طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء . أحب أن أسألكما : هل يكفى أن يستقيل ذلك الوزير؟

فقال مأمون رضوان :

- ما كان عمر بن الخطاب يتردد عن رجمه!

فقال أحمد بدير ساخرا :

- دعنا من عمر . إن مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشىء من النسيان . وسوف يقبع عاما أو عامين أو أكثر فى نادى محمد على، وعسى أن تخرجه غدا المظاهرات الوطنية عن عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرة أخرى، فيعيد سيرته الأولى، أو يلعب دورا جديدا، ومن يعش يره .

فقال مأمون رضوان ممتعضا :

- حقيقة المسألة أنى أرى الخير متعلقا بجوهر الروح، وتريانه، أو يراه الأستاذ تابعا للرغيف . فإذا حسن توزيع الرغيف محق الشر . . !

فقال على بلهجة لم تخل من حدة :

- إنى لا أوافق على هذا الوضع للمسألة، وإنك لتعلم بأني أهيم بلذات الروح . وليس المجتمع الذى نحلم به بخال من الشر، فلا خير فى مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال، ولكن المجتمع الذى نحلم به يمحو شرورا نراها فى وضعنا الحالى ضربا من القضاء والقدر .

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكا عاليا وقال :

- لماذا تتعجلان المعركة ولما يأزف موعدها؟!

وابتسم الرفاق، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنى، وكأنهم يتساءلون معا :

«ماذا تخبئ لنا أيها الغد؟!» .

نجيب محفوظ

١ ـ مصر القديمة	ترجمـــة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ ـ الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ ـ الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ ـ دنيـا اللــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ ميـرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القـــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صـــدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤
٥٦ ـ المسرحيات	مسرحيات	٢٠٠٦

رقم الإيداع ١٧٥٠٥/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 6 - 1779 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227